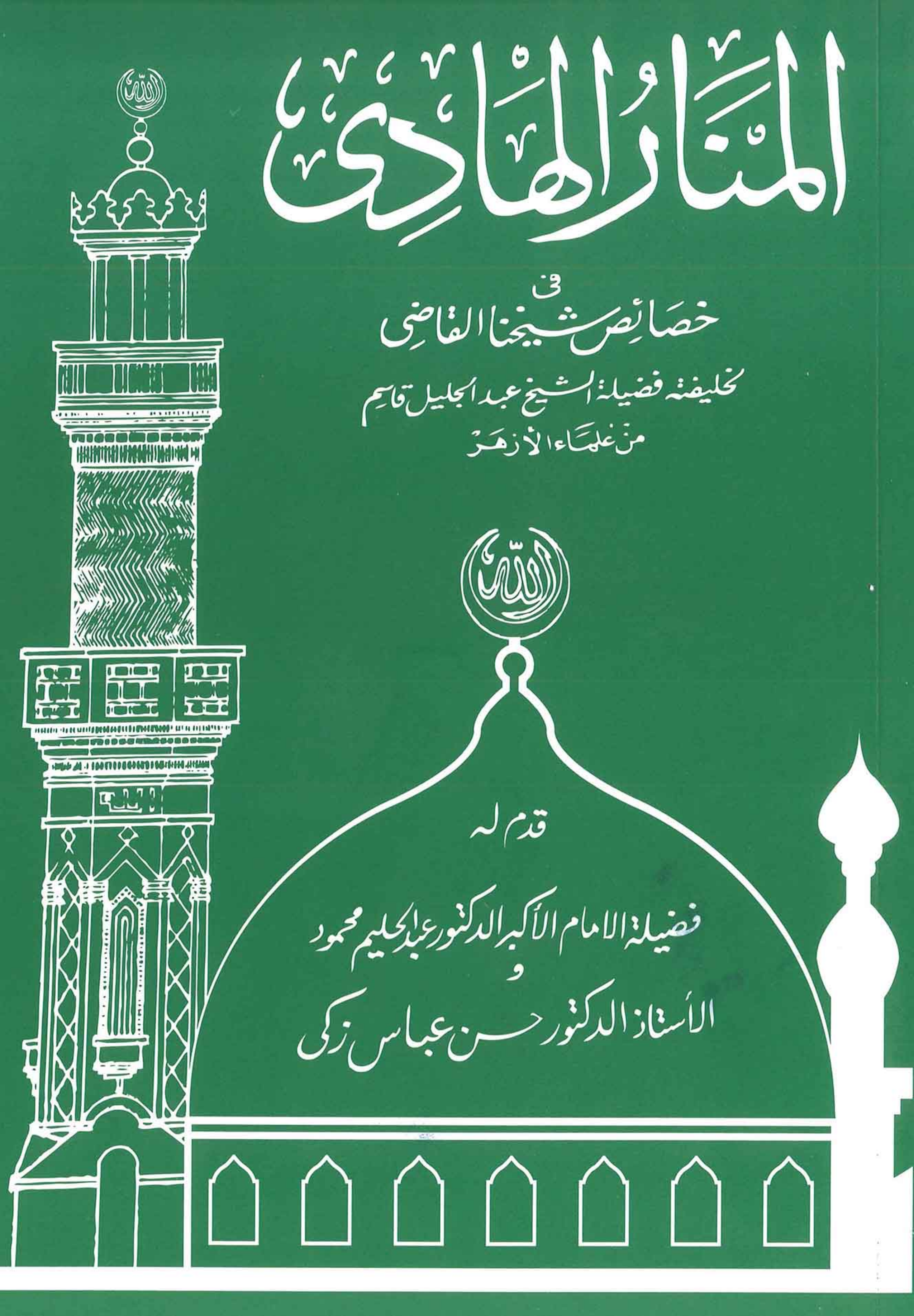
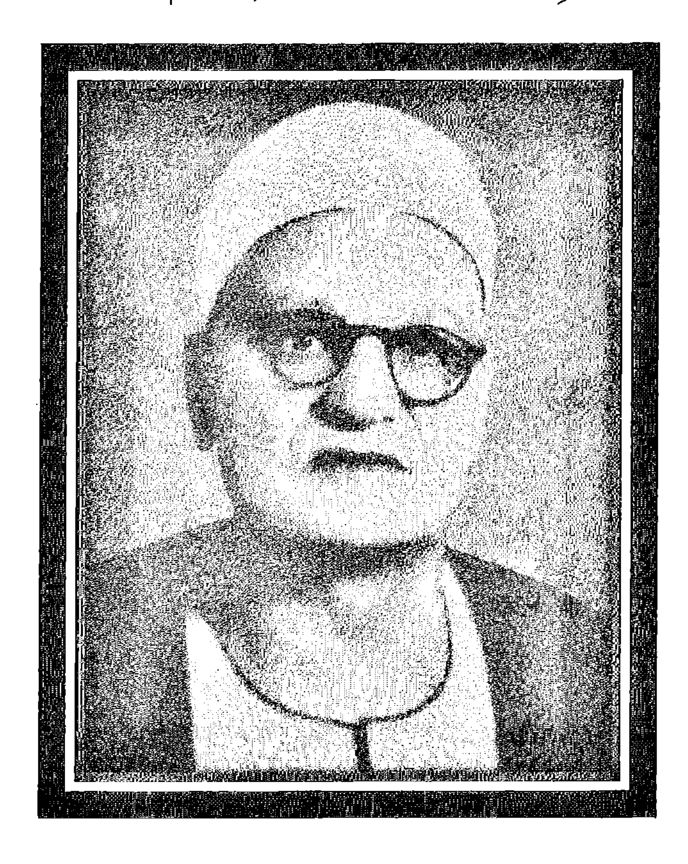

المنار الهادى
فى
خصائص شيخنا القاضى
لخليفته فضيلة الشيخ عبد الجليل قاسم
من علماء الأزهر
الله
قدم له
فضيلة الامام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود
و
الأستاذ الدكتور حسن عباس زكى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾



فضيلة العارف بالله سيدى الشيخ عبد الفتاح القاضى

كـنتَ بالله راضـيا مَرْضيا   و قضيْتَ الأيامَ عــفًّا نقيًّا

طاب فردوسُكَ المطَّهرُ لَمَّا   طِبتَ في الناسِ بالهِدايةِ حيًّا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾



فضيلة العارف بالله سيدى الشيخ عبد الجليل قاسم

ولد في ٢٦ ذو القعدة ١٣٣٩ الموافق ١ اغسطس ١٩٢١

المنتقل في ١٩ المحرم ١٤١٩ الموافق ١٥ مـــايو ١٩٩٨

فكان الكتاب للسالكين وطالبى الهداية علما ومنارًا، وللسائرين وقاصدى الحق طريقا ومسارًا، وللواصلين وأهل المشاهدة دارًا وقرارًا، يجد الكل فيه بغيته حسب حاله.

فقد أوضح و أبان للسالكين فى عبارة بليغة رائعة، ورغب وحفز الطالبين فى إشارة دالة راشدة، وعلّم وعرّف أهل اليقين بسرٍ وهمة فائقة؛ غير خفية على الخاصة لمن لهم بصيرة ذائقة.

ولا عجب فقد كتبه – بمداد المعرفة والتمكين – من سَرَى به شيخه فى مدارج السلوك الشائكة فوصل به فى الشريعة والحقيقة لأقصى الإمامة الجامعة الراشدة، ثم عرج فى مراقى تعرفاته فأذاقه من مقامات الخصوصية (ماكذب الفؤاد ما رأى)، فكان الكتاب جامعا حاويا لعلوم السابقين، واضعا منهاج القرآن والسنة أساسا، ومشيدا عليها الحقائق لمريدى الحق نبراسا، مظهرا درر الفيوضات وبكر النفحات والواردات مما لم يسطر فى كتاب من قبل، أو تكلم به لسان عدل، فكان دالا على الحقيقة مبينا فضل الدليل، ومظهرا لعطاء الله وعليّ صفاته من خلال سيرة علَم من أعلام الدلالة عليه، ويشهد الكتاب بما حواه من بلاغة عبارة، وعلم إشارة، دراية وتمكن ومقام كاتبه، ولاغرو فهو مظهر أدب وعلم شيخه، وهو وارثه وخليفته الأول وتلميذه الأنجب، قام عَلما على الطريق والهداية بضع وثلاثين عاما بعد شيخه، وقد انتقل للرفيق الأعلى فى يوم الجمعة ١٩ من المحرم ١٤١٩ الموافق ١٥ من مايو ١٩٩٨ بعد أن ترك لنا ذخيرة من العلم منها هذا الكتاب الذى بين أيدينا، جزى الله كل من ساهم في هذا الإخراج للكتاب خيرا، وحقق له من خيرى الدنيا والآخرة ماتمنى، ونفع الله به كل من طالعه وكتب له من نوره النصيب الأوفى.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

خادم الطريقة القاضية الشاذلية

شبلنجة فى جمادى الأول ١٤٣٦

مارس ٢٠١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

فضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين.

وبعد

فكيف عرفت الشيخ عبد الفتاح القاضى؟

صلينا العصر فى رحاب مولانا الحسين رضوان الله تعالى عليه، وكنا على موعد فى المسجد المبارك.

ثم يممنا شطر محطة مصر لنأخذ القطار إلى بلد القطب الملثم.

كان ذلك فى شهر أكتوبر سنة ١٩٦٠، وكنا نستقبل فى المساء الليلة الكبرى لمولد السيد البدوى ﷺ.

وركبنا القطار فى صعوبة، وحمدنا الله على أن وجدنا فى القطار مكانا للوقوف.

وقفنا لنسير مع الزمن متحدثين تارة وصامتين أخرى،

وكلنا أمل فى أن نحظى بليلة تتسم بالإشراق وتفيض بالمدد فى رحاب شيخ العرب.

وسار القطار...

وكـان فـى مواجهتنـا - جالسـا - رجـل ريفـى تبـدو عليـه سمـات الصـالحين، يلـبس جلبابا من الصوف، وعلى رأسه عمامة، وعلى جبهته علامة الإقبال على الصلاة.

وكان على يمينه سيدة ريفية هى الأخرى، لعلـها أختـه أو لعلـها زوجتـه، فقـد كـان يتحدث إليها فى ألفة بادية، وفى ابتسامة سهلة لا تكاد تفارق شفتيه، لقـد كـان منظـره وهـو يتحـدث مـع السيدة يشـعر بأنـه نسـى العـالم مـن حولـه، وتلاشـى بالنسـبة لـه كـل شىء. كان وجهه سمحا، وقسماته لا توتر فيها، وكـان كـل شـىء فيـه يـدل علـى أنـه لا يحمل فى قلبه كراهية لأحد، ولا حقدا لمخلوق، لقد كانت ترتسـم علـى وجهـه صـورة البراءة أصفى ما تكون البراءة.

وراقنـى منظـره، منظـر البـراءة والسـماحة، وراقنـى أن أنظـر إلى هـذا الوجـه السـمح وهذه البراءة البادية، وتعلقت عيناى به.

ويبدو أنه وصل فى حديثه مع السيدة إلى نهاية قصة أو خاتمة حديث، فأخـذ يـدور بوجهه فيمن حوله، جالسين وواقفين، ثـم نظر إلىَّ فمد عينيه نحوى وتركزت عيناه علـى وجهى، وزال من وجهه شىء قليل من سماحتـه، وحـل محلـها نـوع خفيـف مـن التـوتر، وبدا عليه الاهتمام.

وأردت أن أنهى هذا الوضـع فاتجهـت إلى صـديقى أتحـدث إليهمـا متكلفـا الحـديث، وكان أحدهما بجوار الرجل، فانتهز الرجل فرصة صمت منا واتجـه إلى مـن بجـواره قـائلا له: بشر صاحبك - مشيرا إلىّ - بالحج هذا العام.

وأخذت الأمر على أنه فأل حسن، وعلى أنه بشرى من الجائز أن تتحقق، وكان فى هذا النبأ على كل حال تخفيف من الشعور بزحمة القطار، وسلوى عن حرارة الجو.

ومضـت الأسـابيع والشـهور وقـرب موعـد الحـج، ثـم أعلنـت الجرائـد موعـد قبـول الطلبات.

ولم أكن قد إتخذت العدة للحج فلم أتقدم بطلـب وإن كنـت فـى شـوق ملـح للحـج وللزيارة إذ لم أكن قد أديت الفريضة بعد.

وحينما أعلنت الجرائد عن موعد قبول الطلبات، تذكرت الفأل الحسن، وتذكرت البشرى التى... يجوز أن تتحقق.

ولكن ها هى ذى المدة المحددة لقبول الطلبات تنقضى يوما فيوما، حتى أوشكت على الانتهاء.

فلم أحرك ساكنا، وكأنى بموقفى هذا أتحدى نبوءة هذا الشيخ، تلك النبوءة التى ... يجوز أن تتحقق...ثم... ثم انتهت المدة وضعف بانتهائها الأمل فى أداء فريضة الحج هذا العام، وإن لم يضعف الأمل فى أن تحدث معجزة.

وبدأت أفواج من استجابوا للأذان بالحج تتجه نحو الأرض المقدسة، تحييهم الزغاريد، وتودعهم الدعوات.

وكانت محطة كوبرى الليمون تقع فى طريقى اليومى المعتاد، فكنت أرى هذا المنظر السار البهيج وأتحسر إذ لم أكن فى الركب.

ولم يبق على سفر آخر فوج إلا ستة أيام.

وذات يوم...

فى صباح اليوم السادس قبل سفر آخر فوج؛ اتصل بى أحد الأصدقاء يستفسر عن أسماء كتب الشيخ عبد الواحد يحيى، وعن كيفية الحصول عليها ثم قال: إن السيد/ حسن عباس زكى يحب أن يشترى بعضها أو كلها إذا أمكن ويحب أن يعرف أسماءها والسبيل إلى شرائها.

وبعد حديث بينى وبين هذا الصديق إتفقنا على أن أحضر له المجموعة كاملة لينظر فيها السيد الوزير حتى إذا ما راقه بعضها إتصلنا بالمكتبات الفرنسية فى القاهرة لتحضر الكتب من باريس.

وفى عصر اليوم نفسه سلمت صاحبى مجموعة الكتب.

وفى مساء اليوم نفسه أيضا، مر على صاحبى قائلا: إن السيد الوزير يحب أن يراك، فهيا بنا لزيارته، ولم أكن قد التقيت به من قبل.

والتقينا بالسيد الوزير وأخذنا نتحدث عن الشيخ عبد الواحد يحيى، ثم ذهب السيد الوزير ليجيب على نداء التليفون، وأراد صاحبى أن لا يمر الوقت فى صمت وأن يقطعه بالحديث، فقال كعادة الحجاج: ألا ترغب فى شيء من الحجاز؟ منتظرا أن أقول له سبحة مثلا، أو شيئا من هذه الأمور التى يتزود بها الحجاج فى عودتهم.

فرأيت نفسى مندفعا إلى أن أقول له فورا: وكأنى مسخر بقوة لا قبل لى بردها،

نعم أرغب فى أمر سهل بالنسبة لك وأرجو أن تقوم به مشكورا. وتهيأ صاحبى لسماع الطلب فى انتباه ظاهر.

فقلت: أرجوك أن تقف أمام الضريح الشريف وتقول: إن عبد الحليم يقبل اليد الشريفة، ويرسل تحياته، ويبلغ أشواقه إلى سيده رسول الله، ويرجو منك يا أكرم الخلق على الله أن تدعوه لزيارتك، فإنك إذا فعلت زالت كل العقبات، وأتى يسعى ليلبى النداء.

وقال صاحبى فى نوع من التأمل البادى على ملامحه:

أرجو أن تكون قد استجيبت، ولعلها قد استجيبت.

وانتهى أمير الحج من الحديث التليفونى- فقد كان السيد/ حسن عباس زكى هو أمير الحج فى ذلك العام- وجاء، فذكر له صاحبى ما تحدثنا به فى غيبته.

فقال أمير الحج: إنه يدعو الله أن يتحقق الرجاء، وانتهى الحديث عند ذلك.

ثم اتفقنا على أن نذهب سويا إلى منزل الشيخ عبد الواحد يحيى لزيارة أسرته، وليأخذ السيد الوزير صورة أوضح عن حياته.

ولن أنسى صورة السيد الوزير وهو واقف فى غرفة المكتبة بجوار المكتب الذى كان يجلس عليه الشيخ عبد الواحد قارئا وكاتبا،وقف مستغرقا وكأنه يسافر بروحه فى الزمن عودة إلى الماضى، يريد أن يتعرف إلى الشيخ فى حياته، أو كأنه بعبارة أدق يسافر فى الحاضر إلى عالم الأرواح، يريد أن يرى فى عالم الغيب صورة الشيخ الحقيقية.

إن شيئا من آثار الشيخ عبد الواحد رضوان الله عليه، ما زال باقيا– لا شك– فى هذا المكان. وخيل إلى حينئذ أن السيد الوزير بروحه الشفافة، وبروحانيته القوية، وببصيرته النافذة ينطلق مسترشدا بالأثر إلى... صاحب الأثر.

إن عبير ذلك الشيخ الذكى، ما زال يملأ أرجاء المكان، ولا يزال الأريج الطيب يعطر الجو، يشعر بذلك كل من رق شعوره، وشفت نفسه وأنار الله بصيرته.

وافترقنا،

وفى اليوم التالى– الخامس قبل سفر آخر فوج – بينما أنا جالس فى كلية أصول الدين مشتركا فى أعمال الإمتحان، إذا بالنداء: احضر لاتخاذ الإجراءات للحج فقلت: صلوات الله وسلامه عليك يا أكرم الخلق على الله.

وتكرر اللقاء بأمير الحج أثناء الحج، ثم لم ينقطع الاتصال به بعد العودة وفى يوم من الأيام دعانى السيد الوزير لتناول الغذاء فى منزله.

وكان الشيخ عبد الفتاح القاضى هناك بسمته الوقور، وهيبته المطمئنة، ووجهه المشرق نورا...

وكان يتحدث:

ولم يكن الشيخ عبد الفتاح القاضى يتحدث حديثا شعبيا، ولا حديثا مألوفا، وإنما يتحدث حديث قمة، إنه يفاجئ الحاضرين بالمشكلة، يشرحها باعتبارها مشكلة ويوضح جوانبها من حيث الإشكال ثم يطلب من السامعين حلها.

وما كان رحمه الله يطلب الحل إلا ليثير إنتباههم بصورة أعمق. حتى إذا كان انتباههم كاملا بدأ فى ذكر الحل.

هذه المشاكل كانت تدور حول آيات من القرآن، فيرى السامع فى النهاية أن القرآن ما زال بكرا.

وتدوركذلك حول أحاديث للرسول ﷺ فيرى السامع فى النهاية أيضا أن الرسول ﷺ أوتى حقا جوامع الكلم.

وهكذا كانت مجالس الشيخ: إنها تفسير للقرآن الكريم، أو شرح للسنة الشريفة.

لقد كان الناس ينسون الدنيا فى مجلسه، ولم يكن مجال فى مجلسه للغو الحديث، ولا للزور والباطل، سواء ألبسا هذا الزى، أم ذاك، لم يكن للشيطان إلى مجلسه من سبيل.

هذا التفسير، وهذا الشرح، أهما عقليان؟

أكان الشيخ يتحدث عقليا؟

أكان يتحدث علميا؟

أكان يتحدث إلهاميا؟

إن العقل والعلم والإلهام، إن البصيرة والإشراق والنص، إن كل ذلك، كان يتكاتف ويمتزج، ويتألف منه باقة ترضى الذوق المترف والعقل الراشد، والتدين المستنير.

لقد فوجئت بالشيخ: فوجئت به شخصية مكتملة متناسقة، وفوجئت به شخصية قوية مسيطرة، وفوجئت به شخصية ودودة متحببة، وفوجئت به شخصية عالمة ناقدة، وفوجئت به شخصية ملهمة تستمد النور من منابع النور.

لقد كانت الأعين معلقة به، والآذان مشدودة إليه، والعقل يدوز فيما يهيئه من مجال لتفكيره.

والقلب راض مغتبط.

ثم يسكت الشيخ ويتجه نحو الشيخ عبد الجليل ويقول له، فى مودة بادية: (تكلم أنت الآن يا ولد يا عبد الجليل).

وهذا الذى يخاطبه الشيخ بقوله (يا ولد يا عبد الجليل) من علماء الأزهر النابهين، يعمل مدرسا بوزارة التربية والتعليم، فنى فى الشيخ حبا، وإجلالا، وتقديرا، وعيناه دائما معلقتان بالشيخ، وسمعه على الدوام مصغ إلى الشيخ.

إنه يسمع من حديثه ويرى ما لا يكاد يرى من إشاراته، ويلبى كل ما يريد الشيخ من أمر ولو لم يعلن الشيخ عن رغبته.

ومع أنه فنى فى الشيخ فإن شخصيته بالنسبة للآخرين غير فانية ولا خفية.

إن أتباع الشيخ يعرفون ذكاءه اللماح، وعلمه الجم، واتزانه فيما يأتى وفيما يدع، ويعرفون تصرفه الحكيم فيما يعرض لمجتمعهم الخاص من مشاكل، ويعرفون إجتهاده فى العبادة، ويعرفون حب الشيخ له...

ويقوم الشيخ عبد الجليل ويتحدث مفسرا آية أو شارحا حديثا.

وقد أمره الشيخ فى تلك الجلسة أن يفسر قوله تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [الفرقان:٤٥]

وقلت فى نفسى حينما سمعت أمر الشيخ له بتفسير هذه الآية،وماذا عسى أن يقول الشيخ عبد الجليل فى هذه الآية الواضحة المعنى، السلسة التركيب؛ إن مجرد قراءتها بيان لمعناها.

وتحدث الشيخ عبد الجليل فأجاد وأفاد وبهر.

وكان من الواضح أن الشيخ يعد الشيخ عبد الجليل للخلافة، لقد كان يربيه بالتعليم، ويربيه بالأوامر، ويربيه بالعبادة، ويربيه بالصمت.

لقد كان يهيئه ليملأ مركز المرشد بعده.

ولقد كان عند الشيخ عبد الجليل الإستعداد التام للخلافة.

وقد كان انتهاء الشيخ عبد الجليل من كلمته إيذانا بانتهاء الجلسة.

وافترقنا جسمانيا وبقيت ذكرى الشيخ فى القلوب حية نابضة.

وتكرر اللقاء بالشيخ فى داره بشبلنجة، وفى القاهرة.

وإذا أردنا الحديث عن خصائص فضيلة الشيخ القاضى ومناقبه رضى الله تعالى عنه فليس أصدق ولا أوضح مما ذكره خليفته فضيلة الشيخ عبد الجليل قاسم فى غضون هذا الكتاب من رجولة مبكرة تجلت فيه، فما أن خطا خطواته الأولى، فى طريق الشباب حتى خالط الرجال، وجالس أصحاب الرأى واستمع منهم وأصغى لحكمهم؛ فبدأ يسير سيرهم، حتى لقد كان أحيانا يشير عليهم فيجدون عنده الرأى، فاشتهر بينهم وعرف عندهم بالرأى السديد، والحكم العادل النزيه، فصار الشيوخ والمسنون من أهل البلدة؛ وذوو الخبرة والتجربة يستعينون به ويستشيرونه فى مهام الأمور، ويدعونه فى مجالس الصلح. ويصحبونه لفض المنازعات، وللحكم فى القضايا والخصومات.

وكم كان جميلا أن حدثنا المؤلف عن عادات الشيخ الفاضلة فقال:

وكانت عادته البكور، فيستيقظ قبل الفجر ليؤدى فرض ربه ويذكره ويسبحه، ثم يتناول فطوره، ويغدو معتمدا على الله تعالى إلى المكتب لتعليم القرآن، حتى وقت الظهيرة، فيعود إلى داره، فيتناول غداءه، ويستريح قليلا وقت القيلولة، ثم يشتغل بالإشراف على الزراعة وترتيب شئونها ثم يعود إلى البيت لقضاء مهامه، وبعد ذلك يفرغ بقية يومه لقراءة كتب الدين وسير الصالحين. وقص مآثرهم وكراماتهم على أصحابه وأهل مجلسه، إذ كانت هذه هوايته لتتبع سننهم والسير على طريقهم. ولحبه الصادق للرسول ﷺ قيض الله له من يروى ظمأه عن حبيبه ففى ذات يوم حضر إلى منزله أحد شيوخ القرية من العلماء المسنين، وبعد حديثهما عن الصالحين ومناقبهم قدم

هـذا العـالم للشـيخ مخطوطـا جمـع صـيغا متعـددة الفضـل، مضـاعفة الثـواب والأجـر، فـى الصلاة على المصطفى ﷺ وقال له:

(خذ هذه وانقلها، واجعلها وردك، فإنها عظيمة النفع والبركة).

فقال له فضيلة الشيخ: (عمن نقلتها؟)

فقال: نقلتها عن الشيخ الأشمونى رضـى الله عنـه عـالم الأزهـر المشـهور، وأوصـانى بقراءتها لأنها ذات سر عجيب فى الفتح، ومقربة من حضرة الرسول ﷺ.

فعلم الشيخ أن هذه منة من الله تعالى مساقة إليه على يـد هـذا العـالم، وفعـلا نسـخها فى أيام قليلة كما كانت عادتـه المسارعة والتعجيل فـى أمور الـدين والآخـرة، وجعلـها الشيخ ورده فكانت مفتاح كل خير له، وكان يقول عنها، لم أجد فـى طريـق الله أسـرع سـبيلا إلى الفـتح وأقـرب طريقـا إلى حضـرة الرسـول ﷺ، وأجلـب لرضـا المـولى سـبحانه وتعالى، من هذه الصـلوات، إنهـا سـبب فـى تـذليل صـعوبات الحيـاة كتفـريج الكـروب، وإدرار الـرزق، وقضـاء الحـوائج، وكـان كلمـا حـزب الشـيخ أمـر فـزع إلى الصـلاة وإلى قراءة هذه النسخة.

أمـا فزعـه إلى الصـلاة فاقتـداء بحضـرة الرسـول ﷺ، إذ كـان يفـزع إلى الصـلاة كلمـا حزبه أمر.

وأما فزعه إلى قـراءة هـذه النسـخة فممـا جربـه كـثيرا أنـه مـا همـه أمـر أو أحـاط بـه مكروه وقرأ هذه النسخة إلا وجد بعدها الفرج والتيسير. لذا كان حـرص الشـيخ عليهـا شـديدا جـدا، ووصـيته لأولاده بالمحافظـة عليهـا وتلاوتهـا أشـد لمـا لمسـه فيهـا مـن النـور والبركة، ورضا النبى ﷺ عنها، ولما يعلمه من أن الصـلاة على الرسـول ﷺ مفتـاح لمغـاليق الأمـور وسـبيل السـعادة فـى الـدارين، وكانـت هـذه الصـلوات ديدنـه وشـعاره، وكـان يقرؤهـا فـى اليـوم مـرات، وإذا سـئل عـن ذلـك يقـول: إنمـا اقـرأ لى مـرة، وأجـبر تقصـير أولادى بالمرات الأخرى، ولشغفه الشديد بها سمع منـه مـرارا تلاوتـه لهـا مرتبـة بصـوت مسموع أثناء نومه يسمعه من حوله، وعندما كان يستيقظ يكمـل تلاوتهـا حيـث وقـف

وكان هذا قبيل انتقاله بقليل. وحسبك دليلا على عظم فضلها، وكبير نفعها وخيرها أن الرسول ﷺ أمسكها بيده الشريفة وقال للشيخ مناما (إنى أحبها،إنى أحبها، إنى أحبها).

لذا لم يتركها الشيخ أبدا لا فى سفر ولا فى حضر، ولا فى صحة، ولا فى مرض، حتى اليوم الذى لقى الله تعالى فيه قرأها كعادته، ولتعلق الشيخ بها وولوعه بحبها رؤى كثيرا فى المنام ممسكا بها تاليا لها حاثا عليها مبينا فضلها، حتى قال لبعض من رآه كذلك مناما: إنها أهم ورد فى الطريق بل هى الطريق جله. ثم استطرد السيد المؤلف مبينا جهاد شيخنا ﷺ وأعماله الخالدة فقال:

ظل الشيخ فى الجهاد الأكبر حتى جاوزت سنه الثلاثين بقليل، فأحس برغبة ملحة، ودفع قوى وميل شديد إلى نسخ القرآن الكريم بيده أجزاء، ولم يلبث أن سارع مستجيبا لهذه الرغبة كعادته، فاعتكف لهذا العمل الجليل خمسة وعشرين يوما أتم بانتهائها كتابة المصحف كله أجزاء بخط النسخ الواضح مع وضع علامات الوقف والشكل والرموز التى بالمصحف، وزخرفته أوائل السور والأجزاء، وتجليد كل جزء من الأجزاء الثلاثين بغلاف جميل متين، وكان فى هذه الفترة قليل النوم والطعام يشعر بروحانية عجيبة وهمة عالية، ونشاط كبير، فعلم أن هذا الأمر من الله وأن له ما بعده.

ولعلمه بأن لمن كتب القرآن الكريم دعوة مجابة فسأل نفسه، أى دعوة أدعو بها؟ ولم يجد فى قلبه غير الابتهال إلى الله عقيب الفراغ منه أن يتقبل هذا العمل خالصا لوجهه وأن يسلك به السبيل إليه وأن يوفقه لما يحبه ويرضاه ويحسن له الختام.

وبعد كتابة القرآن الكريم مباشرة، رأى فى نومه جمعية من رجال الله تقلب صفحات أجزاء هذا المصحف، وينظر بعضهم إلى بعض نظرة إعجاب وتقدير. ثم قررت هذه الجمعية قبوله، وتداوله فى المناسبات بين أهل القرية، لتوافر الإخلاص فى كتابته، وفعلا تداول المسلمون هذا المصحف فى مناسباتهم الدينية.

وكان من آخر الأعمال الجليلة الخالدة التى قام بها فى أخريات حياته، هذا المسجد العظيم بمئذنته السامقة التى تجذب الأنظار من بعيد:

فلقد اشترى أرضه وأعد مواد بنائه،وهيأ له ما تيسر من مال لإقامته وإنشائه واطمأن على رسمه وأشار بتنفيذه ولكن المنية عاجلته.

وهذا المسجد يعد واحة فى صحراء الحياة ففيه يجتمع المريدون كل يوم على الذكر وعلى العلم تحفهم الملائكة، وتنزل عليهم الرحمة، ويذكرهم الله فيمن عنده.

أما عمله الخالد حقا فهو تربية هؤلاء الصفوة الذين تتلمذوا عليه وعلى رأسهم خليفته الشيخ عبد الجليل قاسم والدكتور حسن عباس زكى وكثير من العلماء المشهورين وابنه لصلبه الأستاذ سليمان القاضى المفتش بالتربية والتعليم، نفع الله بهم وجعلهم منارة يستضىء بها المهتدون.



تقديم

الدكتور حسن عباس زكى

الحمد لله الذى توحد بالبقاء والأزلية، وتفرد بالديمومية والسرمدية، ومحق الكل بسلطان جلاله، ومحا الآثار بسطوة جبروته، وقهر المعلومات؛ فأخفاها فى طى عمائه، ثم من عليها بنعمة الوجود فقامت به، وتجلى عليها باسمه الظاهر فتنشقت روح الحياة منه، ثم إذا شاء قبض إليه الظل، وحكم بالفناء على الكل فما كان إلا هو، وما بقى إلا هو {كان الله ولا شىء معه، وهو الآن على ما عليه كان}.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وهب الرحمة الكبرى للعالمين من نور ذاته، وأفاء على الأكوان من ظلال آثار صفاته، فبنوره اهتدى أحباؤه إليه فعرفوه، وبسره سبحوه ووحدوه، فما عرفه العارفون إلا به، وما سبحوه ووحدوه إلا بسره، حقا ما عرف الله إلا الله ﴿وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الزمر:٦٧]

{كنت كنزا مخفيا، فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق، فبى عرفونى}.

وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، أول التعينات، مجلى نور الذات، ومظهر الصفات، من به قامت كل الكائنات، رسول حضرته القدسية، ومشرق شمس التجليات الإلهية، عرش استواء الرحمانية، ومهبط التنزلات العلوية، إنسان عين الوجود، والسر السارى فى كل موجود، رسوله الدال عليه، والمقدم لديه، والداعى بلسان شريعته إليه.

صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وأصحابه، نجوم الهدى المتحققين بكل كمال، رضوان الله تعالى عليهم، وعلى أتباعهم أولى التقى والإحسان، المحافظين على السنة، والعاملين بالطريقة، أهل الوفاء والصدق، وعيون الله من الخلق، عمد الكون، من بهم

يكون الغوث والعون، بهم تستمطر الرحمات، وتعم البركات {كلما هممت بأهل الأرض عذابا، نظرت إلى عبادى فيهم، فأرفعه بهم عنهم}.

وبعد ،

فيقول الحق تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١]

ويقول تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه:٩٩]

فلما كان فى التأريخ تذكير بما فات، وفى التعرف على سير رجال الله العبر والعظات، كانت الحاجة ماسة لكل مريد طريق الحق، ظامىء لشراب أهل الصدق، طموح للوصول إلى حضرة الرب، من وقفة على آثار مسلكى الطريق إلى الله، والتعرف لما كانوا عليه، ليترسم نهجهم، ويخطو خطوهم، ويتأدب بآدابهم، فيحظى بودهم وقربهم، ويشرب من معينهم، عندئذ تشرق شمس حقيقته من قلبه فتسطع على أركانه، فيهتدى بنوره إلى الحق،وتلمع كواكب حسه، فيعمل مخلصا لربه، فيكون له قدم الصدق.﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان:٥]

لذلك كله، حاولنا جاهدين جمع شذرات، وذكر إشارات، والإلماع إلى ومضة من ضياء حياة شيخنا ومرشدنا ومربينا. فضيلة مولانا وسيدنا الشيخ (عبد الفتاح القاضى) رضوان الله تعالى عليه، وسلامه الدائم إليه، جزاء ما جاهد فى الله حق جهاده، ووفاء لما أنفق من جهد، وضحى من نفس ونفيس، فى سبيل مولاه، هاديا ومذكرا،وداعيا ومرشدا، إذ قد أنار الله به الطريق، وأحيا بفيضه موات القلوب، وجمع بهديه شتيت العباد، وألف بحلمه بين الأفراد، وطهر بسره دنس النفوس، وكوّن بحكمته عصابة الحق فى عصره، وربط بهمته جماعة الطريق برباط الحقيقة المتين، الذى لا تنفصم عراه، ولا تنحل أواصر عقده، إذ كان هدفه (جزاه الله خيرا) رضا الحق، وغايته الله، فبقى الرباط، ودامت العلاقة (ما كان لله دام واتصل، وما كان لغيره انقطع وانفصل).

سيدنا ومولانا: نستأذنك مستسمحين أن نشرف بساحة مكرماتك، فنطوف حولها، لعلنا ندرك منها القليل، ونسألك متبركين أن ننزل بحرم حضرتك، لنلتمس منه اليسير، فنبرزه للملأ لمحة خاطفة عن أطوار حياتك ونهيئ للراغبين وقفة عاجلة مع بعض كمالاتك، إذ إنَّ سيرتك لا تفى بها المجلدات، وتاريخك لا تجمعه المطولات، وماحوته هذه العجالة عنك ليس إلا قطرة من فيض ما حوته مزن حياتك من خير، أو زهرة من روض ما اشتملت عليه شمائلك من نفحات، ولعلنا نلمع بهذا إلى قبس من سيرتك يهتدى بها المتطلع إلى سلوك طريق القوم فيتعرف على مسالكها ومعالمها وليس هذا- سيدى- مبالغة فى التعبير أو مغالاة فى القول، إنما هو عين الحق ومثال الصدق إذ ما كان يخطر على بالنا رحيلك ولا نفكر فى إنتقالك، فكنا عن هذا كله غافلين بما عمنا من سابغ نعمك وما غمرنا من واسع كرمك، وما تحركنا إلى كتابة ما فاض علينا من معارفك، ولا تيقظنا إلى إلمام وجمع أسرارك، اللهم إلا ذلك النذر اليسير والقدر القليل، عندما كان يحفزنا إليه بعض زوارك وقصادك ممن لم ينعموا بمثل هذا الفيض من قبل. فإذا انقضى مجلسهم وتتابع فيضك علينا رجعنا إلى غفلتنا الأولى وتركنا الجمع والكتابة بانغمارنا فى نعمك السابغة، ووهمنا أنك لا تتركنا أبدا ولا تفارقنا قط فلا تنقضى عنا فيوضاتك ولا يتحول عنا معين علومك ومعارفك وهكذا كل ذى نعمة لا يفكر فى زوالها أبدا ولا يدرك قيمتها إلا بعد ذهابها.

ولذا قد هز- بحق- كياننا رحيلك، وغشيتنا حيرة لا حد لها، وأصابنا ذهول أفقدنا كل وعى وإدراك، ثم تداركنا الله بلطفه ففاءت لنا أرواحنا ورجعت إلينا عقولنا وتلفتنا حولنا فوجدنا الفراغ بعدك كبيرا والوقع علينا أليما، فندمنا على ما فرطنا فى جمع علومك ومعارفك وأسفنا على تقصيرنا فى تدوين سيرتك ومآثرك، وجمع غالى دررك ونفائسك، (ولات ساعة مندم).

سيدنا ومربينا: نحن نؤمن بأن شمس هدايتك، وإن غربت عن عيوننا فهى ما زالت تشرق فى قلوبنا، وتنير بصائرنا، وما انفك نور هدايتك عن نفوسنا وما برح سرك عن أفئدتنا، فهو لا يزال يهدينا ويمدنا.

وإننا جميعا- بحمد الله- نحس ونشعر بدفعك إيانا، إلى الدنو من الله، والقرب منه، والوصول إليه، ولقد بدا أثر ذلك ملموسا فى تقدم الكثير من مريديك، فى الطريق إلى الله بعد انتقالك، ونيلهم المقامات والدرجات بعد رحيلك، وقضاء حاجاتهم، وتيسير أمورهم، كل ذلك ببركتك ورعايتك لهم كما كنت أيام حياتك بينهم، فهم يدركون ذلك يقينا، ويحسونه عيانا لا سيما عقب قصدهم ضريحك، وتوجههم إليك ضارعين راجين.

وهذا هو شأن المربين الصادقين، وورثة الرسول الكاملين، إذ يتولون أولادهم بالتربية، وهم فى برازخهم، وبعد إنتقالهم، كما كانوا يتولونهم أيام حياتهم ومقامهم بينهم، ما داموا لعهدهم راعين ولحرمتهم حافظين ولطريق الحق سالكين وهذا فضل الله، يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ولا غرو فى ذلك يا مولانا، إذ مثالك- قدس الله سرك وطيب الحق ثراك- ممن لا يقدر قدره من أمثالنا إنسان، ولا يحيط بوصفه، أو يحصى مآثره فصيح اللسان، ولا يصور مكرماته، أو يجمع مفاخره بليغ البيان، فلا يعرف حقيقتك إلا من خلقك فسواك، ولا يدرك مدى كمالك إلا من اصطفاك واجتباك، ونهاية ما به إليك يشار، وغاية المستطاع فيك أن يقال:

كنت- بحق- عمدة المحققين الموقنين، وقدوة السالكين المرشدين، وإمام الواصلين العارفين، مربى المريدين، وموجه العلماء الرسميين، والآخذ بيد المتعثرين فى مزالق الطريق، والناهض بأبنائك المريدين إلى المكانة العليا، فقد أخرجتهم من ظلمات المعاصى وحجب الغفلات إلى نور الطاعات وكشفت عنهم الرانات، وأوصلتهم إلى منازل القرب والمكاشفات ومكنتهم من جنى ثمار التعرفات، وأوقفتهم على كثير من المشاهدات.

كنت- مولانا- صاحب العلوم اللدنية، والمواهب السنية، مهبط الفيوضات العلية، والنفحات الربانية، قطب دائرة الشريعة، والطريقة، والحقيقة، غوث عصرك، وفرد وقتك، لك الباع الأطول فى المعارف الإلهية، والمنازل القدسية صاحب القدم الراسخة فى الحكم المأثورة، والعبارات الخالدة، ففقت رجال زمانك بعلمك وعرفانك، وبززت

علماء الحقيقة فى عصرك بتفسير الإشارات المبهمة، وحل الرموز المطلسمة، ووضحت ما خفى من علوم القوم، وأظهرت ما اندرس من معالم الطريق، ونشرت طى ما غمض من عبارات الفحول، وبسطت ما انعقد من المعقول والمنقول، فملأت الأقطار بأعطار بركاتك، وفتحت أبصار الأمصار بأسرار فتوحاتك، حتى أصبحت نور حديقة الحقيقة، ونور حدقة هذه الطريقة، تقصد بالرحلة من كل الجهات، لأنك أعظم رجال النفحات والرشحات.

كنت يا شيخنا بحق فى العلم المكنون أعجوبة دهرك، وفى التحقيق والسلوك حجة عصرك، تفجرت من عيون قلبك غدران الحكمة، وجرى من بين يديك أنهار العلوم، وجداول المعرفة، وأبرز سماتك نطقك عن كمالات الله تعالى وصفاته، بما حارت فيه العقول والأفهام، ودهشت لغريب شرحك وفريد فهمك عن الحق الأئمة الأعلام، إذ كان يفاض عليك، فنسمع منك من بديع القول ما تميزت به مما لم يسطر فى كتاب، وندرك منك لمحات وإشارات ما سبقك بها أحد، ولم تنشر فى صفحات ديوان، فكنت حقا علم علمٍ ما أرفعه! ومنهل فضل ما أنفعه!.

حدثتنا عن الحضرات الإلهية حديث محقق متمكن، نعمت روحه بجنى ثمار تلك الحضرات، وكلمتنا عن المشاهد الربانية كلام من شاهد فأدرك، وذاق فعرف، فكنت فى عصرك أول كاشف للنقاب عن محاسن وجوه عرائس الحضرات، ورافعا للحجب والستور عن حجائل تلك المُخْدِرات، فكنت الكفء لمُخْدِرات تلك الأسرار والمغيبات، وفككت كل طلسم مغلق، وحللت كل رمز معقد، ففتحت تلك الكنوز، وأمطت عنها اللثام، وأوضحت بعبارتك إشارات القوم، وفسرت غوامض معارفهم، وأحكمت المتشابه من مقالات الرجال، وأبنت حقيقة ما أرادوا، ووضحت الحال التى كانوا عليها عندما قالوا، ففهمت مقاصدهم، وعرفت نواياهم، وأنهم محقون فيما قالوا، صادقون فيما أشاروا، فنارت بك الطريق للسالكين، وأوضحت بهديك معالمها فبانت مقاصدها للطالبين العاشقين.

كنت تذكر لنا عن الرسول ﷺ شمائله المحمدية وتحدثنا عن خصائصه العلية كأنك عاشرته، وشافهته، وناجيته، وأدركت عنه الكثير من أسراره ومآثره، والجليل من

صفاته، وعلمت العديد من تجليات الله عليه، وما وهبه ربه من أعطيات، وما حباه مولاه من علم وأنوار ونفحات فألمعت بذلك إلى كمال ميراثك المحمدى العظيم، ووافر حظك من عطاء مربيك الكريم، فكنت فى عصرك زهرة رياض الشمائل المحمدية، وسدرة منتهى ما يعرج إليه من المقامات الأحمدية.

فكنت بحق عين الله من خلقه، ومحل نظره من عباده، وموطن سره من أحبابه، هيكلا صمدانيا، ومثلا عليا، رائدا إلى الله، دالا عليه، من الذين إذا رُءوا ذكر الله.

سيدنا ومولانا إننا نشهد حقا أنك كنت فى عصرك مثال المحققين، الموقنين والصديقين المتمكنين، فما رأينا زعازع رياح البسط حركت لك غصنا من أغصان شجرة نفسك الطيبة المطمئنة، ولا صرفك عن القيام بمقتضيات الدعوة إلى الله سطوع بوارق الجلال، التى طالما دكت كثيرا من الأطواد الشامخة من ذوى المعارف الباذخة، فلم يلبثوا أن انقطعوا عن الإرشاد والإفادة، فبحمد الله ما حركك بسط، ولا غيرك قبض.

وهذا- بلا شك- شأن الرجال المخلصين، والمتمكنين الراسخين، والقادة العارفين، والقدوة للعاملين، فطابت بك الشريعة نفسا، وقرّت بك الحقيقة عينا، لا يرتاب من رآك، وسمع منك، وعرف عنك أنك المجدد لأمر هذه الأمة، والقائم على طريق الله بحق، والداعى إليه بصدق، فكنت للطريقة سيدا، وللحقيقة مرشدا، وللخليقة هاديا، نالوا على يديك من البركات الإلهية والعلوم الربانية ما نالوا، فأحييت موات القلوب بالعرفان فى هذا الزمان، ومحوت عن النفوس حجب الغفلات، وأزلت عن الصدور غيم الأغيان والرانات، فأضحت الحقائق بك سافرة للعيان، فكم جبرت بكسر شهوات تلك النفوس أحوالها فاهتدت واستقامت. وأنرت القلوب بما نفثت فيها من العلم الموهوب، فعرفت الحق، وإليه سارت، ثم به صارت، وكم توجهت بسرك النافذ إلى قلوب مغلقة ففتحتها، ونظرت بنظرتك الثاقبة إلى بصائر عمياء فأرشدتها، ولا غرو فشيخنا المرسى ﷺ، كان يأتيه البدوى يبول على ساقه، فما هى إلا نظرة واحدة منه وقد أوصله إلى ربه، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ومع هذه الأسرار الباطنية، والمواهب العرفانية والنفحات الربانية فلم تخل حياتك الظاهرة- يا سيدى- من الكرامات المادية، والخوارق الحسية، التى اجتذبت الكثير من عشاقها وأسرت العدد الوفير من محبيها وقصادها، فاتبعوا طريقتك، ونهجوا سنتك وطاب لهم المقام فى حضرتك، وأنسوا بجلستك، فنالوا حظا وافرا من العلوم والمعارف على يدك، ونهلوا من صافى موردك، وتشربت قلوبهم من فيض بحرك ما جعلهم للطريقة سالكين، وبآداب الشرع عاملين، وبحسن المعاملة بين الناس مشهورين.

كنت يا مولاى البحر الزاخر، يمد الكل بصافى مورده، ويحبو الخواص بغالى درره، وثمين جواهره، بل كنت الظل الظليل، المفىء على الكل بوافر فضله، والروض العاطر النافح لمريديك كل على قدر استعداده، وطاقة وسعه ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ١٦٠].

فجزاك الله عنا- سيدنا جميعا- وعن الشريعة فرائضها وسننها، والطريقة آدابها ومقاصدها، وعن الحقيقة علومها وأسرارها ومشاهدها خير الجزاء.

كما نسأله سبحانه أن يمنحك ويعطيك مثل أجور العاملين بالشرع، والسالكين الطريق، والعارفين للحقيقة أعلى المنازل، ورفيع الدرجات، وأسمى المقامات، إنه سميع مجيب.

ولا حرج على فضل الله يهبه لمن يشاء.

ولا عجب فإن غوث كل زمان يعطى مثل أجور جميع المسلمين فى عصره، من عرفه، ومن لم يعرفه، إذ مددهم منه وإن لم يشعروا، وهذا عطاء الله يختص به من يشاء، والله يرزق من يشاء بغير حساب.

القسم الأول

نسبه ونشأته

نسبه:

هو العارف بالله تعالى، سيدنا ومولانا الشيخ (عبد الفتاح بن سيد أحمد بن محمد القاضى) الحسينى أبا وأما، الشافعى[1] مذهبا، المحمدى تربية، الشاذلى طريقة، الشبلنجى دارا ومزارا.

مولده:

ولد ﷺ فى قرية (شبلنجة) بمحافظة القليوبية بالديار المصرية، من أبوين شريفين فى آخر صفر سنة ١٣١٧ من هجرة خاتم النبيين، الموافق ٨ يوليو سنة ١٨٩٩م.

موطن أسرته:

إن فضيلة شيخنا من أسرة عريقة لها حسبها ونسبها وشرفها، تقيم ببلدة (شنوان) بمحافظة المنوفية، وقد اشتهرت تلك الأسرة بالصدق والتقوى والعلم، وكان شعارها تحفيظ القرآن الكريم لأبناء القرية، ونشر العلم، والتفقه فى الدين بين أهلها.

سبب هجرة والد الشيخ إلى شبلنجة:

شاءت قدرة الله، واقتضت حكمته أن يهاجر والد شيخنا الشيخ سيد أحمد محمد القاضى من (شنوان) إلى (شبلنجة) بمحافظة القليوبية بسبب ظروف معيشته؛ إذ اشتغل

---

(١) اختار ﷺ مذهب الشافعي لتعبده، لأن الشافعي رأى في المنام أن النبي ﷺ أعطاه ميزانا، فأولت الرؤيا بأن مذهبه أعدل المذاهب، وأوفقها للسنة.

كاتبا(بعزبة المهدى) [1] التى تبعد عن شبلنجة بمسافة نصف كيلو متر ليدير أمر زراعتها ويدبر شئونها، وما أن علم أشراف شبلنجة بمقدمه إلى هذه العزبة، ومعرفتهم بنسبه الشريف، وصلته بهم، حتى أحلوه بمنازلهم (بشبلنجة) وأبوا أن يعيش فى العزبة محل عمله، إذ كان لا يسكنها فى ذلك الوقت إلا عمال الزراعة، وشتيت الناس، وقالوا له: نحن نربأ بك أن تعيش فى هذا الوسط بعيدا عنا، وكما أنزلوه بينهم مكانا، فقد أحلوه من قلوبهم منزلة ومكانة، لقرابته منهم، وكريم خلقه، وصدق معاملته.

وكان بمقتضى طلبه العيش، يمكن أن يهاجر إلى أى بلد، وأن يحط رحاله فى أى قرية غير شبلنجة، ويعمل مع أى رجل، ولكن الأقدار ساقته إلى (شبلنجة) بالذات؛ لأنها بلد الأشراف، المنتسبين لسيدنا الحسين ﷺ، وهو منهم، ومن أبناء عمومتهم، إذ قد ثبت بوثائق مؤكدة أن والد الشيخ، السيد (سيد أحمد محمد القاضى) ينتهى نسبه إلى سيدى (أحمد شهاب الدين) دفين شنوان بمحافظة المنوفية بلدة أسرة الشيخ، وقبره بها مشهور يزار، وسيدى (أحمد شهاب الدين) بن سيدى (محمد الهمار) دفين (ميت حواى) غربية و له بها قبر مشهور يزار، وسيدى (محمد الهمار) هذا شقيق سيدى (عمر أبو عرقوب) دفين شبلنجة، وله بها قبر مشهور يزار، وهو جد الأشراف فيها الذين تنتمى إليهم أم شيخنا السيدة (زهرة بنت السيد حسن بن السيد على هاشم) وسيدى (عمر أبو عرقوب) دفين شبلنجة وجد أشراف تلك البقعة هو وسيدى (محمد الهمار) دفين (ميت حواى غربية) هما ولدا سيدى (بدر أبو النور) الساكن بوادى النسور والسباع والنمور، الكائن ضريحه بظاهر القدس، كما هو مثبت لدينا فى وثائق نسب السادة الأشراف (بشبلنجة) ، وأيضا رعاية الله له فى عمله مع شيخ الإسلام لمن الدلائل التى نلمس منها ما لأجله تحرك والد الشيخ، بالهجرة إلى هذه الديار، وصدق رسول الله صلوات الله وسلامه عليه حيث يقول "إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يسوقون الأهل إلى أهلها" روى بمعناه عن الدينورى فى المجالسة.

---

(١) عزبة عبد الحميد المهدي شيخ الإسلام في عصر الخديوي توفيق، وإنه لمن حسن التوفيق أن يهيأ له العمل مع رجل الدين والإسلام في عصره.

فقد ألهم والد الشيخ، بل ساقته الأقدار إلى (شبلنجة) ليعقد أواصر النسب بينه وبين أشرافها فقد كانت عادة الأشراف ألا يزوجوا بناتهم إلا لمن أثبت لهم نسبته الشريفة إلى الدوحة المحمدية، فلما أثبت والد الشيخ نسبه بما أحضره لهم من وثائق خطية قديمة، دونها السادة الأشراف (شنوان) واعتمدت من الحاكم فى هذا الزمان، وتأكدوا من صدق انتسابه إلى سيدى (محمد الهمار) شقيق سيدى(عمر أبو عرقوب) جد الأشراف (بشبلنجة) زوجوه (زهرتهم) لتنجب لوالد الشيخ: أولاده البررة وهم (شيخنا) وأخوه (إبراهيم) و(ثلاث بنات).

ومع هذا وذاك، كان لا بد أن يرحل إلى (شبلنجة)؛ لأنه يحمل نور ابنه (عبدالفتاح) شيخنا الذى قدر له أزلا أن يبعث إلى هذا البلد الطيب أهله، فيكون منار إرشاد، ونجم هداية لهذا الإقليم، فيشع منه نور دعوته إلى كافة البقاع، ونظرة إلى تاريخ الرجال والأقطاب، وهجرتهم الأوطان، حيث كتب لهم أداء رسالتهم، ونشر هدايتهم، تدرك منها ما تدرك من أسرار وغايات.

التحقق من شرف نسبه :

قد عرفنا آنفا أن شيخنا ﷺ كان سليل الدوحة المحمدية، وربيب البيت الهاشمى الشريف، ولقد تأكد ذلك بوثائق مسلسلة النسب، قد تواترت الأخبار على صحتها وصدقها، وتوراثتها الأجيال جيلا بعد جيل، إلى أن وصلت إلينا، وقد صدق على هذه السلسلة النسبية الشريفة، بخاتم الحكام والأشراف، فى كل عصر، إلى وقتنا هذا.

وبالرغم من ثبوت نسبه إلى أهل البيت، بتلك الوثائق الظاهرية، التى تؤكد صدق انتسابه إلى الدوحة النبوية المباركة، كان شديد الشغف إلى ما يحقق نسبه الشريف، عن طريق كشف ربانى لا مجال للشك فيه، وذلك لما أثر عن سيدنا عمر بن الخطاب، ﷺ أنه قال: (أنا ابن الخطاب، ولا أدرى ما فعلت النساء).

فمن الله عليه؛ إذ سمع فى منامه من يقول: (أنت شريف أبا وأما) وفهم أن القائل: حضرة المصطفى ﷺ، ومعلوم شرعا أن رؤيا النبى ﷺ حق وصدق لقوله عليه الصلاة والسلام: "من رآنى فى المنام فقد رآنى لأن الشيطان لا يتمثل بى" رواه البخارى عن

أنس ، فاستراح فؤاده، واطمأن قلبه، وهدأ خاطره، وحمد الله تعالى على هذه المنة العظيمة التى كثيرا ما تحدث بفضلها فى مجتمعاته، بين أبنائه وجلسائه ومريديه.

شيخنا حاز الشرفين:

نعم وإن روى عن سيد الخلق ﷺ أنه قال: "سلمان منا أهل البيت" رواه الطبرانى والحاكم عن عمرو بن عوف وكذلك روى عنهﷺ "أنا جد كل تقى" رواه أحمد والبخارى والترمذى عن سهل بن سعد. فقد حاز ﷺ الشرفين؛ شرف النسب، وشرف التقوى، بل وشرف التربية المحمدية، كما سنبين ذلك فى سيرته فيما بعد إن شاء الله تعالى.

نشاته:

لقد ورث فضيلة شيخنا الرسول ﷺ فى يتمه؛ إذ بعد سنوات ست من ميلاده توفى والده إلى رحمة الله، وتركه يتيما فى رعاية أمه الشريفة الهاشمية، فنالت أمه بسبب تربيته هو وإخوته أجرا عظيما، وثوابا كريما؛ إذ ستكون إن شاء الله رفيقة للرسول ﷺ فى الجنة حيث قال: "أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة وأشار بالسبابة والوسطى" رواه مسلم عن أبى هريرة، فكفى بهذا فضلا لهذه الأم الكريمة، وكفى بيتمه فخرا وشرفا كسيده ومربيه ﷺ.

كفالة أمه له:

مات أبوه وتركه وأخاه إبراهيم، وأخواته الثلاث اليتامى، فى كفالة أمه، التى لم يتجاوز سنها الخامسة والثلاثين، مؤثرة تربية أولادها على أى شيء آخر، فعكفت على تربيتهم تربية صادقة، تحرص على أداء ما يلزمهم، فى أمانة وإخلاص، وعطف وحنان.

كفلتهم الأم ولا عائل لهم إلا الله، مستعينة به سبحانه وتعالى على تربيتهم، مستثمرة ما ورثته من قراريط من والدها المرحوم الشيخ (حسن هاشم) وما تركه والده الشيخ سيد أحمد القاضى من عقار يسير، وفى ظل هذا الميراث الضئيل، عاشوا عيشة الكفاف، وكأن هذا كان تأهيلا لأهل هذا البيت، وإعدادا لهم، حيث سيكون بيتهم مبعث

رسالة، ومهد دعوة، وليكونوا على صفة أحبها الرسول ﷺ، لأهل بيته، وسأل الله تحقيقها لهم، فقال ﷺ "اللهم اجعل رزق آل محمد فى الدنيا قوتا" رواه مسلم عن أبى هريرة.

حفظه القرآن الكريم:

أرسلته أمه إلى مكتب القرية ليحفظ القرآن الكريم، فاشتهر بين لداته وأترابه بسرعة الحفظ، و حدة الذكاء، مما جعل معلم المكتب يقبل عليه، ويخصه بمزيد من الرعاية والعناية، ولشديد تعلقه به اختاره مساعداً له فى تحفيظ القرآن بالمكتب، بعد أن حفظه، وجوده، وأتقن أحكام قراءته فى سن مبكرة.

وظل يحفظ القرآن لأبناء قريته، ويعلمهم بعض أحكام الدين، حتى اجتباه الله وجذبه إليه. فاختلى فى بيته متعبداً، ذاكراً مولاه الذى اختاره لحضرته واصطفاه لمحبته وتولاه برعايته.

ولا شك أن هذا توجيه من الله، وحسن توفيق له، وعلامة حبه إياه، ودليل رضاه:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور:٢١]

﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣]

صفاته الجسمية:

كان ؓ أبيض الوجه مستديره، مفلج الأسنان، يغلب عليه الابتسام، مشرباً وجهه بحمرة، مشرق الجبين، واضح القسمات، واسع العينين، براق البصر، ينم بريقه عن حدة ذكائه، وبعد نظره، ونافذ بصيرته، وصدق فراسته.

ولعظيم تأثيره فى الناظر إليه لا يكاد يديم النظر له؛ لما توَّجه به مولاه من المهابة والإجلال؛ ولذا كان يحتشم الكل فى حضرته، وقاراً له وإكباراً لشخصه، تميل قامته

إلى الطول، يتحدر فى مشيته كأنما ينزل من علو، كمشية المصطفى ﷺ مطرق الرأس إذا سار؛ لانشغاله بذكر الله.

ولتعلق سره بربه، وعدم انشغاله بسواه تدرك أنه لا تفكير له فى دنيا أو جاه.

تراه وسيم المنظر، بهى الطلعة. تأخذك وتأسرك وسامته، يحليه جمال الصورة، وحسن المثال، ويزينه الوقار والكمال، وهذا- لا شك- عنوان طهارة باطنه، وصفاء سريرته، **"ما حسَّن الله تعالى خَلق رجل ولا خُلقه فتطعمه النار أبدا"** رواه الطبرانى فى الأوسط، قد وخط الشيب شعره وهو فى سن الشباب، وراثة عن المرحوم والده، كان خاليا من المشوهات البدنية، والعيوب الخلقية، ومع هذه المهابة إذا خالطته تجده رقيق الحاشية، لين الجانب، تألفه إذا جالسته، وتأنس به إذا حادثته، أو سامرته، يطمع الكل فى بره، وينعم القاصد برفده **"المؤمن آلف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف"** رواه الدارقطنى عن جابر.

لباسه وهيئته:

كان ﷺ يحب من الثياب البيض، اقتداء برسول الله ﷺ، ويتحرى نظافتها وطهارتها، متبعا فى لبسها وخلعها السنة النبوية، وكان إذا اشترى ثوبا جديدا يقول عندما يلبسه لأول مرة: (الحمد لله الذى كسانى هذا وأعطانيه من غير حول لى ولا قوة) [1] ويصلى فيه ركعتين شكرا لله الذى رزقه إياه.

وكان حريصا على الصلاة فى أول وقتها بعمامته حتى فى البيت، وأحيانا كان يلف منديلا على (طاقيته) الصوف على هيئة عمامة، فإذا خرج من البيت لصلاة الجمعة، أو السفر لزيارة أهل البيت لبس عمامة بيضاء أنيقة جميلة، تسترعى النظر، يعممها ويحكم لفها ولده الأستاذ (سليمان) المفتش بوزارة التربية، ويلبس الجلباب البلدى فوق ثيابه الداخلية، ويحب السراويل الطويلة، وينصحنا بها، وفى الشتاء يلبس

---

[1] أخرجه أبو داود و الترمذى و ابن ماجه و غيرهم من حديث سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه ﷺ "الحمد لله الذى كسانى هذا من غير حول لى ولا قوة" حديث حسن

عباءة، ويلتف بشملة من الصوف اتقاء البرد، وصورته التى تطالعك أيها القارئ الكريم فى أول الكتاب، تبين فى وضوح هيئته ولباسه، ومنظره يصور لك شخصيته.

وكان يستخدم العصا فى أخريات حياته ويقول: إنها سنة[1] ويتختم بالفضة فى بنصره اليسرى، ويحث مريديه على التختم، اتباعا للسنة، وخلاصة القول فى ذلك، أن شيخنا ﷺ، كان ملبسه جميلا أنيقا، ونظيفا دائما متمثلا حديث الرسول ﷺ "إن الله جميل يحب الجمال" رواه مسلم وأحمد والحاكم وابن حبان وغيرهم.

وكنا نلحظ عليه اهتمامه بلبس الثياب الجميلة أو الجديدة، فى أيام الجمع والأعياد، والمناسبات الدينية، ومع هذا فكنا عند غلبة الحر – فى فصل الصيف – نراه لابسا القميص الفضفاض والسروال الطويل فقط، ويستقبل قصاده من أكابر الناس، وعلية القوم بهذه الملابس العادية، فإذا أشار عليه بعض مريديه ممن يلاحظ الناس، بأن يلبس ثوبا فوق القميص؛ لأن فلانا العظيم سيزوره اليوم يغضب الشيخ، ويقول: (أنا لا ألبس من أجل أحد، ولا أخلع ملابسى من أجل أحد، مهما عظمت منزلته، وإنما ألبس وأخلع من أجل الله) ثم يستطرد قائلا: (أنتم لا تستطيعون أن تفعلوا مثلى، لأنكم لم تنسلخوا عن أنفسكم، فليكن العمل دائما لله، والترك ابتغاء رضاه).

ملاحظة الناس حجاب:

ولكى يعلمنا ألا نلاحظ فى فعلنا وتركنا إلا الله وحده سافر مرة إلى القاهرة؛ لزيارة مراده ومحبوبه السيد (حسن عباس زكى) فلم يلبس عمامة، وإنما لبس (طاقيته) الصوف المعهودة التى كان يلبسها شتاء، وثيابه العادية، التى يلبسها كل يوم فى بيته،

---

[1] والدليل على أن العصا سنة ما ذكره عز الدين بن الأثير الجزرى فى أسد الغابة "أنه كان لرسول الله ﷺ محجن قدر ذراع " والمحجن :العصا المعوجة وهى عصا معقوفة الرأس كالصولجان وفى الحديث أنه ﷺ كان يستلم الركن بمحجنه و أيضا التختم بالفضة سنة عنه ﷺ كما ذكر ذلك البخارى فى الحديث رقم ٥٨٦٦

وجالس كبار القوم بهذه الملابس، وما أن تحدث إليهم فى العلوم والمعارف حتى أعجبوا به، والتفوا حوله متبركين، يسألونه الدعاء ولم يلتفتوا إلى ملبس ولا هيئة.

ولعل هذا كان لتربيتنا ولنقتدى به فى عدم ملاحظة الناس، وإنما نراقب الحق تعالى فى كل أمورنا وليكن عملنا له تعالى ما دام موافقا للشرع مع النية الخالصة.

وكان ينصحنا فيقول: (لا تنظروا إلى الناس، ولا تراقبوهم، وراقبوا الله فى كل شىء) ثم يردد عبارته المعهودة (الناس حجابك، فارفعه تصل).

نظامه ودقته:

كان ﷺ يحب النظام والدقة فى كل شىء، وحسن الترتيب وبديع التنسيق فى كل أموره، فكنا نراه يهتم بتنظيم مكتبته، ويضع كل نوع من الكتب فى مكانه الخاص به؛ ليسهل تناوله، والاطلاع عليه، ثم رده إلى مكانه.

ونراه أيضا يجيد تنظيم ثيابه وترتيبها، فى صوان خاص بها جاعلا ثياب الصيف فى جانب، وملابس الشتاء فى الجانب الآخر،ويحتفظ فى (دولابه) بمحتويات وحاجيات لوقت الحاجة مما تمس إليه ضرورة أمره دنيا ودين، كالمسبحات، والسواك، وأنواع من الطيب، وزيت حبة البركة، وزيت الزيتون، ويقول فى ذلك: (إنى أحب أن تكونوا مثلى، فيحتفظ كل منكم بما يلزمه لعبادته، أو لقوام حياته، فى نظام ودقة، حتى يجده عند الحاجة، ويسهل إحضاره وقت طلبه).

وكان ﷺ يحرص على أن تكون حجرته نظيفة مرتبة منسقا كل ما فيها، ويكره أن يرى شيئا ليس نظيفاً، أو غير منظم، أو موضوعا فى غير مكانه المناسب له، وكان يتخذ حجرته هذه كمسجد تقام فيه الصلوات الخمس جماعة، فى أول الوقت، وفيها يقدم الطعام لزائريه، وفيها يقضى ليلته نوما وعبادة وذكرا.

تحذير المريد من إفشاء سره لزوجته وولده:

كان دقيقا جدا في كل أعماله، حتى إنه كان يسجل كل شيء في دفتره الخاص، من أمانات وودائع، أو دين له أو عليه، ويضع كل وديعة أو أمانة في مكان معين، وعليها اسم صاحبها، ويغلق عليها (دولابه) ومفتاحه معه أينما كان، بحيث لا يطلع أحد من أهل بيته، من زوجته أو ولده على أسراره أو ماليته، وكان ينصحنا بذلك ويقول: (لا ينبغي أن تطلع المرأة مهما أخلصت أو الولد مهما كان بارا على سر الرجل وماليته؛ وذلك لأنهما إذا علما يساره، وكثرة ماله لم يقنعا منه بشيء، وتطلعت أعينهما إلى عيشة المترفين، وإذا علما قلة ماله هان الرجل في نظرهما، وسقط من أعينهما، ولم تكن له مكانة رب البيت اللائقة به).

وكان يستطرد قائلا: (إن المرأة، أوجب الشرع على الرجل كفايتها من لباس وطعام، ثم بعد ذلك عليها أن تحفظ الرجل في بيته، وماله، وأولاده، وعرضه، في غيبته وحضوره، ولا تستشار في الأمور الهامة؛ لأنها لا تشير إلا حسب عاطفتها وهواها، دون أن تحكم الشرع أو العقل، فلا يجوز أن تستقل برأى، أو تنفرد بتصرف في بيت أو مال).

قال رسول الله ﷺ: "لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة" رواه البخارى عن أبى هريرة ولذا كان ، يكره للمريد أن تتسلط على شئونه امرأته ولا يحب أن يستضاف لمريد، امرأته مطلقة التصرف في بيته وفي شئونه الخاصة به. ويقول في هذا الشأن: (لعلنا ندرك الآن الفساد في الكثير من بيوت المسلمين، وضياع البركة، وتعقيد الأمور، وما سبب ذلك إلا إطلاقهم للمرأة التصرف في شئونهم؛ لتعمل حسب هواها وعاطفتها، وفي هذا تقليد الأمور لغير أهلها، وتحكيم ناقصات الدين والعقل، في الشئون العامة والخاصة، وبذلك اختل النظام، واضطربت الأحوال).

وكان ، ينذر ويتوعد من يترك أمره لامرأته، تتصرف فيه كيف شاءت، ويحذر هؤلاء الذين يخالفون الشرع، في تركهم تدبير شئون بيوتهم إلى زوجاتهم أن تتوقف أعمالهم، وتتعرقل شئونهم وتضطرب أمورهم وتكثر همومهم، وتغرق سفينة أعمالهم،

أو تضل فى محيطات الهوى، ومتاهات الباطل فلنتفطن إلى هذا جيدا ولنحكم شرع الله فينا.

مسلكه أيام شبابه:

ما سمعنا وما رأينا أن الشيخ رضوان الله عليه، قد سلك أيام شبابه مسلك اللهو والعبث، كعادة أقرانه وديدن لداته فى هذه السن، بل كان يعتزل مجالس الشباب، ويميل عن أماكن اللهو، ويعرض عن ميادين اللعب، وقدوته فى ذلك سيد الخلق؛ عليه أتم وأكمل الصلاة والتسليم، فقد حفظه الله، وحماه فى شبابه، عن مجالس اللهو والغناء، كما ورد فى كتب السيرة، ورواه علماء الحديث.

فإن قلت: لم يكن لدى الشيخ حينئذ من يرشده وينصحه، أو لم يكن فى تلك السن التى يطالب فيها بشىء، قلنا إنها رعاية من الله وحفظ، فهو سبحانه وتعالى، يحفظ أحبابه فى نشأتهم حتى لا يكون فيها ما يؤخذ عليهم، أو يعاب منهم أيام رجولتهم، فالذى حفظه ﷺ، ومنعه عن مواطن اللهو قادر على رعاية أوليائه لا سيما من قدر لهم حمل أمانته إرثا والقيام بدعوته شرعا، ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

زواجه ﷺ:

آثر الشيخ الزواج فى سن مبكرة، عصمة لدينه، فلم يتم الثانية والعشرين من عمره حتى اختار زوجته من بلدة (قطيفة العزيزية) بمحافظة الشرقية، وعقد قرانه عليها، فى شهر الله المحرم، ليقضى على البدعة المشهورة بين العامة، من أن شهر المحرم سمى بذلك لتحريم الزواج فيه، ويعتقد الناس فى الريف أنه لا يصح عقد زواج فى شهر المحرم.

زواج موفق:

وقد وفق الشيخ فى اختيار هذه الزوجة الصالحة، لأننا لمسنا نحن المريدين أنها ذات دين وخلق، ووفاء ومروءة، وحسن تبعل لزوجها.

إنها كانت بحق على جانب كبير من حسن الخلق، وكريم الصفات، مما لم نعهده فى نساء عصرنا، اشتهرت بالكرم الجِبِلِّى، غير المتكلف، فكانت تسارع إلى عمل الطعام أو الشراب فى الأوقات المناسبة لقصاد الشيخ ومريديه، بنفس طيبة، وصدر منشرح، ومهما توارد الزوار، وتعبت فى إعداد الطعام كنا لا نلمح ولا ندرك عليها ضجرا أو ضيقا ، هذا فوق تلبيتها طلبات الشيخ وكنا لا نلحظ عليها ولا نحس منها سآمة أو مللا فى أى يوم من أى عمل.

وكثيرا ما كان يحدثنا شيخنا عن إخلاصها ووفائها، وتفانيها فى خدمته، فيقول فى شأنها، إنها من نعم الله العظمى علىّ؛ لأنى ألمس منها سريرة صافية، ووفاء نادرا، وحبا خالصا للمسلمين، ورغبة صادقة فى قضاء حوائجهم، إنها ذات قلب كبير، لا يحمل حقداً لأحد، ومهما أسىء إليها من جيرانيها ومعاشريها، فلا يتغير قلبها، ولا تردُّ الإساءة بمثلها، بل تسارع إلى مصالحتهم، مغضية عن إساءاتهم، إنها تعمل دائماً على توفير أسباب الراحة لى، والمسارعة فى رضاى، لذا أغبطها وربما تسبقنى بذلك إلى الجنة.

وكان مما تحلت به زوجة شيخنا الصبر على بلاء ضيق العيش الذى اختبر به الشيخ بدء سلوكه طريق القوم، فكانت تتسم بالتعفف والغنى، وترضى بالقضاء متأسية بزوجها، ومن أمثلة صبرها على البلاء، أنه مات أحد أبنائها، فلم تجزع كعادة النساء، ولم يصدر منها ما يؤخذ عليها، مما يشين دينها، وتلقت القضاء راضية محتسبة ولدها عند الله.

وقد حدثنا الشيخ عن شعوره بعد وفاة ولده الحبيب إليه، العزيز لديه، فقال: (من الأدب مع ربى أن أرضى بما قضى، ولأنى بشر، لا بد أن يظهر علىَّ الحزن، ولكن قلبى مطمئن، يفيض - بحمد الله - رضا، لأن الأمر كله لله، ومصير الخلق إليه وهو حكيم فى أفعاله).

وهذا شأن كُمَّل العارفين، يكون ظاهرهم بمقتضى اسمه الظاهر، كما بكى الرسول ﷺ لفراق ابنه إبراهيم وقال: "إنما أنا بشر تدمع العين، ويخشع القلب ولا نقول ما يسخط الرب والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون"[1].

ويكون باطنهم بمقتضى اسمه الباطن، فيرضون بالمقدور، ويسلمون لله فى كل الأمور، لأنه حكيم فى أفعاله.

وقد روى أن أحد أولياء الله مات ولده، فابتسم وضحك، وأظهر رضاه بقضاء الله، فدخل عليه أحد العارفين الكمل فقال له:(ليس هذا من الأدب مع الله، بل يجب أن يكون ظاهرك حسب ما تجلى عليك باسمه الظاهر، من حيث البلاء والتأثر به، وظهور علامات الحزن والألم، وباطنك يكون راضياً بالمقدور، فرحاً به، لأنه من المحبوب، وكل ما أتاك من المحبوب محبوب).

وهذا مقام عزيز يكون العبد فيه جامعاً بين الظاهر والباطن لا يطغى فرقه على جمعه أو العكس.

خدمتها الصادقة لأم الشيخ العجوز

قال الشيخ ﷺ عن السيدة زوجته: (إنها خدمت أمى خدمة صادقة، وعملت على تكريمها، والسهر على رعايتها، وقضاء حاجاتها، ولذا كان حب أمى لها عميقا وعظيما لا يقدر، يفوق حبها لبناتها)

وهذا- لا شك- على خلاف عادة النساء، فكثير منهن يحببن بناتهن أكثر من زوجة الابن، ولذلك سمعنا أنه لما حضرت أم الشيخ الوفاة، التف حولها بناتها يسألنها الدعاء فقالت لهن: (دعونى أدع لأم سليمان تعنى زوجة (الشيخ) حتى أشبع، فإنى لم أر زوجة ابن مثلها، وما خدمنى بحق وإخلاص غيرها) وظلت تدعو لها حتى فارقت روحها جسدها.

---

[1] رواه ابن سعد عن محمود بن لبيد، والبخارى ومسلم بنحوه عن أنس بن مالك ﷺ بلفظ(ويحزن القلب)

فحسبك بهذا برهانا على كريم خلق زوجة شيخنا، وطيب عنصرها و حسن سريرتها، وكمال دينها، فتحقق فيها قول الرسول ﷺ "الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة" رواه مسلم والنسائي عن عبد الله بن عمرو بن العاص وقوله ﷺ "فاظفر بذات الدين تربت يداك" متفق عليه عن أبى هريرة.

وتحدث الشيخ مرة مع بعض أولاده لصلبه، فعد لهم بعض ما قام به نحوهم، و ذكر حرصه على سعادتهم، ثم قال أخيرا: يكفى أننى اخترت لكم أماً لا نظير لها خلقاً وديناً تأسيا بقول رسول الله "تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس" رواه ابن عساكر عن عائشة رضى الله عنها[1].

زوجة الشيخ أم لنا وبركة

إن زوجة شيخنا وهى بيننا الآن مصدر بركة، وموضع رحمة للجميع، يلتمس المريدون منها الدعاء، لأن دعاءها مستجاب، فهى أم للمريدين، لها ما للأمهات من آداب وحرمات، إذ الشيخ فى قومه كالنبى فى أمته، قال تعالى:﴿وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦]

وقد نص مؤسسوا طريق القوم أن من آداب المريد أن يعامل زوجة شيخه معاملة أمه، وهى محرمة عليه حرمة أمه، وإن كان هذا لم يرد فى ظاهر الشريعة، فهو خاص بأزواج النبى، إلا أن أهل الطريقة أوجبوه على المريد ضمن آداب المريد مع شيخه، فقالوا: (إن واجب المريد نحو زوجة شيخه أن يعتبر حرمتها ومكانتها كحرمة الأم ومكانتها، فلا يتزوجها بعد انتقال شيخه، ولا يقصر فى خدمتها بأى حال من الأحوال).

وقد روى أن سيدنا ومولانا السلطان الحنفى الكائن ضريحه بعابدين بالقاهرة، ترك زوجته وهى فى شبابها، وقال لها: (لا تتزوجى وإن أباح الشرع لك ذلك، إلا أننى لا أحب خراب بيت من يتزوجك من بعدى بسببى).

---

[1] ورد بإحياء علوم الدين للغزالى، وروى ابن ماجه (تخيروا لنطفكم وأنكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم)

أولاد الشيخ من النسب

ولد للشيخ ﷺ من هذه الزوجة المباركة أربعة ذكور أكبرهم (سليمان) ويعمل الآن مفتشا بوزارة التربية والتعليم، وثانيهم (أمين) وثالثهم (كمال) ويعملان بالزراعة والخدمة في مسجد أبيهما، والرابع (محمد) ويعمل موظفا بوزارة الاقتصاد، كما ولد له منها أربع بنات تزوجت منهن اثنتان في حياة الشيخ، والأخريان تزوجتا بعد انتقاله ﷺ.

رجولته المبكرة

وقد تجلت في شيخنا رجولة مبكرة، فما أن خطا خطواته الأولى في طريق الشباب، حتى خالط الرجال، وجالس أصحاب الرأى، واستمع منهم، وأصغى لحكمهم، فبدأ يسير سيرهم، حتى إنه كان أحيانا يشير عليهم، فيستحسنون رأيه، ويرتضون حكمه، فاشتهر بينهم بالحكمة، وعرف بالرأى الصائب، والحكم العادل النزيه.

صلحه بين الناس

لما اشتهر شيخنا ﷺ بسداد رأيه، وحصافة عقله، وصادق أمانته، كان محط أنظار أهل قريته جميعا، يلجئون إليه، ويسترشدون به في أمورهم، ويستشيرونه في جليل مشاكلهم، وما يصادفهم من عقبات في هذه الحياة، ويستودعونه نفيس أماناتهم، وخفي أسرارهم، فيصدرون عن رأيه وقد اطمأنت قلوبهم، وهدأت نفوسهم، وانشرحت صدورهم، بما أسداه لهم من خالص النصح، وسديد الرأى.

ولنزاهة حكمه، وعدله بين الناس حرص الشيوخ المسنون من أهل القرية، وذوو الخبرة والتجربة على الاستعانة به، واستشارته في مهام الأمور، يدعونه إلى مجالس الصلح، ويصطحبونه معهم لفض المنازعات، والفصل في القضايا والخصومات، وكان لهذه المجالس العرفية في عهد الشيخ ما للمحاكم الرسمية المعروفة الآن، من قداسة واحترام لقوانينها، وتنفيذ لأحكامها، وما يقضى به في تلك المجالس يُعد القضاء النافذ، والحكم الفصل، الذى لا يعارض من أحد المتنازعين.

فكان الكل يذعن لرأيه، والجميع يستريح ويطمئن لحكمه، بل كان بمجرد حضوره مجلسا من تلك المجالس العرفية يعم المجلس الاطمئنان، وترفرف عليه السكينة والأمان، وتهدأ النفوس الثائرة، ويقوى أمل المظلوم فى الحصول على حقه المسلوب، ويرجو الكل الخير والسلام، والوفاق والوئام.

ولا شك أن رضا الناس، وإجماعهم على حبه، دليل على رضا الله تعالى عنه، وحبه له؛ إذ (ألسنة الخلق أقلام الحق).

ومما هو جدير بالذكر أن خال الشيخ كان خليفة البلد (شبلنجة وما جاورها) ورئيس الأشراف، والقاضى العرفى، الذى يحتكم إليه الجميع فى منازعاتهم، وكثيرا ما كان ينتدب ابن أخته فضيلة (الشيخ) فى القضايا الهامة؛ لسداد رأيه وخبرته، ولكم جربه فى مثل ذلك، فعرف صدق فراسته، ودرايته التامة بالتعرف على الحق من ثنايا كلام الخصوم والشهود، واستنباطاته التى يأخذها من عرض القضية أمامه.

وعندما يرى من خاله ميلا إلى مجاملة بعض الخصوم تأثراً بالعواطف، دون تحكيم الشرع وإقامة الحق والعدل، كان يقف منه معارضا، ويعرض الحق الصريح ويقول: (الحق لا مجاملة فيه) فلا يلبث خاله أن ينضم إليه فى الرأى، ويصدق على حكمه، بعد أن يداعبه ببعض الألفاظ مداعبة لطيفة يشم منها افتخار خاله به، وحبه له، وأنه ما وصل إلى ذلك إلا بخئولته، ثم يثنى خاله عليه، معجباً به، وبحمد الله كان للشيخ فراسة صادقة، فلا ينطلى عليه زخرفة قول بعض الخصوم، ولباقتهم فى الحديث وحسن عرضهم لقضيتهم، وتصويرهم للحادث، كل ذلك لم يخف عنه استخلاص الحق، ومعرفته من مجارى الحديث، ومن الاستنباطات التى يستخرجها. يشهد لذلك كله الأدلة التى كان يستند إليها فى حكمه ويسردها للحاضرين فى الجلسة فيستصوب الجميع رأيه ويوافقون على حكمه ولا يلبث المعتدى أن يعترف بالحق أمام الكل ويقول الحقيقة ويذعن للحكم، ولقد حدثنا بهذا كله شيوخ البلدة المسنون وكانوا يذكرون تلك الوقائع وما جرى فيها ويتحدثون عن مواقف الشيخ فيها.

وهذا- لا شك- يشهد له بالفطنة، ورجاحة العقل، وهما ضروريان لكل صاحب دعوة، وأيضاً تلك المجالس كانت تأهيلا له لمستقبل أيامه؛ إذ كان يتعرف فى كل مرة،

على اختلاف وجهات النظر وتعدد الأهواء، وتباين الطبائع، وأنه كيف يعامل كل واحد بما يناسبه، أو يتغلب عليه، بما يسد أمامه من أبواب قد فتحها، ظانا أنه يخرج منها، أو يلبس ثوباً يستدر به عطف السامعين ويجعل الكل فى جانبه، ليضمن الحكم حسب هواه.

ومن هنا كان تحذير الرسول ﷺ الخصوم بقوله:"إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلىَّ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضى له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار، فليأخذها أو ليتركها" متفق عليه عن أم سلمة رضى الله عنها.

الهداية عناية أزلية، لا بيئية، ولا وراثية

إن رجال التاريخ، وعلماء الاجتماع عندما يؤرخون لبعض الشخصيات، يرجعون إلى نشأة المترجم له؛ لمعرفة المؤثرات والبيئات، وتفاعل الشخصيات، والظروف المحيطة بهؤلاء الرجال؛ ليستدلوا بذلك على الدوافع والمقومات، التي ساعدتهم وأهلتهم إلى ما وصلوا إليه من بطولة، وما تبوءوه من مكانة، والمتتبع لظروف نشأة شيخنا، لا يكاد يتنبأ بما وصل إليه، من رفيع المقام في طريق القوم، وسامي المنزلة بين رجال الله، إذ نشأ يتيما، ولم يكن في أسرته من هو على هذا المثال، حتى يقتدي به، ولكنا نقول: إن العقول والأجسام ظل لأرواحها، إذ الجسم ظل النفس، والنفس ظل للروح.

ولما كانت الأرواح متفاوتة، وليس في درجة واحدة من الرقي والتسامي، كما نطق بذلك الحديث الشريف "إن الله خلق الأرواح في ظلمة، ورش عليها من نوره، فبقدر ما أصاب كل روح من النور اهتدت"[1]. فكل روح لها منزلتها وقربها من ربها، وبقدر هذه المنزلة تشع على جسمها، وتسيطر على عقل صاحبها، بما يجعل ذلك الشخص يسلك كل مسلك سني، ويسير السيرة الحميدة، ويعمل في مرضاة الله؛ كي ترجع روحه إلى صلتها بربها وإلى درجتها ومقامها عنده تعالى.

هذا ما نعتقده من أن الجسم ظل الروح، وأنها كلما كانت أعلى مكانة، وأكثر نورا، وأعرف بربها، وأعلم بصفاته سلكت بصاحبها طريقاً أقوم، وقادته إلى عملٍ أمثل، ليصدق التوافق بين عمل الجوارح وأعمال القلوب والأرواح وهذا لا شك قسمة

---

[1] عن عبد الله بن عمرو بن العاص ؓ قال :قال رسول الله ﷺ"إن الله خلق خلقه في ظلمة، فألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى و من أخطأه ضل " رواه الترمذي و قال حديث حسن، كما رواه أحمد و البزار والطبراني

أزلية (هذه إلى الجنة ولا أبالى وبدون علل وهذه الى النار ولا أبالى وبدون علل)[1] ما ندين الله عليه ونؤمن به لا ما يرجعه المؤرخون وعلماء الاجتماع إلى النشأة والبيئة وسائر المؤثرات؛ لأننا نعتقد أن ما ظهر من هذا العالم، إنما هو على الصورة الأزلية، فما يكون فى الظهور إنما هو مما كان من المثال السابق، فبربك خبرنى ما الدوافع القديمة التى أثرت فى الشخصيات أزلا واعتبر لها حساب، وعزى إليها الميول والنزعات.

نعم وإن كان للنشأة والبيئة بعض الأثر فى حياة الإنسان، ولكن ليس ذلك كل شىء، إذ واقع الحياة يرينا أن كثيرا ممن نشئوا فى بيئات دينية، وعاشوا بين شخصيات مثالية، كانوا على غير صلة بالدين، ولا خلق لهم قويم، وكم ممن لا صلة لهم بالدين صاروا فيما بعد أئمة هادين،﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤] .

نشاطه وبكوره

وكانت عادته ﷺ قبل أن يسلك طريق القوم، وينقطع للتربية والهداية والإرشاد، الاستيقاظ من نومه قبيل الفجر، فيصلى لله، ويسبح بحمده، حتى مطلع الفجر، فيؤدى فرض ربه، ثم يتناول طعام الفطور، ويغدو معتمداً على الله، قاصداً وجه مولاه إلى المكتب لتعليم أبناء القرية القراءة والكتابة، وتحفيظهم القرآن الكريم، حتى وقت الظهيرة، فيعود إلى بيته، فيتناول غداءه، ويستريح قليلا وقت القيلولة، ثم يشتغل بالإشراف على زراعة القراريط التى ورثها من أبيه، وجده لأمه.

وبعد أن يرتب شئون الحقل والزراعة، يعود إلى بيته لقضاء بعض مهامه، وكنت تلمح عليه فى سيره أو عمله الجدية والحزم، والتفرغ التام، والإتقان لما يعمله، وما كان

---

[1] هو من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمى ﷺ عن رسول الله ﷺ قال "إن الله خلق آدم ثم أخذ الخلق من ظهره و قال :هؤلاء فى الجنة ولا أبالى و هؤلاء فى النار و لا أبالى فقال قائل: يارسول الله فعلى ماذا نعمل؟ قال على مواقع القدر"رواه أحمد و ابن حبان و الحاكم و غيرهم و هو حديث صحيح.

أبداً متراخياً فى عمل، أو لاهياً عابثاً منذ نشأته وما قنع أبداً بأنصاف الحلول للمسائل فلا يهدأ له بال حتى يتم أمره، ويكمل ما بدأه على خير مثال، وفى أقل زمن ممكن.

هوايته قراءة كتب الصالحين

ولقد كان من عادته ﷺ بعد أن يفرغ من المكتب، وينتهى من أعمال الحقل، أن يجتمع مع أصدقائه وأصحابه وأهل مجلسه، لقراءة كتب الدين، وتعلم أحكام الشرع القويم، ومطالعة سير الصالحين، وذكر كراماتهم، والتنقيب على آثارهم، اقتفاءً بهديهم، والسير على طريقهم رغبة فطرية وميلا طبيعياً إذ بذكرهم تتنزل الرحمات، وبقراءة سيرهم تتعطر المجالس والندوات، وتحن وتشتاق قلوب من اختارهم الله للإندراج فى سلك هؤلاء السادات.

ولما اشتهر ﷺ بذلك سارع المحبون لأولياء الله، ولأهل بيت رسول الله ﷺ إلى مجلسه، وتنافسوا فى اجتذابه إلى منازلهم، تبركاً به، واستمتاعاً بعذب حديثه، وانتفاعاً بما يقصه عليهم من تلك السير والمواعظ؛ إذ كان يسرد عليهم فضائل أهل الله؛ وشمائل أهل البيت– رضى الله عنهم أجمعين– ويدعوهم إلى التحلى بما كانوا عليه من كريم الصفات، وما حظوا به من حسن المعاملة، وما درجوا عليه من الآداب والمجاهدات، وكان يظل فى مجلسه إلى العشاء الآخرة.

وبعد انتهاء هذه الجلسة كان يقفل راجعا إلى بيته، فينام بعد العشاء ليستيقظ مبكرا كعادته قبيل الفجر ليؤدى ورده ويستعد لأداء فرضه مستغفرا ربه مستقبلا صباحه الجديد بما ينبغى أن يكون.

صلته بأولياء عصره

وكان ﷺ إذا حل ببلدته، أو بما يجاورها من البلاد ولى من أولياء الله، جاءها مرشداً ومسلكاً ومذكراً بالله، حرص الشيخ على زيارته، ومجالسته بأدب واحترام، وخشوع وخضوع، لما يشهده فيه من خصوصية، وأنه عين من عيون الله حلت بتلك البلدة، لينال منه وافر الرضا، وعظيم البركة، ويفيد من آدابه الطيبة، ومواعظه البالغة.

وهو بهذه المعاملة الطيبة لأولياء الله كان يستمطر رحمات ربه، ويدخر له فى مستقبل أيامه من يتأدب معه بتلك الآداب، وكأنه كان يعمل ذلك سلفاً، ليوفيه الله به خلفاً، على يد قصاده ومريديه، وجلسائه وعارفيه، وانظر إلى الهدى النبوى فى قوله: "ما أكرم شابٌ شيخاً لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه" رواه الترمذى عن أنس ﷺ. فمن خَدم خُدم، ومن أهان أُهين.

وهكذا كان الله يعده ويؤهله لما ناله بعد، وحظى به من درجات ومقامات. ومن أولياء الله الذين اتصل بهم فى عصره متبركا:

سيدى ومولاى الشيخ (جودة) [1] أبو عيسى دفين (منيا القمح شرقية).

---

(١) سيدي الشيخ جودة:هو سيدي الشيخ (جودة) بن سيدي (إبراهيم) قدس الله سره، ولد ﷺ بالعزيزية شرقية عام ١٢٦٤هـ، ثم أرسل إلى المكتب، فحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، ثم قصد الأزهر الشريف لتلقي العلم النفيس متبحرا في الفقه الشافعي، واطلع فيه على المطولات، ثم تلقى الكثير من علوم العربية، كما اطلع على علم التصوف، وكان من شيوخه الشيخ الأشموني - ﷺ - والشيخ السقا والشيخ الخضري، وكان عاملا بعزائم الأمور تاركا الرخص، وسلك طريق القوم، وأخذ العهد عن كثير من الشيوخ، فأخذ الطريقة (الخلوتية) عن سيدي (عبد الله) عن والده السيد (سليم) عن الشيخ الشرقاوي، وكذا أخذ (الأحمدية) و (الرفاعية) و (البرهامية) و (الجشتية) عن الشيخ (الترمذي) عن (أبي رباح) عن (الدرديري) عن (الحفني).
وما زال يجد في نفسه الميل إلى زيادة اليقين، ويطلب ويجد، إلى أن وصلت به العناية إلى سيدي (أحمد ضياء الدين) صاحب الطريقة النقشبندية، وأعطاه معها نحوا من أربعين طريقة، وأذن له بتلقين الذكر، وإعطاء العهود، في جميع الطرق المذكورة.ثم تلقى (الشاذلية) بعد عن سيدي (عبد القادر الفاسي) عن سيدي (محمد بن حمزة ظافر) عن مولانا (العربي) ابن (أحمد الدرقاوي الفاسي).
وحصل له في أول أمره حال شديدة، وجذب وعناية ربانية، وأمور خارقة حتى كان والده يشفق عليه ويغلق عليه الباب.
وكان يرى حاجات الناس في صورة محسوسة، بارزة، ليقضيها لهم بغير سؤال ومع قوة حاله، كان حريصا على أداء فرضه، وعبادة ربه، ثم حببت إليه الخلوة فكان لا يخرج إلا نادرا، لهداية الناس=

وسيدى ومولاى الشيخ (سيد الرجالاتى) [1] دفين (كفر الرجالات) قليوبية.

=وإرشادهم، ونشر الطريقة بهمة قوية لم تعهد، ومن كلماته: "كثير الدنيا لا يضرك ما دام في يدك ولم يصل إلى قلبك،وقليلها إذا نفذ إلى قلبك، أفسد عليك أمر دينك".
ولم ينتقل -ﷺ- إلا وقد أخذ الغوثية، كما أخبرنا بذلك شيخنا ﷺ، وأنه أمر بأخذ الشاذلية، كما سبق إذ المأثور والمعروف لدى المحققين، أن الغوثية لا تكون إلا في بيت الشاذلية، وهذه منة من الله على الشاذلية"وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء"، ولقد ذكر لنا شيخنا -ﷺ- أن أبا الحسن -ﷺ- طلب من مولاه ذلك فأجيب له وأنه اختار أولاده من اللوح المحفوظ، ممن ختم لهم بالإيمان، هذا بشرط أن يكون الشاذلي شاذليا بحق، عاملا بالشرع متبعا للسنة، متأدبا بأدب أهل الطريق الحق، إذ اشتهر عن سيدي أبي الحسن -ﷺ- أنه كان يقول "نحن الذاتيون" وهذه عبارة لها مدلولاتها العميقة، فليتفطن إلى ذلك، فليس كل من ادعى الشاذلية له هذه المزية.
ثم انتقل سيدي الشيخ جودة -ﷺ- إلى جوار ربه يوم الأحد ١٧ من شوال سنة ١٣٤٦هـ-١٩٢٧م ومقامه (بمنيا القمح) شرقية مشهور يزار

(١) الشيخ سيد الرجالاتي:
كان من الأولياء المعاصرين لفضيلة شيخنا القاضي -رضى الله عنهما- وكان مالكي المذهب، أحمدي الطريقة، ولد بكفر الرجالات -مركز طوخ- قليوبية، ودفن بها وضريحه بها مشهور يزار.
نشأ كما ينشأ أقرانه، فحفظ القرآن الكريم، وتعلم مبادئ الدين، وشب محبا للصالحين ومخالطتهم، والتأسي بهم، فجذبه الحق إليه جذبة قوية، وفتح له أبواب الوصول إليه، ولما آب إلى رشده، أخذ في الدعوة إلى طريق الله، وهداية الناس، فتنقل في البلاد، واجتمع عليه الكثيرون متبركين به، وكان يقيم حضرات الذكر أينما حل، ثم يوجه وصاياه ونصائحه للحاضرين، فهدى الله على يديه الكثير من المسلمين، وطارت شهرته بين الناس، وكان كثير التردد على (شبلنجة) ولقد صاهر منها، فتزوج شريفة هاشمية، وكان يجلها، ويقدرها من أجل نسبها الشريف، وأنجبت الكثير من الأولاد وكان يلتقي به شيخنا في تلك الزيارات بشبلنجة، وذلك قبل سلوك شيخنا طريق القوم، كما كانت عادته التردد على الصالحين، إلا أنه كان يخص شيخنا بمزيد من العناية والتكريم، والتقدير، ويجلسه دائما بجواره لنسبه الشريف، ويخاطبه دائما "يا أبو هاشم"، ولعله كان متوسما فيه الصلاح، متنبئا بمستقبله، مستشفا ما فيه من نور الولاية والهداية، وكان -ﷺ- يميل إلى القصر، مستدير الوجه، يلبس الجبة والقفطان والعمامة الحمراء، وكان -ﷺ- ذا أدب جم، ورقة في العبارة، وبشاشة عند اللقاء إلا أنه كان إذا استغضب أو أثير، ظهر عليه الجلال بصورة واضحة، فتكون منه الخوارق العجيبة، حتى يروى عنه أن أحد أبنائه لصلبه=

وسيدى الشيخ (إبراهيم خضر) [1] دفين مقابر (شبلنجة) قليوبية.

=أساء إليه مرة فانفعل، وبعدها بقليل استغاث به ولده، وتعلق به فلما أفاق الشيخ قال: "خلاص يا بني خرجت من يدي وأنت السبب ولا أستطيع رد قضاء الله" فمات لساعته.
ولقد انتقل إلى جوار ربه بعد حياة حافلة بالجهاد والدعوة إلى طريق الحق ومقامه في كفر الرجالات يؤمه الناس لالتماس الخيرات والنفحات.
(١) الشيخ إبراهيم خضر:
كان من أحباب شيخنا المخلصين، وكان أسبق منه إلى سلوك طريق القوم، إذ هو يكبره سنا، وكان -ﷺ- ربعة مشوبا وجهه بحمرة، يلبس العمامة الخضراء، واشتهر بخفة ظله، وعذوبة حديثه، والابتسامة التي لا تفارقه وكان يسعى إلى الصالحين، ويتودد إليهم، وكان شافعي المذهب شاذلي الطريقة، وكان عاملا بالسكك الحديدية، وكان يعمل دون انقطاع، فيؤدي فرائضه حيثما كان، وفي يوم الجمعة يترك عمله وقت الصلاة لصلاة الجمعة، في المسجد، فحذره كثيرا رئيسه ترك العمل وقت صلاة الجمعة، فلم يسمع له وأخيرا تطاول عليه بالضرب، فأصيب ذلك الرئيس بعلة أقعدته، فكان يطلب من الشيخ إبراهيم -ﷺ- الصفح، ويترضاه لعله يشفى من علته، وكان رقيق الحال في العيش، فصبر ورضى، وما ظهر عليه شيء أبدا من الشكوى، وكان مشهورا بين الناس أنه لا تأخذه في الحق لومة لائم، حينما يرى منكرا او مخالفا للشرع ويكاد يبطش بمن يفعل ذلك، فهابه الكل.
وكان ﷺ، إذا دخل شيخنا الخلوة، يجتمع بأولاد شيخنا ومحبيه ويقول لهم: على ما ناله شيخنا من مقامات، وما حظي به من درجات، وكان أحيانا يبكي مترفقا بالشيخ ويقول الليلة أمر بكذا ألف من الذكر على المسبحة، وبكذا ركعة في التهجد، وبكذا من أنواع الرياضات والمجاهدات، ثم يعقب على ذلك بقوله: "كيف يقوم بهذا كله؟" -أعانه الله- فكنا نقيد ذلك عنه، حتى يخرج شيخنا -ﷺ- من خلوته، فنسأله عما أخبرنا به الشيخ إبراهيم، فيقول: نعم حدث ذلك كله، فكأنه كان مع شيخنا في خلوته، ولا شك أن هذا صفاء سريرة، وتفان في حب شيخنا.
ولقد حدثنا عنه شيخنا ﷺ أنه لما أقعد في أخريات حياته وكان الشيخ يذهب إليه زائرا فيسمع منه فيوضات عرفانية وفهم في كلام القوم، عندما كنا نقرأ عليه بعض الكتب كالأحياء نحوه، وتفسيرا غريبا لعبارات الرجال، على غير ما كان معروفا من قبل، ولما نخرج من عنده يخبرنا الشيخ بأن الشيخ إبراهيم كاد أن ينتقل إلى جوار ربه لأن هذه العلوم والمعارف اللدنية تبشر بقربه من ربه، ورفعته، ودنو أجله، وأن روحه أصبحت شفافة متعلقة بالملأ الأعلى. =

هذا وقد تودد إليه عالم يدعى الشيخ (على فايد) [1] دفين مقابر (شبلنجة) قليوبية، وأهداه منسوخاً لمجموعة من الصلوات على رسوله ﷺ.

=وقد انتقل إلى جوار ربه عام ١٩٤١م ودفن في مقابر شبلنجة رضي الله عنه وجزاه عنا خير جزاء، ولم يعرف عنه أنه كان صاحب دعوة أو تسليك في طريق القوم، كما هو المعلوم أن رجال الله منهم الوارث للرسل فيكون صاحب دعوة، ومنهم الوارث للنبي فيكون سلوكه لنفسه دون غيره، وقد رأى شيخنا القاضي الشيخ إبراهيم بعد موته فقال له شيخنا: كيف حالك؟ فقال "يوما أو بعض يوم" ثم سمع الشيخ من يقول له: يعني سيمكث الشيخ إبراهيم في قبره هذه المدة إلى يوم القيامة وهي في نظره مقدار يوم أو بعض يوم فقد طوى الله له الزمان والله ذو الفضل العظيم.

(١)الشيخ علي فايد ﷺ:

هناك جنود مجهولون كثيرون رضوا في زمانهم بأن يكونوا مع الناس لا يخصون أنفسهم بشيء يميزهم عنهم، ويأبى الله لهم في أخراهم إلا أن يكونوا مع الذاكرين، ومن هذا الصنف المرحوم الشيخ علي محمد فايد -ﷺ- العامل بالسنة في صمت، الزاهد في الشهرة.

كان رحمه الله- يؤثر الاعتكاف على الاطلاع، كما يحرص على الاجتماع إذا استدعى الحال إلى الانتفاع، وكان حديثه جديرا بالاستماع، خاصة إذا وجد بين أهله من العلماء، لأنهم أعرف بمقادير الرجال.

ولد -رحمه الله- بناحية (شبلنحة) سنة ١٨٧٢ ميلادية ونشأ بين أسرة كان العلم أكبر همها، فلما حفظ القرآن الكريم، والتحق بالأزهر الشريف، وانضم إلى أخويه الكبيرين، مصطفى وعبد السلام، في طلب العلم، وكان يمتاز بذكاء نادر مع خلق كريم، فقد كان رحب الصدر، حلو اللسان، طلق الوجه، أبعد الناس عن الفحش في القول.

لذا كان محبوبا بين أساتذته، وعلى رأسهم فضيلة الشيخ الكبير المغفور له الشيخ الأشموني -ﷺ- الذي كافأ تلميذه الشيخ علي فايد بكتاب "كنوز الأسرار في الصلاة على النبي المختار" ﷺ، وأوصاه بأن يجعلها له وردا فنفذ أمر شيخه وواظب على قراءتها فكانت سبب سعادته في دنياه وآخرته. ولقد رآه شيخنا القاضي -ﷺ- بعد انتقاله يقرأ الصلوات في قبره.

وقد أكرمه الله في أخريات حياته، وكشف عن بصيرته،فكان يحدث أهله وغيرهم عن كثير من المغيبات، فقد طلب منه بعض الناس إلقاء موعظة في المسجد غدا فأجاب بعبارة فهم منها السامعون أن غدا موعد لقائه بربه. =

ومن مسلكه هذا فى ريعان شبابه، نلحظ أن عين الله كانت تكلؤه وترعاه وعنايته توفقه وتسدد خطاه، إذ كان الله يعده لحمل رسالته، ويؤهله لحفظ أمانته وهذا شأن كل صاحب دعوة صادقة، يكون له من مسلكه وماضيه ما يشهد بصدق حاله، ويؤيده فى صحة مقاله، فليس في واقع تاريخه مغمز أو ما يعاب عليه ولا فى سجل حياته منقصة أو مطعن يوجه إليه، وكأنه بذلك صورة صادقة للرسول ﷺ فى زمانه، لأنه لما بعث ﷺ داعياً قومه إلى الله كان أول ما حدث قومه ليلزمهم الحجة أن سألهم عن أمره ليجرهم إلى الاعتراف منهم بحاله وبحسن سيرته فى سالف أيامه، وصدقه فى مقاله، وكريم فعاله، فأنطقهم بأمانته، وأشهدهم بنزاهته؛ فقال: "أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً خلف هذا الوادى، تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيّ؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك كذباً إنك أنت الصادق الأمين" رواه البخارى وغيره.

شغفه بالصلاة على رسول الله ﷺ

وكما كان ﷺ مولعاً بالصالحين، يتردد على مجالس الأحياء منهم ويزور أضرحة من لقوا ربهم، ملتمساً منهم البركات والنفحات، كان شغوفاً بالصلاة على رسول الله ﷺ بصيغ مختلفة، ومن آيات عناية الله به واختصاصه واجتبائه إياه أن ساق إليه الشيخ على فايد) أحد شيوخ القرية من العلماء العاملين المسنين لزيارته، ولم تجر عادته بهذه الزيارة، لأن الشيخ كان فى هذا الوقت شاباً، ولم يكن فى مستوى سن ذلكم العالم، حتى يتزاورا، وأيضاً شيخنا إذ ذاك لم تظهر عليه سمات الولاية بعد، ولأن هذا العالم يسكن

= وقال له أهله في مثل هذه الليلة من الأسبوع القادم، ستقرأ لنا دعاء ليلة النصف من شعبان كما عودتنا، فأفادهم بعبارة لمح فيها بأنه لن يدرك هذا اليوم، وفعلا انتقل إلى جوار ربه في الثامن من شعبان سنة ١٣٥٢هـ الموافق ٢٥ من نوفمبر سنة ١٩٢٣م، بعد حياة حافلة بالعلم والعمل، رحمه الله وأحسن جزاءه، ونفعنا بحب الصالحين دنيا وأخرى بجاه سيد المرسلين ﷺ، .. آمين

فى حى بعيد عن الحى الذى يعيش فيه شيخنا، ولم تكن بينهما صلة صداقة أو قرابة، أو أى معاملة أبداً.

تعجب شيخنا من زيارته له، ودخوله عليه فى هذه الساعة، وبعد حديثهما عن الصالحين ومناقبهم، وعن فضل الصلاة على رسول الله ﷺ وصيغها المتعددة ومزية كل صيغة وفضلها قدم هذا العالم للشيخ نسخة مخطوطة، تجمع مختلف الصيغ الكثيرة الفضل، المضاعفة الأجر، فى الصلاة على المصطفى ﷺ وتسمى (كنوز الأسرار فى الصلاة والسلام على النبى المختار) للشيخ الفاسى، وقال هذا العالم لشيخنا ﷺ خذ هذه وانقلها، واجعلها وردك فإنها عظيمة النفع والبركة، فقال له شيخنا: (عمن نقلتها؟) فقال: (نقلتها عن الشيخ الأشمونى ﷺ)، شيخى وعالم الأزهر المشهور، وأوصانى بقراءتها، لأنها ذات سر عجيب فى الفتح، ومقربة من حضرة المصطفى ﷺ فعلم الشيخ أن هذه منة من الله تعالى، مساقة إليه على يد هذا العالم.

فنسخ الشيخ هذه الصلوات فى أيام قليلة، كما كانت عادته المسارعة فى إنجاز أمور الدين والآخرة، وجعلها الشيخ ورده، فكانت مفتاح كل خير له، ووسيلة للنجاح والفلاح.

نهجه فى عبادته قبل سلوكه الطريق

كان الشيخ ﷺ يعبد ربه قبل سلوك طريق القوم استجابة لرغبة فطرية عنده، وإشباعاً لميل طبيعى لديه، دون إذن من شيخ، أو تتلمذ على أحد من رجال الطريق، فكان هذا التعبد تمهيداً ومقدمة لدخوله الطريق وتأهيلاً له ليكون جديراً بالأمانة التى يعده الله لها.

فقد كانت الصلاة على رسول الله ﷺ ديدنه كما مر سابقاً، مع تلاوته الدائمة للقرآن الكريم، فكان محفظاً إياه لأبناء قريته، وغير هذا تلاوته سورة الإخلاص إثنى عشر ألفاً كل يوم، وهذا العدد لسورة الإخلاص ليس باليسير، فقد كان يشغل جل وقته، حتى كان يتلوها فى الطريق، وفى كل مكان.

وكان الشيخ يحدثنا في ذلك ويقول: إن شدة انشغالى بها، وجريانها على لسانى، وانطباعها فى قلبى، جعلنى عندما يلقى على السلام من أحد؛ وأنا جالس، أو مار فى الطريق أرد بقولى:﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ...﴾ ظاناً أنى أرد بذلك السلام، فكنت إذا أفقت، عدت ورددت السلام.

وكذلك عند إلقائى السلام على أحد كنت أشير بيدى، فأقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص] ثم أعود فأقول: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

ولعلك تلحظ أيها القارئ أن الشيخ رضوان الله عليه، قد ملكت عليه هذه السورة كل أحاسيسه ومشاعره، واختلطت بدمه وعمرت جَنانه، حتى لتوقن أنه بهذا كان فى حضرة هذه السورة مع ربه، بعيداً عن شغل هذه الدنيا وظروف الحياة، وما يجرى فيها من هموم وأكدار، أو انشغال بأمر المعاش أو هم الرزق.

وهذا العدد الذى مرَّ، وإن كنا لا ندرك خاصيته، لعله إلهام من الله، ولِسِرٍ لا يعلمه سواه، وعلى ما نظن أنه لم يكن باختياره، ولعله كان مأموراً به.

وإن شئت قلت إنه عدد الأفلاك السيارة فلعله بهذا يتنقل من فلك إلى فلك أو يسير من حضرة إلى حضرة قرباً ودنواً من ربه أو أنه يعبد الله متنقلاً فى الحجب الإثنى عشر التى كان يعبد فيها سيد الخلق ربه قبل التكوين.

فقد روى عنه ﷺ أنه كان يتنقل من حجاب القدرة إلى حجاب العظمة إلى حجاب المنة إلى آخر ما روى عنه فى ذلك؛ وبهذا ندرك سر قوله ﷺ "كنت نبياً وآدم منجدل فى طينته" [1] فكأنما كان يوحى إليه ويعى ذلك قبل بدء العالم وشيخنا له بذلك هذا الإرث قبل ظهور ولايته والله يختص برحمته من يشاء.

---

[1] رواه الإمام أحمد فى مسنده و الحاكم فى المستدرك و البيهقى فى دلائل النبوة

كتابته المصحف الشريف:

وظل الشيخ ﷺ على هذا التعبد الفطرى، حتى جاوز عمره الثلاثين، فأحس برغبة ملحة، ودفع قوى، وميل شديد إلى نسخ القرآن الكريم بيده، ولم يلبث أن سارع مستجيباً لهذه الرغبة، كعادته فى الإسراع إلى تنفيذ ما يرد عليه، أو يلهمه من فعل الصالحات، وعمل المبرات، فاعتكف لهذا العمل الجليل خمسة وعشرين يوماً، أتم بانتهائها كتابة المصحف كله أجزاء، بخط النسخ الجميل، مع الشكل، ووضع علامات الوقف والوصل، وكل الرموز التى بالمصحف.

وهذا مما يدل على علو همة الشيخ، ومضاء عزمه، وقوة إرادته، ومما يدل أيضاً على دقته فى كل أموره زخرفته أوائل السور فى المصحف الذى نسخه وكذلك أوائل الأجزاء، وتجليد كل جزء من أجزائه الثلاثين بغلاف جميل متين، كل ذلك بيده دون مساعدة غيره، أو إشراك أحد، وما زال هذا المصحف موجوداً بين أيدينا، شاهد حق، ودليل صدق على ما قلناه.وكان ﷺ أثناء كتابته المصحف دائم الصوم، كثير السهر، قليل الطعام، يشعر بروحانية عجيبة وهمة عالية، ونشاط كبير، فتنبأ أن هذا الأمر من الله، وأنه له ما بعده، ولعلمه أن لمن كتب المصحف دعوة مجابة، سأل قلبه، وتردد فى صدره: أى دعوة أدعو؟ ولم يجد فى قلبه عقب الفراغ منه غير التوجه إلى الله، بالحمد والشكر والثناء عليه؛ إذ منَّ عليه بالتوفيق لإتمام هذا العمل، ثم رجاه سبحانه أن يتقبله منه، خالصاً لوجهه، وأن يسلك به السبيل إليه، وأن يوفقه لما يحبه ويرضاه، ويحسن له الختام وللمسلمين، وقد اقتصرت دعوته على ذلك، حيث إنه قد خلا قلبه من متع الدنيا وزخارفها، وجاهها ومناصبها، فلم يلتفت إلى شيء من ذلك، ولم يجد فى قلبه غير الله وسلوك الطريق إليه فطلبه.

قبول عمله وتخليده

وعلى أثر كتابة الشيخ للمصحف الشريف مباشرة رأى فى منامه جمعية من رجال الله، مختلفى الملابس والمقامات، يقلبون صفحات أجزاء هذا المصحف، ثم نظر بعضهم إلى بعض نظرة إعجاب وتقدير، وقرروا قبوله، وتداوله فى المناسبات التى يتلى فيها

القرآن الكريم بين أهل القرية، لتوافر الإخلاص فى كتابته، وصدق النية فى نسخه. فقام الشيخ من نومه مسروراً لتقبل عمله ورضا الله عنه.

ومن هذا نستدل على أن المخطوط باليد فيه سر وبركة وأنه يلبس ثوب الحال التى كان عليها صاحبه أثناء العمل له، وينال كل من نظره، أو تلا فيه شيئاً من ذلك الحال، ويحظى من أثر صاحب تلك اليد التى مسته وقامت بعمله، بسره وبركته، وانظر قوله تعالى ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ [طه:٩٦] ففى الأثر سر صاحبه، ومن هنا كان التبرك بأثر السلف والأولياء الصالحين.

وفعلاً تداول المسلمون فى القرية هذا المصحف، فى مناسباتهم الدينية، وأنهم كانوا يتحدثون بما يحسونه من حال حسنة ونفحة طيبة عند تلاوتهم فى هذا المصحف الشريف، معجبين بحسن خطه، وجميل تنسيقه وبديع تزيينه، وجودة شكله، ورقمه بعلامات الوقف المشهورة، فكان هذا عملاً مبروراً، نفع الله به الكثير. وما زال نفعه وفضله إلى الآن، وإلى ما شاء الله "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له" عن أبى هريرة– رواه مسلم.

وعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته، علماً عَلِمَهُ ونشره، أو ولداً صالحاً تركه، أو مصحفاً ورثه، أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله فى صحته وحياته تلحقه من بعد موته". رواه ابن ماجه.

عزلة الشيخ فى بيته

وبعد كتابة الشيخ للمصحف الشريف، وجد عنده نزوعاً إلى الاعتكاف الدائم، وميلاً إلى اعتزال الناس اعتزالاً تاماً، فترك المكتب الذى كان يحفظ فيه القرآن لأبناء قريته، واعتكف فى منزله بعيداً عن أعين الخلق، واشتغل بالعبادة والذكر، وتلاوة القرآن الكريم والصلاة على النبى ﷺ.

وإن المتتبع لسيرة شيخنا يجده ﷺ قد درج به ربه مدراج المصطفين الأخيار من الأولياء والصالحين، إذ شأن الله فيهم أن يعدهم لتحمل رسالته وأمانته، باستقامة منذ النشأة، وعزلة وخلوة، وبعد عن لهو الدنيا وزخارفها إلى غير ذلك من وسائل التربية والتأديب والإعداد.

ومما يدل دلالة واضحة لا شك فيها على أن شيخنا كان وارثاً نبوياً منذ نشأته أنه – كما قلنا سابقاً – نشأ يتيماً كرسولنا الكريم ﷺ، وفقيراً إلى ربه كذلك، وحببت إليه العزلة، والبعد عن الأغيار، والجوع والسهر، والصمت إلا عن ذكر الله، كما حبب ذلك إلى الرسول ﷺ فاعتزل الناس، وانفرد لعبادة ربه فى غار حراء قبل البعثة، ولم يكن هذا منه متعمداً أو متكلفاً، بل يؤخذ إلى كل ما سبق أخذاً، ويقام فيه ما شاء الله له، فإذا ما أتمه أو خرج منه أقيم بأمر آخر من العبادة أو الذكر وملك عليه حسه وشعوره وهكذا شأن الله مع خاصته، يخلصهم له ويصفيهم لوداده وإمداده، والله يختص برحمته من يشاء.

العزلة عند الصوفية

إن العزلة لا بد منها لكل سالك لطريق القوم ولا سيما من كان مراداً للحق تعالى ليكون مُسَلِّكاً فى طريقه، وداعياً إليه، لأن التخلص من مخادع النفس لا يكون غالباً إلا بالفكرة ولا تتم الفكرة إلا بالعزلة، ولذا قال ابن عطاء فى حكمه (ما نفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة) فلا خير فى عزلة لا فكرة فيها ولا خير فى فكرة لا سند لها، ولا دليل من الشرع يؤيدها، إذ المقصود من العزلة هو تفرغ القلب، والمقصود من التفرغ هو جولان القلب واشتعال الفكرة، والمقصود من اشتعال الفكرة تحصيل العلم وتمكنه من القلب، وتمكن العلم بالله من القلب هو دواؤه، وغاية صحته وهو الذى سماه الله (القلب السليم) قال تعالى:﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨،٨٩] أى صحيح، وقد قالوا: إن القلب كالمعدة إذا قويت عليها الأخلاط مرضت، ولا ينفعها إلا الحمية وهى قلة موادها، ومنعها من كثرة الأخلاط، وحقاً: "المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء" فكذلك القلب إذا قويت عليه الخواطر واستحوذ عليه الحس وسدت صور الكائنات منافذ بصيرته فأظلم وتخبط

صاحبه في متاهات الهوى والضلال، ولذا قيل (كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته) فهذا مرض القلب، وربما مات فلا ينفعه إلا الحمية، وهي البعد عن الناس والفرار منهم، ومن مساكنتهم والأنس بهم والميل إليهم، والاعتماد على تلك المظاهر فإذا اعتزل الناس نجح دواؤه، واستقام قلبه، وإلا بقي سقيماً، حتى يلقى الله بقلب سقيم، بالشك والخواطر الرديئة، نسأل الله العافية، وهذه عزلة أهل البدايات.

أما عزلة أهل النهايات فكما قال ابن عباد: أهل النهاية عزلتهم مصحوبة معهم، ولو كانوا في وسط الخلق، لأنهم ﷺ أقوياء، وهم المحجوبون بالجمع عن الفرق [1]،

---

(١) الفرق احتجاب بالخلق عن الحق، وبقاء الرسوم الخلقية، وكل ما فيه نسبة إلى العباد، ورؤية الكسب منهم، فهو بوصف التفرقة، فالفرق إذن شهود الأغيار وإسناد الأعمال إليها.
أما الجمع فشهود الحق بلا خلق، أو شهود تلك الأغيار بالله، والتبري من الحول والقوة، فمن لم ير في الكون فاعلا إلا الله فهو مجموع بالله، أشهده سبحانه ما يبديه أو يوليه لعباده أو لنفسه من معان ولطف وإحسان.
أما إذا كان مستهلكا بالكلية، مصطلما، مأخوذا عن حسه وشعوره، فانيا عما سوى الله، عند غلبات سلطان الحقيقة، فيسمى جمع الجمع، وهو مرتبة الأحدية، فإذا عاد العبد من فنائه الكلي، وأدرك وعقل، ورأى قيام الخلق بالله، وشاهد الكثرة في الوحدة، والوحدة في الكثرة، من غير احتجاب بأحدهما عن الآخر، فهذا يسمى الفرق الثاني، فهو رجوع لله بالله، أو يسمى البقاء بالله، فالفرق الأول للعوام، حجبتهم المكونات عن المكون، والفرق الثاني للخاصة، يشهدون أنفسهم وغيرهم، في تصريف القدرة، وفي قبضة الحق، ومع هذا يعطون لكل رتبة حقها، لا يحجبهم فرقهم عن جمعهم، وشهود ربهم، ولا يحجبهم جمعهم عن فرقهم من القيام التام بآداب العبودية، والخضوع العام للألوهية، وفي هذا الشأن قال سيدي أبو الحسن الشاذلي: "إذا أردت الحقيقة التي لا لوم فيها ولا عتب، فليكن الفرق على لسانك مشهودا، والجمع في قلبك معقودا"، وهذا هو الكمال، تكون بالشريعة ظاهرا، وبالحقيقة باطنا، ولو تأملنا ما جاء بالكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه نجده قد جمع الأمرين، فقال تعالى "والله يدعو إلى دار السلام، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم" ففيها جمع وفرق، أو حقيقة وشريعة، وقال "إياك نعبد وإياك نستعين" "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى" فنفى ما أثبته، وأثبت ما نفاه، وقلنا: إن المخلص من هذا، ملاحظة الجمع والفرق معا، فلا ينفي الجمع الفرق، كما لا ينفي الكشف المجاهدة، والحقيقة الشريعة، والوصول الطلب، لذا قال بعضهم: "هما متلازمان، لا جمع دون خضوع لحكم

وبالمعنى عن الحس، واستوى عندهم الخلوة والخلطة،لأنهم يأخذون النصيب من كل شيء، ولا يأخذ النصيب منهم أى شيء، وفى هذا المعنى قال قائلهم:

الخلق نوار وأنا أرعيت فيهم ** هم الحجب الأكبر والمدخل فيهم[1]

وقد قيل: عزلة الرسم بالأجسام والروح، أما عزلة الكاملين فهى اعتزال الناس بالروح لا بالجسم، كالخلفاء الراشدين،يعاشر الواحد منهم الناس ببشريته وهو منصرف عنهم بروحانيته، وهذا هو الصوفى الصادق الكامل.

أنظر إلى أبى بكر،وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما،وجل الصحابة ﷺ،كانوا فى مقام التمكين والرضا، مخالطين للقوم، مراقبين الله فى كل خطرة تخطر على قلوبهم، وفى كل خطوة تخطوها أقدامهم، مشاهدين الحق فى الخلق، وكذلك العبد إذا وصل إلى امتلاء قلبه بالحق، وفراغه من الخلق لا يضره اختلاطه بالناس أو بقاؤه منفردا، إذ هو مع الله على كل حال، ولقد روى أن أبا مدين ﷺ قال: (مكثت أكلم الله ثلاثين سنة، والناس يظنون أنى أكلمهم) فهذا مخالط للقوم مشاهد للحق، وذلك هو مقصود القوم الأسمى.

الفرق، كالعبادات والمجاهدات، ولا تفرقة دون الإشارة إلى الجمع، فالجمع خصوصية، والفرق عبودية، لأن من صميم الخصوصية القيام بفروض العبودية، ومن طبيعة العبودية الإشارة إلى الخصوصية".

(١) والمعنى والله أعلم أن الخلق كالنوار (الزروع) على مظاهر وأنواع وأحوال وشئون مختلفة والناظر فيهم يرى ما يعجبه ظاهرا أو يسر نظره، ويعجب لتلك الكثرة المختلفة، ولكنه لا يرى حقيقتهم ولا سرهم فإذا رأى بعين بصيرته ما انطوى عليه هذا الخلق من أسرار باطنية تشهد للخالق سبحانه بتعدد تجليات صفاته أدرك عظمة الخالق وعرفه قدر علمه به، فهم حجاب إن نظرت إلى ظاهرهم وهم المدخل لرؤية آثار تجليات الحق وكمالاته إن لحظت باطنهم فانظر بالعينين ظاهرا وباطنا وأعط لكل حظها تكن عارفا حقا.

كان ﷺ مأخوذاً عن نفسه، وشئون دنياه، مجذوباً إلى ربه، مستغرقاً فى ذكره لا يجد منه جلاسه ما كانوا يجدون منه كسابق عهدهم به، ولا يحدثهم بأكثر من قوله: (مرحباً) ثم ينخرط فى سلك عبادته، ويستغرق فى حاله مع الله منصرفاً عمن حوله، حتى لا يكاد يشعر بمن حضر، أو بمن انصرف، ولما عرف أصدقاؤه ومعارفه حاله تلك انصرفوا عنه وكانت رحمة من الله به، إذ تفرغ له تماماً، ولم يشغل بسواه.

ظل مستغرقاً كذلك فى جو روحى محبب إليه، متنقلاً من ورد إلى ورد، ومن ذكر إلى تسبيح، إلى تلاوة لكتاب الله، إلى الصلاة على المصطفى ﷺ، وكان من إكرام الله له أن يسوق له عند الفرائض من يؤمه، ويصلى به، ثم يرجع إلى حاله مع ربه، واستغراقه فى عبادته، ومما يروى أن بعض الصوفية استغرق فى حاله، وصار لا يحس بمن حوله، ولما سئل فيه سيد القوم الجنيد ﷺ قال: (ما حاله عند الفرائض؟ فقيل له: يرد إلى صحوته، فيصلى الفرائض فى أوقاتها، ثم يرجع إلى استغراقه، فقال: إنه حال صدق، الحمد لله الذى حفظ عليه دينه)، فهذا هو العبد المجموع بالله أو المستغرق فى شهوده سبحانه، الفانى عنه نفسه[1].

---

(١) ولذا قال بعض ساداتنا "الجمع جمعان"، جمع تصحيح وسلامة، وجمع تكسير، فالأول: الذي يمنحه الله العبد في ساعة غلبته ووجده، دون إسقاط التكاليف، فيرد من غيبته لأداء فرضه وللقيام بواجب عبوديته، إذ هو سبحانه متوليهم، فهو يردهم إلى الفرق، حرصا منه على الإبقاء على طابع العبودية، في نفس عبده، وصونا لأحكام شرعه، إذ نفوسهم بيده سبحانه، لا يملكون منها شيئا، كما حدث للشبلي وغيره.
والثاني: جمع التكسير، وهو الذي يضطرب فيه ذهن الإنسان فيغيب عقله بحيث يكون عاجزا عن القيام بواجباته الدينية، فيسقط عنه التكليف شرعا ولعل التعبير بالتصحيح والتكسير مأخوذ من اصطلاح أهل اللغة، والحق جمع فيه الكمال للقيام بواجب العبودية وجمع مأخوذ صاحبه.

وفى أثناء فترة العزلة شعر بحرارة شديدة فى جسمه دون مرض، فكان يصب على جسمه الماء البارد، بل كانت تغمر ثيابه كلها فى ذلك الماء، ويلبسها فسرعان ما تجف، ويشعر بالحرارة، فتستبدل بها أخرى مبللة، وكان يراق على رأسه الماء البارد دائماً، كل ذلك لتلطيف حرارة جسمه، وكانت هذه الحرارة وليدة الأنوار الواردة عليه، والتجليات الوافدة إليه، يشعر بذلك كل من دخل الطريق حديثاً وكان ذا إخلاص، ونية صادقة، وكان مراداً للحق.

ومن هنا منع القوم شرب الماء عقب مجلس الذكر، حتى تسكن الأنوار الحاصلة من الذكر في القلب، وتستقر فيه؛ لما ثبت من أن شرب الماء بعد الذكر مباشرة، يطفئ الأنوار الحاصلة منه، وكم نبه على ذلك كثير من أئمتنا الصادقين، وسادتنا المربين.

ظهور بثور على جسمه

ولما اشتدت هذه الحرارة ظهر على جسمه بثور(كالدمامل) فلم يبق فى جسمه موضع خال منها، وهو ﷺ لم يهتم بذلك، ولم يفتر عن عبادته، ولم تشغله عن أذكاره وأوراده، بل ظل مأخوذاً، مواصلاً أذكاره، تالياً أوراده، غير ملتفت لما أصابه، ولا عابئ بما يلم به.

عالجه شاب مترف

رأى الشيخ فى نومه شاباً مترفاً، من أهل القرية، لا صلة له به، ولم تربطه به أى علاقة، يقوم بتمريضه، ورعاية هذه القروح وتضميدها، إذ انصرف هو عن الاهتمام بها ومعالجتها فاشتد أمرها فى جسمه.

وفى الصباح دخل عليه هذا الشاب، وقص عليه نفس الرؤيا، التى رآها الشيخ، وما أن سمع الشيخ من الشاب ذلك حتى ابتسم، وكشف له عن جسمه وقال له:(انظر أترى هذا؟) قال:(نعم) وفى الحال شمر الشاب عن ساعديه، وأخذ يعالج تلك القروح، دون ما تأفف، واستمر على ذلك ستة أشهر يتردد على الشيخ حتى برئ بإذن الله.

ولا شك أن هذا كان إعداداً للشيخ، وتأهيلاً لما اختاره الله له، وتصفية وابتلاء، خرج منه الشيخ بعون الله مؤيداً منصوراً، راضياً مرضياً عنه فى ذلك، فكم من محنة فى طيها منح، وذلك الابتلاء فضل من الله، ورحمة بالشيخ، وكريم لطف به؛ إذ إنه لا يخرج من هذا العالم الأرضى ليكون من أهل الله، وممن ترتع روحه فى حضرته وتجول فى الملأ الأعلى إلا إذا تخلص من بشريته وجسمانيته، فلا يعلو إلى تلك المنازل أو ينعم بهذه الحضرات إلا من ترك الشهوات، وتطهر من الغفلات، وطريق التخلص منها هو المجاهدات الشديدة والرياضات الشاقة التى يطول أمدها، فلعل الله اختار للشيخ هذه (الدمامل) ليخلصه من بشرياته سريعاً، فيختصر الطريق له، وليسرع به إليه، وليتم له المقصد الأسمى، وهو التخليص ليكون من أهل التخصيص ومن رحمته أن ساق له من يتعهدها وفرغه له.

شيخنا من المرادين السالكين

إن شيخنا أحبه الله، فجذبه إليه جذبة غيبته عن الأهل والأصدقاء، وألزمته بيته عاكفاً على عبادة ربه، سالكاً طريقه، فكان مجذوباً متداركاً بالسلوك، وفى هذا الصدد يقول الإمام السهروردى ﷺ:-

الشيخ قد يكون مأخوذاً فى ابتدائه فى طريق المحبين، وقد يكون مأخوذاً فى طريق المحبوبين، وذلك أن أمر السالكين على أربعة أقسام:-

١) سالك مجرد ٢) مجذوب مجرد

٣) سالك متدارك بالجذبة ٤) مجذوب متدارك بالسلوك

١) فالسالك المجرد: لا يؤهل للمشيخة ولا يبلغها لبقاء صفات نفسه عليه، فيقف عند حظه من رحمة الله تعالى، فى مقام المعاملة والرياضة ولا يرتقى إلى حال يروح بها عنه من وهج المكابدة.

٢) والمجذوب المجرد: من غير سلوك يبادئه الحق بآيات اليقين. ويرفع عن قلبه شيئاً من الحجاب، ولا يؤاخذ فى طريق المعاملة، وهذا أيضاً لا يؤهل للمشيخة، ويقف عن حظه من الله مروحاً بحاله، غير مؤاخذ فى طريق أعماله ما عدا الفريضة.

٣) والسالك الذى تدورك بالجذبة: هو الذى كانت بدايته بالمجاهدة والمكابدة والمعاملة بالإخلاص والوفاء بالشروط، ثم أخرج من وهج المكابدة إلى روح الحال، فوجد العسل بعد العلقم، وتروح بنسمات الفضل وبرز من مضيق المكابدة إلى متسع المساهلة وأونس بنفحات القرب، وفتح له باب المشاهدة، فوجد دواؤه وفاض وعاؤه وصدرت منه كلمات الحكمة، ومالت إليه القلوب، وتوالى عليه فتوح الغيب، وصار ظاهره مسدداً، وباطنه مشاهداً، وصلح للجلوة، وصار له فى جلوته خلوة، فيغلب ولا يغلب، ويفترس ولا يُفترس، يؤهل مثل هذا للمشيخة، لأنه أخذ فى طريق المحبين، ومنح حالاً من أحوال المقربين، بعد ما دخل من طريق أعمال الأبرار الصالحين، ويكون له أتباع، ينتقل منه إليهم علوم، ويظهر بطريقه بركة، ولكن قد يكون محبوساً فى حاله، محكماً حاله فيه، ولا يطلق من وثاق الحال، ولا يبلغ كمال السؤال، يقف عند حظه، وهو حظ وافر سنى، ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١].

٤) المجذوب المتدارك بالسلوك: وهو المقام الأكمل فى المشيخة، يبادئه الحق عز وجل بالكشوف وأنوار اليقين، ويرفع عن قلبه الحجب، فيستنير بأنوار المشاهدة وينشرح قلبه، ويتجافى عن دار الغرور، وينيب إلى دار الخلود، ويرتوى من بحر الجمال ويتخلص من الأغلال والأعلال، ويقول معلناً: "لا أعبد رباً لم أره" ثم يفيض من باطنه على ظاهره، وتجرى عليه صورة المجاهدة والمعاملة من غير مكابدة وعناء، بل بلذة وهناء، حتى يصير قالبه بصفة قلبه، لامتلاء قلبه بحب ربه، ويلين جلده، كما لان قلبه، وعلامة لين جلده، إجابة قالبه للعمل كإجابة قلبه، فيزيده الله تعالى إرادة خاصة ويرزقه محبة خاصة المحبوبين المرادين، يقطع فيواصل ويعرض عنه فيراسل، ويذهب عنه جمود النفس، ويصطلى بحرارة الروح وتنكمش عن قلبه عروق النفس، قال الله تعالى:﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣].

أخبر جل شأنه أن الجلود تلين كما أن القلوب تلين، ولا يكون هذا إلا حال المحبوب المراد، فالمحبوب المراد هو الذى أُهل للمشيخة، وقد سلم قلبه، وانشرح صدره، ولان جلده فصار قلبه بطبع الروح، ونفسه بطبع القلب، ولانت النفس، بعد أن كانت أمارة بالسوء مستعصية، ولان الجلد للين النفس، ورد إلى صورة الأعمال بعد وجدان الحال، ولا تزال روحه تنجذب إلى الحضرة الإلهية، فيستتبع الروح القلب، ويستتبع النفس القالب، فامتزجت الأعمال القلبية والقالبية، وانخرق الظاهر إلى الباطن، والباطن إلى الظاهر، والقدرة إلى الحكمة، والحكمة إلى القدرة، والدنيا إلى الآخرة، والآخرة إلى الدنيا، ويصح له أن يقول: (لو كُشف الغطاء ما ازددت يقيناً) فعند ذلك يطلق من وثاق الحال، ويكون مسيطراً على حاله، ويصير حراً من كل وجه.

وشيخنا – بحمد الله– من القسم الرابع؛ إذ جذبه ربه إليه، وأراده له، فبينما هو يعلم الصبيان القرآن الكريم فى المكتب إذ ألح عليه الحال بالاعتكاف فى بيته، وترك مزاولة الأسباب، وافتقده أصحابه وخلانه فى المجالس التى كان يغشاها، وأشيع عنه انه تجرد لربه.

الرسول هو المربى لشيخنا

الرسول ﷺ هو المربى الوحيد لشيخنا من غير فخر؛ إذ استمر فى عزلته وعبادته وذكره بأسماء وأوراد كان يلقنها مناماً والعدد الخاص بكل اسم، وطريقة الذكر به، وكذا أنواع الرياضات، كحرمانه من بعض أنواع الطعام وتحديد أيام الصيام وعدد ركعات التهجد، ثم خطر على قلب شيخنا ما يراد بى؟ أأسلك طريق القوم بلا شيخ؟ فأتاه الرسول ﷺ مناماً وقال له(خير الأمور أوساطها، الروح المحمدى يتولاك) فاستيقظ الشيخ مستبشراً مطمئناً، وزاد ذلك فى همته، وشد من أزره، وقوى عزيمته، وعلم أن كل رؤياه حق وصدق وأنه سالك حقيقة طريق القوم؛ وذلك لأن المريد إما أن تجذبه يد العناية الإلهية، فيتولاه ربه بالتربية، وإما أن يتولاه الرسول ﷺ أو يسلك على يد شيخ عارف مُسَلِّك مأذون له فى التربية والإرشاد، أو يسلك الطريق بلا شيخ، وهو يكثر من الصلاة على الرسول ﷺوتكون هى شيخه.

وللشيخ وارد يفصل ذلك ويوضحه ونصه:

(الواصلون درجات؛ فمنهم عباد يتولى الله أمرهم، ومنهم من يتولى أمرهم المصطفى ﷺ، ومنهم من يسلك على يد شيخ، ومنهم من لا شيخ له، وهو يكثر من الصلاة على الرسول ﷺ، وتكون هى شيخه، وخير الأمور أوساطها، وهى الروح المحمدى، الذى يتولى العبد، وهو الذى يتولاك[1] الآن من البداية إلى هذا الوقت)

فاختار الله لشيخنا أوساط الأمور، فكان شيخه المصطفى ﷺ يتولى تربيته، ويرشده يقظة ومناماً على حسب الأحوال، حتى قال الشيخ بعد هذه الرؤيا: تلقنت من رسول الله ﷺ الأذكار والأوراد، وصرت أتعلم منه كيفية السلوك، والسير فى طريق الله، بل صار يعلمنى كل شىء، ويتولانى فى كل أمورى ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [آل عمران:٧٤].

وتولى الرسول ﷺ شيخنا بالتربية ليس ببدع فى طريق القوم، فكثير من الأشياخ تولى حضرة المصطفى ﷺ تربيتهم. منهم:-

١. سيدى عبد القادر الجيلانى، الشريف الحسنى.
٢. الإمام الرفاعى الحسينى.
٣. الشريف القطب سيدى عبد الرحيم القنائى، وكان ﷺيقول:(لا منة لأحد علىَّ إلا للرسول ﷺ).
٤. سيدى محيى الدين بن العربى.
٥. شيخنا الإمام أبو الحسن الشاذلى.
٦. السيد أحمد البدوى.
٧. السيد أبو العباس المرسى، الذى قال: (والله لو غاب عنى المصطفى ﷺ طرفة عين ما عددت نفسى من المسلمين)[2]

---

(١) هذا الوارد غير الأول وإن كان فيه جزء منه، فالأول بشارة والثاني تعليم.

(٢) قد يكون لبعض هؤلاء السادة أشياخ كسيدي المرسي ؓ فشيخه سيدي أبي الحسن ؓ فيقال إن شيخه ورثه الحال والطريق والقيام بواجب الدعوة إلا أن التربية والرعاية والمدد من حضرة المصطفى ﷺ يتولاه دائما ولا يفارق ناظره وذلك إما لعدم طول مقام ذلك المريد مع شيخه وهذا كثير أو لأن=

٨. العارف الشهير مكين الدين الأسمر، وكان يقول:(أنا ما رباني إلا رسول الله ﷺ).

وغير هؤلاء كثير كالسيد (البكرى)، والسيد (الدباغ)، و(الوفائى)، ومولاى (العربى الدرقوى)، و(ابن عجيبة)، و(محمد بن ظافر المدنى).

أقوال العارفين فى رؤية الرسول ﷺ يقظة

يقول العارف سيدى محمد المغربى الشاذلى (المراد برؤيته ﷺ يقظة يعنى يقظة القلب، لا يقظة الحواس الجسمانية؛ لأن من بالغ فى كمال الاستعداد والتقرب صار محبوباً للحق، فإذا أحبه كان فى نومه من كثرة اليقظة القلبية كحال اليقظة التى لغيره، فهو مقام من مقامات العارفين، كالمقام الخِضرى، الذى يتحدث فيه العارف عن اجتماعه بالخضر).

ولكنا نقول: إن كلمة مقام فى هذه العبارة تشعر بأن هذا لا يكون إلا بعد قطع كثير من مراحل الطريق، وشيخنا بحمد الله من أول قدم له فى الطريق كان المصطفى ﷺ يرعاه ويتولاه، ونعنى من كلمة اليقظة، المشافهة، ولقد جرى كثيراً فى عباراتهم، أنهم شافهوه ﷺ، وليست المشافهة يقظة القلب فحسب، بل تمام اليقظة الحسية.

ولتعلم أيها القارئ أنَّا لا نقول لك بالمشافهة لشيخنا، أو لغيره، ممن رباهم المصطفى ﷺ فى بادئ طريقهم إلى الله، بل نقول إنه ﷺ تولى شيخنا أولاً بالتأييد والرعاية، والإلهام والرؤية فى المنام، حتى انجلت مرآة قلبه، فكان يرى الرسول ﷺ عياناً، ويشافهه، ولتفهم أنه لو أتاه فى يقظته، وشافهه بعد صقل مرآته، وانخراق نور بصيرته فى بصره، والناس

=استعداده كذلك وأيضا المريد الناجح بعد وصوله واستقلاله يقول له شيخه: قد دللتك على الطريق وها أنت وربك، فيتولاه النبي ﷺ أو الحق تعالى وكما ورد عن سيدي أبي الحسن ﷺ لما سئل عن شيخه فقال أما في البداية فسيدي ابن مشيش والآن استقي من عشرة أبحر خمسة سماوية وخمسة أرضية فالسماوية جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والروح أما الأرضية فحضرة المصطفى ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم فليلتفت إلى ذلك لعدم الشك أو التلبيس فيما ورد عنهم.

من حوله، لعلم منه وفهم ما يلقى إليه، ولم ير الجالسون أحداً، ولم يشعروا بشيء، إذ تتجسد روحه ﷺ فى صورة جسده الشريف، فلا يراه غير الشيخ، أو يأتى فى صورة حسية لشخص آخر يعرفه قد يراه بعض الحاضرين، (كما جاء جبريل فى صورة دحية) فهذه منازل ومشاهد لا تقاس بالعقل، ولا تدرك بالحس، فصدق تغنم، وسلم تسلم.

وإذا لم تر الهلال فسلم *** لأناس رأوه بالأبصار

واعلم – وفقك الله وهداك وبلغك مناك– أن رؤيته ﷺ يقظة لا غرابة فيها للأولياء الواصلين، فالمصطفى ﷺ يحضر كل مجلس أو مكان أراده بجسده وروحه وهيئته التى كان عليها قبل وفاته، وقد ذكر الشعرانى فى (لواقح الأنوار): (إن أكثرت من الصلاة على النبى ﷺ فربما تصل إلى مقام مشاهدته ﷺ، وهى طريقة الشيخ (نور الدين الشونى) والشيخ (أحمد الزواوى) والشيخ (محمد المنزلاوى) فلا يزال أحدهم يصلى على محمد رسول الله ﷺ، حتى يجتمع به يقظه، ومن لم يحصل له الاجتماع فهو إلى الآن لم يكثر من الصلاة على النبى ﷺ، أو لم يؤد الصلاة عليه كما ينبغى من استحضار صورته وهيئته أو أداها وهو مشغول الفكر مشتت الخواطر، وكم رآه السادة الأول، السابق ذكرهم ممن رباهم ﷺ).

يقول الشيخ جلال الدين السيوطى: (اجتمعت به ﷺ نيفاً وسبعين مرة)[1] وقد ألف ﷺ كتاباً سماه (تنوير الحلك فى إمكان رؤية النبى والملك). وأهم ما فى الموضوع من أوله ما رواه البخارى وغيره عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "من رآنى فى المنام فسيرانى فى اليقظة، ولا يتمثل الشيطان بى".

واختلفوا فى قوله "فسيرانى فى اليقظة"، قيل: معناه فسيرانى فى القيامة، ونعقب بأنه لا فائدة من التخصيص؛ لأن كل أمته يرونه يوم القيامة، من رآه منهم مناماً ومن لم يره.

[1] ذكر ذلك النبهاني في مقدمة كتاب "الفتح الكبير بضم الزيادة إلى الجامع الصغير"

وقيل: المراد فسيراه قبل وفاته عند موته، وقال قوم: هو على ظاهره، فمن رآه مناماً فلا بد أن يراه يقظة بعينى رأسه، وقيل: بعين فى قلبه، حكاهما القاضى أبو بكر بن العربى.

وقال ابن أبى جمرة، معلقاً على هذا الحديث الذى اختاره من البخارى: "إن الحديث يدل على أن من رآه ﷺ فى النوم فسيراه فى اليقظة، وأن من أنكر رؤية المصطفى ﷺ فهو إما غير مصدق بقول الصادق الذى لا ينطق عن الهوى، أو جاهل بقدرة القادر".

وفى قصة قتيل بنى إسرائيل وضربه ببعض البقرة... إلخ، وقصة إبراهيم عليه السلام والطير، وقصة العزير، البرهان والدليل والراحة لكل ذى نظر كليل، وما جاء من أخبار ممن كان لهم شرف الرؤية يقظة، وأنهم سألوه ﷺ أسئلةً حار الكل فيها، فأخبرهم بالجواب الشافى لدليل واضح وبرهان ساطع على صحة الاجتماع به، وكيف نؤمن بكرامة الولى وخرقه العادة ولا نؤمن بذلك ... ألم تكن هذه كرامة، وخارقةً للعادة.

والحديث الذى حار فيه علماء العصر، وذهبوا إلى سيدى (أبى الحسن الشاذلى) رضي الله عنه وقالوا له: إنك تراه ﷺ يقظة فسله: هل قال ذلك؟ أم لم يرد عنه؟، فأخبرهم أنه ﷺ قاله، وأخبر بتفسيره فاستراح الكل، وآمنوا بفضل سيدى (أبى الحسن) رضي الله عنه والحديث رواه مسلم"إنه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة"[1] فقال ﷺ: (غين أنوار لا غين أغيار يا أبا الحسن).

ومما لا شك فيه أن مرتبة الأخذ عنه ﷺ مرتبة عزيزة، من مراتب كمل العارفين، يصلون فيها إلى درجة مشاهدته ﷺ فى جميع شئونهم وأمورهم، ومن هذه المشاهدة تسرى إليهم العلوم والمعارف، التى تنمى استعدادهم، وتسقيهم بالعلوم فى كل لحظة.وللعارفين بالله عز وجل علامات فيمن بلغ هذه المرتبة، أهمها العلم بالكتاب والسنة، والاهتداء بهديه ﷺ فى جميع الأقوال والأعمال والأحوال، والتحقق بشعب

---

[1] رواه مسلم عن الأغر المزنى و هو من الصحابة رضي الله عنه

الإيمان، ومعرفة أدب كل وقت[1] وكل حال وابتغاء الله عز وجل فى كل أمر من أمور الوجود إلى آخر ما ذكروه من شروط لا تخفى على أحد.

خلواته

بعد انتهاء مدة العزلة أمر الشيخ بالخلوة، مع مراعاة شروطها، والعناية بحقوقها، وواجباتها كما قررها القوم، إذ للخلوة الصوفية شروط وآداب، ذكرها علماء الصوفية فى كتبهم، فاشترطوا فيها ما يأتى:

---

(١) الوقت: ما أنت فيه من دنيا أو عقبى، أو سرور أو حزن، ويقولون: "الصوفي ابن وقته" يريدون بذلك أنه مشتغل بما هو أولى به من العبادات، قائم بما هو مطالب به في الحين، تخلص من ماضي وقته ومستقبله، منجمعا بالله، ناسيا ما فات، لا يفكر فيما هو آت، مشغولا بما نزل، قائما بما لزم.
وقد يريدون من الوقت ما يصادفهم من تصريف الحق لهم، دون اختيار منهم، فهم مستسلمون لما يبدو، قائمون بما يجب من آداب العبودية، وأداء فروض الربوبية، والكيس من كان بحكم وقته، فإن كان وقته الصحو قام بحق الشرع، وإن كان وقته المحو فغالبه أحكام الحقيقة، ومثلوه بالسيف، قاطع بحده جذور الماضي والمستقبل، فمن لاينه سلم، ومن خاشنه اصطلم، كذلك الوقت من استسلم لحكم الله فيه بما ورد نجا، ومن عارضه انتكس وتردى.
وإذا قيل: "إن فلانا حاكم على وقته، وهو بحكم الوقت"، يريدون أنه مستسلم لما يرد، قائم بما يجب.
وقالوا: "إن وقت العبد لا يخلو عن أربعة، فإما أن يكون في نعمة فواجبه الشكر ورؤية المنعم فيها، أو في طاعة فواجبه القيام بها والتبري من النسبة والحول والطول، أو في معصية فواجبه الاستغفار والتوبة والإنابة، وأنها قدر الله فيه، أو في مصيبة فواجبه الصبر والاستسلام لحكم الله عليه، بذا يكون العبد ابن وقته، نجا من قطعه، وسلم من حده، إذ اشتغالك في وقت بما لم يلزم، تضييع له، فيأتي الوقت الثاني فيطالبك بحقه فتضطرب، أتقضي ما فات، أم تنشغل بما أنت فيه؟ ولذا ورد عنهم أنهم قالوا: "إذا فاتنا وردنا لطارئ علينا لم نجد وقتا آخر نقضيه فيه" إذ كل وقت فيه حكمه وقضاؤه وواجباته، فإن شغلت بما فات، أو بما هو آت ضيعت ما أنت فيه، والوقت ليس ملكا لك، حتى تبقيه، بل هو هبة الحق وعطيته، ولذا كانوا على أوقاتهم أحرص منا على دنانيرنا، جاهدوا أنفسهم بحكم الوقت، وحبسوها على موجبات الحق، ففازوا بما وهبوا، ونالوا ما رغبوا، "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين" قال أبو الحسن الشاذلي ﷺ لكل وقت سهم من العبودية فإياك أن تؤخر طاعة وقت لوقت فتعاقب بفوتها أو فوت غيرها أو مثلها".

إخلاص النية لله، وقطع مادة الرياء والسمعة، ولا يعلق همته بالكرامات.

أن تكون الخلوة فى بيت صغير إن أمكن بحيث لا يزيد ارتفاعه على قامة الإنسان وطوله، ويمكنه من الصلاة فيه، وعرضه بقدر جلسة الإنسان، ويكون بعيدا عن الأصوات والحركات، ليس فيه منفذ للضوء، وبابه قصير وثيق جهة القبلة.

والمقصود بهذا كله سد الحواس الظاهرية؛ لتفتح الحواس الباطنية، ولهذا لا يتحرك بحركة عبثا، لا بلحيته ولا بثوبه، ولا يقتل حيوان مثل القمل وغيره لأن الحركة تضره، ولا يخرج لصلاة الجماعة إلا إذا أقيمت فى المسجد المختلى فيه، أو يقتدى بالخادم أو بغيره ممن يوكل به وهو داخل الخلوة إذا كانت الخلوة بعيدة عن المسجد.

وإذا خرج إلى صلاة الجمعة فليكن ساترا وجهه ورأسه، وبمجرد أن يسلم الإمام يعود فورا إلى خلوته.

ولا يدخل المريد الخلوة عن هوى نفس، أو نزغة شيطان، بل لا يجوز للمريد دخول الخلوة إلا بإذن من شيخه ما دام فى حجر التربية، وإلا كان قلبه لعبة فى أيدى الشياطين، وخرج من الخلوة بلا فائدة، إن لم يصبه ضرر محقق، ويؤيد ذلك ما أتى الشيخ من وارد نصه:

(لا تفيد الخلوة إلا إذا كانت بإشارة شيخ، وإلا ففسادها أكثر من صلاحها).

فإن وجد الشيخ أن المريد لا يَفيد من الخلوة عالجه بدواء آخر، ولم يأذن له بالخلوة.

ومن شروطها الصوم طيلة أيامها مع تقليل الطعام والشراب تدريجيا عند إفطاره، وليكن طعامه مما لا كلفة فيه، وألا يكون من ذى روح، ولا يخرج من ذى روح، وليدخل المريد الخلوة برجله اليمنى، ويظل مستقبل القبلة، دائم الطهارة لا يسند ظهره إلى شيء إلا بعذر، وبإذن من شيخه، كما حدث لشيخنا ﷺ إذ قال:

دخلت الخلوة، ونفذت كل شروطها، ولم أسند ظهرى إلى حائط، وكنت مريضا، فتألمت جدا، فأخذتنى سنة من النوم، فسمعت من يقول: (ما جعل عليكم فى الدين من حرج)، فأسندت ظهرى.

ولا يضطجع المختلى، ولا ينام إلا عن غلبة، ولا يخرج منها إلا لقضاء حاجته.

وليدخل الشيخ الخلوة قبل المريد، ويصلى فيها ركعتين، ويدعو للمريد، وإذا لم يكن الشيخ حاضرا وأذن له، فليستحضر صورة الشيخ بقلبه، ويتوجه به إلى الله تعالى أن يفتح له، ويسدد خطاه، ويحسن ختام خلوته، وليلازم استحضار صورة شيخه بين عينيه دائما، وليقدم المريد صدقة قبل دخوله خلوته، ويطهر بدنه بالغسل، وثوبه ومصلاه، وقلبه بالتوبة قبل دخولها، ثم يدخلها فيصلى ركعتين، يقرأ فى الأولى الفاتحة وقوله تعالى:﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً * أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا* وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا *وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء:٧٧-٨٠] وفى الركعة الثانية يقرأ بعد الفاتحة:﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٩] وقيل يقرأ فى الأولى آية الكرسى وفى الثانية: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ...﴾ [البقرة:٢٨٥]. إلخ.

وليكن عقد المريد عند دخول الخلوة أن الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] فكل ما يتراءى له من الصور فى خلوته، ويقول له (أنا الله)، فيقول: سبحان الله، ولا يطلب من الله تعالى فى خلوته سواه، ولا يعلق همته بغيره، ولو عرض عليه كل ما فى الكون.

فإذا فتح الله على المريد بشىء، وأعطاه إياه، فليأخذه بأدب، ولا يقف عنده، وإلا فاته مطلوبه، ومن وجد الله تعالى فما فقد شيئا. قال ابن عطاء الله فى حكمه: (ما أرادت همة سالك أن تقف عند ما كشف لها إلا ونادته هواتف الحقيقة: الذى تطلب أمامك، ولا تبرجت ظواهر المكونات إلا ونادته حقائقها إنما نحن فتنة فلا تكفر).

ولا يفكر المريد فى شيء، ولا يحدث نفسه بشيء فى خلوته وليقطع الخواطر خيرها كان أو شرها؛ لأنها تفرق جمعية قلبه الحاصلة بالذكر، وليربط قلبه دائما بالشيخ وليعلم بأنه مجالس الحق تعالى، الذى يعلم هواجس الضمائر وما تكن السرائر.

وليعرض المريد المختلى على شيخه كل وارداته وأحواله،ولا يتصرف فى أى شيء إلا بإذنه، وليكن دائما مراقبا الحق، مصورا شيخه أمامه[1]. وأن يعلم أن كل ما حصل له من نعمة إنما هى من شيخه وهو عن النبى ﷺ.

مدة الخلوة وزمنها

يحدد مدة الخلوة وزمنها الشيخ لمريده، والخلوة التامة أربعون يوما، لقوله ﷺ: "من أخلص لله تعالى أربعين صباحا تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه"[2]، وذلك لأن الأربعين هى المدة التى تنتقل فيها الطبيعة من طور إلى طور، كانتقال النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى الصورة، ولقد ورد فى تفسير قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ [الإنسان: ١]، أن أبانا آدم مكث أربعين سنة منجدلا فى طينته، وأربعين أخرى حمأ، وأربعين صلصالا حتى نفخ فيه الروح. فالسنون لآدم كالأيام لبنيه[3].

---

(١) قيل لشيخنا "السر في الأشياخ لا في الأوراد" وهناك وارد آخر "راقب صورة شيخك وأنت تقرأ وردك واستمد منه واعلم أن الرسول ﷺ محيط بكما والله محيط بالكل هذا أساس الجمعية التي بها يتم الفلاح".

(٢) رواه أحمد فى كتاب الزهد عن مكحول مرفوعا و مرسلا،و ابو نعيم فى الحلية متصلا عن أبى أيوب الأنصارى و رواه القضاعى فى مسند الشهاب عن ابن عباس ﷺ

(٣) السر في الأربعين تخمير طينة أبينا آدم عليه السلام هذه المدة وكان ذلك قصد عمارة الدنيا لأنه خليفة الله في أرضه، ونزل إليها لعمارتها، ولا شك أن هذا التخمير في الطين مبعد لصورة آدم الروحانية عن مواطن القرب من الحضرة العلية فكان بهذا التخمير الحجب البشرية التي في الآدمية، فسن أسيادنا الخلوة الأربعينية لرفع وزوال ما لحق بالآدمية من الحجب الطينية وكأنما في كل يوم من خلوته يرفع حجابا من بشريته فيرجع إلى روحانيته، ويتخذ منزله في القرب من حضرته تعالى التي هي مجمع العلوم ومصادرها، فإذا تمت الأربعون بشروطها انصبت فيه العلوم والمعارف، يصدق ذلك الحديث المشهور=

وهكذا الدر فى الصدف، لا يتم تكوينه إلا بعد أربعين يوما، وهذا العدد هو الميقات الموسوى، قال الله تعالى:﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف:١٤٢].

ولذا قال بعض الصوفية:(من تعود شيئا من الطاعات أربعين يوما صار له مقاما ثابتا لا يتغير) فمثلا من كان يهمل التهجد من المريدين كان يقول له الشيخ: واظب عليه أربعين ليلة يصير لك مقاما ثابتا لا يتغير، ولا تتخلف عنه بعد ذلك أبدا إن شاء الله، وأيضا من أراد التحلى بصفة حسنة كالكرم والحلم مثلا أو التخلى عن مذموم من العادات فيتكلف ذلك ويجاهد نفسه فى تفعل تلك الصفة أربعين يوما ثم تصير صفة لازمة له، ومصداق ذلك قوله ﷺ:"إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم"[1]

ومن القوم من يختلى أقل من الأربعين، أو أكثر منها حتى كان بعضهم يختلى الثلاثة الأشهر (رجب وشعبان ورمضان) ويرجع فى ذلك- كما قلنا آنفا- إلى الشيخ المربى، فهو الذى يحدد أيام الخلوة، والأذكار التى يذكر بها المريد ربه فيها.

الفرق بين العزلة والخلوة

الخلوة الصوفية التى درج عليها القوم لا تقل عن أربعين يوما غالبا، ولا يخرج منها إلا لقضاء الحاجة أو صلاة الجمعة، ولا يكلم فيها أحدا إلا من وكل بخدمته، فيشير إليه بما يريد، أو يكتب له إليه رغبته.

أما العزلة فيجوز خروجه منها لقضاء بعض حوائجه، ولا مانع من التحدث إلى أهل بيته من غير إسراف، وليست فيها أيام محدودة، ولا أوراد معينة وإن كانت العزلة والخلوة يشترط فيهما الصوم، والبعد عن تناول كل ذى روح، وما تولد منه.

=السابق وعلامة ذلك زهده في الدنيا، وتجافيه عن غرورها، فمن لم يزهد فيها بعد الأربعين، ما ظفر بالحكمة وتبين عدم صدقه، وأنه أخل بشروط الخلوة، فعندهم كل خلوة لا تثمر العلوم والحكمة والزهد فالعيب في المختلي، وأنه لم يقم بها حسب آدابها، وأنه معلول الباطن، فليعالج.

[1] رواه الطبراني في الكبير و الأوسط و أبو نعيم عن أبي الدرداء ﷺ

فالخلاصة أن الخلوة انقطاع بالكلية عن أسباب الحياة، وليعتبر المريد أنها قبر له فيها نهايته.

أما العزلة فهى تقليل- ما أمكن- من الاختلاط بالناس، والبعد عن الاشتغال بأسباب الحياة.

فوائد العزلة والخلوة

إن الصوفية حين اتخذوا الخلوة أو العزلة علاجا لتطهير النفس لم يسلكوا طريقا غير مشروع أو غير مستساغ عقلا ولا شرعا، بل إن الشرع يقرهما، والعقل لا ينكرهما؛ إذ أن فيهما تطهير للقلب، وتطهيره فرض كما قال الله تعالى:﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨،٨٩]

والقلب السليم هو القلب الصحيح من أمراضه، مثل: الغل والحقد والحسد والكبر والعجب والفخر والرياء وحب الثناء والمحمدة كما أن فيهما تزكية للنفس، وهى أمارة بالسوء، بل هى عدو لصاحبها، قال رسول الله ﷺ: "أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك"[١].

ولذا ذكر علماء الصوفية فى كتبهم فوائد العزلة والخلوة، للترغيب فيهما، ولبيان أنهما العلاج الوحيد، لمن أراد التخفيف من كثافة بشريته، أو التخليص لقلبه من أمراضه، أو التزكية لنفسه من أهوائها وشهواتها، وقد أجملوا الفوائد فيما يأتى:

١- السلامة من آفات اللسان، فإن من كان وحده لا يجد من يتكلم معه، وقد قال ﷺ "رحم الله عبدا سكت فسلم، أو تكلم فغنم" رواه البيهقى فى الشعب عن أنس وفى الخبر "أكثر خطايا ابن آدم فى لسانه"[٢]. وأكثر الناس ذنوبا يوم القيامة أكثرهم

---

[١] رواه البيهقى فى الزهد عن أنس

[٢] أخرجه الطبراني و البيهقي عن ابن مسعود و رجال الطبراني رجال الصحيح

خوضا فيما لا يعنى، ولأن الكلام اللغو يقسى القلب، ويطمس البصيرة، ويضيع الوقت سدى، فهو لا خير فيه.

٢- حفظ البصر، والسلامة من آفات النظر، فإن من اعتزل الناس سلم من النظر إليهم، وإلى ما هم منكبون عليه من زهرة الدنيا وزخرفها، قال تعالى:﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه:١٣١]

فبالعزلة أو الخلوة تمنع النفس من التطلع إلى الدنيا، والاستشراف لها، ومنافسة أهلها، قال أحمد بن سيرين ﷺ: إياك وفضول النظر، فإنه يؤدى إلى فضول الشهوة.

وقال بعض الأدباء:(من كثرت لحظاته دامت حسراته).

وقالوا: (إن العين سبب الحيْن) أى الهلاك (ومن أرسل طرفه اقتضى حتفه)، وإن النظر بالبصر إلى الأشياء يوجب تفرقة القلب.

٣- حفظ القلب وصونه عن الرياء والمداهنة وغيرهما من الأمراض.

قال بعض الحكماء: (من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راءاهم، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا، فهلك كما هلكوا).

وقال بعض الصوفية: قلت لبعض الأبدال المنقطعين إلى الله: (كيف الطريق إلى التحقيق؟ قال: لا تنظر إلى الخلق، فإن النظر إليهم ظلمة، قلت: لا بد لى، قال: فلا تسمع كلامهم، فإن كلامهم قسوة، قلت: لا بد لى، قال: فلا تعاملهم فإن معاملتهم خسران وحسرة ووحشة، قلت: أنا بين أظهرهم، لا بد لى، قال: فلا تسكن إليهم، فإن السكون إليهم هلكة، قلت: لعل هذا يكون إن شاء الله، قال: يا هذا، تنظر إلى اللاعبين، وتسمع كلام الجاهلين، وتعامل البطالين، وتسكن إلى الهالكين،وتريد أن تجد حلاوة الطاعة وقلبك مع غير الله؟ هيهات هيهات!. هذا لا يكون أبدا، ثم غاب عنى).

وقال القشيرى ﷺ: (أرباب المجاهدات إذا أرادوا صون قلوبهم عن الخواطر الرديئة لم ينظروا إلى المستحسنات) أى من الدنيا قال: وهذا أصل كبير لهم فى المجاهدات، وفى أحوال الرياضة.

٤- حصول الزهد فى الدنيا والقناعة فيها وفى ذلك شرف العبد وكمالاته، وسبب محبته عند مولاه، لقوله ﷺ: **"ازهد فى الدنيا يحبك الله، وازهد فيما أيدى الناس يحبك الناس"**[1].

ولا شك أن من اعتزل الناس، ولم ينظر إلى ما هم فيه من الرغبة فى الدنيا والانكباب عليها، يسلم من متابعتهم فى ذلك، ويسلم من متابعة الطباع الرديئة والأخلاق الدنيئة، وقلّ لمن يخالطهم أن يسلم مما هم فيه، وقد روى عن عيسى ﷺ: (لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم، قالوا: من الموتى يا روح الله قال: المحبون فى الدنيا، الراغبون فيها).

٥- السلامة من صحبة الأشرار، ومخالطته الأراذل، ففى مخالطتهم فساد عظيم، وخطر جسيم، وفى بعض الأخبار (مثل الجليس السوء كمثل الكير إذا لم يحرقك بشرره علق بك من ريحه)[2]. وقال سيدى عبد الرحمن المجذوب ﷺ: (الجلسة مع غير الأخيار ترذل، ولو تكون صافيا).

أوحى الله إلى داود، (ارتد لنفسك إخوانا، وكل أخ لا يوافقك على مسرتى فلا تصحبه، فإنه لك عدو يقسى قلبك، ويباعدك منى).

قال ابن عجيبة ﷺ (فإن أردت الصحبة فعليك بصحبة الصوفية، فإن صحبتهم كنز لا نفاد له) وقال الجنيد ﷺ (إذا أراد الله بعبد خيرا أوقعه إلى الصوفية، ومنعه صحبة القراء).

---

[1] رواه ابن ماجة والطبراني وغيرهما عن سهل بن سعد الساعدى ﷺ

[2] من حديث رواه أبو داود و أحمد في المسند عن أبي موسىﷺ وفي رواية أخرى عن أنس ﷺ

وقال بعض الصوفية: (والله ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح).

٦- فى العزلة التفرغ للعبادة والذكر، والعزم على التقوى والبر، ولا شك أن العبد إذا كان وحده تفرغ لعبادة ربه، وانجمع عليه بجوارحه وقلبه، لقلة من يشغله عن ذلك.

قال أبو طالب المكى فى قوت القلوب: (وأما الخلوة فإنها تفرغ القلب من الخلق، وتجمع الهم بالخالق، وتقوى العزم على النيات... إلى آخر كلامه).

٧- فى العزلة وجدان حلاوة الطاعات، ولذة المناجاة لفراغ سره، قال ابن عجيبة: (وهذا صحيح مجرب) وقال أبو طالب المكى: (ولا يكون المريد صادقا حتى يجد فى الخلوة من الحلاوة والنشاط والقوة ما لا يجده فى العلانية، وحتى يكون أنسه فى الوحدة، وروحه فى الخلوة، وأحسن أعماله فى السر).

٨- فى العزلة راحة القلب والبدن؛ فإن فى مخالطة الناس ما يوجب تعب القلب بالاهتمام بأمرهم، وتعب البدن بالسعى فى أغراضهم، وتكميل مرادهم، وإن كان فى ذلك الثواب فقد يفوته ما هو أعظم وأهم، وهو جمع القلب فى حضرة الرب، وهو غاية الأدب.

٩- فى العزلة صيانة نفسه ودينه من التعرض للشرور والخصومات التى توجبها الخلطة، فإن للنفس تولعا وتسرعا للخوض فى مثل هذا إذا اجتمعت بأرباب الدنيا، وزاحمتهم فيها.

١٠- فى العزلة التمكن من عبادة التفكر والاعتبار، وهو المقصود الأعظم من الخلوة، وفى الخبر(تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة) [1].وكان عيسى عليه السلام يقول: (طوبى لمن كان كلامه ذكرا، وصمته تفكرا، ونظره عبرة، وإن أكيس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت).

---

[1] ذكره صاحب كتاب كشف الخفا(١٠٠٤)

وقال كعب (من أراد شرف الآخرة فليكثر من التفكر)، وكان أفضل عبادة أبى الدرداء التفكر؛ وذلك لأن التفكر يصل به العبد إلى حقائق الأشياء، وتبين الحق من الباطل، ويطلع به على خفايا آفات النفوس ومكائدها، وغرور الدنيا، ويتعرف به وجوه الحيل فى التحرز عنها، والطهارة منها.

ولهذه الفوائد العظيمة للعزلة، والمنافع الجليلة للخلوة، كان شيخنا ﷺ دائم العزلة عاكفا على الذكر والعبادة، والصوم والرياضة، لا يفتر لحظة من اللحظات، بل كان نشيطا ذا همة قوية، وعزيمة فتية، حتى أمر بخلوة صوفية، بشروطها وأركانها السالفة.

القسم الثانى

تربيته وتسليكه

خلوات الشيخ رضي الله عنه

الخلوة الأولى

أمر الشيخ بالخلوة الأولى، فى تسعة الأيام الأولى من ذى الحجة؛ إذ لها فضل عظيم، ومنزلة كبيرة عند الله بمضاعفة الأجر، ولا سيما إذا أضيف إلى ذلك تصفية النفس، وتطهير القلب، وإزالة الحجب والأغيار، ولقد نزل فيها قوله تعالى ﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١، ٢].

وقال رسول الله ﷺ: **"ما من أيام أحب إلى الله تعالى أن يعبد فيها من عشر ذى الحجة يعدل صيام كل يوم فيها بصيام سنة، وقيام كل ليلة منها بقيام ليلة القدر"** رواه الترمذى عن أبى هريرة.

وهذه هى أولى خلواته، وكان فيها صائما قائما ساهرا ذاكرا، لا يكلم أحدا إلا بإشارة أو كتابة.

وقد حدث فى الخلوة الأولى أنه أراد أن يمارس رياضة خاصة بآية الكرسى؛ لينال سر هذه الآية وخواصها، فرأى فى أول ليلة شريط سكة حديدية، وأن ذراع (السيمافور) لا يشير بالمرور، فقام من نومه مصمما أن يرى نهاية هذه الرياضة، فرأى أيضا فى الليلة الثانية أن الطريق مسدود أمامه، وفى الليلة الثالثة قال له قائل: إن الطريق إلى الله واحد، وهو الطريق الحق، فلا يوصل إلى الله طريقان، بل طريق واحد، فإما أن تختار طريق الحق وهو الموصل إلى الله وإما أن تختار الطريق المزيف، وعاقبته معروفة عند العقلاء، فقام من نومه نادما متأسفا تائبا، وظل فترة يبكى عما بدر منه، ويعتذر لربه أسفا على أنه لم يرجع من أول مرة.

والطريق المزيف سبيله الرياضات على نحو معروف؛ لتكون سببا إلى استخدام جنى مؤمن، أو ملك أرضى فى تلبية طلباته، وإجابة رغباته، ومثل هؤلاء ينخدعون بما يظهر

على أيديهم من خوارق حسية، تجلب لهم الناس، ويقصدهم الطلاب، ليترجموا عما فى ضمائرهم، ويحدثوهم عما يجول فى نفوسهم، فيعتقدوا أن هذا الرجل هو الذى لا ولى مثله فى عصره، وهو عن الولاية بمعزل، وعن الحق فى منأى، فلا شك أن هذا مقصد غير الحق، فإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وليكن العبد متأسيا بسلوك الصالحين، ونهج العارفين فى الوصول إلى الحق على قدم الشريعة المحمدية، والسنة النبوية، ليكون ربانيا حقا، ثم يفوض بعد ذلك أمره إلى الله، فيتولى شئونه، ويقضى حاجاته، ويسوق له ما يوافق حاله، ولا يشغله بشىء دونه؛ ليظل منجمع القلب على الله، وهذا عين التأييد والرعاية.

ومن هذا الوقت أقلع عن هذه الرياضات، وأصبحت وجهته واحدة وهى الله، وقد دلل فى مجلس من مجالسه على أن الرياضة التى لا توصل إلى الله لا خير فيها، بل قد تكون سببا فى هلاك القائم بها لغير الله، وذكر لنا الشيخ ﷺ قصة رجل طلب- من الشيخ (جودة أبو عيسى) وهو من أولياء الله الكبار، (مدفنه ومزاره بمنية القمح شرقية)- إذنا برياضة آية الكرسى رغبة فى الدنيا وتحصيلها، فقال له الشيخ (جودة):(ابعد عن هذا الطريق، فإنه محفوف بالأشواك) فأبى الرجل قائلا: إنى فقير أستعين بها على أمر عيشى، ومن عادة المشايخ أنهم ينصحون المريد مرة ومرة، وفى الثالثة يتركونه لقضاء الله فيه، ويعزفون عن نصيحته، فلما أبى وأصر على ممارسة هذه الرياضة قال له:(اذهب فافعل ما تريد)، وفعلا توجه إلى بلده واختلى، وأخذ يقرأ آية الكرسى بأعدادها المعروفة، فكانت النتيجة قبيل نهاية الخلوة من هذه الرياضة أن خرج له من زاوية الحجرة رجل قصير جدا، وعلى رأسه (طرطور) أحمر طويل يمسك بحربة من نار، وأراد أن يضربه بها، فاستغاث بالشيخ جودة،ذلكم الولى المعروف، وطلب منه العون على نجاته من هذا العدو، فحضرت روحانية الشيخ جودة فى صورته البشرية فتأدب ذلك العدو فى حضرة الشيخ جودة وما زال يصغر حجمه شيئا فشيئا حتى انصرف، ثم غشى على هذا الرجل، فلما أفاق خرج من خلوته، وتوجه إلى الشيخ جودة فى (منية القمح) وما أن دخل عليه حتى فاتحه بقوله:(لو ما كانش جودة لحقك كنت عملت إيه؟)، وظل ذلك الرجل مخبولا، وقد خولط فى عقله مدة، ثم مات متأثرا بهذه الواقعة بعد قليل.

ويعقب الشيخ ﷺ بعد ذلك بقوله: (وهذا مصير من قصد غير الله فى عبادته، واختلى من أجل دنياه، واتبع نفسه وهواه، وخالف توجيهات الشيوخ).

وإن من يهوى تسخير جنى، أو استخدام ملك- كما يزعم- أو يحضر الأرواح ليخبروه بالمغيبات الأرضية، وليقضوا له بعض مطالبه، وليجمع الناس عليه فهو بطال، وضال ومضل، وسرعان ما يتخلى عنه شيطانه، أى ذلك الجنى الذى استخدمه فيرجع إلى سابق أمره، وما جنى إلا الخسران، وما حصّل إلا الوبال، نسأل الله الهداية إلى الطريق المستقيم، والصدق مع الله فى كل حال.

وبحمد الله، قد لمس الشيخ تماما قيمة الخلوة، وأثرها فى تزكية النفس، وأحس بعدها بما لم يشعر به من قبل، وزج بروحه فى الملأ الأعلى، وأدرك يقينا فائدة الخلوة فى القرب من الله ومعرفته، وأن ما ناله ووصل إليه فى تلك الفترة الوجيزة قد لا يصل إليه فى سنين، فحقا للخلوة فوائد جليلة، يعلمها أهلها، ولا بد منها فى البداية، ومن ذاق عرف.

الخلوة الثانية

وكانت خلوة الشيخ الأولى مقدمة (لخلوة أربعينية)، وكان فى هذه الخلوة قد أخذ عن نفسه حتى نسيها، ونسى حاجتها من الطعام أو الشراب، فكنا نسمعه يقول: (إنى كنت فى أثناء الخلوة لا أفكر فى أمر المعيشة، حتى رغبت عن الطعام، فلا أتناول منه إلا القليل، وإنى لأفطر على خمس زبيبات أو سبع، وفى السحور أكتفى بلقمة أو لقمتين، ومع ذلك فأنا لا أحس بضعف ولا فتور)، وكانﷺ يقول: (لقد حرمت النوم، فكم كنت أتمنى منه ولو إغفاءة، حتى تحسب نافلة الليل تهجدا؛ لأن التهجد لا يكون إلا بعد نوم، وإلا كانت الصلاة تطوعا).

ومن عناية الله به أن أمر بكتابة متن السنوسية فى التوحيد، فى لوح، كصبيان المكاتب، وحفظه كما يحفظ القرآن الكريم، وذلك لأن الشيخ السنوسى ﷺ هو الذى أدى الشهادة بحق، كما أخبر بذلك شيخنا ﷺ.وبعد أن حفظ الشيخ متن السنوسية، صارت ضمن أوراده فى خلوته وما بعدها.

كما أمر أيضا بحفظ متن أبى شجاع فى الفقه الشافعى، واستيعاب شروح العلماء عليه، وهذا لأنه ﷺ سيكون إماما فى الدعوة إلى الله تعالى، فلا بد أن يكون عالما بأحكام الشريعة، التى تصح بها العبادات والمعاملات.

مشاهداته فى الخلوة

وكان ﷺ يحدثنا عن بعض مشاهداته فى الخلوة مشوقا إيانا؛ ومرغبا لنا فيها فيقول: (إننى كنت عندما أقرأ القرآن فى المصحف تنهمر دموعى، حتى تبلل كل صفحة من صفحاته التى أقرؤها، وكنت لا أدرى لهذا البكاء سببا).

هذا ومما يجدر بالذكر أن الشيخ كان يؤثر القراءة فى المصحف قائلا: (إن القراءة فى المصحف ذات ثواب أكبر، وأجر أعظم، لأخذ كل جارحة حظها من كتاب الله).

وكان ﷺ يقول: (كنت أذكر الله بأسمائه [1] الحسنى، فكلما ذكرت باسم، تلون الجو أمامى بلون خاص، فكنت أشاهد الجو، أصفر مرة، وأحمر مرة ثانية، وأخضر ثالثة، وأبيض رابعة، إلى غير ذلك من الألوان، بل قال: إن الطعام، وسائر ما حولى كان يتلون بذلك اللون).

وهذه الألوان على سبيل المثال، بل يرى لكل اسم لونا خاصا، وهذا قد سمعناه منه ﷺ مشافهة دون واسطة[2].

وقد علل لذلك أهل السلوك أن السيار فى طريقه إلى الحق يخرج من بشريته شيئا فشيئا، ومعنى ذلك تخليه عن بعض صفاته النفسية، فتترقى نفسه من أمارة إلى لوامة... إلى آخر مراتبها السبعة، فعلى حسب صفة كل نفس يرى الذاكر الكون أمامه بهذا

---

(١) أمر بذكر كل اسم من أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين، كل اسم مائة ألف كما أمر بذكر أسماء لله غيرها، الوارد مشتقاتها في القرآن كالمحيط مثلا ونحوه لأن كمالات الله لا تنتهي عند حد.

(٢) وإن كل ما نذكره عن شيخنا إما أن نكون قد رأيناه من طول معاشرتنا له أو سمعناه منه مرارا أو من ثقاة كانوا مخالطين له قبل اتصالنا به.

الوصف، فهو فى ترقيه يتأقلم بالمنزل الذى يحل فيه من السير وقطع عقبات النفس، فيجد نفسه وما حوله بصورة ذلك الحال ويظل ما شاء الله، ثم ينتقل إلى آخر وهكذا.

فهذه الألوان إما لكل نفس من النفوس السبعة أو للمرتبة التى رقى إليها فيرى صورتها كذلك.

ولهذا قال العارفون: إن الذاكر المخلص المحق تنفعل له الأكوان، ومن هنا يأتى تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]

فكانت الجبال والطيور تنفعل بالذكر الذى يذكر به سيدنا داود ﷺ، فذكره حرك هذه الجمادات، وجعلها تتجاوب معه فتذكر بما يذكر به.

ومما روى عن سيدى أبى الحسن ﷺ أنه قرأ يوما سورة الأنعام إلى أن بلغ قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ [الأنعام: ٧٠]، فأصابه حال عظيم وجعل يكررها ويتحرك وكلما مال إلى جهة مال الجبل نحوها إلى أن سكن فسكن الجبل.

ومما يروى عن سيدى (على وفا) ﷺ أنه نزل إلى أرض مكسوة بالزرع، فاستغرق فى الذكر يقول:(... الله... الله...) حتى صارت كل نبتة تقول معه(... الله... الله...) بصوت مسموع.

ومما أثر أيضا عن القطب الدسوقى ﷺ أنه كان يأمر أصحابه بقولهم (يا دائم) فى ذكرهم عقب الصلاة، فمر بعض المنكرين عليهم، وهم يذكرون بعد صلاة الظهر، بهذا الاسم، فاستولى على المنكر سلطان الذكر حتى سمع كل من فى الوجود يقول (يا دائم) فخر مغشيا عليه، ورجع عن إنكاره، وهذه الحالة التى استولت على المنكر ليست بعجيبة، فإن كل من يستغرق فى ذكره يسمع كل الموجودات تذكر بهذا الذكر، ولكن العجيب هو سريان الحال من جماعة القطب الدسوقى إلى المنكر حتى تاب، وعدل عن إنكاره.

فهؤلاء كانوا يسمعون الجمادات تذكر بذكرهم، ولكن الشيخ ﷺ كان يرى الجمادات تتلون بلون نفسه في مراقيها، أو المشاهد والمقامات التي يمر بها أو المنازل التي كان يحل فيها.

وليس معنى هذا هو تسبيح الجمادات المعنى في الآية الكريمة: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤]، فإن لكل جماد تسبيحه الخاص، أما ما سبق فهو انفعال الأكوان للذاكر وتسبيحها بتسبيحه.

ومن هنا يقولون: إن من سمع الجمادات تذكر بذكره، فهذا لشدة حال الذاكر، وقوة همته، وانخراق الذكر منه إلى تلك الجمادات، فذكرت بما يذكره، ولكن المتمكن الذي يسمع تسبيح الجمادات، يسمع لكل جماد تسبيحه الخاص به، لا أنها كلها تسبح وتذكر بذكر موحد، ويعلم الفرق أن من سمع تسبيح الجمادات وذكرها بما يذكر، فهو من حاله الغالب عليها، أما من سمع لكل منها تسبيحه الخاص فهو تسبيح حقيقي للجماد، لا أنها منفعلة بذكره وتسبيحه، وهذا لا يكون إلا للكاملين، فليتفطن إلى هذا.

الجن يستمع إليه في خلوته

وقد حكى لنا ﷺ، أنه أحس مرة- وهو يقرأ القرآن ليلا في خلوته- أن بعض الحصى والنوى يرمى به، ويجده في حجره، فتأثر لذلك، وفتح باب خلوته ليرى سبب ذلك، فرأى أشباحا تجري أمامه على سطوح المنازل المجاورة، وتمر على الحارات والشوارع فلا تسقط فيها، فعجب لذلك، ثم دخل فأغلق باب خلوته وقال: يا رب ما هذا؟ إني أختلي لك، وما شأن هؤلاء؟ وفي الحال أخذته سنة من النوم، فسمع من يقول له: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ..﴾ [الأحقاف:٢٩]. الآية

فسرى عنه، وسكن فؤاده، وعلم أنهم جن مؤمنون حضروا لسماع القرآن.فقلنا له:(وما هدفهم من رميهم الحصى والنوى؟) فقال ﷺ: (إن الجن مهما بلغوا من الصلاح

والتقوى لا تفارقهم الخفة، أو لعلهم أرادوا إعلامى بأنهم يستمعون إلىَّ، كى أرفع صوتى، أو أحبره لهم)[1].

ومن جملة ما حدثنا به شيخنا ﷺ: (أنه كان يلاحظ ويشاهد فى الخلوة أسراب النمل الغادية والرائحة على أرض وجدران الخلوة، وما كان يراها قبل دخول الخلوة، ولا بعد انتهائه منها، ولم يفصح لنا الشيخ عن حكمة ذلك إلا أنه كان يقول إنه لم يكن فى حجم ولا صورة النمل المعروف، وبحمد الله لا يقترب منى ولا يؤذينى).

زياراته لأضرحة الأولياء وهو فى خلوته

وقد أخبرنا أنه كان فى أثناء الخلوة يرى كل ليلة وفدا من الأولياء يصحبونه لزيارة أضرحة [2] الصالحين ويقول: (إنه كان يخرج لى كل ولى من قبره، ويوصينى بوصية أنتفع بها فى سلوكى، مبينا لى بعض ما صادفه من عقبات فى سلوكه لأتوقاها، فجمعت بذلك وصايا كثيرة من ساداتنا،وعرفت منهم كثيرا مما اعترضهم فى الطريق إلى الله وما حدث لهم من مزالق حتى أتحاشاها، ولأكون على بينة من أمرى، ولأن الطريق إلى الله تعالى ليست واحدة، فعرفت الكثير من طرق القوم فى الوصول إلى الله)

---

(١) وبهذه المناسبة نقول إن الرسول ﷺ لما ذهب إلى الجن ومعه سيدنا عبد الله بن مسعود ﷺ خط الرسول ﷺ خطا وقال له لا تبرحه فكان الرسول ذاهبا إليهم يعلمهم القرآن وليؤمنوا به ويبلغهم الدعوة فهم ليسوا شياطين ومع ذلك فقد خاف الرسول ﷺ منهم على ابن مسعود لئلا يؤذوه فهذه طبيعة الجن، الخفة وعدم الاتزان والتعقل ولا يمنع أن يكون منهم العقلاء المؤمنون المسالمون.

(٢) وحذار أيها القارئ من الشك أو الريب فتتساءل وتقول كيف يخرج الشيخ لزيارة الأولياء وهو في خلوته، وقد قلتم إن الخروج من الخلوة قبل تمامها يفسدها؟ إن هذا الخروج لم يكن بالصورة الجسمانية بل بالصورة الروحانية لأن الولي إذا وصل إلى مقام البدلية كانت لروحانيته القدرة على التشكل في عدة صور روحانية على هيئة الصورة الجسمانية، وقد حكى لنا بعض إخواننا في طريق الله أنه عندما أدخله الشيخ الخلوة وأغلق عليه بابها وجد عربة أركبوه فيها وطافوا به على كثير من أضرحة الأولياء، فقل لي بربك كيف يتأتى ذلك؟ والخلوة لا تتسع لعربة وقد كانت في الطابق الأعلى من المنزل وفي ذلك الوقت لم يكن الشيخ قد خرج ولا إخوانه من المنزل وما رأوا عربة خرجت ولا نحوها! فصدق ولا تنكر.

فالطريق إلى الله بعدد أنفاس بنى آدم أو الخلائق، وليست النفوس واحدة، فما يليق بهذه لا يليق بالأخرى حسب الطباع والاستعداد، فلكل علاجها وهمتها.

ومن عجيب ما حدثنا به فى هذا الشأن إنه كان يرى الولى حين يخرج من قبره بسماته التى كان عليها فى حياته مع أنه لم يلتق به، ولم يعاصره فى عالم الدنيا، ونتذكر من هؤلاء سيدى (عمر أبو عرقوب) جد الأشراف بشبلنجة، وضريحه بها معروف يزار، فقد خرج له من قبره، يلبس كفنه، عارى الرأس، أسمر اللون، وأخذ يرحب به، وبعد وصيته له دخل ضريحه، ثم قال الشيخ ﷺ وبعد ذلك انتقلت من ضريحه إلى أضرحة الأولياء المجاورين له.

زيارات ولقاءات

ومن عجائب ما حدث فى بعض خلواته، وعرفه خلص مريديه، أن حملت زوجته له طعاما كعادتها لتضعه أمام باب خلوته بعد أن تطرق بابها طرقا خفيفا إشعارا بإحضارها الطعام، ثم هو يأخذه، فأثار انتباهها وهى مقتربة من الباب سماعها حركة وأصوات جماعة داخل الخلوة، وهى توقن أن الشيخ وحده فى خلوته فأخذها حب الاستطلاع وبدون تفكير وجدت نفسها مندفعة إلى ثقب صغير خلال نافذة الخلوة المغلقة لعلها تطلع منه على جلية الأمر. فأصابها الذهول عندما رأت الخلوة الصغيرة المعروفة لها قد صارت حجرة واسعة فسيحة تمتلئ بصفوف من الرجال يلبسون العمائم والثياب البيض، فتضطرب ويتملكها الذعر وتخر مغشيا عليها مدة ثم بعد خروج الشيخ لأخذ الطعام يجدها كذلك فينبهها فتفيق ويسألها ﷺ عن أمرها فلا تملك إلا مصارحته والاعتراف بما حدث فيأسف ويحذرها العودة إلى مثل هذا خشية الضرر، وتكتم هى ذلك ولكن الشيخ ﷺ أفضى لنا به فيما بعد ذلك.

تلطيف الأنوار قصد الإفادة والاستقرار

ومما أخبرنا عنه أيضا هو فى خلوته أنه اشتد عليه الحال فى أول أمره، وزادت الأنوار، وترادفت عليه الفيوضات والتجليات حتى إنه كان يقول: (إنى لا أشعر لى بجسم ولا أحس لى بوزن، كأنما أنا أسبح فى الجو، وأحيانا كنت لا أشعر لى بأى

وجود ولا كيان، وكنت فى نشاط وخفة أتحرك كالكرة المصنوعة من المطاط) ومعنى ذلك أنه كان كالكرة تجدها دائمة الحركة لا تسكن فى مكان ولا تستقر على حال، حتى قال (كنت أتمنى إطباق الجفن على الجفن فى أى وقت ليستريح جسمى نوعا فلم أجد السبيل إلى ذلك، ورجوت أن تخف وطأة هذه الحال؛ كى أستقر وأستطيع أن أدرك معنى العبادة ولذتها، وأفهم قصد الحق فى كل تجلياته لى، فلا أكون فانيا لا أدرى ما يرد على فأذن لى بالأخذ فى بعض المباحات تخفيفا لهذه الحالة، فأحسست بنوع من الهدوء والسكون والاستقرار، وأفدت مما أنا فيه، وتمت لى المراقبة، لأن الفانى عن بشريته تماما لا يدرك ما هو فيه).

ولما كان ﷺ معدا للتسليك والإرشاد فلا بد أن يعلم تلك المنازل التى ينزلها والحضرات التى يحل بها وأدب كل وعلومها، وما يجب على العبد فيها، وما يقتطفه من علوم فى تلك الحضرات وما يحظى به من المشاهدات والتجليات، كى يفيد مريديه، ويستطيع أن يسلك بهم الطريق إليه.

ولعل هذا الإذن له ببعض المباحات التى كانت محظورة عليه فى الخلوة تخفيفا لحدة حاله تجعلنا ندرك السر فى ذهاب الرسول ﷺ عقب تهجده إلى السيد عائشة رضى الله عنها يحدثها أو يضطجع بجانبها محاولا إغماض عينيه قبيل الفجر برهة، يفعل ذلك لتعود إليه بشريته، فيستطيع أن يخرج إلى الناس ويصلى بهم ويجيب عن أسئلتهم ويرشدهم إلى ما يفيدهم[1].

---

(١) وقد روى صاحب كتاب قوت القلوب صفحة ٢جـ١ما نصه (قالت عائشة رضي الله عنها كان رسول الله ﷺ إذا أوتر من آخر الليل فإن كانت له حاجة إلى أهله دنا منهن وإلا اضطجع في مصلاه حتى يأتيه بلال يؤذنه بالصلاة).وقد استحب بعضهم هذه الضجعة قبيل الصبح حتى قيل أنها سنة عندهم، منهم أبو هريرة ومروان خصوصا لأهل المشاهدة والحضور لأنه كشف لهم عن الملكوت، واستماع العلوم من الجبروت ، وروى مسلم نحوه عن عائشة رضى الله عنها.

فكـذلك هـؤلاء القـوم يرثـون هـذا المقـام مـن سـيدهم ومـربيهم ﷺ إذ يفنـون عـن بشـريتهم، فيحتـاجون إلى مـا يعيـدها إلـيهم بشـيء مـن المباحـات لكـى يسـتردوا كامـل وعيهم ولتتلطف أنوارهم فلا تطغى على عقولهم فيتكلمون بما فوق العقول البشرية.

ومـن هنـا تكـون الشـطحات[1] وكلمـات السـادة التـى ينكرهـا علـيهم ذوو العقـول البشرية المحجورة؛ إذ هم فى تلـك الحـال يشـاهدون فيقولـون بمـا يـرون فـى العـوالم التـى جالت فيها أرواحهم ولا يدرون أن هذا ينافى الأوضاع العادية، ومـن هنـا أيضـا كانـت إنكارات الناس على كلام الصوفية وأحوالهم، إذ هم فـى الملأ الأعلـى وهـؤلاء مـا زالـوا فى طينتهم البشرية.

وقد استحب المربون، نومة خفيفـة للمريـد بعـد تهجـده الطويـل وسـهره فـى العبـادة قبيـل الفجـر، يسـتعيد فيهـا بشـريته ونشـاطه، وقـالوا: إن هـذه النومـة فيهـا خـير كـثير لا يحصى من واردات وعلوم وعرفـان، يعـز الحصـول عليهـا فـى غـير ذلـك الوقـت، إذ هـو وقت توزيع الجوائز للعاملين فليتفطن إلى ذلك السالكون، وليحرص عليه راغبوا المعرفـة وعلوم الحضرة العاشقون فإنه عزيز.

---

[1] الشطح: مأخوذ من الحركة لأنها حركة أسرار الواجـدين إذا قـوى وجـدهم ، فالشـطح لا يكـون مـن ولى متمكن بل محتجب و هو بوصف الوجد، فلقوة وجده لم يقدرعلى حمل ما ورد على قلبه من سطوة أنوار الحقائق فيسطع ذلك على لسانه فيتكلم بعبارة مستغربة لإشراقه على ما كان مستترا عنـه قبـل من مراتب درجات الخصوص، ويتكلم بالحقائق التى عليها إعتراض مـن الشـرع ، أو عـن أسـرار و مقامـات بينه و بين ربه ، فعند وجده يتكلم عن نفسه ملوحا بالدعوي، فإذا تمكن و علا قـدر علـى حمـل مـا يـرد عليه، وأمكنه التغب على نفسه فلا تفوه بما فيه دعـوى أو إعـتراض مـن الشـرع ، وعلـى كـل فهـذا يـدل على رعونة نفس عليها آثار و بقايا طبع وقد ينفعل ما يدعيه بقوة حال ، ولكن لا يدل على أنـه مرضـى عنه من الله–ولذا يندم و يستغفر بعـد زوال حالـه–و علـى أى حـال لـيس لأحـد الوقيعـة فيمـا قـالوا، ولا يقيس بفهمه و عقله أو ما وصل إليه حاله، لأنهم متفاوتون متفاضلون ولا نقد عليهم إلا ممن فاقهم وزاد عليهم ، وحيث إنهم من أهل الخصوص، فليس لأحد أن يعيبهم أو ينكر عليهم وليتهم نفسـه بـالغلط، و عدم الفهم لمقالهم حفظا لحرمتهم، ولئلا يضار بسبب ذلك، فالتسليم أسلم إلا فيما لا يقره الشرع فينصح و يعترض بلسان الشرع أو لا يقتدى بهم و هم فى حالهم، فإذا رجعوا إلى عقلوهم و تحلوا بالشرع لزمنا الإقتداء بهم.

حقا النية أبلغ من العمل ونية المرء خير من عمله [1]من ذلك ما روى لنا صاحب قوت القلوب أن أبا الدرداء، كان يقول: (إنى لأستجم نفسى ببعض اللهو، ليكون ذلك عونا لى على الحق) وكل عمل مباح للعبد، فيه نية حسنة، فهو مأجور عليه، وكل عمل فاضل لا نية للعبد فيه، فأحسن حاله السلامة منه، لا له ولا عليه، وربما كان مأزورا فيه، إذا دخلت عليه نية دنيا أو رياء فتكون طاعته أوجب للعقوبة منها إلى الثواب.

ومثال ذلك أن تكون له نية فى الأكل والشرب والنوم، ليتقوى بها على الطاعة، فذلك خير من الصيام والقيام من غير نية، فقد صار حينئذ الأكل والنوم والشرب هو الأفضل من الصيام والقيام من غير نية، مع أنهما عبادة.

وإن ساداتنا كانوا يتحرون خلوص نياتهم، وصدق مقاصدهم لله وألا يشركوا فى نياتهم وأعمالهم غير الله ولا عليهم بعد ذلك من الناس إن فهموا منهم غير الصواب فهم يجتهدون فى خلوص أعمالهم لله وصدق نواياهم له وإن دل ظاهر العمل على أنه غير لائق فى نظر الناس فهم يكتفون بعلم الله فيهم، ومن ذلك ما روى عن بعض الصوفية، الأبدال[2] قال: كنت قائما مع أبى عبيد التسترى وهو يحرث أرضه بعد العصر من يوم عرفة، فمر به بعض إخوانه من الأبدال، فساره بشىء، فقال، أبو عبيد:

---

[1] حديث "نية المرء خير من عمله"رواه الطبرانى فى المعجم الكبير و البيهقى فى شعب الايمان و أبو نعيم فى الحلية عن سهل بن سعد ﷺ

(٢) الأبدال: جمع بدل وقيل أنهم سموا بذلك لأنهم:-

١- أبدلوا أخلاقهم السيئة وراضوا أنفسهم حتى صارت محاسن أخلاقهم حلية أعمالهم.

٢- إذا غابوا تبدل في محلهم صور روحانية تخلفهم فإذا رحل البدل عن موضع ترك بدله فيه صورته الروحانية فتتجسد لأهل ذلك الموطن الذي رحل عنه فيكلموها وتكلمهم وهو غائب عنهم.

٣- إذا مات منهم رجل أبدل الله مكانه رجلا آخر.

وقد خصهم الله سبحانه وتعالى بحسن الأخلاق وسكونهم إليه بلا حركة فبهم يسقي الغيث ويكثر إدرار الفيض وينتصر بهم على الأعداء ويصرف بهم العذاب، لم يسبقوا بكثرة صلاة ولا صوم ولا تسبيح ولكن بحسن الخلق وصدق الورع وحسن النية وسلامة الصدر.

لا، فمر البدل كالسحاب، يمسح الأرض حتى غاب عن عينى، فقلت لأبى عبيد: ما قال لك؟ فقال سألنى أن أحج معه، فقلت: لا، فقلت له: ألا فعلت؟ فقال: ليس لى فى الحج نية، وقد نويت أن أتمم هذه الأرض العشية، فأخاف إن حججت معه لأجله أتعرض لمقت الله تعالى، لأنى أدخل فى عمل الله تعالى شيئا غيره، فيكون هذا عندى أعظم من سبعين حجة.

فتأمل كيف تحريهم فى النية عند العمل، ونظرهم إلى الله فى كل شىء واجتهادهم فى تصحيح أعمالهم وموافقتها نياتهم الحسنة، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى" متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

الخلوتان الثالثة والرابعة

وقد أمر ﷺ بخلوة أخرى أربعينية وما أن انتهى منها بأيام قلائل حتى أمر بخلوة (تسعينية) أى ثلاثة أشهر، وحدد له وقتها مناما، بدءا ونهاية فألفاها أطول أيام الصيف الشديدة الحرارة، وكان فى كل خلواته يصوم نهارها ويقوم ليلها، وطعامه من غير ذى روح، فكان يتناول قرصا من خبز الشعير وإدامه فى بعض هذه الخلوات كان الملح فقط، وفى البعض الآخر السكر فقط، وكان ﷺ يقول: لما أمرت باتخاذ السكر وحده أدما مع الخبز فرحت ظنا منى أنه خير من الملح، ولكنى وجدت فى تناوله ثقلا شديدا فحاربت نفسى وألزمتها به حتى سكنت، ثم تركته، وهكذا تكون المجاهدات والرياضات وملاحظة النفس وإلزامها بما يشق عليها حتى تخرج عن طبعها.

ويفهم من ذلك أن الله تعالى أراد تخليصه من كل العادات والمألوفات صقلا لنفسه، وتهذيبا لها، وكسرا لشهواتها، وقطعا لعلائقها وما جبلت عليه، مصداقا للحكمة الصوفية القائلة (لن تخرق لك العوائد [1] ما لم تخرق من نفسك العوائد) وفى ذلك– لا

---

(١) العوائد: كل ماتعودته النفس وألفته.
وهي ظاهرة أي حسية مثل كثرة الأكل والشرب والنوم واللباس ... إلخ.
باطنة أي معنوية مثل حب الجاه والرياسة والمدح والكبر والعجب وخوف الفقر وهم الرزق ... إلخ

شك- تبديل لبشريته وإحراق لناسوتيته، حتى تتبدل صفاته النفسية بالصفات الرحمانية عملا بقوله ﷺ: "تخلقوا بأخلاق الله"(١).

الخلوة الختامية

ثم اختتم الشيخ ؓ خلواته بالخلوة الصمدانية- وهى التى أمر بها فى شهر رجب، وشروطها فوق شروط الخلوات السابقة ألا يذوق للنوم طعما ولا يغمض له جفن، لا ليلا ولا نهارا طوال هذا الشهر، وقيل له: لو حدث أن أطبقت جفنا على جفن فى أى وقت فعليك أن تبدأ الخلوة من جديد، فشق ذلك الأمر عليه وصعب(٢) وكان مأخوذا له هيابا منه، وكثيرا ما كان يحدثنا (كيف أقوم بذلك وما السبيل؟) لا سيما أنه كان فى آخر أيام الجهاد، ورجوعه عن فنائه، إذ لو كان ذلك فى أول جهاده وفنائه(٣) ما

---

(١) ذكره السيوطى فى (تأييد الحقيقة العلية ١/ ٨٩) دون عزو.

(٢) وإن قلت أيها القارئ "قد مر أن الشيخ في خلواته السابقة كان يرجو النوم لحظة فما يجده فما الذي جعله يستصعب ذلك في تلك الخلوة فلتعلم أن هذه الخلوة كانت خاتم خلواته، أيام تمكينه وبقائه ورجوعه من فنائه، والفناء كان غالبا عليه في تلك الخلوات والفاني عن البشريات ومتطلباتها من أكل ونوم، لا اعتبار لهذا الشرط ونظر إليه، لغيابه عن حسه وانشغاله بربه، أما الباقي أي غير الفاني عن حسه فهو كسائر الأبشار لا بد لهم من متطلبات الأجسام، إلا أنهم يأخذونها بالله وغيرهم يأخذها بنفسه وهواه وهذا الفارق بين العارف وغيره في سائر الأمور.

(٣) الفناء والبقاء: الفناء زوال، والبقاء دوام وهذان المصطلحان يكاد يعتبرهما بعض المتصوفة فيهما كل التصوف، فكلما فنى العبد عن شيء، بقي في مقابله، فإذا فني عن مذموم من مذامه كالغفلة مثلا أو الجهل، فقد بقي في الذكر والمعرفة، فالفناء تبديل وسقوط لأوصاف ردية والبقاء قيام بأوصاف سنية، فمن فني عن بشريته ظهرت عليه أوصاف ربوبيته، وقد يكون فناء لا بقاء معه، كما إذا فني عن تذكر الغير، فهو فان غير باق بشيء وإذا بقي بذكر الحق فهو بقاء لا فناء فيه والفناء درجات: فناء في الأفعال، وفيه يشهد العبد أن الله هو الفاعل فيه، وفي غيره ولا إرادة لأحد، والكل مسخر في قبضة الحق وتراه لا يعترض على فعل أبدا، إذ الكل من الله مع اعتبار أحكام الشريعة، وفناء في الأسماء والصفات فلا يرى إلا آثار الأسماء الإلهية أو مجالي الصفات الحقية في الكون، لا يعتبر سوي أو غيرا أو اسما أو وصفا مع أنه يشهده أو يشهد أن الله هو الذي منح وأعطى لكل اسمه وحلاه بوصفه، وقد يفنى عن كل ذلك الشهود ويستهلك في فنائه فلا يشهد لا اسما ولا رسما ولا وصفا، حتى إنه يفنى عن فنائه، فلا يشعر بنفسه،

شق ذلك عليه ولكنه استسلم لله، واستعان به، وصدع بالأمر ونفذ ما كلفه به، ووكل أمره لله ليتولاه.

وبحمد الله تمت على أحسن حال بكامل شرائطها دون إخلال بأى أدب مما أمر به فيها.

وسبب اختيار شهر رجب زمنا لهذه الخلوة وهو شهر الله المحرم المسمى برجب الفرد لينفرد لله انفرادا كليا، وليتجرد من جميع بشرياته، وبحمد الله نال بهذه الخلوة الصمدانية مقام الفردانية ثم الأحدية، ولا شك أن هذا تأييد من الله لوليه ورعاية منه

وهذا الفناء في الذات، وأنكره بعضهم، فمنهم من يفنى ويشعر بفنائه، أي يشعر بنفسه فقط ومعنى فناء العبد عن أفعاله أو أفعال غيره أو عن الغير مطلقا، أو عن نفسه أيضا، معناه أنه لا شعور له ولا حس ولا إدراك لذلك الذي فني عنه، لا أن هذا عدم وتلاش، فإذاً الفناء في الله هو الفناء عن الخلق والبقاء في الحق، فليس فناء عدم، بل شهود موجود، فلم تهلك أو تنعدم نفسه أو بشريته بل يشهد الحق سبحانه قائما له ولغيره بكل شيء، ومن هذا يقال ما رأيت شيئا إلا رأيت الله قبله أو معه أو فيه أو بعده أو محيطا به إلى آخر ما قالوا، ولكنه مع هذا مازال يشهد شهوده للحق فإذا رقي عن تلك الدرجة وفني عن ذلك الشهود فهو الفناء عن الفناء ويسمى جمع الجمع، فمما سبق يفهم أن الفناء ليس إضعاف الجسم ونحوله بتقليل الطعام ونحوه، بل ذلك رياضة توصل إلى التخلي عن الصفات الذميمة، وعن النسبة والإنية، ويظهر أثره جليا بالتحلي بالصفات العلية، هذا سبيل السلوك في المجاهدات والرياضات، لتتبدل الصفات وقد يمن الله على بعض عباده فيختصر لهم الطريق فلمجرد دخوله في سلك القوم، يغيبه الحق عن حسه ويفنيه عن شعوره، ويرده عند واجب فرضه، وقيامه بأدب عبوديته، وما يزال به كذلك حتى يعود إلى شاهد عقله وإدراكه وحسه، فلا يجد من صفاته الذميمة شيئا ولا لأوصافه النفسية أثرا، قد احترقت صفاته، وبدلت سيئاته، فنار قلبه وطابت سريرته قد سلم من حر المكابدة، ونجا من وهج المجاهدة، وذلك تخفيف من ربكم ورحمة، ثم إن الفناء الحسي الشعوري يكون أول أمر العبد في الطريق، حتى يخرج من سجن البشريات وينتهي به الكشف الصريح فلا يرى غيره ولا يريد غير ما يريد، وهو مع ذلك بكامل شعوره ووعيه وفكره، مؤد لآداب العبودية وخاضع لأحكام الربوبية، يقيم الحدود، ويرضى بالموجود، لا يحجبه جمعه عن فرقه، ولا فرقه عن جمعه، يثوب إذا أذنب، ويستغفر إذا أساء، مع اطلاعه على ما كان وفاء بحكم الشرع وتمشيا مع الحكمة ووقوفا عند الأمر، فهذا هو العبد الحق، والرباني الصدق، عبدي أطعني تكن ربانيا ... إلخ

لعبده، لأن عدم النوم شهرا كاملا أمر خارج عن طاقة البشر وخارق لعادة الإنسان، ولكن العناية إذا لاحظت إنسانا والرعاية الإلهية إذا شملت عبداً ظهرت على يديه الخوارق، وتتابعت عليه الكرامات ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٧٣]

وهذه هى الكرامات الحقة، لا الكرامات التى يفرح بها أطفال الأولياء ويشاركهم فيها الجن والشياطين كطى الأرض، والطير فى الهواء، والمشى على الماء، والإخبار بالمغيبات، فخير كرامة هى الاستقامة، فى أداء أوامر الشرع، واتباع السنة والعمل بآداب أهل الطريق، ومن هنا تدرك أن العبد إذا وكل أمره لله، واستعان به فى جميع أموره، مهما كان ذلك فوق العقل، وشاقا على النفس ذلله الله له، ويسره عليه وحقق له ما لم يكن فى الحسبان، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

خروج الشيخ أثناء خلوته لتمريض أمه

إن من شروط الخلوة كما سبق، عدم الخروج منها، وكانت حاجته تقضى إما بكتابة أو إشارة منه لمن وكل به، فكان يحضر أول الوقت ويؤذن ويقيم ثم يؤمه للصلاة، ثم ينصرف لتوه، وكان الشيخ ﷺ، لا يخرج من خلوته أبداً حسب شروطها، إلا لصلاة الجمعة، ويخرج على هيئة مخصوصة، حتى لا تتفرق جمعيته بربه، وبعد الصلاة مباشرة يعود إلى خلوته، ولا يخرج منها إلا لقضاء حاجته فى بيت الخلاء والوضوء، غير أنه أذن له فى بعض خلواته بتمريض أمه، لأنها فى حجرة مجاورة لخلوته، ولعل هذا أدب ضمن سلوكه، ومجاهدة فى طريقه، فكان يدخل عليها فى فترات متقطعة، ويقدم لها الطعام بنفسه، ويطعمها بيده، وقد يكون هذا الطعام من الأطعمة التى لا يصرح له بتناولها فى الخلوة كالسمك واللحم، ويظل يطعمها بيده حتى تشبع وتدعو له، ويحدثنا ﷺ عن ذلك فيقول: (كنت أجد فى ذلك لذة لا تعادلها لذة، وكنت أشعر بلذة هذا الطعام كأنى أتناوله).

ومن هنا نعلم أن الطريق إلى الله ليس ذكراً وعبادة، وصوماً وصلاة فحسب، بل الطريق التمسك بالشرع كله بجميع آدابه، وأحكامه، فعلى راغب طريق القوم ألا يترك أية سنة من سنن الشرع، أو أى أدب من آداب الطريق قولاً أو فعلاً أو حالاً أو خلقاً أو عبادة أو معاملة. وقد نرى بعض الناس يكثر من أنواع العبادات البدنية، ومع ذلك تجده عاقاً لوالديه، أو قاطعاً لرحمه، أو تاركاً عياله عالة على الناس، أو ليس بينه وبين جاره علاقة حسنة، أو يسلط لسانه ويده لإيذاء المسلمين، أو يترك معاونتهم ومساعدتهم، أو لا يقيم حق الله فى ماله من زكاة أو صدقة، أو يرى منكراً ويسكت عنه وهو قادر على تغييره، أو يجامل بعض ذوى الجاه فى أعمالهم، أو يحابى غيره على حساب الدين، أو يتطلع بعينه ويعلق قلبه لما فى أيدى الناس، أو ما وهبهم الله من منزلة فى الدنيا، أو مقام فى طريق الله، أو يحسد أو يحقد على غيره، أو لا يرضى بالمقدور، أو يفرح بدنيا أو جاه، أو يحزن على فقدها، كل ذلك لا يقره الطريق ولا يرضى الشيوخ المحقون إلا بما جاء فى الشرع ودعا إليه مسلكوا الطريق من آداب وعبادات ومعاملات﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ... الآية﴾ [يوسف:١٠٨].

بركة دعاء أمه له

وكانت أمه الهاشمية لحسن بره بها، وحنانه عليها، واهتمامه بشئونها، وقيام زوجته بكل أمورها، وإنها رهن إشارتها، وطوع أمرها، كانت لا تفتر عن الدعاء له، وكان الشيخ ﷺ يقول: (إنى أعتقد أن ما أنا فيه من نعمة وخير وتوفيق، إنما هو بركة دعاء أمى لى ورضاها عنى طول حياتها إذ أن أكبر سعادة للمرء رضاء أمه عنه).

وجوب بر الوالدين

ودعا ﷺ إلى بر الأم، وموافقتها وعدم مخالفتها، ولو كانت فى نظرك على غير صواب، ما دامت فى غير معصية الله عملاً بقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ..الآية﴾ [العنكبوت: ٨].

وظل ﷺ مسترسلاً فى الحديث حتى قال:(كنت مع أمى وأخى فى معيشة واحدة، فلما كثر عيالى، تركنى أخى وترك لى أمى وأولادى الكثيرين وكانت الحالة المعيشية ضيقة فكنا لا نطعم اللحم إلا نادراً، وفى يوم اشتريت لحماً ووزعته على أمى وأولادى، ولم يبق إلا نصيبى فالتفت إلى أمى فوجدتها ممتنعة عن الطعام، فامتنعت أنا أيضاً وانزعجت، وأخذت ألاطفها لم يا أمى هذا؟ فقالت: أنا آكل اللحم وأخوك إبراهيم لا يأكل مثلنا، مع أن أخى هذا ترك العيش معنا فراراً من عبء معيشة أولادى وأمى، وهو موظف وقليل الولد، وأنا لا مورد ثابتاً لمعيشتى، فقلت لها: يا أمى إن أخى أيسر منى وموظف، ويستطيع أن يأكل اللحم بسهولة، فأصرت على موقفها وعرفت أنها لن ترضى حتى تشرك أخى معنا فى تناول اللحم مع أنها تعلم أنه لم يبق إلا نصيبى أنا، فسارعت آمراً زوجتى: (خذى نصيبى هذا واذهبى به إلى أخى، فقامت لفورها وبذلك رضيت أمى وأكلت، وطبت أنا نفساً لرضاها عنى وأكلت دون لحم وأنا بذلك سعيد).

فضرب لنا هذا كى نبر أمهاتنا ونسارع إلى إرضائهن، وإن كان الأمر فى نظر البعض لا يتفق والعقل ما دام فى غير معصية الله، فالواجب المسارعة إلى طاعة الأم، وكان فى المجلس من هو قاطع لرحمه، عاق لأمه وبعض أقاربه، فعاهد على البر بأمه، والصلة بأقاربه، ثم ظل الشيخ مسترسلاً فى حديثه عن صلة الأرحام فقال: إنه نفاق من المريد أن يمسك المسبحة ويكثر من الذكر والقيام والتهجد ثم يقطع صلته بأقاربه أو يعق أحد والديه، أو يندب إلى صدقة أو عمل فيتقطب وجهه ويظهر عليه عدم الرضا خوفاً على ماله، مع أن الذكر والتسبيح من النوافل وبر الوالدين والأقارب من الواجبات.

ولينظر العبد إلى ما روى من الأحاديث الكثيرة التى فاضت بها كتب السنة فى بر الوالدين وصلة الأرحام. ويكفينا مثلاً لذلك أن الجهاد فرض عين، ومع ذلك فقد ذهب بعض الصحابة ﷺ إلى رسول الله ﷺ يستأذنه فى الجهاد، فقال له:(ألك والدان؟)

فقال: نعم . قال: ففيهما فجاهد)[1]، فعدل به الرسول ﷺ عن الجهاد، ومعلوم مكانته من الدين، وفضَّل بر الوالدين عليه تأييداً لقوله تعالى:﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] فقد أمر بالإحسان إلى الوالدين مباشرة بعد توحيد الله، كما عزز ذلك بقوله ﷺ: "الجنة تحت أقدام الأمهات"[2].

ثم حديث علقمة المشهور الذى عقد لسانه عند احتضاره عن النطق بالشهادتين، فسئل فى ذلك رسول الله ﷺ فقال: أله أم؟ قيل: نعم فقال: على بها، فسألها عن ولدها، فأظهرت أنه عاق لها، يفضل زوجته عليها، فعلم الرسول ﷺ بنور النبوة أن سبب عقد لسانه عقوقه لأمه، فظل الرسول ﷺ يتوسل إليها ليرضيها عن ولدها لئلا يساء ختامه حتى رضيت، فقال اذهبوا إليه، وانظروا أمره، فسمعوا منه النطق بالشهادتين عند وصولهم إليه دون تلقين، وكان أولاً يلقنهما فلا ينطق أبداً، فانزعج لذلك الصحابة، وذهبوا إلى الرسول ﷺ وكان ما كان، فهذه عظة للجميع كانت تذكر على سبيل القصص والحكايات الواقعية التى صادفته فى حياته، واستشهد على صحتها من السنة، فأفدنا منها فى حياتنا الكثير من العظات والعبر فى معاملة آبائنا وأمهاتنا وأقاربنا مقتدين بالشيخ ﷺ لننال من الله الرضا والفوز فى الدنيا والآخرة، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

مدة جهاده

لما بدأ ﷺ يسلك طريق القوم، رأى فى منامه أن مدة جهاده وتربيته ثلاث سنوات، وبعدها الوصول والإذن بالدعوة إلى الله، وإن كان لا وصول إلا وبعده وصول، إلا أن هذا معناه أن روحه رتعت فى رياض الحضرة المقدسية، ومن كرم الله وفضله وجوده

[1] هذا الحديث متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما

[2] رواه بهذا اللفظ الخطيب البغدادى فى الجامع عن أنس رضى الله عنه

أنه لا يصل أحد إلى حضرة قدسه ثم يطرد، ولذا قيل : (ما طرد من طرد إلا لأنه انقطع به الطريق ولم يصل إلى الباب) قاله ابن عطاء[1].

وفى قولنا (أذن له بالدعوة) دلالة واضحة على أنه ﷺ وارث لرسالة الرسول ﷺ فى عصره فإن الأولياء منهم من هو وارث لنبوة أحد الأنبياء، فتكون ولايته لنفسه كالنبوة، ومن اجتمع به يجتمع للتبرك أو للاعتبار به فقط لا للسلوك والتربية، ومنهم من هو وارث لرسالة الرسول ﷺ فيكون شأنه شأن الرسل فى الإبلاغ والإنذار والدعوة والإرشاد، وقد عرفت أيها القارئ آنفاً أن مربى شيخنا ومتولى شأنه حضرة الرسول ﷺ فهو وارث محمدى فأنعم بها من منة، ومما يجدر بالذكر أن مدة جهاده ظلت ثلاث سنوات، وقد أخبر بذلك كثيرا فى منامه، أن جهادك هذه المدة وبعدها الوصول، وكانت كلها عزلة وخلوات، وانفراداً لربه واشتغالاً بذكره وعبادته، بعدها أذن له بالتسليك والإرشاد، إذ رأى فى منامه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨]

وقوله تعالى ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]

وقوله تعالى ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ.. إلخ﴾ [النحل: ١٢٥]

ثم أمر صراحة بالإرشاد والتسليك، وضرورة الإذن له من الله بالدعوة والإرشاد مستمدة من قوله تعالى :﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦]

---

(١) هذا وإن كان لا أمان لمكر الله إلا أنهم قالوا إن فترة الجهاد هي التي يخاف فيها على المريد ولكن عندما يصل إلى حضرة التقديس يكون في مأمن من التلبيس والتنكيس، ومن كرم الله وفضله أنه لا يدخل عبد حضرته ثم يطرده، كيف وهو سبحانه القائل في حديثه القدسي: من تقرب إلي شبرا تقربت منه ذراعا ..الخ فهو أسبق بالفضل.

بعدها صدع بأمر ربه، وأخذ يرشد زائره، ويهدى جليسه، مترفقاً فى الحديث معه، دالاً كل إنسان إلى ما يناسبه، شأنه شأن الطبيب، يصف لكل علاجه حسب حاله وعلته.

فانتشر أمره وذاع صيته، وتناقل الناس أحاديثه فى مجالسهم، وعمت بركاته القاصى والدانى، وشملت نفحاته رواده وقصاده، وأيده الله فى هذه الفترة ببعض الكرامات الحسية ليقوى الله بها اعتقاد من أراد له الخير والقبول ليعمل بآداب شيخه ونصائحه عن اعتقاد وتصديق بولايته حتى ينتفع، وسنذكر إن شاء الله تعالى فى باب كراماته بعض ما كان فى تلك الفترة وهذا شأن الرسل والدعاة الصادقين إلى الله، يؤيدهم بما يظهر على أيديهم من خوارق، جلباً للقلوب واستنهاضاً للهمم.

اتصال شيخنا بسيدى عبد الوهاب الحصافى[1]

عرفنا فيما سلف أن شيخنا ﷺ لم يتتلمذ على أحد من شيوخ عصره وإنما كان شيخه ورائده ومربيه ومتوليه حضرة المصطفى ﷺ ولكن لما كان للظهور شأنه وللعرف والعادات المألوفة اعتبارهما ولم يكن بيد الشيخ إجازة ظاهرية للتسليك فى طريق القوم شأن الدعاة والمسلكين، إذ جرى العرف بين أهل الطريق أن من تصدر للدعوة إلى الله والتسليك فى طريق القوم لا بد أن تكون بيده إجازة، مأذون له فيها من شيخ له سند، متصل بأهل الطريق الأوائل، تثبت أنه مسلك على طريقة كذا، ويذكر فى تلك الإجازة الأوراد المأذون له فيها ليتلوها ويلقنها مريده، ولا سيما وأن مثل هؤلاء له الكثير من

---

[1] (١) الشيخ عبد الوهاب بن الشيخ حسنين الحصافي، دفين دمنهور البحيرة، الذي أخذ الطريق عن والده، وتربى في حجره، ونال مشربه، وقام بواجب الطريق من بعده على نهجه خير قيام، وما زال ناشراً الطريق الحق التي ورثها عن والده حتى اختاره الله لجواره، ودفن بدمنهور بجوار والده وكان شافعي المذهب شاذلي الطريقة اشتهر بالحصافي لنشأته بكفر الحصافة قليوبية وهو شريف النسب، ينتهي نسبه بالسبط الحسن بن الإمام علي كرم الله وجهه ومن أراد تعريفا به أكثر فليرجع إلى كتاب (المنهل الصافي في مناقب الشيخ الحصافي).

المنافسين والحاسدين فخيفة الاعتراض عليه فى المجتمعات وحذراً من أن يقال: إنه لم يكن لديه إذن بالتسليك ولا شهادة معه من الشيوخ تدل على أنه جدير بالإرشاد والدعوة، فقد أمره الرسول ﷺ بالتوجه إلى العارف بالله السيد (عبد الوهاب بن السيد حسنين الحصافى) دفين دمنهور البحيرة بجوار أبيه فى جامعه المعروف باسمه، ليأخذ منه خلافة ظاهرية فيجمع بين الظاهر والباطن، وهذا هو الكمال، ففى عرف الصوفية أن تلقى الطريق نوعان:

١- رواية: ويلزم ذكر مشايخ السند فيه، فتذكر سلسلة مشايخه وسنده المتصل إلى أهل الطريق الأكابر، وتنتهى هذه السلسلة غالباً إما بسيدنا أبى بكر ﷺ، أو بسيدنا على ﷺ وكرم وجهه، وبالطبع أن كلا منهما أخذ من صاحب الرسالة والشرع سيدنا محمد ﷺ.

٢- هداية وتبرك: ولا يلزم ذكر مشايخ السند فيه وقد جمع شيخنا رضى الله عنه بين الرواية والهداية.

سفر شيخنا إلى الشيخ الحصافى بالقاهرة

حين أمر الرسول الأعظم ﷺ شيخنا بالذهاب إلى الشيخ عبد الوهاب الحصافى لأخذ تلك الإجازة منه قال له الرسول ﷺ : (ادفع له أربعين قرشاً فضة)، فسافر الشيخ ﷺ إلى القاهرة مع بعض المقربين إليه، وكان يدعى السيد أمين هاشم من أشراف شبلنجة ومن أبناء أخواله، وحدثه الشيخ عما سمعه من الرسول ﷺ، فقال له السيد أمين هاشم: ألا نزيد الأربعين إلى خمسين؟ فقال له الشيخ: (إن المادة ليست ذات قيمة عندى، ولكن عملاً بقول الرسول ﷺ لا أزيد على هذا المبلغ الذى حدده كماً وكيفاً) ولعل فى هذا العدد سراً لا ندركه بعقولنا، وقد مر بك أيها القارئ سر عدد الأربعين فى باب الخلوات، ولأن اتباع الأمر أفضل من إعمال العقل والتأويل والتفسير، وهو سبب الفتوح فى طريق القوم، إذ تنفيذ الأمر عندهم كما جاء -حيث لا اعتراض عليه من الشرع- خير من المراجعة والتأويل.

وعندما كان يحدثنا ﷺ في هذا الشأن يقول: (هكذا يكون المريد الصادق مع شيخه كالميت بين يدى الغاسل، ينفذ ما أمر به دون أن يقحم عقله أو رأيه، إذ لا يدرى السر أو البركة فى الفعل أو الترك).

وكثير من آداب الشرع وأوامره نفعلها كما أمرنا تعبداً دون بحث عن العلة أو السبب، أو الوقوف على الحكمة؛ مثل الرَمَل، والرمى، والسعى، والطواف، وتقبيل الحَجَر، وسائر أفعال الحج، نعم وإن كانت لها حكمة، ولكن لا يعرفها إلا المحققون، وأولو العلم، ومع ذلك يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]

شيخنا فى بيت الشيخ الحصافى

ولما سافر الشيخ ﷺ ومعه صديقه الشيخ أمين هاشم دخل على الشيخ الحصافى ﷺ فسلم عليه، فرد السلام وبادره بقوله: (تعالى يا مجذوب) وهو لم يقصد بالمجذوب الغائبِ عن التدبير والعقل، بل يريد أن الحق سبحانه وتعالى جذبه إليه، واختاره لديه، دون سلوك وتربية على يد شيخ من شيوخ الظاهر.

ولما جلس الشيخ ﷺ بجواره، سارَّه بالأمر الذى جاء من أجله، فعلم شيخنا منه أن الرسول ﷺ كما جاء للشيخ بهذا الأمر، قد جاء للشيخ الحصافى به كذلك، فأخرج له الشيخ الإجازة مكتوبة بخط يده، فوقع عليها الشيخ الحصافى ﷺ فى المجلس، وعليه أمارات الرضا، ثم ختمها بخاتمه الذى تختم به الإجازات، وسلمها له، فأعطاه المبلغ الذى أمر، به فأخذه ووضعه فى جيبه مبتسماً.

ثم أشار الشيخ الحصافى ﷺ على شيخنا بقوله: (ألا نعلن تلك الإجازة فى حفل جامع بشبلنجة، يحضره شيوخ تلك المنطقة، ليعلم الناس بذلك؟). فقال شيخنا: (أنا لا أحب معارضتكم ولكن لا أميل إلى هذا النوع من الظهور) وهذه كانت عادته ﷺ فى وصاياه لنا، فيقول: (يا أولادى إن الظهور يقصم الظهور، فلا تكونوا عبيداً للظهور، ولا عبيداً للخفاء، بل عبيداً لله، يجعلكم حيث شاء).

وفى الحقيقة إن المريد الصادق لا يختار شيئاً من أمره، بل يكون عبداً لله، والله يتولاه، إن شاء أظهره، وإن شاء أخفاه، كما اقتضته الحكمة بالنسبة له، ولله فى خلقه شئون.

ويشهد لهذا ما أتى شيخنا ﷺ من وارد هذا نصه:

(عليك بالتخلق بأخلاق الأولياء، لتنال السعادة، وأما إذا أخذت ورقة الإجازة، وصار كل من نازعك يقول: هذه إجازتى بالمشيخة دون التخلق، فإن ذلك لا شىء، إنما هو حظ نفسى، لكن اقرأ الإجازة، واعمل بما فيها من الوصايا، وهناك تحصل على الفائدة ويحصل لك الاصطفاء، وهذا طريق مدارج الأولياء، قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل، إلى آخر الدنيا).

تبركه بشيوخ عصره

وكما أخذ شيخنا ﷺ الطريق هداية وتربية عن سيده ومولاه الرسول ﷺ، ثم رواية وبركة عن سيدى الشيخ عبد الوهاب الحصافى ﷺ حيث أعطاه الإجازة، وفيها سنده ومشايخه، وتلقى الأذكار الموصلة له فى الطريق، كذلك أخذ الطريق من شيوخ عصره للتبرك، فأخذ الطريقة النقشبندية عن الشيخ (جودة إبراهيم) دفين منيا القمح شرقية، وكان ذلك قبل جذبته بوقت طويل، وذكر لنا شيخنا ﷺ قصة ذلك العهد فقال:

عندما ذهبت إلى منيا القمح قصد التبرك بأخذ العهد، قيل لى: (إن الشيخ دخل خلوته، ولا يمكن دخول أحد عليه الآن)، وبينما أنا أتناقش مع بعض مريديه، فى رغبتى فى أخذ العهد اليوم إذ بباب الخلوة يفتح، وينادى علىَّ، فدخلت عليه، وأخذت منه العهد، كما أخذ ﷺ الطريقة الأحمدية عن الشيخ سيد الرجالاتى تبركاً عندما كان يجتمع به فى زياراته لأولاده بشبلنجة، وكان يخصه بمزيد من المحبة والرعاية، فكان إذا دخل عليه ناداه وقال له: (اجلس بجانبى يا أبا هاشم) ثم يربت على كتفه زيادة فى تكريمه.

ومما قصه علينا الشيخ ﷺ أيضاً فى هذا الشأن، أنه فى أولى خلواته، زاره الأقطاب الأربعة -الرفاعى، الكيلانى، السيد البدوى، السيد إبراهيم الدسوقى- ﷺ، وكل منهم تفضل عليه وخلع له عمامته وألبسها إياه بعدما يوصيه كل واحد منهم بوصاياه الخاصة فى الطريق. فقال له أحد الحاضرين: (وما معنى ذلك؟) فقال: (معناه أُذن لى منهم بالتسليك فى طريقهم).

وفعلاً كان شيخنا ﷺ من أتاه وطلب إليه السلوك فى إحدى هذه الطرق أجابه، وأعطاه أوراد تلك الطريقة، وقد رأينا بأعيننا الكثير من ذلك، فيعطى كل طالب الطريق التى يريدها، وكان ينال -بحمد الله- على يديه الكثير من المواهب والفتوح.

وبناءً على هذا، فقد صار هؤلاء الأربعة الأقطاب مشايخ لشيخنا روحانياً، وإن لم يلتق بهم فى حياتهم.

وهذا جائز فى عرف القوم، فقد أخذ الشيخ بهاء الدين النقشبندى الطريق عن روحانية الإمام عبد الخالق الغدوانى وهذا الأخذ يكون للترقى لا للتربية.

وقد ذكر نحو هذا فى كثير من كتب القوم، ومن له دراية بأصول الطريق، واطلاع واسع فى كتبهم، يرى الكثير من ذلك.

لقاءات فى عالم الروح

لقد مر بك أيها القارئ الكريم أن الشيخ ﷺ فى خلواته كان يزور أضرحة الأولياء السابقين، ويخرج له كل ولى ويوصيه بما يفيد منه فى طريقه إلى الله، وكم ذكر الشيخ الأكبر (ابن عربى) أنه التقى بكثير ممن سبقه من رجال الله بعد انتقالهم، وسألهم فيما يعترضه فى الطريق، وناقشهم وعرف الكثير من علومهم، بل إنه كان يجتمع ببعض

الأنبياء والمرسلين، ويأخذ منهم، وعلى سبيل المثال ما ذكر فى الفتوحات المكية[1] قال: اجتمعت بالإمام فى مشهد برزخى، وقال لى: (لا تنتم إلا لله، فليس لأحد ممن لقيته من المشايخ عليك يد مما أنت فيه، بل الله تولاك بعنايته فاذكر فضل من لقيت إن شئت ولا تنتسب إليهم، وانتسب إلى ربك، وهكذا كان حالى، لا يد لأحد ممن لقيته فى طريق الله إلا الله، فجزاه الله خيراً، فجعلنى أثق بنفسى).

ومن هنا نفهم ما قلنا آنفاً: أن الطريق إلى الله أو السادة المسلكون فى طريق الله، إما أن يكون سلوكهم على يد أحد شيوخ عصرهم أو الذى يتولاهم المدد المحمدى، أو الرعاية الربانية، ومما هو جدير بالذكر أن شيخنا أبا الحسن الشاذلى ﷺ سئل عن مشايخه فقال: (أما فيما مضى فكان شيخى سيدى عبد السلام بن مشيش وأما الآن فأستقى من عشرة أبحر ... إلخ).

وبهذا عُلم أن أولياء الله -الحى منهم أو من كان فى البرزخ- لهم لقاءات واجتماعات، ويأخذ البعض منهم عن البعض، ولكل مشربه وطريقه وعلمه الخاص، وإن كان الجميع يرد بحراً واحداً، وهو الحقيقة المحمدية، إذ هى أصل التعينات ومجمع الكليات والأمهات، ثم تتعدد المشارب حسب الاستعداد والمواهب، ومن هنا يعلم أن شيخ التربية غير من يؤخذ منهم للبركة والترقية، ويتأكد لنا بعد أن المربى الوحيد لشيخنا ﷺ هو سيد الخلق ﷺ، واتصاله بهؤلاء المشايخ، وأخذه العهد منهم، ظاهرين أو روحانيين، إنما كان للترقى والتبرك، لا للتربية والتسليك.

---

(١) جـ٢ ص ٥٢٣

ذكر الله تعالى

ذكر الله تعالى علامة الفلاح، وسبيل الرقى والنجاح، لذا كان شعار أهل الطريق، وديدن ذوى الفضل والتحقيق. وعلينا أن نذكر شرعيته من الكتاب والسنة، بما فيه – بحمد الله– الغنية إتماماً للبغية، ووقوفاً على جليل فضله، وتعرفاً لعظيم أثره، لعلنا إن شاء الله، نحظى بثمين فائدته، وندرك كبير ثمرته ومنفعته، إذ به تنقشع الظلمات، وتتبدد الحجب، وتصفو النفوس من أكدارها، وتطهر من أدرانها، فهو الباب المفتوح بين الله عز وجل وبين عباده، ما لم يغلقوه بغفلاتهم.

دليله من الكتاب

قال الله تعالى:﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة:١٥٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٤١]

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:١٩١]

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣]

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:٢٠٥]

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت:٤٥].

دليله من الأحاديث القدسية

عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:يقول الله تعالى: {إذا ذكرنى عبدى فى نفسه، ذكرته فى نفسى، وإذا ذكرنى فى ملأ، ذكرته فى ملأ خير من ملئه، وإذا تقرب منى شبراً تقربت منه ذراعاً، وإذ تقرب منى ذراعاً تقربت منه باعاً، وإذا مشى إلىَّ هرولت إليه} متفق عليه.

وفى حديث قدسى آخر: عن أبى هريرة ﷺ يقول الله عز وجل:{أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه} رواه ابن ماجه وابن حبان.

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:{يقول الله عز وجل { من شغله ذكرى عن مسألتى، أعطيته أفضل ماأعطى السائلين} رواه البخارى فى التاريخ، والبزار فى المسند، والبيهقى فى الشعب.

دليله من الأحاديث النبوية الشريفة

قال أبو الدرداء رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ:"ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها فى درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الوَرِق والذهب، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم، فتضربون أعناقهم، ويضربون أعناقكم قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: ذكر الله عز وجل دائماً" رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم.

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:"ذاكر الله فى الغافلين كالشجرة الخضراء فى وسط الهشيم" رواه أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب. وفى رواية "كالمقاتل بين الفارين".

عن معاذ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

"ما عمل ابن آدم من عمل أنجى من عذاب الله من ذكر الله -عز وجل- قالوا: يا رسول الله ولا الجهاد فى سبيل الله، قال ولا الجهاد فى سبيل الله" رواه ابن أبى شيبة فى المصنف والطبرانى.

عن معاذ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:"من أحب أن يرتع فى رياض الجنة، فليكثر من ذكر الله" رواه ابن أبى شيبة فى المصنف والطبرانى.

عن معاذﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ:"أى الأعمال أفضل؟ قال:"أن تموت ولسانك رطب بذكر الله" رواه ابن حبان والطبرانى والبيهقى.

عن أنس وابن عمر رضى الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ:"الذكر الله عز وجل بالغداة والعشى أفضل من حطم السيوف فى سبيل الله، ومن إعطاء المال سَحّاً" رواه ابن عبد البر فى التمهيد.

عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:"سبعة يظلهم الله عز وجل فى ظله يوم لا ظل إلا ظله" من جملتهم: "رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله" متفق عليه.

وفى الآثار: قال الفضيل ﷺ بلغنا أن الله عز وجل قال:{عبدى اذكرنى بعد الصبح ساعة وبعد العصر ساعة أكفك ما بينهما} وقال بعض العلماء: (إن الله عز وجل يقول: أيما عبد اطلعت على قلبه، فرأيت الغالب عليه التمسك بذكرى، توليت سياسته، وكنت جليسه، ومحادثه وأنيسه)

ويروى أن كل نفس تخرج من الدنيا عطشى إلا ذاكر الله عز وجل.

وقال معاذ بن جبل ﷺ: "ليس يتحسر أهل الجنة على شىء إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله سبحانه فيها"[١].

الذكر ميراث الرسول ﷺ

عن أبى هريرة ﷺ أنه دخل السوق وقال: "أراكم ها هنا وميراث الرسول ﷺ يقسم فى المسجد فذهب الناس إلى المسجد وتركوا السوق، فلم يروا ميراثاً فقالوا: يا أبا هريرة ما رأينا ميراثاً يقسم فى المسجد، قال: فماذا رأيتم؟ قالوا رأينا قوماً يذكرون الله عز وجل، ويقرأون القرآن، قال: فذلك ميراث الرسول ﷺ "[٢].

---

[١] أخرجه مرفوعا الطبرانى فى الكبير و رجاله ثقات، و البيهقى فى شعب الإيمان و غيرهم

[٢] رواه الطبرانى فى المعجم الكبير و الأوسط و إسناده حسن.

١. عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله عز وجل، إلا حفت بهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده" رواه مسلم.

٢. عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله تعالى، لا يريدون بذلك إلا وجهه، إلا ناداهم مناد من السماء، قوموا مغفوراً لكم، قد بُدِّلَت سيئاتكم حسنات" رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى.

٣. عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ما قعد قوم مقعداً لم يذكروا الله تعالى فيه، ولم يُصَلوا على النبى ﷺ، إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة" رواه الترمذى.

٤. وقال داوود عليه الصلاة والسلام: (إلهى إذا رأيتنى أجاوز مجالس الذاكرين إلى مجالس الغافلين، فاكسر رجلى دونهم، فإنها نعمة تُنْعِمُ بها علىَّ).

٥. عن أبى وداعة قال: قال رسول الله ﷺ: "المجلس الصالح يكفر عن المؤمن ألفى ألف مجلس من مجالس السوء" ذكره صاحب الفردوس.

٦. وقال أبو هريرة ﷺ: (إن أهل السماء يتراءون بيوت أهل الأرض التى يذكر فيها اسم الله تعالى، كما تتراءى النجوم) [1].

٧. وقال سفيان بن عيينة -رحمه الله تعالى- : "إذا اجتمع قوم يذكرون الله تعالى اعتزل الشيطان والدنيا، فيقول الشيطان للدنيا ألا ترين ما يصنعون، فتقول الدنيا: دعهم فإنهم إذا تفرقوا أخذت بأعناقهم إليك".

الذكر مصقلة للقلوب

ورد (أن لكل شىء صقالاً، وصقال القلوب ذكر الله) [2]، فبه تتهذب النفوس، وتصقل القلوب، فتتحسن المعاملات؛ إذ أسماء الله تعالى أدوية وعلاجات ناجعة فى هذا

---

[1] رواه بن المبارك فى كتاب الزهد.

[2] فى حديث رواه ابن أبى الدنيا و البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر رضى الله عنهما.

السبيل، وعلى كل رائد ومسلك فى طريق الله أن ينهج مع مريده ما يحاول به تخليصه من إنياته وإخراجه من بشرياته وعاداته، وتبديل صفاته كى يليق لدخول حضراته (سبحانه) فيحظى بقربه، وينعم بوصله، وكما يعالج المريض بمختلف أنواع العقاقير الطبية من أمراضه وعلله الجسمية، كذلك مرضى القلوب يعالجون بمختلف أنواع الذكر، إذ ورد عن الرسول ﷺ : **"إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد، قالوا: وما جلاؤها يارسول الله؟ قال: ذكر الله"**[1]، لأن ذكر الله ببعض أسمائه أو صفاته ثمرته تخلية[2] المريد عن صفة مذمومة من صفاته، وتحليته[3] بصفة من صفات الحق سبحانه، فمثلاً الضعيف يذكر الله سبحانه باسمه (القوى) والبخيل يذكره باسمه (الكريم) والفظ الغليظ القلب الغضوب يذكره باسمه (الحليم) وهكذا حتى تشع أنوار هذا الاسم الذى يذكر ربه به على قلبه، فتحرق صفته الذميمة وتحليه بصفة الحق الحميدة.

فيظل المريد ينتقل من اسم إلى اسم حسب حاله، وكما يراه الشيخ بنافذ بصيرته فيه حتى يتخلى عن مرذولاته، ويتحلى من الحق بكريم صفاته عملاً بقوله ﷺ **"تخلقوا بأخلاق الله"**[4].

مزايا الذكر وثماره

الذكر[5] إيمان ونور، وهدى وعرفان، وسعة فى العيش، وانشراح للصدر، وسعادة فى الدارين، ومجلبة للسرور والأنس، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا... الآية﴾ [طه:١٢٤]

---

[1] رواه بن عدى فى الكامل عن ابن عمر رضى الله عنهما و رواه أيضا عن أنس ﷺ .

(٢) التخلي: تخلي العبد عن مذموم صفاته ورديء عاداته وقبيح شهواته.

(٣) التحلي: التخلق بسني الأخلاق وكريم الصفات ورفيع الشمائل.

(٤) ذكره السيوطى فى (تأييد الحقيقة العلية ٨٩/١) دون عزو.

(٥) الذكر ذكران: ذكر يتولد منه الخوف والخشية، وذكر يتولد منه الشوق والمحبة، فأما ما يتولد منه الخوف والخشية فهو ذكر من يذكر الله مع نفسه، ويرى أن ذكر الله له ما كان إلا بذكره لله تعالى، ويعلم أنه بذكره لله يصل إلى ذكر الله له، وأما الآخر فهو الذاكر الذي يتذكر ذكر الله له في الأزل حيث

الذكر منشور الولاية، فمن وفق إلى الذكر أعطى المنشور.

الذكر عنوان الهداية، ومنار الوصلة، وتحقيق الإرادة، وعلامة صحة البداية، ودلالة صفاء النهاية.

الذكر نار لا تبقى ولا تذر، فإذا دخل بيت عبد يقول: (أنا ولا غيرى) وهذا من معانى (لا إله إلا الله)، فإذا كان فى القلب حطب الدنيا، وهشيم متاعها، وظلمة الوجود الحادث، وخواطر النفس الأمارة، ووساوس الشيطان أحرق الذكر ذلك كله، وأنار ذلك القلب بنور الله، إذ الذكر يكون أولاً باللسان، فإذا داوم عليه صاحبه، انخرق له القلب، وسرى نور الذكر إلى بقية الجوارح، واستغرق العبد كله فى الذكر: فتحولت بشريته ووجوده إلى حال آخر، كما روى عن سيدى الرفاعى ﷺ أنه كان إذا ذكر الله تعالى، واستغرق فى الذكر تحولت بشريته، وصار كالماء ولا يعود إلى بشريته إلا بعد رجوعه إلى عالمه الذى كان قد انسلخ منه. وبهذا الاستغراق يفنى الذاكر عن حسه وبشريته، ويظل يرقى فى عالم الملكوت فيدرك أنه فى السماء الأولى، يشاهد ملائكتها وأنواع عبادتهم، ويخاطبهم ويخاطبونه، ثم يرقى إلى الثانية ويعرف ما يعرف مما بها، ويتعرف على عبادة من فيها، وما ترجوه الملائكة من باريها، ويحيط بحقيقة كل سماء وكواكبها وأفلاكها، وعلوم أهلها، ومكانة كل فئة من ربها، وهكذا يرقى من سماء إلى سماء حتى سدرة المنتهى، وهذا هو المسمى بعروج الأولياء، ومن ذلك ما قاله إمامنا وسيدنا أبو الحسن ﷺ عن تلميذه أبى العباس المرسى ﷺ (إنه أعرف بطرق السماء منه بطرق الأرض).

لم يكن موجودا إلى أن يصير في الدنيا مفقودا، ثم إلى الأبد، فذكر الله له سابقا أزليا خالدا أبديا، وذكره لله مكدرا بالشهوات، ممزوجا بالغفلات، فشتان بين من يدخل على الله برؤية ذكره وبين من يدخل على الله برؤية فضله ومنته، واعلم أن ذكر العبد لله تعالى في إضافة ذكر الله للعبد كالغبار تحت الأمطار، فليعلم العبد من يذكره، ولمن المنة عليه بإباحة حضرته، ودخوله سرادقات أنسه حتى ذكره، وأن ذكر مولاه أسبق من ذكره، فليتفطن ويفهم من الذاكر حقا وأن الإضافة له منة وتشريف تستوجب شكرا لا يقدر العبد وفاءه إلا بتوفيقه له سبحانه وتعالى، ينعم على عبده ثم يشكره على ما قام به من واجب تلك النعماء، ثم يثني عليه بالإعطاء: "نعم العبد إنه أواب" فمن الذي جعله أوابا؟

ومما روى عنه أيضاً أنه قال: (ليس الرجل منَّا من يحجبه العرش) أى ليس الرجل من يقف بروحانيته تحت العرش؛ إذ هو من جملة المكونات، بل الرجل من علا بروحانيته فوق العرش حتى يصل إلى رحمانية ربه، ويظل يرقى فى حضرات مولاه الإلهية حتى يدرك أنه لا موجود سواه[1] قد فنى فى الحق وبقى بمولاه، عندئذ يهدأ قلبه بأنه قد تقدس، وأنه بدأ فى الوصول الحقيقى مع ملاحظة أنه ما من وصول إلا وبعده وصول، وما من كمال إلا وبعده كمال ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] أى فيك.

وعلامة انخراق القلب للذكر أن المريد يشعر بخفة فى أعضائه حتى يكاد يطير لخفته، وإذا سكت لسانه عن الذكر تحرك قلبه فى صدره بالذكر[2]، فإذا ظل وداوم على ذلك وصل الذكر إلى سره، وهنا تكون الغيبة عن الذكر والذاكر فى المذكور، فيكون الهَيَمان حتى إذا ترك الذكر لم يتركه الذكر، ولا تذهب عنه الأنوار، ولا يطيب له قرار، إلا بمشاهدة المذكور.

فظهر حينئذ أن الذكر بالحروف دون حضور القلب ذكر باللسان، وذكر الحضور بالقلب ذكر القلب، وذكر الغيبة عن الحضور فى المذكور ذكر السر.

---

(١) إن السالك ذا الهمة المراقب لحاله في تسياره يرى نفسه أحيانا يسابق الريح أو يطير في الجو فإذا ما ترقى من عالم شهادته وملكه علا إلى ملكوته فيرى نفسه أنه في السماء الأولى ويجول فيها ثم الثانية إلى آخره ... وأخيرا يرى أنه تحت العرش ويدرك أن رأسه تكاد تلامسه. كل ذلك يشعر به السالك المراد للحضرة وما يزال في ترقيه حتى يخرج من ملكوتياته إلى لاهوتياته، نعم وإن كان العرش محيطا بجملة المكونات إلا أنه يرى أنه خرج إلى عالم لا نهائي ويرى أنه ليس غيره، وهنا يكل التعبير باللسان، ولا يفصح أي بيان، فلا تعلم نفس ما يحظى به ذلك المراد من مشاهد ومنازل، وما يفاض عليه من علوم ومعارف وما يرقى إليه من كمالات ودرجات، وما تقر به عينه، وينعم به فؤاده "فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين".

(٢) الذكر في القلب، وعندما يتجوهر يستكن نور اليقين فيه، حتى إذا ذهبت صولة الذكر من اللسان والقلب لا يزال نوره متجوهرا، ويصير الذكر حينئذ ذكر الذات، وهذا الذكر هو المشاهدة والمكاشفة والمعاينة وهو المقصود الأسمى من الذكر أي ذكر الذات أي المكاشفة والمشاهدة والمعاينة التي يسبقها تجوهر نور الذكر في القلب المصحوب بنور اليقين، فظهر أن الذكر أولا بالحروف واللسان، ثم القلب والجنان، ثم السر بعد تجوهره في القلب، ثم المشاهدة والمعاينة وهو المطلوب الأسمى من الذكر.

فليعلم العبد أن قلبه عرش جسمه، وأنه العالم الأصغر، وعرش الله تعالى المحيط بالكون عالمه الأكبر ما يزال يحن إلى قلبه، فالعرشان دائماً فى حنين إلى بعضهما، ولا يلتقيان حتى تفنى أيها العبد ما بينهما من وجود لنفسك وللأكوان، فإذا تم الفناء التقى العرشان، عرش الله المحيط بالعالم الأكبر، وعرشك المستوى على جسمك، العالم الأصغر، فصار لله، وصرت بالله ومن الله وإلى الله عندها يصدق عليك قول الحق تعالى: {فبى يسمع... إلخ الحديث القدسى}.

وإذا نظرت إلى الحقيقة وجدت أن الإنسان مركب من (روح) وهى من الملأ الأعلى ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّى﴾ [الإسراء:٨٥]، ومن (جسم) وهو من الأرض ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ... الآية﴾ [المؤمنون:١٢] والأرض ذات معادن وجواهر مختلفة ولا يتم للعبد الرجوع إلى عالم الروح الأول حتى يتخلص من كل عناصره البشرية ومعادنه الأرضية وجواهره العلوية.

ولا يتم ذلك إلا بالمجاهدة والرياضة والذكر الحقيقى، ولا يتسنى له هذا الرجوع إلا بما سبق، بذا يكون على الفطرة الأولى، وهذا هوالمراد بقوله:﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨]

وهذا هو الذى طولبنا به فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]

ولا فرار إليه إلا بالتخلص مما سواه، كما روى عن بعض الأنبياء عليهم السلام أنه سأل مولاه: كيف الوصول إليك؟، فقال: اترك نفسك وقد وصلت... دع نفسك وتعال).

الذكر مجلاة القلب، به يكون العبد في حضرة الرب (أنا جليس من ذكرني) [١] وبه يحظى العبد بالقرب، فيكون مذكوراً للرب ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢].

الذكر أفضل من الصلاة، فإذا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي قرة عين الحبيب ﷺ، فالذكر أكبر منها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥].

بل هو أكبر من الجهاد، لأن جهاد النفس وتخليصها أكبر من جهاد العدو "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر" [٢].

والجهاد الأكبر هو جهاد النفس، ولا ينتصر الإنسان على نفسه إلا بذكر الله، فالذكر يضع عن الذاكرين أوزارهم، ويحط عنهم سيئاتهم كما قال رسول الله ﷺ : "سبق المُفَرَّدُون، قيل: من المفرَّدون يا رسول الله؟ قال: المستهترون بذكر الله، وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافاً" رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة[٣].

فالذكر مكانته لا تنكر، ومحامده لا تجحد، وكافيك به منزلة أنه مضاف إلى الله، إذ من ذكر عظيماً، ولهج دائماً بالثناء عليه هابه الكل وصان حرمته الجميع، وصار معروفاً أنه تابع لهذا العظيم، فقدروه واحترموه، فما بالك بذاكر الله أما تكفيه هذه النسبة وتلك الإضافة؟ أما يغنيه هذا عن حرب الشيطان وعداوته ويحقق له الأمن من كل سوء؟ إذ من كان في حمى الله بذكره لا يقربه عدو ولا يوسوس له شيطان، ولا

---

(١) جزء من حديث رواه البيهقي في شعب الإيمان،و ابن أبي شيبة في المصنف و أبي نعيم في الحلية عن كعب الأحبار عن موسى عليه السلام.

(٢) رواه الخطيب في تاريخ بغداد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه (انظر كتاب كشف الخفاء)

(٣) الترغيب والترهيب جـ٢ ص ٣٩٩

تسول له نفسه عمل سوء، ولا يأسره هواه إذ أنه فى حصن مولاه فهو محمى به مما سواه (لا إله إلا الله حصنى، ومن دخل حصنى أمن عذابى)[1].

ذكر العارفين

ما سبق إنما هو ذكر السلوك التربوى، أو ذكر السالك طريق الحق الذى يقطع الحجب، ويتخلى عن نفسه رجاء الوصول، أما أهل الخصوصية فذكرهم ذكر السر والجَنان، أى التذكر التام لله على كل الأحيان، فلا خطرة لهم ولا لحظة منهم إلا والحق مشهودهم، أغرقوا الكثرة فى وحدته ورأوا سر وحدته فى خليقته، فهم لسره يشهدون، ولخليقته يعاملون، يعطون لكل نصيبه، فلا ينسيهم سلطان وحدته كثرة خليقته، ولا تحجبهم مظاهر تلك الكثرة عن شهود وحدته. هذه ميزة كُمّل العارفين، وخلاصة خاصة الصديقين، فهم المعنيون بالقولة المشهورة، (أنفاسهم عبادة) إذ هى خرجت بالله وهم فى حالة شهوده حتى إنهم فى نومهم يحظون بالعلوم، ويجنون ثمار معرفتهم من معروفهم وهم معه فى رقى وعلو دائماً، ينالون درجات مع قلة أعمالهم بالجوارح قد لا ينالها ولا يحصل عليها العابد الزاهد فى عبادته وخلوته، إذ إنه يعبد بنفسه لا بالله، وانظر مقالة سيدى على وفا: (نومه: أى العارف أفضل من عبادة غيره لأنه فى نومه فى حضرة ربه، وربما كان العابد فى عبادته مع نفسه).

هؤلاء العارفون بالله لا يتحركون إلا به، ولا يخرجون أبداً من حضرته، ولا يرون غيره فى الوجود، وإن تعددت أمامهم المظاهر، واختلفت المشاهد، فكلها صور للحق وتجليات له، تراهم ظاهراً صامتين، لا يذكرون باللسان ولكن لا تدرى ماذا يشاهدون ولا ما يعالجون ولا ما يعانون من الأقضية والمقدرات ولا ما يفاض عليهم من واردات[2] الحق، ونفحات الرب، فهم مع الخلق بالأجسام، ومع الله بالجنان، إنك لا

---

(1) حديث قدسى رواه أبو نعيم فى الحلية و ابن عساكر فى تاريخ دمشق عن على ﷺ .

(2) الوارد: ما يرد على القلب من الخواطر المحمودة مما لا دخل للعبد فيه وهو نور إلهي يقذفه الله في قلب من أحب من عباده وهو نفحة إلهية يهب نسيمها على القلوب والأرواح فتغيب في حضرة علام الغيوب وقل ما تكون هذه الواردات الإلهية إلا بغتة لأنها لا تنال باكتساب وإنما هي فتح من الكريم

تدرى ولا تدرك خبرهم، ولا تحيط بعلمهم، ولا كيف يناجون ربهم بأسرارهم، ولا بما يجيبهم، وأنهم يتعرفون وارداته إليهم، ويتلمسون مراده منهم، فهم دائماً فى مشاهدة لربهم، وهم يعبدونه فى كل أنفاسهم، ولو خرج نفس منهم لغير الله اعتبروه كبيرة واستغفروا الله منه، فسيئاتهم خلاف الأولى ومعصيتهم التفاتهم لغير المولى عز وجل من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين.

فهؤلاء الدالون بحق عليه والمشيرون بصدق إليه الذين إذا رُءوا ذُكر الله.

الأوراد عند القوم

الأوراد جمع ورد وهو ما يردده السالك لطريق القوم من أحزاب وأدعية وتسبيحات وتهليلات، وسائر الأذكار التى يأذن بها شيخ محقق كامل مأذون له فى التسليك والتربية، فمن أخذ أذكاراً وأوراداً من كتب القوم دون إذن لا ينال شرتها، بل يكون إلى العطب أقرب، وللطرد أوجب، إذ الدخول فى الحضرة دون إذن أو دعوة موجب للرد، و لو دخل يكون طفيلياً دعياً لا مدعواً مرضياً. هذا فضلاً عن أنه تصل إليه أنوار قد تغلب على عقله وتذهب بلبه، فلا يطيقها ولا يستطيع أن يصرفها، فيبوء بالخبل

الوهاب وتسمى أيضا هذه الواردات نفحات قال عليه السلام "إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها"

والواردات على درجات ثلاث:-

وارد الانتباه لأهل البداية من الطالبين وهو نور يخرجك من ظلمة الغفلة إلى نور اليقظة فإذا تيقظ من نومه وانتبه من غفلته استوى على قدمه طالبا لربه فيقبل عليه بقلبه وبقالبه وينجمع عليه بكليته.

وارد الإقبال لأهل الوسط من السائرين وهو نور يقذفه الله في قلب عبده فيحركه لذكر مولاه ويغيبه عما سواه فلا يزال مشتغلا بذكره غائبا عن غيره حتى يمتلئ القلب بالنور ويغيب عما سوى المذكور فلا يرى إلا النور فيخرج من سجن الأغيار ويتحرر من رق الآثار.

وارد الوصال لأهل النهاية من الواصلين وهو نور يستولي على قلب العبد ثم يستولي على ظاهره وباطنه فيخرجه من سجن نفسه ويغيبه عن شهود حسه.

والجنون، فبإذن الشيخ المحق للمريد يصير محمولاً عليه، ومحفوظاً بهمته، ومحمياً برعايته، سائراً إلى الله، مترقياً فى المقامات حيث يشاء الله له، فالعارفون هم أهل حضرة الله، وسدنة خلوة الأنس[1] والمسامرة[2]، ونواب عن حضرة صاحب الشرع سيدنا محمد ﷺ، فلا يصح لذاكر أن يدخل تلك الحضرات من غير إذنهم، ومن دخل من غير إذن رد بعصا الأدب، وطرد من الباب، وحرم الوصول، وفاته المأمول.

ولدينا الكثير من الأمثلة لأناس ذكروا الله بأسماء وبأعداد مخصوصة، كما رأوها فى الكتب دون إذن من شيخ عارف محق فأصابهم الخبل، ولعب الشيطان بعقولهم، وأفسد عليهم أمرهم، منهم من قيد الله له الاتصال ببعض الشيوخ المحقين وأصلح الله شأنه على يده، ومنهم من ظل فى وهمه وخياله حتى انقطع والعياذ بالله عن الصلوات كلها، والجمعة والجماعات، ولزم البيت ولا ذكر ولا عمل، معتقداً فى نظره أن ما هو فيه عين الحق، وإنه فى أعلى مقام، كل ذلك بتسويل الشيطان، كما حكى عن سهل ابن عبد الله رحمه الله أن بعض الناس قال له يوماً: (يا أستاذ أنا كل ليلة أرى الله بعينى رأسى)، فعلم سهل كيف لبَّس عليه الشيطان، فقال له: (يا حبيبى إذا رأيته الليلة فابزق عليه) فلما فعل الرجل طار عرش إبليس وأظلمت أنواره وتخلص الرجل من ذلك ولم ير من ذلك شيئاً بعد.

وما روى عن عبد الواحد بن زيد أن رجلاً قال له: إننا كل ليلة ندخل الجنة ونأكل من ثمارها، فقال له: خذنى معكم، فخرج الرجل مع أصحابه إلى الصحراء ومعهم عبد الواحد، فلما جنهم الليل إذا بقوم عليهم ثياب خضر، وإذا بساتين وفواكه، فنظر عبد الواحد إلى أرجل هؤلاء الذين عليهم الثياب الخضر فوجدها مثل حوافر الدواب، فعلم أنهم شياطين، فلما أرادوا أن يتفرقوا قال لهم عبد الواحد: إلى أين تذهبون؟ أليس

---

(١) الأنس حالة يشعر بها العبد حين يكشف الله عن عظمته لقلبه بالجمال فيسكن إلى الله ويعتمد عليه ويستعين به ولا يكون الأنس إلا لعبد كملت طهارته وصفا قلبه واستوحش عن كل ما يشغله عن الله تعالى.

(٢) المسامرة: حالة روحية قائمة بين العبد والرب أثناء الليل فهي مناجاة بالليل بين العبد وربه وتقوم علي الستر لأن الليل وقت انفراد المحب بحبيبه.

إدريس النبى لما دخل الجنة لم يخرج منها؟ فلما أصبحوا فإذا هم على مزابل بين روث الدواب وبعر الحمار، فتابوا ورجعوا إلى صحبة عبد الواحد بن زيد. أعاذنا الله من التلبيس والتنكيس، ومن أشقاه الله وأضله شيطانه إذا فوتح فى ذلك قال: إن المسلمين جميعاً على باطل، واعتزلهم واعتزل مساجدهم ظاناً أن ما فيه هو الصواب وهذا شأنه كشأن المجنون يظن الناس مجانين وأنه هو العاقل.

ثم إن الورد مأخوذ من الورود، فكما أن معناه اللغوى ورود على الماء وثمرته الرِّى بعد الظمأ، فكذلك هنا الورد معناه ورود على المحبوب لنيل المرغوب، فالذكر باسم من أسماء الله تعالى ورود على حضرة الله من حيث ذلك الاسم لينال منها أنواراً تكشف عنه الحجب والرانات، وتخليه عن مذموم الصفات، وأنواراً أخرى تصفيه وترقيه إلى حضرة أخرى لمولاه، وتقربه من رضاه، فلا يخرج من تلك الحضرة إلا وقد أوصلته إلى بُغيته، من التخلى والتحلى، والقرب والوصل، والدنو والحظوة بالمشاهد والعلوم والامتلاء بالأسرار والأنوار.

ويفهم من معنى الورد: التردد على مورد الماء عند الحاجة لنيل المطلوب، فكذلك ورد أهل الطريق، وتكراره تردد على الحضرات لنيل الإمدادات واستدرار المعارف والفيوضات.

ومن هنا كان ترديدهم للأوراد يومياً لنيل الأرزاق المعنوية فهم يسعون إلى غذاء أرواحهم وقربهم من ربهم كما يسعى غيرهم إلى متطلبات أجسامهم وشهواتهم، وتكثير أموالهم مع إهمالهم حق ربهم وشتَّان ما بين المطلبين، وفرق بين المقصدين، فأولئك لربهم يرجون ولرضاه يطلبون وهؤلاء لدنياهم يسعون ولحتفهم يمشون: ﴿ فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ (الشورى:٧)

سند الأوراد

ما الأوراد إلا أذكار، وقد بينا فى باب الذكر من هذا الكتاب الأسانيد والأدلة المؤيدة لذلك.

١- وأيضاً ما روى عن أبى ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "من قال فى دبر صلاة الفجر وهو ثان رجليه قبل أن يتكلم: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك و له الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير عشر مرات كتب الله له عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات وكان يومه ذلك كله فى حرز من كل مكروه، وحرس من الشيطان، ولم ينبغ لذنب أن يدركه فى ذلك اليوم إلا الشرك بالله تعالى" رواه الترمذى والنسائى.

وعن عبد الرحمن بن غن أنه قال: "من قال قبل أن ينصرف وهو ثان رجليه من صلاة المغرب والصبح ... " الحديث السابق برواية أحمد.

وعن أبى أمامة نفس الحديث السابق: "من قال لا إله إلا الله ... إلى آخره مائة مرة كان يومئذ من أفضل أهل الأرض عملاً إلا من قال مثل ما قال أو زاد على ما قال" رواه الطبرانى فى الأوسط.

٢- ما أمر به الرسول ﷺ من التسبيح والتحميد والتكبير عقب الصلوات بالأعداد المعروفة بقوله ﷺ : "تسبحون وتحمدون وتكبرون عقب الصلاة ثلاثاً وثلاثين مرة"، فذكره ذلك العدد يدل بلا شك على حكمة بالغة، وسر عظيم لا يعرفه إلا المحققون ولا يدركه إلا العارفون، فتقييد التسبيح والتحميد والتكبير بكونه عقب الصلوات بالعدد المذكور دليل تقييد أهل الطريق بأورادهم بأعدادها فى أوقاتها، ولو حصل التسبيح والتحميد بأعداد غير ما ذكر، ولم يكن عقب الصلوات، ما كان له من الأجر والقرب ما كان له عقب الصلوات بالأعداد السابقة، ويكفينا مقالة بعض سادتنا (من لا ورد له لا وارد يأتيه) فالورد الدائم دليل الورود والشرب والقرب من حضرة الرب.

٣- بعض الذكر أفضل من بعض - عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: "بينما نحن نصلى مع رسول الله ﷺ إذ قال رجل من القوم: الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا، فقال رسول الله ﷺ : من القائل كلمة كذا وكذا؟، فقال رجل من القوم: أنا يا رسول الله، فقال: عجبت لها فتحت أبواب السماء. قال ابن عمر: فما تركتهن منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك" رواه مسلم.

٤- عن على ﷺ أنه قال لابن أعبد: "ألا أحدثك عنى وعن فاطمة، فذكر أنها طلبت من أبيها خادماً يقيها حر ما هى فيه قال: إتق الله يا فاطمة وأدِّ فريضة ربك، واعملى عمل أهلك، وإذا أخذت مضجعك فسبحى ثلاثاً وثلاثين واحمدى ثلاثاً وثلاثين وكبرى أربعاً وثلاثين فتلك مائة، فهو -أى هذا الورد- خير لك من خادم" قالت: (رضيت عن الله وعن رسوله) رواه البخارى ومسلم.

فهذا الحديث يدل على أن الورد كما أن له أجراً ورقياً فى الطريق إلى الله فهو أيضاً يعين على أداء الأعمال فى أيسر وقت وأقل جهد، ويكسب العبد الرضا بما هو فيه وهذا غاية المطلوب إذ كل منا يرجو الرضا وهدوء النفس واستقرارها على ما هى فيه من أمر الدنيا، ويود المعونة والتوفيق فى كل عمله.

٥- عن جويرية رضى الله عنها أن النبى ﷺ خرج من عندها ثم رجع بعد أن أضحى وهى جالسة فقال:- ما زلت على الحال التى فارقتك عليها؟ قالت: نعم، قال النبى ﷺ لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات، ولو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: "سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته" رواه مسلم وأبو داود والنسائى. ففهم مما سبق أن للعدد حكمة، وللتقيد بالذكر فى وقت معين كما ورد سر لا يخفى عند المحققين كما أن لكلٍ ذكره الذى يناسبه.

٦- وأيضاً ما ورد فى السنة من الذكر بأعداد معينة لا شك أن لذلك خاصية ونفعاً، لا ينالان إلا بهذا العدد، فلو زيد عليه أو نقص ما كانت الثمرة المرجوة، إذ لم يؤت به على الوجه المسنون، وشبَّه سادتنا العدد فى الأذكار بأسنان المفتاح، فكما أن المفتاح لا يفتح إذا زادت أسنانه أو قلت فكذلك الورد فهو توقيفى، لا بالهوى والرأى.

وما لنا نذهب بعيداً والفرائض التى أوجبها علينا الشرع بعددها المعروف لو زيد فيها أو نقص منها فسدت ولزمت إعادتها على النحو الذى شرعت به، وأوراد سادتنا عندهم كالفرائض "صلوا كما رأيتمونى أصلى" رواه البخارى عن مالك بن الحويرث.

للإذن بالذكر أدلة منها:

أولاً: ما صح أن علياً ﷺ سأل النبى ﷺ فقال: "يا رسول الله، دلنى على أقرب الطرق إلى الله وأسهلها على عباده وأفضلها عند الله، فقال ﷺ : "أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة لرجحت بهم لا إله إلا الله" رواه مالك فى الموطأ والنسائى وابن حبان والحاكم.

فقال على ﷺ: "كيف أذكر يا رسول الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: غمض عينيك واسمع منى ثلاث مرات، ثم قل أنت ثلاث مرات وأنا أسمع فقال ﷺ: "لا إله إلا الله ثلاث مرات مغمضاً عينيه، رافعاً صوته وعليٌ يسمع ثم قال على ﷺ: "لا إله إلا الله"(١) ثلاثاً مغمضاً عينيه رافعاً صوته والنبى ﷺ يسمع". وعلى هذا تسلسل أمر القوم وصح توحيدهم، هذا دليل التلقين بالذكر فرادى.

ثانياً: أما دليله جماعة فقد روى شداد بن أوس قال: كنا عند النبى ﷺ فقال النبى ﷺ : "هل فيكم غريب، يعنى من أهل الكتاب، قلنا: لا يا رسول الله، فأمر بغلق الباب وقال: ارفعوا أيديكم وقولوا -لا إله إلا الله، فرفعنا أيدينا وقلنا: لا إله إلا الله، ثم قال: الحمد لله، اللهم إنك بعثتنى بهذه الكلمة، وأمرتنى بها ووعدتنى عليها الجنة، إنك لا تخلف الميعاد، ثم قال ﷺ : ألا أبشروا فإن الله قد غفر لكم" رواه أحمد وفهم من ذلك أيضاً أن الأذكار بأسماء الله حضرات للحق سبحانه، فلكل اسم حضرته التى لا يمكن دخولها إلا بإذن من الرسول ﷺ، ثم ورثته فى كل عصر إلى يوم القيامة.

---

(١) وفي رواية أنه ﷺ أسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع يديه على فخذيه وقال له، "قل لا إله إلا الله" مادا بها صوته إلى آخر نفسه وهذا يدل عل التلقين كما حدث من سيدنا جبريل في بدء الوحي وحديث الإسلام والإيمان والإحسان، ويفهم بهذا أن سيدنا علي كرم الله وجهه يريد أخذ الإذن بالذكر والعدد المطلوب، لا أنه يريد أن يعلم كلمة لا إله إلا الله. (هذا الحديث ذكره عبد الرحمن الجبرتى فى كتابه (تاريخ عجائب الأثار))

ثالثاً: من ذكر دون إذن قد يكون له الأجر، ولكن لا تكون له الدرجة والفضل والقرب والدنو من حضرة الرب، والمحبة والرضا، بدليل أن الرسول ﷺ لما شكا الفقراء حالهم له وقالوا: "ذهب أصحاب الدثور بالأجور ..." إلخ الحديث[1]، فدلهم على ما يذكرونه عقب الصلوات من التسبيح والتحميد والتكبير، فلما علم الأغنياء بذلك ذكروا عقب الصلوات بما أمر به الرسول ﷺ الفقراء دون إذن منه، فذهب الفقراء إلى رسول الله ﷺ وأخبروه بذلك فقال ما معناه: "قد قلت لكم لا يسبقكم سابق إن قلتم عقب الصلوات كذا وكذا[2]" ويفهم أن الأغنياء ذكروا رجاء الأجر والثواب ولكن الفقراء لما ذكروا بالإذن فلهم مع ما سبق الفضل والقرب من حضرة الرب، وشتَّان بين من يطلب القرب والوصل، وبين من يطلب الثواب والأجر.

رابعاً: وأيضاً روى عن ثابت البنانى قال: قال رسول الله ﷺ : سألت الله عز وجل الاسم الأعظم، فجاء لى به جبريل عليه السلام به مخزوناً مختوماً وهو "اللهم إنى أسألك باسمك الأعظم المكنون الطاهر المطهر المقدس المبارك الحى القيوم".

---

(١)عن أبي ذر رضي الله عنه : أن ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له : يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم . قال(: أوليس قد جعل الله لكم ما تصدّقون ؟ إن لكم بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة)، قالوا : يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟، قال:(أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر) رواه مسلم .

(٢) فهذا قول المعصوم ﷺ في قوله وفي فعله، وإنه إخبار عن شيء فلا يجوز الرجوع عنه، ولذا لما فعل الأغنياء ما أمر به الفقراء، وقف الفقراء في نظر الرسول ﷺ لمنظرهم، إلى مزيد الأغنياء عليهم بالقول فرجعوا إليه يستفتون منه ما أخبر به، فقال ﷺ : "لا تعجلوا فإن الذي قلت لكم كما قلت هو فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء وأنتم ممن شاء الله أن يؤتيه فضله، ذكره صاحب القوت في كتاب الزهدي ص ٥٢٢ جـ١.

فقالت عائشة رضى الله عنها:(بأبى أنت وأمى يا نبى الله علمنيه) فقال ﷺ : "يا عائشة نهينا عن تعليمه النساء والصبيان و السفهاء".

فلو كان التعليم هو المعرفة، فقد علمته وعرفته، وسمعته وهو يقوله، ولكن والله أعلم يفهم من ذلك أنها تسأله الإذن به.

هذا ما سقناه على سبيل المثال، لنؤكد أن الذكر بأسماء الله أو الدعوات الواردة فى كتب القوم،وكذا الأحزاب، لابد لمن أراد أن يذكر بها رغبة فى السلوك والقرب، أويتلوها قصد قضاء حاجته : من إذن من شيخ محق عارف بالله، مأذون له فى التربية عالم بطبائع النفوس، إذ قد لا يوائم بعض الطباع والاستعداد الذكر ببعض الأوراد فهو كالنطاسى الحاذق والطبيب الماهر ومعلوم أن من يتعاطى دواء دون إرشاد طبيب حكيم فقد يجلب له ذلك ضررا أشد مما هو فيه.

وما نعنيه من الذكر بأسماء الله وبأعداد مخصوصة أو محدودة دون إذن.

هذا هو قصد السلوك والوصول والرياضات للتخلى أو التحلى، أما ما ورد من ذكر عقب الصلوات أو فى بعض الأوقات والمناسبات ففيه إذن عام من صاحب الشرع الأكبر فليفهم ذلك.

هذا إلا أنهم قالوا إن الصلاة على حضرة الرسول ﷺ لا تحتاج إلى إذن وذكروا أنها قد تكون شيخا لمن لا شيخ له، وإن كل عمل صالح قد يدخله الرياء إلا الصلاة على حضرة الرسول ﷺ وكذلك الاستغفار.

وهذه الميزة للصلاة على الرسول ﷺ لا شك أنها من تمام حب الله لرسوله ﷺ وعلىّ منزلته، وأنه لا يتساوى معه أى مخلوق، وأكبر من هذا أن الشيطان قد يتمثل بحضرة الحق سبحانه، ولا يمكن أن يتمثل بالرسول ﷺ، إذ لو أراد ذلك لاحترق فى الحال، وهذا فضل كبير من الله على الأمة إذ لو جاز له ذلك، لأتى اللعين فى صورة صاحب الشرع ﷺ وغير وبدل فى الأحكام، وأفسد على الأمة دينها .

وليعلم أن الإذن من الشيخ للمريد له سره ومدده وأثره، وكما قال صاحب الشرع ﷺ : "إنما الأعمال بالنيات ... " الحديث [1]، فكذلك قالوا (لا ورد إلا بإذن).

وهذا المدد الواصل من الشيخ لمريده لا ينتهي بانتقال ذالكم الشيخ إلى جوار ربه فهم شهداء الحضرة (أحياء عند ربهم يرزقون)، بل إن همة الشيخ تتضاعف ومدده يتزايد لمريده بعد انتقاله، لمزيد قربه من ربه وكمال اتصاله. وقد سمعنا من شيخنا رضى الله تعالى عنه أن الشيخ حينما ينتقل إلى جوار ربه يكون أسرع إجابه لمريده لأن روحه عند ربها مطلقة مجردة من غمدها بعد أن كانت حال حياته حبيسة قفصها البشرى.

وليكن معلوما لذوى الألباب أنه يتفاوت النفع والثمرة بالورد بتفاوت همم الشيوخ وبمقدار مكانهم عند ربهم وبتفاوت حال المريدين واستعدادهم وإخلاصهم وصدقهم ومحبتهم لشيوخهم وقيامهم بواجب الخدمة مع الرضا التام وعدم الاعتراض فالشيخ يضفى على المريد من حضرته التى حل بها عند ربه ويسقيه من مورده الذى يشرب منه وينال بركته فيكون إذن فى حضرته تلك، بذكره ورده،ومقام العبد من مقام سيده وهمة المريد أثر وظل لهمة شيخه.

ومعلوم أن أمتنا ما فضلت إلا بفضل نبينا ﷺ على سائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

من أوراد الشيخ

دوام الطهر وسنة الوضوء:

كان ﷺ دائما على وضوء، يتوضأ كلما أحدث، وكلما توضأ صلى ركعتين، ودعا ربه عملا بسنة رسول الله ﷺ فى حديث بلال وهذا نصه:

---

[1] متفق عليه عن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ

عن عبد الله بن بريدة عن أبيه رضى الله عنهما قال: "أصبح النبى ﷺ يوما فدعا بلالا، فقال: يا بلال، بم سبقتنى إلى الجنة؟، إنى دخلت البارحة فسمعت خشخشتك أمامى، فقال بلال: يا رسول الله، ما أذنت قط إلا صليت ركعتين، ولا أصابنى حدث إلا توضأت عنده"، وفى رواية أبى هريرة: "ما عملت عملا أرجى عندى من أنى لم أتطهر طهورا فى ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لى أن أصلى"[1].

وقد قال رسول الله ﷺ: "الوضوء سلاح المؤمن"[2] ولا شك أن المتوضئ يكون فى كفالة الله ورعايته، وفى حصن من الشيطان وفى منأى من هواجس نفسه فكان شيخنا ﷺ يجدد الوضوء قبل وقت الصلاة بساعة ولو لم يحدث عملا بما روى عنه ﷺ: "الوضوء على الوضوء نور".

تلاوة القرآن

وكان يتلو من القرآن نصفه فى خلواته كل يوم، وبعدها كان يتلو خمسة أجزاء مع أوراده يوميا.

الذكر بالجوارح

وكان ﷺ دائم الذكر بالجوارح الحسية ليكون قدوة لمريديه وقصاده فما فتر عن الذكر لحظة من اللحظات، وكثيرا ما كان يردد حديث الرسول ﷺ عن عائشة حيث قالت: "كان رسول الله ﷺ يذكر الله تعالى على كل أحيانه"[3] فقد كان ﷺ- عاملا بهذه السنة، ذاكرا الله على كل أحيانه، وكفى بهذه ميزة وفضلا؛ إذ كان ذاكرا دائما بلسانه أو بقلبه.

---

[1] رواه أحمد و الترمذى و ابن حبان.

[2] ذكره الشيخ زروق فى كتاب النصيحة الكافية .

[3] حديث متفق عليه

ومن أوراده- ﷺ- التى شاهدناه يقوم بها على أحسن الوجوه وأتمها وأدومها قيام الليل، فكان يصلى مائة وثمانين ركعة تهجدا، وكان تهجده يبدأ من منتصف الليل صيفا وشتاء، ولا يترك صلاة التسابيح فى أى ليلة وكيفيتها قد بينها الحديث الآتى:

عن عكرمة عن ابن عباس- رضى الله عنهما قال: "قال رسول الله ﷺ للعباس بن عبد المطلب: يا عباس يا عماه، ألا أعطيك، ألا أمنحك، ألا أحبوك، ألا أفعل بك عشر خصال، إذا أنت فعلت ذلك غفر الله لك ذنبك أوله وآخره، وقديمه وحديثه، وخطأه وعمده، وصغيره وكبيره، وسره وعلانيته، عشر خصال:

أن تصلى أربع ركعات تقرأ فى كل ركعة بفاتحة الكتاب وسورة، واستحسن شيخنا أن تكون سورة (الأعلى) فإذا فرغت من القراءة فى أول ركعة فقل: وأنت قائم (سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر) خمس عشرة مرة ثم تركع فتقول وأنت راكع (عشرا) ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها (عشرا) ثم تهوى ساجدا فتقول وأنت ساجد (عشرا) ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها (عشرا) ثم تسجد فتقولها (عشرا) ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها (عشرا) فذلك خمس وسبعون فى كل ركعة تفعل ذلك فى أربع ركعات. وإن استطعت أن تصليها فى كل يوم مرة فافعل، فإن لم تستطع ففى كل جمعة مرة، فإن لم تفعل ففى كل شهر مرة، فإن لم تفعل ففى كل سنة مرة، فإن لم تفعل ففى عمرك مرة" رواه أبو داود وابن ماجة والطبرانى وزاد "فلو كانت ذنوبك مثل زبد البحر أو رمل عالج غفر الله لك"[1].

كنوز الأسرار

وكان ﷺ يقرأ كتاب (كنوز الأسرار فى الصلاة والسلام على النبى المختار) الذى قد سبقت الإشارة إليه ويقول عنها (لم أجد فى طريق الله أسرع سبيلا إلى الفتح، وأقرب طريقا إلى حضرة الرسول ﷺ، وأجلب لرضا الله سبحانه من هذه الصلوات).

---

[1] حديث صلاة التسابيح صحيح أخرجه أبو داود وابن ماجة والطبراني و ابن خزيمة والحاكم و غيرهم.

وقد لمسنا أنها تذلل جميع صعوبات الحياة، وهى سبب لتفريج الكروب، وقضاء الحوائج، ونيل المرغوب.

وكان شيخنا ﷺ- كلما حزبه أمر فزع إلى الصلاة، وإلى تلاوة هذه الصلوات، أما فزعه إلى الصلاة فاقتداء بالسيد الأعظم ﷺ، إذ ورد عنه أنه كان يفزع إلى الصلاة كلما حزبه أمر[1].

وأما فزعه إلى قراءة هذه الصلوات، فلأنه عرف عن تجربة ويقين، أنه ما أهمه أمر، أو أحاط به مكروه، وقرأ هذه الصلوات، متوسلا بها إلى رسول الله ﷺ، ليكون شفيعا له عند ربه، فى تفريج همه، إلا وجد الفرج والتيسير، حتى عرف عنه ذلك خلصاؤه وأهله، فكانوا إذا دخلوا عليه، وجدوه دائم التلاوة لها أكثر من ورده اليومى، شاغلا بها كل وقته، قالوا له أعندك هم أهمك، أو ضائقة بك ألمت؟، فكان ينظر إليهم مبتسما ويقول: أنا على تمام الثقة أن كل من يستشفع بقراءتها فى أى أمر من أموره، يحقق الله له مطلوبه بجاه المصطفى ﷺ الذى يقول: "توسلوا إلى الله بجاهى فإن جاهى عند الله عظيم".

ومن هنا اتخذها المريدون والمحبون وسيلتهم فى قضاء حوائجهم، فكانت تقضى جميعها بفضل الله، وببركة سيدنا رسول الله ﷺ، وبحرمة شيخهم لاقتدائهم به فى ذلك.

ولما كان لهذه الصلوات الأثر العظيم فى إشاعة الروحانية، فى كيان تاليها وترقيق قلبه، وامتلائه بالأنوار، وإضاءة الطريق للسائرين، وتقصير مسافة السير للسالكين، فى وصولهم إلى رب العالمين، كان حرص شيخنا ﷺ عليها شديدا ووصيته لأولاده بالمداومة على تلاوتها أشد، فيوصيهم بنسخها وتناقلها بينهم ليعم بها الخير، وينشر النفع. وفعلا كنت لا تجد مريدا من مريديه، إلا وفى يده نسخة قد خطها بيده أو كتبها له أحد إخوانه، فمنهم من كان يقرؤها مرة كل يوم، ومنهم من كان يقرؤها مرة كل يومين، ومنهم من كان يتم قراءتها كل أسبوع.

---

[1] كما فى الحديث الذى رواه ابو داود و احمد و البيهقى فى شعب الإيمان و غيرهم عن حذيفة ﷺ

وكان الشيخ ﷺ يكره من المريد أن يتراخى فى قراءتها أكثر من أسبوع وقد صدق الشيخ ﷺ فى اهتمامه بها، وحرصه عليها، لأن السنة أثبتت فضل الصلاة على الرسول ﷺ وفاضت الأحاديث بالترغيب فيها والحث عليها، ومن ثم نجد شيخنا ﷺ قد جد فى إضافة صيغ أخرى إلى كتاب كنوز الأسرار نقلها من صحاح السنة، ومن معتمد كتب القوم، أو مما منَّ الله به عليه من صيغ فى المنام، أو تلقينا من مربيه ﷺ.

ولقد ضم إلى كتاب (كنوز الأسرار) بعض الأحزاب عن سيدى أبى الحسن الشاذلى ﷺ وكذا مأثورات نبوية وأدعية أخرى لساداتنا فى الطريق، ثم طبعت فى أخريات حياته بإذنه ﷺ على نفقة الوزير المسلم والصوفى الغيور على الصوفية العارف بالله السيد/ حسن عباس زكى، جزاه الله خير الجزاء وبلغه مناه فى الدارين، وبرغم طبعها كان الشيخ ﷺ ملازما لتلاوتها فى نسخة خطية ويقول (إن فى المخطوطة سرا أكبر وبركة أعظم) واقتدى بعض المريدين بشيخهم فاتخذوا لهم نسخا خطية صغيرة الحجم ليسهل حملها فى حلهم وترحالهم لئلا تفوتهم قراءتها حتى فى أيام أسفارهم وعند الفراغ من أعمالهم.

وكان ﷺ يقرؤها فى اليوم مرتين، كورد ثابت له، وحينما سئل عن ذلك قال: (إنما أقرؤها لى مرة، وأجبر تقصير أولادى فى أورادهم بالمرة الأخرى) ولشغفه الشديد بها. وتمثلها بكيانه، سمع منه مرارا تلاوته لها بصوت مسموع أثناء نومه، يسمعه من كان يجلس بجواره، وعندما يستيقظ يكمل تلاوته لها من حيث وقف، وكان هذا قبيل وفاته.

وحسبك دليلا على عظم فضل هذه الصلوات، وكبير نفعها... أن الشيخ ﷺ رأى فى منامه الرسول ﷺ وقد أمسكها بيده الشريفة، وقال للشيخ (إنى أحبها. إنى أحبها. إنى أحبها).

فزاد ذلك من استمساك الشيخ ﷺ بها فوق حرصه السابق عليها، فلم نره قد ترك تلاوتها أبدا لا فى سفر ولا فى حضر، ولا فى صحة ولا فى مرض حتى اليوم الذى لقى الله تعالى فيه قرأها كعادته، ولتعلق الشيخ ﷺ بها، وولعه الشديد بحبها، رأى كثير من المحقين الشيخ ﷺ بعد انتقاله ممسكا بها، تاليا لها، حاثا عليها، مبينا فضلها حتى قال لبعضهم مناما: (إنها أهم ورد فى الطريق بل هى الطريق جله).

ولا تعجب أيها القارئ من قولنا (إنه رئى ﷺ تاليا للصلوات بعد انتقاله) فهذا من إخبار وشهود أهل الكشف الصادقين، وممن لا يخطئون فى مشاهداتهم ولا يلتبس عليهم السماع من أهل البرزخ، لا رؤيا منام فقط، إذ من المعروف المشهور أن الله من فضله يمن على كل ولى فى برزخه فيقيمه فى العبادة أو الطاعة التى أحبها وشغف بها فى دنياه، تلذذا بها، وتشريفا له وتكريما لا إلزاما ولا تكليفا، إذ التكليف قد انتهى بانتقاله من دار التكليف، وكم رأى هؤلاء المشاهدون، من هو فى قبره دائم التلاوة لكتاب الله تعالى إذا كان هذا همه فى حياته، ورئى غيره دائم الصلاة والركوع والسجود، وهكذا إلى سائر ما كان يحب ويميل إليه كل ولى، فروى من ذلك الكثير عن أهل الله العارفين بعد انتقالهم، ومما يؤيد ذلك ما روى أنه أيام الفتنة التى اجتاحت المدنية المنورة، وتعطلت فيها الشعائر الدينية، فعز ذلك على بعض الرجال، فكان يذهب إلى الروضة الشريفة، ويسمع منها عند أول كل وقت الأذان والإقامة، وسائر أفعال الصلاة من داخل الحجرة الشريفة فكان يعرف بذلك دخول الوقت، فيصلى.

وأيضا ما ذكر صاحب كتاب (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى) أن رجلا سار بحماره فى المقابر فجنح الحمار فأزال لبنة من قبر فرأى الرجل شخصا قائما يصلى فارتاع الرجل، فقال له صاحب القبر: (أقامت الساعة؟) فقال الرجل (لا) فقال: (رد اللبنة مكانها).

والحديث الوارد "أن الأنبياء أحياء فى قبورهم يصلون" رواه أبو يعلى فما كان للأنبياء أصالة فهو للأولياء وراثة، والرسول ﷺ مر ليلة الإسراء بقبر سيدنا موسى عليه السلام، فوجده قائما يصلى فى قبره.

هـذا والرسـول ﷺ يقـول فـى شـأن علمـاء هـذه الأمـة: "علمـاء أمتـى كأنبيـاء بنـى إسـرائيل"[1] فـلا يعـز عليـك ذلـك ولا تستغربه، فلـهم مـا يشـاءون عنـد ربهـم، ومـا لنـا نذهب بعيدا والحديث المشهور "أن رجلا ضرب خباءه ليلة، فسمع وهو نائم من يقرأ سورة الملك فارتاع فأتى النبى ﷺ وحدثه بما كان: فقال ﷺ ما معناه نعم. هذا قبر رجل كان يقرأ فى حياته سورة الملك هى المنجية، هى المنجية، هي المنجية، أى من عذاب القبر"[2].

ولـو مـن الله عليـك أيهـا القـارئ بنـوع مـن الكشـف لرأيـت العجـب العجـاب ومـا تدهش له الألباب، فترى أهل الطاعات، كل واحد متلذذ بطاعته التى كانت ديدنـه فـى دنياه ينعم بالقيام بها فى قبره حتى تقوم الساعة، كذلك ترى أهـل المعاصـى كـل واحـد فى بلائه وشقائه، يعذب بما كان يشتغل بـه ويهـواه فـى دنيـاه، وحسـبك حـديث مـانع الزكـاة ومـا ورد عـن الشـجاع الأقـرع حين يطوق عنـق صـاحبه وينهشـه ويقـول: "أنـا مالك، أنا كنزك". رواه مسلم عن جابر وابن مسعود.

المسبحة لا تفارق يده

ونعود إلى ذكر بقية أوراده ﷺ فنقول: إنه كان عدا ما سبق يذكر الله على المسبحة أكثر من سبعين ألفا بأذكـار وأدعيـة مختلفـة منهـا (لا إلـه إلا الله وحـده لا شـريك لـه لـه الملك وله الحمد يحيى ويميت بيـده الخير وهـو علـى كـل شـيء قـدير)؛ ولقـد أمـر أيضـا بسلوك أسماء الله الحسنى التسعة والتسـعين المعروفـة، ولقـن أسمـاء لله غيرهـا، لأن أسمـاء الله لا تنتهـى عنـد عـدد، منهـا مـا هـو بالعربيـة، ومنهـا مـا هـو بالسـريانية، وظلـت هـذه الأسماء سرا بينه وبين ربه، فكان إذا رأى بعض أولاده الخلص فى منامـه اسمـا مـن هـذه

---

[1] كشف الخفاء– ممن نقله جازم بأنه حديث مرفوع الفخر الرازي وموفق الدين بن قدامة والأسنوي والبارزي واليافعي وأشار إلى الأخذ بمعناه التفتازاني وفتح الدين الشهيد وأبو بكر الموصلي والسيوطي في الخصائص

[2] رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس رضى الله عنهما.

الأسماء، ولا سيما السريانية، وأخبر به الشيخ ﷺ ابتسم، وأمره بسلوكه معلقا بقوله: (لقد سبقتك بسلوكه وإن من أسراره كذا وهو يزيد فى روحانيتك كذا، فلا تفش سره كى تنال فضله وبركته) وليتفطن إلى أن المريد الصادق تتصل روحانيته بروحانية شيخه وإنه يستمد من باطنيته.

ومن هنا علمنا أن ثمة أسماء لله كانت عبادته بها سرا بينه وبين ربه، وكان يتلو كل اسم (مائة ألف مرة)، وكثيرا ما أخبرنا أنه كان ينتهى من سلوك الاسم فى يوم واحد؛ ولا شك أن هذه همة خارقة. وعزمة قوية، تدرك منها أن الشيخ ﷺ لم يكن بنفسه، وبشريته بل روحانيته كانت المسيطرة على بشريته، ومما كان يذكره لنا أنه كان يحس فى جسمه بحال فى كل اسم غير الاسم الذى سبقه؛ ولعل هذا ناشئ من التجليات الخاصة لكل اسم أو تدرجا من البشرية إلى الروحانية، وربما كان هذا يقابل الحجب التى كان الرسول ﷺ يتنقل فيها، وهو فى العالم الأزلى حسبما وردت بذلك الروايات الصحيحة من أنه ﷺ مكث أزلا ذاكرا فى حجاب القدرة (كذا سنة) وفى حجاب العظمة (كذا سنة) وكذا فى حجاب المنة إلى آخر الحجب، وهذا كله ليدرك شيخنا ﷺ تجلى الله التام فى كل أسمائه وصفاته، لأنه ورد أن مولانا سبحانه وتعالى يتجلى فى الموقف بعدة تجليات فمن لم يره فى تجلية من هذه التجليات فى الدنيا ينكره فى الآخرة ويقول لست ربنا.

أما من تجلى عليهم فى الدنيا بذلك فلا ينكرونه فى أى تجلية من تجلياته ويقولون فى كل مرة: نعم أنت ربنا.

لذا كان أهل المعارف يتفاوتون فى القرب حسب تعدد وتنوع تجليات الحق تعالى عليهم فى الدنيا، وكذا بقدر خلوصهم من بشرياتهم، وتحليتهم بخلع صفات ربهم تكون منزلتهم وصدق عرفانهم بسيدهم جل وعلا.

كل هذا غير أوراد أخرى (كسفينة النجاة) لسيدى أحمد زروق، و(المسبعات) التى أخذها إبراهيم التيمى عن الخضر وهو أخذ عن رسول الله ﷺ رواه صاحب القوت[1]، وأحزاب سيدى أبى الحسن ﷺ (كحزب البر) وأعداد أخرى من الأذكار كان يتلوها على أصابعه، ومنها ما أمره الرسول ﷺ مناما كقراءة (سورة الكوثر) وأدعية أخرى، إذ قال له ﷺ بنص الوارد (ما أحسن وردك إذا كان إنا أعطيناك الكوثر ليلا، ويكون دعاؤك اللهم فرج كربتنا، اللهم أقل عثراتنا، اللهم اغفر زلاتنا، وتصلى علىَّ وتقول: وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) كما أوصاه ﷺ بكثرة الصلاة عليه بهذه الصيغة: (اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد عبدك عدد خلقك ورضاء نفسك، وزنة عرشك، ومداد كلماتك).

ومن ذلك أيضا: الوارد الذى أتاه بهذا التسبيح (سبحان من لا يعلم قدره غيره، سبحان من لا يبلغ الواصفون قدر صفاته).

الصلاة على رسول الله

كان ﷺ يردد أحيانا هذه الصيغة من الصلوات على الرسول ﷺ (اللهم صلّ على سيدنا محمد ألف آلاف، وعدد رمل جبل قاف) وهذه الصيغة أيضا :(اللهم صل على سيدنا محمد عدد حروف القرآن حرفا حرفا وعدد كل حرف ألفا ألفا، وعدد صفوف الملائكة صفا صفا وعدد كل صف ألفا ألفا، وعدد الرمال ذرة ذرة وعدد كل ذرة ألف ألف مرة، وعدد ما أحاط به علمك القديم من الواجب والجائز والمستحيل، وعلى آله وصحبه وسلم مثل ذلك..)

---

(١) جـ١ ص ١٥

وكان ﷺ يدعو بكثير من الأدعية المأثورة ومنها

(اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره، ولا أملك نفع ما أرجو، وأصبح الأمر بيد غيرى، وأصبحت مرتهنا بعملى، فلا فقير أفقر منى، اللهم لا تشمت بى عدوى، ولا تسيء بى صديقى، ولا تجعل مصيبتى فى دينى، ولا تجعل الدنيا أكبر همى ولا تسلط علىَّ من لا يرحمنى، يا حى يا قيوم) وفى المساء كان يقول (اللهم إنى أمسيت. إلخ)

ومن ذلك ما رأينا بخط يده أنه كان (يقول يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن) كل يوم

وكذلك (الصلاة والسلام عليك يا سيدى يا رسول الله عدد ملك الله ما دام ملك الله) (سبحان العلى الأعلى الوهاب) (اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد كلما ذكرك الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون)

وكان يقول: (يا هو) وكذلك (الباقيات الصالحات) وأيضا (يا عزيز يا كافى يا قوى يا لطيف) و (سورة الفاتحة) و (آية الكرسى) و﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ و﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ و﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ و(سورة القدر) و(سورة الإخلاص)

وأيضا (يا من مقاليد الخير كلها بيده، وإليه يرجع الأمر كله، يا فتاح يا عليم، افتح على فتحا قريبا يا عليم يا فتاح).(الصلاة والسلام عليك يا سيدى يا رسول الله، قلت حيلتى، أدركنى سريعا) و (اللهم ذكره بى ليذكرنى عندك بما أنت تعلم أنه نافع لى عاجلا وآجلا على قدر معرفته بك، ومنزلته لديك، لا على قدر علمى، ومنتهى فهمى إنك بكل فضل جدير وبالإجابة قدير) (لا إله إلا الله الملك الحق المبين سيدنا محمد رسول الله الصادق الوعد الأمين).

(الله المتعال) (يا غني يا حميد) (يا لطيف يا رزاق) (يا فتاح) (يا ذا الجلال والإكرام) (يا واحد يا أحد يا صمد يا مجيب الدعوات) (الاستغفار) (البسملة) (يا حى يا قيوم لا إله إلا أنت أسألك أن تحيى ميت قلبى) (اللهم أنت خلقتنى وأنت تهدينى وأنت تطعمنى وأنت تسقينى، وأنت تميتنى وأنت تحيينى) (يا مقدر يا هادى، يا خبير يا متين، يا علام الغيوب، الله الله الحى القيوم يا مجيب).

تلك هى الأوراد التى وجدناها بخط يده ﷺ ضمن مخطوطاته ولا ندرى أكانت تلك أوراده فى البداية أم الوسط أم النهاية، ولم يكتب العدد لكل ورد منه، ولا زمن قراءته ولا كيفية تلاوته، وذلك كله كان سرا بينه وبين ربه، وما ذكرناها إلا لأننا فى معرض ما كان يقرؤه.

ومما كان يدعو به أيضا دعاء معروف الكرخى (حسبى الله لدينى، حسبى الله لدنياى، حسبى الله الكريم لما أهمنى، حسبى الله الحليم القوى لمن بغى علىَّ، حسبى الله الشديد لمن كادنى بسوء، حسبى الله الرحيم عند الموت، حسبى الله الرؤوف عند المسألة فى القبر،حسبى الله الكريم عند الحساب، حسبى الله اللطيف عند الميزان، حسبى الله القدير عند الصراط، حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) فقد وجدناه كتب ذلك فى مخطوط له آخر.

أدعيته فى شتى الأحوال اليومية

هذا كله عدا ما كان يقوله مما وردت به السنة فى أمور الحياة اليومية.

١- فعند النوم ما روى عن البراء بن عازب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل اللهم أسلمت وجهى إليك وفوضت أمرى إليك وألجأت ظهرى إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك آمنت بكتابك الذى أنزلت وبنبيك الذى أرسلت فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة واجعلهن آخر ما تتكلم به) أخرجه الجماعة.

٢- عند الاستيقاظ: ما ذكره أبو داود كان ﷺ إذا استيقظ من الليل قال (لا إله إلا أنت سبحانك اللهم أستغفرك لذنبى وأسألك رحمتك اللهم زدنى علما ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) [1].

٣- عند دخول الخلاء: ما روى عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يقول عند دخول الخلاء "اللهم إنى أعوذ بك من الخبث والخبائث" رواه الشيخان.

٤- عند الخروج من الخلاء: ما روى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال كان رسول الله ﷺ إذا خرج من الخلاء قال "الحمد لله الذى أذاقنى لذته وأبقى فيَّ قوته ورفع عنى أذاه" رواه ابن السنى والطبراني.

٥- عند الوضوء: ما روى عن عمر بن الخطاب ﷺ قال رسول الله ﷺ (من توضأ فأحسن الوضوء ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين فتحت له ثمانية أبواب الجنة يدخل من أيها شاء) رواه مسلم والترمذى.

٦- عند دخول المسجد: ما روى عن أبى حميد أو عن أبى أسيد رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ "إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبى ﷺ ثم ليقل اللهم افتح لى أبواب رحمتك فإذا خرج فليقل اللهم إنى أسألك من فضلك" رواه مسلم وأبو داود والنسائى.

وكان الشيخ ﷺ يقول بعد الدعاء (نويت سنة الاعتكاف ما دمت فى هذا المسجد).

٧- عند الأذان: ما روى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال "من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت

---

[1] رواه أبو داود و النسائى عن عائشة رضى الله عنها.

محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته: حلت له شفاعتى يوم القيامة" رواه البخارى.

٨- عند الإقامة: ما روى عن سعد بن أبى وقاص أن رسول الله ﷺ قال عندما قال المؤذن قد قامت الصلاة "أقامها الله وأدامها" رواه أبو داود.

٩- عند الدخول فى الصلاة: ما روى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يستفتح الصلاة بقوله "اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب اللهم اغسلنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد. اللهم نقنى من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس" رواه البخارى ومسلم.

١٠- عند ختام الصلاة: ما روى عن معاذ بن جبل ﷺ أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال "يا معاذ والله إنى لأحبك، أوصيك يا معاذ لا تدعن فى دبر كل صلاة أن تقول اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك" رواه أبو داود.

١١- عند آخر الوتر: ما روى عن على بن أبى طالب أن رسول الله ﷺ كان يقول فى آخر وتره "اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك" رواه أبو داود والترمذى والنسائى.

١٢- عند لبس الجديد: ما روى عن أبى سعيد الخدرى ﷺ أن النبى ﷺ كان إذا لبس ثوبا سماه باسمه قميصا أو رداء أو عمامة يقول "اللهم أسألك من خيره وخير ما هو له وأعوذ بك من شره وشر ما هو له"[١].

١٣- عند الخروج من بيته إلى الصلاة: ما روى عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ "ما خرج رجل من بيته إلى الصلاة فقال اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا إليك فإنى لم أخرج بطرا ولا أشرا ولا رياء ولا سمعة وإنما

---

[١] رواه أبو داود و النسائى و أحمد و غيرهم بسند صحيح



خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك أسألك أن تنقذنى من النار وأن تغفر لى ذنوبى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. إلا وكل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له وأقبل الله عليه بوجهه حتى يقضى صلاته"[1].

١٤- عند الخروج من بيته للسفر: ما روى عن على وابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال "اللهم بك أصول وبك أجول وبك أسير اللهم إنى أسألك فى سفرى هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى اللهم هون علينا سفرنا هذا واطو عنّا بعده، اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب فى المال والأهل والولد وإذا رجع قالهن وزاد فيهن آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون" رواه أحمد والبزار ومسلم.

١٥- عند الخروج من البيت للسعى والعمل: ما روى عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :"من قال إذا خرج من بيته باسم الله توكلت على الله لا حول و لا قوة إلا بالله يقال له كفيت ووقيت وهديت وتنحى عنه الشيطان" رواه أبو داود والترمذى والنسائى.

١٦- عند دخول البيت: ما روى عن أبى مالك الأشعرى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :"إذا ولج الرجل بيته فليقل اللهم إنى أسألك خير المولج وخير المخرج باسم الله ولجنا وباسم الله خرجنا وعلى الله ربنا توكلنا ثم ليسلم على أهله" رواه أبو داود.

١٧- عند ركوب وسيلة السفر: ما روى عن على ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا بدأ الركوب قال "باسم الله فإذا استوى على مركبه قال الحمد لله الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون" رواه أبو داود والترمذى.

١٨- عند الفزع والأهوال: ما روى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب "لا إله إلا الله العظيم الحليم لا إله إلا الله رب العرش العظيم لا إله إلا الله رب السماوات السبع ورب الأرض ورب العرش الكريم" جاء فى الصحيحين.

---

[1] رواه ابن ماجه و أحمد و ابن أبى شيبه و غيرهم.

١٩- عند سماع الرعد والصواعق: ما روى عن عبد الله بن عمر قال كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق يقول "اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك" رواه الترمذى والحاكم.

٢٠- عند نزول الأمطار: ما روى عن ابن أبى شيبة من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا رأى المطر قال "اللهم صيّبا نافعا" مرتين أو ثلاثا فإذا كثر المطر أو خاف ضرره قال : "اللهم حوالينا ولا علينا اللهم على الآكام والآجام والظراب والأودية ونبات الشجر" رواه البخارى من حديث أنس.

٢١- عند طنين الأذن: ما روى عن محمد بن عبيد بن أبى رافع عن أخيه عبد الله عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: "إذا طنت أذن أحدكم فليذكرنى وليصل على وليقل ذكر الله من ذكرنى بخير"[1].

٢٢- عند سماع أذان الديكة، أو نهيق الحمر: ما روى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "إذا سمعتم أصوات الديكة فسلوا الله من فضله فإنها رأت ملكا وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطانا" رواه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده وأبو داود والترمذى.

٢٣- عند دخول أى بلد: كان رسول الله ﷺ إذا رأى قرية يريد دخولها قال حين يراها: "اللهم رب السماوات وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وما ذرين إنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها"[2]

٢٤- عند القيام من المجلس: ما روى عنه أنه ﷺ كان يقول قبل أن يقوم من مجلسه "سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك" فقال له رجل:

---

[1] رواه الطبرانى فى المعاجم الثلاثة و ابن السنى و ابن عدى و غيرهم

[2] رواه النسائى و ابن حبان و ابن خزيمة عن صهيب ﷺ

(يا رسول الله إنك لتقول قولا ما كنت تقوله فيما مضى قال: ذلك كفارة لما يكون فى المجلس) [1].

وما روى عن على ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:"من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى فليقل فى آخر مجلسه أو حين يقوم سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين"[2].

٢٥- عند زيارة المريض: ما روى عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا عاد مريضا قال "اللهم أذهب الباس رب الناس اشف وأنت الشافى لا شفاء إلا شفاؤك شفاءً لا يغادر سقما" ويمسح بيده عليه ويطيب خاطره. رواه البخارى.

٢٦- عند زيارة القبور: ما روى عنه ﷺ أنه كان يقول "السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين و المسلمين ويرحم الله المستقدمين منكم والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم لا حقون، أسأل الله لنا ولكم العافية أنتم لنا فرط ونحن لكم تبع اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تضلنا بعدهم"[3] .

٢٧- عند الأكل: ما روى عن عبد الله بن عمر رضى عنهما عن النبى ﷺ أنه كان يقول فى الطعام إذا قرب إليه: "اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار بسم الله" رواه ابن السنى .

٢٨- عند فراغه من الطعام: ما روى عن أبى سعيد الخدرى ﷺ أن النبى ﷺ "كان إذا فرغ من طعامه قال الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين" رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه.

---

[1] رواه أبو داود والحاكم عن أبى برزة الأسلمى ﷺ

[2] رواه عبد الرزاق والثعلبى عن على ﷺ موقوفا، ورواه ابن أبى حاتم فى التفسير عن الشعبى عن النبى ﷺ مرسلا.

[3] رواه مسلم والنسائى وابن ماجه وابن السنى عن سليمان بن بريدة عن أبيه رضى الله عنهما.

٢٩- عند رؤية الهلال: ما روى عن عبد الله بن عمر وغيره أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا رأى الهلال، "الله أكبر اللهم أهله علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام والتوفيق لما تحب وترضى، ربى وربك الله هلال خير ورشد ثم يقول ثلاثا اللهم إنى أسألك من خير هذا الشهر وخير القدر وأعوذ بك من شره" رواه الدارمى والترمذى والطبرانى.

٣٠- عند رؤية ما يحب أوما يكره: ما روى عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا رأى ما يحب قال "الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات" وإذا رأى ما يكره قال "الحمد لله على كل حال" رواه الحاكم وابن ماجة.

٣١- عند المصائب: ما روى عنه ﷺ أنه قال "ما من أحد تصيبه مصيبة فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها، إلا أجاره الله فى مصيبته وأخلف له خيراً منها"[١].

٣٢- عندما يحزبه أمر: ما روى عن أنس أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر قال "يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث"[٢].

فما ورد فى كتب السنة مما يقال عند هذا كله كان ﷺ يقوله، إذ هو بحمد الله قرأ الكثير من الصحاح والمسانيد، ونقل منها أحاديث مختارة فى مختلف الطاعات والمعاملات والعلوم ولا سيما السمعيات ما زالت لدينا بخطه شاهد صدق على ما نقول.

---

[١] رواه أحمد فى مسنده و مسلم فى صحيحه و غيرهما عن أم سلمة رضى الله عنها

[٢] رواه الترمذى و النسائى و غيرهما

كان ﷺ يحيى بالصلاة والتسابيح الأيام والليالى الفاضلة كأول المحرم، وعاشوراء، وليلة السابع والعشرين من رجب، وليلة النصف من شعبان، والسابع عشر من رمضان، وإحياء العشر الأواخر منه، وليالى العيدين وأيامهما، وأول الحجة إلى التاسع منه.

وهذا كله خلاف ما رأيناه بخط يده من حزب الغزالى للقرآن، ودعوة الجلجلوتية، والبرهتية، وغيرها من الدعوات، ومناجاة سيدى ابن عطاء المذكورة فى آخر الحكم، وصلوات سيدى ابن أبى جمرة التى ذكرها فى شرحه لأحاديث البخارى. وعدا صلاة الضحى ثمانى ركعات وصيام الأيام البيض -وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر عربى- وصيام الأيام الفاضلة السابقة الذكر، العشر الأولى من المحرم والتسع الأولى من ذى الحجة.

وكانت له صلاة خاصة "مائة ركعة" فى ليلة النصف من شعبان، ويقرأ فى كل ركعة بعد الفاتحة سورة الإخلاص (إحدى عشرة مرة) وكان يحذر مريديه من التهاون فى أداء هذه الصلاة.

وكان فى رجب يكثر من الاستغفار الآتى:

(أستغفر الله ذا الجلال والإكرام من جميع الذنوب والآثام).

وفى شعبان (لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون).

أذكاره عقب الصلوات المفروضة

وكان يضع يده على رأسه عقب كل صلاة من الصلوات الخمس ويقول: (اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك اللهم اختم لى بالإيمان وقنى شر الفتانات فى المحيا وعند الممات)، ثم يقرأ الفاتحة للمصطفى ﷺ بعد صلاة الصبح ولسيدنا أبى بكر ﷺ بعد صلاة الظهر ولسيدنا عمر ﷺ بعد صلاة العصر ولسيدنا عثمان ﷺ بعد

صلاة المغرب ولسيدنا على ﷺ بعد صلاة العشاء وكثيرا ما كان يردد (يا كريم العفو يا الله) وكذا (يا كريم يا حليم يا رب).

استغاثاته

وكان عندما يرى العظائم من الأمور أو المفاسد التى لا طاقة للمرء بتغييرها، وأنها تستوجب المقت والمسخ يقول ضارعا متذللا رافعا يديه خوفا من غضب الله (رحماك يا ربى رحماك) ويظل يكررها.

ومن أوراده اليومية

(أستكفى كل شر بلا إله إلا الله) مائة مرة عقب صلاة الصبح.

(فوضت أمرى إلى خالقى، فقلت لقلبى كفاك الجليل، مدبر أمرى ولا علم لى، فهو حسبى ونعم الوكيل) ٤٩ مرة.

وكان يوصينا بها وقت السحر لتفريج الكروب وقضاء الحوائج، وكم جربنا فوجدنا فيها الفرج بعد الضيق، والوصول إلى المطلوب.

وأيضا كان يقول: (اللهم بنورك اهتديت، وبفضلك استغنيت، وبك أصبحت وأمسيت، ذنوبى بين يديك، أستغفرك وأتوب إليك).

هذا ومن الأدعية والأوراد التى وجدناها بخط يده ضمن مخطوطاته مايأتى :

أ) دعاء الفرج:

دعاء الفرج لسيدنا الخضر عليه السلام وله سر عظيم فى الحفظ من كل مكروه وقضاء المطلوب، وكان شيخنا يقرؤه صباحا ومساءً وهذا هو الدعاء:

(اللهم كما لطفت فى عظمتك دون اللطفاء، وعلوت بعظمتك على العظماء، وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك، وكانت وساوس الصدور كالعلانية

عندك، وعلانية القول كالسر فى علمك، وانقاد كل شيء لعظمتك، وخضع كل ذى سلطان لسلطانك، وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك، اجعل لى من كل هم أصبحت "أمسيت" فيه فرجا ومخرجا).

(اللهم إن عفوك عن ذنوبى وتجاوزك عن خطيئتى، وسترك على قبيح عملى أطمعنى أن أسألك ما لا أستوجبه مما قصرت فيه؛ أدعوك آمنا، وأسألك مستأنسا، وإنك المحسن إلى، وأنا المسيء إلى نفسى، فيما بينى وبينك، تتودد إلى بنعمك وأتبغض إليك بالمعاصى، ولكن الثقة بك حملتنى على الجرأة عليك، فعد بفضلك وإحسانك على، إنك أنت التواب الرحيم).

ب) دعاء الرجاء:

(اللهم اقذف فى قلبى رجاءك، واقطع رجائى عمن سواك، حتى لا أرجو أحدا غيرك، اللهم وما ضعفت عنه قوتى، وقصر عنه علمى، ولم تنته إليه رغبتى، ولم تبلغه مسألتى، ولم يجر على لسانى مما أعطيت أحدا من الأولين والآخرين من اليقين، فخصنى به يا أرحم الراحمين).

ج) عشر كلمات تجب المحافظة عليها:

الأولى: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيى ويميت، وهو حى لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير).

الثانية: (لا إله إلا الله الملك الحق المبين).

الثالثة: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم).

الرابعة: (سبحان الله وبحمده).

الخامسة: (سبوح قدوس رب الملائكة والروح).

السادسة: (أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأسأله التوبة).

السابعة: (يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله).

الثامنة: (اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد).

التاسعة: (اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد).

العاشرة: (بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم).

د) دعاء التهجد:

(اللهم لا تؤمنى مكرك، ولا تولنى غيرك، ولا تنزع عنى سترك، ولا تنسنى ذكرك، ولا تجعلنى من الغافلين).

كان يوصينا بها ثلاثا عند النوم للقيام للتهجد، وجربنا أن من نسيها ربما فاته تهجده، وكان أحيانا يزيد بعدها: (اللهم ابعثنى فى أحب الساعات إليك حتى أذكرك فتذكرنى، وأسألك فتعطينى، وأدعوك فتستجيب لى، وأستغفرك فتغفر لى).

وبحق كان هذا الدعاء نافعا جدا لمن كان له تهجد وورد من الليل فإنه يقوم فى أحب الساعات إلى الله ويؤدى ورده بحمد الله ولكن يلاحظ أنه إن قام لا يرقد حتى يؤدى ورده فإن تكاسل ونام بعد انتباهه فاللوم عليه.

هذا ما تيسر لنا جمعه من أوراده ﷺ مما رأيناه مكتوبا بخط يده فيما خلفه لنا، أو سمعناه يتلوه أيام ملازمتنا له، ولا ندرى أظل مواظبا على كل هذه الأوراد حتى نهاية حياته يتلوها كل يوم أم ترك البعض منها؛ إذ بعض الأوراد كان يأتيه لظرف مخصوص،

والبعض الآخر كان كأدوية وعلاجات للبشريات، وبالطبع ينتهي تعاطي الدواء عند تمام الشفاء.

أما أوراد الترقى -على ما نعلم- والسلوك والمعرفة، وأوراد كل منزلة وحضرة فما نظن أنه أهملها أو تركها، إذ إننا لم نلحظ عليه أبدا حتى نهاية حياته أن فتر عن الذكر.

تمسكه بأوراده الأولى

ومما ظل متمسكا به من السنن العملية سنة السواك، فلقد أحياها ونشرها بين أبنائه ومحبيه، ولا يخفى فضل هذه السنة على أى عالم بالشرع ويكفى الحديث "ركعة بسواك خير من سبعين ركعة بلا سواك"[1] وأيضا عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: "لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة" وفى رواية "عند كل وضوء" أخرجه البخارى.

ومما تيقناه أن أوراد شيخنا ؓ كان يتلقنها بصيغها وأعدادها وكيفيتها ووقتها، من سيده ومربيه ﷺ، مع قيامه بما جاءت به الشريعة من نوافل وسنن حتى إنه إذا لم يكن قد علم بسنة من السنن أو لم يقرأها فى كتب الفقه، كان يأتيه المصطفى ﷺ ويأمره بها؛ كما ذكر لناؓ، أنه أمر بصلاة ركعتين قبل صلاة المغرب وظل يعملها وحده، ولم يأمر بها مريديه ظنا منه أنه لم ينص عليها فى كتب الفقه المشهورة وحسب أن هذا له خاصة حتى وجدها فى مذهب الإمام الشافعى فأعلنها وأوصى مريديه بها.

تسديد وتأييد

ومما يدل على رعاية سيده له، وعنايته به، أنه إذا نقل بعض الأوراد أو الأحزاب، المأذون بها، من كتب وفيها تحريف مطبعى يأتيه المصطفى ﷺ ويبين له وجه الصواب، وعلى سبيل المثال، ما حدث منه عند تلاوته لورد الشكوى لسيدى أبى الحسن الشاذلى ؓ. وكان يقول: (وجد باللطف والهداية، والتوفيق والعناية، على عبد ليس له منك يد،

---

[1] رواه الحارث في مسنده و أبو يعلى و الحاكم عن عائشة رضى الله عنها.

وهو إليك صائر)، فكان يقرأ: يد، بالياء المثناه فجاءه وقال له: (إنها الباء الموحدة) يعنى: ليس له منك بُدّ.

ولعل هذا راجع إلى أنه كان فى بدء أمره مأخوذا، وهمه كله تلاوة الأوراد، لا التفكير فى معانيها، حتى يدرك هذا اللحن المطبعى.

ومما يدل على تولى الحق له، وعناية الرسول ﷺ به، أنه كان يتلقى أوراده كلها منه، وأنه أمره بزيادة صيغة فى الصلاة عليه ﷺ فى كتاب كنوز الأسرار، وأمره بوضعها فى المكان الذى حدده فوضعها كما أمر ﷺ: وهى (الصلاة والسلام عليك يا سيدى يا رسول الله عدد ملك الله مادام ملك الله فى كل نفس ولمحة، وطرفة يطرف بها أهل السماوات وأهل الأرضين، وعلى آلك وأصحابك وأتباعك ومحبيك) (١).

وصيغة أخرى وهى: (سبحان من لا يعلم قدره غيره، سبحان من لا يبلغ الواصفون قدر صفاته، اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد عبدك عدد خلقك، ورضا نفسك، وزنة عرشك، ومداد كلماتك) (٢) وزاده الرسول ﷺ بالصيغة الأخيرة فى المسبعات المشهورة وهى:

(يا من مقاليد الخير كلها بيده وإليه يرجع الأمر كله، يا فتاح يا عليم، افتح على فتحا قريبا يا عليم يا فتاح).

وليس هنا ببدع، فالعارفون المسلكون تأتيهم الواردات حسب الأحوال والظروف والمناسبات، إذ انفعالاتهم تحتاج إلى مثل هذه الزيادات، لعظيم أثرها بالنسبة لهم، وظروف أيامهم وحال مريديهم، ومن ذلك ما رأينا أن شيخنا الشيخ حسنين الحصافى ﵁، زاد فى الوظيفة الممزوجة آيات، فوشى بعض الحساد إلى شيخ السادة الوفائية وأنه أدخل وزاد فى الوظيفة على ما ورد، فتردد الشيخ فى تلك الزيادة، فأتاه المصطفى ﷺ،

---

(١) ص ٧٦ طبعة أولى، ص٥٨ طبعة الشعب.

(٢) صفحة ٧٩ طبعة الشعب.

ووضع يده الشريفة على صدره فوجد بردها فى كبده، وأذن له فى تلك الزيادة، فأعلنها ولم يبال بمقالة الحساد[1].

ومصداقا لذلك كان شيخنا ﷺ يقول: من منن الله عليَّ أننى إذا خالفت أمرا، لا عن قصد، أو أخطأت فى كيفية عمل لا عن عمد، أو لم أقم بآداب السنة، أو الطريقة على الوجه المرعى، كنت أجد المبادرة من سيدى ﷺ بالتوجيه والإرشاد، فكنت بحمد الله مطمئنا لكل ما أعمله، واثقا من رعايته لى، وأنه لا يتخلى عنى أبدا. وهذه منة لا تعدلها منة.

ومن ذلك أنه جاءه ﷺ وقال له: (تأن فى السجود ولا تستعمل الرخص أبدا) فكان ذلك أدبا له من مربيه. وكان يأمر به مريديه.

المحافظة على الأوراد

وكان ﷺ شديد الحرص فى المواظبة على أوراده فكان لا يتركها فى سفر ولا حضر مهما كان الأمر إذ إن مربيه ﷺ أتاه فى بداية الطريق وقال له: (التعبد مفتاح باب الخير، فمن فاتته الأوراد فى بدايته، حرم الواردات فى نهايته، وللأعمال أنوار كما للمعارف أسرار، وعليك بالدوام على الأوراد ولو بلغت المراد) وهذا يطابق الحكمة القائلة: (من لا ورد له لا وارد يأتيه).

فكان هذا الأدب النبوى مما يجعله دائم الحرص على أوراده، لأن الأوراد عند ساداتنا أهل الطريق يعتبرونها كالفرائض، ولو فاتتهم لزمهم قضاؤها، عملا بالحديث: "من كان له ورد بالليل ففاته فقضاه من النهار، كتب له من الليل" رواه مسلم عن عمر ابن الخطاب فلا يتخلون عن أورادهم أبدا. لأنها باب سعادتهم، وعماد حياتهم، وتأكيداً لذلك ما أتاه ﷺ من الوارد الذى نصه: (اعلم أن القوم إذا فرطوا فى إفطار يوم من صيام النوافل عاقبوا أنفسهم بالقضاء والكفارة كحكم من أفطر عامدا فى الفرض، فإن الصغيرة عندهم كبيرة، فافهم تغنم).

---

(١) صفحة ١٢٤ المنهل الصافي في مناقب الشيخ الحصافي

وفى الحقيقة كان ورده الدائم، كامل تعلقه بالله وعظيم الثقة به، وخالص حبه لرسول الله ﷺ.

نعم... كانت هذه بدايته ﷺ، عبادات ومجاهدات ورياضات ونسك وزهد وفى أخريات أيامه رأيناه يقتصر على الفرائض والسنن الراتبة تاركا الكثير من العبادات الجسمانية، ولا ندرى أكان هذا لضعف بدنه أم هى عادة الأكابر فى نهايتهم وهذا ما نعتقده، ولذا قيل فى شأن هؤلاء السادة (من رآنى فى البداية صار صديقا، ومن رآنى فى النهاية صار زنديقا) وقدوة هؤلاء الأفاضل سيدنا أبو بكر إمام الصديقين ﷺ حيث روى عنه أنه كان يقتصر على الفرائض والسنن الراتبة، ومعلوم مكانته بما قال فيه خليله ﷺ ما معناه: **(ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة، ولكن بالذى وقر فى صدره)** [1] وحسبنا دليلا على علو مكانته، ورفعة منزلته أنه الخليفة الأول، والذى قال فيه سيد الخلق ﷺ: **"لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان هذه الأمة لرجح"** رواه البيهقى عن عمر وإخباره عنه أنه سيدخل من أبواب الجنة الثمانية فى وقت واحد.

ويسمى هؤلاء القوم فى عرف أهل الطريق: الملامتية. وهم على قدم سيدنا أبى بكر، ومن شأنهم أنهم لا يزيدون على الصلوات الخمس إلا الرواتب، ولا يفعلون من العبادات كلها إلا ما لا بد منه، ولا يتميزون عن غالب الناس بعبادة، يمشون فى الأسواق ويتكلمون مع الناس كلام العامة، قد انفردوا بقلوبهم مع الله عز وجل، لا يتزحزحون عن عبوديتهم لله، ولا يتزلزلون عند شدة، ولا يذوقون للرياسة طعماً، لاستيلاء عظمة الله تبارك وتعالى على قلوبهم، وهؤلاء أعلى الطوائف كلها مقاماً فى زمنهم (كما فضل أبو بكر الصحابة كلهم فى عصرهم) رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

وانظر إلى موقف الصديق ﷺ عند وفاة النبى ﷺ فقد اهتز الجميع وتزلزلت عقول كثير من أكابر الصحابة. وانظر ما كان من عمر ﷺ وقوله (من قال إن محمداً قد مات، قتلته) ولكن الصديق أثبت علو قدره ومكانته، وما طاش عقله، وصعد المنبر وقال: (من

---

[1] رواه الحكيم الترمذى و أبى يعلى فى مسنده عن عائشة رضى الله عنها مرفوعا.

كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت) تأمل ذلك واعرف أقدار الرجال.

وما يروى فى ذلك المقام أنه أرسل ذو النون المصرى إلى أبى يزيد رجلاً وقال قل له: إلى متى هذا النوم والراحة ؟ وقد سارت القافلة، فقال للرسول: قل لأخى إن الرجل من ينام الليل كله، ثم يصبح فى المنزل قبل القافلة، فقال ذو النون: (هنيئاً له هذا كلام لا تبلغه أحوالنا).

ولا تعجب أخى القارئ من ذلك فإن هؤلاء الكمل أنفاسهم عبادة، وحركاتهم وأفعالهم لله تعالى وبالله، وأما غيرهم ممن لم يصلوا إلى درجة الكمال، فهم يعبدون بأنفسهم ولأنفسهم، فأين هؤلاء من هؤلاء؟ ولذا قيل: "أنفاس العارفين أفضل من عبادة العابدين، أبد الآبدين، ودهر الداهرين".

وحقاً فذرة من إخلاص[1] توازى عبادة الثقلين، فإذا كان هذا شأن المخلصين فما بالك بمن أخلصهم الحق، وخلصهم له وصافاهم واصطفاهم، فورثهم قوله:﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ * وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ [سورة ص:٤٦،٤٧].

---

(١) الإخلاص: إفراد القلب لعبادة الرب، وسر الإخلاص الصدق المعبر عنه بالتبري من الحول والقوة.
درجات الإخلاص:

١. إخلاص العوام: إخراج الخلق من معاملة الحق مع طلب الحظوظ الدنيوية والأخروية فعبادتهم خوفا من العقوبة وطمعا في الرحمة أي عبادتهم بنفسهم لنفسهم.
٢. إخلاص الخواص: السائرون، ويطلبون الحظوظ الأخروية دون الدنيوية فعبادتهم محبة في ذات الله وشوقا إلى لقائه لا طمعا في جنته ولا خوفا من ناره فعبادتهم بنفسهم لله.
٣. إخلاص خواص الخواص: العارفون- خروج الخلق من النظر إليهم في الأفعال وعدم السكون والاستراحة إليهم في الأحوال مع إخراج الحظوظ بالكلية، فعبادتهم تحقق القيام بوظائف العبودية وأدبا مع عظمة الربوبية فعبادتهم بالله لله ومن الله إلى الله.

كان ﷺ يتجه إلى ربه أثناء عبادته وقراءة أوراده بكليته، أى بظاهره وباطنه، فلا يشغله شيء عنه جل وعلا، يتفرغ تمام التفرغ لمولاه عملاً بالحديث الشريف "لي وقت مع ربى"[1] فلو دخل عليه أثناء قراءته لأوراده أحد، لا يجد منه الالتفات أو الاهتمام، بل كان يتألم جداً لو دخل عليه أجنبى، وتضطره واجبات الضيافة أن يترك أوراده، ويقوم بواجب الترحيب به، وعندما يفرغ ذلكم الضيف من مطلبه وينصرف، ينخرط الشيخ فى أوراده، ويعوض ما فاته فى وقت راحته، عند القيلولة، ومن عادته ﷺ أن يبكر بأوراد الصباح فينتهى منها قبيل الظهر، وبعد صلاة الظهر مباشرة يتناول طعام الغداء، ثم يستريح قليلاً وكان يدعو مريديه إلى راحة الظهر؛ لأنها تعين على قيام الليل وقبل العصر بساعة أو أكثر يتوضأ ويرابط فى مصلاه استعداداً للصلاة، فإن العبد فى صلاة ما دام ينتظر الصلاة، وبعد صلاة العصر يبدأ فى أوراد المساء، وكثيراً ما كنا نراه يقرأ أوراده مقدماً ليوم أو يومين، وحين سألناه فى ذلك قال: (أخشى أن يعوقنى عن وردى عائق، وتقديم الورد عن ميعاده أولى من تركه) ولعلك تدرك أيها القارئ ما أشرنا إليه من عظيم اهتمامه بالأوراد وعدم التقصير أو التسويف أو التأجيل لها، إذ من أجَّل ورده عوقب بفوات غيره وشغل عنه. وأظن أن تقديم الورد عن يومه أو وقته لا يكون لكل سالك، إذ ما زال فى جهاد نفسه وصدقها، فربما يعتاد ذلك التقديم فيخلو بعض أوقاته عن ورد ويلزم عليه أن يقع فيما وقع فيه من قبلنا بالنسيء والتقديم والتأخير لعبادته ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ [التوبة:٣٧] وكانوا يؤخرون الصوم أو القتال لأمر فى نفسهم.

وساداتنا الذين يقدمون بعض أورادهم لعذر طارئ عليهم ليسوا ممن يقيدهم الزمان أو المكان، ولا يفعلونه إلا بالإلهام لا عن هوى أو كسل، فليحذر السالك هذا.

كل ما سبق قراءته وذكره لشيخنا ﷺ عدا قراءته كتب التفسير والحديث والفقه والتصوف ونقله منها مختارات كتبها بخطه ما زالت لدينا شاهد صدق على ما نقول.

---

[1] انظر كتاب كشف الخفاء ٢/ ١١٥٥، والمقاصد الحسنة ١/ ٥٦٥

عقيدته عقيدة أهل السنة:

ونحن ندين الله تعالى، ونُشهده سبحانه بأن شيخنا كان نقى السريرة، سليم العقيدة، صادق اليقين، راسخ القدم فى التمكين، وأن عقيدته عقيدة أهل السنة رضى الله تعالى عنهم، أشعرى المذهب وأنه كان يؤمن بكل ما كان عليه السلف الصالح، وأنه برىء من كل ما يخالف ما كانوا عليه، فى عقيدتهم الصحيحة المستقاة من القرآن الكريم، الموروثة عن سيد المرسلين ﷺ، وما كان عليه الصحابة رضى الله عنهم وأئمة أهل الدين المحققين المعروفين، إذ العقيدة الصحيحة هى الخالية عن التشبيه والتجسيم، المنزهة للحق سبحانه عما يشابه الحوادث ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

تنزيهه المطلق لله

وكان رضى الله تعالى عنه يؤمن بأن الله سبحانه وتعالى موصوف بكل كمال يليق بذاته، ويُسلم بكل ما ورد به ظاهر الشرع، والتفويض لله فى كل ما جاء به القرآن من المتشابه.وكذا ما وردت به السنة منه ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] ويتركون لله تأويله وتفسيره وكيفيته ونوعيته وكميته وهيئته بالصورة التى تليق بجنابه سبحانه وتعالى.

أصول العقيدة

وإن هذه العقيدة تتلخص فى الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له وأن سيدنا محمد ﷺ، هو رسوله الحق، والإيمان بالملائكة على اختلاف مراتبهم وعباداتهم واختصاصاتهم، والكتب السماوية المنزلة على سائر الرسل، وأن لله رسلاً مبشرين ومنذرين، فضل الله بعضهم على بعض، ورفع بعضهم درجات، وأن هناك يوماً آخر للحساب والجزاء.

كما أن شيخنا ﷺ كان يؤمن بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، يتجلى ذلك فيما مر به من صروف القضاء، ونوازل القدر فكان بحمد الله راضياً مطمئنا بكل ما أجراه الحق عليه.

فروع وثمار العقيدة

كان ﷺ يؤمن بأن الله سبحانه وتعالى هو الموجود بحق، وغيره موجود بوجوده، ولا وجود للممكنات فى وجود كينونيته، وأنه تعالى هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وأنه بكل شيء عليم، وأنه المتصرف فى الكون وحده، وأن علمه أزلى سبق كل مخلوق ومقدور وهو أقرب إلى كل شيء من نفس ذلك الشيء ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، محيط بكل شيء بحيطةٍ هى صفته، وفوق كل شيء بفوقيةٍ هى عظمته، وأقرب من كل شيء بقرب هو روح ذلك الشيء ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

وكان ﷺ يؤمن بالمحكم من القرآن الكريم عاملاً ممتثلاً لكل أمر جاء به تاركاً كل منهى عنه، وأنه كان يؤمن بالمتشابه من آيات الكتاب جملة، ويدع التفصيل والكيفية للحق فمثلاً كان يقول: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] استوى بالكيفية التى يعلمها هو جل شأنه، فالرحمن اسمه، والاستواء نعته متصل بذاته، والعرش خلقه، منفصل عن صفاته، جل سبحانه أن يحويه مكان، وتنزه عن أن يفقد من مكان، ولا يوجد بمكان، فالأماكن للممكنات تنزه سبحانه وتعالى عن الأين والزمان ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] فالأين لنا لا له، والزمان قيد لنا لا له، وأنه سبحانه وتعالى لا يعرف إلا بشهوده، ولا يرى إلا بنوره، وهذا لأولياء الله، اليوم بالغيب فى القلوب، ولهم ذلك غداً فى المشاهدة بالأبصار (كيف أعبد رباً لم أره).

عقيدته فى صفات الحق وآثار تجلياتها:

وأنه ﷺ كان يؤمن بأن الله لا يتجلى بوصف مرتين، ولا يظهر فى صورة واحدة لاثنين، وأن لله تعالى تجليات بعدد أنفاس الخلائق، متكلم دائما أزلا وأبداً، لا يرد منه

بمعنى واحد كلمتان، ولا نفاد لِكَلِمه ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]

ولا انقطاع لإفهامه، ولا نهاية لتجليه، ولا غاية لأوصافه، إذا تكلم أظهر، وإذا شاء قدر، ومتى أحب ظهر، وبأى قدرة شاء استتر، يخلق بيده إذا شاء، وعن كلمته إن شاء، وبإرادته متى شاء، وبمعانى صفاته كيف شاء، يدرك الأشياء كلها،على اختلاف أوصافها، بصفة من صفاته، ثم يدرك بجميع أوصافه ما أدركه بهذه الصفة، لا يدخل الترتيب فى صفاته بقبل أو بعد، صفاته قديمة بقدمه، وكائنة موجودة بكائنيته ووجوده، لا هى عين ذاته حتى تكون هى هو، ولا غير ذاته حتى تخالفه هو، فلا هى عين، ولا هى غير، ومع ذلك قالوا: لو كشف عنا الحجاب لرأيناها).

فسبحانه حجب عن العقول فلا تدرك ذاته، ليس كمثله شىء حتى يعرف بالتمثيل، ولا له جنس فيقاس عليه ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ غير متصل بالخلق، ولا مفارق لهم، وغير مماس للكون، ولا متباعد عنه، منفرد بنفسه، متحد بوصفه، جاوز الحدود والمعيار، لا تحصى صفاته ولا تنتهى نعوته، حير العقول والأفهام (الحمد لله الذى لم يجعل السبيل إلى معرفته إلا العجز عن درك معرفته) وكما قالوا: (العجز عن درك الإدراك إدراك) .

صفات الحق المؤثرة فى الكون

كان رضى الله تعالى عنه يعتقد أن الله سبحانه وتعالى عالم بالكون قبل كينونيته، وناظر إلى علمه لا حجاب بينه وبين معلومه، سامع لما شهد، ومتكلم بما علم فقد سبق النظر والسمع والكلام، الكون كله من حيث سبق العلم والقدرة و المشيئة، فهو ناظر سامع متكلم بنفسه من حيث كان عالماً. مقتدراً مريداً بنفسه، ثم أظهر الخلق عالماً بعد عالم، فى وقت بعد وقت، فجاءوا على نظره وسمعه وكلامه، كما كانوا فى علمه وقدرته ومشيئته، واجد الأشياء به لا بها، وناظر إليها فى علمه لا بوجودها، لاقتداره عليها، وإحاطة علمه بها، والكون معدوم لنفسه لتلاشيه، لأنه سبحانه وتعالى خالق العدم،كما هو خالق الوجود ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾[الملك:٢] ليس للعدم قدم مع قدمه فيكون ثابتاً معه، ولا للكون وجود بنفسه فيكون أولا مع أوليته.

كان شيخنا ﷺ يرى أنه يجب على كل مسلم أن يعتقد فى مولاه سبحانه وتعالى أنه جل وعلا عن أن يكون له ثان معه فى الأزل، أو شريك فى القدم فالتوحيد الحق بإثبات الصفات، وأوصاف الذات، مع نفى الشبه والماهية، ونفى الجنس والكيفية، ثم سكون القلب وطمأنينة العقد إلى الإيمان بهذا والتسليم له، لأجل نور اليقين الموهوب، لأن هذا إنما يشهد بنور اليقين وعلمه، لا بعلم العقل ونوره، لأن خالقا لا يرى بمخلوق، فالله يرى بنور اليقين، وفى هذا النور مشاهدة الصفات، وهو حقيقة الإيمان، وأعز ما نزل من السماء وهو السكينة المنزلة فى القلوب، بمزيد الإيمان (عبد نور الإيمان قلبه) رواه البزار عن حارث بن مالك.

قالوا: أربعة تسلم ولا تعارض: أخبار الصفات، وأصول العبادات، وفضائل الأصحاب، وفضائل الأعمال .

وأيضاً قالوا: (إن حقيقة علم التوحيد باطن المعرفة، وهو سبق المعروف إلى من به تَعرف بصفة مخصوصة و بحبيب مقرب مخصوص، ولا يسع معرفة ذلك الكافة (وإفشاء سر الربوبية كفر)، وللربوبية سر لو ظهر لبطلت النبوة، وللنبوة سر لو كشف بطل العلم، وللعلماء بالله سر لو أظهره الله تعالى لبطلت الأحكام، فقوام الإيمان واستقامة الشرع بكتم السر، به وقع التدبير، وعليه انتظم الأمر والنهى والله غالب على أمره) .

الخلاصة

هذا بحمد الله مجمل ما لمسناه وعرفناه من شيخنا ﷺ، ومنه سمعناه ﷺ فى عقيدته مع مولاه، طول أيام صحبتنا إياه، فكان ﷺ فى كل مناسبة يبدى لنا طرفاً من يقينه بربه، ويظهر لنا فرعا من عقيدته فى مولاه، وهذا لا شك ليس كل ما عنده، أو جميع ما حواه قلبه، وانطوى عليه سره، إنما ذلك بعض فيضه لنا تعليما وتعريفاً، وتربية وتشويقاً، ليحببنا إليه سبحانه، ويبعدنا عن المزالق فى التشبيه والتنزيه، وينتشلنا من أوحال التوحيد، ويغرس فينا العقيدة الصحيحة، والتوحيد الحق، لنلقى الله تعالى على الحنيفية السمحة البيضاء، ولله الحمد والمنة، فقد كفانا الله بفضله كل ميل أو زيغ عن

عقيدة أهل السنة والتوحيد الحق، وأحاطنا برعايته من الهوى والنزعات فهدانا الله بمنه إلى الدين الحق، وقول الصدق، والفعل السليم، جزاه الله عنا خير ما جازى شيخا عن مريد.

تحقيق وتوضيح

وإحقاقاً للحق وتصحيحاً للوضع، وبياناً لما درج عليه القوم أن العقيدة السليمة فى جانب الحق تعالى بين تنزيه وتشبيه، ولا بد من مراعاة الطرفين، والنظر بالعينين، إذ ورد الشرع بذلك، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وهذا غاية التنزيه لدخول (كاف) التشبيه على المثل فهى مبالغة فى نفى الشبيه والنظير، ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وفى هذا تلميح إلى التشبيه إذ له سمع وبصر.

وعند ساداتنا المحققين قالوا: (إن القسم الأول فيه التشبيه، إذ دخول الكاف على المثل المسبوق بالنفى يفيد نفى مثل المثل فكأن له مثلاً والمنفى مثل المثل كما يقول أهل اللغة نفى النفى إثبات.

والقسم الثانى ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ عند المحققين غاية فى التنزيه، إذ كانت (ال) الدالة على القصر والحصر داخلة على السميع البصير فلا سميع ولا بصير إلا هو وهذا غاية فى التنزيه، ونهاية فى نفى النظير والشبيه).

وأيضا ما ورد فى نسبة الفعل للعبد فى قوله تعالى:﴿ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾ [التوبة:١٠٥] وقوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى:٣٠] إلى آخر الآيات الدالة على ذلك، ثم قال الله تعالى:﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦]، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران:١٥٤]

وافهم قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ...﴾ فقد نفى، ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ فقد أثبت، ثم قال بعد ذلك ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ وهذا هو الحق والمخلص من نسبة الفعل تارة إلى العبد وتارة إلى الرب، إنه لا بد من ملاحظة النسبتين فهو (أى الفعل) للعبد كسباً وتكليفاً إذ جرى

الفعل ظاهراً على يديه، ونسب إليه، وهو (أى الفعل) لله فى الباطن خلقاً وإيجاداً وفى الحقيقة أنه لا فاعل إلا هو ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٧٨].

وهذا النمط يسمى عند الصوفية بملاحظة الفرق والجمع، والمحقق من لا يطغى فرقه على جمعه، ولا جمعه على فرقه، وأحسن ما يقال فى هذا الشأن مقالة الشاذلى ﷺ (إذا أردت الحقيقة التى لا لوم فيها ولا عتب، فليكن الفرق على لسانك مشهودا، والجمع فى قلبك معقودا).

عقيدته فى سيده ومربيه

ما أسلفناه مجمل عقيدته ﷺ فى مولاه، أما عقيدته فى سيده ومربيه وكافله وراعيه، سيد الخلق أجمعين سيدنا محمد ﷺ، فكانت عقيدته فيه قوية جداً، تجل عن الوصف، وتفوق الحد، وأن حبه قد تمكن من سويداء قلبه، وتخلل كل جزئيات بدنه، ولقد تجلت تلك المحبة واضحة فى العمل بسنته ﷺ، والتحلى بشمائله ﷺ، والتأدب بآدابه ﷺ، وكثرة الصلاة عليه ﷺ، حتى عرف بها واشتهر، والتنقيب فى الكتب المختلفة عن أحاديثه ﷺ، وتتبع الآثار والأخبار، وكل المرويات عنه ﷺ.

وأيضا تتبعه لما رواه بعض الصالحين عنه ﷺ فى رؤاهم له، أو اجتماعهم به إذ كانوا من أرباب مشاهدته ومشافهته فى اليقظة، ولقد عرفنا جلياً أن شيخنا ﷺ، كان يغار دائماً على حبيبه ﷺ، ويغضب ويثور عندما يسمع أو يعلم أن أحدا تكلم عليه ببعض المقالات التى لا تليق بشرفه، ولا تتفق ومكانته؛ وظنهم أنه كسائر الأبشار أو أنكر السيادة على الرسول ﷺ فى الأذان والإقامة والصلاة.

الرسول أول الخلق وأفضل المخلوقات

كما كان شيخنا ﷺ يشهد بأن الله واحد ويشهد أن سيدنا محمداً ﷺ عبده ورسوله ويؤمن ويوقن ويشهد بأنه ﷺ أول الخلق، ونوره أول كل شيء، كما ورد عن جابر بن

عبد الله أنه قال:"يا رسول الله بأبي أنت وأمي، أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء، قال: **"يا جابر إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره"**[1].

وأيضا ما روى عن عمر وابنه وابن عباس رضى الله عن الجميع، قال رسول الله ﷺ: **"أتدرى من أنا؟ أنا الذى خلق الله عز وجل نورى أول كل شيء، فسجد لله وبقى فى سجوده سبعمائة عام ولا فخر. أتدرى من أنا؟ أنا الذى خلق الله القلم واللوح والعرش والكرسى والعقل الأول ونور الإيمان من نورى".**

وكان ﷺ يؤمن أنه ﷺ أفضل المخلوقات، من جبريل وميكائيل وإسرافيل ... إلخ وجميع الملائكة المقربين وأفضل من الشمس وأن نورها من نوره، وأنه الرحمة المهداة للخلق أجمعين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، مؤمنهم وكافرهم، حيهم وميتهم، الكثيف واللطيف، وأن سره مبثوث فى كل الموجودات، على اختلاف عوالمها، وأنه أودع علم الأولين و الآخرين، وأن علم الدنيا وعلم الآخرة وعلم اللوح والقلم من علمه ﷺ، وأن كتابه خاتم الكتب، ومهيمن على كل كتاب، ورسالته خاتم الرسالات؛ وشريعته ناسخة لكل شريعة قبله، وأن موسى وعيسى بشّرا به؛ وأخبرا عنه وأنهما لو وجدا فى زمانه لآمنا به، وصارا من سائر أمته **"لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعى"** رواه أحمد عن جابر.

وأن الله تعالى صلى عليه أزلاً وأمر ملائكته وسائر المؤمنين بالصلاة عليه وجعل طاعته فى طاعته ﷺ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠] وأن حبه تعالى فى اتباعه ﷺ ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

وأن الله أخذ على جميع النبيين الميثاق أولا أن يؤمنوا به وينصروه ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِي قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١]

---

[1] انظر كتاب كشف الخفاء حديث ٨٢٧

وأن القرآن أنزل فى أوصافه ﷺ "كان خلقه القرآن" رواه أحمد ومسلم عن عائشة.

وأنه ﷺ كان يعلمه قبل نزوله عليه ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه:١١٤]

وأن له الفضل على جبريل فقد روى أنه قيل لجبريل: أما لحقك من رسالة محمد ﷺ شيء؟ قال: نعم كنت على قدم الخوف والوجل حتى نزل قوله تعالى ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:٢١] فلحقنى الأمان بذلك.

وكان شيخنا ﷺ يؤمن أن الرسول ﷺ أسرى به يقظة بالروح والجسد، وعرج به كذلك، ورأى ربه يقظة بعينى رأسه ليلة المعراج.

حياته البرزخية تفوق حياة الأحياء

وأنه ﷺ حى فى برزخه حياة تفوق حياة الأحياء، وأنه يرد على الزائرين سلامهم، ويعرفهم بأسمائهم، ويشفع فيهم ويستغفر لهم، ولولا استغفاره لنا ما قبل منا استغفار "حياتى خير لكم ومماتى خير لكم تعرض علىَّ أعمالكم فإن وجدت خيراً حمدت الله وإن وجدت غير ذلك استغفرت لكم" رواه الحارث عن أنس.

كما كان يدين بأنه ﷺ ترجمان الحق سبحانه وتعالى، ومظهر تجليات الحضرة التى لا تنقطع إمداداتها لحظة أو أقل عن الكون كله، ومن أيقن ذلك لم يستبعد عليه ﷺ رده السلام على كل من سلم عليه، ومعرفته لأحوال كل الخلائق لا سيما أمته، ولم يستبعد أن بسره قامت كل الكائنات، ولولاه ما كانت الأفلاك، ولا الأرض والسماوات وسائر المخلوقات "لولاك لولاك ما خلقت الأفلاك"[1].

---

[1] انظر كتاب كشف الخفاء حديث رقم ٢١٢٣



كما كان يؤمن ﷺ بأن والديه ﷺ ناجيان إذ إنهما من أهل الفترة، والحق سبحانه يقول ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء:١٥].

ولا يليق فى شريعة أو عرف، ولا يستساغ فى عقل أو فهم، أن من حمل هذا النور فى صلبه، أو بين أحشائه، ذلكم النور الذى هو مصدر الرحمة وأصلها يكون عليهما أى تبعة، وإذا كان الله يرحم به جميع المخلوقات﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، أفلا يُرْحَم به والداه؟ "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى"[1].

بعض خصائصه ﷺ

وكما كان ﷺ يدين بأن البقعة التى دفن فيها لا سيما التى وضع عليها خده الشريف أفضل من كل البقاع حتى من الكعبة ومن العرش، وأنه أول من تنشق عنه الأرض، وأنه صاحب الشفاعة العظمى، والمقام المحمود، والحوض المورود، وأنه أول من يجوز على الصراط، وأول من يدخل الجنة، وأن أمته مرحومة لأجله، وأنها خير الأمم بنسبتها إليه ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١١٠].

وأنه ﷺ كان يعلم حقيقة الروح ويعلم الساعة، وليلة القدر، وساعة الإجابة يوم الجمعة، ويعلم أهل الجنة بأسمائهم، وأسماء آبائهم وكذا أهل النار.

وكان ﷺ يؤمن بأن شمائله ﷺ وكمالاته النبوية واختصاصات الله له وخصاله الشريفة لا تنتهى عند حد، وأنها فوق كل كمال بشرى، أو نعت ملكى.

عقيدته فى أصحاب الرسول ﷺ

كما كان يؤمن ﷺ بأن أصحاب رسول الله ﷺ هم حملة رسالته ونجومه الدالين على شريعته، إذ قد نالوا من رسولهم الميراث الأعظم قولاً وفعلاً، وحالا وسلوكا، ونقلوه

---

[1] رواه الترمذى و ابن ماجه وابن حبان عن عائشة رضى الله عنها.

إلينا، وأنهم أكمل الخلق بعد الأنبياء والملائكة الأربعة، ويكفيهم شهادته ﷺ لهم (أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) رواه البيهقى والديلمى عن ابن عباس.

وقوله ﷺ "لو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهبا، ما بلغ مُد أحدهم ولا نصيفه" رواه مسلم عن أبى هريرة.

وأنه يجب علينا أن نمسك عن الخوض فيهم إذ قال ﷺ "إذا ذكر أصحابى فأمسكوا" رواه الطبرانى عن ابن مسعود.

كما يجب أن نؤمن أن لكل منهم ميراثه الخاص من حضرة الرسول ﷺ كما ذكر "أعلمكم فى الفرائض زيد، وأفقهكم فى دين الله على ... إلخ" رواه الترمذى عن أنس.

وأن كل خلاف جرى بينهم، كان باجتهاد منهم رغبة فى الخير فكل منهم محق، وأن قاتلهم ومقتولهم فى الجنة لبراءتهم من التعصب وهوى النفس.

هذا ما درج عليه شيخنا ﷺ، وعودنا إياه، وأمرنا باتباعه، فقد كان يؤمن بأن ما تم عليه أمر الخلافة لأبى بكر ثم عمر وعثمان وعلى، هو عين الحق والصواب، إذ إنه كان يعتقد بأن أبا بكرﷺ هو الخليفة الأول لما روى فيه من أحاديث صحيحة وعمر بعده كذلك، والأخبار والآثار تشهد بذلك.

ولو سلمنا كما يزعم المتشيعة لأهل البيت بأنهم أولى بالخلافة من غيرهم، فقل لى بربك لو وليها على بعد الرسول ﷺ، ولم يتولها أبو بكر كما وقع، لتوفى أبو بكر وعمر وعثمان ولم يظفر المسلمون بخلافتهم، فما تم عليه الأمر هو الأقوم والأرشد، ومهما كان حبنا لآل البيت فإن منزلة الصديق والرفيق فى الغار لا تنكر، وكذا الفاروق الذى نزل القرآن مؤيداً له فى كثير من الأحكام، فاللهم إنا نؤمن بالصحابة كلهم، ونفضل من فضله صاحب الشرع، وما وردت به السنة عنه ﷺ.

كنا إذا رأينا من يخالف عمله ظاهر الشرع، ويرتكب بعض المحرمات من أهل البيت، نقول للشيخ فى ذلك فكان ﷺ يظهر فى وجهه الغضب ويقول مالكم والخوض فيمن قال الله فيهم: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣]، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [الأحزاب٣٣].

أفهذا الذى تقولونه من المودة لأهل البيت؟ أما تعلمون أن المعاصى التى ترونها فى نظركم هى من الرجس الذى أذهبه الله عنهم؟ ماذا تقولون فى هذه النصوص الصريحة؟ وقد قال ابن عربى: (إن معاصى أهل البيت تقع مغفورة) أفلا يكون أمرهم كأمر أهل بدر "اعملوا أهل بدر ما شئتم فقد غفر الله لكم"[1] فكنا نسكت وندع الاعتراض، ونفوض أمرهم إلى مولاهم.

وكان ﷺ يقول فى شأن آل البيت الذين ثبت نسبهم إليه ﷺ حقاً (كان الواحد منهم إذا ارتكب محرماً، أو أقام على معصية، محصه الله بأمراض وعلل وابتلاءات شديدة قبيل نهاية حياته، فكنت بذلك اعتقد صحة نسبه، وأن ذلك تكفير له حتى يلقى الله ولا شيء عليه، وحتى لا يساء ﷺ فى أهل بيته، ويفضح -وحاشاه- بين الخلائق بأن أبناءه عصاة، وقولى هذا نتيجة تجربة خاصة وتتبع للسلالة الشريفة من أهل البيت، حتى ولو فرض أن واحداً بقى عليه من الذنوب شيء يعذب به فى القبر، حتى يبعث يوم القيامة خالصاً طاهراً، وكيف تقولون ذلك وجدهم ﷺ هو صاحب الشفاعة، يدخل الجنة من يشاء، ويشفع فيمن استوجب النار من أمته، أفلا يشفع فى أولاده؟)

وتأكيداً لما نقول وأن أهل البيت الحقيقيين محفوظون قال أبو سعيد الخدرى ﷺ: قال رسول الله ﷺ: "إنى أوشك أن أدعى فأجيب، وإنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله عز وجل وعترتى، كتاب الله ممدود من السماء إلى الأرض وعترتى أهل بيتى، وإن اللطيف

---

[1] متفق عليه عن علي ﷺ

أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما"[1]، فهذا دليل على حفظ أهل البيت وبقاء عترته إلى جنب الكتاب إلى يوم القيامة.

هذا مجمل خصوص عقيدة الشيخ في الله ورسوله وآل البيت أما عموم عقيدته ومعاملته مع سائر الناس فما كان ﷺ معتقداً لبدعة ولا مقيماً على كبيرة، ولا آكلاً لحرام، ولا طاعناً على صالح السلف، كاف اللسان واليد عن أعراض المسلمين وأموالهم، ناصحاً لهم مشفقاً عليهم، يسره ما يسرهم، ويسوءه ما يسوءهم، سيما أئمتهم، داعياً لجملتهم، مخلصاً أعماله كلها لله تعالى، محباً للخير وأهله، مجانباً للشر وأهله، مسارعاً إلى الخيرات، سباقاً إلى البر وعمل القربات، حزيناً على ما فاته من خير عجز عن عمله، تاركاً لما لا يعنيه من الأقوال والأفعال، بريئاً من التكلف في معاملته لكل إنسان، مصلياً الخمس في جماعة، مجتنباً للغيبة وذكر الناس بما يكرهون، يحب للكافة ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكرهه لنفسه، طويل الصمت، لين الجانب، لا يداهن في الدين، ولا يخشى في الحق لومة لائم، لا يبغض من كان على الحق ولو كان عدواً أو بعيداً، ولا يحب من كان على الباطل ولو كان صديقاً أو قريباً، سريرته أفضل من علانيته، محتملاً لأذى الخلق، صابراً على بلائهم، منفرداً بحاله عنهم، يعين محسنهم، ويستغفر لمذنبهم، ويدعو لمدبرهم، ويحب تائبهم عملا بسنة المصطفى ﷺ.

العارف لا يقيده الزمان ولا المكان

فلا يداخلك الشك أيها القارئ في ذلك أو يجول في نفسك خاطر: كيف يستطيع الشيخ القيام بكل ذلك، وهو بشر مقيد بوقت وزمان؟ أو كيف يرشد المريدين وينصح الزائرين، ويرعى شئونه الخاصة، وشئون أسرته مع أداء هذه الأوراد والأذكار والقراءة في تلك الكتب المختلفة؟

أخي لا تشك ولا تذهب بك الظنون كل مذهب، بل صدق واعتقد بأن أولياء الله وأحبابه يُبارك لهم في وقتهم، وفي عملهم فيطوى لهم الزمان وينشر، فيطول الوقت

---

[1] حديث صحيح رواه أحمد في مسنده والطبراني في الكبير وغيرهما.

ويقصر حسب رغبتهم، وكذلك المكان فيبعد القريب، ويقرب البعيد كما يحبون ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [الزمر: ٣٤].

ونظرة إلى الإمام الغزالى ﷺ والشيخ الأكبر محيى الدين بن العربى وغيرهما من الصوفية الكبار كم تركوا من مؤلفات عديدة، ورسالات ومخطوطات لم يطبع منها وينشر على العالم إلا النذر اليسير، ولقد ذكر بعض المتخصصين الباحثين فى هذه الشخصيات فوجد أنه لو قسمت حياته على ما كان له من مؤلفات لوجد أنه ألف كل يوم كتاباً، وانظر إلى كتاب الإحياء للغزالى، والفتوحات لابن عربى فأى زمان يتسع لتأليف أمثال تلك الكتب مع كتبهم الأخرى غير عباداتهم وإرشادهم وتعليمهم الناس، فلو لم ينشر لهم الزمان، ويبارك لهم فى الوقت، ما استطاعوا لذلك سبيلا.

إنه يأخذك العجب أخى لو نظرت إلى ما يصدر من الصوفية من عمل كثير وإنتاج وفير فى وقت قصير، فلو فكرت بعقلك البشرى المقيد المحدود لكان بالنسبة لك بعيد، بل عجيب وغريب، ولكن لتعلم أن هذا بالنسبة لأولياء الله سهل قريب وليس بعجيب ولا غريب.

فمن ذلك ما روى عن السيدة نفيسة رضى الله عنها أنها كانت تختم القرآن كله فى دقائق معدودة، ربما لا تتسع لقراءة بعضنا سورة الفاتحة.

وأيضاً ما روى عن الحجاج بن يوسف الثقفى ـ مع ما كان عليه ـ، أنه سئل عن كلمة ﴿كلا﴾ فى القرآن، فوقف لحظات، ما تجاوزت الدقيقة، ثم قال لقد مررت على النصف الأول من القرآن، فلم أجدها فيه، فهى فى النصف الأخير فقط، وكذلك ما ورد عن بعض المشايخ وأخاله الشيخ الشعرانى ﷺأنه قال لشيخه: رأيت فى مسجد الإمام الشافعى رضى الله عنه رجلين،يسمع أحدهما الآخر القرآن، والآخر يعيد عليه ما سمعه، فقرأ ثلاثة أرباع القرآن فى الوقت مابين صلاة المغرب وصلاة العشاء، مع إعطاء الحروف حقها من المد والغن، والوقوف حيث الوجوب أو الجواز، والوقت هو الوقت، ومثلى لو قرأ لا يزيد عن جزأين أو ثلاثة، فقال له شيخه سيدى على الخواص ﷺ" إن من أهل الله من يطوى لهم الزمان أو المكان أو ينشر، فلا تعجب لذلك، وستكون إن شاء الله منهم"، وبعدها بقليل دخلت الصلاة، ولما سكت الإمام بعد قراءة الفاتحة،

قرأت الفاتحة ثم استرسلت فى سورة البقرة وبعدها فى سورة آل عمران ثم النساء، وهكذا، وظللت أقرأ، وما أفقت إلا على سماعى للإمام وهو يقرأ فى سورة "ق" فى نفس الآية التى كنت أقرأها".

فتحققت كرامة الخواص ﷺ لتلميذه الشعرانى، فقل لى بربك كيف يقرأ الإنسان من أول القرآن إلى سورة "ق" فى السكتة التى يسكتها الإمام بين الفاتحة والسورة؟ فلله فى خلقه شئون، فإن العادى منا، قد يعمل فى وقت ما عملا لا يتثنى له عمله إلا فى أيام. (ومن ذاق عرف، ومن اعترض انطرد، ومن سلَّم سلِم).

وأيضاً ما روى فى هذا الصدد ما حدث للقطب الشعرانى ﷺ، أنه أراد الوقوف على حكم الشرع فى بعض المسائل الدقيقة، ولم يتعرض له إلا موسوعات كتب الفقه، وعرف ذلك فى كتاب من كتب الفقه المخطوطة، حسبك من ضخامته أنه كان حمل بعير، فطلبه من صاحبه إعارة، فضن عليه أول الأمر لنفاسته، ثم سمح له بعد إلحاح عليه وحدد له وقتاً لا يتجاوز ليلة، خوفاً وحرصاً عليه، فتسلمه الشعرانى وحمله إلى داره، ومرت ليلته، وأصبح خادم صاحب الكتاب يطرق الباب، ويقول سيدى رأى أن يبقى الكتاب عندك أياماً، فليلتك أقصر من أن تتسع للاطلاع، فكان رد الشعرانى ﷺ عنه: أحمد الله، لقد انتهت مهمة الكتاب، وحصلت منه على ما أريد) وحمل الخادم الكتاب.

وعجب صاحب الكتاب عندما دخل عليه خادمه يخبره بالأمر، وزاد عجبه عندما قلب صفحات الكتاب كلها ليطمئن عليه، فوجد على غالب صفحاته، وما أكثرها، تعليقات بخط الشعرانى، مما يدل على أنه قد استوعب الكتاب كله قراءة وتفهماً لأحكامه مع ضخامته فى ليلة واحدة، وأمثال ذلك كثير فى الطى والنشر[1].

---

(١) الطي: في اللغة اللف والخفاء- والنشر: البسط والمد فكان العالم مطويا مختفيا قبل ظهوره، ثم بسط ونشر الوجود الظاهري، "ألم تر إلى ربك كيف مد الظل" أي بسطه فنحن الآن في نشر، والموت طي والبعث نشر، ولذا يسمى ما بعد البعث بيوم النشور، ولكن الطي المعبر عنه في عرف الصوفية يريدون منه طي المكان، فيكون الإنسان في المشرق وبعد لحظة يكون في المغرب، كما يعمل الملك ينزل من الملأ الأعلي ويصعد في لحظات، أو طي الزمان كما حدث لأهل الكهف والعزير "لبثنا يوما أو بعض يوم" أو

وعلى سبيل الفائدة نسوق لك مثالاً من أمثلة طى المكان ونشر الزمان، وأعظمها دليلاً معجزة الإسراء وما فيها من خوارق فى ذهابه ﷺ إلى المسجد الأقصى وعروجه إلى ما شاء الله وعودته، كل ذلك فى جزء من الليل، وما روى أن سيد الخلق ﷺ لما أراد تحديد قبلة مسجده بالمدينة جهة الكعبة فطويت المسافة ما بين المدينة ومكة، فرأى الكعبة أمامه، فحدد عليها قبلة مسجده، وأيضاً ما ورد أنه ﷺ حين تعنت الكفار فى أن يصف لهم بيت المقدس إذا كان أسرى إليه كما يقول، مع أنه قد وصله ليلاً، فجهد النبى ﷺ فى ذلك، فبينما هو كذلك إذ جلاه الله له أمامه، فطويت المسافات ما بين مكة والقدس فرآه عياناً وأخذ يصفه حسب ما رأى، وقصة نقل عرش بلقيس فى طرفة عين، وما كان من سيدنا عمر ﷺ وهو على المنبر بالمدينة، فرأى (سارية) وهو يحارب بالشام وناداه وقال (يا سارية الجبل)[1] وسماع سارية لمقالة عمر عنه وانحيازه للجبل وكان ذلك سبب نصره.

كل ذلك وأمثاله خوارق تجعلنا نوقن أنه لا حرج على فضل الله وأن الزمان والمكان يقيدان المحجوب ببشريته، أما هؤلاء فلا يحكمهم قيد الزمان والمكان، ولنسق إليك أيها القارئ قصة أخرى فى ذلك لطى المكان لبعض أهل الله.

طي المكان ونشر الزمان معا، كما حدث في معجزة الإسراء والمعراج، فمن طوي له الزمان أو المكان، فقرب له البعيد، وعمل الكثير في الزمان القليل، فهو لا شك إكرام من الله لهذا العبد، والقصص عن ذلك لساداتنا كثيرة، إلا أنهم قالوا: الطي الحقيقي أن تطوى عنك صفاتك البشرية فتختفي، وتنشر عليك الصفات الحقية فتبدو، والعبد لو تخلص من ناسوتيته وبشريته صار البعيد في متناول يده، أو انتقل هو إليه، إذ الجسمية المقيدة بالمكان صارت معدومة بالنسبة له وإن كان حيا يمشي بين الناس، وكذلك ما كان يعمله غيره في أيام يعمله هو في لحظات، إذ غيره يعمل بصفاته البشرية وهو "الطاوي" يعمل بصفات ربانية وروحه هي الحاكمة المسيطرة، والروح لا يسعها العالم كله، لو خرجت من عقالها وانطلقت من قفصها، فالطي المطلوب إذا ليس طي المسافات والأوقات، بل طي الذات والصفات، ولذا يقال: "إذا أراد الله بعبده خيرا، طوى عنه صفاته، ثم ساقه إلى ولي من أوليائه، وطوي عنه صفات ذلك الولي البشرية فلا يرى إلا الخصوصية".

[1] هذه قصة رواها ابن عساكر و ابن الأعرابى و غيرهم عن ابن عمر رضى الله عنهما وقال الحافظ اسنادها حسن.

تزوج رجل امرأة من بلد تبعد عن بلده شهراً فكلف غلامه باستحضارها، فلما سار بها، أتاه الشيطان وقت تهجده، ووسوس له السوء بزوجة سيده، فقام الغلام يصلى، وقال(يا رب إنى أستعيذ بك منه، فأعذنى واكفنى شره، فإنه إن سلمت منه الليلة وتغلبت عليه، فإننى لن أسلم منه باقى الشهر حتى أصل إلى سيدى).

وفى السحر شد على دابة المرأة وسار بها، فرحمه الله، وقبل رجاه، وطوى له مسيرة الشهر، فما برق الفجر حتى أشرف على مدينة مولاه ونجاه الله لما استعاذ به والتجأ إليه، ولا يبعد عنك هذا فإن الأرض كلها خطوة للولى وقد فاضت كتب القوم بالكثير من تلك الخوارق.

وقد كان أبو محمد ﷺ يخبر أن لله عبداً بالبصرة يرفع قدمه وهو قاعد فيضعها فى نهاية الأرض. (ذكره صاحب القوت).

ما سبق أخى طى لمكان موجود أو لزمان حاضر وانظر معى بعين بصيرتك فيما قاله حارثة ﷺ لما سئل عن حقيقة إيمانه فقال: (كأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً وأرى أهل الجنة فى الجنة يتنعمون وأهل النار فى النار يتعاوون)، فيقره على ذلك صاحب الشرع ﷺ ويقول: (عرفت فالزم)[1]، فكيف تخطى حارثة بنظره الزمان المستقبل كله ورأى ما سيكون وكأنه حاضر لديه، أو نقول ما هو أصرح من ذلك كأنما جاز حارثة هذه الدار، دار الدنيا، وطويت له الأزمان، هذا فضلاً عن البعث والحشر والموقف والميزان وما فى ذلك اليوم من أهوال، ثم هو يرى عرش ربه بارزاً، بل يعبر الصراط ويكون فى الجنات ويرى من فيها وهم يتنعمون ويجمع بين ذلك كله وبين رؤيته من فى النار وهم يعذبون، ولو قلنا إن حارثة مدع ما أقره صاحب الشرع ﷺ ولا مدحه بقوله فى رواية أخرى "عبد نور الإيمان قلبه".

فاصغ إلىَّ أيها القارئ بسمع قلبك لتوقن أن نور الإيمان لو ملأ قلب عبد واستولى عليه وأطلقت روحه من بشريته لكان ما هو أكبر من ذلك كله، بل يطوى العالم كله

---

[1] رواه الطبرانى فى الكبير و البيهقى فى شعب الإيمان و غيرهما عن حارثة بن مالك ﷺ

في قلبه بسمائه وأرضه وعرشه وفرشه، وانظر مقالة بعضهم "ما العرش والكرسى إلا فى زاوية من زوايا ترسى" أى قلبى، والحق أيها القارئ أن العجب فى ذلك كله يزول، إذا علمت أن هذا من عمل القلوب لا يدخل تحت نطاق العقل المحدود، وانظر إلى نفسك، وتأمل بعض أمرك، وما يجرى عليك، فقد تغمض عينيك لحظة، فترى فى تلك اللحظة ما نقصه فى أكثر من ساعة، ولعل هذا يقرب لك السبيل، فتؤمن وتعتقد وتسلم لأهل الله حالهم، ولا تشك فى مقالهم حتى تنال من رفدهم وتشرب من وردهم. فصدق ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

حاجة المريد إلى المرشد

قالوا: "المريد فى أول أمره كالملدوغ الحريص على من يرقيه ويداويه، فإذا صادف شيخاً انبعث من باطن الشيخ صدق العناية به لاطلاعه عليه، وينبعث من باطن المريد صدق المحبة بتأليف القلوب، وتشام الأرواح، وظهور سر السابقة فيهما باجتماعهما لله وفى الله وبالله، وحيث إن الاجتماع لذكر الله، وسلوك الطريق لا يفيد إفادة تامة إلا إذا أذن به مرشد كامل، ولهذا الإذن سر كبير يدركه أهله إذ إن فيه قصراً لمسافة الطريق، واعتماداً فى السير على دليل، لأن فى الطريق مزالق و وعُورَات، وللشيطان وسوسة وإغراء ونزغات، وللنفس أهواء ونزعات، فكانت الحاجة ماسة إلى هادٍ يسترشد به، وقائد يعتمد عليه، وينتصح به، وإذا قيل إن الحلال بين والحرام بين، والكتاب والسنة فيهما كل ما يحتاجه العبد فلا حاجة إلى مرشد أو دليل قلنا إن الحاجة إلى المرشد ضرورية إذ قد تؤدى الطاعات والعبد على حال من ميل أو هوى، فتكون الطاعة كالحلواء المعجونة بالسم؛ تضر ولا تنفع، فلا تغتر أيها المريد بعبادات مهما كثرت ما دام يداخلها الرياء أو العجب"، وفى ذلك وارد لشيخنا ﷺ هذا نصه:

(العبادات كالحلواء المعجونة بالسم، فكما لا ترضى النفس منها بالقليل فتسلم، كذلك لا تصبر على الكثير منها فتغنم).

فمن يعرف هذه الحال المذمومة، ويكشفها للمريد، ويخلصه من تلك الصفات الرديئة إلا شيخ ذو بصيرة خبير بالنفوس يرى بنور الله، فيعرف أمراضها، وعللها،

وعلاجها، ويحدد لها الجرعة المناسبة من العبادات كثرة أو قلة، ويتعرف على خطرات المريد، فينصحه ويرشده بما يتناسب وحاله.

ذلك لأن مدار التصوف على التخلص من النفس ولا خلاص منها إلا على يد من يعرف صفاتها الدنيئة كالكبر والحسد والحقد والرياء والعجب، ولا يعرفها إلا شيخ عليم بخباياها، خبير بطواياها.

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] أى ليعرفونى كما قال ابن عباس رضى الله عنهما. فأنَّى للمخلوق أن يعرف الخالق إلا إذا تخلص من بشرياته وشركه فى الأعمال، ولا يكون ذلك إلا بإيمان صادق، واقتداء صحيح بسيد الخلق ﷺ، ومن ورثه وقام على شريعته من بعده، وهم خلفاؤه فى كل عصر، وها هو ذا الغزالى ﷺ يفسر قوله تعالى:﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَال وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨،٨٩] أى خال من العلل كالكبر والحسد والرياء وغيرها، والمطلوب الأسمى التحقق بالعبودية للمولى، فالمكاتب عبد ما بقى عليه درهم، ومادام العبد مسجوناً بمحيطاته، محصوراً فى هيكل ذاته، لا ينفك عن حظوظ نفسه ولا تتحقق عبوديته لله وفيه عبودية لِحَظِّهِ وهواه "تعس عبد الدرهم والخميصة"[1] ولا تخلص من تلك الحظوظ إلا بالتحرر من رق الهوى والقيام بوظائف العبودية للمولى مع الأدب والتعظيم والاستقامة على الجادة التى دعا إليها صاحب الشرع ﷺ وأهل الطريق العاملين المخلصين، ومن هنا جعل الغزالى ﷺ التصوف فرض عين على كل مكلف ووافقه كثير من أئمة الدين وأهل العلم، ويؤكد ذلك قول النبى ﷺ "ثلاث مهلكات، شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه" رواه البيهقى عن أنس ﷺ.

---

[1] جزء من حديث رواه البخارى عن أبى هريرة ﷺ .

ولا خلاص من ذلك إلا بالتصوف، ولا تصوف إلا بشيخ مرب عارف، وفى الحديث: "الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف"[1].

فروح المريد إذا ارتبطت بروح شيخه سرت مزاياها إليه كسريان الأخلاق بالامتصاص والانتشار بمنطوق الحديث "مثل الجليس الصالح ... إلخ" رواه الشيخان عن أنس.

وإذا كان الجليس بملازمته لجليسه يؤثر فيه وكذا الحاسد العاصى يؤثر فى محسوده بالضرر، بمنطوق القرآن الكريم، أفلا يؤثر الشيخ العارف بربه ذو الروح المطلقة والهمة العالية، وصاحب البصيرة الثاقبة فى مريده الصادق الملازم له حتى يخلص روحه من سجنها، ويفكها من إسارها، ويطلقها إلى عالمها الأول، فتجنى ثمار العرفان، وتعود إلى صاحبها وقد أشعت عليه الأنوار، وظهر ما أودع فيها من حكم وأسرار.

فلا يمكن لمريد مبتدئ أن يستقل بالتسيار، فلا بد له من شيخ حكيم يرشده ويمده، ويأخذ بيده عند العثار وإلا هلك، أو رجع وما سلك، ولقد صدق من قال (من استبد برأيه هلك ...) (ومن لا شيخ له فشيخه الشيطان) وإذا كان (المؤمن مرآة المؤمن) كما يقول الحديث[2] فلا شك أن الشيخ أصدق مرآة للمريد، وفى اتصال المريد بشيخه تعاون على البر الذى أمر به الدين فى قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة:٢].

كل هذا يدل على أنه لا بد لمريد الحق من مرشد حكيم، وناصح أمين، وإذا كان السير فى طريق محسوسة يحتاج إلى دليل خبرها وعرف أعلامها، ومظان المهالك فيها، من سراق وقطاع، فكذلك الطريق إلى الحق، مفعمة بالأهوال والأخطار والمعوقات، والمزالق والمضلات التى تبعده عن السبيل السوى، والطريق المستقيم ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]

---

[1] رواه مسلم عن أبى هريرة و البخارى عن عائشة رضى الله عنها.

[2] رواه أبو داود و الطبرانى و غيرهما عن أبى هريرةﷺ .

قيل المراد بالسبل طرق الشيطان والنفس المتعرجة، المتعددة، المبعدة عن الحق، وكما أن لكل حاكم بواباً ولكل أمير حاجباً، فكذلك حضرة الحق، بوابوها الرسل الكرام، ومن خلفهم فى حفظ شريعتهم والقيام على تجديد دعوتهم ومراعاة آداب الدين والتأدب فى حضرة رب العالمين.

صفات الشيخ الكامل

الشيخ الكامل هو العالم بأصول الدين، وقواعد الشرع وآداب الطريق، العامل بكل محمود، التارك لكل مذموم شرعاً، الخبير بمواضع اللبس ومواطن العيب التى تكمن فى مريده، ذو فراسة يرى بنور الله ما يناسب كل مريد معلول وما يتوافق مع كل طبع بشرى.

وأيضاً هو العارف بربه، المتعرف على مراد الحق فى خلقه، وما يرضيه تعالى وما يسخطه، العليم بخفايا النفوس وبواطنها، وما يصلح المزاج وما يفسده، المفرق بين الحق والباطل، والكشف الحقيقى والخيالى، والتجلى الإلهى والتمثيل الشيطانى.

الشيخ الكامل هو الجامع لكل ما يحتاج إليه المريد السالك، حال تربيته وسلوكه، إلى أن يتأهل للمشيخة، ويصل إلى مقام يقال له فيه: (ها أنت وربك قد دللتك على الطريق) حينئذ قد تركه شيخه على المحجة البيضاء النقية، ليلها كنهارها، واطمأن له وأن ما عنده من علم بالشرع، وآداب للطريق، يجعله لا يلتبس عليه أمر من الأمور، جامعاً للحقيقة والشريعة، فظاهره بالشرع، وباطنه بالحق، واحذر ممن لا جمع له بينهما، فمن كان بأحدهما، فضرره أقرب من نفعه.

ولا بد للمرشد الكامل المأذون له، الداعى الخلق إلى الحق من أن يكون على عبودية كاملة للحضرة، واستعداد لتلقى الحقائق منها دون واسطة، ليس له مراد إلا ما يبرز من عنصر القدرة، وأن يكون على جانب من الرحمة الخاصة من مقام العندية، وشرف تعلم العلوم من تلك الحضرة، قال تعالى﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥].

وأن يكون الشيخ أيضاً متصفاً بآداب الشرع، عاملاً بأحكامه، ملماً بما يحتاجه المريد من فقه وعقائد، بحيث يزيل عنه الشبه، عالماً بأمراض القلب، وآفات النفس، وأن يكون على اعتقاد أهل السنة والجماعة، عاقلاً بالعقل الدينى والمعاشى، عفيف النفس عن الدنايا، لا ينظر إلى ما فى أيدى الناس، شفوقاً، حليماً، غفوراً، صفوحاً، متغاضياً عن الهفوات والزلات، لا يقابل السيئة بمثلها، حسن الخلق، ذا إيثار وكرم، متوكلاً على الله، مسلماً فى كل أموره لمولاه، راضياً بمقتضياته ومقدراته، ثابت القدم فى الإرادات، صاحب هيبة، لا يخاف فى الحق لومة لائم، إذا وعظ أسمع، وإذا تكلم أقنع، تنفذ كلماته إلى القلوب بما يبسط أمامها من نور يفتح تلك الصدور، وحقاً كما قالوا (ما خرج من القلب وصل إلى القلب، وما خرج من اللسان، لم يتجاوز الآذان) وهذا سبب ما نعانيه من شقاء وفساد ونقاسيه من محن وآلام (فالكلام كثير فى الدين، ولكن أين القلوب الحافظة والآذان الواعية؟) إن قلنا العيب فى الواعظ والمرشد قالوا العيب فيمن لم يسترشد، فاختلط الأمر والتبس، ضعف الطالب والمطلوب ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فالخلاصة أنه لا تثمر العلاقة بين الشيخ ومريده، إلا إذا كان الشيخ ناطقاً بالله، ناظراً بنور الحق لما يودع فى قلبه من إلهامات، وما يرد عليه من واردات وأن يكون سامعه مريداً للحق، صادقاً فى إرادته له، قد فرغ قلبه لما يودعه شيخه فيه من أسرار وحكم وعلوم ومعارف، فلا بد من وجود جهاز الإرسال والاستقبال معاً، فإذا تعطل أحدهما فلا ثمرة ولا معرفة إذ المغناطيس لا يجذب الخشب.

ومن صفات الشيخ الكامل أيضاً أن يكون ستاراً لكل ما أظهره عليه المريد من عيوب وأسرار، لا يغضب إلا لله، ولا يرضى إلا لله، يكون دائماً فى مقام الاعتدال، من المأكل والملبس وسائر حالات الدنيا، ناصحاً لجميع الأمة، مقرباً للسالكين الطريق، غير محب للرياسة، متمسكاً بطريقة سيد الخلق ﷺ، ناظراً بعين قلبه فى الهداية والخذلان إلى تقدير الحق سبحانه، فإن فتح لأحد على يديه، شكر الله و لا يشهد فى ذلك شيئاً لغير الحق وإلا فيرضى بقسمة الله وقدره السابق فى عباده، ومع هذا فعليه بالنصح كما أمر الشرع، مراعياً للحدود، موفياً بالعهود، يحب لله، ويبغض لله، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، حجة الله على خلقه، قد جلله مولاه بالهيبة والوقار، إذا رأيته أول أمرك هبته،

وإذا خالطته أحببته، وإذا لازمته وصافيته سرت منه إليك أمداد الرعاية، وأشرقت عليك منه أنوار الهداية.

و أن يكون الشيخ ممن إذا رئى ذكر الله [1]، عليه أنوار الجمال ساطعة، و أعلام الجلال خافقة.

وجملة القول فيه: أنه الجامع لما يحتاجه المريد فى تربيته وسلوكه وكشفه وشهوده إلى أن يوصله بربه، ويصير أهلا للمشيخة، وإن نقص الشيخ شيئاً مما يحتاجه المريد، فلا يتصدى للتسليك حتى يكمل، وإلا كان ضالاً مضلاً، كالطبيب الجاهل يمرض الصحيح، ويقتل المريض، وفساده أكثر مما يصلحه، وقالوا: من تطبب ولم يكن عالماً بالطب، فما أتلفه فغرمه عليه. فكذلك من تصدى للتسليك ولم يؤهل للمشيخة فإثم من أضله عليه.

نصيحة للمريد

فيا أيها المريد للحق: إن ظفرت بشيخ كامل فأقبل عليه بخالص الطوية وإخلاص النية، وكن تحت أمره ونهيه، وسلم له فى كل شيء ولا تعترض عليه، تحظ بمدد وداده، ويخلص قلبك من علله وفساده، فتفلح كما أفلح، وكما قيل: (من لم يقع نظره على مفلح لا يفلح).

وإياك والشك فيه وتوارد الخواطر على قلبك بالاعتراض عليه من أى أمر ما مادام قد كمل أمره فى المشيخة والتسليك ولم يخالف ظاهره الشرع وراعى آداب أهل الطريق، (فمن قال لشيخه لم؟ لا يفلح)، ومن اعترض عليه بقلبه قد نقض عهده وانفصمت الرابطة بينهما والمريد لا يشعر. قال تعالى ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢].

---

[1] كما جاء فى الحديث الذى رواه أحمد عن عبد الرحمن بن غنم و الخرائطى فى مكارم الأخلاق عن أبى مالك الاشعرى.

وشيخنا ﷺ بحمد الله قد توج بتاج الكرامة العظمى، وتحقق بتلك الشروط والآداب تحققاً كاملاً، حتى صار حجة الله على خلقه فى عصره، ومنارة إرشاد للسالكين فى وقته، وعلم هداية للعارفين فى زمانه، فله ﷺ فضل عظيم وأجر كبير، لأن الدال على الخير كفاعله.

قال الرسول ﷺ: "لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم"[1] جزاه الله عنا وعن المسلمين خير الجزاء.

وهذا ما لمسناه وتحققنا به وشهد له بذلك أهل العرفان فى عصره، وأصحاب العلم الراسخين فى زمنه القاصى منهم والدانى، فما رآه راء له بصيرة إلا واعترف بذلك وقدره حق قدره ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

معرفة الولى أصعب من معرفة الله

أولياء الله أهل كهف الإيواء، قليل من يعرفهم، ولذا يقول سيدى أبو العباس المرسى ﷺ (معرفة الولى أصعب من معرفة الله) فإن الله سبحانه وتعالى معروف بكماله، وأنى لك تعرف مخلوقاً يأكل ويشرب مثلك؟ فإذا أراد الله بك خيراً، عرفك بوليه، بما يطويه عنك من وجود بشريته ويشهدك وجود خصوصيته، فيا سعادة من وفقه الله لمعرفة وليه، وهداه إليه، فآمن به، وسلم قيادة نفسه له، ولقد صدق من قال (إن لله رجالاً من نظر إليهم سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً).

ورؤيتك الولى أنفع لك وأجدى من رؤيتك لله، لأن الولى الوارث للرسول ﷺ لا يتمثل به الشيطان، وراثة محمدية، والشيطان قد يتمثل بالحق، ولأن الولى يمدك بالأنوار على قدر استعدادك، وأنت لا تطيق رؤية نور الله وأنت ببشريتك، فالولى مكثف

---

[1] حديث متفق عليه عن سهل بن سعد ﷺ .

للأنوار الإلهية، ولذا قال بعض المشايخ لتلميذه وقد رغب فى رؤية الله: (رؤيتك لأبى يزيد خير من رؤيتك الله سبعين مرة).

فاعلم أخى أن الوصول إلى الله "هو وصولك إلى العلم به، ووصولك إليه هو وصولك إلى عارف به"، فإذا قيض لك الحق الوصول إلى عارف به وأطلعك على سر خصوصيته، وطوى عنك بشريته، فقد وصلك إليه، فلا طريق إلى معرفة الله إلا عن طريق من عرف الله وهم أولياؤه أهل خصوصيته وبوَّابو حضرته يدخلون عليه من تأهَّل لذلك.

فالاعتقاد فيهم والتصديق بكلامهم ولاية صغرى، والفهم فى كلام القوم ولاية كبرى، وقد قال سيدى أبو الحسن ﷺ (من لم يعتقد فى علمنا هذا يخشى عليه سوء الختام والعياذ بالله، ومن لم يتغلغل فى علومنا مات مصراً على الكبائر وهو لا يعلم).

ويقول صاحب الحكم سيدى ابن عطاء الله ﷺ (سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه) فمهما دلك على وليه وأطلعك على سره فقد دلك عليه قطعاً، ووصلك إلى حضرته، ولا تعجب أخى من تأثير نظرة الولى وتأهيلها العبد لحضرة الرب فهو بالله وبه ينطق وبه يبطش ... بمنطوق الحديث، ومن كان بالله أوصل إليه أحباب الله وطلاب حضرته.

القسم الثالث

طريقته ﷺ في التربية

تربيته بالنظرة:

كان ﷺ يربى مريده الصادق بسره ونظره وماله، والتربية بالنظرة معروفة مشهورة لدى كثير من العارفين، فقد قال قائلهم "من لم ينفعك لحظه، لم ينفعك لفظه" ولا تستبعد ذلك على من عرف ربه حق المعرفة، فإن انفعالية قلبه بيت ربه، لها تأثير فعال ملموس عندما يتوجه إلى مريده الصادق فى إرادته؛ فإنه يقوم بذلك المريد حال باعثة على التوجه إلى ربه، وجذبه إليه يقطع فيها علائقه وتنكشف لها حجبه، وتنمحق بها صفاته.

وإذا كان الحاسد ذو القلب الحاقد على الناس، إذا توجه بقلبه منفعلاً بالشر أو بالسوء، نحو شيء يريد ضره، تأثر ذلك الشيء ووقع به الضر لوقته، فما بالكم بأولياء الله العارفين، المتعلقة قلوبهم به، فإنه إذا توجهت هممهم نحو شيء صهرته وحولته كيف شاءت ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]

فإن الأكوان تنفعل لهم، وتدور الأفلاك بهم، فإذا نظروا إلى عاص، وتعلقت إرادتهم به انقلب طائعاً، وإذا كان سقيماً صار صحيحاً، وإذا كان ذا قلب مظلم استنار بنور الله حتى اشتهروا رضى الله عنهم بقلب الأعيان، من ذلك ما روى عن سيدى أبى الحسن الشاذلى ﷺ أنه كان يقول:(ما بينى وبين الرجل إلا أن أنظر إليه نظرة وقد أغنيته).

ومن ذلك ما روى أن جماعة أغروا السلطان بسيدى أبى الحسن الشاذلى ﷺ وأنه يتلف مماليك السلطان، فلما بلغ الشيخ قال: "معاذ الله أن نتلف أحداً من مماليك السلطان، وإنما نصلحه"، ثم قال لقاصد السلطان: ائتنا بما شئت من الرصاص حتى أريك الإصلاح، فأتى بشيء كثير، فألقاه الشيخ فى فسقية جامع من غير ماء، وقال لذلك المملوك: بُل على هذا الرصاص، فبال عليه فصار ذهباً خالصاً، فقال له أهذا إصلاح أم فساد؟ فقال: إصلاح، ثم أمر القاصد بحمل ذلك إلى خزانة السلطان، فوزنوا

ذلك فوجدوه خمسة قناطير، فقال هذا هدية لمولانا السلطان، وقل له يرضى عن مملوكه فرضى عنه.

ثم إن السلطان نزل إلى زيارة الشيخ أبى الحسن ﷺ وأضمر فى نفسه أن يعلمه صناعة الكيمياء ففاتحه قائلاً له: كيماؤنا التقوى فاتق الله يعلمك حرف "كن" ثم لم يزل السلطان معظماً للشيخ حتى مات.

وأيضاً ما روى عن سيدى أبى العباس المرسى أنه كان يأتيه الأعرابى يبول على ساقه، ولا يعرف من أمر دينه شيئاً، فينظر إليه نظرة صادقة، توصله إلى ربه، بعدها يصير ربانياً.

وإذا كانت السلحفاة تبيض ثم تديم النظر إلى بيضها فيفقس ويفرخ من أثر شعاع نظرها، فلا يستبعد ذلك على الشيخ العارف إلا جهول لا يدرك فضل ربه على أوليائه، وقدرته على كل شيء ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٣٤]

(إن لله عباداً إذا شاءوا شاء، وما شاءوا إلا بمشيئته تعالى) ولا يستبعد ذلك أيضاً بعد معرفتنا أن الله جعل فى بعض الأفاعى من الخاصية بحيث إذا نظرت إلى إنسان تهلكه بنظرها، فكيف ينكر على الشيخ الصادق أنه إذا نظر إلى مريده الصادق يكسبه حالاً حسنة، ويهبه آثاراً مرضية، ولا حرج على فضل الله.

وهذه النظرة الصادقة من الشيخ لذلكم المريد لا تؤثر إلا إذا كان المريد مراداً للحق، وكان عنده استعداد خاص لذلك، وإلا فلا يجذب المغناطيس الخشب، فلا بد من أن يكون ذلك المريد عنده الاستعداد والقابلية حتى تثمر تلك النظرة الثمرة المرضية، وإلا لنفعت نظرة الرسول ﷺ لمن أحب له الهداية إذ لم تسبق له بذلك العناية؛ وانظر إليه ﷺ يقول لمن طلب منه الدعاء "أعنِّى على نفسك بكثرة السجود"[1].

---

[1] رواه مسلم عن ربيعة بن كعب الاسلمى ﷺ .

فبهذا قد ثبت أن هذه النظرة لا تكون إلا مع من له سابق العناية، وكان ذا صدق قابلاً للهداية.

ولقد صدق سيدى ابن عطاء الله ﷺ إذ يقول (همم الرجال لا تخرق أسوار الأقدار) فليتفطن ذلك وليعلم أن مهمة الشيخ كمهمة الرسول ﷺ منذراً و مذكراً و هاديا ومرشداً، فيستعان به فى كشف الحجب، وإزالة العلل وتصحيح العمل، وإبانة الحق، وإزالة الريب والشكوك، فما هو إلا غواص ومنقب يخرج من القلوب جواهرها، ويطهر النفوس من معايبها ويجلى معادنها.

أثر شيخنا فى مريده:

ومما من الله به على شيخنا أنه كان لمجرد أن يضع المريد يده فى يده معاهداً إياه على الاستقامة تائباً إلى الله عازماً بقلبه على سلوك طريق القوم يشعر ذلك المريد بدفع قوى وعزيمة ماضية نحو الحق كما يحس بخلو قلبه مما كان يعلق به من أمور الدنيا، وقد انشرح صدره لعمل الطاعات، وخف لفعل المبرات، وأحس رقة فى قلبه وخفة فى جسمه ونشاطاً ملحوظاً فى سائر العبادات، وتراه نزاعاً إلى الآخرة، قد تغير سلوكه، وظهرت عليه أنوار الهداية، وسكنت جوارحه وتحسنت معاملاته، وترك طبعه وعاداته، فتهذبت أخلاقه وطابت نفسه، وحمدت صفاته، ولهج دائماً بذكر ربه، وحرص على أداء فرضه أول وقته، وراعى آداب الشرع فى جميع أمره متوسماً السنة فى فعله وتركه بعلم سابق له بذلك أو بحفظ ورعاية ممن يأخذ بيده من المهالك، وكان الشيخ ﷺ يوجه من لم تكن له سعة فى علم الشرع إلى معرفة ما تصح به عباداته وتوافق معاملاته الشرع، وذلك بدراسة كتب الفقه فى العبادات ليعرف متى تصح وتفسد شرعاً وما لابد منه فى المعاملة الصحيحة مع الناس ليكون على بينة من أمر دينه، وكان من أهم ما يأمره قضاء الفوائت وأداء الحقوق لذويها؛ ولذا تراه ـ بعد ـ قد تخلص من دنياه، ولا يلم منها إلا بما له مسيس الحاجة إليه، تدور من حوله العظائم، وتجرى الحوادث، وتتغير الأمور، وتتبدل الأحوال وهو بمعزل عنها لا يدرى من أمرها شيئاً، هجر خلانه السابقين من أهل الدنيا المغترين، وصحب إخوان الطريق وجالس المحبين لله، تلمح عليه

علائم القبول وقد وسم بسمة أهل الوصول، أهل الورع والصلاح، تقوى الله شعاره، والحلم حليته، وحسن الخلق دثاره.

ومن كان من المريدين غير متصف بهذه الصفات أو بعضها ولم يوسم بسمة أهل الطريق، فذلك لعدم صدقه فى إرادته وضعف عقيدته فى شيخه، فالعيب فيه هو لا فى شيخه، وما الشيخ فى هذا إلا موصل أمداد مولاه لمريده الذى والاه فإذا لم تكن لدى المريد قابلية أو لم يكن منه للشيخ خالص الولاء، وكامل الاعتقاد والصدق فى الأعمال والأحوال فالعيب منه لا من الشيخ، نسأل الله خلوص النية، وصفاء الطوية، ومحبة أوليائه ذوى الأقدار العلية، والتسليم لهم وحسن الصحبة معهم والتأدب فى حضرتهم ودوام خدمتهم.

طريقته فى التسليك

من المعلوم عن ساداتنا الشاذلية الأول أنهم كانوا لا يسلكون بمريديهم طريق تلقين أسماء فى بدايتهم، إذ هم الذاتيون، فهم يرسمون لمريدهم أن أول قدم له فى الطريق يجب أن تكون قدم الشكر الخالص، والعبودية المحضة لله، وألا يرى له عملاً والتخلص التام من الإلف والعادات والخروج من البشريات جملة لا بالتدريج، والتوجه المطلق إلى حضرة الحق والعمل لوجهه تعالى لا رجاء فى الثواب ولا أملاً فى نيل المقامات والدرجات فلا يلقنون مريدهم فى البداية إلا اسم الجلالة (الله) ثم يفاض عليه بعد ذلك واردات من الحق بأذكار حسب استعداده وحاله يلهم ذلك، أو يعلمه مناماً، أو يأتيه عن طريق الشيخ تلقيناً، ومن هنا تدرك سر مقالة أئمتنا الشاذلية "بدايتنا نهاية أهل الطرق الأخرى" إذ فى الطرق الأخرى بعد الرياضة الطويلة والجهاد الشاق عدة أعوام وبعد قطع العقبات يدرك السالك بنور بصيرته أنه لا فاعل إلا الله، ومنه الحول والطول، و له الشكر والحمد على كل حال، فلا يتم له ذلك إلا بعد سنوات قضاها فى الجهاد، وقد تدهمه المنية قبل وهو فى جهاده فيموت وهو لم يصل إلى الله بعد، ومما يؤكد لنا أن ساداتنا الشاذلية همتهم علية، وطريقتهم ذاتية، ويعتبرون التدرج فى التربية من ضعف الهمة، وعدم كمال فى التوجه، يصدق ذلك ويؤيده مقالة سيدى أبى الحسن: "من دلك على الدنيا فقد غشك، ومن دلك على العمل فقد أتعبك، ومن دلك

على الله فقد نصحك"، ويعتبرون أن التعلق بالأعمال الصالحة للثواب أو الدرجات مجوسية الإسلام بل يقصدون بها وجه الله والشكر عليها إذ وفقوا إليها ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

وقالوا على سبيل الاعتزاز بطريقتهم السنية "إنَّ الغوثية لا تكون إلا منا، ومن كتبت له الغوثية وكان سلوكه على طريقة أخرى فلا بد أن يتشذل" ومن حكمهم (من لم يتشذل فأحواله تتبدل).

منهج غير الشاذلية فى التربية

وأما غير الشاذلية من مسلكي الطريق فيبدءون مع المريد بتلقينه الذكر بالأسماء الثلاثة عشر المشهورة، الأصول أولا ثم الفروع فإذا أتمها يعيدها ثانية وهكذا طول عمره، ويعد المتقدم منهم بالأكثر ذكراً بهذه الأسماء، أو يحسب الشيخ للمريد اسمه واسم والدته بحروف الجمل ثم يجمع له من أسماء الله اسمين أو ثلاثة ليطابق ذلك العدد وهذا يكون ورده الدائم إلى أن يلقى ربه، ومنهم من يأمر مريده بسلوك أسماء الله الحسنى كلها فإذا فرغ منها أعادها ولا شك أن المريد بذلك يدور فى فلك مرسوم محدود فلا رقى ولا عروج ولا وصول كامل.

منهج شيخنا فى التربية

ولكن شيخنا ﷺ لما كان فذًّا فى سلوكه طريق ربه وأنه لم يتتلمذ على أحد من شيوخ عصره حتى يعرف منه مدارج الطريق كى يسلك بأولاده فيما بعد ذلك المسلك، فلم يكن منهجه في التربية على نمط إحدى تلك الطرق المشهورة، بل كان يربى مريده بما يلهمه ربه نحوه و ما يتناسب واستعداده حسب فراسة الشيخ ﷺ وما كان يتقيد بآداب معروفة أو قواعد خاصة،أو أوراد محفوظة تعطى لكل مريد، بل لكل رزقه الذى قسم له ووورده الذى يلائم استعداده ليجلو مرآة قلبه، ووصاياه التى تتفق وحاله ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠].

على أن هذا النهج من التربية مع إفادته لبعض المريدين فجنوا ثمار المعرفة وأنزلوا منازل القرب، بعد أن لاحت عليهم أمارات الوصول وتلألأ فى وجوههم النور، ونطقت ألسنتهم بالحكمة، وفاهوا بحسن البيان وأعطوا الفهم فى القرآن مع هذا الفوز الزاهر، والنجاح الباهر لهؤلاء السالكين، كان الشيخ يرى بما وهب من فراسة، وما خص به من إلهام أن بعض أبنائه يصعب عليه هذا المسلك لضعف الهمة وفتور العزيمة وقلة الصدق فى التوجه، وأنهم لا يمكنهم التخلى التام، والانقطاع إلى الله بالكلية والخلوص له دفعة واحدة أول أمرهم، لاسيما ونحن فى زمن طغت فيه المادة وانتشر الفساد، والتبس الأمر وأصبح طريق الحق مزهودا فيها ومال الكل إلى التزييف.

لهذا كله كان يأمر أمثال هؤلاء المريدين بسلوك الأسماء الثلاثة عشر حتى يخلصهم من بشرياتهم ويصحح لهم عزمهم، وما يزال بهم حتى تشرق شمس الهداية فى نفوسهم ويرقى بهم إلى معارج الوصول والكمال.

اهتمام الشيخ برؤيا المريد

كان الشيخ ﷺ عنه يتتبع منامات المريد بعد أن يأمره بتدوين كل رؤيا يراها وعرضها عليه أولا فأولا، ويطلب من كل مريد قص رؤياه عليه منفردا به، فإذا كانت رؤياه مبشرة لذلك المريد دالة على مكانته عند ربه أذاعها الشيخ استنهاضا لهمم الباقين، ومن هذه الرؤيا يعرف الشيخ طريق ذلك المريد، إذ لله طرائق بعدد أنفاس الخلائق، وقد يلهم الشيخ ذلك الطريق من غير رؤاه، وقد تكون هذه الرؤى دالة على أنه سلك الاسم وإن لم يكمل عدد المائة ألف) وهكذا يظل المريد الذى يسلك الأسماء حتى يمنح اسم الله الأعظم فيكون سرا بينه وبين ربه وشيخه وإن لم يكن قد أكمل سلوك الأسماء (الثلاثة عشر كلها).

ولا شك أن هذا يدل علي همة المريد، وقرب فتحه وحسن اعتقاده فى شيخه وإدراكه سر خصوصيته،إذ الطريق كله فى محبة الشيخ مع حسن الاعتقاد، بذا يبلغ العبد المراد، وأيضا كمال الأدب يبلغ نهاية الأرب، فليست الطريق مسبحة وشقشقة لسان بل أدب وإحسان، ومعرفة بالأركان، ومراقبة وصدق بالجنان، ومنهم من يتم الأسماء (الثلاثة عشر) بإعدادها ولم يفتح له باسم الله الأعظم، وهنا يكلف الشيخ ﷺ مريده ذكر

اسم السر (خمسة ألاف) فى جلسة واحدة على هيئة خاصة، ويحدد له أوقات ذلك، ويظل حتى يفتح عليه باسم الله الأعظم.

ومنهم من كان ينتقل من اسم الله الأعظم إلى خلاصته، وإلى خلاصة خلاصته إن كان للمريد نصيب فى ذلك، وقدر له الوصول إلى مدارج الكمال.

ومما كان يوصى به المريد ألا يذكر ربه لعلة حتى ولو كانت تلك العلة (الفتح) أو رجاء أن يمنح الاسم الأعظم، أو قصد الدرجات والنفحات، أو نيل ثواب الجنان أو الحظوة بالحور والقصور؛ لأن عبادته تكون معلولة ليست لله خالصة أو رجاء المقامات والدرجات وهذه كلها حظوظ أخروية، أفلا يستحق أن يعبد لذاته سبحانه وتعالى؟ ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعۡبُدُوا ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥].

ومما جربنا أن من تطلعّ إلى شيء حُرمه، ومن تشوق إلى مقام لم ينله، وإن كان من فضل الله يعلو عليه إلا أنه يمر عليه فلا يحظى بمرتبته، ولا يحيط من علوم ذلك المقام شيئا، ولا يطعم من ثماره، ولا ينعم بظلاله، وقد لمسنا هذا كثيرا فالحذر من التطلع إلى المقامات أو الرغبة فى الوصول إليها أو التشوق لها أو الانشغال بها.

فليتحرر المريد من هذا الرق، فإنه قاطع عن الحق سبحانه وتعالى، وإن الله سبحانه وتعالى أحق بالعبادة دون علة، عبدً لرب ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر:٢] ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم:٣٠].

وكان ﷺ ينبه على المريد الذاكر بالاسم الأعظم أن لذلك الاسم أسرارا عجيبة، وإجابات سريعة فلا ينبغى أن يستخدم ذلك فى مآرب دنيوية، أو أغراض دنية؛ وإنما يجعل كل همه أن يجمعه الله به، وأن يخلصه مما سواه والله سبحانه وتعالى: العليم الخبير والرءوف الرحيم يمنحه بفضله ما يحتاجه من دنياه، ويرضيه بما هو فيه، وما ناسبه يعطيه، فتكون بحمد الله أموره ميسرة ومصالحه مقضية، بفضل إخلاصه العمل لله وعدم التعلق بطلب دنيا أو جاه.

وكما يقولون (هم فى مساجدهم والحق سبحانه وتعالى فى حوائجهم) "اعبدنى ولا تسألنى فأنا أعطيك أفضل ما أعطى السائلين ومن شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين" رواه البخارى عن عمر بن الخطاب ﷺ.

أمثلة لتدعيم وصاياه

كان فى مثل هذه المناسبات يقص علينا- على سبيل النصح والتوجيه- أن شيخنا أبا الحسن ﷺ لما أخذ العهد اعتكف فى مغارة وكانت نفسه تحدثه، متى الفتح؟ أيفتح علىَّ الليلة؟ فجاء الخضر ﷺ ووقف بباب مغارته وسأله ما رأيك فيمن يعبد الله لعلة؟ ويقول: "أيفتح علىَّ الليلة ومتى الفتح؟ ألا يستحق أن يعبد لذاته، ثم تركه وانصرف، فأدرك أبو الحسن ﷺ أنه المعنى بذلك فترك المغارة وذهب واغتسل وتاب من تطلعه إلى الفتح، وأخذ يعبد الله لله، دون استشراف لشىء سواه، ففتح له سريعا بفضل الله".

ويحكى لنا الشيخ ﷺ أن أبا الحسن أيضا تطلع إلى معرفة اسم الله الأعظم وبينما كان جالسا بين يدى شيخه وفى حجره ولد صغير فخطر بباله أن يسأل شيخه عن اسم الله الأعظم، فقام الولد الصغير متجها إليه ومد يده إلى أطواقه وقال: (يا أبا الحسن أردت أن تسأل الشيخ عن الاسم الأعظم، إنما الشأن أن تكون أنت هو الاسم، الاسم يعنى سر الله المودع فى قلبك) فابتسم الشيخ ﷺ وقال: (أجابك فلان عنا يا أبا الحسن) فترك ذلك الخاطر وتاب وأناب، وتخلص من كل الخواطر وعبر تلكم القناطر، ووجد الله فى كل شىء، وعرفه فى كل شىء، وتجرد عن النسبة وخرج من الإنية، وعمل بمقتضى العبودية فوهب من الله الحرية، وفعلا مما أثر عن أبى الحسن ﷺ أنه قال لأبى العباس ﷺ (إذا عرضت لك حاجة إلى الله فأقسم على الله بي) ويقول أبو العباس (والله ما ذكرته فى شدة إلا انفرجت ولا فى صعب إلا هان) وأنت أخى إذا كنت فى شدة فأقسم على الله به أو بمن تحب من ورثته.

قال الشيخ أبو عبد الله الشاطبى ﷺ: (كنت أترضى عن الشيخ أبى الحسن الشاذلى ﷺ فى كل ليلة كذا كذا مرة، وأسأل الله به فى جميع حوائجى، فأجد القبول فى ذلك معجلا فرأيت رسول الله ﷺ فقلت له: يا سيدى يا رسول الله إنى أترضى عن الشيخ أبى الحسن فى كل ليلة بعد صلاتى عليك، وأسأل الله به فى حوائجى، أفترى علىَّ فى ذلك

شيئا إذا تعديت، فقال لى: أبو الحسن ولدى حسا ومعنى، والولد جزء من الوالد فمن تمسك بالجزء فقد تمسك بالكل، وإذا سألت الله بأبى الحسن فقد سألته بى).

ونسوق إليك مصداقا لما سبق من أن ورثة المصطفى ﷺ ومن كان على طريقة سيدى أبى الحسن لهم هذه الميزة فقد أخبرنا أخونا السيد/ الدكتور حسن عباس زكى بأنه: أذن له رجل صالح بدعوة مجابة ورثها عن مشايخه، وأفهم الدكتور حسن عباس بأنها محققة الإجابة ومجربة ففرح بها، وفعلا جربها فما أخطأت أبدا، وفى ليلة جاء شيخنا القاضى مناما إلى بعض مريديه وقال له:"أتفرحون بهذا الاسم وتلك الدعوة، التى أذن بها للدكتور حسن ولديكم ما هو أسرع من ذلك إجابة وأعظم قبولا، فقال: يا سيدى وماذا؟ فقال: قل إذا عرضت لك حاجة إلى الله (فاقض ما أنت قاضى يا رب بحق سيدى عبد الفتاح القاضى اقض مرادى) يقولها المريد بعدد حروف اسمه واسم أمه بالجمل، وفعلا تلقاها ذلك المريد بالقبول وجربها الكثير منا مرارا فكانت بحمد الله كما قال الشيخ وما أخطأت أبدا"، وكذا كمل الأولياء يقول الواحد لأصحابه (أنا لا يحجبنى عنكم قبضة التراب التى بينى وبينكم فلو كنتم بالمشرق وأنا بالمغرب وتوجهتم إلى بصدق وإخلاص، تم لكم الفوز والخلاص) كما قال نحو ذلك سيدى إبراهيم الدسوقى ﷺ (يا أولادى، إن صح عهدكم معى، فأنا منكم قريب، وأنا فى ذهنكم وفى سمعكم وطرفكم وجميع حواسكم الظاهرة والباطنة، ولو كان أحدكم بالمشرق وأنا بالمغرب ورأيتم شخصى فمهما ورد عليكم من مشكلات سركم، أو شىء تستخيرون فيه ربكم، أو عرض لكم أحد بأذى، فوجهوا وجهكم وصفوا سركم، وأطبقوا عين حسكم، وافتحوا عين قلبكم فإنكم ترونى جهارا وتستشيروننى فى جميع أموركم، وتطلبون منى حوائجكم، فمهما قلته لكم فاقبلوه وامتثلوه وهذا ليس خاصا بى، بل بكل شيخ صدقتم فى محبته) وقد يعلم ذلك شيخكم، وقد لا يعلم. هكذا جرت سنة أولياء الله تعالى مع مريديهم، وحقا فإن هؤلاء الكمل أرواحهم مطلقة كالتيار الجارف أينما ناديتها وكنت صافيا أجابتك لا يسعها الكون، لهم عند الله المنزلة والجاه وقدم الصدق فى إجابته كل فيما رجاه.

وافهم أيها المريد إذا لم يتم لك ما تريد أن مرآة قلبك قد صدأت، ونفسك عن شهواتها ما برأت؛ فبذا لم يتم لك الاتصال وحرمت مدد الوصال؛ فارجع إلى نفسك

وفتش عن عيبك واجتهد فى المعالجة تحظ بالمشاهدة وتخاطبه ويخاطبك وتستنجد به يسعفك فافن فى حبه، ولا تمل عن طريقه حتى لا ينقطع عنك مدده، وكنت حقا ولده، شملك برعايته، وما فارقتك بركته وقد ورث أبو الحسن وغيره من كمل الأولياء هذا المقام عن جدهم وسيدهم المصطفى ﷺ إذ قال ما معناه، "توسلوا إلى الله بجاهى فإن جاهى عند الله عظيم".

ومن ذلك ما رواه أبو عيسى الترمذى فى جامعه فى كتاب الدعوات عن عثمان بن حنيف(أن رجلا ضرير البصر أتى النبى ﷺ فقال: ادع الله أن يعافينى، قال: إن شئت دعوت. وإن شئت صبرت فهو خير لك، قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة، يا محمد إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى لتقضى لى، اللهم شفعه فى، ثم قال البيهقى، وزاد محمد بن يونس فى رواية فقال: فقام وقد أبصر، وعن شعبة قال ففعل الرجل فبرأ وقال عثمان فوالله ما تفرقنا ولا طال الحديث حتى دخل الرجل وكأنه لم يكن به ضر قط).

فقد عرفنا سيد الخلق والمشرع الأعظم ﷺ كيف ندعو فيجاب دعاؤنا، وكيف نتوجه إلى الله تعالى وبمن نتوجه ليحصل المطلوب، ومن نستأذن فى الدخول على حضرة علام الغيوب ليشفع لنا فى نيل المرغوب، فليفهم ذلك ذوو البصائر والقلوب.

رفع إبهام وإزالة أوهام

ليس كل من عرف الاسم الأعظم أو لقنه، أو أخذ دعوة من الدعوات نال بها المطلوب، وحصل له المرغوب، إذ من المعلوم لدى ساداتنا أهل الفضل والتحقيق أنه لا يمنح سر هذه الدعوات، ولا يحظى بما لها من إجابات، ولا يجنى لها ثمرات، إلا من خلص من العلل والآفات، ولم تكن لديه مراكنات، قد خلصت نفسه من جميع أنواع الالتفاتات، فلا يدعو بها إلا للقرب من الله وفى رفع كارثة حلت بعباد الله أو إزالة ظلم وقع على خلق الله، ولا يأتيها إلا إذا وجد عنده انفعالة حقانية، واندفاعة إلهية، وتأكد وقتئذ من تعلق سره حقا بمولاه، واطمأن لما أودع فى قلبه من صادق إلهامه، وأحس برد الرضا والقبول فى صدره وجنانه؛ فعندما يقوم بمثل تلك الدعوة فإنما يعمل

بالله ويترجم عما امتلأ به صدره من فيض الله، فيكون متجها حقا إلى الله، ناطقا به راجيا القبول منه، لإقامة حقه سبحانه ورعاية أمره، وحفظ حدوده، متجردا عن كل نسبة، ليس له حظ نفس أو أى مأرب شخصى.

وعندما يتم الأمر ويتحقق، لا يرى له فعلا، ولا ينسب له حركة أو قولا أو حالا بل يسندها إلى الغير، ويتملص من الإضافة إليه، لأن ما كان ليس منه، بل من الحق سبحانه وتعالى.

إن أمثال هؤلاء لا يعالجون الدعوات، ولا يقولونها بأعدادها، ولا يلاحظون شروطها وكيفياتها وأوقاتها، إذ هم نفس تلك الدعوات، وهم أسرار الله وعيونه فى المخلوقات، ويكفى الواحد منهم أن ينفعل و يتحرك قلبه، أو يرفع طرفه إلى السماء قبل أن ينطق لسانه، أو يفصح بيانه، تكون الإجابة حاصلة، والمطلوب تحقق وفق مراده وليس مراده بشريا، بل إرادته إلهية، وهمته علية، لأنه من الله وبالله وفى الله وإلى الله.

أما من أخذ تلك الدعوات، واستعملها فى دنى المطلوبات، وقضاء ما له من حاجات، وإرضاء لما فى نفسه من شهوات، واستجابة لما له من رعونات، فسرعان ما يسلب سرها، بل يحكم عليه بالمقت من الرب، والطرد وعدم القرب من حضرة الحق.

وأكبر شاهد على ذلك قصة بلعام بن باعوراء، فلما دعا على سيدنا موسى عليه السلام نظير جُعل من المال، كان من أمره ما كان ويكفى قول الحق تعالى فيه:﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ * وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٥،١٧٦].

أبعد هذا بعُد وطرد وخروج من حضرة القرب؟ فلينظر ذلك ذوو البصائر وليتأمله أولو الألباب ولنقص عليك ما روى فى هذا الشأن:

تعلقت نفس مريد باسم الله الأعظم، ليحقق به أغراضه الدنيوية، من حيث جلب النفع ودفع الضر، وبينما هو مار فى طريقه وجد رجلا مطروحا على الأرض يضربه ظالم، وقد بالغ فى ضربه فرق له ذلك المريد وقال فى نفسه لو أنى معى اسم الله الأعظم لفعلت بهذا الظالم ما يليق به وأخلص ذلك من يده، فأشار إليه الرجل المضروب وساره فى أذنه، قائلا له: (أنا معى اسم الله الأعظم ولكن الأدب مع الله والعبودية الحقة له تقتضى ألا يشاركه أحد فى ملكه، والرضا بكل مقدور حتى ولو أعطاه كلمة كن).

وهذا الأدب مع الله، ورثه ساداتنا من سيد الخلق ﷺ فإذا كان يعطى لبعض الخاصة من الأولياء التصريف فى الكون أفلا يكون هذا لسيد الخلق من باب أولى!

أجل كان له ذلك ولا شك بل أكثر منه والكل تحت تصرفه ومع ذلك أوذى ونيل منه وكسرت رباعيته وكان يضع الحجر على بطنه من الجوع كما قيل، وحادث الهجرة وتفاصيلها وما لاقاه فيها ومع ذلك كله لم يستعمل معهم ﷺ كلمة (كن) أدبا مع الله ورضا بمقتضياته ومقدراته، ولا يغيب عنا حادث أهل الطائف عندما خرج إليهم راجيا نشر دعوته بعد ما يئس من أهل مكة فأغروا به صبيانهم وعبيدهم حتى أخرجوه وأدموا قدمه الشريفة ﷺ، فلما اشتد الأمر عليه آوى إلى بستان يجد فيه الراحة مما هو فيه من الأذى ثم ناجى ربه مستدرا رضاه وقربه (إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى... إلى آخر ما قاله) فنزل ملك الجبال قائلا له (إن الله أمرنى أن أطيع أمرك فى قومك فلو شئت لأطبقت عليهم الجبلين) فما كان منه ﷺ إلا أن قال: (اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون) [1] وما رجع ذلكم الملك إلا أن قال: (صدق من سماك الرءوف الرحيم).

هكذا يكون الرجال وما لهم من جليل الخصال.

فكان شيخنا ﷺ بهذا يغرس فى المريد العمل الخالص لوجه الله ويطبعه على العبادة المحضة دون علاقة فلا يقصد بدخوله الطريق غرضا دنيويا ولا هدفا شخصيا حتى لا يتطلع من وراء عبادته إلى درجات أو مقامات، فالدرجات والمقامات والكرامات أغيار

---

[1] رواه البخارى و مسلم عن عائشة رضى الله عنها.

للمريد الصادق وعليه ألا يقف عندها وإن أتته لا يشغل نفسه بها وأن مقصوده الأسمى هو الله، واستمع لحكم ابن عطاء الله فى ذلك حيث قال (ما أرادت همة سالك أن تقف عند ما كشف لها إلا نادته هواتف الحقيقة الذى تطلب أمامك، ولا تبرجت ظواهر المكونات إلا ونادته حقائقها إنما نحن فتنة فلا تكفر).

وحقا إذ ليس المراد النور، إنّما المطلوب هو المنير سبحانه، فمن طلبه كان كل شيء له (عبدى أطعنى أكن لك ومن كنت له كان كل شيء له وكان له ما لى).

الدعاء لا يرد القضاء

الدعاء: طلب العبد ورجاؤه من الله، لتحقيق مطالبه دنيوية أو أخروية.

والعارفون بالله يؤمنون تماما أن الدعاء لا يبدل قدرا، ولا يغير قضاء، وإنما هو عبودية اقترنت بسبب كاقتران الصلاة لوقتها، وترتيب الثواب عليها، تحقيقا لقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠] ولذا قال ﷺ: "**الدعاء مخ العبادة**"[1].

وإذا كان الدعاء لا يغير قضاء ولا يبدل قدرا فما فائدته؟

فائدته أنه يوجد سهولة الأمر على النفس حتى لا تبرد حركتها فى الاحتياج إلى الله والاتجاه إليه، فإذا لم تتحقق مطالب الداعى لكونها موقوفة على قضاء الله وقدره، فأقل ما فيها هو استنزال اللطف فى القضاء والصبر على البلاء.

أسباب فتور المريد عن ورده

قال سيدى أبو الحسن الشاذلى ﷺ:(إذا ثقل الذكر على لسانك وكثر اللغو فى مقالك وانبسطت الجوارح فى شهواتك وانسد باب الفكرة فى مصالحك، فاعلم أن ذلك من عظيم أوزارك أو لكمون إرادة النفاق فى قلبك، وليس لك طريق إلا التوبة والإصلاح والاعتصام بالله والإخلاص فى دين الله).

---

[1] رواه الترمذى و الطبرانى عن أنس بن مالك ﷺ

ألم تسمع قوله تعالى:﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَٱعْتَصَمُوا بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٤٦] قال مع المؤمنين ولم يقل من المؤمنين فتأمل إن كنت فقيها.

فمن علامات النفاق ثقل الذكر على اللسان، فتب إلى الله يخف الذكر على لسانك، ومن فارق المعاصى فى ظاهره ونبذ حب الدنيا من باطنه ولزم حفظ جوارحه ومراعاة سره أتته الزوائد من ربه ووكل به حارسا يحرسه من عنده وأخذ الله بيده خفضا ورفعا فى جميع أموره (الزوائد هى زوائد العلم واليقين والمعرفة).

ثمرة الأوراد فى مراعاة آدابها

ومن وصايا شيخنا ﷺ عنه لنا حثه على قراءة الأوراد مع مراعاة الآداب فى تلاوتها لننال ثمرتها وبركتها وقوله: (ليست العبرة بقراءة الأوراد وإظهار المسبحة للناس، وتكلف الخشوع فى المشية والتواضع فى الجلسة، بل المطلوب الأسمى ما تثمره الأوراد من حسن المعاملة، والتأدب بأدب سيد الخلق فى جميع الأمور، وإخلاص الطاعة لله سواء كانت الطاعة فرضا أو راتبة أو نفلا، فإن المعيار الأعظم الذى توزن به الأعمال وتقوم به الأفعال هو ابتغاء وجه الله عز وجل فى كل ما يصدر من العبد لربه من حركات وسكنات، فلا يغتر العبد بكثرة الأعمال الصالحة حتى يطمئن قلبه ويوقن بأنه لا يبتغى بعمله سواه وإلا كان من الأخسرين أعمالا ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤]

وقالوا:(كل اسم تستدعى به نعمة أو تستكفى به نقمة هو حجاب عن الذات وعن التوحيد بالصفات، وهذا لأهل المراتب والمقامات) أما عوام المؤمنين فهم على ذلك عاكفون وعن الوصول معزولون وإلى حدودهم يرجعون ومن أجورهم من الله لا يبخسون).

وقالوا أيضا (من أبغض الخلق إلى الله تعالى من تملق إليه بالطاعات فى الأسماء يطلب بذلك القرب من العباد، ومن أضر الأعمال على المريد الإكثار من العمل الصالح ليحمد عليه فلا يزداد بكثرته إلا طردا ومقتا).

ومن مقالات الأشياخ (إن لم تحدث لك يا بنى من الورد أنوار ولم تزك نفسك من الأغيار فَلُم نفسك إذ عملها لغير الله، فمثلك كمثل حمار الرحى يدور طول يومه وهو لم ينتقل من مكانه وما يدريك أنه يصدق عليك معنى الحديث الشريف (رب تال للقرآن والقرآن يلعنه) [1]، وقائم لا ينال من قيامه إلا السهر وصائم لا حظ من صومه إلا الجوع والعطش).

ومن وصايا شيخنا ﷺ (إن الورد لا يظهر أثره إلا فيمن تأدب بأدب أهل الطريقة، فتحر يا بنى الطعمة الحلال، واتخذ لك حرفة ولا تكن عاطلا ولا بطالا، واترك الظلم والاستهزاء بعباد الله وعدم التطلع لما فى أيديهم، ولا تتخذ دينك مطية للوصول إلى دنيا، وكذا لا تفسر نصوص الشريعة حسب هواك، ولا تغتر بحفظ كثير من الأقاصيص وترديد مقالات الرجال، وتظل نهارك فى القيل والقال دون أن تعمل بمقتضى المقال فهذا هو الخسران والوبال).

وعن على ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول "سيخرج فى آخر الزمان أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام يقولون من قول خير البرية، ولا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية" رواه الشيخان.

حرص الشيخ على التمسك بالشريعة

ويؤكد الشيخ ﷺ فى وصاياه (التمسك بالشريعة وإقامة موازينها عند كل أمر فما وافقها فهو خير، وما خالفها فهو شر، وعليه أن يحكم الشرع فى كل أموره ولا يعمل إلا فى سُنة ولا عليه بعد، أرضى الناس أم سخطوا إذ الدين اليوم أهواء وميول ونزعات لا التأسى والعمل بسنة سيد السادات، ويحذر من التظاهر بأفعال الصالحين وخُلقه غير مستقيم، فكم من عبادات ليس لصاحبها منها نصيب كما قال رسول الله ﷺ "إن أحدكم ليصلى الصلاة وإنها لاتزن عند الله جناح بعوضة، وإن أحدكم ليصلى الصلاة

---

[1] هذا الحديث من قول أنس بن مالك ﷺ كما جاء فى كتاب إحياء علوم الدين.

وإنها تكتب له كجبل أحد) روى بمعناه عن النسائى عن عمار بن ياسر،وما ذلك إلا لصدقه وخلوص نيته فالأعمال بالنيات).

وصيته للعلماء من أبنائه

كان ﷺ يحذر العلماء من أبنائه أن يتعلموا العلم للدنيا، فكل علم يقرب إلى الله فهو خير وكل علم يحجب عنه فهو شر، فإذا تعلم العلم ليعمل به فذلك العلم النافع وإذا تعلمه ليعرف أنه عالم ويشتهر بفصاحة اللسان فذلك العلم وبال على صاحبه إذ هو أحد الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم جهنم[1] وما تقرب أحد إلى الله بأحب من أداء الفرائض بكامل هيئاتها وأداء الحقوق لأربابها ـ مادية أو معنوية ـ وأن يرضى الخصوم عنه ما استطاع وأن يجتهد ألا يكون لأحد تبعة عليه، ويحذرنا من الغيبة فى أى شخص كان فإنها مقسية للقلوب محبطة للأعمال، وحسبك ما ورد عنها فى القرآن ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات:١٢] ، فضلاً عن ذلك انشغالك بعيوب غيرك، وتركك إصلاح نفسك، وتفتيشك على أسرار المسلمين وفيه ما فيه من هتك الأستار، وانتهاك الحرمات، وتضييع الأوقات، ورحم الله امرأ اشتغل بعيوبه عن عيوب الناس، وهذا نذر من بعض وصاياه فى مراعاة آداب الذكر ومراقبة الله فى الأعمال والأحوال، جعل الله الجنة مثواه ومتع بالنظر إلى وجه مولاه جزاء ما بذله لنا وأسداه.

تعهد الشيخ لمريده بالتربية

كان ﷺ لا يكتفى بنظراته النافذة لمريده ولا باستتابته وأخذ العهد عليه للتخلى عن المآثم والرذائل بل كان يتعهده تعهد الأم الرءوم لولدها، فتربيه بما يتناسب وحاله، وتمنحه ما يؤهله لأن يكون رجلاً فى الحياة، كذلكم الشيخ ﷺ كان يحل مريده من قلبه أكثر من ولده لصلبه فيمنحه من بره وعطفه، وتربيته ورعايته قدر استعداده

---

[1] كما جاء فى الحديث رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه.

وقابليته، كما يرى له بنافذ بصيرته من طرق التربية وأنواع العلاج ما يجمعه على الله ويعرفه بمولاه.

التخلية والتحلية

وكان ﷺ يتدرج مع المريد على حسب القاعدة المعروفة بالتخلية والتحلية، فيبدأ أولاً بتخليته عن مذموماته ويخرجه من رعوناته، ويقطع عنه خواطر السوء، حتى يجعل قلبه خالياً مما لا يليق بالمريد الصادق، صافياً مستعداً لتجليات الحق ورشحات أهل القبول ونفحات الوصول، وذلك بإرشاده أولاً إلى أحكام دينه ليعمل بها فى كل حالاته وسائر أموره، مؤكداً عليه أن يلاحظ نفسه فى السلوك والمعاملات ويراقب قلبه فيجعله دائماً لله ويخليه من الخواطر ويتعرف لما يحل به من واردات الحق والإلهامات؛ كى يدرك كل ما يرد عليه فيسعى للخلاص مما لا يليق ويفسح صدره لما يليق.

كل ذلك مع حسن معاشرته للناس، والعمل على ترك عاداته ومألوفاته والتخلى عن هواه وملذاته وشهواته.

تزهيده لمريده فى الدنيا

فإذا عرف عن مريده حبه للدنيا يزهده فيها مذكراً إياه بحقيقة الدنيا كما وصفها الله تعالى بأنها ﴿مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ وكما وصفها سيد الخلق ﷺ بأنها "جيفة وطلابها كلاب"[1] وأنها قذرة ولا تنال إلا بالقذارة، ومن ذلك ما روى عن سيدى أبى الحسن الشاذلى ﷺ قال (طلبت الكيمياء من الله فقيل لى أنها فى بولك، اجعل فيه ما شئت يعد كما شئت، فحميت فأساً ثم طفيته فى بولى فعاد ذهباً، فرجعت إلى شاهد عقلى فقلت يا رب سألت عن شيء لم أصل إليه إلا بالقذارة ومحاولة النجاسة، فقيل لي: يا على الدنيا قذرة فإن أردت القذارة فلن تصل إليها إلا بالقذارة، فقلت يا رب أقلنى منها فقيل لى: احم الفأس يعد حديداً).

---

[1] انظر كتاب كشف الخفاء و مزيل الإلباس

وانظر إلى عصا موسى عليه السلام المشار إليها بالدنيا عند العارفين وكان يتوكأ عليها ويعتد بها فأبان له الحق حقيقتها فقال: ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه:١٩، ٢٠]، فظهر له حقيقة أمرها وانكشف له خطرها فخافها وتركها، فلما زهد فيها وتخلى عنها أمره الحق بأخذها فأخذها بالله ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١] ولكن فَرق بين الحالين فقد أمسكها أولاً بنفسه فكانت حية تسعى، ثم أخذها بعد ذلك بالله فلم يضره أخذها، وكذلك العارفون يملكون الدنيا كما يملكها غيرهم، فأولئك يملكونها بالله، وهؤلاء يملكونها بأنفسهم.

فلو ملكت الدنيا بالله لا تضرك ضراوتها ولا تؤذيك سمومها ولا تخدعك زينتها ولا يغرك زخرفها، فقد كان سيدى أبو الحسن الشاذلى رضي الله عنه عنده الأثاث والرياش والخيول وسائر متع الدنيا،ولكنها كانت فى يده ولم تكن فى قلبه، فلم تصب منه شيئاً، بل كان مثابا فى تناولها لرؤيته الحق فى مختلف مظاهرها، وعبادته ربه فى شتى صورها، أما من ملكها بنفسه وهواه أصابته فى قلبه وطمست نور بصيرته فليفهم ذلك جيدا.

فقد كان شيخنا القاضى رضي الله عنه يقص علينا مثل هذا وأكثر منه عندما كان يريد تزهيدنا فى الدنيا، وبعد أن يبين رضي الله عنه لمريده حقيقة الدنيا يتدرج معه فى التخلى عنها ويعظه بما ورد من القرآن والسنة فى شأنها ليزهده فيها ويحضه على البعد عنها والتخلى عن جمعها، والعزوف عن حبها وهذا باب التخلية، ثم يذكر علامة خروج الدنيا من القلب كى يتأكد المريد من تخليه عنها، وذلك ببذلها عند الوجود، ووجدان الراحة منها عند الفقد إذ لا كبيرة عند القوم أكبر من اثنتين: حب الدنيا بالإيثار، والمقام على الجهل بالرضا، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة، والمقام على الجهل أصل كل معصية، ولا تقوى لمحب الدنيا، إنما التقوى لمن أعرض عنها، فقد قيل لرجل (بم فقت الناس، ولم أر لك كبير عمل؟) قال: (بواحدة افترضها الله على رسوله الإعراض عنكم وعن دنياكم). قال تعالى:﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩].

وقيل خصلة واحدة إذا فعلها العبد صار إمام الناس من أهل عصره وهى (الإعراض عن الدنيا واحتمال الأذى من أهلها).

ولذا ترى شيخنا ﷺ يجافي مريده عن الدنيا وعن أهلها فيقول: (يا أولادي: إياكم والدنيا والاتصال بأبنائها، لأن الجلوس معهم يقسي القلب ويبعد المريد عن حضرة الرب ويفوته السنة والفرض، فيكون ذلك سبب مقته وقطعه وخروجه من دائرة رعاية ربه، فيهجرالطريق فينقطع عن شيخه، وبانقطاعه عنه انقطع عنه مدد ربه، وترك ونفسه وهواه وشيطانه والدنيا، ولا مجيرله من أحدها) وحقا: كم حدث لبعض المريدين وقد بلغ مقاما كبيرا فى طريق الله ومكانة مرموقة لدى الجميع ومنزلة بين الإخوان وله القدم العالى فى الرقى وأصبح على أبواب الوصول فمال إلى جاه غنى وكثر تردده عليه وهجر مجلس شيخه فترك الجماعات بل ترك صلاة الجمعة إرضاء لذلكم الغنى وتلذذا بمجالسته وحبا في مسامرته فكانت هى القاضية عليه، فولى ظهره للطريق وطرد منه وكانت عاقبته ما كانت، نعوذ بالله من الحور بعد الكور ومن الصد بعد الوجد، ومن الطرد بعد القرب، فلا أشد من ذلك وقعا عند ذوى الألباب والعقول، وحقا هما ضرتان إن أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، ويكفى فى هذا الشأن حديث سيد الخلق ﷺ (من عظم غنيا لغناه فقد ذهب ثلثا دينه) رواه البيهقى عن ابن مسعود. فما بالك بمن عاشر الغنى ولازمه وأنس به، وإذا كانت الدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة وأن الحق سبحانه من يوم أن خلقها لم ينظر إليها، فكيف نعظم المقبلين عليها المغترين بها المفتونين بزخارفها.

حث المريد على الكرم

ما سبق كان من باب التخلية، ثم لا يترك الشيخ مريده حتى يحليه بالجود والكرم والسخاء؛ مبينا له شأن ذلك عند الله وأن كرم العبد يستر جميع عوراته وعيوبه وأن (السخى قريب من الله، قريب من الجنة، قريب من الناس بعيد من النار) كما فاضت بذلك كتب السنة[1] ولا يزال الشيخ ﷺ مع مريده حتى يعوده الكرم، ويدرك المريد تمام الإدراك أن الدنيا عرض فان، متحققا بقول الحق سبحانه﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا

---

[1] من رواية الترمذى عن أبى هريرة ﷺ والطبرانى فى الأوسط عن عائشة رضى الله عنها.

عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] متمثلا قوله تعالى :﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]

ثم هو بعد تحققه بكل ذلك وتمكن اليقين من قلبه بأن كل شيء من الله ولله وإلى الله، لا عليه بعد ذلك أن يملك الدنيا بأسرها فى يده، فهو يتصرف فيها بالله لا بنفسه وهواه، قد بلغ مبلغ الرجال، فأصبح لا تأسره دنيا، ولا يملكه هوى، فهى فى يده لا فى قلبه وهذا هو كمال الزهد الحقيقى، إذ عندهم أن الزهد ليس خلو اليد من المال بل خلو القلب منه.

العارفون والدنيا

إن كثيرا من العارفين الذين عرفناهم وسمعنا عنهم كانت لديهم الدنيا فاستعانوا بها على أمرهم وما شغلتهم عن ربهم، فقد روى عند سيدى أبى الحسن الشاذلى ﷺ وكذا غيره من كمل أولياء الله أنهم كانوا يلبسون الملابس الناعمة، ويسكنون القصور العالية، ويركبون المراكب الفارهة، ولهم من المال والضياع والخدم والحشم ما تظنهم أنهم ملوك الأرض، وكانوا يتصرفون فيها بحكمة وحصافة وكمال تدبير، ويضعون دنياهم فى مواضع الخير حيث يشاء مولاهم، إذ هم به، فلا يعملون ولا يدعون إلا به؛ لأنه سبحانه سمعهم وبصرهم ويدهم، فلا عليهم فيما أمسكوا أو تركوا.

ولقد دخل على سيدى أبى الحسن ﷺ متصوف يلبس مرقعة فرأى سيدى أبى الحسن على حاله تلك فقال له: ما هكذا يكون الصوفى، فقال له سيدى أبو الحسن:(إن ملابسنا تنادى علينا أننا أغنياء بالله عن الناس، وملابسك تنادى عليك بالفقر والحاجة إلى الناس) فأفحم الرجل.

ومما روى عنه ﷺ أيضا أنه دخل عليه بعض الناس فرآه يجلس على بساط فاخر، فأنكر ذلك بقلبه، فعلم سيدى أبو الحسن ﷺ ما فى صدر الرجل بنور فراسته فنادى بعض خدمه وقال: يا بنى خذ هذا البساط وبعه فى السوق الآن، لأننا فى حاجة إلى ثمنه. فأخذه وعرضه للبيع فرآه رجل ثرى فقال: إن هذا البساط لا ينبغى أن يجلس عليه إلا سيدى أبو الحسن فاشتراه ودفع ثمنه للخادم وحمله إلى منزل سيدى أبى الحسن

فدخل الخادم ينقد ثمن البساط لسيدى أبى الحسن، وبعدها دخل الرجل الثرى حاملا ذلك البساط واستأذنه قائلا: يا سيدى إن رسول الله ﷺ قد قبل الهدية، وهذا البساط هدية منى إليك، فأمر أبو الحسن بفرشه فى الحجرة كما كان وشكر للرجل صنيعه، ثم التفت سيدى أبو الحسن إلى ذلك المعترض بقلبه وقال: ماذا نفعل إن طردناها من الباب جاءتنا من الشباك، فندم الرجل وطلب العفو من أبى الحسن فعفا عنه.

وإليك قصة الصياد وأخيه صاحب القصور: فقد كان الصياد الفقير متعلقا بالدنيا مع فقره وصاحب القصور لا تعلق له بها: فقد حكى أن صيادا أعطى رجلا خطابا لأخيه فى البلد القادم إليها، فلما وصل الرجل إلى هذه البلدة سأل عن شقيق الصياد فوجده يسكن قصرا عظيما فى أبهة وملك جعله ينكر أنه أخو الصياد الذى وصفه بالعبادة والزهد، فلما دخل القصر سلم الخطاب الذى معه لصاحب القصر، فقال: هذا الخطاب من أخى فلان؟ قال الرجل: نعم، فتأسف صاحب القصر على أخيه وقال إنه ما زال متعلقا بالدنيا، فعجب الرجل من هذا القول ثم أعطاه خطابا إلى أخيه الصياد، فلما وصل إلى الصياد سأله متعجبا كيف يكون أخوك فى هذا الملك، ويقول عنك هذا القول؟ فقال الصياد (صدق أخى، إنى مع فقرى هذا فللدنيا فى قلبى كبير تعلق، وهو مع غناه الذى تراه لم يكن لها فى قلبه نصيب).

فالمدار فى أمر الزهد فى الدنيا على عدم تعلق القلب بها، وعلامة ذلك ألا يحزن عليها عند إدبارها، ولا يفرح بها عند إقبالها.

وكان شيخنا ﷺ يصور الدنيا بما يخرج من باطن الإنسان تحقيرا لها، وإظهارا لقذارتها، ويقول: (من لم يعتبر ويفهم قيمة الدنيا بمآلها فهو مخدوع، وإذا أراد أن يدرك حقيقة ذلك فلينظر إلى ما يقذف فى بطنه مما لذ وطاب، ورغب واشتهى، ما نهايته وما مصيره).

ومصداقا لذلك ما روى عنه ﷺ أنه لما رأى بعض المزابل وعليها العذرة والخرق والعظام فقال ما معناه (هذه دنياهم جمعوها ثم لفظوها) فهذه كلها أمثلة لتحقير الدنيا، وقديما قالوا: (من كان همه بطنه، كانت قيمته ما خرج منه).

وكما روى عن رسول الله ﷺ أنه مر بجدى ميت أجرب فقال:(أترون هذا هان على أهله؟) قلنا يا رسول الله من هوانه ألقوه، فقال: (للدنيا أهون على الله تعالى من هـذا على أهله) [1].

وضرب ﷺ المثل فى نتنها وانقلابها على أهلها بقوله للأعرابي:(أرأيت ما تأكلون وتشربون؟ ألستم تتغوطون وتبولون؟، قال: بلى، قال: فإلى أى شيء يصير؟، قال: إلى ما علمت يا رسول الله، قال: أليس يقعد أحدكم خلف بيته فيجعل يده على أنفه من نتن ريحه؟، قال: نعم، قال: فإن الله تعالى جعل الدنيا مثلا لما يخرج من ابن آدم) [2].

وفى بعض كتب الله تعالى: (أنه أوحى إلى الدنيا تمررى لأوليائى، حتى تكون رغبتهم فيما عندى، واحلولى لأعدائى حتى يكرهوا لقائى) [3].

وروى أيضا أنه تعالى أوحى إلى الدنيا (اخدمى من خدمنى، واتعبى من خدمك) [4] وليفهم أن تحذير الله تعالى من حبها، ونهى الرسول ﷺ عن التعلق بها، وإعراض العارفين عنها، لأنها مبعث الأحقاد، وسبب الشرور والآثام، وأصل كل خطيئة، فكل جرائم الدنيا من لدن قابيل وهابيل سببها التعلق بالدنيا، والحرص عليها.

ولنختم ذلك بقول الحق تعالى فى الدنيا وحقيقتها ومآلها ﴿ٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]

---

[1] رواه أبو يعلى و أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما وأصله فى مسلم من حديث جابر ﷺ

[2] ذكره صاحب قوت القلوب ١/ ٣٤٠

[3] رواه الطبرانى عن قتادة بن النعمان ﷺ .

[4] أخرجه القضاعى فى مسنده والخطيب في تاريخ بغداد عن عبد الله بن مسعود ﷺ .

وقد كان شيخنا ﷺ وارثا لسيده أبى الحسن ﷺ فكان يلبس الملابس الجميلة، ويظهر فى مجتمعات أولاده، واحتفالاتهم الدينية أنيقا فى كل شىء ويذكرهم عندئذ بحال سيدى أبى الحسن ﷺ فى هذا الشأن، ويروى لهم الأحاديث النبوية التى تبين أنه ﷺ كان يلبس فى الأعياد والمواسم الملابس الخاصة المميزة، وينظر فى المرآة قبل خروجه إلى أصحابه، فتسأله السيدة عائشة رضى الله عنها فى ذلك فيقول: (إنما أتزين لأصحابى). وهذا شأن الداعى إلى الله يجب أن يكون ذا منظر وسيم، وجمال فى الملبس، ونظافة فى البدن ليشم الناس منه رائحة الطيب كما يشمون من فمه عبير المعرفة، ويتنسمون فى مجلسه من رياض القرب، فيشوقهم إلى منازل الحب، ويرغبهم فى الوصول إلى حضرة الرب. فيكون داعيا إلى الله بحق دالا عليه بصدق.

حثه على الإقلال من الطعام

وهكذا كان ﷺ يظل يتدرج مع مريده فى التربية حتى إذا ما أخرجه من رق المال واستعباد الدنيا، وشهوة الجاه والمناصب، سلك به طريقا آخر لإخراج صفة ذميمة أخرى، فمثلا الأكول النهم المحب للملذات يدله على الصوم، ويجعله يتدرج فى التقليل من الطعام حتى يقف به عند ما يقيم أوده، ويحفظ جسمه ليؤدى عبادة ربه بهمة دون ضعف أو عجز، ذاكرا له الغرض من الطعام، وأنه لحفظ الأجساد.

وحسبنا قول النبى ﷺ فى ذلك "بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه". وقوله ﷺ: "شر وعاء بطن ملئت من حلال" [1]، فإذا كان ملؤها من حلال فيه التحذير والآثام، فما بالنا ببطن ملئت من حرام، وانظر قول الحق تعالى ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:٣١] والإسراف كما يكون بتعداد أنواع الطعام واختيار الأجود والزيادة عن الحد فيه يكون أيضا بلقمة واحدة زادت عن الحاجة ولو من الطعام العادى، وما جلب لنا العلل الحسية، والأمراض المعنوية، وما أقعدنا عن الطاعة وما

[1] رواه الترمذى و النسائى وابن ماجه و غيرهم عن المقدام بن معد يكرب ﷺ.

جعلنا ننطلق فى الآثام ونسرح فى ميادين المعاصى وتتحرك جوارحنا فى اللهو ويزداد نشاطنا فيما لا يرضى إلا كثرة الطعام وتنوع أصنافه، وما حجبنا عن المعرفة، وعن رؤية الملكوت إلا التخمة، والزيادة فى ملء البطون،وانظر إلى تلك الحكمة (أجيعوا بطونكم تروا ملكوت ربكم).

وأحسن ميزان لك فى ذلك أن تقوم عن الطعام وأنت تتوقه، ولذا قال ﷺ: "ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه، فإن كان لا بد فاعلا فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه" رواه الترمذى عن المقدام بن معد يكرب وتأمل رده الطبيب لما أهدى إليه ﷺ قائلا: (نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع) فليفهم ذلك وليتدبر ذوو العقول أن داءنا كله فى الطعام، فليحذر أصحاب البطون والشهوات، وما يقذف فيها هل هو من حلال أو حرام؟، أو قليل أو كثير من اللقيمات.

وصيته لمريديه بتحرى الحلال

وكان ﷺ كثير الاهتمام والتذكير لمريديه بتحرى الطعمة الحلال، والتفحص لكل ما يصل إلى أيديهم، أو يوضع فى فيهم حتى لا تكون فيه حرمة أو شبهة، وكان يقول لهم: يا أولادى: الطعمة الحلال تنير القلب، وتجعل الجوارح منطلقة بالطاعة، عاملة على إرضاء مولاها، ولا تتصرف بحال إلا فى محابه، أما الطعمة الحرام أو التى فيها شبهة فإنها تظلم القلب، وتكون سببا فى ارتكاب العبد للمعاصى والمنهيات، وعدم قبول الدعاء، ونذكر حديث الرسول ﷺ "الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وغذي بالحرام فأنىّ يستجاب له ؟"[1].

كما كان يقول ﷺ: تأملوا فى قول المصطفى ﷺ: "لأكل درهم من الربا، أشد عند الله من ست وثلاثين زنية"[2]، لأن المسلم متى أكل الربا ودخل بطنه الحرام اسود قلبه،

---

[1] رواه مسلم عن أبى هريرة ﷺ

[2] رواه الطبراني في الأوسط والدارقطني وابن عساكر عن عبد الله بن حنظلة الراهب مرفوعا.

وتصرفت جوارحه فيما لا يرضى ربه، فارتكب جميع السيئات، فلو أدى الفرائض، وعمل الطاعات فلن تقبل منه.

وكان يقول (ليس الحرام ما جاء عن طريق الغصب أو السرقة أو الربا فقط كما يظن بعض الناس؛ بل هناك يا أولادى للحرام أبواب أخرى كثيرة تؤثر فى القلب وتظلمه، والناس عنها غافلون) فمثلا العامل أيا كان نوع عمله إذا قصر فى أدائه أو لم يخلص فيه، أو أداه دون همة صادقة أو غير مخلص فيه، أو كان ممالأة للرؤساء دون نظر إلى مراقبة الله، أو كانت نيته الشهرة والمحمدة ولم يقصد وجه الله، أو كانت نيته مراءاة الناس، أو التعالى عليهم، أو احتقار من هو دونه، وتسخيره فى مصالحه الشخصية إذا كان له سلطان عليه، أو استغلال نوع عمله فى الجاه، ومسارعة الناس إلى تقديره واحترامه، أو استغلاله أموال الدولة وحاجاتها فى منفعته الخاصة، إذ لا يطالبه بذلك أحد، لأنه سيد العمل ورئيسه، وليس هناك من ينوب عن الدولة بحق، ويطالبه بشىء، فكل ما وصل إليه لا على سبيل الأجر وتقديرا للجهد فى دائرة عمله فهو حرام، ومصداقا لذلك قول سيد الخلق ﷺ **"ما بال العامل نستعمله على بعض العمل من أعمالنا فيجئ فيقول هذا لكم، وهذا أهدى لى، أفلا جلس فى بيت أبيه أو بيت أمه فينظر هل يهدى له شئ أم لا"**[1].

فيجب على العامل أن يقصد بعمله أولا نفع الناس، وأن يعرف أن واجبه دينيا واجتماعيا السعى والعمل لخدمة الناس بعمله، إذ كل فرد فى المجتمع يخدمه من زاوية ليتم التعاون بين الكل، ويكمل بنيان الأمة على أحسن ما يجب أن يكون، وأن كل واحد لبنة فى بناء الدولة، يتم به رفع شأنها وعلوها ورقيها، وأن أجره إنما يأتيه فضل من الله، فبهذه النية لا يكون أجيرا للناس أو موظفا فى الدولة، وإنما هو عامل لله، له أجره وثوابه عند الله، وما يتقاضاه يعتبره نعمة من الله تستوجب شكره لله، وهذا هو العبد الحق.

ما سبق مضمون وصاياه لنا فى هذا الشأن كما كان يقول ﷺ أيضا: (إن من أنواع الحرام الذى يظلم القلب، ويشغله عن طاعة الرب التطلع إلى ما فى أيدى الناس، وتمنى

---

[1] رواه البخارى و مسلم .

امتلاكها شهوة منه، وحقدا عليهم أو حسدا على ما آتاهم الله من فضله، فهذا هم يشغله عن ربه، فليست حرمته فى الأخذ، بل حرمته فى حسده وسوء القصد، هذا فضلا عن اعتراضه على مولاه فى قدره وقضاه).

كما قال أيضا ﷺ (إن من الحرام أن يتناول من الطعام أكثر من اللقيمات التى يقمن صلبه، فاللقمة الزائدة حرام بالنسبة لابن الطريق تظلم القلب وتقسيه وتقعده عن طاعة باريه، قال تعالى ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلاً طَيِّبًا﴾ [النحل: ١١٤].

والحلال ما لم يزد عن حاجة المرء من الطعام ولذا قال ساداتنا وأثر عنهم (أن الرزق الحلال لا يسع الإسراف)، فلينظر العبد إلى ما كثر من المال والمتاع، فما زاد عن حاجته بالنسبة لمستواه أو زاد إنفاقه فى الملذات والزينة فليعلم أن رزقه ليس بحلال كله وإن كان نتيجة عمل أو ثمرة استغلال عقار ونحوه.

يؤيد ذلك قوله ﷺ "بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه" رواه الترمذى عن المقدام ابن معد يكرب ويراد بالطيب فى قوله (طيبا) بعد كلمة (حلالا) ما خلا من كل شبهة.

ويعقب شيخنا ﷺ على ذلك بقوله (يجب أن تعلموا أن الإسراف فى الملبس والمسكن حرام) على أن المباح من هذا إذا قصد به الفخر أو العجب، والتعالى على الإخوان، والتباهى على الأقران، بأنه لا يتناول إلا كذا مما غلا وندر من اللباس أو الطعام فهو حرام أيضا.

هذا كله فى شأن المريد السالك، أما العارفون فخارجون عن هذا المجال، فهم بالله فى كل شئونهم، يأخذون بالله، ويذرون لله، يأخذون النصيب من كل شىء ولا يأخذ النصيب منهم أى شىء، الدنيا كلها فى أيديهم، وليست فى قلوبهم، إذ هم يتصرفون فيها بما ولاّهم مولاهم، فكيف يتصرفون فيها وتكون لها سلطان عليهم؟، فافهم هذا وتدبر قول الحق ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣].

كان ﷺ، يحث مريده على الأخذ بعزائم الأمور، فلا يلجأ إلى الرخص أبدا فى الطاعات والمعاملات إلا عند الضرورة، ويقول: (إن الله جعل الرخص للضعفاء، والعزائم للأقوياء، وإن شريعتنا السمحة لكمالها وصلاحيتها للأزمان والبيئات والأجيال، كل قدر وسعه من الأحوال والأعمال، جمعت بين الرخص والعزائم، فأحب يا أولادى، أن تكونوا دائما من أهل العزائم).

إذ الرخص لضعاف الهمم والمقاصد، إن لم يكن لهم عذر شرعى.

نعم وإن كان ﷺ قد قال: "إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه" رواه البيهقى عن ابن عمر فهو على مثال قوله ﷺ: "المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كل خير" رواه أحمد ومسلم عن أبى هريرة ﷺ.

فمن لطفه ﷺ وكماله البشرى ورحمته بالأمة، أنه جبر خاطر الضعفاء بمشروعيته الرخص، فإذا ما استعمل المريد القوى الرخص كان استعماله هوى نفس، ووليد همة دنية، وركونا إلى الراحة، وخلودا إلى أرض الشهوات، ودليلا على عدم تمام تعلقه بالله وأن الله عنده ليس بالمنزلة التى يضحى من أجلها براحته أو يترك ملذاته ابتغاء مرضاته، وتأمل ما يقال (إن الله ينزل العبد عنده، بما ينزل العبد ربه من نفسه).

وكان يحثنا دائما إلى ما يقرب إلى الله من الطاعات وحسن المعاملات، والتأدب بكريم الآداب، وأخذ أنفسنا بعزائم الأمور، فإن الله يحب عزائم الأمور ويكره سفاسفها، وحسبنا وصية لقمان لابنه، فى كتاب الله إذ ختمها بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وحقا كما جربنا أن العبد إذا لم يجاهد نفسه وهواه وشيطانه، ويحبس نفسه على الطاعة، ويلزمها بأداء الفرائض والسنن، ويحكمها ويسيطر عليها بسلطان الشرع، ليجلو معدنها، ويخرج درها وجواهرها وعلومها وحكمها، ويسطع نورها الكامن فيها، فيضىء له سبيل الحق مثل هذا العبد الذى نور الله قلبه، فرأى الحق حقا.

أما فاتر الهمة، الراكن إلى الرخص لا يرجى منه وإن وصل؛ فلا ينال جنى ثمار القرب الحقيقى من الرب، والأنس بالله، ولا يرقى فى مدارج الكمالات ولا يكون منه مثل ما يكون من الرجال الذين باعوا أنفسهم لله ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].

حثه على التوكل على الله والرضا عنه

كان ﷺ يغرس فى أولاده التوكل على الله فى كل الأمور والأخذ من الله مع ملاحظة الوسائط والأسباب دون الاعتماد عليها، فالكمال معرفة المسبب والسبب، فالنظر إلى المسبب وحده دون رعاية للسبب ليس هو الكمال، والاعتماد على السبب دون نظر إلى المسبب شرك ورياء.

كما كان ﷺ يوصيهم بألا يشغلوا قلوبهم بغير الحق سبحانه، وأن يجعلوا همهم هما واحدا وهو الله، فلا يهتمون بأمر الرزق، ولا يخافون الخلق، إذ ذلك كله أساس النجاح فى الطريق.

وكثيرا ما كان يؤكد لنا: أن أهم ما يتصف به المريد، رضاه عن الله فى جميع أفعاله ظاهرا وباطنا، وفى كل ما يجريه الحق عليه من أفعال، وفى كل ما ينزل به من أقدار، وقالوا (خصلة واحدة تحبط الأعمال، ولا ينتبه لها كثير من الناس، وهى سخط العبد على قضاء الله تعالى)، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٩].

ولقد تحققنا أن شيخنا والحمد لله كان موحدا لله حقا فى أفعاله، راضيا عنه فى سرائه وضرائه، فكان إذا نزل بنا أمر أو أهمنا مكروه، أو وجه إلينا أذى أو سخرية من مخلوق ضجرنا وتألمنا، فكان ﷺ يبتسم ويقول: (وحدوا الله فى أفعاله، وارضوا عن ربكم فى أقداره).

إذ الفاعل حقيقة فى العباد هو الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦] فالله يحب أن تكونوا له وحده، فلا تركنوا إلى مخلوقاته، فيسلط عليكم

الناس يؤذونكم بألسنتهم وغمزاتهم، لتلجئوا إليه وحده، فالله يغار على أحبابه، ويحب أن يكونوا له، لأنه أغنى الشركاء، ولا يحب أن يرى فى قلب عبده شركة لسواه، من مال أو زوجة أو ولد أو جاه أو رئاسة أو حب ثناء ومدح من الناس: {أنا أغنى الشركاء فمن عمل لى عملا وأشرك فيه غيرى تركته لغيرى} رواه مسلم عن أبى هريرة، (يا داود طهر لى بيتا أسكنه، قال وكيف يا رب؟، قال: طهر قلبك)[1] هذا مصداق الحديث القدسى: (لا تسعنى سماواتى ولا أرضى ولكن يسعنى قلب عبدى المؤمن)[2] فبيت الرب الحقيقى هو القلب تنزه سبحانه عن الحلول والمكان؛ وإنما المراد أن قلب المؤمن الحق يسع تجليات الله ويقبلها، وغيره من الموجودات لا يسع تجليات الحق كلها، بل أحدها أو بعضها، وقد فسر ساداتنا أهل التحقيق قول الحق: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ ... الآيات﴾[الحج:٢٦] فكما طهر سيدنا إبراهيم عليه السلام الكعبة بيت الله الحرام من الأصنام وغيرها ليكون المعبود واحدا هو الحق سبحانه، فكذلك القلب بيت الرب يجب تطهيره من الخواطر المذمومة والأرجاس والأصنام؛ ليصلح مهبطا لتنزلات الحق وواردات الرب، وقبلة لتجليات المعبود سبحانه، ولا يكون لغير الله فيه موضع، وبذا يكون الدين خالصا لله سبحانه والعبادة له وحده، لا لهوى أو نفس أو غير ذلك، وتأمل الحديث:(تعس عبد الدرهم، وعبد الدينار... إلخ) رواه البخارى عن أبى هريرة، فما لم يخلص القلب لله تكون فيه معبودات كثيرة، ومثل ذلك لا يفلح إذ لا يكون عبدا لله، خالصا بل لمعبودات العبد الكثيرة، فلا يكون موحدا لله؛ (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) [الزمر:٢٩].

فكنا نسمع منه رضي الله عنه كلاما مثل هذا، فكانت تنزل مقالته علينا بردا وسلاما وشفاء تاما لما فى صدورنا لغير ربنا، ويسرى عنا ما بنا، وما أهمنا وحاول كل تخليص قلبه وقالبه لله تعالى، ولقد تمثل كثير من مريديه هذه الوصية، وتشربت قلوبهم تلك الآداب وتحققوا بمقام الرضا عن الله فى كل شيء، فكانت تنزل عليهم أنواع البلاء، التى تنوء

---

[1] ذكره ابن عجيبه فى إيقاظ الهمم.

[2] انظر كتاب كشف الخفاء حديث رقم ٢٢٥٦

لها الجبال الراسيات ويطير لها قلب الحليم الصبور، فيبتسمون لها ابتسامة الرضا، وينظرون إليها على أنها واردة من الله سبحانه، (وكل ما يأتى من عند الحبيب فإلى النفس حبيب)، وأسوتهم فى ذلك شيخهم ومربيهم، فكانت تمر عليهم المحنة وقد شعروا بما فى طيها من منحة، ولمسوا ما نالوه بسببها من ترق مع الله فى الدرجات والمقامات ودنو من رفيع الحضرات.

وهكذا تكون تربية المشايخ الكمل الوارثين لمريديهم الصادقين المنقادين لمشايخهم المسلِّمين لهم فى كل أمورهم المتفانين فى خدمتهم، ليكونوا من بعدهم رجالا رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

الخواطر

لما كنا بصدد الحديث فى التربية والتخليص من البشرية، وفى هذه الفترة يكون قلب العبد مسرحا لجملة من الخواطر، لذا ناسب أن نبين أنواعها، وأيها حق، وأيها باطل.

فخاطر الحق: هو الإلهام الصحيح الذى لا يعترض عليه عقل ولا نفس ولا شيطان ولا قلب ولا ملك، وقد يكون هذا الإلهام فى الغيبة– أى حال الفناء– فيكون أشد ظهورا وأقرب إلى الذوق، والسر فيه أنه فى الحقيقة علم أزلى لدنى علَّمه الحق تعالى الأرواح يوم ألست بربكم ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢] فهذا يسمى يوم الميثاق ويوم ألست بربكم ويوم لا يوم، ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] والأرواح معلمة ذلك العلم اللدنى، إلا أن العلم قد يستتر بظلام الوجود والأغيار، فإذا صفا العبد وغاب عن وجوده الحسى ظهر ذلك العلم، إذ رجع العبد إلى فطرته الأولى فأدرك ما علمه أزلاً: (يعنى يوم الميثاق)، وكلنا أخذ علينا الميثاق ولا يذكره منا إلا من صفت بشريته صفاءً جعله روحانيا صرفا، فقد روى عن سيدنا على ﷺ أنه قال: (أذكر ذلك العهد ولا أنساه) وأيضا لما سئل سيدنا أبو بكر ﷺ من حضرة النبى ﷺ (أتذكر يوم لا يوم؟ قال: نعم أذكره ولا أنساه) ومنهم من يقول: أذكر من كان عن يمينى أو شمالى أو أمامى فى ذلك اليوم.

ومن هنا نعلم الحديث: "الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف"[1]رواه أبو هريرة، فمن كنت منه قريبا أو فى مواجهتك أو عن يمينك حنت روحك إليه وحنت روحه إليك، وتعشقته وألفته، ومن كان ظهره إليك كان بالعكس، هذا صاحب خاطر الحق.

وقد يقع الإلهام فى الحضور، ولكنه يكون أخفى من الأول، ولا يعترض عليه شيء فى الداخل وتستسلم له الجوارح، وينشرح له الصدر، ويطمئن إليه القلب.

أما خاطر النفس: فهو الخاطر المفضى إلى الراحة، وإن طهرت وزكت، فإنها إذا زكت تجعل راحتها فى فنون العبادات وصنوف الخيرات، وإن كانت خبيثة كانت أمارة بالسوء، وخاطر الزاكية يكون محمودا، وإنك تجد فى القلب منه راحة واطمئنانا، وهى تكون آمنة فى نفسها، وإذا لم تكن زاكية كان خاطرها مذموما وتحس فى القلب ألما وفى الصدر ضيقا، وفى الأعضاء وجعا وفى النفس خيفة، فإن الخبيثة كاللص، دائما خائفا متلفتا منكرا.

أما خاطر الشيطان: فإنه يكون بالسوء، وقد يكون بصنوف العبادات وأنواع الخيرات، وحب الكرامات، وهو لا يزال مع المرء حتى يعمل ما يمليه عليه، فإذا فعله فارقه، والشيطان يوافق النفس فى خواطرها إذا كانت خبيثة ويسول لها، ويزين لها القبيح حسنا، وخاطر الشيطان أصعب فإن خاطره ذو فنون، وخاطر النفس ذو فن واحد، ومن هنا ندرك أنه إذا كان عندك داع إلى الشر فإن تركته استبدله بشر آخر، فهذا خاطر الشيطان، إذ هو يريد منك المعصية فقط بأى صورة وبأى نوع من المخالفات، أما إذا ألح عليك خاطر بعينه ولم ينصرف إلى غيره، فهو خاطر النفس إذ هى تريده لنفسها وشهوتها فهذا فارق خاطر النفس من خاطر الشيطان، وإن كان كل منهما شرا ومذموما.

ولذا كان شيخنا ﷺ يتحدث عن تلك الخواطر المذمومة، وأثرها على المريد، وأنها قواطع.

---

[1] متفق عليه

وعلى المريد إذا أراد السلامة من ذلك أن يكون صادقا فى النية مخلصا فى العمل ومراقبا قلبه، طاردا كل خاطر سيء أو نية خبيثة، ليكون قلبه متحصنا ضد كل خاطر مذموم ويقول ﷺ (لا تدع صدرك مسرحا للخواطر والشكوك ومرتعا لألاعيب الشيطان وأبلسته، وعليك بسد كل منفذ من منافذ الهوى ليكمل أمرك ويتم لك الصلاح ويشرق فى قلبك نور الصباح، وتتضاعف أنوارك فتسد على النفس والشيطان كل منفذ).

وكان يقول أيضا (من ادعى فتح عين قلبه وهو يتصنع بطاعة الله أو يطمع فيما فى أيدى خلقه فهو كاذب، إذ نزوعه ذلك نزوع شيطانى أو نفسى، لأنه فى عبادته لم يرد وجه الله تعالى) وكان يقول (إذا زاحمت الخواطر باطن العبد لا سيما فى الصلاة والأذكار وعند التلاوة للقرآن فليستعن بالله ورسوله أولا ثم بالمشايخ والإخوان، ويشرح لهم حاله ويسألهم الدعاء له بحسن التوفيق والاختيار، بذلك يخرج مما فيه من ضيق إلى ساحة الرضا والاطمئنان،ولا يكون فى قلبه غير الله وهى أكبر منة يعطاها العبد).

أحوال مريديه تعرض عليه

وكان ﷺ يقول تعرض على كل ليلة أحوال أولادى كشريط سينمائى، فأعرف المقصر والمجد والعاصى والطائع والواقف والسالك وأعرف كل ما يتردد فى صدر كل مريد من الخواطر وما نوى عليه وأخفاه عنى وعن الناس.

ومرة قال أحد المريدين للشيخ ﷺ أن فلانا (يكذب ويخدع وهو فى حضرتك) فقال الشيخ ﷺ (والله ما خدع إلا نفسه وما كذب إلا على نفسه أما المشايخ فهم يعلمون كل شيء عن مريديهم، فإنهم يدخلون القلوب ويقرأون الضمائر وأنتم لا تشعرون).

وحقا فالمشايخ المحقون متأدبون بأدب صاحب الشرع ﷺ ولا يحبون الفضيحة وكشف الأستار وإفشاء الأسرار، ما داموا غير مأخوذين وإذا أخذوا أباحوا مما فى صدورهم وكشفوا بعض الخفايا.

ومرة أخذ شيخنا ﷺ وذكر عن بعض الإخوان أخبارا وأمورا كنا نجهلها عنهم، وكلما ذكر لمريد تلك العيوب والخطايا طأطأ رأسه واعترف بها، فكنا نعجب لذلك لعدم علمنا بهذه الأمور، ولما ذهبت تلك الحال عن الشيخ وأخبرناه بما قال عن هؤلاء الإخوان تأثر وقال ما كان بودى إعلان ذلك فهو على الرغم منى (فإن الله ستير يحب كل ستير) ولا تستغرب لما يخبر به الأولياء، وانظروا قول الرسول ﷺ "اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله". رواه الطبرانى عن أبى أمامة.

وفى ليلة فاضلة أمرنا الشيخ ﷺ بإحيائها كل فى بيته إلى صلاة الفجر وفى الصباح دخلنا عليه فقال ﷺ: إنى رأيت بيوتكم مضيئة إلا بيت فلان فإن نوره كان خافتا وفهمنا بعد ذلك أن هذا لعدم تمام صدقه فى إرادته ولتقصيره فى عبادته، وإخبار الشيخ عن ذلك وكونه بهذه الحال وإن كانت عند الكمل من المحققين ليست من الكمال، فلعلها كانت لنا من باب العظة والاعتبار وليرجع عن شرورهم الأشرار خوفا من الفضيحة والعار، وربما كان هذا فيهم لبقية نفاق أو رياء ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء:١٠٨] فكانت هذه لفتة لهم.

ومن المعلوم أن الرياء سلم الإخلاص وبعدها كان لهم بحمد الله التخليص والإخلاص.

وكان ﷺ يعرض لرؤيا المريد ويعرفه ما فيها ويرشده إلى ما ينبغى، وكان همه فى سلوك المريد ما يراه من رؤى وما يدركه عنه من إلهام أو فراسة.

وطريقتنا تمتاز بأن لكل مريد ورده الخاص به الذى يوافقه ويخرجه مما هو فيه، ويحليه بما يجب فى عرف أهل الطريق والشرع، لا كما درج عليه كثير من الطرق من أن الكل وردهم واحد، فمن هنا كانت طريقتنا لها طابعها المميز لها عن سائر الطرق، نعم وإن كانت لها أوراد جماعية كالسفينة والأساس والمسبعات والصلوات ولكن فيما عدا ذلك لكل مريد ورده الخاص به.

كان ﷺ يعلم كل شيء عن مريده من الأسرار والخفايا كما أشرنا إلى ذلك آنفا، فإذا دخل عليه مريد وأراد الشيخ ﷺ إرشاده أخذ يتحدث حديثا عاما، ويعرض بنفسه أنه المقصر فى هذه الليلة ولم يقم إلى ورده، وقد حكم على نفسه، بأن يعمل كذا كفارة تقصير ولا يذكر من أنواع النقص أو العيوب أو الإهمال أو ارتكاب المخالفات إلا ما كان واقعا فيه ذلك المريد.

وأحيانا كان يقول (ما بال من ينتسب إلى الطريق ويفعل كذا وكذا مما لا يليق بأبناء طريق الحق) فيعرف كل مخالفاته بطريقة التلميح ذات الأدب الرفيع التى ليس فيها جرح للشعور ولا هتك للأعراض ولا كشف للمستور، فيندم المقصر ويتوب ويرجع إلى مولاه علام الغيوب، ويسأله (يا رب كما سترت على فجد على بالتوبة والتوفيق).

وقد يأتى إليه عالم شرعى من أبنائه المريدين ويريه الله عنه انحرافا عن الطريق المستقيم؛ فينصحه ويرشده بما يذكر له من حديث نبوى يطلب إليه شرحه أو آية يفسرها أو يقدم إليه كتابا يقرأ منه فى موضع معين فيه النهى والتحذير من ذلك الفعل القبيح الذى لا يليق بأى مسلم فضلا عن العالم القدوة، ويظل ذلكم المريد فى الشرح باسطا القول حتى يفهم فيما بعد أنه واقع فى ذلك الجرم وأنه المعنى بذلك، ويعقب عليه الشيخ ﷺ بقوله (ماذا ترى لو ارتكب ذلك عالم أو أحد أبناء الطريق) فيرد المريد قائلا (يكون عقابه أشد وجنايته أفظع) وعندها يدرك تماما داءه وعلته، ويعرف دواءه ويلمسه دون أن يحس أحد الحاضرين بشيء، فيخرج من مجلس شيخه ﷺ متعظا نادما على ما فعل عازما على الصدق فى العمل وترك ما وقع فيه من خلل، عازما على تطهير نفسه من تلك العلل، حفظا لعهد شيخه ورعاية لواجب الشرع.

والنصح بالتلميح والإشارة من السنن المرعية والآداب النبوية، فقد كان ﷺ عندما ينصح أصحابه ﷺ ويعظهم ويعرف عن أحدهم عملا مخالفا يعرض ويقول: (ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا).

كان ﷺ بأولاده رءوفا رحيما ولهم محبا ودودا يفسح للكل رحاب صدره، وينزل الجميع ساحة كرمه، فهم جميعا يحطون رحالهم في بحبوحة فضله، عودهم بكرمه أن يشاركهم في مهامهم، ويهتم بكل أمورهم، فيعرضون عليه مشاكلهم وخواطرهم ورؤاهم وما عن لهم في سيرهم لطريق الحق أو يشغلهم في بيوتهم ومعاشهم؛ فيرشدهم ويوجههم ويلحظهم ويرعاهم ويفرح لهم ويتأثر لحالهم مبشرا متقدمهم، مباهيا بواصلهم، ينافس بالجد الخمول، ويستحث المتوانى وينهض الكسول، فكانوا بحق كخلية النحل، عمل متواصل في سلوك الطريق وشغل دائم رجاء الوصول كل حسب مشربه واستعداده.

وكما كان ﷺ يرعاهم في طريق القوم، يذلل لهم كل صعب ويسهل لهم كل عقبة، ويحفظهم من كل ما يلم بهم من خواطر ووساوس ونزعات، كذلك كان يرعاهم في أمر دنياهم، معتقدا أنه مسئول عن مريده الصادق مسئولية كاملة، فهو مسئول عن نفسه، فيحفظها عن كل ما يراد بها، ومسئول عن أولاده وزوجته، يتفقد أحوالهم، ويدبر شئونهم، ويسأل عن كل شيء في حياتهم، ليطمئن عليهم، يسره ما يسرهم، ويتألم لآلامهم وارثا الرسول ﷺ في ذلك إذ يقول (لا يشاك أحدكم الشوكة، حتى أجد ألمها).

الشيخ يحصن بيوت أولاده:

وبلغ به الحرص على أبنائه المريدين أنه كان يحصن بيوتهم كل ليلة وأولادهم وأموالهم حتى لا يصابوا بسوء في أى شيء منها، ولذا كنا نسافر تاركين بيوتنا متوكلين على الله في حفظها مطمئنين لحراسته لها، ولا نخاف ولا نخشى شيئا لأن الله يحفظها ببركة شيخنا ﷺ، ولقد روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله تعالى ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة من أهل بيته ومن جيرانه البلاء" رواه الطبراني عن ابن عمر.

وروى جابر بن عبد الله ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ "إن الله ليصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده وأهله، ودويراته ودويرات حوله، ولا يزالون فى حفظ الله ما دام فيهم"[1] فكنا وأهل بلدنا بحمد الله فى حفظ الله وحرزه برعاية شيخنا ﷺ لنا ولمجاورتنا له فى حياته وبعد انتقاله.

قال سيدى ماضى بن سلطان من أصحاب سيدى أبى الحسن رضى الله عنهما: (تحدث الأستاذ يوما فى حقيقة المشيخة والصحبة فقال: يد الشيخ على أصحابه، تحفظهم أينما كانوا غائبين أو حاضرين فقلت فى نفسى إن يكونوا فى حضرته فلا مانع، أما فى غيبته فلا يكون ذلك إلا بالله عز وجل، وفى الصباح أخذتنى ضيقة فى نفسى فخرجت خارج الإسكندرية وجلست على ساحل البحر النهار كله فلما صليت العصر أدخلت رأسى فى طوقى وبينما أنا كذلك وإذا بيد حركتنى فظننت أنه بعض الفقراء يمازحنى، فأخرجت رأسى فوجدت امرأة حسناء متجملة بالحلى واللباس، وبعد إقبال منها ومدافعة منى أخذتنى ولعبت بى كما يلعب الطفل بالعصفور، ووضعتنى بين فخذيها فحنت نفسى إليها، وإذا بيد الشيخ أخذتنى من أطواقى ورمتنى عنها، ثم غشى على، فخاطبنى الشيخ قائلا: يا ماضى ما هذا الذى تقع فيه؟ فلما أفقت ما وجدت الشيخ ولا المرأة فرجعت إلى بيتى مختفيا وتأسفت على اعتراضى على الشيخ، ولما صلى الشيخ العشاء دخل خلوته وقال: أين ماضى؟ فقالوا ما رأيناه اليوم، فقال اطلبوه فى بيته، فذهبوا إليه فقال لهم: إنى مريض، فأخبروا الشيخ بذلك، فقال: احملوه، فحملونى فلما دخلت عليه قال: (يا ماضى ما رأيت اليوم، كان بسبب اعتراضك على، يا ماضى من لم يكن كذلك فليس بشيخ).

بهذه القصة ندرك مكانة الأشياخ ﷺ ونعطى لهم حقهم من التقدير وأنهم عيون الله فى أرضه ترعى عباده فى طريقهم إليه سبحانه وتعالى، ونعلم مقدار رعايتهم لطلاب الحقيقة وراغبى الوصول، وحفظهم لمريديهم وصيانتهم لهم وإبعادهم عن كل سوء ما داموا مقبولى الشفاعة فى ذلك الأمر إلا إذا كان قدرا محتما أو قضاء مبرما، يفعلون

---

[1] رواه ابن أبى شيبه و ابن المبارك عن محمد بن المنكدر.

ذلك بالله مستأذنين إياه فى رفع ما حل بظاهر المريد أو باطنه فإذا لم يؤذن لهم سلموا الأمر لله وهذا من تمام حرصهم وحدبهم على مريديهم ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

غضبه على من اعتدى على مريده

وكان إذا سمع أن عدوا لأهل الطريق أساء لأحد مريديه يغضب ويثور ويسعى جهده للدرء عنه وحماية مريده ظاهرا وباطنا، ولا يطمئن حتى يستريح ولده ولا يتعرض له أحد بسوء، ويعتبر نفسه أنه المسئول أولا وآخرا عن مريده قبل أهله وعشيرته؛ إذ هو أبوه الحقيقى الحافظ له والأولى به، وانظر قول الله تعالى لسيدنا نوح عليه الصلاة والسلام: فى شأن ابنه المخالف ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:٤٦] فالشيخ راع للمريد وهو من أهله "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام راع و مسئول عن رعيته.....". رواه الشيخان عن ابن عمر.

ولقد حدث مرة أن دخل عليه أحد مريديه، وبعد أن سلم عليه بادره الشيخ ﷺ متأثرا ماذا قال لك فلان؟ فطأطأ المريد رأسه صامتا حرصا على عدم تعكير صفو الشيخ ﷺ ولما ألح عليه الشيخ، قال له المريد: (إنه لا يعدو أن يكون سوء تفاهم) فقال الشيخ ﷺ، (لقد نهرك وقال لك كذا وكذا) وكانت هذه مقالة العدو التى قالها لذلك المريد بالحرف الواحد مع عدم إخبار أحد للشيخ ﷺ بما حدث، حيث أنه لم يمض وقت على الحادثة يمكن أحد من نقلها إلى الشيخ ﷺ، وبعد أن هدأت ثورة الشيخ ﷺ قال لمريده (إن الله قد غضب لك من أجلى، وقيل لى الآن (إن الله سينتقم من هذا العدو، فستموت بقرته اليوم) وفعلا حضر بعد ساعة من يخبرنا بهذا الخبر وصدق الله إذ يقول ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج:٣٨].

غيرة الله على أوليائه

"إن الله يغار على أوليائه كما يغار الأسد الحرد على أولاده أو على عرينه" رواه بمعناه عن ابن مسعود الطبرانى ورواه أحمد عن أبى هريرة، وتصديقا لذلك الحديث أن

قاضى الإسكندرية فى عهد سيدى إبراهيم الدسوقى ﷺ، كان يبغض الصوفية ويناصبهم العداء، وكانت القصص والروايات تبلغه عن القطب الدسوقى فيتصدى له فى شخص مريديه حتى كثرت شكاياتهم لأستاذهم فكان يأمرهم بالصبر على إيذائه، وإزاء هذا الاضطهاد عزف عن الإسكندرية منهم من تضطره مصالحه إلى المثول بين يدى القاضى، وحدث ذات يوم أن بعض تلامذة القطب الدسوقى اشترى حاجة من رجل من السوقة وتشاجر معه وسبه، وساقتهم الشرطة إلى المحكمة ومثلوا بين يدى القاضى، ولما علم هذا بأن خصم البائع من مريدى القطب الدسوقى أمر بحبسه وأهانه، فأرسل زملاءه إلى أستاذهم بدسوق يستغيثون به من ظلم ذلك القاضى، فكتب رقعة وأعطاها لرجل من عنده وأمره بتسليمها للقاضى وكانت تتضمن هذه الأبيات:

سهام الليل صائبة المرامى ** إذا وترت بأوتار الخشوع

يصوبها إلى المرمى رجال ** يطيلون السجود مع الركوع

بألسنة تهمهم فى دعـــاء ** وأجفان تفيض من الدموع

إذا أوترن ثم رمين سهما ** فما يغنى التحصن بالدروع

ولما وصل إلى منزل القاضى، استأذن عليه فى الدخول، فأذن له وكان القاضى فى جمع من أصحابه، ولما علم أنه مرسل من عند القطب الدسوقى آذاه بالكلام والتفت إلى من عنده وهو يقول انظر إلى هذه الورقة التى جاءت من هذا الرجل الذى يدعى الولاية، وبعد أن سب الأستاذ شرع فى قراءتها جهرا فلما وصل إلى قوله (ثم رمين سهما) خر ميتا فهاج الجالسون وعلم الناس بالخبر فأطلقوا الرجل تكريما لأستاذه- رويت هذه القصة فى كتب تحدثت عن سيدى إبراهيم الدسوقى ﷺ أقربها كتاب السيد إبراهيم الدسوقى لأحمد عز الدين عبد الله فهذه كرامة واضحة الدلالة على رعاية المشايخ لمريديهم وغيرتهم عليهم وغضبهم من أجلهم، وإذا كان الحق يقول {من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب} فكذلك هؤلاء يحاربون من تعرضوا لأولادهم بالأذى، ولتعلم أن مقالتهم ولفظهم يقع موقع الحقيقة كلفظ من عند الله تعالى: فروى الحاضرون لهذه الحادثة أنه عندما قرأ القاضى هذه الأبيات وأتى عند لفظ (رمين سهما) قالوا إنه خرج من الخطاب ومن لفظ (سهما) سهم حسى حقيقى أصاب صدر القاضى فمات لساعته.

كما انفرد الشيخ ﷺ فى تربيته وسلوكه طريق الحق فى عصره، فكان الرسول ﷺ مربيه ومتوليه، كذلك انفرد بين سائر مسلكى الطريق فى زمانه بإدخال مريده الخلوة ولم تكن الخلوة طريق تربية لكل مريد بل لمن يطمئن إليه الشيخ ﷺ ويعلم صدقه وأنه يطيق هذا النوع من التربية، ولا يربى المريد بالخلوة إلا شيخ محق متمكن مأذون له، ليحفظ مريده فيها بهمته وحاله مما يؤذيه من جن يمسه أو شيطان يوسوس له أو خواطر سوء تلم به.

ومن دخل الخلوة بغير إذن شيخ كان ضررها أكثر من نفعها وكانت خلوة هوى نفس ونزغ شيطان لا خلوة سلوك وتربية.

وإنما اشترط إذن الشيخ فى دخولها لكى يضمن لداخلها حفظ عقله وصحة وارداته، حتى لا يلعب به الشيطان، فيريه الباطل حقا، والحق باطلا، ويزين له القبيح، ويقبح له الحسن، لأنه عدو مضل مبين، والهدف من الخلوة التفرغ التام لله، حيث يبتعد عن الحس، ويترك مشاغل هذه الحياة، والتوجه الكامل إلى ربه بقلبه، وفؤاده وسره والمقصود منها: التخلى عن الصفات البشرية الذميمة، ومألوفات النفس وعاداتها الدنيئة.

فإذا كان المريد صادقا والشيخ محقا، آتت الخلوة ثمارها ونال المريد فيها فى أيام قليلة ما لم ينله غيره فى دهره كله.

وقبل أن يُدخل الشيخ مريده الخلوة كان يتعهده برياضات متنوعة من جوع وسهر وعزلة، وعدة اختبارات يسبر[1] بها سلطان نفسه عليه، أو امتلاكه لزمامها، وحسن قيادها، وإخضاعها لآداب الشرع وتجردها عن الهوى والطبع حتى تكون هذه الرياضات مقدمة لتلك الخلوة فإذا نجح المريد فى كل ذلك، واطمأن له الشيخ أعطاه منهجه الذى يسير عليه فى العبادة والرياضة حسبما يلهم الشيخ ذلك بما يوافق استعداد

---

(١) يقال سبر الجرح يسبره من باب قتل، تعرف عمقه والمراد معرفة مدى سلطان نفسه عليه.

ذلك المريد، ثم يذهب الشيخ بنفسه إلى المكان الذى سيختلى فيه المريد يتفحصه بنفسه ليرى موافقته للشروط السالفة الذكر عندما تحدثنا عن الخلوات وأنه بعيد عن الأصوات والمشوشات، ثم يمسك الشيخ ﷺ المريد بيده مستأذنا ربه ويدخله الخلوة، ويغلق عليه بابها، ويسلمه لربه، ثم يتركه الشيخ ﷺ بعد أن يوكل من يصلى به الفرائض الخمس فى أول وقتها جماعة، ولا يزال يلحظه برعايته، ويمده بسره ويأمره بكثير من الأذكار ومختلف العبادات، ويلون له الرياضات كما يرى الشيخ ﷺ بنافذ بصيرته؛ حتى تطهر نفسه من الخبث، وتجلى مرآة قلبه من بخار الهوى والدنس والمريد يكتب للشيخ بكل ما يراه مناما أو يقظة، ويذكر له ما يعترضه فى خلوته من ضيق أو منغصات، أو معاكسات من الجن والشياطين، أو ما يعتريه من الخواطر، وغير ذلك مما يلم به فى سائر الأوقات، وما ينزل عليه من فيوضات وواردات، أو ما يراه من صور أو أشباح وسائر التشكلات، والشيخ ﷺ يكتب له ناصحا موجها مجيبا على أسئلته ومبشرا له بما نال، مفسرا له ما رأى محذرا إياه مما قد يداخله من غرور أو ما يفسد عليه أمره أو يميل به عن تلك الطريق، حاثا إياه على اتباع ما جاء به الشرع وما علمه من آداب الطريق، معطيا له سلاح كل ميدان وقواعد يتعرف بها على عدوه من نفس أو شيطان فى تعدد صور خدعه ومختلف أنواع تشكلاته، ويدرك بها مداخله ويفرق بين خواطره إن كانت رحمانية أو ملكية أو شيطانية أو نفسانية، ويعرفه بعلامات كل، خوف الالتباس والوقوع فى البأس، ولا بد من تلك المراسلات بين الشيخ والمختلى يوميا أو على الأقل كل يومين ليقف المريد على جلية أمره، وليعرف الشيخ حاله وما يعترضه حتى يعالجه بما يناسبه أولا بأول، وليسد عليه باب الخطر الذى ألم به قبل اتساعه.

وكنا ندرك من الشيخ ﷺ فى أيام إدخال أحد مريديه الخلوة حالا خاصة وكأنما حزبه أمر، وأن همته تتضاعف فى تلك الأيام، ويزداد نشاطه ويعظم اهتمامه بذلك المريد، وإذا ورد خطاب من المختلى إلى الشيخ وهو فى مجلسه توقف عما هو فيه وتفرغ له وفض الخطاب، وربما أعاد قراءته ليزداد تعرفا عليه وإلماما بما فيه، وفى الحال يمسك الشيخ بقلمه، ويرد على ما ورد فى الخطاب مفسرا له وموضحا، ومبينا له وجه الصواب، وكنا نلحظ على الشيخ ﷺ أثناء تلك الكتابة حالا قوية، وهمة علية، وكأنه غائب عنا بجسه والكل ساكت كأنما على رءوسهم الطير ينتظرون أن يسمعوا عن أخيهم كل خير، ويجيب الشيخ ﷺ عما ورد بما يلهمه، و ما يفاض عليه، ويرد على

كل ما ورد فى الخطاب ثم يطويه ويلتفت إلى إخوانه ليطمئنهم عليه ويطلب منهم الدعاء له بالتثبيت والعون وتمام التوفيق، فإذا رأى أمرا مبشرا لأخيهم سرهم به ليشد عزمهم ويشحذ هممهم ويشوقهم إلى الخلوة ويحببهم فيها كى يسعوا إليها ويتأهبوا لها لعظيم أثرها وكبير نفعها.

عقبات تعترض الشيخ من أجل المريد

وعندما كان يعزم الشيخ ﷺ على إدخال أحد المريدين الخلوة كانت تصادفه عقبات وتعترضه أزمات فيذللها الشيخ بحكمته التى يراها ناجحة فى هذا الشأن ويتذرع بالصبر عليها، بواسع حيلته وبكل ما يراه ناجحا فى مهمته، وبحمد الله كان الشيخ لا يعدم ـ لأى سبيل من المعوقات ـ وسيلته، إذ قصده الخير فكان الحق سبحانه يسدده ويعالج كل مشكلة بما يناسبها، وفى مقدمة تلك العقبات اعتراض الأهل كما هى عادتهم من خوفهم على ولدهم ومن وسوسة الشيطان لهم أن ابنهم قد تخلط الخلوة عقله، وأنه بذلك لا يصلح لأمر الدنيا ولا المعاش وأنه سيكون من المجاذيب لا ينتفع به، فكان ﷺيطمئن هؤلاء الأهل ويتعهد لهم بخروج ابنهم من خلوته كامل العقل ولن يصيبه أذى ولن يمس بسوء أبدا إن شاء الله بل إنه سيخرج مزودا بالأنوار والأسرار قد ذاق ما ذاق وعرف ما عرف، وما يزال بهم حتى تطمئن قلوبهم لضمان الشيخ سلامة ولدهم مما يخالجهم ويخطر ببالهم، وكنا نراه مرة يلين فى نصحهم وأخرى يشتد عليهم وما يزال بهم حتى يسلموا أمر ولدهم له، بل كنا نراهم بعد أن طمأنهم الشيخ لهذا الأمر قد يستعجلون إدخال ولدهم الخلوة بما ملأ الشيخ به قلوبهم من الأمن على ولدهم، وأنه فى رعاية الحق، وهو ضامن وحافظ له من كل مكروه إن شاء الله تعالى، فبذا يستريحون، وبوعد الشيخ يطمئنون.

وليس ذلك كل ما يتحمله الشيخ من جهة مريده فى الخلوة، بل كنا نجد بعض المسلكين الذين لم يصلوا إلى درجة الكمال ينفسون على الشيخ انفراده بهذا النوع من التربية وهم لا يستطيعونه، فيسعون فى إفساد ذلك الأمر قبل إتمامه بما يرسلون من أشخاص تثبط همم ذلك المريد ويخيفونه من الخلوة، أو يذهبون إلى أهله لابسين ثوب الناصح الأمين متحدثين إليهم بما سيلحق ولدهم من ضرر وما يصيبه من أذى أو فساد

أو ضياع لعقله، فإذا ما أخفقوا فى كل ذلك استخدموا جنيا شريرا أو شيطانا مريدا، واستحضروه بقسم عرفوه وعليه تلوه، وبما أرادوا على هذا المختلى سلطوه، وما أسرع استجابة الجن إلى هذا الشر فيترصدون للمريد فى خلوته، ويتفننون كما هى عادة الأبالسة فى أساليب المعاكسات، ويجلبون له أنواعا من الشرور ويرمونه بكل وسائل الأذى، ويعكرون عليه صفو خلوته ويجلبون له المضايقات حتى يتبرم المريد ويضيق صدره بالخلوة وبذا ينالون مآربهم من إفساد الخلوة وإخراج المريد قبل تمامها، ولكن أنى لهم ذلك والشيخ لهم بالمرصاد؟! همته العلية تذب عن مريده كل أذى وإفساد، فهو فى حصن متين، وفى حرز أمين، لن يدخل عليه عدو أو يقتحمه شيطان، وهنا تظهر مكانة[1] الشيخ المأذون له المتمكن، فى حماية مريده والذود عنه والتصدى لكل من أراد النيل منه ليفرغ الشيخ مريده لمهمته، ولا يقطع عليه ذلك العدو وصلته ولا يفرق جمعيته حتى ينال طلبته، ولا يزال على هذه الحال حتى يتم خلوته، فيخرج بحمد الله وقد انتصر على عدوه من نفس وشيطان وإنس وجان مملوءا قلبه بالأنوار مزودا فؤاده بالأسرار.

ثمار الخلوة

يخرج المريد من الخلوة وقد تغيرت حاله، وتبدلت صفاته فسكنت جوارحه وانخفضت جوانحه، دائم الفكرة، كثير العبرة، وأصبح معرضا عن زينة الدنيا، عازفا عن زخارفها، قد امتلأ قلبه بحب الله، ولاحت عليه الأنوار، وتفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، مصداقا للحديث **"من أخلص لله أربعين صباحا تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه"** رواه أبو نعيم فى الحلية عن أبى أيوب، مع كتمه للأسرار التى لا يباح إفشاؤها، لأن (إفشاء أسرار الربوبية كفر) فى عرف أهل الطريق.

تراه وقد وسم بسمة القوم وصار من أهل الله، له فى الطريق القدم الثابتة والمقام العالى، لا تزحزحه ريح الهوى ولا تعصف به عواصف النفس والدنيا، ولا تغيره طوارق

---

(١) هنا قالوا: من تطبب وهو جاهل بالطب فعليه ضمان ما أتلفه من النفوس، وكذلك الشيخ إن لم يكن ذا همة خارقة قد يفسد الجن عقل مريده ويضيعه فتكون الخلوة ضررا محققا سببه مدعي المشيخة.

الأقدار ولا تعكر صفوه فتن الزمان ولا صروف الأيام، قد صلب عوده واشتد قوامه فلا تلين له قناة ولا ينثنى أبدا عن طريق الله، وجهته دائما الله، وقلبه مفعم بحب الله، راجيا فى كل أمر رضاه، وبهذا يكون المريد قد قطع كثيرا من مراحل السلوك ونزل فى منازل القرب ورتع فى حضرات الأنس، ولو أنه كان خارج الخلوة لقطع ذلك فى سنوات.

فالخلوة إذن ضرورية وبخاصة لمن اختاره ربه للتسليك والإرشاد فى طريق القوم؛ ليذوق ويتعرف على ذلك النوع من التربية فيكون عالما ذائقا محققا، لا عارفا علميا سمع وقرأ عن القوم فى هذا المجال، وبذا يستطيع أن يعالج مريده فيما بعد عن خبرة ودراية وتجربة، وارثا شيخه فى أحواله ومقاماته وسلوكه وقد عرف وعر الطريق ومزالقه وكيف يتخطى عقباته ولا تعوقه آفاته ولا تلتبس عليه مسالكه ولا يضل فى متاهاته، وبحمد الله لم ينتقل شيخنا ﷺ إلى جوار ربه حتى ترك من هؤلاء العدد الكثير فى مختلف البلاد وأنهم جديرون بأن يصلح الله بهم أمر العباد، وأن كل واحد منهم بأمة، وليحفظوا ما للطريق من حق وحرمة وليظلوا على طريق الحق أئمة راشدين أدلاء هادين، قد صقلهم الجهاد وعصرتهم الرياضات فتخلصوا من أهواء النفس ومداخل الشيطان، لا ينخدعون بالمظاهر ولا يغيرهم الجاه ولا تفسد أحوالهم الدنيا ومخالطة الناس، دخلوا حصن الأمان حصن لا إله إلا الله، فهم دائما فى حماه ولا يراعون سواه، عرفوا كيف يتخطون كل العقبات حتى صاروا نماذج تحتذى وأئمة بهم يقتدى ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور:٥٥]. وقال تعالى ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص:٥]

خلوة الخواص

الخلوة التى تحدثنا عنها خلوة المكان وحبس الجوارح والحواس عن الانطلاق والجولان، ذات الشروط والقيود الخاصة هى خلوة المبتدئين السالكين ليتم لهم التفرغ والتخلى ويجمعهم الحق به ويحليهم بصفاته ويخلع عليهم من نعوته، أما ساداتنا العارفون فهم فى خلوة على الدوام، وليست خلوتهم حبس الجوارح والأركان، بل قصر القلب

على الله ولا يكون خاطر فيه لسواه، خلوا قلوبهم لله ولِوَارداته يرون بنور الحق الذى حل فيها أن الأكوان ظلال وأنه الفاعل الحق والموجود الأحد، ويجدون تصريفه للكل من عين القدرة، ويكلمونه فى الناس ويعاملونه فى خلقه، قد دام تعلق أسرارهم بربهم، ثم هم بعد ذلك تراهم يعملون كما يعمل كل العباد فى أمر المعاش والمعاد، يحسبهم الجاهل أنهم كسائر الخلق فيما يعملون وغاب عنهم أنهم لا يأخذون إلا بالله لا بأنفسهم، ولا يدعون إلا له سبحانه لا لشهواتهم ولا لهواهم، ولا يطيق هذه الخلوة إلا عامل بالشرع متمكن منه راتع فى حضرته لا يبرحها أبدا مقتد بآثار سيد الخلق ﷺ، صدقت عليهم الحكمة القائلة: (هؤلاء خلوتهم فى جلوتهم) هؤلاء كما يقول قائلهم (مكثت أكلم الله ثلاثين سنة والناس يظنون أنى أكلمهم).

قيام الليل

ومن أنواع التربية التى اشتهر بها الشيخ ﷺ والتى كان يربى بها المريدين قيام الليل، فكان ﷺ يشدد عليهم فى الأخذ به والمداومة عليه، إذ هو أساس الخير وباب السعادة وسبب الفتوح للمريد، ووقت خلوة العبد بربه ومناجاته له وبثه شكواه، ووقت إفاضة الأسرار وظهور التجليات وتنزل الرحمات وهبوب نسمات القرب ونفحات الوصال.

وكان ﷺ يقول (إن العبد لا يشم رائحة المعارف ولا ينعم بالوصال ولا يحظى بالمشاهدات، ولا يدرج فى سلك القوم ولا يعد من الرجال إلا إذا كان من فرسان الليل وممن قال الله تعالى فيهم ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ..﴾ [السجدة:١٦] الآية).

فلا يكون المريد مريدا لله بحق حتى يصف أقدامه فى جوف الليل لربه، ويتضرع ويسأل ويشكو ويبكى، فهذا الوقت الذى يقول فيه الحق (ألا من سائل فأعطيه، ألا من مسترزق فأرزقه، ألا من كذا، ألا من كذا حتى مطلع الفجر)[1].

---

[1] رواه مسلم و غيره عن أبى هريرة ﷺ .

وكان ﷺ، ينعى على ابن الطريق الذى لم يكن له ورد من الليل ويحدثنا بما روى عن ساداتنا أن بعض العلماء بالله رُئى فى المنام بعد وفاته فسئل عن حاله فقال: (طاحت تلك العبارات، وذهبت هاتيكم الإشارات، ولم يبق إلا ركيعات كنا نصليها فى جوف الليل والناس نيام)، وعن الشيخ أبى بكر الضريرﷺ قال: كان فى جوارى شاب حسن الوجه يصوم بالنهار ولا يفطر، ويقوم الليل ولا ينام فجاءنى يوما وقال يا أستاذ: إنى نمت عن وردى الليلة فرأيت كأن محرابى قد انشق وكأنى بجوار قد خرجن من المحراب، لم أر أحسن وجها منهن، وإذا واحدة منهن شوهاء (قبيحة) لم أر أقبح منها منظرا فقلت: لمن أنتن؟ ولمن هذه؟ فقلن: نحن لياليك التى مضين؟ وهذه ليلة نومك فلو مت فى ليلتك لكانت هذه حظك، ثم أنشأت الشوهاء تقول:

اسأل لمولاك واردنى إلى حالى ** فأنت قبحتنى من بين أشكالى

لا ترقدن الليالى ما حييت فإن ** نمت الليالى فهن الدهر أمثالى

فأجابتها جارية من الحسان:

نحن الليالى اللواتى كنت تسهرها ** تتلو القرآن بترجيع ورنات

نحن الحسان اللواتى كنت تخطبنا ** جوف الليالى بأنات وزفرات

من هذا ندرك فضل قيام الليل للمريد ونيله الرفعة فى الحياة الأخروية أما الدنيوية فإنه يظهر على وجهه نور، مصداقا لحديث الرسول ﷺ ما معناه: **"من صلى بالليل ابيض وجهه بالنهار"**[1].

وكان سيدى إبراهيم الدسوقى ﷺ يقول: (من قام بالأسحار ولازم فيها، كشف له عن الأنوار، وسقى من دن الدنو وخمر الخمار، وطلعت فى قلبه شموس المعانى والأقمار، فافعل يا ولدى بما نقول تنل القبول).

---

[1] رواه ابن ماجه عن جابر ﷺ بلفظ "من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار"

ويصف المحبين فى اجتهادهم بقوله: (إذا جن عليهم الليل باتوا قائمين، وإذا هب عليهم نسيم السحر مالوا مستغفرين، فلما رجعوا عند الفجر بالأجر نادى منادى الهجر، يا خيبة النائمين). فيا أخى لو رأيت القوم فى جوف الليل؛ قد شمروا عن ساعد الجد وكأنما قد حزبهم أمر ضحوا براحتهم والرقاد بغية الوصلة ونيل المراد، ويا حبذا لو وقفت عليهم عند هبوب نسمات الأسحار، وقد تجلى عليهم الرب بالأنوار لرأيتهم كأنهم الكواكب والأقمار، تتلألأ وجوههم بالنور وتعممهم الفرحة بربهم ويغمرهم السرور بما حظوا ونالوا وشربوا وذاقوا وقد أورثهم ذلك خشية وإنكسارا وهيبة ووقارا، تراهم وكأنهم الملوك تربعوا على عروش القلوب فهم معنا بالأجسام وأرواحهم تسرح فى عالم الغيب، قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٨]. أولئك جزاؤهم عند ربهم ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ [ص:٥٠] قطوفها دانية وقصورها عالية وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

متصوفة هذا الزمان

بعض الطرق الصوفية فى هذا العصر رسمية، ومظهرية أكثر منها معنوية وحقيقية، لا أثر لمدعى المشيخة فى مريديهم من حيث السلوك والترقى، فهم أشبه بجماعات يجتمعون لترديد الأذكار، وهى سنة فى الشرع ويا ليتهم يأتون بها على وجهها المسنون، ويقضون ليلهم ساهرين بين حلقات الذكر والترنم بالأناشيد، وقد يذكرون على نغمات الآلات ويتمايلون على رنات الكاسات معجبين بذلك واهمين أنهم على الحق، وأنهم يحيون بذلك سنة سيد الخلق ﷺ، والعجيب من أمرهم أنهم ينامون قبيل الفجر، ويستغرقون فى النوم حتى مطلع الشمس، وتفوتهم صلاة الصبح وهى فرض، فإذا ما خاطبتهم فى ذلك قالوا (كنا ساهرين فى طاعة الله) ... كذبوا والله إنها نزغة شيطان، وهوى نفس، وما ضيع أبناء الطريق إلا اشتغالهم بالنوافل والمندوبات وتركهم الفرائض والواجبات، وأهملوا السنة وجانبوا آداب الطريق، وتركوا التعامل بالشرع، فأصبح دينهم هواهم، فما وافق الهوى عملوه باسم الدين، وما اتفق وميلهم أتوه باسم الطريق، اهتموا بالفروع بغية الرياء والشهرة، وأهملوا الأصول فحرموا الوصول، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم...).

وكان ﷺ يقول (إن علماء هذا الزمان، ولا سيما المتشدقون بالطريق، والمدعون أنهم من أهل الله، ليس لهم فى هذا الميدان نصيب، مع أنه من فاته قيام الليل وحرمه فليس من الله فى شيء، وليس من أهل الطريق لا من بعيد ولا من قريب، وما ورد مورد القوم، وما ذاق من شرابهم، ولا شم عبير أنفاسهم، فهم يقولون ما لا يفعلون).

والعجب أنك تراهم ينصحون غيرهم ويرشدون، ويظهرون فى أثواب العارفين فيرددون مقالاتهم، ويقصون من أحوالهم ومقاماتهم، ما يوهم الناس أنهم ذاقوا مذاقاتهم، وتخطوا مراحل السلوك والرياضات والمشاهدات إلى حضرات القدس ومنازلات الأنس.

وقد حذر الشيخ رضى الله تعالى عنه من التحدث عن المقامات دون تذوق لها أو استشراف عليها، وإلا كان شاهد زور وله فى هذا وارد إليك نصه: (القلب للمشاهدة واللسان للعبارة عن المشاهدة، فمن عبر عن غير مشاهدة فهو شاهد زور).

ويؤكد هذا وارد آخر: (عليك بالعمل، وإياك وشقشقة اللسان بالكلام فى الطريق، دون التخلق بأخلاق أهلها) ثم يستطرد الشيخ رضى الله تعالى عنه فى نصحه لنا فيقول: (ولو علمتم حقيقة أمر هؤلاء، وسبرتم غور علومهم لوجدتموها منقولات من كتب القوم، وحفظا لبعض مصطلحاتهم دون أن يعرفوا حقيقة ما يقولون، ولا معنى لما به يتفيهقون؛ إذ إنهم ما خطوا فى طريق القوم خطوة وما كان لهم فى ميادين الرياضات صولة ولا جولة، وما ذبحوا أنفسهم بسكين المخالفة للنفس والهوى ولو مرة).

وللأسف أنهم يعتبرون أنفسهم السادة، فالأحكام تجرى على من دونهم وهم خارجون عن دائرتها، واهمين أنهم بقولهم هذا قد أدوا واجبهم وسقطت عنهم التبعة، ويسول لهم الشيطان أنهم ما دام الناس يعملون بقولهم فلهم من الأجر مثل ما لهم وسقط عنهم العمل.

أجل الدال على الخير كفاعله، ولكن أين هم من قول الحق تعالى ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٤٤] وما هم بذلك إلا يستنزلون مقت الله مصداقا لقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢،٣] واقرأ مقالة الغزالى وغيره عن علماء السوء ومآلهم عند الله نسأل الله لنا ولهم الهداية، وأن يبصرنا وإياهم بعيوب أنفسنا وخفايا صدورنا، وأن يخلصنا من جميع أمراضنا، وأن يجنبنا الالتفات إلى أعمالنا والركون إلى أحوالنا، والنظر إلى وجودنا؛ حتى لا ننسب إلى أنفسنا أى عمل، ولا نضيف إلينا أى مقال أو حال إذ إن ساداتنا يعتبرون الالتفات والاعتداد بالشخصية أكبر بلية، ويقولون (وجودك أكبر ذنب فاحذره) نسأله سبحانه الحفظ ورعاية آداب العبودية والقيام بواجب الربوبية حتى نلقاه إن شاء الله تعالى سالمين ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَال وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨،٨٩].

ما يعين المريد على قيام الليل

وكان ﷺ يوصى مريديه بقيام الليل فى السفر والإقامة، ويحذر من التقاعس عنه مهما كانت الأسباب لما له من الفضل السابق الذكر، ويقول :إن مما يساعد على قيام الليل:

(١) ألا يشبع من حلال.
(٢) تناوله العَشاء قبل المغرب.
(٣) عدم السهر بعد العِشاء إلا فى طاعة.
(٤) الكف عن اللغو أو الفضول فى القول والعمل طول النهار.
(٥) ألا يتدخل فيما لا يعنيه.
(٦) ألا يقترف المعاصى وبخاصة النظر إلى الحرام.

فإن ذلك كله يقسى القلب، ويحجبه عن التشوق أو الرغبة إلى عالم الملكوت فلا ينشط ولا يجافى مضجعه، وتصيبه الغفلة ويعقد الشيطان على رأسه العقد كما ورد فى حديث أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال:"يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله،

انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة، فأصبح نشيطا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان"[1] وهكذا لا يتركه الشيطان إلا وقد أصاب منه حظه إذ أنامه عن ورده، بل لازمه ذلك الكسل والخمول طوال يومه،واستولت عليه تلك الغفلة فأقعدته عن أداء فرض الصبح فى وقته، وفى ذلك ما فيه من الضياع للمريد دنيا وأخرى، وإذا كان الإمام على كرم الله وجهه يقول (عجبت لتارك ركعتى الصبح كيف يرزق؟) ويعنى ركعتى سنة الصبح فما بالك بتارك الفرض!! وهذه عادة الكثير، ولا سيما المنتسبين إلى الدين ويتعللون بأن النوم عذر، كذبوا والله، فإذا كان عذرا، فعلى من تجب فريضة الفجر؟ ولكن نقول إنهم عن بابه لمطرودون إذ لو أرادهم لحضرته سبحانه وتعالى لأيقظهم لفريضته، نعوذ بالله من الدفاع عن النفس والتماس العلل لنيل حظوظها.

ويكفى هذا العقاب وهو البعد عن الحضرة والرحمة أول اليوم لمن ترك فريضة الصبح، متبعا لهوى نفسه ونزغ شيطانه، وقد مر بك أيها القارئ أن أوراد ساداتنا عندهم فرائض، فما بالك بالفرائض الشرعية فهى أوجب وألزم، فمن ترك ورده كان حاله كحال من ترك فرضه، نسأل الله يقظة القلب وانشغاله حتى يدله على محابه.

عقاب الله لمن أهمل ورده

وكان ﷺ يقول: (إن ورد المريد كزاد يعينه على سفره فى طريق الحق، ومن حافظ عليه قطع مراحل الطريق سريعا، وتوالت عليه أنوار المواجهة فأخذته عن نفسه، ومدت له العناية يدها، وإن مما لوحظ وجرب ولمسناه أن من أهمل ورده أو قصر فيه أو أداه على غير وجهه، أو صاحبه ملل وسآمة دون همة علية وعزيمة قوية؛ تعثر فى سيره وانكشفت أنوار توجهه وظل حياته يعمل دون وصول، وقد قالوا:

---

[1] متفق عليه عن أبى هريرة ﷺ .

(عقوبة ارتكاب المحرمات بالعذاب، وعقوبة أهل الطاعات بالحجاب، لما يقع لهم فيها من سوء الآداب، وعقوبة المراكنات ترك المزيد، وعقوبة القلق والاستعجال هلاك السر).

فعلى المريد الصادق المبادرة والمداومة على ورده فى وقته وإلا عوقب بأمور لا يحس بها إلا من كان ذا بصيرة، ومن كان دائم المراقبة وله من مذاقات القوم الكثير، ولو ترك ورده فإنه يجد ضيقا فى صدره وسآمة فى نفسه وثقلا فى أعضائه ويظل يومه كسلان يعمل بغير نشاط، ولا يجد لعمله جدوى، فقد نزع الله منه البركة، ولم يوفق فى عمله، حاله كحال من أغراه شيطانه وترك فرض الصبح كما فى الحديث السابق، وعن جابر بن عبد الله، رضى الله عنهما قال رسول الله ﷺ **"قالت أم سليمان بن داود لسليمان: يا بنى لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيرا يوم القيامة"** رواه ابن ماجة والبيهقى[1].

فمن أراد الله له الخير لم ينم عن ورد تهجده، وإن نام عنه ليلة لعذر أو لسبب خارج عن إرادته مع قيامه بالأسباب التى تعينه على قيام الليل قضاه بالنهار اتباعا لقول الرسول ﷺ حيث يقول: **(من فاته ورده من الليل فقضاه من النهار كتب له من الليل)** عن عمر بن الخطاب ﷺ فى رياض الصالحين.

وعملا بوصية ساداتنا فى هذا الشأن إذ قالوا:

إن المريد الصادق إذا نام عن ورده كسلا أو فتورا أو تهاونا أو لعدم انشغاله بما عليه لربه واهتمامه بفرضه، فليعلم أن ذلك لدغة من لدغات نفسه ونزغة من نزغات شيطانه، وعليه إذن أن يصبح صائما تأديبا وإذلالا لها وتضييقا لمجال شيطانه، عملا بحديث الرسول ﷺ: **"إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم من العروق"**[2]،فضيقوا مجاريه بالجوع.

---

(١) الترغيب والترهيب جـ١ ص ٤٤٢.

٢ متفق عليه من حديث صفية رضى الله عنها.

وهذا أوصى الشيخ ﷺ من ترك تهجده بصوم اليوم الذى فاته التهجد فى ليلته، علاجا للنفس حتى لا تركن إلى الكسل، وتستمرئ النوم والراحة، وعليه أيضا أن يدفع عن نفسه بلاء ذلك اليوم الذى نام فى ليلته عن ورده بصدقة يخرجها صباحا، مع ملازمة التوبة والاستغفار مما وقع منه من تقصير مع الأسف الشديد،والتحسر على ما فاته من قيام الليل أو ترك أى ورد، إذ معنى ذلك أنه رد عن حضرة من حضرات الرب وأنه لو كان أهلا لها لنالها.

فما أقعده عن ورده، وفوت عليه فرصة الحضور مع ربه إلا غفلته وشيطانه حيث نام تلك النومة فحرم من الشراب ولم يحظ بما حظى به الأحباب، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:١١٨] ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

المريد الصادق عدو نفسه وصديق قلبه

وكان ﷺ يقول :إن المريد الصادق هو الذى يضع أول قدم فى الطريق على الصدق والإخلاص لربه ويجعل همه الخلاص من نفسه ويضع نصب عينيه حديث الرسول ﷺ "أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك" رواه البيهقى عن ابن عباس، فبذلك يكون قد جرد لها من أول يوم سلاح المخالفة، وترصد لميولها ونزعاتها وأعلن عليها الحرب ولا يأمن مكرها لاعتقاده أنها هى العقبة فى الوصول إلى الله عملا بما قاله (أبو يزيد): رأيت ربى فى المنام فقلت له يا ربى كيف الطريق إليك فقال (اترك نفسك وتعال) قال أبو يزيد (فانسلخت من نفسى كما تنسلخ الحية من جلدها).

والمراد بترك النفس ترك العمل بخواطرها المذمومة فى الشرع وكذا التخلى عن مراداتها والخلاص من صفاتها القبيحة وعاداتها المرذولة ولا يكون ذلك إلا بالمراقبة التامة لكل ما يعمل العبد أو يترك، هل هو لموافقة الشرع وآداب الطريق أو لهوى النفس وتلبية لرغباتها؟ فليلاحظ نيته عند العمل أو الترك.

وكذا الخواطر التى لو عرضتها على الشرع فلم يظهر لك فيها موافقة ولا مخالفة يجب أن تتوقف عن العمل ولا تبادر إليه حتى تستفت قلبك إن كنت من أرباب

القلوب، أو تعرض أمرك على شيخك أو من يكبرك ويعلوك فى طريق الله محبا لك صادقا فى الإرادة، وإلا فاتجه إلى الله بصدق تجد الرشاد إن شاء الله لأنك لا تدرى ما عاقبته وما يؤول إليه ذلك، ولأهل الحق علامات فى كل خاطر أو عمل يعرفونها بقلوبهم وإن خفى ميزانها على غيرهم فافهم.

وليكن المريد ذا ذكاء وفطنة، حذرا من ألاعيبها وخداعها إذ هو مؤمن، والرسول يقول عليه الصلاة والسلام: "المؤمن كيس فطن" رواه القضاعى عن أنس، ولا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين، فعليه أن يتفحص أموره فإذا ما أراد أمرا عرضه على ميزان الشرع، فإذا كان لله خالصا ولم يكن للنفس فيه هوى أمضاه، ففيه السلامة والبركة، وإن كان لله فى ظاهره إلا أن للنفس فيه مدخلا كمن يتصدق لله مع قصد الثناء أو حب الشهرة فيجب أن يعالج نفسه ويخلص عمله لله وحده، فلا تكن للنفس فيه شركة، إذ لا يقبل الله إلا ما كان خالصا فهو سبحانه أغنى الشركاء، وقد قال جل شأنه (من عمل عملا لى وأشرك فيه غيرى تركته لغيرى) [1].

فإن استطاع المريد ذلك فقد سلم له عمله، وخلص لله، وإن لم يستطع تخليصه لله فليتركه وإن كان طاعة إن لم يكن فرضا أو راتبة، فقد قال شيخنا ﷺ (إن ترك المندوب والنفل فى سبيل مخالفة النفس أولى من عمله وفيه للنفس مدخل، أما الفرض فليؤده بأمر الشرع وليسع جهده فى تخليصه لله وإتيانه على الوجه الذى يرضيه، فمن صلى الفرائض مع الرياء لا نأمره بترك الفرض من أجل الناس وريائهم، فقد يكون رياؤه هذا سلما لإخلاصه فيما بعد عن طريق المجاهدة فقديما قالوا: (الرياء قنطرة الإخلاص).

فليجاهد المريد دائما نفسه وليذبحها بسكين مخالفتها وليترصد دائما لها، ولا يمكنها من نزعاتها من خلال الطاعة والصالحات، فقد تأمر صاحبها بالطاعات لمآرب لها، وشهوة خفية منها وليسد عليها جميع مداخلها وليراقبها، فلا يعمل إلا ما كان لله خالصا وما ضيع العبّاد إلا كثرة عبادتهم، وما قطعهم عن الوصول إلا نظرهم إلى أعمالهم وحرمانهم الإخلاص فيها، أو لوجود هوى لنفس أو مدخل لشيطان فى

---

[1] رواه ابن ماجه و أحمد و الطبرانى عن أبى هريرة ﷺ .

أعمالهم، ولذا قالوا (أخلص العمل يكفيك منه القليل)، وفى الحديث (أخلص دينك يكفك القليل من العمل)[1].

أهم ما يوصى به المريد من المجاهدات:

دوام الوضوء والصوم والعزلة والذكر وربط القلب بالشيخ ﷺ، واستشارته فى كل أمر، وإفناء إرادته فى إرادة الشيخ ﷺ وقطع الخواطر المذمومة، وعدم الاعتراض على الله عز وجل فى كل ما يقضى عليه به، وألا يعبد الله بعوض من جنة أو نار أو مقامات أو درجات أو فتح أو مكاشفات ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢].

ومعنى مجاهدة النفس بذل الجهد فى ترك السِّوى والتخلى عن الأغيار، وما الأغيار إلا الوجود الحادث والنفس والشيطان، وطريق التخلص منها يكون بتقليل الغذاء؛ لأن صولة النفس والشيطان سببها كثرة الغذاء ولو من حلال، مصداقا لقوله عليه الصلاة والسلام: "إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم من العروق، فضيقوا مجاريه بالجوع"[2].

ولأن النفس لا تتأبى على صاحبها إلا إذا كانت قوية بالغذاء مترعة بالطعام، فإذا قل الغذاء قل سلطانها، وعليه أن يترك اختيارها وميلها لاختيار الشرع فيما رسمه من حدود وآداب، وعليه التسليم لأمر الشيخ المربى المأذون له بالتسليك إذ هو يختار للمريد ما يصلحه، ومثله مع الشيخ كمثل الطفل مع أمه فهى تتعهده وتقوم له بما يكفله، وكذلك السفيه والمبذر لا بد له من ولى أو وصى يتولى أمره ويرعى شأنه، فما دام المريد فى حجر التربية، ولم يطر فرخه من عش شيخه ﷺ، فليسلم أمره له وليفن إرادته فى إرادة شيخه ويدع اختياره لاختياره، ولا يبدأ عملا دون إذنه واستشارته، وليربط قلبه بقلبه، وينف عنه الخواطر ويترك الاعتراض عليه فى كل أمره والسؤال عن شأنه، ولا يقيس على شيخه بميزان عقله، لأن شيخه أفقه منه وأعلم، وأن عقل المريد ما زال

---

[1] رواه الحاكم عن معاذ بن جبل ﷺ،كما رواه أيضا البيهقى فى الشعب و أبو نعيم فى الحلية والديلمى.

[2] متفق عليه من حديث صفية رضى الله عنها.

محدودا وأفقه ضيقا، فإذا تم للمريد ذلك فقد قتل نفسه قتلات وسلم من شراستها ونجا من سطوتها، وفتحت بصيرته، فيرى عالم الملكوت ويشاهد الغيب والمحجوب، وإذا قد زال الغطاء عن عين قلبه بإزالة أوصاف بشريته بالمجاهدة، وقد محا نقطة الغين (الأغيار) عن العين (البصيرة) وهنا يتبدل ذوقه وتصير أذواقه معنوية من عالم الغيوب لا من عالم الشهود، فيرى ما لا نرى، ويسمع ما لا نسمع، فلا ينكر عليه؛ حيث يشاهد ما لا يدركه الناس وهو جالس مع أصحابه، ويسمع ما لا يسمعون، ويرى ما لا يراه الحاضرون، قد تبدل وجوده وكشفت حجبه، وليس ذلك بغريب، فالنائم يسمع ويرى ويتكلم ويأكل دون استعمال أذن أو عين أو لسان أو فم؛ لأنه لما قل سلطان حسه ظهر سلطان روحه فرأى ما كان غير محسوس، وعمل وترك وسافر وقال، وما تحرك جسمه فكذلك ابن الطريق لو تخلص من نفسه وظهر سلطان روحه كان ما كان مما هو من معلومات الروح، وكما قالوا (إن الروح علامة دراكة) أى أنها تعلم كل شيء وتدركه لأنه مطبوع فيها أزلا وما ستره إلا الوجود الحادث، فإذا تخلى عنه وقلت كثافة بشريته ظهرت علوم سره ومشاهد روحانيته، فكل شيء فيك أيها الإنسان يا من جمعت الكون كله (أنت جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر).

فاجتهد فى رجوعك إلى أصلك وفطرتك لتكون خليفة لربك بحق، عرفت كل شيء وملكته، وكنت نائبا عن الله فى كونه، تتصرف كيف تشاء فيه ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠] هذا هو المقصود وغاية المطلوب والضالة التى يسعى العاقل فى الوصول إليها ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦].

مراتب النفس

ولما كنا بصدد الحديث عن النفس ومجاهدتها وكيفية التخلص منها وعلاج أمراضها نَاسَب ذلك ذكر مراتبها، وحالها فى كل مرتبة، وكيف يدرك المريد أنه فى أى حالة من حالات نفسه، بما نعرضه عليه من علامات، وما نورده من أمارات كى يستطيع الخلاص منها والنجاة من شرها، بما نذكره له من علاج، فيتدرج فى مراتب نفسه حتى تكون مرضية كاملة.

ذلك لأن النفس أعظم الحجب عن الله، وقد أقسم الملك القدوس ألا يدخل حضرته أرباب النفوس، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦] وهم أرباب النفوس.

والنفوس مراتب:

(١) النفس الأمارة

وسميت بذلك لأنها تأمر بالسوء وهى خبيثة تبيع آخرتها بشهوة واحدة، ومن صفاتها البخل والحرص والحسد والجهل والكبر والشهوة والغضب والغفلة والشر وسوء الخلق والخوض فيما لا يعنى من الكلام والاستهزاء بالخلق وبغضهم وإيذاؤهم، وغير ذلك، وما اتصفت بهذه الصفات الدنيئة واتسمت بهذه النقائص القبيحة إلا لوقوعها فى ظلمة الطبيعة، فلا تفرق بين الخير والشر، وهى واسطة الشيطان ووسيلته فى الإغواء وهى المعنية بقوله ﷺ: (أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك) [1] فاحذرها، ولا تأمن جانبها.

وعلاجها تقليل الطعام والشراب والمنام حتى ييئس الشيطان منك، لقوله ﷺ (إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم من العروق، فضيقوا مسالكه بالجوع) [2] وحتى لا يحوم حول قلبك فلا يفتح لك إلى الملكوت باب ولا إلى الغيوب طريق لقوله ﷺ:(لولا أن الشياطين يحومون حول قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض)رواه أحمد عن أبى هريرة ﷺ.

وقول عيسى ﷺ: (يا معشر الحواريين، جوّعوا بطونكم لعل قلوبكم أن ترى ربكم).

---

[1] رواه البيهقى فى الزهد و له شاهد من حديث أنس ﷺ

[2] سبق

وروى أن الله سبحانه وتعالى لما خلق الخلق، ونظر إليهم اعترفوا له جميعا بالربوبية، وخضعوا لسلطانه إلا النفس فإنها لم تخضع ولم تعترف، وعندما سألها من أنت؟ قالت أنا.. أنا، وأنت.. أنت، فأدخلها فى بحار التعذيب وكلما خرجت قالت: أنت.. أنت..، وأنا.. أنا، فعذبها بالجوع فذلت واستكانت، واعترفت قائلة: (أنت الرب وأنا الخاضعة الذليلة لسلطانك وقهرك).

فإذا ما قللت من طعامك وشرابك ومنامك كسرت شهوتها وانتصرت عليها، وبدأت فى رفع الحجب الظلمانية الحاصلة من الذنوب الماضية، كما روى أن الله أوحى إلى داود عليه السلام:—

(يا داود، حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات، فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عنى محجوبة) [1] ومن أدوائها كثرة السهر فى طاعة الله والصمت إلا عن ذكر الله، ومداومة الذكر بما يأمر به الشيخ والمحافظة على حدود الشريعة وآداب الطريقة، ولقد مثل فى ذلك (النفس كالفحمة كلما غسلتها بالصابون ازداد سوادها، فإذا أشعلت فيها النار ونفخ فيها الريح كستها النار، وغيرت لونها وجوهرها ولم يبق لون الفحم ولا جوهره، وما النار إلا الرياضات والمجاهدات واتباع الآداب السابقة حتى يتغير جوهرها).

وثمرة هذا الجهاد: نزول المريد فى أول منازل القرب، ومراتب السعادة وهو توحيد الأفعال؛ فيشهد بعين بصيرته شهود ذوق لا شهود عين أنه لا معطى ولا مانع ولا محرك ولا مسكن غير الله.

وعلامة هذا أنك لا ترجو غيره، ولا تخاف مما سواه، ولا تكره مخلوقا، ولا تؤذى إنسانا، وترى بعين البصيرة أن الكل مسخر، وأن الله آخذ بناصية الجميع، فيذهب ذلك غمك وطمعك، وكلما طرح المريد صفة ذميمة، عوضه الله ضدها صفة حسنة، ويرى عيوب نفسه، فيسعى إلى الخلاص منها، فعلى المريد فى هذا المقام أن يصحبه الخوف

---

[1] رواه أبو نعيم فى الحلية عن أبى سليمان عن أبى الأشهب.

والرجاء، والوقوف على آداب الشريعة ومحاسبة نفسه فى كل ساعة، وتخويفها بالموت وعذاب القبر، مع ملازمة الذل والانكسار والمسكنة والتقرب إلى الله بأنواع النوافل المأذون له فيها، ويتخلى عن كل نسبة.

(٢) النفس اللوامة

فإذا بدّلك الله أوصافا حميدة بدّل أوصافك الذميمة وشاهدت بعض الأسرار والعجائب المخزونة فى صدف بشريتك فلا تغتر بما تراه ولا تقف عنده، وحينئذ تكون قد انتقلت إلى مرتبة النفس اللوامة، وسميت بذلك لأنه كلما وقع صاحبها فى مخالفة لامته، ومن صفات تلك النفس: الهوى والمكر والعجب والرياء والظلم والغيبة والكذب والغفلة وحب الرياسة وحب الشهرة وربما بقى معها بعض صفات من صفاتها الأمارة ولكنها مع ذلك ترى الحق حقا والباطل باطلا رؤية أقوى وأعرف من سابقتها، إلا أن طبعها البشرى ما زال يغلب عليها ويجعلها تتصف بتلك الصفات، فتأتى من القبائح ما قد سبق، وبعد أن تقع فى الخطأ تندم وتلوم، أما الأمارة فلا ندم ولا لوم، وما كان للنفس اللوامة هذه المنزلة وتلك المكانة إلا لما منحها الله من نور ملكوتى أنار الله به قلب السالك يريه الحسن حسنا والقبيح قبيحا، ويبعثه على التخلص من مذامه، والتحلى بمكارم الأخلاق، ومع هذا لا تقدر على الخلاص من كل صفاتها الذميمة مع جهادها فى موافقة الشرع ما أمكن، ولذا نجد لها صالحات من قيام وصيام وصدقات، ولكن يدخل عليها فى تلك الأفعال العجب والرياء، وحب المحمدة والثناء ورؤية الخلق.

والواجب على صاحب تلك النفس التخلص من خصلتى الرياء والعجب وذلك بما يودعه الله فى قلبه من أنه هو الذى سيحاسبه، وهو الذى منحه كل ذلك، فكيف يعجب بفعل غيره؟ وكيف يلتفت إلى الناس وهم مثله؟ لا يستطيعون نصر غيرهم ولا أنفسهم ينصرون فكيف يرائيهم ويرجو منهم ثناء أو عطاء؟ هذا إذا لم يتحقق بوحدة الأفعال تحقيقا صادقا يرى معه أنه لا فاعل فى الحقيقة إلا الله، فإذا تحقق بذلك فلا عجب ولا رياء، وعليه بعد ذلك أن يشتغل بالحمد والشكر لمن خلصه، ومع ذلك كله نجد صاحب تلك النفس كثير الخواطر والوساوس والإنكار، فليستعن بالله على التخلص منها مع الاستعانة بالشيخ الذى يكلفه بعض الأذكار التى تقطع عنه كل ذلك،

وعليه بمداومة الذكر أيضا، والاستعانة بالله على تلك النفس كما استعان به سبحانه وتعالى على نفسه السابقة حتى يخلصه من كل ما يحول بينه وبين الوصول إليه.

(٣) النفس الملهمة

فإذا تم له ذلك انتقل إلى المقام الثالث من مقامات النفس وهو النفس الملهمة، وسميت ملهمة لأنها بدأت تأتيها هواتف الحق فتدعوها إلى الخير وتلهم الرشد فى أعمالها، وأن الله ألهمها فجورها وتقواها، وسارت تفرق بين لمة الملك، ولمة الشيطان، وإلهام الرحمن.

وحالها العشق، وصفاتها الحلم والسخاء والقناعة والتواضع والتوبة والصبر وتحمل الأذى والعفو عن الناس، وحسن الظن بهم، وقبول عذرهم، وشهود أن الحق آخذ بناصية كل دابة، فهم مجبورون على اختيار ما هم فيه، فلا يبقى لك اعتراض على مخلوق.

ومن صفاتها أيضا البكاء والهيمان، وحب الذكر، وبشاشة الوجه، والفرح بالله، والتكلم بالحكم والمعارف، والإعراض عن الخلق، والاشتغال بالحق، وصاحب هذا المقام فى خطر عظيم، إذ يخشى عليه إن غفل عن نفسه أن يرجع إلى سجن الطبيعة، فينقطع ويرجع إلى ما كان عليه من الصفات الذميمة، نعوذ بالله من ذلك، ولا يخلصه من مزلقه هذا ووعر طريقه إلا متابعة تامة، وتمسك حقيقى بشيخه الذى وثق فيه تمسك الأعمى بالمبصر على شاطئ النهر، وليفاتح شيخه بما يعترضه أو يخطر بباله، ليسرع الشيخ إلى تخليصه حتى يطمئن عليه ويسكن اضطرابه.

وصاحب النفس الملهمة مقامه جامع للشر والخير، فيكاد يكون فى برزخ يجمع الصفات الذميمة والصفات الحميدة وعليه أن يغلب الثانية على الأولى، وعلامة ذلك أنه يحس فى باطنه أنه بالإيمان معمور، وأن ما فى الوجود جار على وفق الإرادة، ولا اعتراض على الحق فى مقضياته أو مقدراته وأن ظاهره بالشريعة مشغول، متلبسا بالطاعة، مجافيا للزلات فى سره وعلنه، وخلوته وجلوته، وعلامة غلبة الصفات الشريرة عكس ذلك.

وليعلم أن رضا الله لا ينال إلا بطاعته وأن تجلياته لا ترد إليه إلا بامتثال أوامره، فإذا جافى ذلك ردته معاصيه عن أبواب مولاه وحرم المناجاة التى هى أهم حالات تلك النفس، وانكسفت بوارق أنواره وغابت أقمار الحقيقة عنه وتاه فى دياجى بشريته وظلمات هواه والعياذ بالله، وصدق من قال (ما رجع من رجع إلا من الطريق).

(٤) النفس المطمئنة

فإذا ما خلصه مولاه. وتوالت عليه الهواتف ولم تغب نجومه ولم تغرب أقماره فقد تخطى العقبات وأصبح فى مأمن من العثار والزلات بذلك يكون قد تخلص من جميع آفات النفس، ومقتضيات البشرية وبدا فى مقام الكمال وأمن من المكر والتلبيس؛ إذ قد حل فى حضرة التقديس ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحجر:٤٢] وهو مقام النفس المطمئنة، ولتذكر أننا كنا مع شيخنا وهو يذكر لنا هذا المقام من أحوال النفس فقال (نعم من دخل حضرة التقديس فهو فى مأمن من التلبيس ومن الرجوع والتنكيس واستراح من جهادها) وأشار إلى بعض الحاضرين وأنه قد جاز هذا المقام وعقب بعد وقال (ولكن لا يأمن مكرها فليرعها ويحذرها وإن كان قد تخلص من شرها).

ومن صفات تلك النفس المطمئنة الجود والتوكل والعبادة والتذلل والرضا والشكر والخشية، واتباع الكتاب والسنة بحيث لا يخرج صاحبها عن الأمر التكليفى قيد أنملة.

وعلامة دخول السالك فى هذا المقام الاجتهاد فى القيام بأوامر الشريعة والتخلق بأخلاق سيد الخلق ﷺ.

وسميت تلك النفس بالمطمئنة لأن صاحبها فى مقام التمكين ولا يعمل إلا على اليقين وقد امتلأ قلبه بالإيمان الكامل، وصاحب هذا المقام تلتذ به أعين الناظرين وتصغى لأقواله مسامع السامعين ولو تكلم دهرا لا يمل كلامه، لأن لسانه يترجم عما ألقاه الحق فى قلبه من حقائق الأشياء وأسرار الشريعة، ولا يتكلم كلمة إلا مطابقة لما قاله الله ورسوله ﷺ، دون مطالعة فى كتاب أو سماع من أصحاب، وينادى صاحب هذا المقام فى سره من قبل الله (أنا سرك أيها الحبيب وأنت سرى، فقر عينا وطب نفسا) أو أى عبارة يعرف بها أنه من الله وبالله، وعندئذ يطمئن مما كان فيه من الاضطراب،

ويحظى باليقين، وينبغى لصاحب هذا المقام أن يترجم لإخوانه الصادقين عما فى قلبه من حكم، ويحسن إليهم كما أحسن الله إليه، وليكن مع هذا له وقت خلوة بينه وبين ربه، إذ الخلطة التامة لا تناسبه، ويخاف عليه أن يحرم الترقى إلى باقى المقامات، وسيظهر على يد صاحب هذا المقام كثير من المقامات والكرامات فلا يتعلق بها ولا ينظر إليها، بل يطلب من ربه ألا يظهره على شىء منها لئلا يتعلق قلبه بها فيحرم القرب، إذ لا يصل إليه إلا عبيد قد أفنوا حظوظهم، وانقطعت شهواتهم حتى شهوة القرب نفسها.

ولذا ترى الكمل إذا أظهر الله على أيديهم كرامات يتغافلون عنها ويندمون عليها ندمهم على المعصية، إذ قرة أعينهم العبودية المحضة، قائلين (الاستقامة أكبر كرامة، وعبودية مع استقامة خير من ألف كشف مع كرامة).

وعليه أيضا ألا يغفل عن نفسه، ولا يأمن شرها، فإنها عدو واقف له بالمرصاد والعدو لا يؤمن غدره، حتى ولو صار صديقا، وقد يعرض لصاحب هذا المقام حب الرياسة والشهرة والتعرض للمشيخة والإرشاد، فعليه أن يتباعد عن ذلك ويجاهد نفسه فى الخلوص منها، حتى يقيمه الحق فى مقام الرياسة والإرشاد.

(٥) النفس الراضية

فإذا أتم صاحب هذا المقام ما سبق، وما زلت قدمه عن اتباع الكتاب والسنة، جذبته الألطاف الإلهية جذبة كمال أخرى، ونودى عليه ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾ [الفجر:٢٧،٢٨].

وعلامة وصوله إلى ذلك أن يعتريه النسيان، ولا يذكر شيئا من أمور الدنيا والآخرة إلا إذا كان حاضرا عنده ومتى غاب عنه لم يذكره؛ لأن قلبه لم يفتر عن مشاهدة الحق، مطمئنا لجماله وجلاله، وبهذا يكون قد ترقى صاحب تلك النفس ونال مقام النفس الراضية، ولها من المحاسن والكمالات ما لا يقع تحت حصر، ويكفيه أنه فى مقام الرضا إلا أنه يظهر منه الزهد الحقيقى وهو عما سوى الله لا زهد الماديات والدرجات.

وليتصف أيضا بالورع وهو مقام سام إذ إنه يتورع فى كل شىء حتى النظرة والكلمة وكل أنواع الفضول، ويتسم بسمة الإخلاص، وحسبك به مقاما إذ يقول الحق سبحانه وتعالى فيه "**الإخلاص سر من أسرارى استودعته قلب من أحببت من عبادى لا يطلع عليه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده**".روى عن الحسن مرسلا فى كتاب الإحياء.

وترى صاحب هذا المقام مهتما بالوفاء التام لكل أمر من أوامر الشريعة أو أدب من آداب الطريقة، ولا ترى عنده انزعاجا لوقوع مكروه إذ لا اعتراض منه أصلا، لأنه مستغرق فى شهود الجمال، مشغول بعالم اللاهوت، غريق فى بحر الآداب مع الله، ومع هذا كله لا يحجبه حاله ذلك عن النصيحة للخلق، ونهيهم وأمرهم، وصاحب هذا المقام لا ترد دعوته، ومع هذا لا ينطق لسانه بالسؤال حياء وأدبا، وإن دعا فعبودية وهو عزيز مهيب، محترم لدى الأصاغر والأكابر نودى عليه من حضرة القرب ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ ايوسف:٥٤].

ويجمل به ألا يركن إلى الناس لتعظيمهم إياه لئلا تمسه نار طبائعهم، ولا تصيبه عدوى بشريتهم، إذ إن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها، وليتمسك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود:١١٣].

ولينظر إلى الله فى إقبالهم وإدبارهم، وفى إعطائهم ومنعهم ولا يتمنى غير ما يريده الحق، إذ ذلك دسيسة نفسية.

نعم وإن كان لا يُخاف عليه من دسائس النفس فى مقامه هذا، إلا أن الحذر أولى وأفضل.

(٦) النفس المرضية

فإن تمكن فى مقامه السابق وترقى منه إلى منازل الأحباب، واتصف بالكمال، وخلعت عليه خلع الرضوان، أصبح فى مقام (كنت سمعه وبصره) وهو مقام النفس

المرضية وسميت النفس فى هذا المقام بالمرضية لأن الله قد رضى عنها ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المجادلة: ٢٢] وعجائب هذا المقام وكمالاته، وحظه الوافر من المحبة ما لا يدخل تحت حصر، ويظهر عليه من الأخلاق مكارمها، وتراه بحق تاركا ما سوى الله، قد تجمل بالرحمة للخلق، وتحلى بالصفح عنهم وأحبهم، ورجا إخراجهم من ظلمات طبعهم بما يقوم نحوهم من النصح لله، والسعى فى تخليصهم مما هم فيه ليجمعهم على خالقه.

وهذا شيء عجيب لا يتيسر إلا لصاحب هذا المقام، ولذا نجده لا يتميز عن عوام الخلق بحسب ظاهره، أما باطنه فهو معدن الأسرار وقدوة الأخيار، ليس فى شهوده شيء من الأغيار من حيث هى أغيار، وهو دائرة العلم اللدنى، ومن صفات صاحب هذا المقام الوفاء بالوعد، ووضع كل شيء فى موضعه، فينفق الكثير متى صادف محله، فيظن الجهول أنه أسرف، ويبخل بالقليل إن لم يصادف محله، فيظن أنه بخيل.

ومن صفات صاحب هذا المقام كذلك الاعتدال إذ هو دائما فى كل أموره فى المقام الأوسط بين الإفراط والتفريط، متحليا بالحديث "خير الأمور أوساطها" رواه الديلمى عن ابن عباس.

وهذا الحال يدعيه كل إنسان ولكنه لصاحب هذا المقام حقيقة، ويظهر الفرق بين المدعين، والمتمكنين من أمثال صاحب المقام عند الامتحان، فلا يقدر على ذلك غير أهله، وأنه لبعيد المنال إلا على المتمكنين من الرجال، وكما قلنا آنفا إن صاحب هذا المقام فى أول أمره تلوح له بشائر الخلافة، وتخلع عليه خلعة (كنت سمعه وبصره) وبعد التمكن فيه تكون تلك اللوائح حقائق، وهذه الخلعة مقام تمكن فيه وأدرك سره وحقيقته...

(٧) النفس الكاملة

فإذا وصل السالك إلى مقام الكنتية، (كنت سمعه وبصره) إلخ دل ذلك على أنه انمحقت صفاته البشرية، ورجع إلى الصورة الآدمية التى حقيقتها (الحقيقة المحمدية)، وهو سر الله الأعظم، وغاية القرب من حضرة الرب، فيدرك نفسه على حقيقتها،

ويعرفها بالذل والفناء، ويعرف ربه بالعز والبقاء، متحققا بقولهم (من عرف نفسه فقد عرف ربه)، ومتى كوشف بذلك جذب جذبة تامة، وصار مستقيما الاستقامة الكاملة، متمسكا بآداب الحضرة، متأدبا فى كل حال بما يناسبه فلا يشغله جمعه عن فرقه ولا فرقه عن جمعه، ولا شريعته عن حقيقته ولا حقيقته عن شريعته، يعطى كل ذى حق حقه، وهذا هو غاية الكمال ومنتهى ما يصبو إليه الإنسان، وهو أن يكون على صورة الرحمن، قد تخلق بأخلاق الله ونودى عليه ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سورة ص: ٢٦] وهذا هو مقام النفس الكاملة وهو أعظم المقامات وأرفعها، قد كملت فيه سلطنة السالك على نفسه، وانتهى من المكابدة والمجاهدة ووصل صاحبه إلى علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، واتصف بجميع المحامد، ولا همّ له ولا مطلب سوى رضوان مولاه، حركاته حسنات، وأنفاسه قدرة وحكمة وعبادة، من الذين يصدق فيهم قوله: (الذين إذا رءوا ذكر الله) إذ هو بحق دال عليه، وهاد موصل إليه، لا يفتر عن العبادة أبدا بجميع جوارحه فضلا عن سره وقلبه، ومع هذا تراه كثير الاستغفار، جم التواضع، سروره فى توجه الخلق لربهم، وحزنه وهمه فى إدبارهم، يحب طالب الحق أكثر من محبته ولده لصلبه، تراه كثير الأوجاع، قليل القوى ضعيف الحركة، ليس فى قلبه كراهية لمخلوق، لا تأخذه فى الحق لومة لائم، يرضى فى عين الغضب، ويغضب فى عين الرضا، يضع كل شىء موضعه متى توجهت همته إلى كون من الأكوان أوجده الله على وفق مراده (إن لله عبادا إذا شاءوا شاء) ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]. قد انطوى مراده فى مراد الحق، وهذا غاية المقامات.

ومع ما سمعت فى شأنه ذلك فلا يأمن نفسه وشيطانه؛ إذ لا يتخلص أحد من وساوسها مادام حياً، وإذا كان سيد الخلق يستغفر الله وله شيطان إلاّ أن الله أعانه عليه فأسلم، فليس هذا الإنسان مهما بلغت درجة كمالاته بأفضل من سيد الخلق ﷺ.

نعم وإن كانت لا تؤثر فيه الوسوسة مصداقاً لقول الحق ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] فالمنفى سلطانه على قلوب عباده دون خطراته ووساوسه، فليتفطن لذلك فإنه عزيز.

هذا ما تيسر لنا إجماله، وما أمكننا جمعه من حالات النفس ومراتبها وعلامات كل مرتبة، وأمارات كل حالة وسبل العلاج، وما ينبغى للمريد عمله فى كل حال ولكل مشربه وطريقه ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠].

فيجب على المريد أن يعلم مشربه، ونوع ورده، وليتذوق شرابه ليدرك ما فيه كى ينال فضله وينتفع به، وكيف يصدر عن ورده وقد امتلأ، وكيف يتصرف فيما منّ الله به عليه فيكون ممن انتفع ونفع، أفاد نفسه ونفع غيره.

كل ما سطرناه هنا قد التقطناه من وصايا وأحاديث شيخنا ﷺ فى مجالسه العديدة مع مريديه، وقد كان ﷺ يذكر لنا كل حالة من حالات النفس ويبسطها ويشرحها حسب المناسبات والظروف، وقد يكرر الحديث فى المقام مرات لضرورة لازمة، وأحياناً يجمل وتارة يبسط، مراعياً مقتضيات الأحوال ودرجات السامعين من الرجال والمعنيين بالمقال، فتارة يطير بنا فى آفاق علوية ومشاهد ملكوتية، وأخرى يضرب لنا الأمثال بالمشاهد المحسوس، ليعلم ذوو النفوس كل ذلك، رجاء تشرب القلوب للموعظة، وإدراك العقول لما يصور ويقول.

ويلاحظ أن الطريق ما هو إلا تربية للنفس وتهذيب لها، فمن أراد الرقى والوصول فعليه بحفظ تلك الأصول، وليحذر النفس فإنها خادعة، ولا يغتر بمسالمتها فإنها عدو خبيث ينتهز الفرص، ويتحين الظروف فإذا وجد غفلة من العبد انقض عليه وكشف له عن أنياب الغدر والخيانة، فلا يأمن مكرها راغب فى طريق القوم، مهما خيل إليه أنه تخلص منها، فقد تدخل عليه بمداخل يظن فيها الخير كأن تأتيه من باب العبادة والطاعة، فيلبى طلبها ويسعى فى رغبتها، وفى ذلك حتفه ولا يدرى، ولا يبصر المريد بنفسه ومعرفة ألاعيبها وإدراك حيلها وكشف مؤامراتها إلا طبيب حاذق، وشيخ عارف ومسلك راشد، خبر الطريق وسبر غورها وعرف النفس وخدعها، فليعرض المريد أمره على شيخه فى كل خطرة من خطرات نفسه لئلا تقتنصه وتقطع عليه الطريق والعياذ بالله، نسأله سبحانه الحفظ من مكرها والعون على قيادها حسب أمر ربها.

وإتماما للفائدة نقول: إن النفوس السبعة هو تقسيم أو اصطلاح السادة الخلوتية أما ساداتنا الشاذلية فعندهم النفوس ثلاثة: أمارة ولوامة ومطمئنة، فأدخلوا الملهمة فى

اللوامة وأدخلوا الراضية فى المرضية والكاملة فى المطمئنة، ووجه ذلك أن النفس اللوامة إذا أكثر منها اللوم،وصارت عيوبها بين عينيها فاشتغلت بها عن غيرها فهى الملهمة، وإن المطمئنة إذا ترقت فى الكمالات رضيت بما قضاه الله وقدّره، فجوزيت بالرضى من خالقها، فإذا زاد ترقيها كملت، فهذه المطمئنة وزيادة فلا خُلف بينهم.

وعند سادتنا القادرية النفوس ثلاثة لوامة وملهمة ومطمئنة وبعض أهل الطريق يزيدونها على تلك الأسامى باسمين المسولة والمطوعة.

ولا تقطع عقبات هذه النفوس السبعة إلا بالأذكار السبعة الآتية:

الأول منها (لا إله إلا الله) مائة ألف مرة، وهو للنفس الأمارة سميت به لأنها تأمر صاحبها بالسوء ولون نورها أزرق.

الثاني(الله) مائة ألف وهو للنفس اللوامة، سميت بهذا لأنها تلوم صاحبها بعد وقوع المعصية ولون نورها أصفر.

الثالث (هو) تسعون ألف مرة وهو للنفس الملهمة، سميت به لأنها تلهم صاحبها فعل الخيرات ولون نورها أحمر.

الرابع (حق) سبعون ألف مرة وهو للنفس المطمئنة، سميت به لأنها اطمأنت وسكنت من اضطرابها وسلمت للأقدار ولون نورها أبيض.

الخامس (حى) تسعون ألف مرة وهو للنفس الراضية، سميت بهذا لكونها رضيت من الله بكل حال ولون نورها أخضر.

السادس (قيوم) خمسة وتسعون ألف مرة وهو للنفس المرضية، سميت بهذا لكونها صارت مرضية عند الحق والخلق ولون نورها أسود.

السابع (قهار) مائة ألف مرة وهو للنفس الكاملة، سميت بهذا لكونها كملت أوصافها وصارت رحيمة بجميع الخلق؛ فتحب للكافر الإيمان وللعاصى التوبة من

العصيان وللطائع الثبات على طاعة الرحمن، وليس لها لون مخصوص فنورها متموج بين هذه الأنوار الست وعالمها الخيرات ومحلها الخفاء لأنها رجعت بحسبه إلى حال العوام، وسبب ذلك أنها أمرت بالرجوع إلى الخلق لأجل تكميلهم، ولا بد من حصول النسبة بين المرشد والمسترشد، قال الله تعالى ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨] ومتى وصلت النفس إلى هذا المقام صارت ريحانة الله فى أرضه محبوبة لله ولخلقه، بدلت بشريتها ملَكية وعبوديتها سيادة وعقلها حسا وغيبها شهادة، وباطنها ظاهرا، وانقطعت إلى العلى الأعلى، وتلك السعادة الكبرى، ما سبق ذكرناه من مراتب النفس عند المسلكين على اختلاف طرقهم.

التحذير من النفس

نعود إلى بيان التحذير من النفس مهما كملت فنقول:

وخير عبرة نسوقها فى هذا الصدد حذرا منها، ويقظة لخدعها وعدم الأمان لها مهما ارتقى العبد مع ربه، ما حدث لشيخنا ﷺ بعد ثلاث سنوات كاملة قطعها فى جهاد متواصل وخلوات متتابعة، فقد رأى فى منامه مربيه الأعظم صلوات الله وسلامه عليه يبشره بالوصول إلى الله، وفى الوقت نفسه يحذره مع هذا الوصول من خدع النفس وألاعيبها الخفية، وأن لا أمان لشرها بأى حال من الأحوال، وزيادة فى الحذر أتى له بفرس قد ربطت، وقيل له: هذه الفرس مع تمكنك منها وإمساكك بزمامها، وإحكام قيدها فلا تأمن لها فقد تفلت منك، ويستعصى عليك قيادها، فهذه صورة النفس قد صورناها لك، فلا تطمئن لجانبها مهما كان وصولك، فكن لها دائما مراقبا ولخواطرها مترصدا.

وحقا ما دام العبد فى دار البلاء والتكليف وفى هذه الحياة فلا بد من آثار لبخار نفسه، وهوى طبعه، وغبش حسه، ولا تتم له الراحة والخلوص منها إلا بخروجها من غلاف جسمانيته، وانتقاله من هذه الدار الفانية، إذ الجسم تكوَّن من طين متعدد العناصر متنوع المعادن، ثم كان صلصالا فيه بخار ونار وهوى وشهوة وأبلسة لاشتراكهما فى عنصر النار، كل ذلك يجعل العبد دائم الحذر والفرار إلى ربه واللجأ إليه إذا عارضته وتأبّت عليه، فما دام فى هذه الدار لا يستريح فؤاده ولا يهنأ باله، ولا

يستقر حاله إلا فى دار القرار، جمعنا الله فى صحبة ساداتنا الأخيار فى تلك الدار وخلصنا من هوى النفوس، كى نحظى بحضرة الملك القدوس.

ومن وصاياه ﷺ فى التحذير من النفس قوله :(يا أولادى لا يؤمن جانب النفس بحال من الأحوال مهما كان العبد فى أرقي المراتب وأرفع الدرجات، وإذا كان المعصوم سيدنا يوسف ﷺ يقول ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣] وما روى عن سيد المعصومين ﷺ (أنه رئى مرة وهو يخلع خاتمه، فلما سئل فى ذلك قال: أعجبنى نقشه، فنزعته)، وكذا خلعه ﷺ نعله لما أعجبه شراكها، تأمل منتهى الكمال فى التبرى من الالتفات إلى السوى وتمام صدق التوجه إلى المولى، وانظر إلى عمر بن الخطاب ﷺ وقد رئى مرة يحمل على ظهره قربة ويسقى الناس فى شوارع المدينة أيام خلافته، فلما سئل قال: (دلّت على نفسى فأردت أن أؤدبها).

وأيضا لما خطب الناس مرة وفى أثناء وعظه فإذا به يقول: (ماذا أنت؟ كنت عميرا فصرت عمرا، كنت ترعى أغناما لخالات لك على تمرات) وأخذ يذكر من أخباره الماضية الكثير ثم رجع إلى وعظه، ولما سأله ولده عبد الله، قال أعجبت بنفسى فأردت أن أعرفها ما كانت عليه أولا.

وانظر ما روى عن سيدنا سليمان ﷺ أنه نظر إلى مملكته يوما فأمر الله تعالى الريح فكشفت عورته، فقال للريح (ردى على ثوبى) قالت له الريح: (رد قلبك إلى مكانه).

وأيضا لما أعجبه يوما البساط وعليه الجنود وتظللهم الطيور فهبط البساط لساعته.

وكذا ما روى عن أحد الأبدال أنه طار مرة وبينما هو طائر التفت إلى نفسه فسقط لتوه، ولولا لطف الله وأنه كان قريبا من شاطئ البحر لغرق فيه، ذكر ذلك فى كتاب أحوال أهل الحقيقة لسيدنا الرفاعى ﷺ.

ومن ذلك ما قصه علينا شيخنا ﷺ فى آخر حياته بعد كماله، أنه جلس مرة بين أسرته يسامرهم وفتح لهم صدره ليدخل عليهم الأنس والسرور ويتعرف على أخبارهم

وحاجاتهم ويلبى مطالبهم، إذ هو يقضى يومه بين الناس فى استقبال القاصدين وإرشاد السالكين فكان يجعل لهم وقتا بعد العشاء إذ هم أهله ولهم حق عليه، فلما زاد أنسهم به، طالبوه بشيء مما شاهده من الغيوب فى خلواته، وأغرب ما رأى مع المحبوب فى تجلياته وبالغوا فى الإلحاح عليه، فلما رآهم كذلك أجابهم رغبة فى برهم وتشويقهم بالعمل والجد كى يحظوا بما وصل إليه، وكان ما ذكره بالطبع غريبا عليهم، إذ ذكر لهم بعض مشاهداته للحق فى حضراته والهواتف التى سمعها، وبعض العلوم التى حظى بها، والواردات التى أفيضت عليه، والمنازل التى حل بها، والمقامات التى تخطاها إلى آخر ما ذكره لهم، فأخذهم العجب والدهش وعرفوا مكانة أبيهم من ربه ثم تفرقوا إلى مضاجعهم، إلا أنه لما نام ﷺ حوسب على ذلك كثيرا وعنف وذكّروه (ألم تعلم أن إذاعة أسرار الربوبية كفر وأنه لا شك لنفسك فى هذا حظ وميل)، ثم أتوا برصاص مذاب ووضعوه على جملة مواضع من جسمه حتى كان فى غاية الألم، ولما أصبح نادى أهله جميعا وقال لهم (ما قلت لكم بالأمس لم يكن لى وما كان منى بل هى مشاهد لبعض رجال الله ذكرتها لكم فأحببت الآن أن ألفت نظركم لئلا تنسبوها إلى) وأبطل لهم ما عرفوه عنه وأفهمهم أن ما ذكره لهم بالأمس لغيره لا له كى يسلم من هذه التبعة ويخلص من خطر هذه المقالة.

فانظروا بعد بلوغ ذلك الكمال ونيل هذا الوصال يحاسب ويعذب الإنسان على ما يكون فيه للنفس حظ أو لها فيه وطر.

واعلم أن الالتفات إما بالعين أو بالقلب، فالتفات العين مثل ما قال الله لحبيبه سيد الخلق ﷺ ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ [طه: ١٣١] فكان إرشادا للأمة وإن لم يكن منه ﷺ التفات، ولذا مدحه بقوله الدال على تركه الالتفات ﴿ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧] ولا أدل على ذلك من قوله ﷺ "أتانى جبريل بمفاتيح خزائن الدنيا فلم التفت إليها ولم أقبلها".

وأما التفات القلب، فما حكى عن فتح الموصلى أنه عانق صبيا له وقبله فنودى من الهواء يا فتح: (ادعيت محبتنا وفى قلبك حب غيرنا) فصاح وخر مغشيا عليه.

وانظر قول المحبوب المعصوم "لو كنت متخذا خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر خليلا لكن خليلى الرحمن"[1].

كل هذه القصص وغيرها نسوقها فى هذا المجال ليظهر للسالك تماما حقيقة النفس، وأنها ما دامت فى هذا العالم فهى كجمر تحت الرماد، وكعدو دائما لعدوه بالمرصاد فلو وجد منه غفلة أو حانت منه نظرة أو لفتة أظهر غدره وأبان شره، وكم قطع الالتفات على قوم طريقهم وأفسد عليهم أمرهم، إذ قالوا: (متلفت لا يصل) فإن الحق سبحانه وتعالى يغار على أحبابه لأنهم عرائس حضرته، ولا يحب أن يرى محبا له أو محبوبا ملتفتا لسواه لئلا يسقط من عين رضاه، فليجعل العبد كل همه مولاه و ليعلم أن الله غيور (ولا أحد أغير من الله)[2].

---

[1] متفق عليه من حديث أبى سعيد الخدرى ﷺ

[2] عن ابن مسعود ﷺ فى الصحيحين.

مقدمة

الأدب جماع كل الفضائل، والأدب كله فى حسن المعاملة لله سرا وعلانية، وفى الصدق فى القول والعمل، وكما أن أدب أهل الدنيا فى الأشعار، ومسامرة الملوك، وفى العلوم والفنون فأدب أهل الدين فى معرفة أصول الشرع، وجمع النفوس على ربها وتطهيرها من عيوبها.

أما أدب الصوفية ففى مراقبة قلوبهم، وحفظ أحوالهم وملاحظة أنفاسهم، ورعاية آداب الطريق فى كل أمورهم، وقد سبق كثيرا أن مدار الطريق على الاجتماع بشيخ كامل مرب عارف، مأذون له فى التسليك، والانقياد لأمره والتسليم له والقيام بواجب الخدمة التامة، والتفانى فى حبه، والإخلاص له، وحقا إن الطريق كله أدب، أدب مع الله، وأدب مع رسوله، وأدب مع الشيخ، وأدب مع نفسه، وأدب مع الإخوان، وأدب مع سائر الناس، لذا ناسب لنا ذكر نبذة عن جملة أدب المريد.

أما الأدب مع الله فقد تكفَّلت الشريعة ببسطه فى الأمر والنهى، والأدب مع الرسول ﷺ فقد بينته السنة، وذلك باتباع ما سن، والعمل بما أرشد إليه، ومع ذلك سنذكر طرفا من كلٍّ فيما بعد إن شاء الله.

أما الأدب مع الأشياخ والإخوان فهذا هو المعنى للمريد فى الطريق.

آداب المريد مع شيخه

إن غاية طالب الحق عز وجل الاجتماع بشيخ عارف يربيه ويدله على الطريق المستقيم، ويحذره آفات النفس، وغوايات الشيطان، فإن لم يكن للمريد شيخ لا يفلح أبدا، وهذا أبو اليزيد يقول: (من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان) وقال سيدى أبو على الدقاق : (الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق ولكن لا تثمر)، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته، نفَسا نفَسا (أى درجة درجة، ومقاما مقاما) فهو عابد هواه، فإذا ظفر المريد بشيخ عارف فقد نال بغيته، ووجب عليه أن

يتأدب معه؛ لأنه إذا رأى الشيخ أن مريده يعرف حقه، ويقدره حق قدره، ويتحلى بحلل الأدب معه، رباه بألطف شراب، وسقاه من ماء التربية الشراب الصافى، ولاحظ باطن سره، ومرضى فعله، فما أسعد من حسّن أدبه مع شيخه، فإنه يفلح نجحا وصلحا وينفلق له من الدجنة صبحا، وقد استقينا آدابا كثيرة من حديث شيخنا رضى الله تعالى عنه معنا وملاحظته لنا، ومراقبته لفعالنا، نذكر لك أهمها:

١- أن تكون بين المريد وشيخه رابطة قوية، مبنية على حب صادق له، تتلاشى فيه الأهواء والحظوظ النفسية، والعلل المادية، والمآرب الشخصية، وفى هذا يقول سيدى إبراهيم الدسوقى ﷺ: (ما دمت أنا أنا، وأنت أنت فلا محبة، إنما المحبة ممازجة الأرواح والأجساد) ثم يقول: (من اشتغل بمحبة شيخه ترقى إلى محبة الله عز وجل له).

٢- أن يخدم المريد شيخه خدمة صادقة مع صبره على صحبته ما دامت الصحبة فى حب الله عز وجل، فإذا بدا منه جفاء أو إعراض، أو شدة فى كلامه، أو عنف فى حديثه؛ فيلزم الصمت ولا تسرح فى نفسه الخواطر، ولا تستولى عليه الوساوس، فإن ذلك لحكمة لا يعرفها المريد، وفى ذلك يقول سيدى إبراهيم الدسوقى ﷺ: (يا أولادى إن صحبتم غيرى من بعدى، فاصبروا على جفاه، فإنه ربما امتحنكم ليريد بكم الخير، وأن يجعلكم محلا لأسراره، ويرقيكم بذلك إلى معرفة ربكم).

٣- التسليم لأمره والسمع والطاعة لقوله، واجتناب نهيه من غير استفهام، فإن مخالفة الشيخ موجبة للمقت والطرد، والسقوط من عين الحق، وفى ذلك يقول بعض الصوفية:(رأس مال المريد المحبة والتسليم، وإلقاء عصا المعاندة والمخالفة، والسكون تحت مراد شيخه وأمره) وقد قيل: (إذا سلم المريد لشيخه سَلِم من القطيعة عن طريق الله، والمعارضة له والانتقاد، لأن من عارض شيخه، وتلفت إلى غيره، قطع عنه الإمداد وهو لا يشعر، وحجب عن الوصول وهو لا يعلم، فمن قال لشيخه لم؟ لا يفلح) وانظر قول الحق سبحانه فى أدب الصحابة مع الرسول ﷺ: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢].

فمهما كان للمريد فى نظره من رأى صائب أو سلامة فى التفكير فهذا فى مدارج العقول عند ذوى النفوس، وليس فى باب التربية والسلوك والتهذيب له نصيب، فحقا كما قالوا: (خطأ الشيخ أصح من صواب المريد)، فليسلم لأمره، ويعمل بإرشاده، ويلحظ إشاراته، ليسلم ويغنم وهذا جماع الطريق بل كله.

٤- على المريد أن يوقر شيخه، ويجله ويحترمه، فلا يسبق شيخه أو يساويه فى مشيته، إلا إذا كان السير بليل، وهو يريد أن يكتشف مخاطر الطريق، وألا يعلو صوته على صوته، ولا يسابقه فى الحديث، ولا يجلس فى موضع جلوسه، ولا ينام فى فراشه ولا يتكئ على وسادته.

٥- ولا يجوز للمريد أن يتكلم فى الطريق وفى التربية وفى علوم القوم إلا بإذن من شيخه فى حضرته أو غيبته، فإذا تكلم المريد من غير إذن شيخه، خرج كلامه مكسوف الأنوار، ذلك لأنه شهوة نفسية، وصفة دنيئة.

٦- وعلى المريد أن يحفظ حرمة شيخه، فلا يتجسس على أحواله ولا يلبس أثوابه، ولا يأكل على مائدته إلا بإذنه، ولا يتكلم مع أحد فى مجلسه إلا بإذن منه.

٧- ويجب على المريد أن يقصد بصحبته لشيخه وجه الله تعالى وليحذر أن يصحبه لعلة مهما كانت، حتى ولو لنيل درجات أو مقامات، بل صحبة خالصة لوجه الله، وإلا فالقطيعة عن طريق القوم لا محالة، إن عاجلا أو آجلا، ظاهرا أو باطنا، حيث لم تكن الصحبة لله (ما كان لله دام واتصل، وما كان لغيره انفصم وانقطع).

٨- لا يصح للمريد أن يعتقد فى شيخه العصمة إذ هو ليس نبيا، بل يعتقد حفظه عن كل ما يشينه، لأنه ولى فالنبى معصوم والولى محفوظ، فلو بدا للمريد شىء فى نظره مخالفا؛ فليجعل له عدة أبواب من الصحة، ويلتمس وجه الصواب لشيخه، وإذا كان المطلوب من المسلم نحو أخيه المسلم أن يحسن ظنه به، ويلتمس له سبعين بابا من المعذرة، لئلا يقع فى عرضه فما بالك بشيخه وهو محفوظ، وليتفطن المريد أن ورود تلك الخواطر والقياس على الشيخ بميزان عقله النفسى- وهو لا شك غير سليم فى معياره

ووزنه لاختلاله- يعتبر بالنسبة للشيخ نقضا لعهده، وعدم صدق فى الإرادة فليحذر ذلك جهده.

٩- كما يجب على المريد أن يحب من أحب الشيخ ويصله ويتودد إليه، ويبغض من أبغض الشيخ ويقاطعه، فمن قاطع محب الشيخ ووصل عدوه فهو منافق فى صحبته لشيخه، شأنه شأن من يسمع فى شيخه قولا فيه ذم أو منقصة فيسكت ولم يدافع عنه وعن كرامته وعرضه بيده أو بلسانه أو بقلبه، حفظا لحرمة شيخه حاضرا كان أو غائبا، حيا كان أو ميتا.

١٠- إذا جلس المريد فى مجلس شيخه فعليه أن ينتبه لما يقول، ويلتفت لإشاراته وتلميحاته، وأن يكون حاضر القلب معه، فلا يشطح مع الخواطر فى مجلسه.

١١- ومما يرقى المريد فى طريق القوم، أن يعتقد فى شيخه أنه أكمل أهل زمنه فى الإرشاد والتربية، وأنه ليس فى عصره أحد أَوْلى بالتربية منه، فإذا اعتقد أن غيره من الشيوخ أعلى منه درجة، أو أكمل منه منزلة عند الله فلن ينتفع بشىء، ولن يصل إليه خير من جهته، فإذا أراد الفلاح اعتقد فى شيخه الكمال على كل حال.

١٢- والمريد الناجح من وفّى بعهد شيخه، وحفظ جميع ما يلقيه إليه، وراقب أنفاسه وقام بحقوقه حسب الإمكان بلا تقصير، وجعل ما بين يديه ملكا له، وروحه فداءه (العبد وما ملكت يداه لسيده) (ومن علمنى حرفا صرت له عبدا) وهو كم علمك، وأبو الروح خير من أبى الجسم.

١٣- وعلى المريد ألا يكثر النظر إليه، ولا يخفى عنه سرا وأن يذكر له ما يجول بصدره من خواطر، ولا يدخل عليه إلا بعد الإذن من خادمه، ولا يدخل فى شىء من الأسباب والعبادات غير الفرائض والسنن التابعة لها إلا بعد أمره له، وإلا فقد نقض عهده، وتُرك ونفسه ولقى حتفه إذ ما يلحقه من الضرر أكبر مما يظن أنه ناله بتلك العبادة، والوقائع تؤيد ذلك، وكم جربنا هذا كثيرا، ولا يفارق المريد شيخه حتى يأذن له، أو حتى يتم أوان فطامه عملا بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾

[النور:٦٢]. الآية، وللمريد وقت إرضاع، فإذا بلغ مبلغ الرجال بإنزال حوائجه ومهامه بالله، والفهم عن الله بتعريفاته وتنبيهاته، فيفهم ما يلقى فى قلبه وما يودع فى سره، إذ هو السائل المحتاج فإذا تم له ذلك يكون قد بلغ أوان فطامه، وهنا يقول له الشيخ: (ها أنت وربك) مع بقاء الوفاء والولاء لشيخه إذ هو مربيه، قد أعتقه من رق نفسه (والولاء لمن أعتق) [1].

١٤- ومن آداب المريد إذا زار شيخه أن يدخل عليه بالأدب والاحترام، وينظر إليه بالحشمة والوقار، فإن أهله الشيخ لشيء من الخدمة عّد ذلك من جزيل النعمة، إذ صار موضع نظره صالحا للخدمة.

آداب المريد فى نفسه

١- يجب أن يكون أول قدم له فى هذه الطريقة على الصدق ليصح له البناء على أصل صحيح، فإن الشيوخ قالوا: (إنما حرموا الوصول لتضيييعهم الأصول) كما يجب أن تكون بدايته بتصحيح اعتقاده بينه وبين الله سبحانه وتعالى بعيدا عن الظنون والشبه، خاليا من الضلالة والبدع.

٢- وعلى المريد أن يخرج من قلبه علائقه كلها وأولها المال لأنه يميل بصاحبه عن الحق، فيجعله فى يده ولا يكون فى قلبه، وما رأينا مريدا معه علاقة من الدنيا أو مال أو جاه أو ملاحظة للناس إلا جرته تلك العلاقة إلى ما منه خرج.

٣- وعليه أن يلازم موضع إرادته، لأن من ابتعد عن شيخه قبل بلوغه، وسافر إلى أماكن بعيدة عنه قبل أن يصل بالقلب إلى الرب، كان السفر للمريد سمًّا قاتلا.

٤- ليس من آداب المريد كثرة الأوراد فى الظاهر مع خلو باطنه من المحامد، فإن القوم يهدفون إلى إخلاء خواطرهم، ومعالجة نفوسهم بتخليصها، ونفى الغفلة عن

---

[1] متفق عليه من حديث عائشة رضى الله عنها.

قلوبهم فى تكثير أعمال البر، والذى لا بد للمريد منه إقامة الفرائض والسنن الراتبة وما زاد عنها فلا يعمله إلا بإذن من شيخه.

٥- ولا ينبغى للمريد أن يستأنس بما يلقى إليه فى سره، من تقريبات الحق سبحانه وتعالى ومنته عليه، فإن استمر على ذلك توقف فى سلوكه وربما اغتر وسلب والعياذ بالله، فينظر إليها أنها منن ونعم تستوجب الشكر والمزيد من الخضوع والكثير من العمل.

٦- على طالب الحق سبحانه وتعالى إذا لم يجد من يتأدب به فى موضعه، أن يهاجر إلى من هو منصوب فى وقته لإرشاد المريدين، ثم يقيم عليه ولا يبرح عن سدته إلا بإذنه.

٧- وليعلم المريد أن قبول قلوب المشايخ له، أصدق شاهد لسعادته، ومن رده قلب شيخ من الشيوخ فلا محالة يرى عاقبة ذلك ولو بعد حين، ومن خذل بترك حرمة الشيوخ فقد ظهرت علامة شقاوته وذلك شىء لا يتخلف.

٨- وعليه إذا أراد السلوك أن يتوب إلى الله تعالى من كل زلة، فيدع جميع الزلات سرها وجهرها صغيرها وكبيرها، ويجتهد فى إرضاء أرباب الحقوق أولا، ومن لم يرض أصحاب الحقوق لا يفتح له من هذه الطريقة بشىء.

٩- وألا يخطر ببال المريد أن له فى الدنيا قدرا أو قيمة أو على بسيط الأرض أحدا دونه، فإذا خطر بباله شىء من ذلك لم يصح له فى الإرادة قدم.

١٠- ويجب على المريد أن يحفظ سره عن كل أحد إلا عن شيخه، ولو كتم نفسا من أنفاسه عن شيخه فقد خانه فى حق صحبته، ولو وقعت له مخالفة، فيجب عليه أن يطلع شيخه عليها؛ ثم يستسلم لحكمه عليه عقوبة له على خيانته ومخالفته.

١١- وعلى المريد ألا يصاحب النساء الأجنبيات ولا يجالسهن، ولا يديم النظر إليهن، لأن فى ذلك قطيعة له عن طريق الحق، وقد قال شيخنا ﷺ: (إن إدامة النظر إلى الأجنبيات يُذهب نور الإيمان ويسلب العطاء الإلهى والعياذ بالله) وقد قال القشيرى ﷺ

فى رسالته: (من ابتلاه الله بشىء من ذلك فإجماع الشيوخ على أنه عبد أهانه الله عز وجل وخذله، بل عن نفسه شغله، ولو بألف ألف كرامة أهّله).

١٢- من قبيح ما يتصف به المريد حسده لإخوانه والتأثر بما يتجلى الله به عليهم من منح وأعطيات وحرمانه من ذلك، فليست الطريق دنيا يتكالب عليها ويتألم العبد لفوات شيء منها، أو لزيادة أخيه فيها، والحق أن زيادة الأخ فى طريق الله من المنح والأعطيات راجع إليك من خيره حتما، وواصل إليك من فضله قطعا، إذ لكل أخ شفاعة، وشفاعته على قدر ما وصل إليه مع ربه، وما دام القصد واحدا والغاية متحدة وهى الله فرقى أخيك عائد أثره عليك؛ إذ يفيء عليك من رفده، وينالك من عطائه، فاحذر التطلع والحقد والتحاسد لإخوانك، وتمن لهم الرفعة، وادع لهم بما تحب أن يكون لك، تنله بإذن الله، كما ورد فى الحديث **"دعاء المسلم لأخيه بظهر الغيب مجاب، ملك عند رأسه يقول ولك مثل ذلك"** رواه مسلم عن أبى الدرداء.

١٣- من جميل ما يتحلى به المريد الإيثار فيؤثر إخوانه على نفسه ولو كانت به خصاصة.

١٤- عليه بالتواضع لكل من أظهر عليه التشيخ، وإن كان هو أعلم منه.

١٥- يعين الضعيف على البر والتقوى تحقيقا لقوله ﷺ: **"المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا"** رواه البخارى ومسلم عن أبى موسى.

١٦- على المريد إذا ابتلى بجاه أو معلوم، أو ميل إلى امرأة، وخاف على قلبه منها وليس هناك شيخ يدله على حيلة يتخلص بها من ذلك، فعليه أن يسافر وأن يتحول عن ذلك الموضع حتى لا يشوش على نفسه، لأنه لا شيء أضر بقلوب المريدين من حصول الجاه لهم، قبل خمود نار بشريتهم.

١٧- على المريد أن يعرف أن بناء هذا الأمر على حفظ آداب الشريعة، وصون اليد عن مدها إلى الحرام والشبهة، وحفظ الحواس عن المحظورات، وعد الأنفاس مع الله عن

الغفلات، ودوام المجاهدة فى ترك الشهوات، فإن من وافق شهوته عُدم صفوته، وأقبح الخصال بالمريد رجوعه إلى شهوة تركها لله تعالى.

١٨- من شأن المريد حفظ عهوده مع الله تعالى، فإن نقض العهد فى طريق الإرادة كالردة عن الدين لأهل الظاهر، كما أن من شأنه قصر الأمل فإن الفقير ابن وقته، فإذا كان له تدبير فى المستقبل لغير ما هو فيه من الوقت وأمل فيما يستأنفه لا يجيء منه شيء، وأن يقصد بعمله الصالح مقاصد محمودة، فيأكل بقصد التقوى على طاعته، ويلبس قصد ستر عورته، وتحدثا بنعمة الله عليه وحفظ بدنه، وبالنوم حضور قلبه مع الله، وبجماعه عفته وعفتها عن الزنا والنظر الممنوع وحصول النسل لذكر الله.

١٩- وليحذر المريد الدنو من أبناء الدنيا فإن صحبتهم سم مجرب، لأنهم ينتفعون به وهو ينتقص بهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]. قال القشيرى ﷺ: (إن الزهاد يخرجون المال من الكيس تقربا إلى الله تعالى، وأهل الصفاء يخرجون الخلق والمعارف من القلب تحققا بالله تعالى).

٢٠- وعلى المريد أن يكون دائم الوضوء، كلما أحدث توضأ، وكلما توضأ صلى ركعتين اتباعا للسنة، وما سبق بلال ﷺ للرسول ﷺ فى الدخول إلى الجنة إلا بهذه الفضيلة، كما وضحناه سابقا، ولا يفهم أن تقدمه فى السير أمام الرسول ﷺ فى الجنة تقدم فى الفضل، فما هو إلا من قبيل تقدم الحاجب بين يدى الأمير، وألا يهمل أذكاره وأوراده التى أمر بها من شيخه.

٢١- وأن يقتدى بمن هو أهل القدوة، وأن يراقب الله فى كل أحواله.

٢٢- ألا يسرف فى طعام أو شراب أو لباس أو نوم أو كلام، لأنه أُثر عن الصوفية أنهم يأكلون أكل المرضى، وينامون نوم الخائفين، ويتكلمون كلام المحزون لفقده ولده الوحيد.

٢٣- على المريد تجديد التوبة كلما وقع فى هفوة أو شهوة أو غفلة، وكثرة محاسبته نفسه واتهامها فى كل شىء.

٢٤- يجب أن يكون يقظا لما يرد عليه من الخواطر، فما ورد على قلبه وخالف الشرع نفاه وأعرض عنه.

٢٥- ينبغى للمريد أن يخفى أعماله التى لم تشرع فيها الجماعة إلا إن أمره الشيخ بإظهارها، وأن يصون سر شيخه عن إفشائه لأحد مطلقا، وأن يتعلم ما لا بد منه من توحيد وفقه وآداب؛ ليبنى أمر دينه على أساس متين.

٢٦- أن يتخذ المريد حرفة مباحة شرعا يقتات منها هو ومن تلزمه نفقته.

٢٧- ويستحسن ألا يزور غير شيخه، وألا يصحب غير جماعته، وألا يأكل إلا عند الحاجة، وألا يتكلم إلا عن ضرورة، وألا ينام إلا عن غلبة.

هذا ما قاله أهل الطريق عموما، ولكن شيخنا ﷺ كان لا يرى ذلك إلا لمبتدئ ضعيف الإرادة، لا يقدر على التمييز بين الرجال ومعرفة أقدارهم، أما من قوى عوده واستطاع التمييز بين الرجال فلا بأس عليه ولا خطر فى اجتماعه بالشيوخ الآخرين ما دام قلبه ممتلئا بحب شيخه معتقدا فيه الكمال وأنه لا مرشد فى العصر أولى بالتسليك منه، وكان سيدى أبو الحسن ﷺ يقول لأبنائه:

(إن أعجبكم مورد غير هذا المورد فردوا) فالمهم أن المريد يجتمع بمن شاء ويحب من يشاء بشرط صدق العقيدة وحفظ الحرمة لشيخه وألا يتأثر بغيره، وليوقن أنه لا أكمل من شيخه فى عصره، وإن كان هناك من هو أكمل، ولكن تلك العقيدة عليها مدار نجحه وصلاح أمره، ليتم له الوصول ودوام المدد، فليتفطن لذلك فإنه دقيق.

٢٨- ومجمل الآداب وجماعها كما قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى ﷺ:

(أربعة آداب إذا خلا الفقير المتجرد عنها فاجعله والتراب سواء):

١- الرحمة للأصاغر		٢- الإنصاف من نفسه

٣- ترك الانتصاف لها		٤- الحرمة للأكابر

وأربعة آداب إذا خلا الفقير المتسبب عنها، فلا تعبأن به وإن كان أحدهم أعلم البرية:

١- مجانبة الظلمة		٢- إيثار أهل الآخرة

٣- مواساة ذوى الفاقة		٤- المواظبة على الخمس فى الجماعة

آداب المريد مع إخوانه

١- التوقير للكبير، والمحبة والعطف على الصغير، والبعد عن الحسد والكراهية.

٢- ألا يبخل بالنصيحة لمستحقها، وألا يعاتب من تسوءه المعاتبة، وألا يكون أنانيا مع أصحابه، ولا يدخل فى شئون غيره، ولا يتحدث بما ناله من مقامات قاصدا الزهو والعجب.

٣- أن يكون مع إخوانه أمينا صادقا فى قوله ومعاملته، يحب لهم ما يحب لنفسه، جاعلا مصالحهم فوق مصلحته، متغاضيا عن هفواتهم، لا يقاطع أخاه من أجل هفوة، لأن الصحبة فى الله غالية وعزيزة.

٤- وأساس الصحبة إنكار الذات، ورعاية الصديق، وأن يصحب إخوانه على ما هم عليه، أى على علاتهم، ناظرا إلى الله فى تصرفاتهم وأحوالهم.

٥- محبتهم جميعا، وطاعتهم فى مراضى الله، وتحمل الأذى منهم، وعدم الانتصار لنفسه عليهم، ومواساتهم بما يقدر عليه.

٦- أن يصافيهم سرا وعلانية، وألا يوافق من حطّ من كرامتهم بالذم، بل يدافع عن أعراضهم، بقدر استطاعته،وليفرح بذمهم له، ونسبتهم النقص لنفسه.

٧- وأن يسعى لخدمتهم بنشاط واجتهاد، سواء بماله أو بجسمه أو توجهه إلى ربه بالدعاء لهم مع شهوده الفضل لهم عليه، حيث ارتضوه خادما لهم، بل يعتقد من قلبه أنه مقصر فى خدمتهم والقيام بحقوقهم.

٨- ومن حق إخوانه عليه ألا يصحب من يبغضهم ويحط من كرامتهم، ولا يرضى أبدا عن سماع أى منقصة فيهم.

٩- المريد الصادق من يذكر محاسن إخوانه، ويتعامى عن مساوئهم ما لم يكن أحدهم متجاهرا بمعصيته ولم ينزجر عنها عند زجرهم إياه، فيشهرون ما تجاهر به بين الناس لعله يتوب ويرجع أو يحذره غيره، إذ لا محاباة فى طريق الحق على حساب الدين فمن تجاهر بالمعاصى فقد أباح عرضه وأهدرت كرامته: (كل أمتى معافى إلا المجاهرون) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة ﷺ.

ومن عرض نفسه للقيل والقال فليس من أبناء الطريق حتى ندافع عنه وعليه نغار.

١٠- وليحذر المريد أن يميز نفسه بشىء عن إخوانه من طعام أو شراب أو غير ذلك عند اجتماعه بهم، ما لم يكن قد ميزه الشيخ عليهم أو ولاه أمرا من أمورهم.

١١- ويجب على المريد أن يناديهم بأحب أسمائهم وألقابهم وكناهم.

١٢- من أدبه مع إخوانه المحافظة على الاجتماع معهم والحرص على حضور مجالسهم، ولا يتعود التخلف عنهم وعن مجالسهم فيحرم بركتهم، وربما اقتدى به غيره فيصير مُسنا لهذا الخلق السيئ، فنعوذ بالله من الإدبار بعد الإقبال، ومن استحسان أحوال النفس الذى يوجب غاية الوبال والنكال، فكل من قاطع رباط الصوفية وكثر تخلفه عنه لغير عذر فهو مُبعد، إذ جفوة الإخوان علة فى القلب وضعف فى رباط الأخوة، وتخلخل فى عقيدته الصوفية، ونبذ لعهد شيخه، وانتكاس وإدبار عن طريق الله.

وليعلم المريد أن تركه حضور الرباط وعدم تشوقه للقاء إخوانه ولهفته عليهم وحسن استقبالهم إذا لقيهم، كل ذلك إبعاد له عن الطريق، وأنه ممكور به وهو لا يشعر، إذ ما كانت منه تلك الجفوة إلا لانسداد عين قلبه، وانطماس بصيرته، ونبذه العهد،

وفتوره عن الورد، لذا حرم الرحمة التى تنزل بمجالسهم ومنع الإمداد لعدم صدقه وإخلاصه فى الوداد.

ومن آدابهم الستر على من كان هذا حاله ولا يناقشونه فى أمره بعد أن نبهوه مرارا إذ لا جدوى منه ولا خير يرجى فيه، ويتركونه لتصاريف القضاء مع سؤال الله اللطف به والتبصرة بأمره فيما بينهم وبين ربهم عله يرجع عن غيه، وكذا حالهم مع كل مسلم مذنب يسألون الله له التوبة والمغفرة.

فليحرص المريد ما أمكن على جمعيته بإخوانه، ففيها زيادة فى الإمداد وتلقيح للأنوار، فمن لحقه صدأ واعتراه هجر فليبادر بالعلاج خوف القطيعة الكبرى من حضرة المولى، وقانا الله البعد والمقت وقساوة القلب وتسلط النفس والتماس المعاذير فى البعد، وخلص سرنا وسترنا يوم العرض يوم تبلى السرائر إنه الرءوف الرحيم.

أدب المريد مع الحق

وليعلم أننا أخرنا أدبه مع الحق إذ مبناه على معاملة القلب وحفظ السر أما الأدب مع الأشياخ فحفظ حرمتهم ورعاية أوامرهم وخدمتهم وكذا الإخوان فهى غالبا أعمال الجوارح ورعاية الظواهر.

فمن آداب المريد مع الحق مراقبة نفسه سرا وعلانية فى كل حال، وأن يتصرف كما لو كان فى حضرة ملك عظيم، وقد ورد أن جبريل ﷺ أتى رسول الله ﷺ وقال له:(اجلس كما يجلس الخدم فى حضرة أسيادهم). وكان المحاسبى لا يجلس مستندا على حائط ولا يجلس إلا متواضعا أى محترما الحق أبدا فى حضرته، وذلك لشهوده الحق وحفظ أدبه معه، واذكر مقام الرسول ﷺ فى الإسراء والمعراج ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧].

وأن يتجنب فى حضرة الله وحده ما يجتنبه فى حضرة الآخرين، فلا يجلس فى وضع لا يحب أن يراه غيره عليه، فلا يكون عاريا، ولا يكذب على نفسه، أو يسرف فى طعامه أو شرابه ما دام وحده، أو يفعل محرما فى خلوة ولو كان صغيرا، وليراع

فرض الحق وسنن صاحب الشرع، وآداب أهل الحق فى كل أحواله وفى سائر أعماله وأقواله، وهذا لا يكون إلا بمراقبة تامة لما يأتى ويذر ظاهرا وباطنا، حتى يتم له الشهود والعيان وحينئذ يكون الحق تعالى منه السمع والبصر، فلا خوف عليه بعد ولا ملام، جعلنا الله من أهل مجالسته ومنحنا أنس مسامرته إنه المنان الكريم وصاحب الجود والإحسان.

هذا مجمل آداب المريد مع ربه وإن أردت تفصيلا فنقول:

١- أن يفر فى جميع الشدائد إلى ربه، وأن يجمع حواسه وقلبه حال العمل مع الله ويكفى قول الصادق المصدوق: (**إنما الأعمال بالنيات**)[1] وفى بعض الكتب السماوية: (اكتبوا عمل عبدى فلانا واكتبوا أين كان قلبه حال العمل؟ ليأخذ ثوابه ممن كان قلبه حاضرا عنده).

ويقول ﷺ: "**إذا كان يوم القيامة نادى مناد: من عمل عملا لغير الله فليطلب ثوابه ممن عمل له**" رواه ابن سعد.

٢- ألا يطلب المريد فى عبادته مقاما أو حالا أو تقربا من الحضرة الإلهية، فقد قالوا: (من خدم الله تعالى لطلب مقام فقد طلب قطيعة، ومن خدمه لطلب الثواب أو خوفا من عقاب، فقد أبدى طمعه وأظهر خسته) والمعروف عند ساداتنا أنهم يفعلون من حيث امتثال الأمر الشرعى لا من حيث علة أخرى، فمن طلب أى علة فقد خرج عن أوصاف العبودية.

٣- أن يفتش المريد أعضاءه الظاهرة والباطنة صباحا ومساء، هل حفظت حدود الله التى حدها أو تعديت؟ لأن من شأنهم ألا يغفلوا أبدا عن تفتيش بواطنهم ومعلوم أن الفقراء إذا ترقوا فى المقامات كان وقوعهم فى المعاصى الظاهرة معدوما غالبا، وهو قصور عن درجة العرفان، ومن ظن أن أخلاقه الردية قد ذهبت فقد وهِم.

---

[1] متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب ﷺ

٤- لا يطلب المريد ألا يكون له حاسدا فإن الحكم الوجودى اقتضى مقابلة النعم بالحسد، فمن طلب ألا يكون له حاسد فقد طلب ألا تكون له نعمة.

٥- على المريد إذا ذكر ذنبه ألا يقول: (لا حول ولا قوة إلا بالله) لما فى ذلك من رائحة الحجة على الله تعالى، بل ليقل: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ (رب إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)، ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

٦- لا يستعيذ بالله من شىء بل من شره.

٧- عليه بكثرة الاستغفار إذا اعتقد فيه الخلق أو مدحوه وهو فى السر خلاف ذلك، وعليه أن يقول: (اللهم اجعلنى فى نفسى حقيرا وعندك كبيرا وفى أعين الناس عظيما) ويقول: (اللهم حسن فىَّ لامعة العيون علانية وقبح إلىّ فيما أخلو سريرتى) وكثرة الاستغفار سبب لإدرار الرزق الحسى والمعنوى، يقول الله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠، ١١] إلى آخر الآيات، ويقول الرسول ﷺ: (طوبى لمن وجد فى صحيفته استغفارا كثيرا) رواه ابن ماجة عن عبد الله بن يسر وأبو نعيم عن عائشة رضى الله عنها.

٨- من الآداب المرعية لدى القوم أنهم لا يعتمدون على كسبهم المادى، وكذا لا ينسبون إلى أنفسهم أى شىء من الأعمال الصالحة إلا بقدر نسبة التكليف فقط، وعندهم أن كل عمل اتصل بالعبد شهوده فهو غير مقبول، فمن كان شاهدا لعمله الصالح دائما ذاكرا له فعمله عند نفسه لا عند ربه، وعلامة قبول العمل عدم شهوده، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] فما دام له شاهدا فلم يرفع، وحتى إذا أرادوا ذكر صالح أعمالهم إذا كانوا فى مقام القدوة للتشويق والتربية يقولون: عمل بعض الصالحين كذا، ورأى كذا وحدث منه كذا وينسبه إلى عارف أو صالح دون أن يقول أنا فعلت إذ الكامل من يستر مقامه، ويهضم نفسه حتى يزكيه ربه.

٩- ومن أدبهم مع الله التجرد عن العزة والغنى والتحقق بالذلة والفقر إذا توجهوا إلى الله فى أمر دنيوى أو أخروى، ومن كلامهم (إذا توجهت إلى الله فتوجه إليه وأنت

فقير ذليل) وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران:١٢٣] ولا يسألونه شيئا إلا مع التفويض ورد العلم إليه تعالى، وإنهم لا يألفون النعمة ولا يشتغلون بها عن المنعم إذ قبيح أن يألف النعمة دون المنعم.

١٠- على المريد أن يتحلى بالرحمة للمسلمين، فمن لم يَرْحم لا يُرْحم وعليهم أن يتحملوا هموم إخوانهم وليستغفروا لهم إذا أذنبوا مع التسليم لله باطنا من حيث التقدير الأزلي.

١١- على المريد الصادق مع الله ألا يشكو ربه إلى الخلق، إذا حدث له مكروه أو أصابه بلاء أو محنة أو غير ذلك، ويمسك ويُنزل أمره كله بساحة كرم ربه، فمن أنزل همومه وحوائجه بربه كان له خير معين وناصر.

ومن كلامهم (احذر من الشكوى لمخلوق جَهْدك ولو تقطع لحمك، فإن أكثر ما ينزل بابن آدم من البلاء من جهة شكواه، وكيف يشكو العبد من هو أرحم به من والدته).

١٢- على المريد أن يشكر مولاه على نعمه، فمن لم يشكر الله على النعم تعرض لزوالها، واحذر أن يكون الشكر لمزيد النعمة بل لامتثال الأمر ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى﴾ [لقمان:١٤].

١٣- من عادة القوم ترك التدبير المذموم، وهو تدبير أمور الدنيا استكثارا وفخرا بل بقصد تدبيرها للآخرة، وأمارة ذلك ألا تشغله الدنيا عن الموافقة وتؤديه إلى المخالفة، أما تدبير الدنيا للآخرة فلا بأس بها، وأمارة ذلك عدم الاستكثار والادخار.

١٤- على المريد أن يترك اختياره لاختيار الحق، ويفر مما اختارته نفسه له إلى ما اختاره الشرع له، وليحذر الفرار مما أقامه الحق فيه، ولا يقف مع شيء ولا يحزن على شيء ولا يفرح بشيء، وعليه أن يرضى بالدون في كل ما تحبه النفس من الشهوات ومن أمور الدنيا، ومن فعل ذلك لا تجد منه خصومة أبدا لأحد فإن الخصومات من أجل المنازعات على عرض الدنيا.

١٥- من آدابهم ألا يمنعوا سائلا بخلا وشحا بل لحكمة.

١٦- على المريد أن يرضى بكل ما يقدم له من طعام ويراعى آداب الأكل والمائدة المسنونة، ويحمد الله على كل ما يقدم إليه ولا يقوم قبل رفع المائدة، ويدعو لصاحب الطعام.

١٧- وكذا اتباع الأدب فى اللبس والمشى وسائر آداب الطريقة والشرع والسنن، وعليه التباعد عن كل ما يراه من العلماء الذين لا يعملون بما معهم، وكذا عن أهل الدنيا فإن الجلوس معهم يضر ويقسى القلب، وفى الحكم عن بعض ساداتنا: (علماء السوء أضر على العبد من إبليس) لأن إبليس إذا وسوس للعبد عرف أنه عدو فتاب واستغفر، أما هم فيلبسون الحق بالباطل ويزينون لمن معهم الشر وفق غرضهم وهواهم، ويخرجون الآيات والأحاديث حسب أهوائهم، عن عمر بن الخطاب ﷺ قال:قال رسول الله ﷺ: (أكثر ما أتخوف على أمتى من بعدى رجل يتأول القرآن يضعه على غير مواضعه) [1].

١٨- على المريد أن ينقبض باطنا إذا رأى أمرا مخالفا للشرع إيثارا للجانب الإلهى وشفقة على الفاعل، والمؤمن الحق له عينان عين تنكر ما كان مخالفا شرعا وعين باطنة ترضى وتسلم بالقضاء والقدر، وانظر مقالة الشاذلى ﷺ (ليكن الفرق على لسانك مشهودا، والجمع فى قلبك معقودا).

١٩- على المريد غض البصر عن فضول النظر، فإن من زادت نظراته كثرت حسراته يوم القيامة، وعليه بالسكينة فى المشى وإصلاح ذات البين والتعامى عن عيوب الناس.

٢٠- من آدابهم عدم سب الولاة والملوك وإن جاروا؛ لأنهم مسلطون على الرعية بحسب أعمالهم ونياتهم (كما تكونوا يولى عليكم) {لا تسبوا الملوك فإن نواصيهم بيدى...} إلخ الحديث رواه الديلمى عن أبى عبيدة.

---

[1] رواه الطبرانى فى الأوسط عن عمر بن الخطاب ﷺ

٢١- من شأن المريد الصادق عدم الانتصار لنفسه فإن الانتصار للنفس من الأمور القاطعة للعبد، ومن سلم الأمر لمولاه نصره الله من غير عشيرة ولا أهل، وانظر إلى النبى ﷺ لم ينتصر لنفسه أبدا، ومن كلام الصوفية (إذا انتصر الصوفى لنفسه وأجاب عنها فهو والتراب سواء). وتأمل قصة أبى بكر ﷺ حين نال منه رجل فسكت مرتين وفى الثالثة هم بالرد عليه، فغضب الرسول ﷺ وترك المجلس، وقال أبو بكر ﷺ يا رسول الله: (سبنى ثلاثا حتى إذا هممت بالرد عليه انصرفت من المجلس) فقال ﷺ: (إن ملكا كان يرد عنك فلما تكلمت ذهب الملك وجاء الشيطان، وأنا لا أجلس فى مكان فيه شيطان)[1].

٢٢- من الآداب المرعية عندهم تعظيم حرمة الرسول ﷺ وأهل بيته وقرابته، وذكر اسمه دائما بالسيادة والصلاة والتسليم عليه ﷺ، ومحبتهم للمسلمين جميعا وأنهم لا يحبون ولا يكرهون لهواهم دائما، حبهم للشخص إذا كانت أعماله توافق الكتاب والسنة ويكرهون من خالف ذلك، وحقيقة الحب فى الله ألا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء.

٢٣- من آدابهم أنهم لا يدخلون المساجد بنية النوم أو الاستراحة، ولا يتحدثون فيها بشيء من أمور الدنيا، ولا يمدون أرجلهم فيها ولا يرفعون فيها أصواتهم.

٢٤- من آدابهم هجرهم أصحاب المعاصى ولا سيما الكذابين، واحترامهم لأهل الدين، وتعظيم حرمة الوالدين مطلقا وليس عندهم بعد حق الله تعالى وحق رسول الله ﷺ أعظم من حقوق الوالدين، ولا يصرون على صغيرة أبدا ويجددون دائما التوبة والاستغفار وإن لم تصدر منهم مخالفات ظاهرية، ولا يسيئون الظن بأحد، ولا يغتابون أحدا ولو صدرت منهم غيبة ولم يعرف صاحبهم استغفروا الله كثيرا وتابوا وندموا ثم قرءوا الفاتحة والإخلاص والمعوذتين وأهدوا ثوابها إلى صاحبهم ذلك ويصلون على النبى ﷺ ويجعلون ثواب ما قرءوه فى صحيفة فلان الذى اغتابوه.

---

[1] أخرجه أبو داود من حديث أبى هريرة ﷺ متصلا و مرسلا.

٢٥- من آدابهم محبتهم للصحابة وللسلف دون تفاضل أو تمييز بالميل والهوى بل حسب ما وردت به السنة والآثار، ولا يتعرض أحدهم للحديث فيما جرى بين الصحابة من خلاف أو نحوه، فإن علو مقاماتهم لا تجعلنا نعطى لأحد الحق على الآخر، أو نحكم بأى حكم على بعضهم، فشرط الحاكم أن يكون أرفع وأعلى من مستوى المحكوم، فأين نحن ممن شاهد النور النبوى؟ وشاهد الوجه المحمدى؟ "لو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهبا، ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه"[1].

٢٦- على المريد ألا يظهر بصورة الخشوع وإطراق الرأس أو بعض الأعمال التى تلفت النظر، بل يهتم بمراقبة الله باطنا ويعلق قلبه بالله دائما، ويكتفى بعلمه فيه ولا يتصنع بالأعمال لئلا ينادى عليه بالاشتهار "أنا والصالحون من أمتى برءاء من التكلف" رواه الدارقطنى عن الزبير بن العوام، قال تعالى ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [سورة ص:٨٦].

٢٧- على المريد أن يعلق أمله وطلبه ورجاءه بالحق، فيرفع إليه حوائجه ويفوضه فيها ليوفقه لما يصلح له دنيا ودينا، وليجعل الرسول ﷺ واسطته وكذا أشياخه فى كل أموره مع ربه.

٢٨- على المريد إذا قرأ قرآنا أو سنة وأراد أن يتكلم مع أحد استأذن الله تعالى ورسوله ﷺ؛ لأنه فى حضرتهم والإذن بالقلب لا باللسان، وألا ينام إلا عن غلبة ولا ينام على حدث أصغر أو أكبر، ولا ينام إلا على ذكر وتسبيح وليس فى قلبه شىء من الدنيا أو حقد على أحد، وعليه أن يكون صدره سليما من الغش ومن كل ما لا يوافق الشرع أو لا يرضى الحق تعالى.

٢٩- من آدابهم الاهتمام بقيام الليل فمن لا ورد له من الليل لا يدرج فى سلك القوم ولا يشم من مذاقاتهم ولا يحظى بوردهم.

---

[1] متفق عليه من حديث أبى هريرة ﷺ.

كان مجلس الشيخ رضوان الله عليه مجلس أدب ووقار وهيبة وجلال فإذا ما دخل مجلسه زائر أدرك بحق أنه يمثل صورة مصغرة من مجلس الرسول ﷺ بين أصحابه، فقد كان مجلسه ﷺ يسوده الأدب والخشوع ويهيمن عليه الخضوع وتسيطر عليه الهيبة والاحتشام، فإذا تكلم الرسول ﷺ كان الصحابة كلهم أذنا صاغية وأفئدة واعية، يخفضون أصواتهم عنده ولا يحدقون النظر إليه تعظيما له، وإذا غسل يديه ابتدروا وضوءه حتى كادوا يقتتلون عليه تبركا به، ولا يسقط شيء من شعره إلا التقطوه.

ولقد رأى عروة بن مسعود الثقفى ما يصنع أصحابه ﷺ فخرج وقال: (يا معشر قريش إنى جئت كسرى فى ملكه، وقيصر فى ملكه، والنجاشى فى ملكه، والله ما رأيت ملكا فى قومه قط مثل محمد فى أصحابه).

فكذلك كان مجلس مولانا وشيخنا القاضى ﷺ مجلس علم وأدب وهدى وتقوى، ونيل لكل إربة، وراحة لكل متفيئ، وسرور وأنس لكل وافد، ومدد لكل قاصد، وعطاء لكل راغب، فيحبو كلا بما يناسبه، ويمد بلآلئ أسراره من بحار فيضه ذوى المقامات، ويمطر بوابل غيثه ذوى العلوم والإشارات، ويمنح أنوار الهداية كل مسترشد، ويزيل بنصحه غيوم حيرة المتردد، ويوجه بحسن قياده أهدى طريق لكل طالب، فكان الكل ينعم فى وارف ظلاله ويتمتع بصافى ورده وخالص شرابه ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٠].

الشيخ بين أولاده

كان أبناؤه يجلسون حوله فى خضوع وتواضع، خافضى الرءوس، يستمعون لنصحه ويتفهمون إرشاده، يراقبون حركاته وسكناته، ويتعرفون إشاراته ورموزه، وكيفية عبادته، وطريقة ذكره، وكيف كان يأكل ويشرب، ويرون ما كان يستقبل به رواده وقصاده من بشر وحسن لقاء، ويترسمون خطاه فى صدق معاملته للناس وأهل بيته، وخلوص نصحه للناس جميعا، كل ذلك رجاء القدوة والسير على منواله، والتأسى بأفعاله، وانتهاج طريقه، وكما قلنا إن المعول عليه فى الطريق: التأسى بالمرشد ولزوم

عتبته وإفناء شخصه في شخصه، وإرادته في مراده وحسن الأدب معه، والقيام بواجب الخدمة والعمل بالشرع وحفظ القلب عن السوى، ومجاهدة النفس والهوى، وألا يبرح عن الإرادة حتى يطير فرخه ويستطيع الاستقلال بنفسه، وحتى يأذن بذلك شيخه كى يكون مأمونا عليه.

وكان من عادة الشيخ ﷺ أن يَلْقى مريده بالبشر والدعاء له، مستفسرا عن أحواله، ثم يجلس حيث انتهى به المجلس ينتظر سماع موعظة أو يتلقى أدبا من آداب الطريق، أو إرشادا فى السلوك، وقد أفرغ الكل قلبه للشيخ؛ ليصب فيه إمداداته، ولتشرق فيه أنواره، ولا عمل لهم ولا همَّ إلا ملاحظة إشارات الشيخ ﷺ وتلميحاته، وكما قالوا: (إذا كان المريد فى حضرة الشيخ فشيخه ورده، فلا يذكر بحضرته ولا يشتغل بأى عمل كان إلا مراقبة شيخه والسماع له).

ومهما طال مجلس الشيخ فلا يظهر على أحدهم الملل ولا يلوح على وجوههم السأم، ولا يخرج من حضرته إلا مريد له عذر قاهر، فيستأذنه فى الانصراف معتذرا إليه فيودعه الشيخ بصالح الدعوات ملفتا نظره إلى ما ينبغى له حسب حاله واستعداده من مبرات وصالحات، وأن يؤصل عقيدته فى الله ورسوله ويحسن نيته فى العباد ويخلص لله العمل، وكان كل مريد يعرض على شيخه ما يريد الشروع فيه من أمر دينه ودنياه مسلما له فى كل ما يأمر به، راضيا بما يسير عليه ولا يخالج صدره أى اعتراض على ما أمر به، وإن خالف ذلك هواه، وشق عليه القيام به معتقدا أن ما أشار به هو الخير والصواب، وعين الحكمة والسداد لأنه بالله ولا ينطق عن هواه، مراعيا حكمة أهل الطريق (من قال لشيخه لم؟ لا يفلح) وتأسيا بما ورد (أن خطأ الشيخ خير من صواب المريد) إن صح أن للشيخ خطأ مع أنه لا خطأ له إلا بالنسبة لعقل المريد القاصر، وكان ﷺ لشديد حبه لمريده يبالغ فى نصحه، ويكرر وعظه، ويؤصل المعنى بما يضربه من المثل لتتفهمه العقول ويقرب المعنويات بما يشابهها من المحسوسات حتى تتشربها الأفهام وتحس بها النفوس، ويحدثهم عن المقامات والمنازل بما يجعلهم لها مُشَوقين ويكادون يحسون بها فإذا ما وصلوها كانوا بما ألقاه عليهم شيخهم لتلك العلوم والمقامات عارفين، ولأسرارها واعين، فلا يمرون بها فى سيرهم وهم لا يدركونها أو غافلين عن آدابها، فكانت وصاياه بحق خير سند وأعظم عضد للمريد، فلا يدخل عليهم التلبيس

فى المقامات، فيظن أحدهم أنه نزل ووصل إلى مقام دون أن يستشرفه، وفى ذلك خداع كبير فيغتر المريد وينزل عن درجته وينحط عن رتبته، وأيضا من نزل منزلا دون علم بما فيه قد يخرج منه وما نال منه غير المرور وما حظى منه إلا بتخطيه؛ ولكن بتلك المقالات يدرك لكل منزل ما كتب له من علوم ومشاهدات فإذا منَّ الله به عليه أدرك تلك العلوم وتذوقها وتعرف عليها فيخرج من كل منزل وقد نال منه ما نال، وأدرك ما أدرك وذاق ما ذاق، ولا شك أن كل ذلك زيادة فى التعرف بربه، والعلم بكمالاته وما ذاق عارف آخر فى العرفان والدرجات، وما علا مرشد غيره فى المقامات والمشاهدات، إلا بما حظى ونال من علوم وما حل به من حضرات، وما قطف من ثمارها مما ذاق من تلك المنازل والمشاهدات وفهمه عن الله فى علم الصفات ومعانى كمالات الذات ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

النجاح فى العمل برأى الشيخ

وفعلا كان يظهر للمريد فيما بعد إذا كتب الله له السلامة أن ما أشار به الشيخ هو عين الخير له ظاهرا وباطنا فى دينه ودنياه، ويدرك فى نهاية الأمر أنه لو وقع خلاف ذلك لكان فيه الهلكة وسوء العاقبة، كل ذلك عملا بقول الحق: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:٦٥] فكان الكل يصدر عن رأيه، ويعمل بإرشاده ونصحه، ويستجيب لأمره، لما لمسوا فى ذلك من الخير والراحة وأحسوا بنجاحهم فى أمورهم كلها ما داموا عاملين بمشورته، وحسن توجيهه.

المريد الحق فى مجلس الشيخ

ومما يذكره السادة فى آداب المريد مع شيخه ألا يطيل معه الجلسة ـ هذا حسب حال المريد واستعداده ـ فالذى لا يضمن حفظ قلبه من الخواطر فالخير له فى ذلك، أما من جمع قلبه بشيخه وعلقه به وكان مرادا للحضرة ومقصودا بحمل رسالة ومعدودا من الرجال فيحسن به المقام، ويجدر به العكوف فى حضراتهم لتوالى الإمدادات وترادف الفيوضات، ولتلون الشراب كى يحظى بالنصيب من تلك الأرزاق، وليزداد فهما مما يدرك من إشارات، لأنه محتاج إليها فيما هو آت، مثل هذا يجمل به الملازمة مع خلو قلبه من الخواطر وتعلق نظر قلبه بشيخه دائما ـ ولا يديم له النظرة لئلا تسقط مهابة

الشيخ من عين المريد ـ وحقا ما قالوا: إن المقصود لهم عدم إسقاط الهيبة وهي بحق عماد الطريق وأساس نجاح المريد، فالواجب الاعتقاد التام فيه، وأنه في نظره خير أهل عصره، إذ بدون ذلك لا يتم أمره بل يكون الردى فيه وحتفه.

تعلق الشيخ بمريده الصادق

ولكنا لاحظنا على شيخنا رضوان الله عليه حبا كبيرا لدوام ملازمة مريده الصادق له وحرصا شديدا على مجالسته ومخالطته؛ فكان يحب عدم غياب مريده دون عذر وهو لا شك خير قدوة للتربية وأقرب وسيلة للتصفية والتخلية؛ إذ في الملازمة فوق أثرها في إمداد المريد بالأنوار والأسرار ملاحظته لعمل الشيخ في ذكره ومعاملته وسائر حركاته ليطبع ذلك في المريد هذا الطابع، وينشأ على عمل البر ويتأسى بفعله، وليشهد اختلاف تجليات الحق عليه ومقابلة كل وارد بما ينبغي ولصقله التام بمصقلة أهل الله الراسخين، ليكون ذا يقين وتمكين، وليقوم دائما لشيخه بواجب الخدمة، لينال كمال الحظوة (وما أفلح من أفلح إلا بمصاحبة من أفلح)، (ولن تنال الوصال ما لم تخدم الرجال)، وحسبنا حديث الجليس الصالح فهو فضلا عن التربية والتأسي والخدمة عكوف في حضرةٍ واردات الحق عليها مترادفة وأنواره إليها واصلة، فكافيه جلوسه في متنزل الرحمات ومهبط الفيوضات، وهو لا شك منتفع بهذه الخيرات، ويكفي الحديث (هم القوم لا يشقى جليسهم) [1].

مكانة الشيخ في قلوب مريديه

ولما كان شيخنا ﷺ شديد الحرص والحب لأولاده راغبا لهم في الكمال، متحملا عنهم كل الأثقال، محققا لهم كل الآمال، آثروه على أنفسهم، وفدوه بأرواحهم، وقدموه على أعز عزيز لديهم، يسارعون في رغبته وطلبه ويتنافسون في خدمته، ويتسابقون في العمل على راحته ورغبة في رضاه، وسعيا في حبه ومبتغاه.

---

[1] متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ .

يصحبونه فى سفره كما يلازمونه فى حضره، قياما بواجب الخدمة، واقتداء بهديه فى حله وترحاله، والتماسا لبركاته وأنسا به، وجنيا لثمار معارفه واغترافا من صافى موارده، أسلموا له جميعا نفوسهم ليطهرها ويربيها، ومكنوه من قلوبهم فتبوأ عرشها ليملأها قدر استعدادها من الأنوار والأسرار، وهبوه أرواحهم يغذيها ويرقيها، وأسرارهم ليخلصها ويصفيها.

ولما علم الله منهم بالغ الصدق فى ذلك وخالص التسليم لوليه، منحهم الله وأعطاهم فأفادوا الكثير من هباته الربانية، ونالوا الوفير من أعطياته المحمدية، رقت أرواحهم فى مدارج الكمال، وطابت نفوسهم بمشاهد الوصال، جزاء تفانيهم فى الولاء لشيخهم، ووفاء لتسليمهم وانقيادهم لمرشدهم ورائدهم.

الولاء الدائم للشيخ

ولقد ظل هذا الولاء له رضوان الله عليه طول حياته وزاد قوة بعد انتقاله إلى مولاه، وفاء له واعترافا بفضله وتلمسا لرضاه، فتراهم حافين حول مثواه، لا ينقطعون عن زيارة ضريحه ولا يفترون عن ذكر مآثره وفضله عليهم، ولقد امتد هذا الولاء إلى أهل بيته وأولاده من صلبه، فالكل اتخذهم وسيلة إلى أبيهم أملا فى دوام مدده واستنصارا به على أعدائهم بجنده وعدده، واستدرارا لفيضه من مولاه ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣].

ذكريات ومآثر

وترى المريدين اليوم عند اجتماعهم يتذاكرون حبهم وتعلقهم بالشيخ وحنينهم إلى مجالسه، بعضهم يقول نادرة طيبة من مكرماته، والبعض يحكى كرامة الشيخ له، وكيف تخلص بفضله من مزعجاته ومنغصاته، والآخر يقص طرفة من طرفه أو بعض فكاهاته، فيحسون جميعا بأن روح شيخهم ترفرف عليهم وتناديهم فى عليائها لن تروّعوا ما دمتم بعهدى متمسكين، ولن تضلوا ما كنتم بآداب الطريق عاملين، أنا معكم وفى سركم طبتم وطاب مجلسكم، فيقومون بحمد الله عازمين على ألا ينقطع حبل ودادهم

لشيخهم، ولا تنفصم عرى شملهم بإخوانهم ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] وبذكرهم تتنزل الرحمات.

مريدوه شموس يهتدى بهم

مجالس المريدين

أما مريدوه فكنت تراهم أيها القارئ فى مجالسهم شموسا ساطعة، تنير قلبك أنوار هدايتهم، وتحس بالراحة والاطمئنان فى جلساتهم، وتراهم وكأنهم رياحين أو أزهار تشم منهم عبير الصالحين، كل حسب ما ناله من مذاقاته، وما رقى إليه فى درجاته، أحوال مختلفة، ومقامات عالية متفاوتة، وأنوار متنوعة ومشارب عدة، وأنواع من السلوك والآداب جمة، تنظر إليهم معجبا بفضل الله عليهم، تغبطهم على ما هم فيه، تقر عينك لرؤيتهم، وكأنك فى روض تنوعت أزهاره، وتعددت أنواع ورده وريحانه.

إذا ما دخلت عليهم فكأنما دخلت بستانا اختلفت فاكهته، وتفاوتت ثماره، وتعددت مذاقاته، والكل يسقى بماء واحد، وهو مدد الشيخ وسره، والشيخ بهم يباهى من فى الأرض، بل من فى الملأ الأعلى، لأنهم جند الله ورجاله وعصابة طريق الحق، ونصرة دينه.

منزلة المريدين الصادقين لدى الشيخ

وكان ﷺ يفرح بهم فرح الوالد بأعز أبنائه، يرى فيهم تعدد تجليات الله عليه، إذ يفاض عليه فيمدهم، وينظر فيهم تنوع واردات الحق إليه، فهو يستقبل من مولاه الأعطيات، ويمنحهم من تلك المكرمات، فهم صورته ومثال خلقه، ومظهر صفاته، ومشرق شمس فيوضات الله عليه، قلوبهم عروش لتجلى رحمات الشيخ وتنزلاته، لا يعدل بصادقهم ملء الأرض وما فيها.

ومصداقا لذلك أن جاءه رجل من الأغنياء المتجبرين، وكان يتردد على الشيخ ﷺ، وكان له محبا فعاتبه الشيخ فى قلة حضوره فقال له: (اطرد فلانا وفلانا من مجلسك وأنا لا أنقطع عنك أبدا)، فقال له الشيخ: (أنا لا أستغنى عن التراب الذى يمشيان عليه)

وتمثل الشيخ بقول الحق تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف:٢٨] وفعلا انقطع ذلك الغنى المتكبر عن مجلس الشيخ، واستمر هذان المريدان فى صحبة شيخهما حتى نهاية حياته ﷺ، وحملا من بعده رسالته، وقاما بكثير من أعباء الطريق، ولشديد تعلقهما به وطول ملازمتهما له وعيا عنه جمَّ علومه، وأدركا الكثير من مذاقاته، ونقلا لإخوانهما الوفير من صفاته وعاداته ومسلكه، وما وصلا إلى ذلك إلا بدوام الصحبة مع المحبة، والصدق فى الخدمة ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ [الأعراف:١٣٧] الآية.

مكانة الأخوة فى طريق الله

ولعظيم حب الشيخ لمريديه، ورضاه عنهم، ووثيق تعلقهم بالطريق، كانوا كذلك بعضهم مع بعض مودة وإخاء، وحبا وإخلاصا، ألف مدد الشيخ بينهم وجمع الطريق شملهم، فكانت لحمة هذه الأخوة أقوى من لحمة القرابة والنسب حتى أنهم كانوا يعتقدون أن أخوة الطريق عصبيتهم ونصرتهم وولاؤهم، ورحمهم التى يصلونها، ويذودون عنها ويحمونها، فكانوا بحق أشداء على الأعداء رحماء بينهم، ومصداقا لذلك تراهم عند اللقاء فى شوق وعناق، ولو غاب أحدهم سارع الكل فى تعرف حاله، وتلمس أخباره، ولا يهدأ لهم بال، ولا يطيب لهم قرار حتى يعرفوا عنه حسن الأخبار، هؤلاء إخوان الصفا،وخلان الوفا، إن صحبتهم صحبوك بالنصيحة، وإن عاملتهم عاملوك بالإيثار.

سمات مريدى الشيخ

يهتمون بشئون إخوانهم كما يهتمون بأمور المسلمين عملا بقول الرسول ﷺ "من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم"[1] يجندون لمهام الأمور جهدهم، فلا تعترض أحدهم مشكلة أو ينتابه هم إلا ويمُن الله عليه باليسر بعد العسر وتتبدد سحب الهم بفضل ما وهبهم من ماضى عزمهم، وحرارة إخلاصهم، وشموس يقينهم لهم فى الصادقين

---

[1] رواه الطبرانى فى الأوسط و الحاكم فى المستدرك عن حذيفة ﷺ .

الحظوة، وعند الله الدرجة والمنزلة، انصرفوا بقلوبهم إلى الله فصرف عنهم كل ما سواه، أخلصوا لله فى السر والعلن فخلصهم مما يشغلهم عنه فيما ظهر وما بطن، يشار إليهم إذا ساروا، ويرجى رفدهم إذا حلوا وأقاموا، أمناء إذا استشيروا، علماء إذا قالوا، حكماء فيما أشاروا، رسل هداية، وقادة سلام، أدلاء على الحق، وللطريق أعلام.

وما الفضل إلا لأهل العلم إنهمو ** على الهدى لمن استهدى أدلاء

تسمع منهم صدق المقال المعبر عن صادق الحال، ترى فيهم حسن التعامل الدال على السلوك الكامل، وتشم منهم عبير الإخلاص الناشر لطيب سرائرهم، والمفصح عن زهدهم فى الدنيا والتجرد منها والخلاص من علائقها.

صفات بارزة فى مريديه

الصفح عادتهم، والحلم حليتهم، والكرم صفتهم، والذكر شعارهم، والخضوع والانكسار سيماهم، تأنس لقربهم، وتستريح فى ظلهم، كهف لمن أوى إليهم، وظل وارف لمن رغب فيهم أو مال إليهم، القيود بينهم مرفوعة، والكلفة لديهم منزوعة، لا أنانية ولا امتنان، ولا رياء ولا اغترار، ولا ميل ولا هوى، ولا تكبر ولا صلف، ولا جدال ولا مراء، كل يعرف قدر نفسه، وفضل الله عليه، تجدهم راضين عن الله فى كل شئونه، شاكرين الله، على جميع أحوالهم، عاملين بآداب الطريق قدر وسعهم، سالكين سبيل السلف طاقتهم وجهدهم، لا شبيه لهم فى عصرهم، ولا نظير لهم فى زمانهم، هم بحق والحمد لله أهل الله وخاصته، وحماة دينه وشريعته.

من لم يتصف بصفاتهم فليس منهم

ولو رأيت من يسير معهم أو يضمه مجلسهم، ولم يتصف بتلك الصفات أو بدا لك منه ما تنكره من عادات ومعاملات، فاعلم أنه ليس من خالص عنصرهم، ولا من أصل معدنهم، إنما هو فيهم دخيل، وعلى ديارهم نزيل، وينتظر أمر الله فيه، إما أن يتوب الله عليه، أو يصرف عنهم، ويقضى عليه بالبعد والرحيل.

نصح وتحذير

فحذار أيها القارئ الحصيف، أن تسرح في نفسك الخواطر، أو يخالجها الشكوك من تلك المظاهر، وتظن في أولئكم الجماعة أنهم قليلو البضاعة،وتحسب أنهم خلوا من تلك الصفات، وليس لهم هاتيك العبادات، ولا هذه السمات، وأن ما قرأته في هذا الكتاب مبالغة أو نسج خيال، أو ادعاء أو افتراء، فيجرك هذا إلى الوقيعة في حرمتهم، والاعتراض على أحوالهم، وانتقادهم في أعمالهم، والنيل من أعراضهم، وبذلك تكون قد عرضت للأذى نفسك، وسعيت برجلك إلى حتفك، وتدليت بحبل الاعتراض إلى الهاوية، فكانت عليك القاضية، لأنهم أحباب الله وعليهم يغار، وأنهم عيال في حجر الحق يعادي من عاداهم، ويحارب من آذاهم، ولا يغيب عنك حديث **(من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب)**[1] ولله في خلقه شئون.

ملك الملوك إذا وهب *** لا تسألن عن السبب

"الخير في وفي أمتي إلى يوم القيامة" رواه الحاكم في المستدرك عن عمر بن الخطاب.

وحسبك راحة لنفسك زيارة لمجلسهم، تعرف بها جليل شمائلهم، ويكفيك اطمئنانا لقلبك وقفة على ديارهم تكشف لك كريم مآثرهم، وترى ببصرك ما يزيل عنك الشكوك، وتدرك ببصيرتك ما يبدد عنك سحب تلك الظنون، فتشاهد ما تخيلته حقيقة وتعلم ما وهمته واقعا وإنهم فوق ما قيل فيهم، ولا يحيط بوصفهم غير باريهم، فقد صنعهم الحق لنفسه، وخصهم بفضله ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:١٠٥].

لا اعتراض ولا إنكار

ولو علمت أيها القارئ كيف وصل هؤلاء الرجال إلى ذلكم المقام؟! ما خالجك فيهم شك، ولا اعتراك عليهم إنكار، إذ كان شيخهم رضوان الله عليه يأخذهم بأساليب متنوعة في التربية والتهذيب، ويمدهم قدر استعدادهم، ولا يدخر جهدا في

---

[1] رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ

إفادتهم بآداب السلوك وعلوم أهل الطريق، فيخرجهم أولا من صدف طينتهم البشرية، ومن رعونات النفس الدنيئة، ومن الشهوات الحسية، ثم يغرس فيهم من الصفات محاسنها ومحامدها، ويخلصهم من الالتفاتات ويطهرهم من الرانات، ويخلع عليهم من صفاته، ويحليهم بكريم عاداته، وينتقل بهم فى الرياضات والمجاهدات حتى يرقيهم إلى منازل القرب، ويحلهم فسيح الحضرات، ويكلفهم كثيرا من الأذكار، وعديدا من ألوان العبادات، حتى استخرج بذلك من أصداف بشريتهم ومكنونات صدورهم تلكم الجواهر، وأظهر من بحار قلوبهم هاتيك اللآلئ، فصاروا أهلا لتلك المقامات، جديرين بأسمى المنازل وأعلى الدرجات.

ولا غرو فى ذلك ولا عجب، إذ إن شيخهم ﷺ كان الوحيد فى عصره الذى حظى بمميزات كثيرة واختصاصات فريدة من سيده ومربيه الأعظم ﷺ فكان نسخة صحيحة للكماليات المحمدية، وصورة جامعة، ومظهرا واضحا للشمائل النبوية.

ثم هو بالتالى ورّث أولاده هذا الميراث العظيم، ومكنهم من ذلك الطريق المستقيم، فأنعم به من ميراث واسع، وأكرم به من تراث نافع، وأعظم به من ملك جامع.

مريدو الشيخ صورة لما كان عليه

أيها القارئ: يا من أنت للحق طالب، وللمعرفة راغب، لعلك تقول: فاتنى شرف لقاء هذا الشيخ ﷺ، وكم كان قلبى لرؤيته مشتاقا؟ نقول لك: لا تعض أصبع الندم، ولا تقل إن مثل هذه الشخصيات قد فقد أو انعدم، فالرسول ﷺ يقول: "الخير فى وفى أمتى إلى يوم القيامة"[1] و"أمتى كالمطر لا يدرى أوله خير أو آخره"[2].

ويا من استبعد عقلك ما سمعت من مميزات الشيخ وأولاده، لا تطل على نفسك وقت الحيرة، ولا يمتد بك القلق والأرق زمنا طويلا، بل اقطع على نفسك حيرتها،

---

[1] انظر كتاب كشف الخفاء حديث رقم ١٢٦٧

[2] رواه الطبرانى فى الأوسط عن أبى نجيد صاحب رسول الله ﷺ، والقضاعى والقاضى فى مسند الشهاب عن ابن عمر رضى الله عنهما.

وبدد شكوك قلبك بزيارة لضريح الشيخ في شبلنجة- قليوبية، واجلس إلى أبنائه ومريديه، واسمع مقالهم، واشهد حالهم، لترى فيهم سره، وتلمح منهم بعض رسمه ووصفه، وتنظر فيهم صورته، وتجد صدق ما قلناه، وتدرك حقيقة ما سطرناه.

وإذا كنا نسمع أن الولد سر أبيه، وأن الصديق عنوان صديقه، فكيف بمن رباهم ذلكم الشيخ، وبلبان علومه ومعارفه غذاهم، ومن معين شرابه أرواهم، فبحمد الله عندما تراهم تشم منهم نسيم المعارف الحقة، وتظفر منهم بالعلوم الربانية الغضة.

يا أخي: الخير ما زال في أمة سيدنا محمد ﷺ إلى يوم القيامة، وإن التصوف ما زال له رجال في كل عصر وأوان، ولو خلت الدنيا منهم لقامت القيامة، فافهم تغنم، ودع الاعتراض تسلم.

مؤانسة الشيخ لجلاسه

وكان ﷺ أنيسا لجليسه، لطيف الحديث لمحبيه وزائريه، يخاطب كل إنسان بما يليق به، ويتحدث إليه في حرفته وعمله حديث من مارسها وأحاط بما فيها ليدخل عليه السرور حتى يأنس به، وتذهب وحشته، متأسيا في ذلك بقول الرسول ﷺ "نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم"[1]

اهتمام الشيخ بمشاكل المريدين

وكان يشاركهم فيما شغلوا به وأهمهم، وكانت تبدو عليه علامات التأثر والاهتمام بما يهم بعض الإخوان، وكان يحس بألم صاحب المشكلة بل كنا أحيانا نجد صاحب الأمر قد نسيه وشغل بغيره، ولكن الشيخ ﷺ ما زال منفعلا له ساعيا في تخليص ولده مما ألم به، ولا يهدأ له بال حتى يمن الله على مريده بالخلاص مما حل به من بأس، وحقا ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾. "ولا يصيب أحدكم الشوكة حتى أجد ألمها".

---

[1] رواه الديلمي في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما

ويتخلل بعض أحاديثه شيء من الألغاز والأحاجى المسلية المباحة، التى تجعل الكل يفكرون فى حلها ساعة للترفيه عنهم، وتضفى على الجالسين سرورا حتى لا يملوا، ثم يطوف بهم فى عالم الملكوت، ويلمح لهم ببعض العلوم، ولمحات من المشاهدات، فكان معلما حكيما، وطبيبا حاذقا عليما، معلما ذا حكمة، طبيبا ذا دراية وتجربة، وماهرا ذا فن وخبرة.

أدب الشيخ مع محبيه وقاصديه

وكان يقبل على من يجلس معه، ويظل منصتا لحديثه حتى يفرغ منه، ولقد ألف الناس منه ذلك حتى قطعوا عليه وقت راحته، فكان بعض الناس الذين لم يحيطوا بسنن الشرع، ولا آداب الزيارة، ولا قواعد الطريق، يأتونه فى غير الأوقات المناسبة للزيارة كوقت الظهيرة الذى كان يتخذه راحة وعونا على قيام الليل، أو بعد صلاة العشاء حيث يكون فى أمس الحاجة إلى الراحة والأنس بأهله، والتعرف على أحوالهم، وليهجع قليلا، ليتيسر له القيام بورد تهجده وليخلو بربه وسيده.

ومع ذلك كله كان يجلس مع هؤلاء الزائرين فى غير أوقات الزيارة ويسامرهم، ويحقق لهم مآربهم، ويقضى حاجاتهم، ولا يرون عليه تألما، ولا يلمسون منه غضاضة، فيظنون أنهم بذلك يؤنسون الشيخ فيطيلون الجلوس معه، ويسترسلون فى الحديث، والشيخ ﷺ لا يبدى لهم ضيقا ولا ضجرا، ولا تظهر عليه سآمة ولا ملل.

وكان ﷺ فى ذلك كله مقتديا بسيده ومربيه ﷺ حيث كان لا يعرض عن محدثه حتى يتم حديثه، ولا ينصرف عنه حتى يستأذنه، ولا ينزع يده من مصافحة من يسلم عليه حتى ينزع هو، وكانت تستوقفه العجوز فى الطريق فيستمع لشكواها، ويقضى لها حاجتها، مؤجلا عمله الذى خرج من أجله، مقدما حاجتها على حاجته ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

كان ﷺ يرى أن الحاكم ظل الله في أرضه، وخليفته فى خلقه وعلى الأمة السمع والطاعة له فى المنشط والمكره: (أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ)[1] ولعله يرى أن الحاكم مسخر وناصيته بيد مولاه وأنه مساق فى كل ما يعمله ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

ويرى أن تقدير الحاكم واحترامه وتنفيذ أحكامه من الدين والشرع ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء:٥٩] هذا أكبر حصن حافظ للأمة من التفرقة والتحزب وضياع هيبة الحاكم، وبهذا يكون الأمن والاستقرار؛ إذ لو فتحنا أعيننا لنقد الحاكم، وانصرفنا إلى المهاترات والتفتيش على العيوب والمسالب والتفرغ للنقد والانتقاص من سلطان الحاكم والتقليل من شأنه وإضاعة مكانته، فلا اجتماع للكلمة ولا وحدة بين الصفوف، وعليه يكون الخذلان والخسران والإضلال والفساد والفوضى والضياع.

ويرى شيخنا ﷺ أن الحاكم ككل مسلم يتوجه إليه الأمر والنهى فيما يخالف ظاهر الشرع لما يعمله فى خاصة نفسه وسلوكه كمخاطب بكل ما جاء به الشرع، أما فيما يعمله فى الرعية وما يصدر من أحكام فيرى الشيخ ﷺ أن هذه الأحكام إنما هى على وفق ما فى علم الله تعالى، وأن كل ما فى الكون ظهورا إنما هو من آثار تجلى صفات الحق فلا يعترض على ذلك بقلبه ويسلم الأمر لله ويرضى بما وقع وكان، وأن ما صدر منه للرعية فما فيه ظلم أو قسوة على حد تعبير الناس، إنما ذلك ظل وأثر ونتيجة لازمة لأفعال الرعية، فما كان منه إنما هو صورة أعمالهم خيرها وشرها وما فى خفايا نفوسهم وما حوته قلوبهم مما وافق الشرع أو خالفه؛ تظهر هذه المخالفات أو الموافقات؛ صورة جلية واضحة فى معاملة الحاكم لهم، فأعمالهم وما فى بواطنهم تنعكس صوره فى تصرف الحاكم نحوهم، كما تكونوا يولى عليكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد:١١] فلا تنصرف الأمة إلى اللوم أو الاعتراض

---

١ رواه أَبُو داود والترمذي عن أَبي نَجيح العِرباض بن سَارية ﷺ

على الحاكم ودعوى التقبيح أو التجريح لأفعاله وصفاته، ونقد أحكامه وانتقاصه بل عليهم أن يرجعوا إلى أنفسهم فيصلحوا ما بينهم وبين الله بإقامة حدوده ورعاية آداب شرعه، وفيما بينهم وبين بعضهم بحسن المعاملة وصدق المحبة وكمال الإخلاص، والتناصح وترك التحاسد والتحاقد ونبذ الأنانية والأثرة، فإذا تم ذلك رأوا الخير تلقائيا وظهر لهم الأثر الحسن جليا فى تصرفات الحاكم نحوهم فأصلح الله أمره وقوم معوجه، وبصره الحق حقا وحببه فى الإصلاح ووجه قلبه لهم بالرحمة والعطف؛ ويحل فى نفسه لهم الرأفة والمحبة، مصداقا للحديث (لا تسبوا الملوك فإن نواصيهم بيدى، فإن أنتم أحسنتم جعلت قلوبهم عليكم رحمة وإن أسأتم جعلت قلوبهم عليكم نقمة)[1]. فليبادر العاقل بإصلاح نفسه، ومعالجتها وإلزامها بأوامر الشرع وتأديبها بآداب الدين كى يوجه الله القلوب إليه بالرحمة واللطف والمحبة، وكذلك الأمة والرعية إذا أرادت صلاح حاكمها فلتصلح أمر نفسها بحسن معاملتها مع ربها حسب ما رسمه صاحب الشرع، وتتخلى عن عيوبها وتتطهر نفسها كى يرضى عنها ربها وتصلح لأن يمطرها مولاها فيض إنعامه وإحسانه، ويضع لها الأمان فى الأرض والسكينة فى القلوب والطمأنينة فى النفوس والرجاء وطيب العيش فى الحياة، والقوة والمنعة على الأعداء ويعلى شأنها ويرهب منها عدوها وينصرها دائما ويحميها كما يحمى الراعى الشفيق إبله عن مواطن السوء والهلكة. ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد:٧].

الشيخ وعلماء الظاهر

وكما قلنا آنفا أنه ﷺ كان يخاطب كل زائر بما يناسبه، ويحدثه باللسان الذى يعرفه، وباللغة التى يفهمها، فإذا جالس العلماء جالسهم على بساط الشريعة وناقشهم فى أحكامها، نقاش العالم المدقق المتفهم لمسائل الشرع، الملم بأصولها وفروعها، وشواردها وغريبها مقتديا فى ذلك بسيدى أبى الحسن الشاذلى ﷺ إذ يقول: (إذا جالست العلماء فلا تحدثهم إلا بالعلوم المنقولة والروايات الصحيحة، إما أن تفيدهم، وإما أن تستفيد منهم؛ وذلك غاية الربح منهم).

---

[1] رواه الطبرانى فى الأوسط و أبو نعيم فى الحلية عن أبى الدرداء ﷺ .

وإذا ما لمس من بعض هؤلاء ميلا إلى مذاقات القوم، وحبا فى التعرف على مقامات الرجال وأحوالهم وآدابهم، شممهم منها قدر ما يطيقون، فتنبسط أسارير وجوههم، وتظهر عليهم علامات الدهشة والإعجاب، ويكاد حالهم ينطق متسائلا كيف يحيط ذلك الشيخ بعلومنا؟ ويدرك دقيق مسائلها المبثوثة فى خفايا أمهات الكتب التى غابت عنا وكان الأجدر بنا معرفتها؛ ونحن لا ندرى من معارفه وعلومه شيئا! فيتشوقون إلى معرفة الطريق الذى سلكه الشيخ ﷺ وتتطاول أعناقهم إلى الاستشراف على تلكم الساحات الرحبة للتمتع بما فيها، فكان ﷺ يكاشفهم بحالهم، وعما انطوى فى صدورهم، فيكون عجبهم أكبر وغرابتهم أعظم فيطمئنهم بقوله: (لا فرق بيننا وبينكم إلا أننا علمنا وعملنا فنلنا ما استغربتموه، وأنتم علمتم ولم تعملوا فلم تذوقوا ولم تنالوا). ثم يستطرد قائلا: (نحن نوافقكم على ما أنتم عليه وأنتم لا توافقوننا على ما نحن عليه، فإذا أردتم شيئا مما نحن عليه فعليكم بالعمل الخالص لوجه الله، والتأدب بما جاء به الكتاب وما وردت به السنة، وجاهدوا أنفسكم وهواكم، لتخلصوا نفوسكم من عاداتها، وتطهروا قلوبكم من غفلاتها، فتصفو بذلك أرواحكم من أبخرة بشرياتها، وعندها تنالون رضا ربكم وتحظون بنفحاته).

العمل الموصل إلى حضرة الرب

ولقد صدق الشيخ ﷺ فالعمل الخالص المصحوب بالنية الصادقة المؤيد بالكتاب والسنة والمشيد على سلوك السلف من الصحابة والأئمة هو الموصل لنيل المآرب، المحقق كل المطالب والمكاسب، وبه بلوغ القصد، والقرب من حضرة الرب، والدخول فى الرحاب، والحظوة بالشراب، والاندراج فى سلك الأحباب، وغاية عظمى لجنى ثمار الحكم والعلوم والمعارف، وعندها يتحقق فيه قول الحق سبحانه ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]. وقول الرسول ﷺ "من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم" رواه أبو نعيم فى الحلية عن أنس.

الشيخ فى حديثه مع العلماء

ومن حسن أدبه ﷺ كان يقول فى نهاية حديثه معهم جبرا لخاطرهم واتقاء غيظ قلوبهم، وتهدئة لحدة نفوسهم (على كل حال أنتم سادتنا وعلماؤنا، وحملة شريعة

رسولنا ﷺ، وقد قال سيد الخلق ﷺ في شأنكم "لو وزن دماء الشهداء بمداد العلماء لرجح مداد العلماء"[1].

فمن أنار الله بصيرته من هؤلاء العلماء يخجل من ذلك الكلام، ويقول: (عفوا يا سيدى فأنتم العلماء بالله حقا، الذين نزل فيهم قول الله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨] وأنتم ورثة الأنبياء بحق، أما نحن فحفاظ الأحكام وقراء هذه الأمة، نسأل الله لنا فتحا على أيديكم، وهداية للعمل بما نعلم، حتى يكون لنا نصيب مما نلتموه فاسأل الله لنا ذلك) فيدعو الشيخ لهم؛ إذ هداية العالم أفضل من ألف عابد.

الشيخ والعبّاد

عرفت أيها القارئ الكريم، كيف كان الشيخ ﷺ يجالس علماء الظاهر، والآن نبين لك كيف كان ﷺ يجالس العبّاد، وذوى الأذكار والأوراد، راغبى الثواب والدرجات، الناظرين لأعمالهم، والمعتمدين على صالح فعالهم، فكان يتكلم مع كل صاحب حال منهم بما يلائمه.

الغرور محبط للصالحات

فمثلا المغرور بذكره وتسبيحاته، الزاعم أنه قد صار فى أعلى مقام ومن الأقطاب الذين يشار إليهم بالبنان، حيث إنه أكثر من العبادات والطاعات والذكر والتسبيحات، وكم عد منها الآلاف والمئات، فيبين لهم قيمة العمل، وما يدخل عليه مما يحبطه من نوايا لم تكن لله خالصة، أو اعتماد على تلك الأعمال، مستندين إلى حولهم وقوتهم، غافلين عن فضل الله عليهم ورحمته وأنه هو الموفق لهم، والعامل فيهم، مصداقا لقوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

---

[1] رواه ابن النجار والشيرازى فى الألقاب عن أنس بن مالك ﷺ

أما من جانبهم التوفيق، فلم يؤسسوا أعمالهم على سند من الشريعة الغراء، جهلا بأصولها، وغفلة عن آدابها، فمثلا تراهم قد شغفوا بأداء النوافل، واهتموا بها الاهتمام كله، لأن للنفس فيها حظا، ولو خبرت حالهم، وعرفت سلوكهم، لأدركت أنهم قد تركوا فرائض وغفلوا عن واجبات، هى أساس الدين وعماد الطريق، وما شغلوا به من تلك النوافل لا يساوى شيئا بجانب تركهم فرضا واحدا من تلك الفرائض.

فلذا حرموا ثمرة العبادة وحلاوة المناجاة، وما جرهم إلى ذلك ولبس عليهم تلك الحال إلا أنهم لم يتفهموا أسرار شريعتهم وبما يكون حب الله للمؤمنين، وبم يتقرب إليه؟ كما فى الحديث القدسى {ما تقرب إلى عبدى بأحب مما افترضته عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه. إلخ الحديث} رواه البخارى عن أبى هريرة.

فإذا أتم العبد الفرائض والواجبات، وأحكم الرواتب انتقل إلى النوافل ليتقرب بها إلى الله.

تحذير الشيخ للعبّاد

ومن هنا كان ﷺ يحذرهم من الاهتمام بالنوافل وترك شيء من الفرائض، والاعتماد على العمل الصالح، أو مراءاة الناس به، لأن ذلك مسلك وعر، ومزلق من مزالق الطريق، كما كان يفرق لهؤلاء العبّاد بين لمة الشيطان ولمة الملك، وهاجس النفس والخاطر، والإلهام فى القلب، ووحى الرحمن، يبسط لهم هذه الأحوال، معرفا إياهم الحال الكاذب والحال الصادق، والفرق بين الحال والمقام[1]، والكشف الصحيح

---

(١) المقام هو الخطبة أو العظة يلقيها الرجل في حضرة الخليفة أو الملك، والمقام في الأصل المجلس ففي القرآن "أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا" والمقام أيضا هو الموقف العصيب، أما عند الصوفية فهو مقام العبد بين يدي الله عز وجل فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع إلى الله حتى يسكن القلب بالطمأنينة.
"ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد"

والكشف المزيف، مصغرا لهم العمل فى نفوسهم، داعيا إياهم إلى الإخلاص فيه والصدق فى النية، والتخلص من مداخل النفس والهوى وتلبيسات الشيطان، كى تسلم لهم عبادتهم، ويرقون إلى مقامات العارفين، فيعرض عليهم بعض مذاقات هؤلاء الناس، ويشممهم عبير نفحات أهل القرب، ويروحهم بنسمات الرجال الواصلين.

يفعل ذلك كى يحبب هؤلاء العبّاد فى نيل هذه المقامات، وليبدءوا العمل من جديد على الإخلاص وصدق النية والتبرؤ من الحول والقوة، لا اعتماد على شىء إلا على فضل الله ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[النور: ٢١].

انتفاع العابد بحديث الشيخ

فيخرج العابد من عند الشيخ ﷺ مستصغرا نفسه، محتقرا عمله، نادما على ادعاءاته، عازما على استئناف العمل من جديد، والإتيان به على وجه الحق الموافق للشريعة وقواعد أهل الطريقة،متحريا فيه الإخلاص والصدق، مراقبا نفسه كلما مالت إلى شهرة أو جنحت إلى شهوة، متباعدا عن شيطانه إذا دعاه إلى زلة، فاهما لتلبيساته ومداخله إذا أضله، معرضا عن هواه، مسقطا لدعواه، إذ قد تبين له حاله على حقيقته، وأن ما كان يحلق به فى سماء نفسه، إنما هو نزعات الهوى، وضلالات الشيطان واستدراجاته، وتسولات النفس وشهواتها الخفية، وتسلقها الدرجات والمقامات قبل نيل شىء منها، وإن مثله كمثل حمار الرحى، يظل يومه سائرا ظانا أنه قطع المفاوز وتخطى العقبات وطوى المسافات وهو فى مكانه لم يبرح وفى دائرته لم يخرج.

الأحوال: جمع حال وهو نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم، أما عند الصوفية فهو حركة القلب المستمرة بالمكابدة، وعند أهل الحق معنى يرد على القلب من غير تصنع ولا احتلاب ولا اكتساب من طرب أو حزن أو قبض أو بسط أو هيبة ويزول بظهور صفات النفس فإذا دام يسمى مقاما.

والفرق بين المقام والحال: أن المقام يكتسب بطريق المجاهدات والعبادات وأما الحال فيأتي من فيض الله فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب والأحوال تأتي من عين الجود أما المقامات تحصل ببذل المجهود.

ولا شكَّ أن هذه الثلاثة: النفس، والشيطان، والهوى هى القواطع التى تقطع على العبد طريقه "ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه" رواه البيهقى والطبرانى عن أنس.

الشيخ وأهل الحقيقة

أما مجالسة الشيخ ﷺ لأهل الحقيقة والصدق، وذوى المعارف والإشارات فكان يكلمهم عن الحضرات الإلهية، ويلوح لهم عن المشاهد الربانية والمقامات العلية والتجلى[1] الذاتى أو الصفاتى أو الأسمائى، أو التجلى الصورى، والقرب والوصول، والدنو والتدلى، ثم الطمس فى الذات، والفرق والجمع، وفرق الجمع وجمع الجمع، يشير إليهم بما ينبغى من الأدب فى كل حضرة ومقام، والتعرف لمراد الله فى الخلق وتجليه فى الأكوان، ذاكرا لهم الفرق بين الشهود والرؤيا، والمكالمة والمساررة والمكاشفة والمشاهدة، والتجلى الإلهى والفيض[2] الأقدس، وعن السر، وسر السر، وسر القضاء

---

(١) تجلي الذات: ما ينكشف لقلب السالك من أنوار الغيوب إذا كان مبدؤه الذات من غير اعتبار صفة من الصفات.

تجلي الصفات: هو ما ينكشف لقلب السالك من صفاته تعالى فإذا تجلى سبحانه على السالك بصفة من صفاته وذلك بعد فناء صفات السالك ظهر على السالك بعض آثار تلك الصفة بفضل الله تعالى فإذا تجلى الحق عليه مثلا بصفة السمع صار يسمع نطق الجمادات وغيرها وهكذا.

تجلي الأسماء: ما ينكشف لقلب السالك من أسمائه تعالى فإذا تجلى على السالك باسم من أسمائه تعالى اصطلم ذلك السالك تحت أنوار ذلك الاسم بحيث يجيب السالك كلما نودي الحق تبارك وتعالى بذلك الاسم.

تجلي الأفعال: هو ما ينكشف لقلب السالك من أفعاله تعالى، فإذا تجلى الحق تعالى على السالك بأفعاله انكشف للسالك جريان قدرة الله تعالى في الأشياء فيرى أنه تعالى هو المحرك والمسكن لا يعرفه إلا أهله، وهذا التجلي مزلة الأقدام فيخشى على السالك منه لأنه ينفي الفعل عن العبد بالكلية ولكن (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) وهنا يكون مقام المرشد الحق إذ يتولى مريده فيخرجه من هذه المزالق.

(٢) الفيض الأقدس: حضرة الأحدية المنزهة عن الكثرة والنسبية والوجودية وهو الإلقاء في القلب بلا واسطة بعد طهارته ونزاهته بعد أن صار صاحبه في مرتبة قرب النوافل فالحق سمعه وبصره ... إلخ.=

والقدر، والعلم وإحاطته بالكل، والهباء والعماء، والعدم المطلق والعدم المقيد، والهوية، والمعلوم المعدوم وأين كان، وما هو عليه الآن، وأثر الصفات فيه قبل الخلق وبعد الخلق، وما مرد ذلك وما حقيقته، وعلم البدء وعلم ما قبل وعلم ما بعد، وعلم ما لا قبل وما لا بعد.

ويذكر لهم الطى والنشر، ثم يتدرج بهم من الذوق إلى الشرب إلى الرى، ويعرض لهم بعض طلاسم أهل الحقيقة، ثم يفكها لهم ويحل عقدها بما يجعلهم يدهشون، ويبسط لهم الإشارات الخفية، ويشرح لهم رموزها، ويفصح عن غوامضها، ثم ينتقل بهم إلى ذوى الألسنة ومن يتكلم منهم باللسان المحمدى، ومن يتكلم باللسان القدسى، ومن هو على قدم موسى عليه السلام وعلاماته، ومن هو عيسوى وأماراته، والمحمدى وعلومه، ومقاماته وكمالاته، ومن هو وارث الرسول أو وارث النبى، ومن هو صاحب كشوف وكرامات حسية، أو من هو صاحب المقامات والعلوم والمعارف.

فعند ذلك يدرك أهل الحقيقة المراد من قوله، ويصحح لكل مقاماته، ويوقفه على أمراضه وعلاته ومعوقاته فى الطريق وعقباته، ويبين من هو المتحقق بالمقام، ومن غلبه الحال ومن ملك حاله، ومن هو الداخل فى الحضرة ومن هو المستشرف عليها، ومن هو الذى التبس عليه بعض المقامات ببعض، أو تداخلت عنده أو أنه فات المقام ولم يشعر به، أو أنه لم يطرق له بابا.

ما أفاده العارفون من الشيخ

فيخرج الكل من مجلسه وقد فهم حاله، وعرف مقامه وتشوق إلى أرفع المقامات وأعلى الدرجات، واعترف للشيخ رضي الله عنه بسمو مكانته، ورفيع درجته وتمكنه وسعة علمه

=الفيض المقدس: حضره الواحدية وفيه الكثرة والنسبة للذات الإلهية وهو الإلقاء في القلب من حضرة تلك الصفة ولا يكون إلا بعد طهارة القلب ونزاهته ويكون لكل صفة تجليها وفيضها الخاص بها.

النفث الرحماني: هو النفخ، مختص بالأرواح والمراد صورة كلام روحاني ويظهر فيه ظاهر القلب وهو إلقاء بالوسائط، الأول الروح السبوحي بلا واسطة.

الروع في القلب: ظاهر القلب وباطن النفس ويسمى الصدر.

ودقيق فهمه، وما ألبسه الحق سبحانه وتعالى له من تاج الكمال، وما حلاه بصفات الجمال، وما تجلى عليه بسعة العلم وفصيح المقال، وأنه فريد عصره ووحيد دهره وأنه قدوة الواصلين وشيخ المرشدين وإمام المسلكين، بل هو قطب الأقطاب فى عصره، والغوث الذى تتنزل عليه التنزلات الإلهية والنفحات العلية، فالله المعطى حقيقة وهو القاسم بين خلقه إرثا محمديا كما قال الرسول ﷺ: "إنما أنا قاسم والله معط" رواه الطبرانى عن معاوية.

الشيخ والموالد الرسمية

دأب الشيخ ﷺ على عدم اشتراكه فى الموالد الرسمية للمشايخ التى تقام لهم كل عام مرة أو مرتين، ذلك لاشتمالها على كثير من المظاهر التى لا تليق ورجال الطريق مما قد يؤدى إلى وجود بعض المخالفات الشرعية، ولما يرى فيها من عدم رعاية تامة لحرمة صاحب الذكرى، وعدم تقديس المساجد ولما فيها من ترك الخشوع والخضوع والسكينة التى تتطلبها زيارتهم ولما فيها من كثرة الضجيج والجلبة والأصوات المختلفة التى تتنافى ومقام الأولياء ورعاية الأدب معهم، إذ هم أحياء فليحرص الزائر على معاملتهم وهم فى برازخهم كأنهم فى حياتهم يرون ويسمعون، ولأن الهدف من زيارتهم العظة والعبرة والتأسى بسلوكهم والسير على نهجهم وتذكر سيرهم، وما لاقوه فى طريق الحق وما نالوه من نفحات، وما وهبوه من فيوضات، وما انتفع به الناس منهم فى حياتهم وفى برازخهم، وآثارهم الخالدة التى تشهد لهم بصدقهم مع الله وتمام يقينهم به. كل ذلك لم يجده الشيخ فى تلك الموالد الرسمية، لذا لم يشترك فيها، ودرجنا نحن أبناؤه على ذلك.

أوقات زيارة الشيخ لأهل البيت والأولياء

ومع أنه لم يشترك فى الموالد الرسمية، كان شديد الحب والتقدير لأهل البيت ـ رضوان الله عليهم ـ ولأولياء الله ـ رضى الله عنهم ،يكثر من زيارتهم، والتردد على أضرحتهم، والتبرك بهم طول السنة فى غير هذه الموالد، إذ كان يحب أن يزور الأولياء فى هدوء وسكينة، وفى حالة يسودها الهيبة والجلال، لعلمه أن صاحب المقام حى يرى ويسمع ويحيى زائريه، وله من الحرمة والواجبات ما للحى بل هو أوجب، لأنه فى

حضرة ربه سبحانه وتعالى دائما لا يشغله شيء عنها، إذ قد تفرغ لها، ولذا لزم الأدب فى حضرته، والخشوع عند زيارته، واستفراغ القلب لتلقى الواردات، والإفادة من النفحات التى يمن الله بها على الزائر إكراما لوليه.

مخاطبات ومشاهدات

وكم لاحظنا عليه حالات مختلفة، وتغيرات لا نعهدها فى مجلسه العادى كأنما بينه وبين صاحب الضريح مخاطبات، فيصغى أحيانا وأخرى يبتسم وثالثة نلحظ عليه الجد والصرامة... إلخ، ومصداقا لذلك كنا نسمع منه بعد أن يزور الولى يقول: (كان سيدنا فلان فى حال كذا، وقبل منى كذا، وطلب منى كذا، ورجوته فى كذا، فأجابنى أو أرجأنى)، إلى غير ذلك من المخاطبات.

وهكذا درج أولاده المريدون على هذه السنة، فلا يزورون الأولياء فى موالدهم الرسمية، وإنما يزورونهم قدوة بشيخهم ﷺ، فيما عدا ذلك من أيام السنة.

احتفاء الشيخ بميلاد سيدنا الحسين

ومع أن شيخنا ﷺ، كان لا يزور أهل البيت ـ رضوان الله عليهم ـ فى موالدهم الرسمية، إلا أنه كان يحرص على حضور مولد سيدنا الحسين ﷺ الحقيقى، ليلة الخامس من شعبان كل عام، ولذلك سبب نذكره.

زار شيخنا ﷺ سيدنا الحسين ﷺ مرة كعادته خلال السنة، مع حرصه على المبيت بجوار سيدنا الحسين ﷺ، ليصلى الفجر فى مسجده، وبعد هذه الزيارة جلسنا حوله فى المسجد فقال: (إنى أرى المصطفى ﷺ فى زيارة لولده الحسين ﷺ، وهذا على خلاف العادة، إذ إنى أعرف أنه ﷺ يزور ابنه الحسين كل ليلة جمعة)، ولم تكن هذه الليلة ليلة جمعة، ثم عقب قائلا: (لعل هذا لحكمة يعلمها الله).

ثم انصرفنا من الزيارة إلى (الفندق) الذى نبيت فيه كعادتنا، بجوار سيدنا الحسين ﷺ، فلاحظنا على الشيخ ﷺ حالا غير عادية من الهيام والوجد، وذكر عبارات للسادة الصوفية، ومقارنة بين بعض المقامات لهم، والتحدث فى مناقب أهل البيت رضوان الله

عليهم، والتوجه لبعض من حوله من المريدين ناصحا إياهم ومكاشفهم ببعض ما فيهم، فنال كثير منا شيئا من هذا الوجد، وعمّنا جميعا تجليات ربانية، وأحسسنا بخفة فى أجسامنا وهيمان لأرواحنا وانطلاق لها وانشراح فى صدورنا ورقة فى قلوبنا، حتى عزم الكثير منا على عدم النوم ما دام الشيخ ﷺ على هذه الحال لعل الله جل وعلا ينفحنا فى هذه الليلة، ويمنّ علينا مما يفاء به على شيخنا ﷺ، وأيضا كان دأبنا معه دائما فى السفر ألا ننام ما دام مستيقظا، فإذا تأهب للنوم انصرفنا إلى مضاجعنا.

حدث كل ذلك ولا ندرى له سببا[1] وإذا بأحد المريدين من القراء يأتى لزيارة الشيخ ﷺ فى (الفندق) حين علم بحضوره، فأخبر الشيخ بأن هذه الليلة هى ليلة المولد الحقيقى لسيدنا الحسين ﷺ، حينئذ عرف الجميع سر هذا الوجد، وذلك الهيام، وتلكم التجليات، ثم عقب الشيخ ﷺ على ذلك قائلا: (إذاً جده عليه الصلاة والسلام جاء لزيارته هذه الليلة لتلك المناسبة).

ومن يومها حرص الشيخ ﷺ على حضور هذه الليلة كل عام مهما كانت الأسباب عنده، وبحمد الله توارث أبناؤه من بعده هذه العادة، وحرصوا عليها، وها هم أولاء يعدون لها العدة كل عام، اقتداء بشيخهم، وأملا فى نفحات حضرة السبط الكريم ﷺ ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣].

أدبه فى زيارته للأولياء

كان من عادته ﷺ إذا دخل ضريح أحد الأولياء، حيا مسجده بالتحية الشرعية، فصلى ركعتين، ثم يتوجه إليه مباشرة إلا إذا كان للولى خليفة له ضريح بجواره، فيتوجه إليه أولا لزيارته، وكأنما يأخذ الإذن منه بالدخول على حضرة صاحب المقام الكبير، فمثلا كان إذا زار السيد (أحمد البدوى) ﷺ كان يبدأ بزيارة سيدى (عبد المتعال) ﷺ مستأذنا منه ومستشفعا به إلى سيدى (أحمد البدوى) قبل الدخول عليه، وإن لم يكن

---

(١) لم تكن هناك وقتئذ أمارات أو مظاهر تدل على أي أثر للاحتفال بمولد الحسين، ولكنهم الآن اهتموا بإحياء تلك الليلة كل عام بصورة تلفت النظر.

للولى خليفة بالمسجد كسيدنا الحسين ﷺ فإنه بعد أن يدخل المسجد ويصلى تحيته إن لم يكن أوان فرض يقف فى المسجد خارج الضريح تجاه القبر الشريف أمام باب الضريح، وكذلك فى زيارته للسيدة زينب ـ رضى الله عنها ـ كان يقف بالمسجد عند شباك (باب الفرج) ويقول (مثلنا لا يليق بهم أن يدخل على هؤلاء السادة أضرحتهم) فكان ﷺ يقف مستحضرا فى خشوع تام وخضوع كامل، ويقرأ ما يقرأ ويدعو بما يدعو، ثم يعجل بالانصراف، ولا يحب طول المكث عندهم، ومما كان يوصى به أولاده عند زيارتهم لأولياء الله التأدب التام فى حضرتهم، وخلو القلب من كل الخواطر، وقراءة سورة الإخلاص إحدى عشرة مرة، وإهداء ثوابها إلى صاحب الضريح المزور، حتى تتصل روحه بروح الولى، ثم يقرأ سورة (يس) إن كان حافظا لها، وسورة (الملك) ويهدى مثل ثواب ما قرأ للمزور، ليتوسل به إلى الرسول ﷺ، ثم يتوسل بالرسول ﷺ، إلى ربه فى قضاء حاجاته "فإذا سألت فاسأل الله" رواه الترمذى عن ابن عباس.

وكان ﷺ يحث المريدين الزائرين لأولياء الله، على الصدقة للفقراء المجاورين لأضرحة المشايخ، لأنهم فى حماهم وواجب علينا إكرامهم، ليرضوا عنا، ويقبلوا زيارتنا ويقبل الله دعاءنا، ﴿إِذَا نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ﴾ [المجادلة:١٢].

الاحتفال بالمولد النبوى الشريف

حكم الشرع فى إقامته وجميع ما يعمل فيه

أجمع عقلاء الأمة الإسلامية منذ القرن الثالث الهجرى على إحياء مولد سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ.

ومن المقرر عقلا ونقلا أنه لا تجتمع هذه الأمة المحفوظة بدعوة نبيها ﷺ على الضلالة، ولا يخفى أن الإجماع هو الحجة الثالثة فى الدين بعد كتاب الله وسنة رسوله الأمين ﷺ، وكما تكفل سبحانه وتعالى بحفظ كتابه المنزل على نبى هذه الأمة ﷺ من

التحريف والتبديل، فغيرة منه سبحانه وتعالى على هذه الأمة لأجل حبيبه ﷺ، قد صانها من الزيغ والميل عن طريق الحق "لا تجتمع أمتى على ضلالة"[1].

ومن أنكر الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف بعد هذا الإجماع فلا نلتفت إلى قوله، ولا نعيره أى اهتمام، لأنه لا يؤثر فى عقيدتنا ولن يغير من خطتنا التى درج عليها شيخنا ﷺ واتبعناها من بعده، ولم يثبط همتنا أبدا عن الاحتفال بمولد رسول الله ﷺ، ومولد أهل بيته والصالحين، حيث نلتمس بعد ذلك رضاهم،ونحرص على كل عمل يقربنا إليهم.

ولو كان الاحتفال بمولد الرسول ﷺ، أو أهل بيته، ينكره الرسول ﷺ ولا يرضاه ولا يقره، لما تركهم فى ضلالهم، وهو الحريص على هدايتهم، والدائب على إرشادهم، حيا وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، فلا تجمع أمته ﷺ على شيء إلا بإذنه ورضاه.

وقد أنكر عمل المولد جماعة من العلماء الرسميين، الذين ليس لهم فقه فى الدين ونحن ننقل لهم أدلة العلماء العاملين، ذوى الألباب المتمكنين فى جواز عمل المولد الشريف لسيد المرسلين ﷺ لنحق الحق الذى عليه أهل السنة وندحض الباطل الذى يتشيع له المبطلون:

١- قال أبو الخير السماوى فى فتاويه: (عمل المولد الشريف، حدث بعد القرون الثلاثة الأولى، ولا يزال أهل الإسلام فى سائر الأقطار والمدن الكبار، يحتفلون فى شهر مولده ﷺ بعمل الولائم البديعة، ويتصدقون فى لياليه بأنواع الصدقات ويظهرون السرور، ويزيدون فى المبرات، ويعتنون بقراءة قصة مولده الكريم، ويظهر عليهم من بركاته ﷺ كل فضل عميم).

ثم قال أيضا: (ومن خواصه أنه أمان فى ذلك العام، وبشرى عاجلة بنيل البغية والمرام لأصحاب ذلك المكان، الذى أقيم فيه الحفل بالمولد النبوى الكريم وتليت فيه قصة سيد الأنام ﷺ).

---

[1] جزء من حديث رواه أحمد والطبراني و غيرهما عن أبي بصرة الغفاري ﷺ.

٢- وأول من عمل المولد من الملوك صاحب (إربل) الملك المظفر (أبو سعيد كوكبرى) وكان ينفق عليه ببذخ، ويدعو إلى الحفل أعيان العلماء والصوفية ويخلع عليهم، ويطلق لهم أى يعطيهم الأموال الكثيرة ورأته زوجته مع هذا الإنفاق الواسع يلبس قميصا من قماش غليظ، فعاتبته فى ذلك فقال: (ألبس ثوبا بخمسة دراهم، وأتصدق بالباقى خير لى من أن ألبس ثوبا مثمنا، وأدع الفقير والمسكين). وقال الحافظ أبو شامة شيخ النووى فى المولد: (هذا حسن يندب إليه ويشكر فاعله ويثنى عليه). وقال ابن الجوزى فيه (لو لم يكن فى ذلك إلا إرغام الشيطان وإدعام أهل الإيمان لكفى)(١).

وقال العلامة ابن ظفر رحمه الله تعالى، فى الدر المنتظم (عمل المحبون للنبى ﷺ فرحا بمولده الولائم، فرأى أحدهم النبى ﷺ يحرض ويشجع على ذلك) وقد أبطل بعضهم عمل المولد فى سنة من السنين فرأى رسول الله ﷺ فى المنام غاضبا وقال له: (لا تعطل المولد ولا السنن) وقال الشيخ أبو موسى الزرونى: [رأيت النبى ﷺ فى المنام فذكرت له ما يقوله الفقهاء فى عمل الولائم فى المولد فقال النبى ﷺ: (من فرح بنا فرحنا به)].

هذه هى بعض أقوال العلماء فى المولد النبوى الشريف، وكلهم أجمعوا على أنها بدعة حسنة متفق على جواز فعلها، والاستحباب لها، رجاء الثواب لمن حسنت نيته فيها، والبدعة الحسنة هى (كل مبتدع موافق لقواعد الشرع غير مخالف لشىء منه، ولا يلزم من فعله محذور شرعى).

الاحتفال بالمولد النبوى سنة حسنة

وعمل المولد بدعة حسنة، مثل بناء المقابر والربط والمدارس، وخانات السبيل وغير ذلك من أنواع البر، التى لم تعهد فى الصدر الأول، فإنه موافق لما جاءت به الشريعة من اصطناع المعروف والمعاونة على البر والتقوى.

---

(١) من كتاب سبل الهدي والرشاد في سيرة خير العباد للإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٧٢ ص ٤٤٩

وماذا فى إقامة المولد من مخالفات شرعية، إنه يعمل احتفاء برسول الله ﷺ،وحبا فيه وتعظيما له وتقربا إليه، بعمل مشروع من قراءة قرآن، وصلاة على رسول الله ﷺ، وإقامة ولائم للأهل والأصدقاء والفقراء، وتلاوة القصة الشريفة.

ولقد قال الشيخ العلامة نصير الدين الشهير بابن الطباخ فى فتوى بخطه: (إذا أنفق المنفق فى تلك الليلة (يعنى ليلة المولد) وجمع جمعا أطعمهم ما يجوز إطعامه، وأسمعهم ما يجوز سماعه، ودفع للمسمع المشوق للآخرة ملبوسا كما جرت عادة الصوفية، إذا اجتمعوا وروَّح أرواحهم قوَّال، خلعوا عليه من ملابسهم، ونفحوه من دراهمهم، مقتدين بالرسول ﷺ، حين أنشده حسان وروح الصحابة فخلع عليه ﷺ بردته).

كل ذلك يفعل سرورا، بمولده ﷺ، فهو جائز ويثاب فاعله، إذا أحسن القصد.

فحفل المولد مجمع خير وبركة، إن كان كما ذكر ابن الطباخ فى فتواه السالفة ولا يكون مجمع إثم، إلا إذا كان فيه ما يخالف الشريعة، مأكولا أو مشروبا أو سماعا، أو اختلاطا بين النساء والرجال، فلا نقر اختلاطا بين الرجال والنساء ولا استعمال الآلات الصوتية أثناء السماع للقصة الشريفة، أو المديح فى ذاته الشريفة، حتى المكبرات الصوتية لا نقرها أيضا.

وفى ذلك يقول العلامة ظهير الدين جعفر رحمه الله: (إقامة المولد بدعة حسنة، إذا قصد فاعلها جمع الصالحين، والصلاة على النبى الأمين ﷺ وإطعام الطعام للفقراء والمساكين، وهذا القدر يثاب عليه بهذا الشرط فى كل وقت، ويضاعف الثواب إذا كان فى حفل مولد الرسول ﷺ، وأما جمع الرعاع وعمل السماع المحرم والرقص وخلع الثياب على المغنى أوالمنشد الأمرد حسن الصوت فلا يندب، بل يقارب أن يذم).

إقامة المولد كما قلنا سابقا محدثة من المحدثات لم تكن فى الصدر الأول وقد قال الإمام الشافعى ﷺ: (المحدثات من الأمور ضربان أحدهما: ما أحدث مما يخالف شرعا أو سنة، أو أثرا أو إجماعا، فهذه البدعة ضلالة، وثانيهما: ما أحدث من الخير مما لا خلاف فيه، فهى محدثة غير مذمومة). وقال عمر ﷺ فى قيام رمضان: (نعمت البدعة هى) أى أنها محدثة لم تكن؛ وإذا كانت فليست بدعة منكرة وذلك حيث جمع سيدنا عمر

الصحابة على إمام واحد فى المسجد النبوى فى المدينة المنورة، وجعل القيام عشرين ركعة وهى طريقتنا ـ بحمد الله ـ من يوم أن نشأنا فى طريق القوم، ولا نقر الاقتصار على الركعات الثمانية، لأنها مدرجة الكسالى، ودعوة إلى البطالة، ويكفينا إمامة وقدوة فى هذا الشأن فاروق الأمة سيدنا عمر ﷺ، وما عليه أهل مكة والمدينة للآن.

إن ولادة الرسول وظهوره ﷺ سبب النجاة لمن اتبعه، وتقليل حظ جهنم لمن كان من أهلها بولادته ﷺ، وتمت بركاته على من اهتدى به فشابه يوم مولده يوم الجمعة، من حيث إن يوم الجمعة لا تسعّر فيه جهنم هكذا ورد عنه ﷺ، فمن المناسب إظهار السرور وإنفاق الميسور وإجابة من دعاه رب الوليمة للحضور.

ميلاد النبى نعمة وشكرها الاحتفال بها

إن الاحتفال بعمل المولد، ما هو إلا اقتداء برب العالمين، حيث أمر جميع الكائنات، فاحتفلت بليلة مولده ﷺ، فتبادلت العوالم التهانى بمولده السعيد حيث خرج من بطن أمه من هو رحمة للعالمين وأقام الله جل شأنه الأفراح بمولده ﷺ بحيث لو كان أبوه موجودا لما عمل شيئا إلا ما كان فى طوق البشر، فلقد منحه مولاه ليلة مولده من الخوارق ما لم يمنحه إخوانه من الأنبياء والمرسلين، من ذلك ما ظهر لأمه، ورويته عنها الثقات، وما رأته قابلته التى تلقته على يديها، وما حصل لجميع النساء الحاملات فى عام حمله، وما كسبت الأرض من خصب وجودة، حتى صار عام ولادته مشهورا بعام الفتح والجود الواسع، والكرم السابغ.

طاف سيدنا جبريل عليه الصلاة والسلام ليلة مولده ﷺ أنحاء الأرض، وسبح فى الأجواء، وعرج إلى السماء ليبشر بمحمد ﷺ وليتبادل مع الملائكة عبارات التهانى والفرح والسرور والابتهاج، ونصبت الأعلام، ورفرفت الرايات، وأضيئت الدنيا كلها بالأنوار، وحرست السماء من الشياطين، وخمدت نار فارس، التى كانت تعبد من دون الله، وتصدع إيوان كسرى منبع الظلم والطغيان، ونكست الأصنام، وكل ذلك مظاهر حفاوة الحق برسوله الحق سيدنا محمد ﷺ، أكرم الخلق عليه، ومن تكريمه لرسوله ﷺ أن جعل قلوب الخلائق كلها مسرورة بمولده فرحة به، حتى من سيكون له عدوا فى مستقبل الأيام، فها هو ذا أبو لهب الذى نزل القرآن بذمِّه، فرح واستبشر بولادته حين

أخبرته ثويبة مولاته فأعتقها فرحا به[1] وأمرها بإرضاعه، وقد ورد فى السنة أن الله يخفف عنه العذاب كل يوم اثنين لفرحه بمولد الرسول الأعظم ﷺ، فإذا كان الله قد أكرم الكافر بتخفيف العذاب عنه لفرحه بمولد حبيبه ﷺ، فما بالك بالمسلم الموحد، إذا احتفل بذكرى مولد الرسول ﷺ فأنفق وأغدق، وأظهر الفرح والابتهاج والسرور، ولا شك أن جزاءه سيكون عظيما، وثوابه كبيرا، وأجره وفيرا، وفى ذلك يقول القائل:

إذا كان هذا بالنص جاء ذمه *** وتبّت يداه فى الجحيم مخلدا

أتى أنه فى يوم الإثنين دائما *** يخفف عنه للسرور بأحمدا

فما الظن بالعبد الذى طول عمره *** بأحمد مسرورا ومات موحدا

فالفرح بيوم ولادته ﷺ قد عم الكائنات بأسرها، بخلاف ما جرت به العادة، إذ العادة أن يسر بالمولود أهله، وقد يسر به جيرانه أو أهل البلد جميعها، إذا كان أبوه عظيما، أما رسول الله ﷺ فقد أحدث له الله من خوارق العادات ما ليس له نظير، حتى انتشر خبره فى جميع الأقطار والبلدان، فما من أحد إلا سمع بولادته، وتساءل عن أسباب تلك المستحدثات الخارقة للعادات فيقال له وُلد مولود مبارك ميمون.

وإذا كان سيد الخلق ﷺ يقول: "من عظمت مصيبته، فليذكر مصيبته فىّ"[2] فقد اعتبر الرسول ﷺ مفارقته الدنيا مصيبة للمسلمين جميعا، أفلا تكون ذكرى مولده فرحا للمسلمين جميعا؟ وهو الذى جاء من أجلهم ولإخراجهم من ظلمة الشرك إلى نور التوحيد.

ألا يكفيك ما سبق دليلا على إقامة الحق أفراحا ابتهاجا بنعمة النعم ـ سيدنا محمد ﷺ ـ بما حدث يوم ولادته من الابتهاج الكونى العام، والسرور الشامل التام؟ فنقتدى بخالقنا فى الاحتفال بالمولد النبوى الشريف، وأن نقيم الأفراح والولائم ابتهاجا برسول الله ﷺ، وشكرا لله على تلك النعمة العظمى حيث أمرنا ربنا فى القرآن الكريم بذكرها

---

[1] هذه القصة أخرجها البخارى فى صحيحه عن عروة رضي الله عنه

[2] رواه أبو نعيم فى معرفة الصحابة عن سليمان بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه و فى أخبار أصبهان عن ابن عباس رضى الله عنهما.

فقال جل شأنه: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المائدة:٧] وما النعمة الحقة إلا سيدنا محمد ﷺ، وما ذكرها إلا شكرها، وما شكرها إلا اتباعها وإظهار ما يشعر بتعظيمها، وتبجيلها واحترامها، وهكذا وفاءً لصاحب النعمة، وشكرا لصاحب المنة، وجب علينا أن نظهر الفرح والابتهاج، وإذا كنا نقيم الولائم للفقراء والأصدقاء عند تجدد كل نعمة أنعم الله بها علينا، فقد أمرنا رسول الله ﷺ بالعقيقة عن المولود يوم السابع، ووزن شعره والتصدق بمقداره ذهبا، وإقامة الوليمة للفقراء والأهل ابتهاجا بهذا المولود وشكرا لله على هذه النعمة، أفلا يكون احتفالنا بذكرى مولده ﷺ كل عام أولى؟ ليزيدنا الله من فضله إذ هذا من باب شكر النعم قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ [الضحى:١١]، ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم:٧].

الاحتفال بالمولد النبوى له نظائر فى الشرع

فإذا كان المولود العادى يأمرنا رسول الله ﷺ أن نظهر فرحنا به، وشكر ربنا بذبح الذبائح وإقامة الولائم والتصدق على الفقراء، ألا تكون ذكرى مولد الرسول ﷺ أولى وأجدر؟ بأن نظهر فرحنا به، ونعلن ابتهاجنا بما نقيم من موالد وموائد فيها قربات لله وللرسول ﷺ يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢].

إن سيد الوجود ﷺ شعيرة الشعائر التى أمر الله عباده أن يعظموها وأن يقدروها؛ ألا يكون أقل تقدير للرسول الأعظم ﷺ أن نحتفل بذكرى مولده اعترافا بفضله؟ فقد أخرجنا من الظلمات إلى النور ومن الضلال إلى الهدى، وبه كنا خير أمة أخرجت للناس.

وإذا كان المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها يحتفلون بذكرى يوم بدر أول معركة انتصر فيها الإسلام، أفلا يكون الأجدر أن نحتفل بيوم مولد الرسول ﷺ؟ وإذا كان نصر المسلمين يوم بدر نعمة يجب على المسلمين شكرها وتقديرها وذكرها، أفلا يجب على المسلمين تقدير مولد الرسول ﷺ والاحتفال به؟ والرسول نعمة النعم، وأصل كل خير، وسبب كل بر لجميع المخلوقات.

وإذا كنا نحتفل بليلة الإسراء والمعراج التى فيها دعا الله حبيبه إلى الضيافة العظمى ليريه من آياته الكبرى،وليتجلى عليه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، أفلا يكون الرسول ﷺ أولى بالاحتفال بمولده وظهوره ووجوده، وإظهار الفرح والسرور والابتهاج به؟

وإذا كنا نحتفل بليلة الإسراء والمعراج وهى تجلية من تجليات الله على رسوله ﷺ فما بالك بمهبط التجليات، ومجلى أثر الصفات، أفلا يكون ﷺ جديرا بالاحتفال بمولده والإشادة بذكره؟

إن الرسول ﷺ سن لنا صوم يوم عاشوراء، لأنه يذكرنا بنعمة الله على سيدنا موسى عليه السلام حيث نجاه الله ومن معه، وأهلك فرعون وقومه، فقد رأى رسول الله ﷺ حين قدم المدينة اليهود يصومون هذا اليوم شكرا لله لنجاة موسى عليه السلام، فقال نبينا ﷺ (نحن أولى بموسى منكم – وصامه، وأمر بصيامه) [1]، فإذا كان الرسول ﷺ يأمرنا بصوم يوم عاشوراء شكرا لله حيث أنعم على سيدنا موسى عليه السلام بنجاته وهلاك عدوه، أفلا يكون مولد الرسول ﷺ وهو نعمة لنا قبل غيرنا جديرا بالاحتفال به شكرا لله على هذه النعمة التى ليست بعدها نعمة ولا قبلها نعمة؟

وكما أمر الدين الحجاج بالوقوف بعرفات يوم التاسع من ذى الحجة من كل عام،وسن صيامه للمقيمين، شكرا لله على نعمة تعارف سيدنا آدم بأمنا حواء فى هذا المكان، وقد تمخض عن هذا التعارف الاجتماع كل عام فى هذا المكان إحياء واستذكارا لسبب نزولهما من الجنة، وأسباب تأسيسهما معالم العبادة وكل ما هو ضرورى لحياة البشر، وما مناسك الحج جميعها وسائر هذه الفريضة إلا إحياء لذكرى عمل سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام فى هذه الأماكن وتلك الأوقات.

وما صوم يوم عرفة، ويوم عاشوراء، وغير ذلك من معالم الخير التى لا تفعل إلا كل سنة مرة إلا استذكاراً لسببها، وشكراً للمنعم بها علينا.

---

[1] أخرجه البخارى و مسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما.

فأى نعمة على بنى البشر أعظم من نعمة الله عليهم، وعلى غيرهم من المكونات من حضرته ﷺ بعد قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، فكيف لا نذكر تلك النعمة ولا نحتفل بها، ولا نقوم بواجب شكرها وبخاصة عند حلول موعد طلوع شمس تلك الحقيقة؟ وبروز شخصه الشريف إلى الوجود الحسى.

أولم يكفك هذا دليلا على جواز الاحتفال بمولد المصطفى ﷺ كل سنة؟ بل وفى غضون العام كله، هدانا الله إلى معرفة الحق، وسلك بنا الطريق المستقيم إليه.

إن جميع الموالد التى تعمل لأهل البيت، ما هى إلا على شاكلة مولد سيد العالمين، وكذلك موالد الأولياء لأنهم جميعا من أهل البيت ـ بيت النبى ﷺ ـ تحققا ونسبا "سلمان منا أهل البيت"[1]، و"أنا جد كل تقى"[2].

فضائل وفوائد

وإليك بعض منافع وفوائد الاحتفال بمولد المصطفى ﷺ كما ذكرها كثير من العلماء العاملين، والصوفية المحققين، نذكرها إتماما للفائدة وحفزا للهمم؛ وتقوية للعزائم، حتى يقدر المسلمون مولد الرسول ﷺ قدره، ويعملوا فيه ما يرضى الله، ويحسنوا النية والقصد حتى لا يحرموا هذا الثواب العظيم والأجر الكبير والنفع الكثير.

١- قال إمام الصوفية فى عصره (الجنيد ﷺ). (من حضر قراءة مولد النبى ﷺ وعظم قدره فقد فاز بالأمان).

٢- وقال معروف الكرخى ﷺ: (من هيأ لأجل قراءة مولد النبى ﷺ طعاما، وجمع إخوانا، وأوقد سراجا، ولبس جديدا وتبخر وتعطر، تعظيما لمولده ﷺ، حشره الله يوم القيامة مع الفرقة الأولى من النبيين وكان فى أعلى عليين).

---

[1] رواه الطبرانى فى الكبير و الحاكم فى المستدرك والبيهقى فى الدلائل عن عمرو بن عوف المزنى ﷺ

[2] ذكره الحافظ السيوطى فى كتابه الحاوى للفتاوى

٣- وقال فريد دهره، ووحيد عصره فخر الدين الرازى ﷺ (ما من شخص قرأ مولد الرسول ﷺ على ملح أو بر، أو شيء من المأكولات إلا ظهرت فيه البركة،وفى كل شيء وصل إليه ذلك الملح أو البر أو غيره، ومن وصل إلى جوفه شيء من ذلك فإنه يضطرب: أى يتحرك ولا يستقر فى جوفه حتى يغفر الله لآكله، وإن قرئ مولد النبى ﷺ على ماء طاهر، فكل من شرب من ذلك الماء دخل قلبه ألف نور ورحمة، وخرج منه ألف ظلمة وعلة،ولا يموت قائله يوم تموت القلوب).

٤- وقال الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه: (من جمع لمولد النبى ﷺ إخوانا، وهيأ لهم طعاما، وأخلى مكانا، وعمل إحسانا، وصار سببا لقراءته، بعثه الله يوم القيامة مع الصديقين والشهداء والصالحين، ويكون فى جنة النعيم).

٥- وقال السرى السقطى ﷺ: (من قصد موضعا يقرأ فيه مولد النبى ﷺ فقد قصد روضة من رياض الجنة لأنه ما قصد ذلك الموضع إلا لمحبته فى رسول الله ﷺ) وقال ﷺ: "إن من أحبنى كان معى فى الجنة"[1].

٦- وقال سلطان العارفين الإمام جلال الدين السيوطى ﷺ: (ما من بيت أو محل أو مسجد قرئ فيه مولد النبى ﷺ إلا حفت الملائكة أهل ذلك البيت أو المحل أو المسجد، وصلت على أهل ذلك المكان وعمهم الله بالرحمة والرضوان).

٧- وقال العلامة (فتح الله البنانى): (ما من مسلم قرئ فى بيته مولد النبى ﷺ إلا رفع الله عنه القحط والبلاء والحزن، والآفات والعاهات والبليات والنكبات، والبغضاء والحسد واللصوص، فإذا مات هون الله عليه جواب منكر ونكير، وكان فى مقعد صدق عند مليك مقتدر).

---

[1] رواه الترمذى و الطبرانى فى الأوسط عن أنس بن مالك ﷺ

ولقد دفع حب الشيخ ﷺ لسيده ومربيه ﷺ إلى الاستعداد لشهر ربيع الأول من كل عام ليتنسم نفحات الرسول ﷺ ويتلمس البركات والإمدادات من ذكرى سيرته العطرة.

فقد كان يستقبل هذه الأيام المباركة كما يستقبل أحدنا أيام الأعياد، وينظم الحفلات لقراءة قصة المولد النبوى الشريف للشيخ (الوليدى) ﷺ فى ليالى مولده ﷺ واختار الشيخ قصة المولد (للوليدى) بالذات لأنها المتفق على صحة روايتها بين أهل الحقيقة، وكنت ترى الحفل جامعا بمريديه ومحبيه، وكل راغب فى سماع ذكرى السيرة العطرة، وكان الشيخ يقيم هذه الاحتفالات كل ليلة من ليالى شهر ربيع الأول، متنقلا فى بيوت أولاده الذين يرغبون فى تعطير منازلهم، ويلتمسون البركة لذويهم بالذكرى النبوية الشريفة.

أما ليلة الثانى عشر من شهر ربيع الأول، وهى التى يكاد يجمع المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها على أنها هى التى ولد النبى ﷺ فيها، فقد كان ﷺ يقضيها فى بيته وبين أسرته، ليدخل عليهم السرور ويشاركهم الفرحة بهذه الذكرى، وليؤدى واجبه نحو أقاربه وجيرانه؛ فيختصهم بما أفاء الله عليه من فضله.

نفحات ورحمات

وكان ﷺ يقول: (إن شهر ربيع هو ربيع المريدين السالكين إذ إنهم لا شك باشتراكهم كل ليلة فى الاحتفال بهذه الذكرى الطيبة ينالون من صاحب الذكرى ﷺ النفحات والهبات والأنوار والأسرار)، وكان يردد دائما قوله: (إن هذه الاحتفالات هى شعار الطريق الحقيقى) وحقا فإن فضل الزمان لا ينكر، لا سيما إذا كان أيام مولده وكان الاحتفاء من أجله ﷺ، وكنا نرى على الشيخ اهتماما بالغا وانشراح صدر كاملا،وتعلقا كبيرا وشوقا فياضا لصاحب الذكرى، ولا شك أن هذه النفحة تسرى من الشيخ إلى المريدين فتحس وكأنهم ليسوا فى هذا العالم المادى، وأن أرواحهم تحلق فى آفاق علوية، كل ذلك مما يزيد فى روحانية الجمع، ويزيدهم أنوارا لمشاركة أهل

السماء لهم، ونظرة الحق لهؤلاء، فضلا عن رضا صاحب الذكرى، صلوات الله وسلامه عليه.

منهجه فى الاحتفال

١- قراءة سفينة النجاة بعد العصر:

كانت خطته فى هذه المحافل البدء باجتماع المريدين والأحباب فى منزل صاحب الدعوة، من أبنائه أو أحبابه، بعد صلاة العصر، فيقرأون سفينة النجاة لسيدى (أحمد زروق) قراءة جماعية.

٢- حضرة ذكر وتلاوة للقصة

وبعد صلاة المغرب، يتناول المريدون طعام العشاء، ثم يستعدون لصلاة العشاء فإذا ما صليت بدئ بتلاوة القصة النبوية الشريفة من بعض المريدين، وقد يسبق تلاوة القصة أحيانا حضرة ذكر ببعض أسماء الله جهرا، ينتظم فيها المريدون قياما فى حلقة كبيرة متشابكى أصابع الأيدى، مستحضرين الحق سبحانه، لا ترى منهم تمايلا ولا ما يخالف الشرع، ولا تسمع نغمات ولا أنات إلا ذكر اسمه تعالى، وأحيانا يصحب الذكر منشد يحفز هممهم ويطير بأرواحهم إلى عالمها الأول، ويتم الذكر ولا ترى من خرج عن صوابه أو تقلصت أعضاؤه، فبحمد الله يمتلئون بالأنوار ويسرحون فى عالم الملكوت ولا يظهر على الجوارح ما يخالف الشرع وهذا هو طريق الحق، يمتلئ المريد أنوارا متنوعة بطاعته المختلفة وأذكاره الكثيرة، ويحظى بالعديد من المشاهد تمر على قلبه أثناء ذكره وسيره إلى الحضرة، كل هذا ولا تظهر على جوارحه حركات تنكر عليه، وذلك لكمال استعداده وقوة المرشد الحامى له وتمكنه، بخلاف بعض الذاكرين الآخرين فلأول بارقة تلمع لهم، أو أى مشهد يمر على قلوبهم تختل حركاتهم وتظهر منهم الأفعال التى ينكرها العقلاء، فيصرخون أو يبكون أو يجرون فى الطرقات،وقد يتعرى بدن أحدهم وهو لا يدرى، وهذا لا شك نقص وضعف فى المريد والمرشد.

٣- قراءة الفواتح وتوزيع الهدايا

وبعد تلاوة القصة تقرأ الفواتح لأهل البيت والأولياء، ثم توزع على الحاضرين هدية من تمر أو حلوى، لينالوا البركة الحسية والمعنوية، إذ قد ورد أنه إذا تليت القصة الشريفة على تمر أو حلوى وأكل منها كانت شفاء للأجسام والصدور، وسببا فى غفران الذنوب وتكفير السيئات.

٤- مجلس علوم ومعارف

وبعد الإذن بانفضاض المجلس وانصراف بعض المحبين، يلتف حول الشيخ بعض مريديه وخلص أبنائه فى الطريق، متطلعين لما يفيض عليهم الشيخ ﷺ من علوم ومعارف أو يفيء عليهم مما نال من أرزاق، وما جنى من ثمار وأدرك من تجليات، أو يوجه بعض التوجيهات والآداب والإرشاد أو يعرض لحل بعض المشكلات، أو يتعرف لشتى أمورنا ويتفحص أحوالنا فى سيرنا فى طريق الله فمن وجده منقبضا سأل عن سبب قبضه، فإن كان دنيويا عمل على كشف أسبابه، وإن لم يكن له سبب دنيوى فكما يرى بنافذ بصيرته ما يصلح له، فإن رأى أن هذا القبض فى صالحه ليحرق بعض صفاته الذميمة تركه، ولو وجد أنه يخشى عليه منه لئلا يحرقه ويقطعه عن ربه سرّى عنه وشرح صدره وأخرجه إلى البسط بواسع حيله وسابغ كرمه، ومن وجده منبسطا أرشده إلى الأدب فى تلك الحال، لئلا يجرفه تيار البسط فينأى به عن الجادة، وهكذا فيتحسس لأخبار وأحوال أولاده، فمن كانت له حاجة من الحوائج كلف من له دراية وخبرة فى هذا الموضوع لإنجازها، وصدق الله إذ يقول ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩].

دروس وعظات

وقد يلقى فى هذه الاحتفالات بعض مريدى الشيخ ﷺ من العلماء عظة دينية، أو يشرح آية من كتاب الله، أو حديثا شريفا، فيتناول الشيخ هذه الآية أو ذلك الحديث بالتعليق حسبما يفيض الله عليه، موجها أسئلة إلى أبنائه طالبا الإجابة عنها، ملوحا بإشارات العارفين فى الآيات، وكان كل مريد يجيب الشيخ عن أسئلته حسب حاله واستعداده، وما أفيض عليه فى هذه الجلسة، وبها يتعرف على مذاقات ذلك المريد

ومراقيه ومشربه ومنزله ومقامه، ويعرف الإخوان ما وصل إليه أخوهم، فيدفعهم ذلك إلى العمل والأدب بمثل ما درج عليه ذلك المريد، فيكون التنافس والتسابق فى العمل والخدمة وذلك روح الطريق، وبذلك كان شيخنا يروح أرواحنا، ويشوقنا إلى المراقى العالية، ويحببنا فى الحضرة النبوية، ويحلق بنا فى الآفاق الملكوتية، ويسرح بنا فى تلك الرياض القدسية، فكانت بحق جلسات فريدة لا تعادلها إلا جلسات أهل الجنان، فكنا جميعا نحس بأننا فى عالم آخر له جلاله وجماله ومتعه الروحية، وكأننا ننعم برياض الجنة "إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا وما رياض الجنة: قال حلق الذكر"[1].

القبض والبسط

لما ذكرنا القبض والبسط، وكيف كان يعالج الشيخ ﷺ مريده فى كل حال منهما، ناسب أن نذكر نبذة عنهما:

البسط

فرح يعترى القلوب أو الأرواح إما بسبب قرب شهود الحبيب، أو شهود جماله أو بكشف الحجاب عن أوصاف كماله أو بغير سبب.

أما القبض

فهو حزن وضيق يعترى القلب، إما بسبب فوات مرغوب، أو عدم حصول مطلوب، أو بغير سبب وقيل هما حالتان قهريتان يتناوبان القلب، ولا يجتمعان فى قلب امرئ أبدا، ولا يملك الإنسان دفعهما ولا جلبهما، قال تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ [البقرة:٢٤٥].

فالقبض انكماش القلب فى حالة حجابه عن ربه، والبسط انبساط القلب فى حالة كشفه، ولقد فضل بعضهم القبض على البسط، لأن الله سبحانه ذكره فى الآية أولا،

---

[1] أخرجه الترمذى وأحمد والطبرانى وغيرهم عن أبى هريرة ﷺ .

ولأنه إذابة للبشرية وتفتيت لها،وحرق للصفات النفسية، وفضل البعض الآخر البسط على القبض، لذكره مؤخرا فى الآية، وهذا يفيد أهميته، لأن العرب تؤخر المهم.

فالبسط سرور، والقبض حزن، والعارف يحس سرورا فى حال جمعه بالحق وحزنا فى فرقه، والإقامة فى دار الجمع خير منها فى دار الفرق، وقيل إنهما نتيجة لمؤثر روحانى يهبط على الإنسان من ربه فإن امتلأ القلب سرورا قبض القلب، فهما متلازمان، فقبض القلوب بسط للنفوس، وقبض النفس حماية لها من الأذى، وبسط القلب تعاتب بين المتحابين.. والقبض غيرة من أجل الله، والبسط تعاتب مع الله..

والقبض والبسط يتعاقبان على السالك، تعاقب الليل والنهار، والله سبحانه يربى عباده بشتى أنواع التربية، كما قالوا (الصوفية أطفال فى حجر الحق يربيهم بما يناسبهم) فقد يتجلى لهم بوصف جماله فيبسطهم، أو بوصف جلاله فيقبضهم، فهذه ألطافه فإذا أخذ المريد القبض وتمكن منه الخوف وسكن تحت قهره أخرجه إلى البسط بما يتجلى عليه من جماله لئلا يحترق قلبه ويذوب جسمه، وإذا أشهده وصف جماله بسطه، فيفرح قلبه وتنطلق جوارحه وتظهر عليه الحركة ويعمه السرور، فمن لطفه يتجلى عليه بوصف جلاله، ويشهده ما كان من نسج فعاله فيقبضه، ولو تركه مع البسط لأساء الأدب وجره ذلك إلى العطب، فهما علاجان يعالج الله بهما عبده السالك طريقه حتى يعلو عن الأكوان؛ فإذا ما علا عن الأكوان رفع عنه الحجاب، فيتنزه فى كمال الذات، فلا جماله يحجبه عن جلاله، ولا جلاله يحجبه عن جماله، وعندئذ فلا بسط ولا قبض، وهؤلاء هم المتمكنون لأنهم ثابتون كالجبال لايأسرهم قبض ولايحركهم بسط فهم مالكون للأحوال، ولا يملكهم أى حال يأخذون النصيب من كل شىء، ولا يأخذ منهم النصيب أى شىء.

موجبات القبض:

أن يرد على القلب وارد موجبه إشارة إلى عتاب، أو رمز باستحقاق تأديب، فيحصل فى القلب لا محالة قبض.

أن يرد على القلب إشارة إلى تقريب بنوع لطف وترغيب، فيحصل للقلب بسط.

آداب القبض

آداب القبض الذى له سبب، الاجتهاد فى إزالة الأسباب التى أوجبته من خوف أو حزن أو هم أو غم، والرجوع إلى مسبب الأسباب، والنظر إليه سبحانه فهو الكريم الوهاب، وإن كان من غير سبب فليلزم الطمأنينة والوقار، والسكون تحت مجارى الأقدار، والرجوع إلى الله، فإن القبض أشبه بالليل، والبسط أشبه بالنهار، ومن شأن الليل الرقاد والهدوء والسكون، وجملة القول أن سبب القبض النظر إلى السوى والغفلة عن المولى، ولذا كان ﷺ يقول من أصابه همّ أو غمّ فليقل: (الله الله ربى لا أشرك به شيئا) [1].

وهذا هو الدواء- شهود التوحيد والغيبة عن الشرك- وفى الحديث (اعرفوا الله ووحدوه ينقلب قبضكم بسطا وفقركم نعمة) فهذا شأن العبد الصبر على أحكام سيده، والتسليم لما يجريه عليه من أوصاف القهر، وقد يجد العبد فى قلبه قبضا، لا يدرى موجبه ولا سببه، فيجب عليه التسليم حتى يمضى وقت القبض، لأنه لو تكلف نفيه، أو استقبل الوقت قبل هجومه عليه باختياره يزاد فى قبضه، واعتبر هذا السلوك منه سوء أدب، أما إذا استسلم لحكم الوقت فعن قريب يزول القبض، فإن الله سبحانه وتعالى يقول ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ [البقرة:٢٤٥].

آداب البسط

كف الجوارح ولا سيما اللسان، وإلجام النفس بلجام الصمت، ودخول الخلوة والتزام البيت، والتحلى بالسكينة والوقار؛ لأن النفس إذا انبسطت فرحت ونشطت، ولربما تسيء الأدب فتسقط فى مهاوى القطيعة، وقد قيل (إن الفقير فى حال القوة

[1] رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه وأحمد وغيرهم عن أسماء بنت عميس رضى الله عنها.

والبسط يكون نوره قويا، وقلبه مجموعا، فإذا تحرك وبطش، وتتبع قوته برد ورجع لضعفه، إذ هو كقدر غلى وفار، فإن لم ينزله صاحبه أو يخمد ناره، ذهب ما فيه وأريق إدامه، وبقى فارغا) ولذا كان العارفون فى حال البسط، أخوف منهم فى حال القبض ولهذا قيل: (قف على البساط، وإياك والانبساط) وقد يجد العبد بسطا يرد عليه بغتة، ويصادفه فلتة، دون ما سبب فيهزه ويستفزه، ويكون على خطر عظيم، فيجب عليه السكون والتزام الأدب حذرا من مكر خفى يحيط به، وقد قال بعضهم (فتح على باب البسط فزللت زلة حجبت بها عن مقامى).

(اللهم إنا نسألك حسن الأدب فى كل حال، وأن نكون متأدبين بما يجب فى كل مقام، كى نحظى منك بالرضا التام).

صورة من مجالس الشيخ

وكان ﷺ خلال أشهر العام إذا دعاه أحد مريديه ليتشرف به فى بيته ولينال بركة شيخه يلبى دعوته ويذهب إليه فى صحبة مريديه، ويحيى ليلته تلك إما بقراءة قصة المولد الشريف، أو فى مدارسة العلم والإرشاد، وبعث الهمة فى النفوس، وتشويقهم إلى الوصول، ويشجعهم بتشميمهم بعض المعارف الربانية، والتحدث عن أسرار الحق فى نظم آياته القرآنية، ويقارن تلك الآية بمثلها فى سورة أخرى، مع اختلاف فى الألفاظ والبحث عن سر ذلك الاختلاف ليعلم أن الحق له تجليات مختلفة ومنازلات عديدة، ويفسر لهم أن هذا من قبيل كذا، وذاك على مثال كذا، تقريبا للأذهان، وتوضيحا للأفهام، عندها يستنهضهم إلى نيل تلك الثمار، وبلوغ هذه المقامات والدرجات، فيجدون إلى مواصلة العمل الصالح وحسن السلوك، والمداومة على الأوراد والأذكار مع صدق النية والإخلاص فى العمل رجاء نيل المأرب، والوصول إلى هذا المورد، وكان يتخلل ذلك ما يقصه علينا ﷺ مما حدث له فى الطريق، وما لاقاه من صعوبات، وصادفه من عقبات، وما قام به من أنواع الرياضات، وما أخذ به نفسه من أنواع المجاهدات، وكيف تخلص من صفاته وتغلب على نفسه ومطالبها وسيطر عليها، وما ألجمها به من لجام الشرع، وألزمها به من آداب الطريق الحق، ويذكر الكثير مما عرفه، من آداب القوم ومختلف منازلهم، وتعدد أحوالهم وتنوع مشاربهم، ويسرد بعض

عباراتهم، وما كان منهم من إشارات أو شطحات، ثم يتعرض لتفسير بعض تلك الإشارات، مبينا مقاصدهم من تلك المقالات، ثم يحدثنا عن بعض كراماتهم لتشجيعنا على السير على منوالهم، لنظفر بما ظفروا ولنتحقق أن محب الله يتولاه مولاه فينصره ويؤيده ويدافع عنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج:٣٨] كما كان يذكر ﷺ أنواع الأذى التى تعرض لها هؤلاء القوم وصبروا على ما أصابهم فى سبيل الله، مبينا لنا أن هذه السنة موروثة لأهل الطريق دائما، وأن فى كل عصر يتعرض أولياء الله للأذى من أعداء الله ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١] ولكن فى النهاية يحقق الله النصر والفوز لأوليائه ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢] ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧].

سماحته فى اعتذاره عن المسىء

ومع هذا كله كان يلتمس العذر، لهؤلاء المسلطين على أولياء الله فيقول: (إنهم مساقون لذلك من الله، إما غيرة منه على أحبابه، فلا يركنون إلى غيره، وليظلوا متعلقين دائما به، أو لأن الله يريد نشر دعوتهم فيسوق هؤلاء الناس إلى الخوض فى حق هذا الولى قاصدين الحط من كرامته، وما يدريهم أن هذا نشر لدعوته ورفع لمكانته من حيث لا يشعرون، مصداقا لقول القائل:

إذا أراد الله نشر فضيلة طويت *** أتاح لها لسان حسود

ثم كان يقول أيضا:

(إن هؤلاء الناس يرون أولياء الله أنهم كسائر الناس فى الأعمال والحركات ولم يدروا ما لهم عند الله من منزلة واختصاصات، ثم يسمعون منهم ما لا تدركه العقول، وتحار فى فهمه الفحول، فينكرون علمهم،ويرمونهم مرة بالإلحاد، وأخرى بالجهل، وهم معذورون، إذ من جهل شيئا عاداه (والناس أعداء ما جهلوا) ومن ذلك ما يروى، عن سيدى محيى الدين بن العربى ﷺ أنه مر بجماعة فسبوه وشتموه ورموه بما لا يليق به، فتحرش بهم بعض المريدين له فمنعهم وقال: (والله ما شتمونى، وما أساءوا إلى إنما

سبوا وشتموا صورة سيئة فى ذهنهم عنى ولو علموا حقيقة أمرى لتلمسوا منى الرضا واعترفوا بما أنا عليه) وهكذا كل من نظر إلى ساداتنا من حيث بشريتهم وطبيعتهم وصفاتهم الآدمية أنكر ما هم عليه، إذ إنهم بشر مثلهم يعملون كما يعمل سائر الناس ﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٧] فلم يصل هؤلاء المعترضون إلى ما وصل إليه السادة ولو علموا ما أنكروا عليهم أمرهم (ولله فى خلقه شئون) ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران:٧٤] ولو أتى أحدهم وقال رأيت فى منامى كذا، وسافرت إلى كذا وأكلت من الجنة... إلخ ما يرى لم ينكر عليه أحد فهؤلاء فى يقظتهم أطلق من بقية الخلق فى نومهم فيرون ما لا نرى ويشاهدون ما لا نشاهد، حقا من نظر إلى الخصوصية لم ينكر، ومن نظر إلى البشرية جحد، فمن نظر إلى محمد يتيم أبى طالب لم يؤمن به، ومن نظر إلى محمد رسول الله آمن به، وقد يسلط الله على أوليائه هؤلاء الأعداء لأنهم ممكور بهم، وحقت عليهم كلمته فساقهم إلى الوقيعة فى أهل حضرته، ليستوجبوا ما عنده من انتقام لهم ولقد صدق قائلهم: (إن لحومهم مسمومة فمن نال شيئا منها أصابه ما أصابه).

حرص المريدين على إحياء ليالى ربيع

لما كان لليالى شهر ربيع الأول ما سبق، ولما لمسناه من نشاط غير عادى وخفة فى أجسادنا عند استيقاظنا فى جوف الليل لأورادنا مع أداء أعمالنا المعيشية على أكمل وجه وسهرنا المتواصل فى هذه المجتمعات، حرص أبناء الشيخ الخلص من بعده على التأسى بالشيخ فى تلك السنة الكريمة، والاحتفال بليالى شهر ربيع كلها حسبما كان يعمل شيخهم ﷺ، ولقد كان لهذه الموالد وتلكم المجالس المكانة السامية والمنزلة العالية عند أهل الله، إذ كانت تحلق أرواح المريدين فى الملأ الأعلى، فيقطفون من ثمار رياض تلك المنازل العلم والعرفان، ويدركون أسرارا لا تستطيع الألسنة مهما أوتيت من بيان التعبير عنها أو الإفصاح بها، وكان الكل يدرك ذلك ويحسه بما يجد فى قلبه من رقة ويشعر فى صدره من انشراح، فكانت بحق كما قال الرسول ﷺ: "إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها". رواه الطبرانى فى الأوسط عن محمد ابن سلمة.

ومع هذه الحالة الروحية العالية والصورة العظيمة لتلك المجالس، وهذه الاحتفالات وما فيها من خيرات وفيوضات، فقد كان البعض لا يحسون ولا يشعرون برقة فى قلوبهم لأنهم لم يتنسموا بنسمات المعرفة ولا يدرون ما يفاض عليهم من أنوار ولم يتسرب إلى نفوسهم شيء من العظة والاعتبار، ولم يعوا ما حوته هذه المحافل بل ساقتهم ريح الأقدار إلى تلكم الديار، لأمر يشاؤه الله وليخرج دفين صدورهم، ويظهر خبث طويتهم، لينزل بهم ما كتب عليهم فى الأقدار.

ولذا كانوا إذا سمعوا هذه المعارف أو نشر عليهم أريج تلك العلوم يتبرمون إذ هذا لا يوافق أذواقهم وأهواءهم، فهم يحبون الحديث كما هى عادة الناس فى الدنيا وفى ذكر فلان وفلان، وتناقل الأخبار إلخ، بل كانت هذه العلوم ثقلا على قلوبهم وضيقا فى صدورهم ووقرا فى آذانهم إذ إن قلوبهم لم تتذوق معانى هذه الحكم ولم تنشرح صدورهم بهذه العبارات ولم تع آذانهم هذه المقالات، وكأنما هذه العلوم كالنور يهتدى به الراشد البصير، ويضل به ذو البصر الكليل فأخرجت خبايا نفوسهم وكشفت عن مكنون صدورهم فظهر خبثهم وبان مكرهم فكانوا يتهامسون فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم ما لنا وتلك الليالى والسهر الطويل وضياع الوقت والمال فيما ليس فيه كبير فائدة فى نظرهم وبخاصة البعض منا موظف وله مكانته الاجتماعية وهذه الليالى والاجتماعات فيها ما فيها من اختلاطنا بسائر الناس ومراكزنا الاجتماعية تذوب، ولكننا فى الجلسة سواء ولو دخل علينا رئيس أو كبير من الناس ووجدنا كذلك كان هذا حطا لقيمتنا وإهدارا لكرامتنا، لا سيما وإنا نتناول الأطعمة فى كل ليلة فى بيت، كل هذا يتنافى ودرجتنا كموظفين، أو رؤساء فى بعض الأعمال، وأننا كغيرنا من عامة الناس لا تمييز لنا ولا تفضيل، وأغروا بعض الإخوان بذلك قائلين لهم: إن هذه الليالى فيها تكلف وضياع للمال وتبذير وإسراف ويكفى احتفال المريدين بمولد رسول الله ﷺ ليلة واحدة من ليالى الشهر وبعدها نفرغ لمصالحنا المادية وأعمالنا الدنيوية، ونوفر على أنفسنا الجهد والمال، فانطلت هذه المقالات السيئة على بعض ضعيفى العقول وتبعهم كل ضال وجهول.

ولما بلغ الشيخ ﷺ هذا الأمر وعرف موقف هؤلاء من الاحتفال بمولد الرسول ﷺ، أدرك أنها لفتة نفسية، ونزعة شيطانية وليدة مرض فى قلوبهم، وزيغ فى عقيدتهم، وخبث فى طويتهم، وابتلاء لأبناء الطريق ليميز الله الخبيث من الطيب، والصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق، ثم قال ﷺ قولته الخالدة مصمما على إحياء تلك الليالى؛ لأنها شعار الطريق الحق وروحه بصدق، وفيها رضا المصطفى ﷺ (والله لو بقيت وحدى لأحييت ليالى ربيع واحتفلت بميلاد حضرة المصطفى ﷺ الشهر كله) متمثلاً قول الصديق ﷺ(والله لو منعونى عقال بعير لقاتلتهم) ولو كنت وحدى.

أثر هذه الفتنة فى المريدين

نقول: كانت بحق فتنة امتد شررها وعظم على الشيخ ومن معه من خلص مريديه وقعها، إذ أحدثت بلبلة فى النفوس، فتصدع شمل المريدين، وكثر القيل والقال، ما بين مؤيد ومعارض ونظر الشيخ ﷺ متأثرا لأولاده حرصا وشفقة عليهم من أخذة الهوى، وخدعة الشيطان لهم، وجذبة الدنيا إياهم، إذ هم غرس يده يسعى لنموه وإثماره فخشى عليهم ريح الهوى أن تخلع عودهم من أرض الطريق، ومن وسوسة الشيطان أن تفسد قلوبهم فتسدها فلا ينفع فيهم بعد نصح أو إرشاد، فخوطب فى سره ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال:٢٣]، فهدأ وسكن ولكنه بشر يتألم كما يتألم سائر البشر، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ [الكهف:٦] الآية، وماذا يعمل الشيخ أمام ذلك؟ فما أبدى فى تلك الفتنة مقالا ولا حرّك أركانا، بل صمت الشيخ ﷺ ونظر إلى الله فى أفعاله وتصريف أقداره، وما زعزعت ريح هذه المحنة شيئا من أركانه، وما حركت عواصف الفتنة تلك شامخ تمكين بنيانه، وما نالت من كمال رسوخه لا قليلا ولا كثيرا بل زادته هذه المحنة إيمانا ويقينا، ومعرفة وتمكينا بربه، وتعلقا وحبا بالله وبرسوله ﷺ بدليل أنه ما زال على عادته الشهر كله يقيم الاحتفال لإحياء ذكرى مولد المصطفى ﷺ ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [ال عمران:١٧٣].

ودارت الدوائر على هؤلاء المنافقين المتمردين، وكانت القاضية عليهم إذ كانت نهاية هؤلاء المخالفين لحضرة الشيخ المعترضين عليه فى إصرار وعناد الطرد والإبعاد عن طريق الله والعياذ بالله، ومنهم من ندم وتاب واسترضى الشيخ ورجع إلى الطريق، ومنهم من جمح وشرد أخذته العزة بالإثم وظل مطرودا حتى مات، نسأل الله لنا وله حسن الختام، وصدقت عليهم حكمة الصوفية فى ذلك: (من قال لشيخه لم؟ لا يفلح) (ومن اعترض انطرد).

فى كل جماعة منافقون

ولا تعجب أخى القارئ أن يكون فى صحبة الشيخ منافقون يعملون كعمل المريد الصادق وهم للطريق أعداء، ولأعدائه أصدقاء، فقد كان هذا الصنف من المسلمين يعيش مع الرسول ﷺ ويرافقه فى صلاته ويصاحبه فى غزواته، ولما كانت تظهر أمارات النفاق فى فلتات ألسنتهم، يتحرش بهم سيدنا عمر رضي الله عنه ويهم أن يبطش بهم فكان ﷺ ينهاه ويقول: (مه يا عمر لئلا يقال: إن محمدا يقتل أصحابه)[1] ونزل فيهم قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٠].

وقد نهى الله تعالى رسوله ﷺ عن الصلاة عليهم، فقال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤].

فإذا علمت هذا فلا تتصعد بك الخواطر أن تشك فى مقام الشيخ أو تحط من قدره، لأن المنحرفين عن طريق الله ليسوا من عنصر الشيخ، ولا من خالص معدنه.

---

[1] متفق عليه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه

كذلك ليس فيهم ما فى المريدين الصادقين من أسرار وأنوار، وصدق وإخلاص إنما هم فى طريق القوم دخلاء، وفى ديارهم غرباء، وما قادهم إلى الشيخ إلا ما يقود الفراش إلى النار، فضعف بصيرتهم وعمى قلوبهم قادهم إلى النور، وما دروا أنه يحرقهم، إذ ليس فى قلوبهم نور فيتلاقى نورهم بنور الشيخ فيستنيرون فى طريقهم إلى الحق، فلظلام قلوبهم وخلوها من النور أحرقتهم أنوار الشيخ وأوردهم الردى؛ فالمشايخ آيات الله يضل بها من يشاء ويهدى بها من يشاء.

ولا تعجب لذلك فهذا شأن الكمل، فكما أنه لا بد للبدر من سحاب وللحسناء من نقاب، كذلك أولياء الله لا بد لهم من حجاب ليستر سر خصوصيتهم عن العامة، فكان هؤلاء المنافقون بمثابة حجاب يستر سر الشيخ ويخفى خصوصيته عن غير جنسه، فكان إذا سمع العامة الثناء على الشيخ أو التمدح بما هو عليه يقولون: (أليس من أولاده فلان؟ أفلا يجالسه ذلك المنافق الماكر؟) وما دروا أنهم حجابه، كما قال سيدى أبو الحسن ﷺ (إن لكل ولى حجابا وحجابى الأسباب).

ولو أردت إمعانا، لأدركت أن هؤلاء ومن آزرهم من مرضى القلوب لمحرومون وحقت عليهم كلمة الله فساقتهم الأقدار إلى مجلس الشيخ؛ ليلقوا جزاءهم وما قُدّر عليهم ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:١١٨] ولا ندرى مجيئهم إلى الشيخ أيقظة ضمير أو لمعة نور جذبتهم، أو دخلوا رجاء نفع مادى وكسب منزلة بين عشيرتهم، أو لينالوا سمعة طيبة يخدعون بها الناس بانتسابهم إلى الشيخ؟ ولكن كما تعلم سرعان ما يظهر الحق وتتبدد سُحب الباطل، وتبرز خبيئة نفوسهم وتظهر حقيقتهم ويبدو ما عندهم من دَخَل، وما فى قلوبهم من شك، وما فى عقيدتهم من وهن، وكأنما كل منهم كان يسعى بنفسه إلى هلاكه وحتفه واستحقاقه البعد والطرد، وإذا نظرت بعين البصيرة عرفت أنها قسمة أزلية وأنه من أهل الشقاوة وما ظهر عليه من صالحات إنما هى طلاء ظاهرى وزخرف مزيف ولكن حقيقة معدنه الخبث والشر والفساد، يوضح ذلك قول الرسول ﷺ: "فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، حَتَّى لاَ يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلاَّ ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ" الحديث رواه البخارى ومسلم عن ابن مسعود.

حيرة وتعجب

من سيرة الشيخ ﷺ التى بيناها فى القسم الأول من هذا الكتاب تعلم أيها القارئ أنه قد حفظ القرآن الكريم، وعرف من الأحكام الشرعية والآداب المحمدية ما تصح به عبادته وما يزن به معاملاته مع المسلمين، إلى أن جذبه الحق سبحانه وتعالى إليه، فاختاره لطريقه هاديا ومرشدا، وفتح له بابا إلى العلوم اللدنية، والمعارف الإلهية وصار يشرح الحقائق العلمية والعقائد التوحيدية، ويفسر الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، ومصطلحات القوم وإشاراتهم بألفاظ منتقاة، وعبارات مختارة، يجريها الحق على لسانه لم تنقش فى كتاب ولم تسطر فى ديوان، يعجز عنها فحول العلماء الرسميين، وتأخذ بألباب السامعين، ويعرفها أهل الله المحقين إذ إنها تهز منهم مكامن الشوق وتحرك وجداناتهم نحو الملكوت، فتتلألأ على وجوههم الأنوار وتغمرهم سعادة لا تقاس بأى معيار.

فكان ﷺ إذا حاج الخصم أو المعاند أفحمه، وإذا تكلم وعظا وإرشادا أسمع وأقنع، فيتعجب السامعون على اختلاف نزعاتهم ومشاربهم، ويتساءلون وينظر بعضهم إلى بعض نظرة المتحير المبهوت، كيف ينطق الشيخ بهذه المقالات؟ ويفسر هذه الآيات، على هذا النمط البكر الذى لم نعهده لدى المفسرين! مع أنه لم ينتسب إلى الأزهر الشريف ولم يتعلم فنون الكلام والمنطق وأساليب البلاغة والبيان!

وقد فاتهم أن من أدركته العناية الإلهية وشملته الرعاية الربانية بالحق يقول وبه ينطق مصداقا للحديث المشهور {كنت سمعه... إلخ} وتحقيقا لقول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥] وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢].

توافد علماء عصره عليه

ولما انفرد الشيخ ﷺ من بين مشايخ عصره، ومسلكى زمانه، وعلماء وقته، بما فتح له من تلك العلوم والمعارف والتفسير الذى لم يفض خاتمه لكتاب الله والفهم العميق له، والترجمة الصادقة لحديث سيد الخلق ومربيه ﷺ ولشرحه عبارات القوم وإجابته عن شطحاتهم، وتوضيح المتشابه من كلامهم، وما عيب عليهم من ألفاظهم، ومقصودهم

فى مقالهم، وماذا يعنون، وبأى لسان يتكلمون، تناقلت الأخبار شهرته، وتداولت الألسنة فى المجالس سيرته، وتطلع الكل إلى رؤية ذلك الشيخ الغريب فى نوعه، الفريد فى عصره فتوافد عليه علماء الظاهر حبا فى الاستطلاع، ورغبة فى تحقيق ما سمعوه عنه، ومدى ما تناقلته الأخبار فى شأنه، فكانوا يأتون إليه أفواجا، ويوجهون إليه أسئلة قد يراد منها الاختبار أو التعجيز حسدا له وحقدا عليه، واستعظاما لفضل الله، كيف يمن به على ذلكم الرجل، وهو فى نظرهم غير عالم وهم أحق بذلك منه؟ ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] فرد الله عليهم بقوله ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وقد يراد بهذه الأسئلة الاستفهام والوقوف على الحق، والمعرفة الخالصة لله تعالى، فمن أنار الله قلبه ووفقه وهداه، فهم الأمر على حقيقته، وشرح الله صدره، وعرف كلام الشيخ فتشربه قلبه واعتقد صدقه، وآمن أنه الجوهرة اليتيمة فى ذلك العصر، وأنه ضالة المؤمن التى يبحث عنها للاهتداء بها حيث إنه مفتوح له ينطق بالله، وكلامه قريب العهد من الله؛ فيعشق ذلك العالم مجالس الشيخ مقتفيا أثره فى العمل، رجاء أن يمن الله عليه بما منَّ على ذلكم الشيخ بما علم، ليورثه الله العلم المكنون.

وفعلا أصبح للشيخ من هؤلاء العلماء مريدون كثيرون، شهدوا بفضله أولا، وعملوا بوصاياه ثانيا، فنالوا على يديه النفحات والبركات والمعارف الإلهية والعلوم الربانية حتى أصبح كلامهم الشرعى عليه صبغة الحقيقة مكسوا بالأنوار، ينفذ إلى القلوب، فتنطق الألسنة مجمعة على أنه عالم قلب، لا عالم رسم ولسان منهم على سبيل المثال: العالم الصوفى غزالى عصره فضيلة الدكتور (عبد الحليم محمود) شيخ الجامع الأزهر، وجل علماء الأزهر، الذين يجاورون الشيخ ﷺ أو يسمعون به فى البلاد المحيطة بشبلنجة.

ومنهم من كان يدعو إلى الله ويسلك فى الطريق على طريقة غير الطريقة الشاذلية، وكان مع ذلك يقصد الشيخ بالزيارة متبركا به، ومسترشدا ومعترفا بفضله وعلو مقامه، نذكر من هؤلاء على سبيل المثال صاحب الفضيلة المرحوم الشيخ (محمد أبو العيون) عالم الأزهر المعروف وصاحب الضريح المشهور فى (ديروط) بالصعيد، فكم زار الشيخ

فى حياته وطلب منه الدعوات، وكم تردد على ضريحه بعد انتقاله إلى جوار ربه، وكثيرا ما ردد استفساره من بعض المريدين المقربين للشيخ عن حب الشيخ له ورضاه عنه، سائلا أولاده بقوله (بالله طمئنونى أكان الشيخ يحبنى بحق؟ وهل لمستم منه كامل الرضا عنى؟ وهل جرى اسمى على لسانه فى غيبتى؟) كل ذلك حبا للشيخ وتبركا به، واطمئنانا على رضاه.

ومن العلماء الرسميين من يخرج من مجلس الشيخ ﷺ وقد امتلأ صدره حقدا عليه، وفاض قلبه غيظا منه، متلمسا المثالب والعيوب له، مغيرا وجه الحقيقة فيما سمع، ملبسها ثوب الزور، ومضيفا إليها ما يريد به التشهير والنيل من مكانة الشيخ ﷺ ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء:٤٦].

فيقعد مع إخوان الشياطين، ويعرض لكلام الشيخ مستهزئا به طاعنا فيه، ومعلقا على حديثه بما يقعد الشيطان على لسانه، فينطق بما سولت له نفسه وبما أملاه هواه، فيتضاحك الجميع ويتغامزون، ويذيعون ذلك عن الشيخ وينشرونه ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [القلم:٤٥] ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

نافذة يدخل منها الأعداء للتشهير بالشيخ

سجدتا الغفلة وهؤلاء العلماء:

من المعروف شرعا أن الصلاة إذا حدث فيها شيء من النقص أو الزيادة جبرت بسجود السهو المعروف عند فقهاء الشرع.

ولما كان الشيخ يعلم أن الصلاة إنما يتوقف قبولها على مقدار حضور العبد فيها مع ربه، كما قال ﷺ: "ليس للعبد من صلاته، إلا ما عقل منها، وإن العبد ليصلى الصلاة فلا يكتب له منها إلا ربعها أو خمسها. الحديث" رواه أحمد عن أبى هريرة.

لذا حرص الشيخ ﷺ أن يظفر أولاده بقبول صلاتهم، إذ هى أساس العبادات، ومفتاح السعادة فى الدنيا والآخرة حيث يقول الرسول ﷺ "أول ما يحاسب عنه العبد

الصلاة، فإن كانت تامة، قبلت، وقبل سائر عمله، وإن لم تكن تامة ردت ورد سائر عمله" رواه النسائي عن ابن مسعود.

ومن ثم كانت غبطته وسروره عندما عثر على ما يعينه على قبول الصلاة، ويجبر ما يقصر فيه الإنسان من استحضار فيها، إذ كان يحب لأولاده دائما الرفعة، وينشد لهم الكمال ويرجو لهم فيما بينه وبين ربه قبولا لأعمالهم، وإخلاصا فى عباداتهم، فقرأ فى كتاب الميزان للشعرانى، وكتاب المواقف للجزائرى وغيرهما، من الكتب كالفتوحات المكية لابن عربى، ونوادر الأصول للترمذى.(ما يؤيد سجدتى الغفلة)

سند سجود الغفلة عمل الصحابة:

إن سيدنا عبد الله بن عباس وجماعة من الصحابة رضى الله عنهم كانوا يسجدون عقب الصلاة وبعد السلام وإن لم يقع منهم نقص أو زيادة فى الأركان أو الواجبات أو الهيئات، وكانوا يقولون: (إن صلاة أمثالنا لا تخلو من الخواطر) وإن العبد لا يمكنه الحضور التام مع ربه فى الصلاة من أولها إلى آخرها، فجبرا لهذه الغفلة التى ترد على العبد فى صلاته، وتفوت عليه شيئا من حضوره مع ربه، وهو المقصود الأسمى من الصلاة؛ إذ ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها، وأن مدار قبول الصلاة على ذلك الحضور، وبه تليق صلاته للحضرة، كى يرقى العبد مع ربه، وينال قربه لذا كانت هاتان السجدتان.

نصوص أدلة سجود الغفلة

وإليك النصوص المؤيدة لذلك:

١- جاء فى ص ١٤٦ ج ١ من كتاب الميزان للشعرانى فى باب سجود السهو ما نصه، (وقد كان عبد الله بن عباس وجماعة يسجدون عقب كل فريضة للسهو، وإن لم يقع منهم خلل فى ترك شيء من السنن الظاهرة ويقولون: (صلاة أمثالنا لا تسلم من الخلل) نقله الحكيم الترمذى فى كتابه نوادر الأصول.

٢- نظير ذلك قول عطاء: (إنه لا نافلة لأمثالنا، وإنما هى جوابر للخلل فإن النوافل لا تكون إلا لمن كملت فرائضه كالأنبياء).

٣- كما جاء فى كتاب المواقف ج ٢ ص ٢٧٨ الموقف ٢٨١ لسيدى عبد القادر الجزائرى، ما نصه:

وقد نقل الإمام الشعرانى ﷺ فى كتابه كشف الغمة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: (من استطاع أن يسجد سجدتين عقب كل صلاة فليفعل).

٤- وسئل شيبان الراعى ﷺ وكان من سادات أهل الطريق الأميين، عمن سها فى صلاته فقال: (هذا قلب غافل عن الله، يجب أن يؤدب) يعنى بالسجود.

وأول من سن السجود عقب كل صلاة من سادات أهل طريق الله تعالى، الحكيم الترمذى، وكان من الأفراد ﷺ، ثم اتبعه من اتبعه على ذلك.

قال سيدنا فى الفتوحات المكية ﷺ:

يستحب لكل مصلٍ أن يسجد بعد كل صلاة سجدتى السهو، فإن كان الإنسان لا يخلو أن يغيب لحظة فى نفس صلاته عن كونه مصليا فما زاد، فيكون ذلك ترغيما للشيطان، وهو مذهب الترمذى الحكيم.

إنكار العلماء على الصوفية عادة متوارثة:

ثم قال المؤلف بعد ص ٢٨٨ ولما اطلع بعض المريدين للزيادة من الخير على ما فى الفتوحات، صار يسجد بعد كل صلاة، أنكر عليه بعض الفقهاء وشدد عليه النكير ظنا منه أن هذا من الزيادة فى الدين، حيث لم يقل به الفقهاء وإنما قال به أهل طريق الله، ولو نقل له هذا عن بعض المعروفين بالفقه لقبله واستحسنه، لتوهمه أن الفقهاء أعلم بالشريعة وأحكام الدين من أهل طريق الله، فلا يقولون قولا فى الدين إلا بدليل بخلاف أهل الله، وما يدريه أن تسعة أعشار أقوال الفقهاء استحسان، والعشر له دليل من الكتاب والسنة أو الإجماع أو القياس.

وقد نقل عن العز بن عبد السلام ﷺ أنه كان إذا نقل له شىء عن طريق أهل الله يقول: (وهل ثم شىء زائد على ما فهمنا من الكتاب والسنة)، وبعد ما صحب أبا

الحسن الشاذلي ﷺ صار يقول: (ما قعد على قواعد الشريعة إلا هؤلاء) اللهم ألهمنا رشدنا، وأرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وألهمنا اجتنابه وسد علينا بابه.

الخلاصة:

هذا مجمل ما نقل عن ساداتنا فى السجدتين، ونحن نقول: (إن شيخنا ﷺ قبل اطلاعه على هذه المنقولات، كان يسجدهما لاطمئنان قلبه إليهما، عملا بالحديث "يَا وَابِصَةُ اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَاسْتَفْتِ نَفْسَكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ"[1] ونحن لا نشك فى صدق هؤلاء، فهم ملهمون ومسددون، ولو كان فى ذلك الأمر ما يخالف الشرع، ما وفق إليه لا سيما وأننا قلنا: (إن مربيه حضرة الرسول ﷺ ولا يقره على غير ما شرع، ولذا لما كان يسأل ﷺ عن الدليل فى ذلك يقول: أنا مستند فيهما إلى حبر هذه الأمة سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، ابن عم النبى ﷺ، وقد قال الرسول ﷺ "أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم" رواه البيهقى عن ابن عباس.

وقت السجود:

فكان ﷺ يسجد هاتين السجدتين عقب الصلاة بعد السلام يمينا وشمالا، ولم يعمل كما رأى سيدى محيى الدين بن عربى وأمثاله من الإتيان بهما قبل السلام، حرصا على إتمام الصلاة بحدودها الشرعية، وحتى لا تلتبس هاتان السجدتان بسجود السهو الشرعى المعروف.

سجود الغفلة واجب عند الصوفية:

وكان الشيخ ﷺ يرى أن هذا السجود (ويسميه سجود الغفلة) واجب كسجود السهو الشرعى لا سيما لسالك طريق الله؛ لأن سجود السهو الشرعى يجبر النقص

---

[1] رواه الدارمى و أحمد و الطبرانى و غيرهم عن وابصة بن معبد الأسدى ﷺ.

والزيادة فى الأركان ظاهرا، وسجود الغفلة يجبر الخلل المعنوى الذى يتوقف عليه قبول الصلاة عند الله، وهو الغفلة عن الحضور، لأن الحضور هو المقصود من الصلاة، ومن أجله شرعت.

فما شرعت الصلاة للقيام والقراءة، وإنما للدخول فى حضرة الرب سبحانه وتعالى، واستحضار عظمته، وهو المطلوب الأسمى من كل عبادة وطاعة.

عمل بذلك الشيخ ﷺ فى كل صلواته، وأشار إلى مريديه بهذا العمل الجليل، وقال ﷺ: (لم يطمئن قلبى لشىء فى طريق الله كاطمئنانه لهاتين السجدتين... وأين نحن من ابن عباس رضى الله عنهما الذى كان يقول: (صلاة أمثالنا لا تسلم من الخلل)، فما بالكم بصلاتنا ذات الخواطر والعلل، والتى تحتاج إلى جبر أكبر من صلاة الصحابة رضوان الله عليهم).

ومن هذا نعلم أن الشيخ ﷺ كغيره من كل العارفين، والورثة المحمديين إذا دعوا إلى عمل صالح استندوا فى عملهم ودعوتهم إلى دليل من الكتاب أو السنة أو عمل الصحابة، حتى لو رأوا فى منامهم ما يدعوهم إلى عمل صالح، ورأوا أنه لا اعتراض عليه من الشرع، وأن لأمثاله فى الدين نظير، عملوه فى خاصة أنفسهم دون أن يدعوا إليه، خشية أن يطالبوا بالسند أو الدليل.

وإذا رأوا ما لا يؤيده الدين، ولا سند له من الشرع تركوه، مصداقا لما روى عن سيدى أبى الحسن الشاذلى ﷺ (إذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة، ودع الكشف، وقل لنفسك إن الله قد ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة، ولم يضمنها لى فى جانب الكشف والإلهام والمشاهدة).

ولذلك عندما رأى ﷺ سند هاتين السجدتين فى الكتب السابقة عن أسيادنا الصحابة الأعلام، وعن أئمة أهل الطريق العارفين بالله، وهؤلاء من مصادر التشريع، عمل بهما ودعا إليهما مريديه، إذ من المعلوم عند أئمة الفقه وأصوله، أن المصدر الأول للتشريع الكتاب ثم السنة، ثم عمل الصحابة، بدليل الحديث: (أصحابى كالنجوم) والإجماع والقياس، وسند هذا الأمر عمل الصحابى، ومن أين لأمثال ابن عباس هذا؟

إن لم يكن رأى ابن عمه حضرة الرسول ﷺ يفعله؟ لأنه وغيره من الصحابة لا يعملون إلا ما رأوه من المشرع الأعظم ﷺ، أو على الأقل عملوا وتأكدوا استحسان صاحب الشرع لهذا السجود.

وأنت تعلم أن الواحد من هؤلاء الصحابة كان يتحرج عن الفتوى فى أى مسألة، ويدور السائل على أكثر من سبعين صحابيا ولا يظفر بجواب حرصا منهم وخشية أن يقولوا ما لا يوافق الشرع، لا سيما وأن الأحكام فى ذلك الحين كانت تأخذ طريقها إلى الاستقرار والتأسيس للدين الصحيح الكامل الخالص من كل ما يشوبه أو يجعله فى غير ثوبه الشرعى الموحى به من السماء، فمخافة الإتيان بأمر يَنْبَنى عليه حكم شرعى تورعوا عن الفتوى، ولو كان هذا الحكم فيه أدنى شبهة أو ميل أو عدم موافقة لأصول الشرع ونصوصه ما أعلنها ابن عباس ومن معه، كل هذا شد عزم الشيخ وقوى همته، بعد أن أمر بهما فى المنام، فأخذ يدعو مريديه إلى القيام بهما عقب كل صلاة لاطمئنان قلبه إلى ذلك، ولاستناده إلى ما سبق من الدليل.

دليل كشفى يؤكد سجدتى الغفلة:

وأيضا مما يزيدنا تمكينا فى هذا الشأن ورضا صاحب الشرع عنه، أن بعض خلص مريدى الشيخ أيام حياته رأى المصطفى ﷺ جالسا فى الروضة الشريفة بثيابه البيض، ومعه أصحابه بنفس اللباس، إلا أنه كان أقل بياضا من ثياب الرسول ﷺ فسلم ذلك المريد على النبى ﷺ وسأله عن هاتين السجدتين، فنظر الرسول ﷺ إلى أبى بكر ؓ كأنما يريد رأيه فى ذلك، فأدبا من الصديق لم يفت فى حضرة النبى ﷺ، فنظر الرسول ﷺ إلى ذلك المريد مبتسما وأومأ برأسه، يشير إلى إقراره لهما، فانتبه المريد وأسرع إلى الشيخ يقص عليه رؤياه، فاستبشر الشيخ ؓ بذلك لأن رؤيا النبى ﷺ لا شك فى صدقها، لا سيما و أنها موافقة للشرع والدين، وهذا شأن الدعاة المحققين فى هذا السبيل.

موقف علماء الظاهر من السجدتين

أقلق علماء العصر ما رأوه للشيخ من التفاف الناس حوله، وسماعهم قوله، ورجوعهم إليه، فى كل مهامهم ومسائل دينهم، وكان العلماء يظنون أنهم السادة

والأئمة والقادة، وأن أمر الدين إليهم دون غيرهم ممن لم ينل من الأزهر شهادة أو نال فى الدعوة إجازة، فراحوا يتلمسون للشيخ المعايب، ويرمونه بالمثالب، وأنه ليس من علماء الأزهر المعروفين، وليس له دراية بأمر الشرع، ولا تقبل منه فتوى فى الدين، وانتهزوا فرصة هاتين السجدتين فراحوا به يشهرون، وبالباطل عنه يعلنون، لأنه أقحم نفسه فى مسائل الشرع وأدخل فى الدين ما ليس منه، وراجت بين الناس هذه الأباطيل، وكثرت عن الشيخ المفتريات والأقاويل، فكان الشيخ يسمع ذلك ويعجب ويقول (ألا يأتون وأسرد عليهم أمر هاتين السجدتين؟ وأبين لهم الرشد من الغى؟) فإذا أتى للشيخ أحدهم، ناقشه وعلى أدلتهما أوقفه، فيسلم ويقتنع، وإذا ما خرج واجتمع بهؤلاء المرجفين وبين لهم الأدلة والأسانيد، ثاروا فى وجهه وقالوا هذه خدع وهذا ليس من الدين، وإن الشيخ مبتدع، فيجرفه تيارهم فيجاريهم فى غيهم، وينكر ما سمع من الشيخ ﷺ، بل يزيد هذا اشتعال نار الحقد فى نفوسهم فيضيفون إلى تلك الأدلة مزاعم وأباطيل إمعانا فى الكيد والتضليل، ومرة طالبوا الشيخ ﷺ بفتوى من الأزهر، فذهبنا إلى دار الإفتاء، وأبنا لهم الأدلة، والكتب التى نصت على هاتين السجدتين، فيؤمنون ويصدقون ويعلنون استحسانهم وإليها يستريحون، فنقول لهم: نريد منكم فتوى بذلك، فيزورّون، ومن هذه المسئولية يتملصون، يعرفون الحق ثم ينكرون، وأنى لهم استصدار فتوى بما لم يدرسوه، وكبر عليهم أيضا أن يرى هذا الشيخ ذلك الأمر وعليه يوافقونه وفى زعمهم أنه ما تربع على عرش العلم سواهم.

وما زال العلماء لعرض الشيخ ينهشون، حتى أجمعوا أمرهم على مناقشة الشيخ فى مجلس يضم العلماء والأعيان ليفحموا الشيخ بجدالهم، وزخرف بيانهم، وينزلون مكانته من الصدور، وبالابتداع عليه يعلنون ويشهرون، وأنه أدخل فى الدين ما ليس منه.

فرحب الشيخ بهذه الجلسة، وحددوا مكانا لها قرية مجاورة، يكثر فيها أعداء الشيخ وحاسدوه، لهوى فى نفوسهم أخفوه، ولأمر بيتوه، فانتقل الشيخ إلى هذه القرية وفى بيت أحد مريديه اجتمعوا،وكانت جلسة مشهودة ضمت الكثير من العلماء والعديد من الأعيان والوجهاء، وكلهم ما بين محب للشيخ، أو حاقد أو متفرج أو ناقد، فقام أحد الوعاظ المضروب بهم المثل فى طول الباع وسعة الاطلاع، وهاجم الشيخ ورماه بألفاظ لا تليق بأهل العلم، فبحمد الله ما حرك مقاله للشيخ عودا، ولا هز له بنيانا، وأخذ

الواعظ يقول مقالته التى اختار ألفاظها، ورتب عباراتها، وأساليبها ليخدع الحاضرين بعذب كلامه، ومعسول بيانه، فقام أحد العلماء من أبناء الشيخ ليرد على الواعظ مفترياته، ويفند أدلته ويرد عليه من نفس عباراته.

فقال: نريد إجابة من الشيخ نفسه لا من غيره وهما منه أن الشيخ ضعيف البيان، وظنا أنه لا يجيد الكلام، وأشار الشيخ على ولده العالم بالجلوس.

الشيخ يفحم الواعظ ويرد عليه مفترياته:

ثم قال الشيخ للواعظ: يا شيخ فلان، أنت تقول: (إن هذه بدعة، فما معنى البدعة؟) فسكت الواعظ، فقال الشيخ: أليست البدعة إحداث ما لم يكن فى الدين، فأجاب: بلى، فقال الشيخ: أليس السجود من جنس الصلاة؟ فسكت، واستطرد الشيخ: (بل هو عبادة مستقلة، أمر الشرع بها فى كثير من نصوصه دون الصلاة) قال تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ [النساء:١٥٤] وقال: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ [الأعراف:١١] وقال: ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي﴾ [آل عمران:٤٣] بل هو أقرب العبادات إلى الله. قال تعالى: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ [العلق:١٩] كل ذلك والواعظ ساكت ويطلب الشيخ منه إجابات، وهو يتميز غيظا، ويتململ تململ السليم، وإذا تكلم الواعظ أو أجاب، فإنما يسفه ويقبح ويشتم ويجرح فيقول الشيخ: (نحن فى نقاش علمى، ودع الشتائم والسباب، ولا ينبغى أن نذكر ما لا يليق بساداتنا العلماء، من ألفاظ لا يرضاها الشرفاء، ولا يقرها النبلاء).

فيزيد كلام الشيخ ذلك الواعظ تحرقا وغيظا وألما وتحسرا، ثم أردف الشيخ: (ماذا علىَّ يا شيخ فلان لو أتيت بعبادة السجود بعد عبادة الصلاة إذا انتهيت منها بالتسليمتين، والسجود من جنس الصلاة كما قلت، وهو وحده عبادة مستقلة أنا لم أقل بهما فى صلب الصلاة، كما قال ابن العربى خروجا من الخلاف، ألم تدر أيها الواعظ أن ساداتنا الحنفية يقولون (إن الخروج من الصلاة بالصنع جائز، فلو قعد الإنسان قدر التشهد، ثم قام دون تسليم صحت صلاته عندهم، فلو أتينا بالسجدتين عقب التشهد، قبل السلام فالصلاة صحيحة عند الحنفية، ولكن خيفة التباسها بسجدتى السهو الشرعى

قلنا بهما بعد السلام) ثم عقب الشيخ قائلا: (يا شيخ فلان قلت ما سبق مما هو معقول، وماذا ترى فى حديث الرسول ﷺ (أصحابى كالنجوم)[1].

ألم يكن ابن عباس صحابيا؟، ألم يكن ابن عم الرسول ﷺ أليس هو حبر هذه الأمة؟، ألم تعلم أن حديث: "من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين" رواه أحمد والشيخان عن ابن مسعود، يكاد يجمع أهل السنة على أن المعنى به ابن عباس ﷺ هذه مكانة ابن عباس من التشريع.

وإليك نص الشعرانى شيخ الأزهر فى عصره يقول فى كتابه الميزان فى باب سجود السهو إلى آخر مقالة ابن عباس، ثم ناول الشيخ الكتاب للواعظ ليطلع على النص فأخذه، ولما اطلع الواعظ على النص أغلق الكتاب، فناوله الشيخ ﷺ كتاب المواقف للجزائرى، فقرأ ما فيه ثم طواه، فعقب الشيخ ﷺ سائلا الواعظ: (أنا مبتدع يا شيخ فلان؟ الحمد لله سبقنى بهذا الأمر هؤلاء السادة).

ثم أردف الشيخ ﷺ: (ألم تعلم أيها العالم الواعظ أن القياس من مصادر التشريع؟، وسجود الغفلة هذا مقاس على سجود السهو، لتقارب علتهما، بل لو نظرت الحقيقة لكانت علة سجود الغفلة ألزم وأوجب، إذ سجود السهو لزيادة أو نقص فى الأركان، وسجود الغفلة لعدم الحضور مع الله، وبدونه لا تقبل الصلاة، ومن منا يطيق حضوره التام مع الله فى الصلاة كلها؟ فجبرا لذلك ورجاء فى قبول الصلاة رأى ابن عباس رضى الله عنهما، وهؤلاء السادة وجوب ذلك السجود).

ثم قال الشيخ ماذا أقول لك بعد ذلك يا حضرة الواعظ من أدلة؛ وأسرد عليك من براهين؟ فتصبب هذا العالم عرقا واشتد حرجه، وبان خزيه، وألجمه حقده، ودحره حسده وفساد طويته، فقام وقعد، وأرغى وأزبد، وأخذ يهرف بما لم يعرف، ويهزى بما لم يدر، وخرج من المجلس، وخرج معه أشياعه، ظانين أنهم يجمعون أمرهم ويتسلحون بسلاح آخر، لعلهم يفهمون الحاضرين أن كلامهم هو الصواب، ويظهرون على الشيخ

---

[1] رواه البيهقى و الديلمى عن ابن عباس رضى الله عنهما.

بما يوجهون من شتائم وسباب، فخانهم حظهم، وأفل نجمهم، وبعد ذلك كله، دخل ذلكم الواعظ وقال: (إنه على كل حال أنت أحدثت فى الدين ما لم نعهده)، وخرج مغيظا حانقا يهدد ويتوعد بأن يبلغ عن الشيخ وأولاده رجال الأمن بأنهم من الإخوان المسلمين، وكان فى ذلك الحين يحوم حولهم الريب والشكوك فى إفساد أمن البلاد، فغضب الله لوليه وحفظه هو وأولاده من كيد عدوه، ونجاه من شر ذلك الحاسد، ورد كيده إلى نحره، وانتقم الله من ذلك الواعظ فأخذ ابنه بنفس التهمة التى أراد إيقاع الشيخ فى شراكها، فحبس ابنه ونال جزاءه.

وهكذا يغار الله على أحبابه، وصدق قوله تعالى فى حديثه القدسى {من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب } رواه الطبرانى والبخارى وأحمد عن عائشة وأبى هريرة، وفى رواية أخرى :(وإنى لأثأر لأوليائى كما يثأر الليث الحرب) أى كما يأخذ الليث الحرب ثأره (وفى رواية الحرد).

سجدتا الغفلة ورد للمريد لا يؤمر بهما غيره

ومع هذا فإن الشيخ ﷺ لم يدع إلى هاتين السجدتين كل مسلم، ولكنه كان يدعو إلى سجودهما عقب الصلوات المفروضة مريده[1] الذى صدق به، وآمن بطريقه، واطمأن قلبه إليه، وأيقن بشيخه، لأن هاتين السجدتين لا يسجدهما إلا مريد ترك الرخص وتمسك بالعزائم فى كل أموره، أما المسلم الذى لم يسلك طريق القوم، ولم يؤمن بآداب أهل الحقيقة، لا ندعوه إلى هذا السجود، حيث إن الشرع ينظر فى الصحة والفساد للأعمال الصالحة والعبادات والنقص فى الأركان أو الزيادات، ولم يرد نص

---

(١) المبتدئ: هو الذي يبتدئ في سلوك طريق القوم، وهو طريق المنقطعين إلى الله تعالى بقوة وعزم.
المريد: هو الذي صح له الابتداء ودخل في جملة المنقطعين إلى الله وصحت إرادته، فهو لا يريد إلا الله فيعمل على رضاه، ولا يفعل إلا ما يريده الله له.
المراد: هو العارف الذي لم يبق له إرادة، ووصل إلى النهاية، والمراد أعلى مقاماً من المريد فني عن نفسه في الحق، وأصبح مرادا أي مستهلكا في الحق والمريد باق في نفسه، والمراد باقٍ بالله.
والمريد في مقام العبودية، والمراد في مقام المحبوبية.

عليهما فى كتب الفقه المتداولة للمذاهب الأربعة المشهورة، نعم وإن كان سندهما قويا من الشرع، ولكن عادة الشيخ ﷺ أنه لا يميل إلى الخلاف والجدل، ليحفظ على الأمة وحدتها، لهذا آثر أن يأمر بهما أولاده أهل الطريق فقط، ومن يشهد بفضلهم، ويعترف لهم بالتصديق، ولقد حث الشيخ ﷺ على هذا السجود، وكذا مريدوه فى حياته وبعد انتقاله تمسكوا بهذا السجود، حتى صار شعارا لهم، وأطلق عليهم (السجَّادون) وحسبنا هذا سمة لنا وعلامة، ويكفينا ذلك مكانة وكرامة، وقد أوصى شيخنا ﷺ كل مريد ألا يسجدهما إلا فى مجتمعات المريدين، وحيث لايكون هناك اختلاط بعامة المسلمين؛ حتى لا يفتح بابا للجدل نحن فى غنى عنه إذا أخلصنا فى نوايانا، وصدقنا فى عزمنا، وكانت وجهتنا الله مخلصين له الدين، ولئلا نتسبب للمسلمين فى ارتكاب الآثام، باعتراضهم وإنكارهم على هذا العمل، ونجلب عليهم الشرور باغتيابهم أهل الله والوقيعة فى أعراضهم، إذ الناس أعداء ما جهلوا، ودائما نزعة الشر لها أعوان، وأبالسة الفساد لهم إخوان، ودعوة الخير قلما تجد قلوبا واعية، وأفئدة صاغية، فحرصا على وحدة الأمة، وبعدا عن وقوع أحد فى الغيبة وكثرة الجدل، والاختلاف بين المسلمين كل هذا جعل الشيخ ﷺ يقول بتركهما فى المجتمعات العامة، وحيث ينكر على فاعلهما، ويكون مثارا للقيل والقال فتركهما خير من فعلهما، ما دام العبد قد نوى الخير وتركه لداع أفضل منه أجر، ونال أكثر مما كان يريد فعله من الخير، ولقد صدق المشرع ﷺ إذ يقول "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى" رواه البخارى عن عمر بن الخطاب ﷺ.

كيفية سجود الغفلة:

بعد أن يفرغ العبد من صلاته ويسلم التسليمتين ينوى بقلبه سجود الغفلة، فيسجد سجدتين يقول فى كل سجدة: (سبحان من لا يسهو ولا يَغفُل ولا ينام) (ثلاثا) ثم يسلم دون تشهد، هذا ما تلقناه عن شيخنا ﷺ فى كيفية سجود الغفلة جزاه الله عنا خير الجزاء.

كلمة تقال فى هذا المقام:

كلمة أخيرة أقولها والأسى يملأ صدرى، والحزن يقطع نياط قلبى، كان الأجدر بساداتنا علماء الدين، والأحرى بأئمة المسلمين، الذين أقامهم الله لشريعته هادين ومرشدين وأئتمنهم على تبليغ الرسالة وأداء الأمانة، كان الأولى بهم أن يتبوءوا عرش الدعوة إلى طريق الله بما يذكرون من آدابه، ويجنبون الخلق وعره وصعابه؛ فبذا يدلون عباد الله عليه، ويوصلون محبيه إليه، ولكنهم تربعوا عرش المقال إلى العمل بالأحكام فقط.

وأصل الدعوة وحقيقتها الهداية والتعريف، تعريف خلق الله وهداية عباده وتوصيلهم إليه اكتفوا بتعريف الأحكام، وحفظ أركان الإسلام، وأرشدوا الناس إلى العمل، وما أرشدوهم إلى حسن الخلق، وما عرفوهم بالله وبما ينال العبد رضاه، ويصل به إلى حضرة مولاه، دلوهم على القشور، وما عرفوهم بالله ولا الأصول، إذ إن الأصل الأصيل فى الدين ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، (أى ليعرفون)، ومعرفته تعالى عزيزة المنال، لا تنال بكثرة الأعمال، ولا بفصاحة المقال، إنما تنال بذبح النفس بسكين المخالفات والمجاهدات، وبذل الأرواح والمهج والزهد فى المال والولد والإعراض عن الدنيا، والتخلى عن زخارفها، وبيع النفس والنفيس للوصول إلى حضرة التقديس، وللحظوة بجنة الشهود، والأنس بالملك المعبود، ومراقبته تعالى فى الخلوات والجلوات وفى القيام والقعود.

والأغرب من هذا أنه لو يسر الله طريق وصوله ومنَّ بمعرفته على من لم يكن من جلدتهم، أو لم ينل شهادتهم وإجازتهم، ثم حدثهم عما رأى وشاهد، وأخبرهم بما ذاق وعرف، أنكروا عليه مقاله، وناصبوه العداء، ورموه مرة بالبله، وأخرى بضعف العقل أو الخرف، مفندين لحاله، مستهزئين بمقاله، ولو تجاوز ذلك العارف عن إساءتهم، وتغاضى عن عداوتهم، وراح يشممهم قليلا من عبير نسمات القرب، ونفحات الوصال، أو يلعقهم شيئا من شهد العرفان، أو يذوقهم بعض ثمار تلك الجنان، سدوا أنوفهم وزكموا، فلا يحسون بذلك النسيم، ولا يشعرون له بعبير، وجعلوا أصابعهم فى آذانهم وادعوا الصمم وجهلوا أو تجاهلوا، وأغلقوا أفواههم وما ذاقوا وما

عرفوا وأنكروا طعم تلك الثمار، ونأوا بجانبهم وأعرضوا منكرين على أهل الله، جاحدين لما حباهم مولاهم.

والحق أنهم هم أهل تلك البضاعة وأرباب هذه الصناعة، وهم أولى الناس بها، لأن العلم الشرعى هو الموصل لتلك المنازل والسبيل الوحيد لهذه المقامات، ولكنهم رضوا بالوسائل وزهدوا فى الغايات، وقنعوا من الدين بما حفظوه من الروايات والحكايات دون نظر إلى عمل الصالحات، وتخليص النفس والأعمال الصالحة من العلل والآفات، وتقوقعوا فى أصداف البشريات، وما خرجوا إلى فسيح ساحات القرب ومنازل الأنس والمشاهدات.

ولا تعجب أيها القارئ لحال هؤلاء المعنيين بالكلام لأنهم ما زالوا فى ضيق الأرحام، فإن كانوا قد نزلوا من رحم الأمهات فما زالوا فى ضيق رحم الدنيا وسجن الشهوات، وإن كانوا قد خرجوا من بطون أمهاتهم فما برحوا فى أصداف نفوسهم، وأنى للبعيد عن النور أن يرى الحقائق؟ وأنى للحبيس أن يطير؟ وكيف بمن هو فى القفص أن يطير ويقتنص؟ وحقا كما قال سيدنا عيسى ﷺ: (لن يلج ملكوت السماوات من لم يولد مرتين)، فلا بد لهم من الولادة الثانية، وهى الخروج من حجاب البشرية وأصداف الإنية حتى يروا النور، وتسبح أرواحهم فى العوالم العلوية، ويعرفون الأمر على ما هو عليه ويدركون الحق من الزور لأنهم شاهدوا وعاينوا وتذوقوا، وقد رفعت عنهم الحجب والستور، وعندها لا ينكر أحد منهم على أهل الله شيئا من مذاقاتهم أو عرفانهم أو مشاهداتهم.

فالذى جعل شيخنا ﷺ يتلمس الصواب ويرجو القبول للأعمال هو عظيم عرفانه بمقام ربه وإدراكه لمراداته فى مخلوقاته؛ لذا كان يتحسس كل ما يقرب العبد من ربه فيبادر إليه، فهمسة فى أذن ساداتنا العلماء كى يتخلوا عن مألوفاتهم ويتحلوا بصفات ربهم "تخلقوا بأخلاق الله"[1].

---

[1] تقدم هذا الحديث

ومثل هذا الواعظ الذى عارض السجدتين كثير من العلماء الذين لم يؤمنوا بطريق القوم عامة، وكثير من المتعلمين الذين يرون أن الطريق شعوذة وبعد عن الشرع، فقد استعظم هؤلاء وهؤلاء أن يكون بيت الشيخ مقصدا للعلماء العاملين بعلمهم، والسادة المتحققين ووجهاء القوم من الوزراء والموظفين، وصاروا يطيرون حول الشيخ الشائعات الكاذبة، ويرجفون بما ينسبون إليه من زور القول وأباطيل الأفعال، ويدبرون المكائد له وينصبون الشباك لمن حوله من أبنائه، حتى إن بعض هؤلاء الحانقين من الرؤساء فى بلدنا والبلاد المجاورة له لما رأوا أن الشيخ مع تجرده من السلطان المادى والجاه الدنيوى له فى نفوس الكثير المهابة والإجلال، ويلتف حوله أشراف القوم وأفاضل الرجال، ويسير فى ركابه الوجهاء والعلماء والمثقفون، نفسوا عليه ذلك، وأكل الحقد صدورهم، فعمدوا إلى صرف الناس عنه وتفريق أبنائه عن مجلسه، والتصدى بالعداوة لكل من زاره، والترصد بالشر لمن معه حتى إن بعض هؤلاء الرؤساء، قال لأحد مرءوسيه من مريدى الشيخ ﷺ (ما دمت تحضر مجلس الشيخ وتسير فى ركابه فلن تنال خيرا على يدى) فكان مثل هذا القول ابتلاء واختبارا للمريدين، فضعفاء الإيمان من المريدين أثرت فيهم مقالة ذلك الحسود، وبلبل أفكارهم ما يسمعون عن الشيخ ﷺ من مفتريات وأكاذيب.

دليل قوة الإيمان وصدق الإرادة

ولكن المريدين الصادقين ذوى العقيدة الراسخة فى شيخهم يردون على هؤلاء بقولهم: (إن عداوتكم لنا من أجل الشيخ لن تزيدنا إلا استمساكا به وحبا فيه، فافعلوا ما شئتم)، وصدق عليهم قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[آل عمران:١٧٣،١٧٤]

ويردون على المفترين بما يعلمون عن الشيخ ﷺ بطول صحبتهم له ودوام ملازمتهم إياه بما يبدد سحب هذه الأباطيل، وكانوا يهزءون بهذا المفترى ويقولون: (إن كلامكم

فى الشيخ لن يزيدنا إلا تفانيا فى حبه وإخلاصا لوده واستمساكا بعهده، وتثبيتا لعقيدتنا فى طريق الله، ورسوخا لقدمنا فى الإرادة والصحبة).

إذ الصدِّيق لا يكون صدِّيقا حتى يعاديه ويسبه أربعون صدِّيقا مثله، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

ويشاء الله ألا ينال هذا العدو وذاك من أولاد الشيخ ﷺ ممن هم تحت رئاسته إلا ما يصدق عليهم قوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١] ولم يصلوا إلى مآربهم من حيث التفريق والتخذيل، بل إن أحد هؤلاء الأعداء لولى الله قد آذنه الله بالحرب، فأصيب بأمراض مستعصية، ما زال يعانى كثيرا من آلامها ـ سامحه الله وهداه ـ حتى تبرأ منه جميع أصدقائه، وتبرم به كل أولاده لصلبه، إذ صار كجيفة فى المنزل يتمنى أهله التخلص منه، ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ [البروج: ٢٠]، وهو على أحبابه يغار ولهم أكبر معين وخير جار، إذ هم فى ضمانه وفى حصن أمانه وعرائس حضرته (لا أغير من الله أحد)[1].

عدو الشيخ يهابه ويجله

وقد كانت مهابة الشيخ ﷺ وما أودع الله فيه من قوة إيمان، وما توجه به مولاه من إجلال ووقار، وما خص به من رفعة وإكبار تحمل هؤلاء المنكرين على اختلاف أنواعهم على كامل تعظيمه، وتمام الخضوع له، فعندما يضمهم بالشيخ ﷺ مجلس أو يتقابلون فى طريق فكانوا مع ما هم عليه من عداء بغيض، وحقد دفين، يتظاهرون للشيخ بالود، ويعلنون الخضوع له، والامتثال لأمره والانقياد لطريقه ويسألونه الدعوات الصالحات ويرجون رضاه عنهم، وأن يشملهم وكذا أولادهم بعين عطفه ورعايته، ولكن تلمح على وجوههم صفرة النفاق التى لا يلحظها إلا أهل القلوب والبصائر، ويفصح عنها بعض نظراتهم أو ما يسمع من فلتات لسانهم أثناء الحديث ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠] والسر فى مهابة الأعداء له فضلا عما أودع الله له فى القلوب

---

[1] جزء من حديث أخرجه البخارى و مسلم عن عبد الله ابن مسعود ﷺ

من محبة وصادق مودة أن من أراده الله لدعوته واختاره قدوة للعباد يلقى عليه كسوة من البهاء والجلال.

حينئذ ينظر الناس جميعا إليه بعين التقدير والإجلال، فالمحبون يمتزج إجلالهم له بالحب والإعزاز، أما الأعداء فيستشعرون كلما وقعت أعينهم عليه بصولة المهابة وسطوة الجلال ترغمهم على تقديره، وتحملهم على تعظيمه، وذلك لما أودعه الله فى قلوبهم له من رعب وهيبة وهذه الهيبة، وذلك الرعب إنما سريا إليه من مورثه الأعظم ﷺ، فقد قال ﷺ: "نصرت بالرعب مسيرة شهر" رواه البخارى ومسلم، يؤيد ذلك ويوضحه أبلغ توضيح رعب أبى جهل من حضرة النبى ﷺ عندما ذهب إليه يتقاضاه دينا لرجل قد ماطله، وقد دله القوم على الرسول ﷺ استهزاء وسخرية، فامتقع لون أبى جهل لما رأى رسول الله ﷺ ببابه يطلب منه دين الرجل، وهو على ما هو عليه من كراهية وعداء له، فسارع وقضى للرجل دينه، ولما سئل أبو جهل وقالوا له: (خفت من محمد وقضيت من أجله دين الرجل) قال: (والله إنى رأيت على رأسه فحلا عظيما من الإبل فاغرا فاه، ولو تأخرت لحظة عن الوفاء بما طلب لابتلعنى ذلك الفحل) وهذه الواقعة مذكورة فى كتب السيرة المعروفة[1]. فانظر رعاك الله كيف يرعب الله أعداء أحبابه، ويودع فى قلوبهم المهابة والإجلال لهم، لأنهم فى حرمه وعليهم يغار.

فأولياء الله هم الملوك وإن لم تخفق عليهم البنود، وهم القواد وإن لم تسر أمامهم الجنود، ومن ملكه الله أمر نفسه وهداه، فقد آتاه الله الملك ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِى ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾
[آل عمران:٢٦] ومن أنس بالله أنس به كل شيء، ومن هاب الله هابه كل شيء.

ومع هذا كله كان الشيخ ﷺ يخفف من حدة هذه الهيبة التى كانت له فى قلوب هؤلاء الأعداء بما يفسح لهم من صدره، ويلين لهم فى الحديث، وراثة محمدية رحمة بهم وإشفاقا عليهم أن يصيبهم بسببه ما أعده الله للمكذبين، ومحاربى أوليائه لعلهم يتعظون ويرجعون عن غيهم، أو لعل هذه المعاملة الطيبة تستل دفين حقدهم وتخيمة غيظهم،

---

[1] انظر ذلك في كتاب سبل الهدى و الرشاد فى سيرة خير العباد.

ولكن على ما جربناه هيهات هيهات لتلك القلوب الحاقدة التى طبعت على الشر، وانطوت على الخبث أن تبرأ من حقدها، أو تشفى من مرضها، أو تتخلص من نفاقها، وتسلم من عللها.

ولذا كنت تجد أحدهم يطل برأسه إذا ما وجد فتنة أو مطعنا على الشيخ ﷺ فى نظره فيشهر به، وعندما يرى نار فتنة أشعلها الأعداء ضد الشيخ ﷺ يزكيها بحطب عداوته، وينفخ فيها بسموم غيظه، ويقوم فيها ويقعد، يفعل كل ذلك لينقص من قدر الشيخ ﷺ، أو ليفض مريديه من حوله، ولكن بحمد الله كان يرتد سهم الحاقد إلى نحره، وتلتهم نار العداوة صدره، فيشرب سم حتفه بيده، وهكذا تجد دائما حال أولياء الله، وحال أولياء الشيطان ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧].

وإذا أراد الله نشر فضيلة *** طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت *** ما كان يعرف طِيب عُرف العود

القسم الرابع

شمائله وصفاته

بعض عاداته

كان ﷺ لباسه التقوى، وحليته الرضا، وشعاره اليقين، ومقصده الله، أينما توجه يتحلى بالشمائل المحمدية ويترسم الهدى النبوى فى مأكله ومشربه وملبسه ونومه ويقظته ومشيه وجلوسه وسائر سلوكه وأحواله.

ومن عاداته أنه كان يكره الحر جدا، وكما سبق أن حرارة الأنوار كانت تضفى على جسمه حرارة، فإذا اشتدت حرارة الصيف اجتمعت عليه حرارة الجو وحرارة الأنوار، فكان يتلمس النسيم الرطب، لعله يخفف من شدة ما به من حرارة، وكنت تعجب إذا رأيته فى الصيف بقميصه وسرواله الطويلين يجلس بهما دائما بين أبنائه ومريديه، ويقابل بهما علية القوم وكبار زائريه، وكان إذا فعل أمرا لم نعهده قال: (علمت أن النبى ﷺ كان يفعله ويحبه) مستندا فى ذلك إلى كتب السنة، إذ هو- بحمد الله- قرأ ما وصلت إليه يده من جميع الصحاح والمسانيد فى السنة ونقل منها الكثير، أو مستندا إلى ما أخذه عن النبى ﷺ تلقينا حيث كان يلتقى به ﷺ يقظة ومناما.

عفوه وصفحه

كان ﷺ عفوا صفوحا ينسى الإساءة بسرعة، ويذكر الإحسان، وإذا اشتد على امرئ ظننا أنه سيبطش به ولكن سرعان ما نجده رجع إلى طبيعته الهادئة وسكونه المعتاد وانبسطت أسارير وجهه، وأقبل على ذلك المسيء يلاطفه ويقول له: (ما كان منى إنما هو شدة حرصى عليك، فما فعلته بى أو قلته على لا يضرنى فى شيء، ولكنى أخاف عليك الوقيعة فى رجال الله فيصيبك ما يصيبك بسببهم).

ولقد صدق الشيخ ﷺ فى ذلك لأنهم أطفال فى حجر الحضرة، وإن الله يغار عليهم ويغضب لهم، وحسبك حديث محاربة الله لمن عادى أولياءه وحديث موسى عليه السلام الذى ما معناه أن الله سأله هل عملت لى عملا قط؟ فقال موسى عليه السلام: صليت، فقال الحق له:

هذه لك لا لى، فقال: صُمت، فقال الله له: هذا لك لا لى، وظل يذكر موسى عليه السلام سائر الأعمال الصالحة حتى قال: فما الذى أعمله لك يا رب؟ فقال الله تعالى (هل أحببت حبيبا فيَّ قط أو عاديت لى عدوا قط إلخ الحديث)[1].

ويظل الشيخ رضي الله عنه يلاطف المسيء ويلين له فى الحديث يفعل ذلك رحمة به حتى يخجل مما فعل ويستحيى أن يقع فيما وقع فيه ثانيا إن أراد الله له الهداية، وكان له قلب وبصيرة، ولكن من طبع الله على قلوبهم وعميت بصائرهم كان هذا يزيدهم ضغنا كما يزيد الماء العذب الصبار مرارة وسمّاً.

وكان رضي الله عنه إذا بلغه أن أحدا أساء إليه أو نهش عرضه ابتسم وقال (إنى سامحته).

مظاهر عفوه وتسامحه

ومما رأيناه ولاحظناه أن خصومه الذين كانوا يناصبونه العداء على اختلاف ألوانهم ويتقولون عليه وينشرون الأراجيف والمفتريات حوله، أنه كان إذا مات أحدهم قال: (يا رب إنى سامحته، اللهم لا تجعل عليه تبعة لى) وكان يشهد من فى المجلس على ذلك، ويقول: (اشهدوا علىَّ أنى سامحته).

ووقائعه فى ذلك كثيرة ومتعددة، منها ما حدث أن حاقدا عليه ببلدة مجاورة لشبلنجة، درج على النيل من الشيخ بلسانه، إذ كان نشر طريقة الشيخ رضي الله عنه وذيوع أمره يلهب غيظه ويشعل نار حقده ويؤجج عداوته، حتى أقسم لو دخل الشيخ بلدى لأفعلن به كذا وكذا، وقبل حلول موعد زيارة الشيخ لهذا البلد فاجأت المنية ذلك الحاقد على غير استعداد للقاء ربه، بل لقد قبض وهو منهمك فى شئون دنياه فى الشارع أمام بيته.

وما أن سمع الشيخ رضي الله عنه نبأ وفاته حتى عفا عنه وسامحه، ثم قال: (يا فلان لأحد أبنائه ويا فلان ويا فلان أما علمتم بما فعل فلان معى؟) قلنا: نعم، قال: (اشهدوا علىَّ أنى سامحته لوجه الله تعالى)، وأشهد من فى مجلسه كلهم على ذلك.

---

[1] ذكره الغزالى فى إحياء علوم الدين

وإليك واقعة أخرى لرجل من نفس هذا البلد له جاه فى بلده، كاد للشيخ ﷺ بكل الوسائل من غير سبب، وأخذ يخذل عنه المريدين، فخذله الله ومسخه معنويا فى أخريات حياته وسلط عليه من أولاده صلبا من أهانه، بل ضربه ونكل به، مع أن ذلك الرجل باع دينه ليجمع لأولاده دنياهم، من حلها ومن غير حلها، والآن حاله يرثى لها، وتستوجب الإشفاق عليه لما هو فيه من أمراض ومذلة ومهانة.

وإليك واقعة تشهد لشيخنا ﷺ بكمال خلقه، وسعة صدره، وكبير حلمه وصفحه، ومزيد عرفانه بالله تعالى، ونظره إلى علمه المطلق، فقد حدث أن بعض مدعى الإرادة أظهر الولاء للشيخ، وتظاهر بالخدمة العامة فى المنزل والحقل، ولازمه الليل والنهار، ولكن لعدم خلوص سريرته وسوء طويته، بدا منه ما أغضب الشيخ وأنكره، فتألم الكثير لذلك، حتى لقد اتفق بعض المريدين على طرد ذلك الذى لم يحفظ للشيخ حرمته وأثاره وأغضبه ليريحوا الشيخ منه، وليبعدوه عن صفوف المريدين المخلصين ولتعلم أيها القارئ أن الشيخ كان لا يغضب لنفسه أبدا بل لانتهاك محارم الله.

ولما علم الشيخ بذلك تألم جدا، وقال لمن أراد ذلك: (إن ما عزمتم عليه لا أحبه أبدا، أنا لا أطرد أحدا عن بابى، لعل الله يمحو شقاوته، وينظر إليه نظرة بها يهتدى، فالله يمحو ما يشاء ويثبت، وعلمه واسع لا اطلاع لأحد عليه، وما يدرينا لعله يتوب، لا نعلم عاقبته عند الله، وأيضا لا أحب أن يضار أحد بسببى، ولكن حذروه وبصروه بأمره، عسى أن يرجع عن غيه وتتحسن عقيدته ويسلم صدره مما فيه)، فانظر رعاك الله إلى ذلك الأدب الجم، أبعد ذلك صفح أو عفو أو علو فى الهمة وسعة فى العرفان؟.

ومما يزيدك يقينا أيها القارئ بحلم الشيخ ﷺ وسماحته وأنه رحيم بخلق الله ولا يحب لهم المساءة، ويتمنى لهم السلامة أنه كان من أوراده اليومية هذا الورد (اللهم إنى جعلت عرضى اليوم صدقة على من تكلم فيه) عملا بالحديث الوارد فى ذلك عن أبى ضمضم.

وحق لشيخنا ذلك إذ إنه ممن أدب بالأدب النبوى الكريم، وله فى رسول الله الأسوة الحسنة، وحسبك واقعة أهل الطائف حينما أساءوا إلى النبى ﷺ فقال: "اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون" وكان شيخنا ﷺ ينظر إلى من يسىء إليه نظرة خاصة، إذ كان يعتبر أنه مهما أساء فهو من أمة سيدنا محمد ﷺ، ولا يحب أن يسىء إلى النبى ﷺ فى أحد من أمته، بتثقيل موازين سيئاته؛ لأن ذلك يؤلم النبى ﷺ، وإذا كانت الشوكة التى تصيب المؤمن يجد النبى ﷺ ألمها، فكيف بالسيئات التى يرتكبها المؤمن فى عرض أهل الله وخاصته، وما أبلغ خطرها؟.

وانظر إلى جبريل عليه السلام لما أراد أن يتقرب إلى الرسول ﷺ قائلا له: (سل لى ربك أن أبسط جناحى على النار لئلا يقع أحد من أمتك فيها فلا تساء فيهم) فإذا كان جبريل عليه السلام يقدر حرص النبى ﷺ ورأفته بأمته فيطلب ذلك منه.

فالشيخ ﷺ يريد أن يتقرب إلى النبى ﷺ بعفوه عمن أساء إليه من أمة سيدنا محمد ﷺ.

ترغيب فى العفو:

وانظر إلى تلك الواقعة لتدرك حلم أهل الله وصفحهم ومحبتهم الخير للناس وإن أساءوا إليهم، من ذلك:

يروى أن إبراهيم بن أدهم ﷺ لما سأله جندى على العمران فدله على المقابر، فضربه الجندى لظنه أنه يستهزئ به فكان يقول ابن أدهم له وهو يضربه: (اضرب رأسا طالما عصى الله تعالى).

فجاء رجل وقال للجندى: (أتضرب ابن أدهم زاهد خراسان؟) فندم الجندى وأكب على قدم ابن أدهم يقبلها ورجا منه العفو والصفح، فقال ابن أدهم له: (والله ما رفعت يدك عنى إلا وأنا أطلب من الله لك المغفرة، إذ لا يليق أن يكون نصيبك منى الإساءة، ونصيبى منك الإحسان)، فتأمل هذا لتعلم مدى رحمة أهل الله بالناس، إذ الناس جميعا عيال الله، ومن أكرم عيال الله لأجل الله نال رضا الله.

ومما يحكى عن بعض الصالحين، وكان أعرج فسار معه ضعيف البصر، فقال له (انصرف لئلا يقع الناس فى عرضنا فيقولون: (أعمى وأعرج يسيران معا) فقال له (نأخذ من حسناتهم) فقال الرجل الصالح: (وكيف أرضى أن يضار أحد بسببى؟).

على أننا عقلا لو نظرنا إلى من يريد أن يأخذ حقه من أخيه فما هى إلا حسنات ستأتى إليه من أخيه فى ميزانه، وما قيمة هذه الحسنات أمام عفو الأخ عن أخيه، فهو يرضى الله تعالى حيث رغبنا سبحانه فى العفو، وحبب إلينا الصفح فى كتابه الكريم، وحسبك منزلة عفو الله، ومن منا لا يحب مغفرة الله وعفوه وهو القائل: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ [النور:٢٢] ويقول: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور:٢٢]، ويقول: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤].

حسن ظنه بالناس

كان ﷺ حسن الظن بالمسلمين جميعا، فإذا بلغه عن أحد منهم سوء قال: (إن مولانا كريم وباب التوبة مفتوح، والأمة المحمدية إن شاء الله بخير لأجل نبيها ﷺ، ولعل لهذا المسيء بابا آخر يدخل منه إلى الله؛ إذ كل واحد يأتى إلى الله من طريق ويدخل عليه من باب).

وإذا علم عن أحد ما يكرهه، تأول لفعله عدة تأويلات كى يظهره أمام الناس بريئا غير مذنب، ملتمسا له الأعذار، وكان ﷺ يقول: (لا يكون العبد مؤمنا حقا حتى يلتمس لأخيه سبعين بابا من التأويل، لئلا يسيء الظن بالعباد، ويقع فى أعراضهم).

وكان ﷺ دائما يقول لمريديه: (احملوا أمر المسلم على الصلاح، ولا تسيئوا به الظن) وحقا فإن هذه الظنون بخلق الله تستوجب المقت، وينبغى أن ندع الخلق لمولاهم يتولاهم.

قال رسول الله ﷺ "خصلتان ليس فوقهما من الخير شيء: حسن الظن بالله، وحسن الظن بعباد الله" رواه الحاكم عن أبى هريرة.

كان ﷺ الكرم سجيته والجود طبعه وقد شب على ذلك منذ حداثة سنه، إذ كانت أمه تغرس فيه تلك الصفة الحميدة، حيث إنها هاشمية نشأت في بيت جود وكرم كما كان يحدثنا بذلك ويقول لنا: (إنها كانت تفرح جدا بدخول الضيف عندنا، وكنت إذا أتيت بضيف تهش له، وتقول لى: (كده يكونوا أولاد الرجال تكون بيوتهم مفتوحة) مشجعة حاثة لى على الكرم وتقول (الكريم لا يضام).

ومما رأيناه أنه كان يفتح بيته لكل طالب وقاصد، ويقدم القهوة لكل وافد، وطعام الغذاء يقدم له بعد صلاة الظهر مباشرة، فيتناوله كل من حضر، وكان من طبيعته ﷺ أنه لا يتكلف للضيف، ويقول: إنى أعمل بحديث الرسول ﷺ "لا تكلفوا للضيف فتبغضوه"[1].

ومع هذا كله إذا حضر ضيف عزيز له مكانته كان يشير بإعداد نوع خاص من الطعام يناسب مكانته، فإذا ما سألناه فى ذلك قال: (هذا واجب الضيافة أفعله مصداقا لما قيل: (أنزلوا الناس منازلهم) ولأدخل السرور عليه، وليعلم أن له منزلة عندنا ومكانة)،وكان يحث جميع المريدين على الكرم ويعودهم إياه، ويوصيهم بالبذل والسخاء، ويردد لهم قول الصوفية: (أقبح القبيح صوفى شحيح) كما كان يقول: (ما وجدت شيئا يرقى العبد مع ربه بسرعة أكثر من البذل والسخاء، وإن الكرم عنوان إيمان المرء بالله، ويقينه بربه واطمئنانه إلى ما عند مولاه، وإن ما يقدم للضيف ليس رزقا لصاحب البيت، بل هو رزق الضيف سيق على يديه، وله بعد ذلك الأجر والفضل).

وتحقيقا لذلك فإن المنفق الباذل ممتثل لقول أكرم الأكرمين ﷺ فيما يرويه عن ربه (يا ابن آدم أنفق أُنفق عليك، ولا توك فأوكى عليك)[2]،وحسبك مكانة قرب الكريم من الله ومن الجنة ومن الناس، والبخيل بعكس ذلك.

---

[1] رواه ابن عساكر عن سلمان رضي الله عنه

[2] حديث صحيح متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

تربيته مريديه على الكرم:

وكان ﷺ يكره كراهية شديدة المريد البخيل، ويحذره من هذه الصفة، ويقول له: (إن العبد البخيل مهما عبد مولاه فبخله حاجب له عن ربه) ومصداق ذلك قول الرسول ﷺ "المؤمن السخى قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة... إلخ"[1].

وكم تدرج ﷺ بكثير من المريدين الذين كنا نعهد فيهم الحرص والبخل، فانتقل بهم إلى الكرم والسخاء،وصار يتابعهم فى ذلك ويعالجهم حتى رسخت فيهم هذه الصفة، وشاهدنا منهم جميعا البذل والعطاء والإنفاق عن سخاء طبيعة لا تكلفا، ويحمدون للشيخ ﷺ صنيعه معهم، وكيف طبعهم على الكرم وأخرجهم من ضيق الشح والبخل إلى فسيح ساحات الجود والكرم.

وكان ﷺ يقول ملفتا الأنظار للأسوة والتربية (انظروا إلى فلان وفلان من إخوانكم، كيف غير الطريق أحوالهم من بخل إلى كرم؟) وكان يفرح جدا بانطباع مريديه على المحامد ونبذ المذام؛ إذ غاية مطلوبه أن يغير مذام صفات المريد بمحامدها، وهذه هى الصوفية الحقة، الخروج من الصفات البشرية الدنية، والتحلى بالصفات الربانية العلية ونبذ المألوف من العادات النفسية، والتخلق بالأخلاق السنية.

الشيخ وأصحاب الحاجات

وكان الشيخ ﷺ لا يرد سائلا أبدا، ولا ذا حاجة يقصد بابه، فكان يعطى الكل قدر وسعه ويقول: (إن هذا مسوق من الله إلى، وأخشى أن أرده فأحرم رضاه).

وإذا تردد عليه محترف للسؤال مع قدرته على العمل، أو علم بنور بصيرته أنه مدع ولا يستحق الصدقة أعطاه ثم نصحه سرا، فإذا ماعاوده أعطاه أيضا ونصحه، فكنا

---

[1] رواه الترمذى و الطبرانى فى الأوسط و البيهقى فى شعب الإيمان عن أبى هريرة ﷺ وعن عائشة رضى الله عنها

نقول له فى ذلك: أتعطيه مع علمك بعدم استحقاقه؟ فيقول: (هم يأبون الكرامة، أفأأباها أنا؟ أنا أفعل ما يليق بى، وهم يفعلون ما يليق بهم).

وكان يرتب للفقراء والمساكين أعطيات شهرية وموسمية، وكثيرا ما كان يرسلها لأصحابها سرا فى بيوتهم، على يد أحد أبنائه حفظا لماء وجوههم.

وهكذا كانت داره مصدر خير لكل فقير أو ذى حاجة، ولقد حرص أبناؤه على أداء تلك الأعطيات للفقراء من بعده، لئلا ينقطع رجاؤهم من هذا المنزل، وما زال الناس للآن يقصدون هذا المنزل رجاء البر ونيل العطاء.

سعة صدر الشيخ وسوء الأعداء به

ولقد كان أهل القرية يرشدون الفقراء النازلين إلى القرية وذوى الحاجات إلى منزل الشيخ ﷺ فيقول لهم: (من الذى دلكم علينا؟) يقولون: (أهل البلد دلونا عليك، وعرفونا أنك تكرم المحتاجين) فيقضى لكل مأربه.

وكنا نعلم نحن المريدين أن أهل البلد لا يدلون هؤلاء الفقراء على الشيخ لمصلحة الفقراء، أو حبا فى قضاء حوائجهم، وإنما يقصدون مضايقة الشيخ حسب ظنهم، ويكثرون عليه فى ذلك عسى أن يردهم الشيخ أو يعبس فى وجوههم، ليضيفوا إلى الأعداء أعداء آخرين، ويشهرون بالشيخ ويقولون: (لو كان شيخا حقا من أهل الله، ما فعل ذلك بالسائل) ولكن بحمد الله كان صدره أرحب وأوسع، وإذا صارحناه بذلك يبتسم ويقول: (اللهم اجعلنى خيرا مما يظنون، واغفر لى ما لا يعلمون).

ومما يؤثر عنه أنه كان يبذل ماله بسخاء لأقاربه، ويقول لنا: (تصدقوا على أقاربكم، فإنها صدقة وصلة).

وكان ﷺ يتبرع بالكثير من ماله لأسر شهداء الوطن، والمنكوبين فى الحوادث، ويحث المريدين على التبرع لهم.

وحدث فى حياته أن هدم الإنجليز قرية (كفر عبده) بالسويس سنة ١٩٥١ واستشهد الآلاف من المواطنين، ويتم الأطفال، ورملت النساء، وتشردت أسر فتألم الشيخ ﷺ لهذا الحادث، وخف لنجدة المصابين، فتبرع وجمع التبرعات من أولاده،وأرسلت التبرعات إلى جريدة الأهرام باسم أبناء الطريقة الشاذلية القاضية بشبلنجة، وكان يقول يا أولادى تأملوا قول الصادق المصدوق ﷺ "من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منا"[1] جزاه الله عنا وعن المسلمين خيرا.

وهكذا ما كان الشيخ ﷺ يرى أو يسمع عن موطن يتطلب البذل والسخاء إلا أسرع إليه، ودعا المريدين إلى الاقتداء به.

تاثر واشفاق

ولقد كان ﷺ يتألم جدا، ويبدو عليه التأثر الشديد إذا علم بذى حاجة، أو من ألجأته ظروف الحياة للعمل بما لا يتناسب وحاله السابق، فكان يسعى جهده للتخفيف من ويلاته إما بالسعى له فى عمل يناسبه عند من بيدهم الأمر فى التوظف، وإما أن يعطيه ما يسد حاجته من حبوب أوأموال، فإذا تعفف الرجل وأراد ردها يقول له الشيخ ﷺ: (هذه سلف ولما تتحسن الحالة عندك ردها)، فيقبلها ذلك المحتاج، وإذا قدر الرجل ورد شيئا يقول له الشيخ ﷺ: (إننى نويت أولا أنها لك، فلا تفسد على نيتى، هى منى للأولاد) فيتقبلها الرجل شاكرا.

وكان ﷺ يعتقد أن المسلمين أسرة واحدة يتألم أحدهم بما يصيب الآخر، وكنا نجده متمثلا بحق حديث حبيبه ومربيه ﷺ: " مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى" رواه أحمد ومسلم عن النعمان بن بشير ﷺ.

---

[1] رواه الطبرانى فى الأوسط و الحاكم فى المستدرك عنه حذيفة ﷺ والبيهقى عن أنس ﷺ .

علو همته

والمتتبع لحياة شيخنا ﷺ يدرك تماما ما كان يتصف به من عالى الهمة، والعزم الفتى النادر، فما كان أسرع إنجازه لما يريد أو يراد منه، وإقدامه عليه دون فتور مهما أحيط بهذا الأمر من عقبات أو اكتنفه من صعوبات أو حف به من مكاره، وما سبق أن ذكرنا من كتابته المصحف الشريف فى خمسة وعشرين يوما بخط النسخ الجميل المشكول، واجتيازه خلواته مع ما كان يحيطها من مشقات، وما يتطلبها من أنواع المجاهدات والرياضات، وقراءة كتب الحديث كلها والتفاسير، وكتب فقه الشافعية، وكتب التصوف القديم منها والحديث وغيرها، ونقله المختارات من تلك الكتب فى مذكراته الخاصة كل ذلك شاهد بعلو همته وناطق بفتوته.

وكان ﷺ لا يحب أن يدخل مكتبته أى كتاب مهما كان حجمه إلا إذا قرأه،ويقول: (إن لهذا الكتاب حقا سيطالبنى به يوم القيامة وهو قراءته) ولا يسمع عن كتاب إلا وسارع فى إحضاره إما على سبيل الشراء أو الإعارة، هذا مع مواظبته على أوراده اليومية السالفة الذكر، حتى كان ينتهى منها كلها قبل الظهر عدا أوراد المساء.

وكان ﷺ لا يحب تأخير ورد عن وقته، وإذا دخل عليه زائر قبل تمام أوراده تألم خشية أن يفوته ورده، وكان يقول لنا: (أنا لا أجلس للتحدث معكم هادئ البال مطمئن القلب إلا إذا كنت مؤديا أورادى وحق ربى على الوجه الأكمل).

المدعون فى طريق الله

كان ﷺ يقول ناصحا لنا (لا أحب أن أشغل وقتى كله بالكلام والحديث دون أن يكون لى وقت مع ربى، وإلا كنا من الدعاة الضالين، أو المدعين الكذابين الذين يضيعون أوقاتهم فى المجادلات والقيل والقال، دون المحافظة على الأوراد، ظانين أو واهمين أنهم غير محاسبين لخروجهم عن هذا النطاق، أى ليسوا فى دائرة التكليف، واكتفوا بما وصلوا إليه من هذه الشقشقات، وحسبوا أن هذا هو الطريق إلى الله، كذبوا فيما ادعوا والطريق منهم براء).

وحقا ما جلب على الصوفية الكلام القبيح وكثرة الطعن فيهم إلا هؤلاء المدعون، وفهم كثير من الناس أن الصوفية جميعهم على هذا المثال، وأيضا فهم هؤلاء المدعون أن الطريق دروس ومواعظ وأسفار وتنقلات، ومجالس واجتماعات تجمع الكثير، ويتبارون فى تنسيق العبارات، وحفظ المأثورات، والشقشقة باللسان والجدل، وحب الظهور، والتعالى على الأقران بجمع الغريب النادر من المنقولات وحفظ للحكايات، والتعرض لمقالات السادة وحكم العارفين، موهمين الحاضرين أنهم أهل هذه المقالات، وأنها من إلهامهم، وذكرٍ للمجاهدات والرياضات، وادعاء أنهم فرسان هذا الميدان وأرباب تلك الساحات، يقولون ذلك دون أن يؤدوا واجبهم نحو ربهم كقادة أو قدوة، واكتفوا بالكلام فلا فرائض يحكمونها، ولا نوافل يؤدونها، ولا آداب يرعونها، ولا حرمات يحافظون عليها، ونسوا أو تناسوا أنهم عن ذلك محاسبون، وأنهم عما يقولون مسئولون، وما وعوا قول الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٢٢] وما فهموا قول الحق تبارك وتعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٣].

وغاب عن هؤلاء ما كان عليه الصادقون من الرجال، من رعاية الحقوق وأداء الواجبات، والمحاسبة على الأنفاس والخطرات، وحرصهم دائما على العمل بالوصية المأثورة (من لا ورد له، لا وارد يأتيه) لهذا كان لهؤلاء الصادقين عظيم المقام وجليل الشأن، وحسن الحال، وبلوغ الآمال، وما كان لأولئك المدعين إلا الخيبة والخذلان والبوار والخسران، نسأل الله لنا ولهم الهداية وخلوص النية فى الأعمال.

حثه على العمل والاقتداء

وكان ﷺ يكره الكسول من أولاده، ويقول: (لا أحب أن يمر على مريد منكم وقت دون أن يكون مشغولا بورده أو أى عمل ينفعه فى دينه أو معاشه) ويكره من مريده كثرة النوم والكسل، والتراخى والتسويف وتأخير ورده عن وقته، أو إهماله فى عمل معاشه والميل إلى اللهو فى حياته، أو اللغو فى الحديث، أو التحدث فى أمور الدنيا بما لا ينفع، أو الجلوس مع البطالين أو الغافلين مهما كانت الظروف.

الطريق عمل وكسب

كان ﷺ مع مواظبته على أوراده اليومية يدبر شئون منزله وحقله، ويرعى شئون أهل بيته ويتتبع أعمالهم اليومية، ويسأل عما تم إنجازه، يحدد لكل عمل وقته فى حصافة وسداد رأى، وكان يبكر دائما فى زراعته للحبوب، وسائر أنواع الفلاحة حتى اشتهر بين جيرانه وأهل قريته أنه أول من يزرع، وأول من يحصد، وكان ﷺ لا يحب بأى حال تأجيل واجب عن أوانه، ويحث على الهمة فى أدائه، والدقة فى إتمامه وكان يكره التسويف وسوء النظام أو الإهمال فى جميع الأمور، كل ذلك من الآيات الدالة على ذلك العزم الفتى، والهمة الخارقة، والإرادة القوية.

وهكذا كان ﷺ يحب التعجيل دائما فى أعمال البر، ويحث مريده على ذلك، ويقول: (خير البر عاجله)، وكان يقول دائما: (إن طريقنا ليس طريق بطالة، وإنما هو طريق عمل وكسب) وحسبنا إمامنا الشاذلى ﷺ كان يقول لمريده: (إن مكوكك مسبحتك، وضفيرة خوصك ذكرك) ومما يروى عن ابن عطاء ﷺ أن شيخه أبو العباس المرسى ﷺ قال له: (نحن إذا صحبنا تاجرا ما نقول له اترك تجارتك وتعال، أو صاحب صنعة ما نقول له اترك صنعتك وتعال، أو طالب علم ما نقول له اترك طلبك وتعال، ولكن نقر كل واحد فيما أقامه الله تعالى، وما قسمه الله له على أيدينا هو واصل إليه) وقد صحب رسول الله ﷺ صحابة عدة فما قال لتاجر اترك تجارتك ولا لذى صنعة اترك صنعتك بل أقرهم على أسبابهم وأمرهم بتقوى الله فيها، وقد كان أبو الحسن ﷺ يحترف الزراعة والفلاحة.

الشيخ وأصحاب الجاه

وكان شيخنا ﷺ لا يخشى فى الحق لومة لائم فى سبيل الحق ونصرة الدين، ولا يهاب عظيما مهما كان سلطانه، فإذا ضمّه وأغنياء الدنيا مجلس تعالى عليهم بالله وترفع عنهم بما منحه مولاه من عزة وجاه، وبذل النصح بما أراه الله بنافذ بصيرته من عيوبهم

ونقائصهم، دون رعاية لجانبهم الشخصى أو جاههم المادى، وكان يردد فى ذلك قول الرسول ﷺ: "من عظم غنيا لغناه؛ ذهب ثلثا دينه"[1].

ومما يدل على أنه كان لا يعبأ بعظيم أو متكبر مهما كان شأنه أنه كان يمشى بركبه عليهم وهو راكب دابته، فلا ينزل عنها تعظيما لهم، كما كان يفعل معهم جميع الناس؛ خوفا منهم أو اتقاء شرهم.

وقد كانت عادة مشايخ الطرق الذين ليس لهم قدم فى طريق القوم، وإنما يتخذون المشيخة حرفة للكسب ووسيلة للعيش إذا زاروا بلدة ومروا بمنزل عمدتها ينزلون عن مطاياهم أمام منزله، ويسلمون عليه فى صورة استئذان لدخولهم البلد.

ولكنه ﷺ كان إذا دخل قرية لزيارة بعض مريديه تلبية لدعوته، ما كان يحترم هذه التقاليد، ولا يجالس العمد والرؤساء، ولا يستأذن منهم، فكان هذا منه يغيظهم ويؤلمهم، ويزعمون أنه متكبر عليهم، وما دروا أنه فى الحقيقة يعلى طريق الحق، ويرفع من شأن أهل الله، فهو بهذا يعز المشيخة أو الخلافة، ويريد أيضا أن يفهم هؤلاء المتغطرسين قيمتهم ومراكزهم عند الله إذ يفعل معهم ما يلهمه فى سره أو يلقى فى قلبه، لا اتباع عادة أو تقليد جماعة مع أنه كان يعظم الفقير، ويتودد إلى اليتيم، ويجيب دعوة الأرملة، ويسعى فى خدمة المساكين، فهو إن عظم هؤلاء الضعفاء فجبرا لخاطرهم، ورعاية لحق الله فيهم، ولو عظم الأغنياء فهموا أنه يخافهم ويجلهم لمالهم وسلطانهم، فلتتأمل هذا جيدا لتدرك تماما:(إنما الأعمال بالنيات)، وأن الشيخ ﷺ بحمد الله دائما كان مراقبا مولاه فى جميع التجليات، ولا يعمل عن هوى نفس، أو ما جرت به العادات، بل ما يودع فى قلبه، ويوافق الشرع وكريم العادات فى جميع الأمور والحالات.

وأيضا مما كان يؤرق هؤلاء الرؤساء أنهم يعلمون أن المشايخ الصادقين يكونون فى نظرهم مركزا لتجمع الناس، وبث الوعى الدينى بين العوام، وتثقيف العقول وتعريف كل بما له من حقوق وواجبات، فلا تلبث أن تنطلق من هذه الأماكن الصرخة المدوية

---

[1] رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن مسعود ﷺ

التى تقوض أركان الطغيان والاستبداد، وتجعل العامة يقفون فى سبيل بغيهم، ولا يقبلون تسخيرهم فى مصالحهم، ولا يعظمونهم تعظيم العبد للسيد كما يريدون.

وأيضا ما كان يضفيه الشيخ بهمته العلية على مريده من عزة وترفع وعلو همة، وما يودع فى صدره من نور الإيمان الصادق، وأنه لا فاعل فى الحقيقة ولا نافع ولا ضار سواه ـ سبحانه ـ،واستصغار مريديه للدنيا وأهلها وعزوفهم عنها وعدم تكالبهم عليها بما وقر فى صدرهم من يقين بالله، كل ذلك جعل المريدين لا يعبئون بأمثال هؤلاء الطغاة؛ واحتقارهم إذ إنهم كلاب هذه الدنيا يتجاذبون جيفتها.

لذا نجد أن هؤلاء الطغاة فى كل بلد يطاردون مشايخ الطرق الصادقين، ويحاولون التخلص منهم ما وجدوا إلى ذلك سبيلا ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]، سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ [الأنعام:١٢٣].

وكان أمثال هؤلاء الأغنياء أمام هذه القوة الجبروتية التى ألبسه الحق إياها لا يسعهم إلا الخضوع أمامه ﷺ، وطأطأة الرءوس فى حضرته ومجاراته فى حديثه، وتظاهرهم بالاستجابة إلى نصحه فى مجلسه، وإن لم يتحقق ذلك منهم بعد خروجهم من عنده.

ولقد رأينا بأعيننا أن بعض هؤلاء المتكبرين كان إذا رأى ركبه مارا عليه أسرع وبادر بالدخول إلى منزله متواريا منه هيبة لشخصه وخوفا من لقائه؛ لئلا يكشف عيبه أو يقبح شأنه، أو ينهاه عما هو منغمس فيه مما لا يرضى الله تعالى، أو يوجه إليه لوما أو عتبا لما هو عليه من تقصير فى دينه، وبطش وظلم للناس أو تسخيرهم فى أعماله، وتعاليه على هؤلاء الضعفاء.

وكان ﷺ إذا بلغه فى بعض الأحيان عن أحد هؤلاء مقالة سوء فى شأنه، فمع صفحه وتسامحه المعروف كان مع أمثال هؤلاء لا يتجاوز عنهم، بل يتصدى لهم ويغلظ لهم القول ويعقب على ذلك قائلا: (إن أمثال هؤلاء يظنون فى أنفسهم العلو والكبر والجاه، فلا بد أن أخضد شوكتهم وأكبح نفوسهم المتعالية).

ثم يستطرد قائلا: (أتمنى أن أحدا من هؤلاء المتكبرين يواجهنى بمقالته تلك حتى أعرفه قيمته ومنزلته عندى، وأبين لأمثال هؤلاء أن رجال الله لا يهابون غير الحق، ولا يخشون أحدا إلا الله).

ومن عجب أننا نرى هؤلاء على تعاظمهم وغطرستهم يحنون له الرءوس، ويبتسمون له ويسألونه الرضا عنهم، ويرجونه الدعوات الصالحات، ويتملصون مما حدث منهم، ويتظاهرون بأنهم يكنون له كل احترام وتجلة، وأنهم لا يتحدثون عنه إلا بالحسنى، وأنهم ما زالوا بخير ما دام عنهم راضيا، ويتملقونه بإظهار الود، وأنهم يتبركون به، وأن دعواته لهم ولأولادهم وذويهم هى التى عافتهم، أو أنقذتهم مما ألم بهم، ظانين أنهم خدعوا الشيخ ﷺ وأوهموه أنهم يحبونه، فله عندهم كل إجلال واحترام وما دروا أنهم خدعوا أنفسهم بالباطل وأوهموا عقولهم بغير الحق، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء:١٤٢].

ولقد كان رضى الله تعالى عنه بعد انصرافهم يقول لنا: (إن هؤلاء لا يليق بهم إلا ذلك القول وهذه المعاملة، لتكبرهم على الله وعلى مخلوقات الله، إذ يظنون أنهم أعلى من الناس قدرا وأرفع منهم منزلة، وهذا عين الكبر المذموم، وقد صدق رسول الله ﷺ إذ يقول: (الكبر على المتكبر صدقة).

ومما هو جدير بالذكر أنه قد تعدت هذه الهيبة[1] الربانية، والعزة الإلهية، إلى مريدى الشيخ، فبحمد الله الكل يقدرهم ويهابهم، ومهما كان شأن وسلطان خصمهم، أو من

---

(١) الهيبة: حال العارفين، وهي حالة يشعر بها سالك الطريق إلى الله حين يكشف الله عن عظمته لقلب عبده لجلاله، فيتجلى عليه بذلك، فتخلع عليه هذه الخلعة، فيكون مهابا لدى الكل.

المراقبة: استدامة علم العبد باطلاع الرب عليه في جميع أحواله.

المواجهة: مواجهة أنوار الملكوت وأسرار الجبروت، فأنت تواجهه بأنوار التوجه، وهو يواجهك بأنوار المواجهة، وهي كشف الحجاب وفتح الباب.

يريد الحط من مقامهم، فإن الله يعزهم وينصرهم، ولو جرد لهم عدوهم كل سلاح، فهم يكلون أمرهم لمولاهم يرعاهم وينصرهم ويتولاهم، وأخيرا عندما يجد سلاحه لم يصبهم بل رد إليه سهمه وباء بخزيه يأتي معتذرا متنصلا ملتمسا الصفح وراجيا الرضا، وهكذا كل من خاف الله خافه كل شيء.

ترفعه عن الدنايا

ومما لمسنا فى فضيلة الشيخ ﷺ علو همته فى كل أموره، وترفعه عن الدنايا فى كل شئونه، وكراهيته سفاسف الأمور، ومحقرات الأعمال، ودنىء الأحوال، فلا يحب أن يكون لأحد من مخلوقات الله يد عليه ولا منة، وكان ﷺ لا يتطلع أبدا إلى ما فى أيدى رواده، لا بالإشارة ولا بالتلميح حتى لا يصغر فى عين مريده ولا يكون له فى قلبه المنزلة اللائقة به؛ فيستجيب له وينتفع بنصحه وإرشاده، إذ كان رجاؤه ﷺ ينحصر فى الله وحده، وتطلعه إلى بر خالقه وعطفه، ولا يأمل فى أحد عطاء، ولا يعلق عليه رجاء، وكان يترجم عن حاله وفعاله ورده الذى كان يردده صباحا ومساء (اللهم اقذف فى قلبى رجاءك، واقطع رجائى عمن سواك).

معاملته لأهل بيته

كان ﷺ مع انشغاله التام بأوراده وأذكاره وإرشاد مريديه وقصاده يجعل لأهل بيته وقتا يجلس معهم، ويحدثهم فى كل شئونهم، ويتبسط معهم مداعبا الأطفال فاتحا صدره

المجالسة: مجالسة الأدب والهيبة، فأنت تجالسه بالأدب والحياء، وهو يجالسك بالتقريب والاجتباء، وأنت تجالسه بمراقبته، وهو يجالسك بحفظه ورعايته، وأنت تجالسه بذكره، وهو يجالسك ببره "أنا جليس من ذكرني".

المحادثة: المكالمة القلبية، وهي الفكرة والجولان في عظمة الجبروت فأنت تحادثه في سرك بمناجاته وسؤاله وهو يحادثك بمزيد إحسانه ونواله، وأنت تحادثه في عالم الشهادة وهو يحادثك في عالم الغيب والأسرار والحكم في قلبك.

المسامرة: حديث الليل وهي في حقيقتها استمرار الانبساط مع كتمان السر، وظاهر معنى المسامرة أنها حالة روحية قائمة بين العبد والرب أثناء الليل، وهي مناجاة بين العبد وربه وتقوم على الستر.

للجميع، وكان ينفحهم من هداياه، ويجيب لكل طلبه ويحقق رجاه، ويسمع للمتألم شكايته، وينيل كل ذى حاجة مأربه ومبتغاه، ويؤنسهم بعذب حديثه ناصحا إياهم كل واحد حسب حاله وسنه، وما كلف به من عمل فى الحقل ومعاملته لجيرانه ورفقه بماشيته ويسألهم عما تم إنجازه فى أعمال الزراعة، ويرشدهم إلى ما يجب، ويستحث هممهم إلى المبادرة والخلاص مما وكل إليهم من أعمال، وكذا أهل المنزل يسمع منهم ويوجههم، ويقضى مطالبهم، ثم يصدر كل واحد منهم متزودا لدينه، وكيف يراقب ربه ويؤدى فرضه، ويحسن معاملته للناس ويرعى حق نفسه، عارفا بما عليه من عمل فى غده لمعاشه أو معاده.

وكان ينصحنا دائما بالرفق، وحسن المعاملة للأهل والأقارب، ويقول: "خيركم خيركم لأهله" رواه الترمذى وابن عساكر عن على ﷺ.

موقفه من الهدية

ومما رأيناه وتحققناه أن شيخنا ﷺ كان أبِيّ النفس عفيفها، وما كان يقبل الهدية إلا جبرا لخاطر مهديها، ولرؤيته الحق فيها، وإنها هدية من الله تكريما له مسوقة على يد مسديها، وكان يسأل إذا قدم إليه مال: (أمال صدقة وزكاة أم هدية؟ لأننا بنى هاشم لا تحل لنا الصدقة ولا الزكاة، إذ إنها أوساخ الناس وأوزارهم).

ومما رأيناه أنه ما عرّض أبدا بطلب شيء من أحد، أو تطلعت نفسه إلى دنيا غيره، مهما كانت حاجته، وذلك لغناه التام بربه، فإذا ما أكرم بشيء وقدم له قبله وقال: (أحل الحلال ما أتى بغير سؤال، ولم يخطر لك على بال).

وكان ﷺ مترسما ما روى عن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ فقد كان الرسول ﷺ يعطيه العطاء، فيقول: (أعطه يا رسول الله أفقر إليه منى، فقال له رسول الله ﷺ: خذه

فتموله أو تصدق به، وما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه، وما لا فلا تُتبعه نفسك)[1].

قال سالم: (فمن أجل ذلك كان ابن عمر لا يسأل أحدا شيئا، ولا يرد شيئا أعطيه).

وروى زيد بن خالد، قال: قال رسول الله ﷺ: (من جاءه معروف من أخيه من غير مسألة ولا استشراف نفس فليقبله، فإنما هو شيء من رزق الله تعالى ساقه الله إليه)[2] وقال الجنيد ﷺ سمعت السرى يقول: (أعرف طريقا مختصرا قصدا إلى الجنة، قلت له ما هو؟ قال: (لا تسأل من أحد شيئا، ولا تأخذ من أحد شيئا).

فكان ﷺ لا ينظر إلى قيمة ما قدم إليه، وإنما يرى فيه فضل الحق عليه، ورعايته التى ساقت ذلك على يد عبد من عباد الله إليه، وانظر إلى ما روى عن سيد الخلق ﷺ: "أنه كان يثب إلى الهدية ويقبلها، وهو العفيف الغنى بربه".

وإنما كان ﷺ والله أعلم ينظر إلى رحمة ربه المسوقة إليه فى تلك الهدية على يد من أرسله بها، فلتنظر أيها القارئ إلى المقاصد والنوايا ولا تنظر إلى الظواهر ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

ومما يؤيد ذلك أنه كان ﷺ يسر إلى بعض أبنائه الخلص ويقول: (إنى مستح من ربى لسابغ كرمه، وكثرة نعمه علىَّ فلا يخطر ببالى أى شيء إلا ويساق فى الحال إلىَّ على يد من لا أتوقع منه شيئا، فعند ذلك يفيض قلبى بالشكر، وتنطق كل جوارحى بالعجز، وتتردد فى صدرى هذه المناجاة (يا رب هذا كرم سابغ لا أستحقه، ولست أهلا له، وإن كنت يا مولاى أهلا لكل كرم، إلا أنى أخشى أن أكون ممن عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا).

---

[1] رواه البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمر عن أبيه رضى الله عنهما.

[2] رواه الطبرانى فى الكبير عن زيد بن خالد ﷺ و رواه أحمد وابن حبان و الحاكم عن خالد بن عدى ﷺ

فانظر- أخى رحمك الله- إلى جمعه يفرح بعطاء ربه، ويخشى أن يكون بلاء واختبارا، وهذا شأن كمل الصديقين (لا تأمن مكرى وإن أمنتك)، (لا آمن مكر الله، ولو كانت إحدى قدمى فى الجنة، والأخرى خارجها).

وكان يتضرع إلى ربه سائلا إياه ألا يشغله إلا به، وألا يكون هذا منقصا من مكانته عنده، ومقامه لديه وكثيرا ما كان يردد مقالة سيدى أبى الحسن الشاذلى ﷺ: (نحن قوم لا نطلب ولا نرد، وإذا أخذنا فإنما نأخذ من الله، ومن رد الهدية فكأنما ردها على الله).

وقد عودنا إذا طلب من أحدنا شراء شيء له أن ينقده الثمن فورا، فإذا أعرضنا عن أخذه وتأففنا من ذلك، ورجونا قبوله منا هدية قال: (لا بد من دفع ثمنه ما دمت قد طلبته بنفسى)، حتى ألفنا منه ذلك، وصارت هذه سنة لنا فى معاملة بعضنا للبعض الآخر، فإذا أحضر أحد لأخيه شيئا دون سابق طلب، فهو مخير فى أخذه الثمن أو لا، وإذا طلب منه إحضار ذلك الشيء، فلا بد من دفعه الثمن تأسيا بما كان عليه شيخنا، وما عودنا إياه.

عطفه على مريديه

كان ﷺ شفوقا رحيما بأبنائه ومريديه، ودودا لهم يسأل من حضر عن شأنه وحاله، وما يهمه ويتحسس لكل أخباره ويتفقد من غاب ويسأل عنه، فإذا علم بما يشغله من أمر المعاش أو مشاكل الحياة حث على معاونته، ودعا إخوانه إلى مشاركته فى أمره، ولا يقر للشيخ قرار حتى يعلم خروجه مما هو فيه على أطيب حال، وكثيرا ما كان يسأل الله النجاة والخلاص لمريديه الذين غيبهم عنه شئون معاشهم، أو ضائقة ألمت بهم أو مرض أقعدهم، أو أى شاغل عطلهم عن حضور مجلسه.

وإذا شكا له بعض مريديه أمرا فى دينه أو معاشه استمع الشكاية برفق وأناة، ثم بين له وجه الصواب، وأرشده إلى أقوم طريق وإلى الخلاص من أقرب باب، فكان من يعمل بمشورته يتم له الخلاص والنجاح فى أمره، وينال التأييد والنصر، ومن مال أو حاد ولم يعمل بوصيته، أو تردد فى امتثال مشورته، أو جال فى صدره بعض الخواطر فى مقالته،

واستبد برأيه ضل مسعاه، ثم يندم حيث لا ينفع الندم ويتأسف بعد فوات الفرصة، ويأتي الشيخ معترفا تائبا نادما وكنا نسمعه يقول له: (يا ولدى مهما كان الأمر، فخطأ الشيخ خير من صواب المريد).

فكنا نعتبر بذلك ونحذر المخالفة أو التردد فى إنفاذ ما يشير به، ونحرص على العمل بمشورته، ونجاهد أنفسنا ما وسعنا الجهاد فى المبادرة إلى السير فى الطريق التى رسمها، وإن كان ذلك يخالف أهواءنا وعقولنا، معتقدين أن ذلك من جهاد النفس والهوى، وبحمد الله كنا نجد ثمرة هذا الجهاد نجاحا وسدادا وصوابا، وهكذا شأن كل راع يرعى رعيته بحق، وكان حرصه على أبنائه فى الطريق والسعى لراحتهم وسعادتهم أكثر من حرصه وسعيه لأبنائه لصلبه، بل قد تحدث بها بعض الناس لأبنائه من صلبه، وقال لهم: (إن الشيخ ﷺ كان يعمل لفلان وفلان من أبناء الطريق أكثر مما كان يعمل لكم) وكان أبناؤه لصلبه يعلمون ذلك مقدرين أن أباهم أب للجميع، وأن أحب الأبناء لديه العامل بوصاياه، السائر على نهجه الممتثل لأمره المعلق قلبه به، الحاط لرحاله وآماله فى ساحة كرمه، سواء كان ابنا لصلبه أو ابنا له فى طريق الله "أقربكم منى مجلسا يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقا، الموطئون أكنافا"[1]، "سلمان منا أهل البيت"[2]، ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات:١٣]، "لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى"[3].

الشيخ ينجز بنفسه أعمال مريديه

ولقد بلغ من عنايته بأولاده المريدين وحرصه على قضاء مصالحهم، أنه كان يسعى بنفسه بل قد يسافر لقضاء حوائجهم إذا استدعى الأمر ذلك، وكم تم لكثير من مريديه على يديه من أمر زواج، أو إنجاز بعض مهام لا يستقيم أمر دينه إلا بقضائها، كى يحفظ على المريد قلبه، ولئلا يتشتت فكره وتتوزع خواطره، فيكون أتم لجمعه بربه وتفرغه لعبادته.

---

[1] رواه الطبرانى فى مكارم الأخلاق من حديث جابر ﷺ

[2] رواه الطبرانى فى الكبير والحاكم فى المستدرك عن كثير بن عبد الله المزنى عن أبيه عن جده ﷺ

[3] جزء من حديث رواه أحمد و البيهقى فى شعب الإيمان و غيرهم عن جابر بن عبد الله ﷺ.

وكم من مصالح كان يصعب على المريد إنجازها وحده فكانت تقضى ببركة الشيخ على أحسن حال، فى أيسر وقت وبأقل جهد، فيخجل المريد ويشعر بالحياء الشديد لتعبه من أجله، فكان الشيخ يقول: (هذا واجبى بالنسبة لكم) ويذكرنا بالحديث "كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته..." رواه أحمد والشيخان والترمذى عن ابن عمر.

الشيخ علمنا كل شيء

والحق إننا ندين جميعا له بالفضل فى كل شيء، فلقد علمنا أمر ديننا، وأبان لنا وجه الصواب فى كل شيء، وبما يقبل العمل، وبما يتقرب إلى الله، وعرفنا بمداخل النفس والهوى وتلبيسات الشيطان وتخيلاته، وما يفسد على العبد اتصاله بالله، ويقطعه عن طريق مولاه، وإن العبرة ليست بكثرة العمل وكبر حجم الطاعات، بل المدار عليه النية الصادقة الخالصة والتوجه التام لله وتخليص بيت الرب مما سواه، وحفظ حرمة المشايخ والتأدب بآدابهم، وخدمتهم الصادقة، والتخلق بمحامد الصفات وترك المألوفات والعادات النفسية، وكريم المعاملة للناس وحسن الظن بالله فى كل الأحوال، وحسن الظن بالناس فى كل آن، وتحمل آذاهم والصبر على جفاهم، كل هذه الأمور هى الطريق الحق الموصل إلى الله، والغاية المنشودة لأهل الله، كما أرشدنا ﷺ إلى أمر معاشنا، وكيفية التعامل مع الناس وكيفية تجنب شرورهم، وكيفية مجاراتهم فى دنياهم، إذ الحصيف هو الخبير بأمر معاشه، العليم بأهل زمانه، وبمجارى الأمور على وجهها السليم المتعارف عليه لدى المجتمع، وليس طريق القوم عبادة وزهادة ونسك، بل ابن الطريق الحق من يأخذ النصيب من كل شيء، ولا يأخذ منه النصيب أى شيء "المؤمن كيس فطن"[1] وأسوة شيخنا فى ذلك جده ﷺ، فقد عرَّف أصحابه كل ما يهمهم فى دينهم ودنياهم، ولقد صدق أبو هريرة ﷺ إذ قال: "علمنا رسول الله ﷺ كل شيء حتى الخراء"[2] وكنا إذا حزبنا أمر سارعنا إليه ملتمسين عنده الخلاص، ملقين إليه كل ما

---

[1] رواه القضاعى و الديلمى عن أنس بن مالك ﷺ

[2] حديث صحيح رواه مسلم و أبو داود و الترمذى عن سلمان ﷺ

أهمنا مفضين إليه بهمومنا يتصرف فيها بحكمته وكياسته وخبرته وتجربته، وحسب ما يلهمه الله.

فى نظرته الرحمة وفى ساحته الفرج

وكان ينظر إلينا فى لهفتنا مبتسما مطمئنا لنا قائلا: (لا عليك)، ويهدئ من روعنا، فبهذه النظرة نفيق مما ألم بنا وأهمنا، ثم نراه قد جرَّد للأمر همته، ولا يقر قراره ولا يهنأ باله حتى تنقشع عنا سحب همومنا وتزول آلامنا.

وأكثر من ذلك لو دخل عليه أحدنا عابسا متبرما يلاطفه، ويسأل عن سبب ذلك فيقول له فلان فعل بى كذا، أو يقول: فى البيت فعلوا كذا، فكان يقول: (من أجل ذلك تغيرت، انظر يا بنى إلى الناس وإلى الإخوان، وإلى كل من تصحبه بما يليق له، ولا تطلب منه فوق استعداده أو أزيد من حده وطاقته فما فعل ذلك قصد الإساءة أو تعمد الضرر، بل هذا حاله أو ذلك نهاية حده فى العقل، فلا ترجو من أحد غير ما عنده، ولا تكلفه فوق طاقته، أو تنتظر منه عملا، أو معروفا أكثر من استعداده، فهذا حده وقدر سعته، والعقول متفاوتة والناس معادن، ولكل مشربه).

فكانت هذه الوصية تنزل على قلوبنا أمناً وسكينة، وتنزل على نفوسنا بردا وسلاما، ونعود باللائمة على أنفسنا، إذ يطلب الواحد منا ممن عاشره أو صاحبه فوق طاقته، والله لا يكلف نفسا إلا وسعها.

اعتمادنا عليه فى تدبير أمورنا

ومجمل القول أننا ما فكرنا أبدا أيام حياته فى أمر ما، أو نحونا إلى تدبير شأن من شئوننا لوثوقنا بأن عين الشيخ ﷺ ساهرة على رعايتنا، وكانت أذهاننا خالية من كل تفكير فيما يصلح لنا، وما علينا إلا أن نعرض عليه أمورنا أو هو يلمسها، فيشير بما يراه، وكان علينا تنفيذ ما يراه صالحا، والفعل بما أشار؛ فعشنا بفضل الله ورعايته فى بحبوحة هذه الساحة زمنا كنا فيه عيال على حضرته أطفالا فى حجر بره وكفالته وولايته وكنا مستريحين من مشكلات الحياة وتعقيد الأمور وظروف الأيام وتنكر

الأصحاب وانعكاس حال الناس وتغير طباع الخلق وإدبار المدبرين وإعراض المعرضين، كل ذلك وقانا الله بفضله ﷺ شره وحمانا ببركته من ويلاته.

فجزاه الله عنا خير ما جزى شيخا عن قومه، وراعيا عن رعيته، وناصحا أمينا لعشيرته، إذ كان لا يشغله إلا هم واحد، وهو الله وطريقه وأبناء الطريق وما يقربهم من مولاهم وما يخلصهم من دنياهم.

لذا كان أسفنا عليه عظيما وحسرتنا بالغة وألمنا مضاعفا عند انتقاله، وإن كنا بحمد الله نشعر ونتأكد أن جميع أعمالنا ومصالحنا اليوم إنما تتم ببركته، وتقضى بسره ومدده، ولكن غيابه عن عيوننا حزَّ فى نفوسنا وكلم قلوبنا، وترك فراغا واسعا لا يمكن أن يسد بغيره أبدا، إذ صرنا من بعده يتامى بحق فى هذا الزمان لا نجد عينا علينا ساهرة، ولا يدا لمصالحنا مدبرة، ولا قلبا علينا يحنو ويعطف أجزل الله له المثوبة، ومنحه رفيع المقام لديه، ووهبه أعلى منزلة، وأن يرضيه دائما عنا، حتى لا نحرم مدده ورفده، وأن يجمعنا به هنا فى غيب القلوب، وهناك فى حضرة الشهود مع الحبيب المحبوب ﷺ آمين.

مداعبته لأبناء مريديه

وإنك لتعجب عندما يدخل عليه بعض أطفال مريديه، فيهش لهم ويداعبهم بما يتناسب وحالهم، ويتنزل إلى مستوى عقولهم ويتبسط معهم، ويلاطفهم ويقوم بنفسه، ويقدم لهم الهدايا اللائقة بهم التى تدخل عليهم السرور، ومن كان كبيرا من الأطفال يؤنسهم بقصص لطيفة يحكيها لهم أو يلقى عليهم بعض الأحاجي والألغاز التى يحاولون حلها فى جو من المرح والابتهاج، أو يأمرهم بترديد بعض المقالات و تكرير هذه العبارات التى يصعب نطقها مع سرعة ترديدها، فإذا ما أخطئوا تضاحكوا وأضفى ذلك على الأولاد ثوبا من البهجة والانشراح كل ذلك رحمة بهم، وكان بعض الأطفال يأتون بالكثير من الأعمال الصبيانية التى لا تليق وحضرته، ويأتون من الأفعال التى لا تتفق ومكانته، ولا ينبغى أن تحدث فى مجلسه فكنا ننهرهم، ونغضب مما يعملون فى حضرة الشيخﷺ، مما لا يتناسب وجلاله، فيبتسم ويقول: (دعوهم).

ولعله فى ذلك متأسيا بمربيه فقد كان ﷺ مع أطفال الصحابة أكثر من ذلك حتى كان بعض الأطفال يأخذ بثوب الرسول ﷺ ويسير الرسول ﷺ وراءه حيث شاء، وما يزال ممسكا بثوب الرسول ﷺ ويسير كيفما شاء حتى يترك الصبى ثوبه، فيرجع الرسول ﷺ لشأنه.

فكنا لا نلمح استياء أو غضاضة منه لفعل الأطفال معه، بل كان لأعمالهم تلك طيب الخاطر رضى النفس، ولو ساعدك الحظ أيها القارئ ورأيت أسارير وجه الشيخ ؓ وقد تهللت وشفتيه وقد انفرجت عن بسمة عذبة عندما تجرى أطفالنا أمامه، والشيخ يتبعهم بنظراته الحانية، وعينيه الرحيمتين لتمنيت أن يكون لك أحد هؤلاء الأطفال، أو ترجع بك السن لتكون فى موضع تلك الرحمة، لما ترى من جميل عطف الشيخ ؓ عليهم، ولطيف المؤانسة[1] لهم، وكأنما أنزلهم من قلبه مكانا، وأحلهم من صدره منزلة، تجعل أب كل طفل آمنا على ولده من صروف الزمان، ومن عاديات الأيام وتقلب الدهر، وأنه فى حصن رعاية الشيخ، وفى كنف حفظه دائما إن شاء الله وكنا نتفاءل خيراً لهؤلاء الأطفال، وإذا مال بعودهم الهوى فيما بعد وجرفتهم بعض نوازع الشباب نذكر ذلك فنقول: إنهم أبناء الشيخ وما زال يرعاهم وقد دعا لهم، وقد بشرنا بفوزهم فى الحياة، وبعدهم عن مزالق الضلال ونزوات الشباب المفسدة لدينهم وعقولهم، وقد تفاءلنا بذلك واطمأننا على أولادنا، فلا تذهب بهم إن شاء الله تيارات الهوى، ولا تعصف بهم ريح الفساد أو تغيرهم التطورات والأزمات، أو تبدلهم الطوارئ والعاديات، لأنهم فى كهف إيواء الشيخ وفى منعة من كلاءته وحمايته.

---

(١) الأنس: حال المبتدئين، وهي حالة يشعر بها سالك الطريق إلى الله حين يكشف الله عن عظمته لقلب عبده بجماله.
الهيبة: حال العارفين، وهي حالة يشعر بها سالك الطريق إلى الله حين يكشف الله عن عظمته لقلب عبده بجلاله، فيتجلى عليه بذلك، فتخلع عليه هذه الخلعة، فيكون مهابا لدى الجميع.

ولعلنا نلتمس علة حب الشيخ لأطفالنا، وكذا كل الأطفال أنه كان يرى فيهم براءة النفس وطهارة القلب وصفاء الروح وسلامة الصدر وأنهم على الفطرة الأولى الخالصة التى فطر الله الناس عليها "ما من مولود إلا ويولد على الفطرة"[1] فما يتجلى على هؤلاء الأطفال من البراءة والطهر وقرب العهد بالله حيث لم تدنسهم الذنوب أو تغيرهم الأحداث أو تفسدهم النزعات الشريرة، كل ذلك كان يجعلنا نلمس العلة فى بسط الرسول ﷺ رداءه للمطر عند نزوله ثم يضمه إليه بعد، ولما سئل فى ذلك قال: "لأنه قريب العهد بالله تعالى".

ولذا يكون الوليد فى كلاءة من الله أكثر، يدل على ذلك ما كان يدعو به المصطفى ﷺ: "اكلأنى كلاءة الوليد"، فما كانت أعمال شيخنا دائما إلا لمعان سامية وحكم لا يدرك سرها إلا أولو الألباب، فهذا الفارق بين العارف المحق وغيره، إذ صورة العمل واحدة، ولكن الوجهات والنيات متباينة، (ولكل وجهة هو موليها)، فلتتفطن إلى ذلك أيها القارئ اللبيب.

وأكثر من ذلك أن بعض المريدين كانوا يضعون أطفالهم الرضع فى حجره ﷺ للتبرك فيقبلهم ويدعو لهم، وكان هذا مظهرا لرحمته ﷺ بهم وأسوته فى ذلك رسول الله ﷺ الذى كان يقبل الحسن والحسين رضى الله عنهما، ولما اعترض عليه الأقرع بن حابس قائلا: "إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا قط": فنظر إليه الرسول ﷺ ثم قال: "من لا يرحم لا يُرحم"[2]، وفى رواية أخرى عن عائشة رضى الله عنها قالت : جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ، فقال : "إنكم تقبلون الصبيان، وما نقبلهم، فقال رسول الله ﷺ : "أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك" رواه البخارى ومسلم.

---

(١) جزء من حديث رواه البخارى و مسلم عن أبى هريرة ﷺ

[2] حديث متفق عليه عن أبى هريرة ﷺ

وقد يحدث أن يبول الطفل فى حجره فيستاء والد الطفل أو أمه ويسرع أحدهما بأخذه فيقول ﷺ: "لا تفعل ودعه حتى يكمل بوله".

وقد قرأنا عن حسن معاملة النبى ﷺ لأولاد أصحابه؛ فقد حدث أن بال أحد الأطفال فى حجره ﷺ فهمت أمه تحمله، فقال لها الرسول ﷺ: "لا تزرميه ... الحديث" أى لا تقطعى عليه بولته، وهكذا كان الشيخ ﷺ يقتدى بالرسول ﷺ فى حركاته وسكناته التى تنم عن رقة قلبه ورحمته العامة للجميع: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

حسن رعايته لشبابنا

أما أبناؤنا التلاميذ فقد كان دائب السؤال عنهم، يتتبع سلوكهم، ويلاحظهم فى معاملاتهم ويتنسم أخبارهم، ويسر إليهم بنصحه وتوجيهاته وما يجب أن يعملوه لدينهم ودنياهم، ويحثهم على قيامهم بواجبهم المدرسى، واستذكارهم لدروسهم، وكان يكلف بعض أولاده المعلمين اختبارهم ليتبين له مدى تحصيلهم، ثم يوجههم ويشير إليهم بما ينبغى، ويختلف توجيهه ونصحه لكل شاب حسب حاله ولما يراه ببصيرته فى مآله، وفى أيام الامتحانات كان يكثر لهم من الدعوات الصالحات، وقراءة الفاتحة فى كل اجتماع؛ رجاء فى الله أن يوفقهم إلى الصواب فى إجاباتهم، وأن يحقق لهم الأمل فى النجاح، فبحق كان شيخنا أحرص على أبنائنا منا وأفرح بنجاحهم وحسن مسلكهم من والديهم.

سلوك حسن للأسوة الطيبة

ولكثرة تردد أبناء المريدين على مجلس الشيخ نشئوا بحمد الله على حبه متأدبين بآدابه، متأسين به فى أخلاقه، حتى لقد كانت لهم صفتهم الخاصة، وطابعهم المميز لهم من بين زملائهم التلاميذ، وإذا تعجب أحد الناس من حسن مسلكهم مع فساد شبان العصر، قيل له: (إن أباه مريد للشيخ، وهو كثير التردد على مجلسه)، ولما لمس أبناؤنا حرص الشيخ ﷺ عليهم، وحبه لهم كانوا يعرضون عليه مطالبهم التى لم يحققها لهم آباؤهم، وسرعان ما يعمل الشيخ ﷺ على تحقيق رغباتهم، ما دامت لا تخالف الشرع،

ولا تميل بهم عن الجادة فى مسلكهم، ولا تغريهم بالانصراف عن الواجب، ولا تغير من أخلاقهم.

وقد يسهم الشيخ ﷺ بنفسه وبماله فى إنجاز بعض هذه الرغبات لأبناء المريدين، وبذا تأصلت فى قلوب هؤلاء الأبناء، محبة الشيخ ﷺ وعظمت عندهم مكانته، حتى كانوا يفضلونه على الآباء، ويجعلونه موئلا لهم، ومحط رحالهم، ومعقد آمالهم، وكنا نلمس ذلك فى أبنائنا واضحا فى حديثهم، وتردد اسم الشيخ ﷺ على لسانهم فى كل مناسبة، واعتقادهم أنهم وآباءهم يرتعون فى نعمة الشيخ ﷺ، وأن ما عند أبيهم إنما هو من عند الشيخ ومن فضله، وهذه خلة طيبة نشأ أطفالنا عليها أو تأصلت فيهم كجبلة، وهذه أسمى آداب الطريقة، إذ يجب على المريد الصادق أن يعتقد أن ما وصل إليه من خير، أو ما أكرم به من نعمة حسيا أو معنويا، إنما كل ذلك من فيء الشيخ ﷺ ومن فضله وببركته نال المريد ذلك، فالشكر أولا له، إذ هو الواسطة فى ذلك، ثم للمولى جل وعلا[1] وكم شب من هؤلاء الأبناء فى هذا المحيط الديني من ترسم خطا الشيخ ﷺ، وعمل بمبادئ الطريق، حتى كأن تلك المبادئ ولدوا عليها فهى لهم كجبلة وطبيعة، ولم يجدوا مشقة فى التخلق بها، إذ درجوا على فعلها ونشئوا عليها ومارسوها صغارا، وقد كانت فرحة الشيخ ﷺ بهم كبيرة، ونظرته إليهم حينما يراهم عظيمة، ويسر بهم أكثر من أبنائه لصلبه، بل كان يفرح بهم إذا رأى منهم نهجا مستقيما وسلوكا قويما، أكثر من فرحه بنا نحن المريدين، وبحمد الله وشكره نشأ كثير من شبابنا على طاعة الله، وصدق فيهم حديث رسول الله ﷺ: "سبعة يظلهم الله فى ظله، يوم لا ظل إلا ظله، شاب نشأ فى عبادة ربه..." الحديث رواه الشيخان عن أبى هريرة ﷺ.

---

(١) ليعلم من يريد الوقوف على جلية الأمر أن أهل الطريق مراتب، منهم الخواص والعوام وخواص الخواص، فمنهم من يرى الله في الأسباب، ويرى الوحدة في الكثرة، وأن الموجودات ما كانت ولا قامت إلا به، (ما رأيت شيئا إلا رأيت الله قبله) ومنهم من يرى الأسباب، ثم يرتقي منه إلى مسبب الأسباب، (من لم يشكر الناس لم يشكر الله)، فيستدل بها على موجدها.

كان ﷺ يأخذ بالأسباب، ويقف مع ظاهر الشريعة فى كل أموره كذلك كان فى علاج مرضاه، إلا أن جل علاجه لهم كان بالصدقات عملا بحديث الرسول ﷺ: "داووا مرضاكم بالصدقة"[1].

فاتخذ ﷺ الصدقة سببا للشفاء عملا بظاهر الحديث إذ حبه لمربيه ﷺ، جعله فى تمام اليقين بكل ما ورد عنه ﷺ وحقا لكل سببه قدر حاله ومقامه وتمكينه، فمنهم من يعتقد فى الأسباب الظاهرة، ومنهم من يعتقد فى الأسباب الباطنة، ومنهم من يتخذ مسبب الأسباب وجهته؛ ويعتبر أن توجهه إليه سبحانه وتعالى هو السبب الوحيد لكل الأمور، فمثلا يعمل أحدنا فى حرفته طلبا للعيش، ومنا من يسأل سببا للقوت، ومريم[2] رضى الله عنها، كانت يأتيها رزقها دون سؤال لما تفرغت بالكلية لله، فكفاها الله مؤنة العيش والسؤال، ولما خرجت من محرابها أقامها الله فى الأسباب، فقال لها: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ [مريم:٢٥].

نعم وإن كان هزها لا ينزل الرطب الجنى، إلا أنه سبب، ويختلف حال المرء مع الله حسب ما يقيمه الله فى الأسباب أو فى التجريد، ولكل مشربه ﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشۡرَبَهُمۡ﴾ [البقرة:٦٠]، فكان إذا مرض أحد من أهل بيته ﷺ أخرج صدقة وقال: (أنا

---

(١) رواه أبو الشيخ، والديلمى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما و البيهقى عن ابن مسعود ﷺ .

(٢) مسألة الأسباب والتجريد، كثر فيها الكلام، والمطلوب من ابن الطريق أنه يظن في الأسباب أولا، وينظر بعين قلبه إلى من بيده كل شيء سبحانه وتعالى، ولو أقامه الحق في التجريد، دون اختيار منه وسلب الحق إرادته، فرجوعه إلى الأسباب انحطاط منه عن الهمة العلية، وإذا أقامه في الأسباب فركونه إلى التجريد كسل وبطالة ويلزم عليه الإساءة مع الله لتحرك قلبه دائما إذا لم يأته رزقه، ولا يعترض بحال على حال، فالمهم خلوص النية والتوجه إلى الله واتباع ما أقامه فيه الله سبحانه وتعالى، ومنهم من يأخذ بالأسباب ويجعلها حجابا له كأبي الحسن ﷺ، فلم يطرقها ولم يقف عندها، ومنهم من يأخذ بالأسباب ويؤمن بأن الله هو المعين والفاعل، ومنهم من يترك الأسباب ويشتغل بالطاعة ويتفرغ لله تماما وهذا يكون سببا في حقه "من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين ... الحديث"، "اعبدني ولا تسألني وأنا أعطيك أفضل ما أعطي السائلين".

واثق من قول الرسولﷺ، وأن هذا سبب الشفاء إن كان مقدرا له الشفاء) وفعلا كنا نرى هذا المريض يعافى سريعا مع علمنا بشدة مرضه وخطورته، وربما كان فى الأحوال الشديدة يعلن بعض مريديه إشفاقهم على المريض ويستأذن الشيخ ﷺ فى استحضار الطبيب، لعظم المرض وخطورته، فيبتسم ويقول: (أنا واثق من سيدى، وأنا متوكل على الله، مطمئن لقول الرسول ﷺ، وأنتم ليس عندكم اليقين) فكنا نسكت احتراما لرأيه، وبعد فترة وجيزة نجد بحمد الله أن ذلك المريض قد برئ من مرضه وزالت علته دون طبيب أو دواء.

وعلى سبيل المثال مرضت بنت ابنه فطار عقل والدها ووالدتها لخطورة مرضها وكنا نشعر جميعا بشدة وطأة المرض على البنت، وأشفقنا عليها، وحاولنا فى نظراتنا إلى الشيخ ﷺ وفى التعريض بالكلمات إحضار طبيب لها، إذ أنها صارت بحال لا يمكن أخذها للطبيب، وكان يوم الجمعة، فخفقت قلوبنا جميعا خوفا على هذه البنت، وأشفقنا عليها، وبعد صلاة الجمعة ونحن خارجون من المسجد، نظر إلينا فى حزم وقوة عزيمة، وكانت نظرات عينيه وقتئذ تكاد تفعل بمن أمامه الأفاعيل، فتوارينا خوفا وفرقا من نظراته ثم قال: (إننى سأخرج هذه الصدقة، وإننى بحمد الله على يقين من ربى، كما عودنى بكرمه، أن أرجع إليها فأجد بفضل الله أثر الصدقة واضحا فى شفاء البنت) فاستبشرنا ولمعت فى الوجوه طلائع السرور وبشائر الفرح.

وفعلا: عندما ذهبنا إلى المنزل، دخلنا على البنت وكلمها جدها الشيخ ﷺ، فجلست وكلمته بعد أن كانت لا تبدى حراكا، فداعبها فابتسمت له، وقبيل المساء كادت أن تبرأ من مرضها الخطير، وفى الصباح رأيناها تسير أمامنا فى المنزل، فقال لنا: (هذه هى المريضة، شفاها الله بسبب الصدقة) فطأطأنا رءوسنا حياء وخجلا منه، فقال ﷺ: (أنتم معذورون لأن يقينكم بالله لما يكمل) وصدق الشيخ ﷺ إذ لكل مقام لا يتعداه، رزقنا الله بفضله اليقين، ومنَّ علينا بالرضا آمين.

وكان ينصح أبناءه من صلبه ومريديه الذين يكثرون التردد على الأطباء بالاعتدال في زيارتهم لهم، إلا فيما يستدعى الأمر إلى العمليات الجراحية، وفى الأمراض الهامة، وقد اقتدى به كثير من مريديه فى هذا الشأن، وكان الله سبحانه وتعالى من فضله يمن بالشفاء على مرضاهم لامتثالهم أمر الشيخ ﷺ، ولما ثبت فى قلوبهم من اليقين فى الله عز وجل وفى الرسول ﷺ.

وحقيقة الأمر فى ذلك، أن هذا يعتمد على كمال اليقين من المتصدق، وشدة الوثوق فى الوعد، لأن الاعتقاد الصادق هو أساس كل سلامة، وسبب كل نجاة، فلو تصدق المريض أو ولى أمره بهذه النية الخالصة ولم يتلجلج صدره ولم يضطرب ولم يخامره أى شك فى صدق الرسول الأعظم ﷺ، وفوض لله الأمر كله وسلم له، تم الشفاء بإذن الله وتحقق المطلوب.

كيف يكون الأخذ بالأسباب

ولتعلم أيها القارئ الكريم أن الشيخ ﷺ لم يهمل الأطباء فى كثير من أحيانه، تركا لظاهر الأسباب أو ضنا بالمال، فقد ذهب ﷺ إلى كثير من الأطباء لعلاج مرض ضغط الدم والكبد وخلع الأسنان، وعملت له عملية جراحية فى بيته أجراها له طبيب قريبه، يدعى (فوزى هاشم) وقام بخدمته فى منزله حتى عافاه الله، وإنما كان يعرض عن الأطباء أحيانا، حيث يريد أن يغرس فى أبنائه ومريديه صدق التوكل على الله، وخالص اليقين بتحقيق ما وعد به الصادق الأمين ﷺ، فلا يعتمدون على السبب ولا يقفون عنده تاركين التعلق بالمسبب الأول جل شأنه والتوجه إليه سبحانه، إذ أن من يذهب إلى الطبيب غالبا قد يطمئن خاطره ويركن إلى ذلك السبب الظاهرى، وينتظر الشفاء من قبل الطبيب مع أن الله خلق الدواء واستتر فيه، فلا شافى فى الحقيقة إلا الله ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

ومما يؤيد ذلك ما روى أن سيدنا موسى عليه السلام مرض فطلب منه أصحابه العلاج من علته باستعمال دواء كذا، فلم يلتفت وطال به المرض حتى ناجاه ربه ما معناه: (لن

تشفى حتى تعالج كما قال لك أصحابك، أما تعلم أنى خلقت الدواء واستترت فيه) فسارع سيدنا موسى ﷺ إلى الشجرة التى وصفت له، واستعملها فبرئ بإذن الله عز وجل، وفى العام الذى بعده عاودته تلك العلة، فذهب إلى تلك الشجرة وعالج نفسه بها، فلم يتم له الشفاء، فقيل له: (يا موسى أنت فى هذه المرة نظرت إلى الدواء دون النظر إلى رب الدواء، وفى المرة الماضية كنت ذاهبا بالله وتنفيذا للأمر فبرئت) فمن قام فى الأمر بالله كفاه الله، ومن قام فيه بنفسه وكله الله إلى نفسه.

فمن هنا لزم على العبد الصادق مع الله أن يأخذ بالأسباب فى كل أموره فى معاشه وعلاجه وسائر عمله، ويسلم الأمر لله، وأنه الفاعل فى الكل، فبذا يكون عاملا بالشريعة ملاحظا الحقيقة، مسلما لربه ناظرا إليه فى جميع أموره وهذا هو الكمال، الأخذ بالأسباب الظاهرة عملا بمقتضى ظاهر الشريعة من حيث الأمر والنهى والحث على العمل ويلاحظ فى سره أن الفاعل الحقيقى هو الله، فلو جاءت النتائج وفق ما يتمناه شكر الله، وإن ظهرت على خلاف ما كان يتمناه أيقن أن هذا لحكمة فيرضى بالواقع.

هذا هو الدين الخالص

وهكذا كان شأنه ﷺ فى كل سبب ظاهرى، يلفت أنظارنا ويقول : إن الله حقيقة هو الفاعل فى كل شىء، فلا تظنوا أن عملكم أو أسبابكم هى الموصلة إلى مآربكم بذاتها، وتأملوا قول الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦]،وقوله تعالى ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٤].

استعداده للصلاة

وبطول صحبتنا للشيخ ﷺ لاحظنا أنه كان يهتم بأداء الفرائض فى أول أوقاتها جماعة، ويستعد للوقت قبل دخوله بالوضوء له فيتوضأ ويتطهر قبله بأكثر من ساعة ونصف، وقبيل وقت كل فرض بدقائق يخرج ساعته من جيبه ويمسكها فى يده ويظل يرقبها حتى يحين وقت أدائه، فيأمر أحد مريديه بالأذان، ويصلى السنة القبلية.

ثم يقام للصلاة، فيقدم أحد مريديه من العلماء للإمامة، ويصلى هو مأموما دائما، وما رأيناه صلى إماما، إلا عندما يفقد من يصلح للإمامة.

صلاة العارفين

ولقد لاحظنا كثيرا من المشايخ رضوان الله عليهم أنهم يقدمون من يصلح للإمامة، ويصلون خلفه، إذ هم فى صلاتهم يكون شهودهم أكبر، فمخافة انشغالهم بحركات الصلاة عما هو أكبر مالوا إلى ترك الإمامة؛ ليكون سرهم مع الحق وقلوبهم معه وبه، فيخرجون من صلاتهم بعدما عرجت أرواحهم وجالت حسبما قدر لها فى كثير من الحضرات، وعادوا مزودين بشتى العلوم والنفحات لابسين ما خلع عليهم الحق من خلع الرضوان وما تجلى به عليهم ربهم من المكارم والإحسان وقد تقلبوا فى رياض الجنان بما قرءوا من قرآن جمعهم بالرحمن، وعاينوا فى سجودهم عظمة الله، وأفرغوا أسرارهم لنجواه، فأفاض عليهم بما منَّ وجاد وتعرفوا لمراده، واستمتعوا بأنسه ووداده، هذا قليل من كثير مما يحظى به العارفون فى صلاتهم ومن هنا لعلك تدرك مسارعة المشرع الأعظم إلى الصلاة أول وقتها "أرحنا بها يا بلال"[1] وكما تروى السيدة عائشة رضى الله عنها، فتقول ما معناه:(يكون ﷺ بيننا فإذا أذن للصلاة انفلت منا وكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه) [2].

ومما يزيدك تأكيدا أن السادة رضوان الله عليهم كانوا يتركون الإمامة كما روى عن أبى على المصرى، قال: سافرنا مع عقبة بن عامر الجهنى ﷺ فحضرتنا الصلاة، فأردنا أن يتقدمنا، فقال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من أم قوما فإن أتم فله التمام ولهم التمام، وإن لم يتم فلهم التمام وعليه الإثم"[3].

---

١ رواه أحمد و أبو داود و البغوى عن رجل من خزاعة.
٢ أخرجه الأزدى فى الضعفاء من حديث سويد بن غفلة ﷺ مرسلا
٣ رواه أحمد ترغيب ج ١ صفحة ٣٠٩

كل ذلك يجعلهم يقدمون غيرهم متى كان ممن يصح الاقتداء به؛ إذ التمام لكل حسب مقامه وقربه وكماله والكمال لا حد له، فمهما تفرغوا لربهم وأخلصوا فى أعمالهم وعباداتهم يظنون فى أنفسهم النقصان بالنسبة لما يشاهدونه من عظمة الرحمن وفيوضات المنان.

وقد ذكر صاحب كتاب اللمع: (أن من أدب السادة الصوفية ترك الإمامة والصف الأول، وعدم التطويل فى الصلاة، فلو أن أحدهم كان يحفظ القرآن الكريم، كله قدم من يحسن الفاتحة وسورة أخرى من القرآن الكريم، لأن النبى ﷺ قال: "الإمام ضامن" رواه ابن حبان عن عائشة رضى الله عنها، وتركهم الصف الأول إيثارا للناس لما ورد فى فضيلته، وأما التطويل فلأنه كلما طالت الصلاة كثرت الهفوات والوسواس، والاشتغال بتصحيح الأعمال أولى من الاشتغال بكثرتها وتطويلها، "روى عن رسول الله ﷺ، أنه كان أخف الناس صلاة فى تمام". رواه مالك والشيخان.

ولما سئل بعض الصالحين عن عدم تطويل صلاته، قال: (إنى أختلسها من الشيطان، وأخاف أن أطيلها فيدخل على فى صلاتى فيفسدها).

هذا مع مراعاة إتمام الأركان والهيئات والحركات حسب ما ورد به الشرع.

وإذا كان ﷺ يؤم الناس بظاهره، ولا يفوت ذلك عليه من أمر الوحى شيئا بدليل أنه أوحى إليه أثناء الصلاة، فقد أوحى إليه بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، فاستدار وهو فى صلاته فى الحال.

وكذلك ما روى عن عمر ﷺ أنه كان يرتب جيوش المسلمين وهو إمام للقوم، وكذلك ما روى عن عمر ﷺ أيضا أنه كان يعظ الناس على المنبر وما شغله ذلك عن أمر جيش المسلمين، فقال وهو على المنبر أثناء وعظه (يا سارية الجبل) يريد القائد، فانحاز سارية إلى الجبل فانتصر بعد أن كانت الهزيمة محققة.

فأمثال هؤلاء: أقدر على الجمع، ولا يشغلهم شيء عن شيء، أما سادتنا العارفون فإنهم كانوا يحبون التفرغ التام لمولاهم، لأنهم كانوا لا يبلغون درجة صاحب الوحى المعصوم ﷺ ولا الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين.

كل هذا نسوقه ليفهم أن لسادتنا رضوان الله عليهم فى صلاتهم ما ليس لنا، فهم يتفرغون لها بكليتهم ظاهرا وباطنا أما أمثالنا فلما كان شغلهم بالحركات، وأفعال الصلاة والقراءة، فيقدم للإمامة من تتوفر فيه شروط الإمامة كما ورد فى الشرع الحكيم وبينه السادة الأئمة والفقهاء الأعلام؛ إذ ليس لهم من الشهود والمعاينة والفيض والمكالمة ما لهؤلاء السادة، أو لعل صلاة هؤلاء السادة من باب (لى وقت مع ربى). فليتأمل ذلك أرباب البصائر والفطن.

حرصه على أداء الصلاة فى أول وقت

ومن شدة حرصه ﷺ على أداء الصلوات فى أول وقتها واهتمامه بفرض ربه، أنه بمجرد دخول الوقت؛ يؤذن للصلاة ويصلى منفردا عند عدم وجود أحد معه، حتى ولو علم وتيقن أن هناك من يأتيه بعد دقائق، فلا ينتظره ويقول (أنا لا أضمن حياتى، ولا أتوانى فى تلبية داعى الحق، إذ قد فتح الحق أبواب حضرته، وأذن المؤذن للدخول فيها) وقد نص سادتنا الفقهاء على فضيلة أداء الوقت فى أوله ولا سيما الشافعية فقد قالوا (إن أول الوقت رضوان الله، وأوسطه رحمة الله، وآخره عفو الله) وتأمل فى كلمة عفو الله، فما بالنا بمن يهمل الصلاة كلية، أو يؤخرها ولو عن وقتها، فكان ﷺ لا يشغله عن أدائها فى أول وقتها أى شاغل مهما كان، حتى لو كان ﷺ فى انتظار قطار أو سيارة، وحان وقت الصلاة صلاها فى مكان انتظار وسيلة السفر برغم كل ما كان يحيط به من ظروف، ويذلل كل عقبة لأدائها ويتغلب على كل معوق ليؤدى فرض ربه، ويلبى نداء الحق فى أول وقته، ولا يستريح حتى يصلى فرضه، وكم صلى على هذه الحال، ولو قلنا له إن الناس يلحظوننا بعيونهم سخرية وتعجبا يلتفت إلينا ويقول: (ألم أقل لكم أسقطوا الخلق من اعتباركم، ومن هؤلاء حتى أعمل لهم أى حساب؟ أليس هذا يرضى الله؟ وما على العبد من الناس رضوا عن ذلك أم سخطوا؟).

وحقا فعند الصوفية لا يكمل حال المريد فى باب الإرادة الصحيحة حتى يكبر على الناس أربع تكبيرات، أى يعتبر الناس جميعا موتى لا يلتفت إليهم ولا يراقبهم، ولا يعتد بمقالتهم، ولا تتحرك نفسه لما يرمونه به، ما داموا فى نظره موتى لا يملكون لأنفسهم نفعا، فمن باب أولى لا يملكون له نفعا ولا ضرا، وأنه ما دام يعمل بمقتضى الشرع، واتباعا لآداب أهل الحق، فلا عليه من سخرية الناس وذمهم أو مدحهم، كذلك لا يلتفت إلى مقالاتهم فيه، وليتأمل حاله أموافق للشرع أم مجانبه، وليلتمس رضا مولاه حيثما كان، ولا ينظر إلى اعتقاد الناس فيه، ليحرص على قربه من باريه.

فالناس عند ساداتنا قواطع، فلا تعمل من أجلهم أو تترك من أجلهم، بل اجعل ميزان الشرع فى يدك، وزن حالك وعملك ونيتك به، ولا عليك بعد أرضى الناس أم سخطوا ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

ومما يدل على حرصه ﷺ على الصلاة أنه كان لو حان وقتها وهو فى القطار، أداها بمجرد نزوله منه، فى أى مكان قبل أن يصل بيته، وهو فى ذلك مقتد بالرسول ﷺ، كما سبق فيما خبرت عنه عائشة رضى الله عنها: "كان إذا أذن للصلاة قام من بيننا، وكأنه لا يعرفنا، ولا نعرفه..." الحديث.

استعداده لصلاة العيدين

هذا كان شأنه ﷺ فى كل الصلوات، أما يوم الجمعة فقد كان يغتسل فى صباحه، ويلبس نظيف أو جديد ثيابه، ويلبس العمامة ويتطيب، ويوصينا بذلك قائلا: (إنه يوم عيد المسلمين فلا بد أن نظهر فيه فى أحسن زينة، وأبهى حلة، وإن الله يباهى بنا الملأ الأعلى وإن الملائكة تحب ذلك) وتراه فى أول يومه مهتما بأمر الجمعة لابسا أجمل ثيابه منتظرا الخروج إليها، وكان يخرج من بيته لصلاة الجمعة فى المسجد الجامع قبل وقتها بساعة تقريبا، ويجلس فى الصف الأول مبكرا قبل توافد أحد إلى المسجد لما فى الصف الأول من فضائل، مع حرصه على الفراغ من أوراده اليومية مبكرا، ليكثر من الصلاة على الرسول ﷺ فى يوم الجمعة اتباعا للسنة، وإذا عاد من المسجد توجه لزيارة المقابر

مترحما متصدقا ما أمكن، داعيا قارئا ما شاء الله من السور والآيات، مهديا ثواب ما قرأ للأموات، ولكن فى آخر حياته لما ثقل عليه المرض وصار بحيث لا يتمكن من الذهاب إلى المقابر، كان يكتفى بقراءة الفاتحة أو القرآن والدعاء للأموات وهو فى المنزل، وكان يصلى سنة الجمعة البعدية فى منزله، ويتناول طعام الغذاء كما هى عادته، ثم يخلو قليلا إلى الراحة وقت القيلولة، وقبل العصر بساعة ونصف يستعد للصلاة، ويردد قول الرسول ﷺ: "ما يزال العبد فى الصلاة ما انتظر الصلاة" رواه البخارى ومسلم عن أنس وأبى هريرة.

الشيخ وعصر يوم الجمعة

وكان يهتم بعصر يوم الجمعة خاصة لما ورد فيه من آثار تدل على فضله ومزيته ولما فيه من عادة اجتماع المريدين بالشيخ وقدومهم إليه من مختلف البلدان، لأنه يوم عطلة للموظفين، وكانت فرصة كبيرة لاجتماع أبنائه فى هذا اليوم للتعرف عن أحوالهم وإرشادهم بطريق الإشارة والتلميح لما عرفه الله سبحانه وتعالى عنهم وأطلعه على بواطنهم من أمور أو آداب وأوراد قصروا فى أدائها أو شعائر عطلوها، وكان لا يشتد على من عرف عنه مخالفة فى هذا اليوم، إذ هو يوم فرحة وابتهاج، وقد صدق الله إذ يقول: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح:٢٩].

وبالجملة كان هذا اليوم عنده كأيام الأعياد، فتراه منشرح الصدر، منبسط الأسارير، مقبلا على كثير من مريديه بالملاطفة والمؤانسة، باذلا جهده فى عمل الصالحات من الإطعام والإنفاق فى شتى وجوه المبرات، وكذا كان شأنه ﷺ فى أيام العيدين، فضلا عما يتوجّه ربه فى هذين اليومين بالبهجة والانشراح التام واستقبال الوافدين بكل أنواع الأنس والبشاشة والإكرام وإفاضته على الجميع مما من به عليه مولاه من الإنعام.

حب تأصل حتى صار شهودا

كـان ﷺ ذا حـب عميـق لسـيده ومربيـه سـيدنا رسـول الله ﷺ إذ هـو كافلـه ومعلمـه الأول، والرءوف به، والحريص عليه، ولقد تبين لـه ذلـك جليـا، ولمسـه واضـحا، عنـدما كان يتولاه فى سلوكه الطريق إلى الله، فكان إذا اشتد أمـر أو صـعب عليـه عمـل توقـف والتمس النجاة والخلاص فيدركه سيده ويسرع إليه بالرعايـة والإرشـاد، فـلا يدعـه أبـدا فى أى حال من أحواله، حتى يبين لـه وجـه الصـواب، ويدلـه علـى الخـلاص مـن أقـرب باب، وبذا تأصلت فى نفسه المحبـة الكاملـة لـهﷺ ولأهـل بيتـه، والـولاء والإخـلاص التـام والتفانى الكامل فـى شخصـه ﷺ حتـى كـان لا يغيـب عـن بالـه، ولا تختفـى صـورته عـن ناظره كما حدثنا بذلك وراثة لسادته الشاذلية، إذ كان سيدى أبو الحسن ﷺ يقـول: (لـو غاب عنى طرفة عين، لتقطعت من ألم البين).

ويقول أبو العباس ﷺ: (لو غاب ﷺ عنى لحظة ما عددت نفسى من المسلمين).

ومما يزيدك اطمئنانا ويقينا على دوام صلة الرسول ﷺ بسادتنا الشاذلية وأنـه لا يغيـب عنهم أبدا، ويشاورونه فـى كـل أمـورهم، ولا يعملـون إلا بمـا أشـار بـه، مـا حـدث مـن حيرة العلماء فى عصر سيدى أبى الحسن ﷺ فى تفسير قوله ﷺ: "إنـه ليغـان علـى قلبـى، فأستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة"[1].

فذهبوا إلى سيدنا أبى الحسن ﷺ وسألوه: هل هذا حديث صحيح؟ وإذا صح فكيـف يغان على قلبه ﷺ وهو معصوم، فقال لهم: (انتظـروا حتـى أسـأله)، ولمـا عـادوا إليـه قـال: سألته ﷺ، فقال: (نعم أنا قلته)– فقلت وما الغين يا سيدى يا رسـول الله؟ فقـال ﷺ:(غـين أنوار لا غين أغيار يا أبا الحسن): فانظر رعاك الله إلى هذا الفضل وتلك المنة.

---

[1] رواه أحمد ومسلم والكسائى عن الأغر المزنىﷺ

فهؤلاء يصدق عليهم ما يصدق على الصحابة[1] من التمتع بمشاهدته ﷺ، وحظوتهم بمشافهته والأنس به، والرجوع إليه فى كل ما يهمهم وسؤالهم إياه ﷺ فيما غاب عنهم، واستشارته فى كل أمورهم، فهم بحمد الله مؤيدون بسره ﷺ، مرعيون بفضله، وكفاهم بذلك عزا وشرفا.

ولاؤه لأهل البيت

ولقد دفعه حبه لسيده ﷺ إلى كثرة الصلاة عليه، وذكر مآثره، ومآثر أهل البيت دائما فى مجلسه، رضوان الله عليهم أجمعين داعيا إلى التوسل بهم حاثا على حبهم، والتعلق بهم، إذ إن حبهم نافع فى الدنيا والآخرة، بل هو من علامات حسن الختام، ومن عادى أحدا من أهل بيته ﷺ خيف عليه سوء الخاتمة والعياذ بالله، والأحاديث الداعية إلى حب أهل البيت رضوان الله عليهم المبينة أن فى حبهم النجاة فى الدنيا والآخرة لكثيرة، ولقد فاضت بها الكتب، ويكفى حديث: "تركت فيكم ثقلين: كتاب الله وأهل بيتى"[2]، و"أهل بيتى كسفينة نوح، من ركبها نجا"[3].

ومما يدل على توفيق الله لشيخنا ؓ واجتبائه له، أن حبه لأهل بيت رسول الله ﷺ كان جبليا غير متكلف، وطبيعيا فطريا لا تعمل فيه ولا تصنع لأنه منهم، ويجرى فى عروقه دمهم، فهو قد حاز النسبتين، ونال الشرفين، نسبة النسب اللحم والدم ونسبة التقوى "أنا جد كل تقى" رواه الطبرانى فى الأوسط عن أنس، بل زاد أنه ربيب حضرة

---

(١) قولنا هم كالصحابة، إنها صحبة باطنية، لا صحبة شرعية، إذ الصحابي من اجتمع بالرسول ﷺ حال حياته مؤمنا به، هذا هو شرط الصحبة ولكننا نقول إنه ﷺ ما زال حيا، وإذا كان الشهداء أحياء فكيف نقول عنه ﷺ أنه غير حي، بل إن حياته الآن أتم من حياته ﷺ أيام كان بين الصحابة ؓ إذ هو في عالم البرزخ الخارج عن القيود التي في عالم البشرية والدنيا، إذ الروح ما دامت في هذا القفص البشرى فهي مقيدة به، فإذا ما خرجت عنه، عادت لعالمها المطلق، فحياة الأنبياء والشهداء في برازخهم أوسع وأتم من حياتهم وهم في الدنيا.

[2] حديث صحيح رواه النسائى فى السنن عن زيد بن أرقم ؓ و رواه أحمد عن أبى سعيد الخدرىؓ .

[3] رواه الطبرانى فى الأوسط و كذا البزار عن أبى ذر ؓ.

المصطفى ﷺ، تربى فى حجر كفالته، ورعته عين عنايته، وظل دائما فى حفظه وكلاءته، ونحن– إن كنا نفخر (أبناء شيخنا القاضى) ونعتز فإنما بهذه النسبة، إذ سيد الخلق ﷺ جدنا مباشرة، لأنه ربى أبانا وشيخنا القاضى ؓ، فالرسول ﷺ أب لأبينا تربية، وإن كان جده نسبا ودما، نفعنا الله بهذه النسبة، وحشرنا فى هذه الزمرة آمين.

ومما يؤيد ذلك الحب الخالص: كثرة تردده على أهل البيت رضى الله عنهم يزورهم، ويقدم الهدايا والصدقات لمن هم حول أضرحتهم توددا إليهم، وتقربا لجدهم ﷺ، عملا بقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى:٢٣].

فى ساحة كرم الحسين

وكان من عادته ؓ المبيت فى حى سيدنا الحسين ؓ إذا زاره، ويكون فى تلك الليلة على حال طيبة، منبسطا منشرحا، يجيب رغبة كل طالب، ويقضى وطر الجميع، ويقول: (أنا الآن سعيد لأننى فى جوار جدى وفى ساحته، فلا لوم ولا عتب، مما أنا فيه) حتى كان بعض المريدين ينتهز هذه الليلة، ويرجو الشيخ فى بعض أموره فى الطريق، أو فى خاصة نفسه، كأن يطلب من الشيخ ؓ مثلا: التعرض للحديث فى بعض المقامات أو المشاهدات والمنازلات، أو بعض ما أدركه فى طريقه من أذواق ومواجيد، ومشاهدات[1] أو يسأله فيما أشكل عليه من عبارات القوم، أو فى تفسير آية وتوافقها مع بعض الأحاديث الشريفة التى يفهم غير العالم بالله أن بينهما تعارضا، أو فى شطحات وطامات ذوى الأحوال إلى غير ذلك، فكان ؓ يشممنا من عبير تلك

---

(١) المشاهدة: كشف حجاب الحسن عن نور القدس، أو كشف رداء الصون عن الكون، فأنت تشاهد ذاته في عالم ملكوته، وهو يراك في عالم ملكه وأنت تشاهد ربوبيته، وهو يرى عبوديتك.

الشهود: رؤية الحق بالحق، ولا يتحقق الشهود إلا حين تفنى الرغبات تماما، والرغبة في رؤيا الله هي أكبر حجاب يمنعنا من رؤيته وحين يتحقق الشهود فلا فرق بين الدنيا والآخرة، وشهود الله سر من أسرار القلب، ولا يمكن التعبير عنه لفظا إلا مجازا، ومن هنا كان الصمت عنه أبلغ من الكلام.

المكاشفة: هي حضور السر مع العيان، وعلامة المكاشفة الدهشة التي لا تنقطع من عظمته اللانهائية.

الحضرات التى كان لا يحدثنا عنها فى غير تلك الزيارات، ويقول لنا :إياكم وتسلق المقامات، أو التطلع إليها قبل الاستشراف عليها لئلا يدعيها أحدكم قبل أن ينالها فيهلك وتكون القاطعة، ثم يتناول الآيات أو الأحاديث أو عبارات السادة بالإيضاح والبيان، ويضرب لنا الأمثال بالمعقول والمحسوس لندرك المراد ونتذوق تلك المعانى، فيفيض علينا بالكثير من العلوم والمعارف حتى نحس إحساسا واضحا بأننا فى عالم آخر، وتكاد أرواحنا تملأ الفضاء ولا يسعها الكون وكأننا فى الجنة حقا؛ إذ قد ورد "إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قيل وما رياض الجنة يا رسول الله؟ قال الجلوس إلى عالم بالله"[1].

وكان ﷺ يقول أثناء زيارته لمولانا الحسين ﷺ: (إن هذه الليلة ليلة بسط فاسألوا ما شئتم وإن سعادتى لا تقدر، إذ أن جدى ناظر لى، ومدده واصل إلىَّ لأنى فى ضيافته، وعلى المضيف إكرام ضيفه، ونحن جميعا فى ساحات كرمه وضيوف حضرته وسادتنا كرام ينفحون كل قاصد، ويعطون كل طالب).

وكان ﷺ يقضى تلك الليلة ساهرا وحوله من صحبه من أولاده فى هذه الزيارة، ويصلى فجرها فى المقصورة الشريفة، وبعدها تعد العدة للعودة إلى البلد، فنرجع مزودين بزاد كبير لآخرتنا ولسلوكنا فى الطريق إلى ربنا.

سيادة الرسول عند ذكر اسمه

ومن ولائه للرسول ﷺ وأهل بيته رضى الله عنهم، أنه إذا سمع أن أحدا ينكر التوسل بالرسول ﷺ أو بأهل بيته أو لا يقر صلاة المؤذنين على الرسول ﷺ عقب الأذان أو ينكر وصفه بالسيادة فى الأذان أو الإقامة أو التشهد كان يثور ويغضب غضبا شديدا حتى كنا نخشى عليه من ذلك وكان يقول بصوت عالى: (أين هؤلاء القوم الذين ينكرون ذلك؟ هو صلى الله عليه وسلم سيد الكل برغم أنوفهم وصاحب الفضل على الجميع ولولاه ما كان أى شىء أليس هو القائل: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر" رواه مسلم وأحمد والترمذي، فقد تأدب الرسول ﷺ فى حق أبيه آدم، وأفهمنا أن السيادة لا يفخر بها، بل

---

[1] رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس ﷺ إلا أنه قال (مجالس العلم)

هو أعلى وأكبر من كل وصف وتقدير، انظروا قوله ﷺ: "آدم ومن دونه تحت لوائى يوم القيامة"[1] أبعد هذه المكانة مكانة؟ فكيف ينكرون سيادته؟ والحق يقول فى حديث قدسى (لولاك لولاك ما خلقت الأفلاك)[2].

الاعتراف بالجميل

وكان يقول: (أينكر أحد هؤلاء لفظ السيادة عليه ﷺ ولو ناديت أحدهم باسمه مجردا دون أن تقول له يا أستاذ أو يا سيد أو يا كذا إلى آخره. امتعض وتألم هذا هو واجب الأدب فى حق صاحب الشرع، أهكذا يكون رد الجميل، والاعتراف بالفضل لصاحب الرسالة، والشفيع للأمة، والرحمة للعالمين؟ ويقولون فى الحكم (من علمنى حرفا صرت له عبدا)، فكيف بمن أنقذنا من الضلال بهدى شريعته؟، وأخرجنا من الجهل بنور علمه).

من توسل بالرسول ولاذ به نال المأمول

ويظل يذكر الشيخ ﷺ من أحاديث الوسيلة والشفاعة ومعجزاته ﷺ الشىء الكثير، وعلى سبيل المثال: ما كان يذكره لنا عن الوسيلة فيقول: أما عن الوسيلة فيكفى أن أبانا آدم ﷺ قد توسل به قبل أن يخلق لما أكل من الشجرة، وقد غفر الله له بتوسله بسيدنا محمد ﷺ قال: "اللهم بحق محمد اغفر لى خطيئتى، فغفر الله له"[3]، ذكره صاحب الشفاء، حكى عن أبى محمد المكى، وأبى الليث السمرقندى وغيرهما.

هذا وقد قال ﷺ لبعير جاء يشكو إليه ظلم أصحابه: **"أيها البعير: اسكن فإن تك صادقا فلك صدقك، وإن تك كاذبا فعليك كذبك، مع أن الله قد أمَّن عائذنا وليس بخائب لائذنا"** رواه ابن ماجة عن تميم الدارى من حديث طويل.

---

[1] رواه الترمذى عن أبى سعيد الخدرى ﷺ

[2] انظر كتاب كشف الخفاء رقم ٢١٢٣

(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط و الصغير و الحاكم فى المستدرك و البيهقى عن عمر بن الخطاب ﷺ

فانظر رعاك الله لمقالة الشفيع ﷺ، وإعلانه عن نفسه، وأن من استجار به وتوسل بجنابه لن يخيب، وهو القائل: "توسلوا بجاهى فإن جاهى عند الله عظيم".

ولو تصادف أن واحدا منهم ناقشه أو أراد وجه الصواب، كان لا يزال به حتى يقنعه موجها له أصدق الأدلة، مبرهنا له من القرآن والسنة، حتى يحسن عقيدته فى الرسول وأهل بيته، ويخلصه مما هو فيه من ريب، وينفى عن صدره مما ألم به من خواطر.

سوء الخاتمة لمن آذى الرسول

ويقرن ذلك بتحذيره الشديد مغبة أمره وعدم رضا الرسول ﷺ عنه إن ظل سادرا فى غيه، منقادا وراء هؤلاء الطغام الذين يريدون الظهور بأى صورة ولو على حساب دينهم أو ضياع لآخرتهم، إذ إنهم مرضى القلوب يفصحون بمقالاتهم عن فساد عقيدتهم، وسوء مصيرهم، وخبث معدنهم، وحرمانهم من شفاعته ﷺ نعوذ بالله من سوء الخاتمة ونعوذ بالله من هذا الحرمان، وإذا كان الحق يقول فى حديث قدسى: (من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب)[1]. إذا كان هذا العداء والمحاربة من الله لمن عادى وليه، أليس فى مقالتهم تلك معاداة للرسول ﷺ؟ وإيذاء له، والله يقول ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب:٥٧]، أبعد عداء الله له ولعنه شيء؟ قل لى بربك ما حال هؤلاء بعد اللعن من الله لهم فى الدنيا والآخرة، وإعلان الحرب عليهم؟ وما مصيرهم يوم يلقون صاحب الشفاعة والحوض، وهو غاضب عليهم؟ فما أخزاهم وما أسوأ مصيرهم نعوذ بالله من ذلك، ونبرأ إليه تعالى من هؤلاء وممن سار معهم أو كان على شاكلتهم أو لف لفهم.

الوسيلة كالشفاعة

وقد حدث أن تقابل شيخنا ﷺ فى حجته الأولى وبعض الحجاج المصريين الذين ينكرون التوسل بالرسول ﷺ وأهل بيته وكان الرجل ذا فطرة سليمة فأقنعه الشيخ ﷺ

---

[1] رواه البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة ﷺ .

بكلمة واحدة: (هل أنت تقر شفاعة المصطفى ﷺ؟) فقال نعم، قد فاضت السنة بأحاديث الشفاعة، فقال الشيخ له: (وما الفرق بين الوسيلة والشفاعة؟)، فقال الرجل بعد تفكير عميق، لا فرق بينهما، فقال له الشيخ إذا من التعنت أن تعترف بالشفاعة وتنكر الوسيلة وهما صنوان! فسكت الرجل سكتة طويلة، ثم رفع رأسه، وقال: الآن اعترفت بالوسيلة عن يقين وعقيدة: فهداه الله على يد شيخنا، وحسنت عقيدته فى الرسول ﷺ وأهل بيته، وكان له فى الحج خير رفيق.

وهكذا كان موقفه ممن ينكرون الوسيلة، وكان يجب أن يقتدى به أبناؤه ومريدوه فى ذلك، فإذا بلغه عن أحدنا أنه تقابل مع أحد هؤلاء المحرومين الشواذ ولم يقنعه بالأدلة غضب غضبا شديدا، وقال له: (لا شك أنك ملوم ومقصر، كيف لا ترده عن ضلاله ذاك، إلى الحظيرة المحمدية) فكنا جميعا بحمد الله لدينا من الأدلة والحجج التى استقيناها منه فى هذا الشأن الشيء الكثير فبمجرد سماعنا إنكار أحد التوسل بالنبى ﷺ وأهل بيته؛ أو إنكاره السيادة فى التشهد وفى الأذان والإقامة، والصلاة والتسليم عليه بعد الأذان، نتصدى له بالإقناع داحضين أدلته ومبطلين حججه التى يستند إليها، فلا يلبث أن يعترف بفضل الرسول ﷺ وبسيادته وبالصلاة عليه فى كل وقت ومكان، إلا إذا كان معاندا مكابرا اتخذ ذلك قصد شهرته، وظهورا لشخصيته، كما قالوا فى الأمثال (خالف تعرف) أو كان ممن طمس الله بصيرته وأضله الله على علم، فهو مثله كمثل الصبار كلما زدته ماء ازداد مرارة، وكذلك هؤلاء، كلما عرضت على أحدهم دليلا، أمعن فى الإنكار والإضلال، وزاد فى العناد والإصرار، وقعد الشيطان على لسانه ولقنه الأباطيل والتراهات، والأقيسة العقلية العقيمة، والحجج السقيمة ويظل طول مجلسه يثرثر ولا يريد الحق، بل يسعى إلى الباطل، وكبر عنده أن ينهزم فى المجلس، أو يستسلم ويظهر بالغلبة؛ أو أنه رجع عن رأيه، وما كفر من كفر أو ضل من ضل إلا بمثل هذا جحدا للحق وعنادا واستكبارا، نعوذ بالله من طمس البصيرة وفساد العقيدة.

شغل فراغنا بالصلاة على الرسول

وكما اشتهرنا آنفا بالسجادين لسجودنا سجود الغلفة، فكذلك عرفنا بأننا لحضرة المصطفى ﷺ من المحبين، فأكرم به شعارا وشارة، ولعلها من الله منة لنا وبشارة، وبحمده

سبحانه قد درجنا على تسييده ﷺ كلما جرى على لساننا اسمه ﷺ فى الكلام أو الكتابة أو فى الصلاة أو فى الأذان، أو فى الإقامة، بل لا يخلو سر أحدنا عن دوام الصلاة عليه، إذ هذه وصية شيخنا ﷺ: (إذا وجدت فراغا فى وقتك، وانتهاء من وردك، فاشتغل بالصلاة عليه ﷺ).

فإن قيل أدخلتم في الدين ما لم يرد، قلنا رعاية الأدب عندنا أفضل من اتباع ما ورد؛ كما صرح بذلك أفاضل السلف وأئمة الشرع وأهل التحقيق، جعلنا الله من أهل محبته وعصابته وذوى نصرته وأورثنا هذا المقام من شيخنا ونفعنا بالصلاة عليه وعلى آله وعترته، وأفاء علينا من ثمار روضه، وسقانا بيده من حوضه، وأكرمنا فى الدارين بفضل بره وشفاعته، وحبانا شرف جواره ﷺ فى بحبوحة جنته، مع آله وخاصته آمين.

إحياء شيخنا للسنة

ومجمل القول فى خصائص شيخنا ﷺ أنه كان صورة صادقة مما كان عليه السلف الأول، مؤديا فى الظاهر فرض ربه، متعاملا مع الناس بشرعه تاليا لورده، مراقبا بسره مولاه، مراعيا أدب الحضرة التى هو فيها حيثما أقامه الحق، وحقا كم أحيا سننا قد اندرست، وأحيا فضائل قد طويت، منها: سنة السواك وكان يشدد على مريديه فى حمله واستعماله وكذا العقيقة فما ولد لنا ولد إلا وأمرنا بأن نعق عنه، وكذا التهجد واهتمامه به، واعتباره أنه الورد الحقيقى لابن الطريق، وكذا التزاور فى الله والحب لله وإخلاص العمل لله، والصدق فى الأحوال، وعدم مراقبة الناس وتحمل أذاهم، والاكتفاء بعلم الله فى العبد دون أن يهتم بالظواهر، وحسبه فى ذلك حديث حبيبه ﷺ: **"من أحيا سنة من سنتى قد أميتت من بعدى كان له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئا"**[1] .

تلك مختصر مناقبه ومزاياه التى عرفناها عنه، أما عن حقيقته وما حواه سره فالله أعلم به، إذ كيف يحاط بوصف هؤلاء وهم أهل محبته، وعرائس حضرته، فعليهم يغار،

---

[1] رواه الترمذى وابن ماجه والطبرانى فى الكبير والبزار وغيرهم عن عمرو بن عوف المزنى ﷺ .

ولا يحب لهم الاشتهار، إذ لو انكشف سترهم، وانتشر سرهم، لفشا سر الربوبية، وبطل حكم الألوهية، فالعرائس لا يعرفها إلا أهلها وذووها، فهؤلاء لا يعرفهم غير باريهم ومولاهم "لا يعرفنى غير خالقى".

مكانة الشيخ فى طريق الله

وإذا أردنا أن نتعرض لمكانة شيخنا وأحواله ومقاماته فى طريق القوم،لانستقصيها أو نعطيك صورة كاملة عنه وعما انطوت عليه تلك الشخصية الفذة، وتلك الإنسانية النادرة، كان هذا بعيد المنال ولا يتسنى لنا بأى حال، إذ إن معرفة الإنسان لنفسه من أصعب الأمور وأعقدها، مع أنها أقرب مخلوق إليه، ويكفى هذه المعرفة شرفا قوله ﷺ: "من عرف نفسه فقد عرف ربه"[1].

تفاوت العارفين

وتختلف مراتب العارفين بحسب تفاوتهم فى معرفة أنفسهم، فأعلاهم معرفة لنفسه أعلاهم معرفة لربه، ولا يعلم أسرار النفس البشرية إلا الموقنون، ولا يهتدى إلى أمراضها ووسائل علاجها وعللها سوى من اهتدى بهدى سيد المرسلين ﷺ، فأعرف عباد الله بربهم أشدهم تمسكا بكتابه وأتقنهم عملا بهدى نبيه ﷺ.

أولياء الله عرائس حضرته

إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يرسم صورة متكاملة لنفسه التى بين جنبيه وأقرب شيء إليه، ليُعَرِّف بتلك المعرفة لنفسه غيره . هذا الإنسان الذى عجز عن معرفة نفسه قد يذهب به الغرور إلى الادعاء بأنه يعلم كل شيء عن الغير، مع أنه يجهل نفسه، وهو

---

[1] ذكره السيوطى فى كتابه (الدرر المنتثرة١/ ١٨) وقال :قال النووى :غير ثابت و قال ابن السمعان هو من كلام يحي بن معاذ الرازى.

لا يكاد يدرى عن حقيقة وجودها شيئا ما لم يلهمه الله به، فإذا كان بهذا يجهل الإنسان نفسه، فمن باب أولى لا يعرف غيره، فما له وتلكم الشخصيات التى توارثت الكمال البشرى عن سيد الخلق ﷺ وغيره من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، ألا وهم أولياء الله، فإن كل ما يستطيع أن يعرفه الإنسان عن هؤلاء الكمل أن يعرض ما ظهر له من أحوالهم وشئونهم وما استطاع أن يدركه عن بعض صفاتهم أو يلحظه عن جزء من شمائلهم أو يتعرف لطرف من مقاماتهم وعلىّ درجاتهم، أو يلم باليسير من نبذ لعلومهم، ورشحات لبعض مذاقاتهم، ليعطر بذكراهم تلك وبمآثرهم هذه صفحة التاريخ البشرى، وليقتدى بهم من يسعى إلى خيرى الدنيا والآخرة وليهتدى بهم من يطلب الله عز وجل بصدق.

أما عن بواطنهم ومقاماتهم وما هم عند ربهم، فهذا من الأسرار التى لا تتطاول إليها أعناق الفحول من الرجال، وكل ما يقال عنهم من كمالات ودرجات ومقامات ومذاقات فما هى إلا رشحات عرفناها من فيضهم، أو قطرات تذوقناها من بحار علومهم، أو ومضات أدركناها من باهر أنوارهم، أو لمسات أحسسنا بها فى مجالستهم.

وإذا كان المعروف عنهم عدم حب الظهور وكراهيتهم للمظاهر الكاذبة، وترفعهم عن الدعاية لأنفسهم، لأنهم لا يعرفون سوى الحق، ولا يقصدون غيره، وأن ما ظهر منهم إنما كان قصد القدوة وترسم السلوك، وليس هو كل أحوالهم أو مقاماتهم مع ربهم، فمقامات الأولياء فى طريقهم إلى الله لا تتناهى، ولا يستقر عبد سيار أو ذو سلوك فى مقام إلا وكرم الله يفيض عليه، فيترقى إلى حضرة أخرى ومقام أسمى، إذ هو فى كل يوم على علم جديد بالله وزيادة معرفة به، فيترقى مع كل جديد مقامه، وتعلو بهذه المعرفة درجته ويسمو مكانه وهذا ما ندين الله عليه، وهذه عقيدتنا فى أهل الله، لأن هؤلاء الورثة المحمديين نالوا من مورثهم الحظ الأكبر فى هذا الشأن، فقد كان ﷺ يقول: "كل يوم لا أزداد فيه علما يقربنى إلى الله لا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم"[1]. وأنه ﷺ كان يستغفر الله كل يوم سبعين أو مائة مرة على اختلاف فى

[1] رواه الطبراني عن عائشة رضى الله عنها.

الروايات، وقد قال العلماء بالله فى سبب استغفاره إن هذه درجات كان يرقاها ﷺ كل يوم فى معرفته ربه، فكان يستغفر مما علمه بالأمس؛ أو وصل إليه لأنه يعد بالنسبة لما وصل إليه اليوم نقصا أو عدم معرفة بالله حقا؛ فكان يستغفر الله من ذلك المقام الأدنى من باب "حسنات الأبرار سيئات المقربين".

دوام فى الترقى وزيادة فى التعرف

فكذلك هؤلاء الورثة، هم دائما فى رقى مع الله، وفى زيادة مطردة لمعرفته، وحاشاه سبحانه أن يحيط به مخلوق مهما كان رقيه ومهما كان مقامه، وعليه فهم مستمرون فى الرقى والكمال، وفى زيادة من التعرف والوصال، وهذه الدرجات وتلك المقامات تكون سرا بين العبد وربه، إذ يطلع العبد فى كل مقام على علوم وأسرار ومعارف تكون بينه وبين ربه، وقد يبوح ببعضها لضرورة ما، ويصدق هذا ما يروى عن سيدنا على– كرم الله وجهه– أنه قال مشيرا إلى صدره: "إن هاهنا علوما جمة لو وجدت لها حملة، أو لو أبحتها لقطع منى هذا البلعوم" ومثل ذلك أيضا، ما روى عن أبى هريرة ﷺ وكذلك حذيفة وحارثة.

ويكفى ما قاله الرسول ﷺ لحارثة: "عرفت فالزم"[1] أى عرفت الطريق الحق فالزمه تزدد تعرفا، أو عرفت الحقيقة التى لا يمكن التعبير عنها باللسان، إذ الحقائق فى ذاتها لا يترجم عنها لسان، ولا يفصح عن أمرها بيان ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وشيخنا ـ رضوان الله عليه ـ كان له من الدرجات والمقامات النصيب الوافر، إذ كنا نلحظ عليه تجددا فى المعانى، ورقيا فى المشاهد، ونسمعه كل يوم يحدثنا فى علوم القوم، أو فى شرح لبعض الآيات والأحاديث، بجديد ما سمعناه من قبل، وإن كنا سمعنا منه تفسيرها بفيض غير هذا الفيض فى جلسة أخرى.

---

[1] جزء من حديث رواه الطبرانى فى الكبير و البيهقى فى شعب الإيمان عن الحارث بن مالك ﷺ

فكان المفتوح له من المريدين يدرك تجددا لمذاقات الشيخ، وعلوا فى مقاماته، وزيادة فى شرابه ورقيا فى درجاته، واتساعا فى عرفانه، فيسر ويستبشر ويعلم أن هذا لا شك عائد عليه وعلى إخوانه، إذ كلما ترقى الشيخ فى مرتبة أفاض على أولاده مما منَّ الله عليه، وأفاء عليهم مما رزقه الحق سبحانه، حتى إنه فى بعض مباسطاته لخلص مريديه عندما يقولون له إنك قد ارتقيت ونلت كذا وكذا من المقامات يقول: (نعم منَّ الله علىَّ فى هذه الأيام بهذا المقام، وقد عرفت من فى هذا المقام من الأولياء، وعلمت من علومه كذا وكذا، ومن وصل إليه علاماته كذا وكذا) ثم يشرح فيما بعد مقام كذا وله خصائص كذا وكذا بما لا نستطيع تسطيره فى هذا المجال حيث لم يؤذن لنا بإفشائه للعامة، ولقد حرص ﷺ على حفظ ما لم يؤمر بإذاعته وإعلانه، فقد جاء فى أواخر أيامه وأحضر نوتة كبيرة قد سطر فيها بعض علومه وأسراره ومشاهداته، وقام بحرقها مخافة أن ترى من بعده فيعرف أمره وما كان عليه، ولما توسلنا إليه بإعطائنا بعضا منها ما أباح لنا إلا بشذرات قليلة جدا وبجزء قليل منها.

الصديقية الكبرى

وقد ذكر لنا على سبيل المثال متحدثا بنعمة الله عليه ومطمئنا لبعض المريدين ومشوقا للبعض الآخر (من منكم يعرف الشيخ يوسف الدجوى عالم الأزهر المشهور؟ فقلنا: (كلنا نعرفه فقد كان رجلا صالحا) فقال: إنه قد نال مقام الصديقية الكبرى، وترتيبه فيها (الخامس والسبعون) من عهد سيدنا أبى بكر ﷺ، وسكت ثم رفع رأسه وقد أخذه حال شديدة ثم قال (الحمد لله لقد نلت هذا المقام، وأنا السادس والسبعون).

ومعنى ذلك أنه صار وارثا للصديقية الكبرى من أبى بكر ﷺ، فكم كانت فرحتنا بهذه البشرى العظيمة وهذا الفوز الكبير، وفهمنا أن لنا بحمد الله نسبة بحضرة المصطفى ﷺ، وصلة بالصديق الأكبر أبى بكر ﷺ، واتصالا بسيدنا على كرم الله وجهه، إذ الشاذلية ومعظم الطرق كلها سندها عن سيدنا على "مدينة العلم" وصاحب سر رسول الله ﷺ.

ولقد كان إخباره ذلك في عام ١٩٤٦م تقريبا، مع أن انتقاله كان في عام ١٩٦٤، أفتظن أن الشيخ ﷺ ظل على ذلك ولم يترق مع الله بعد؟ وقلنا فيما سبق أن أمثال هؤلاء في رقى دائم مع الحق؟

هذا وليعلم أن الصديقين كثيرون، إلا أن الصديقية الكبرى وراثة بكرية لا ينالها - والله أعلم- في كل عصر غير واحد، كالغوثية وراثة محمدية، فلا يمنع من وجود القطب الغوث وجود أقطاب كثيرين، ولكن لا أغواث، فالغوث واحد في كل عصر، وكذلك لا يمنع من وجود الصديق الأكبر وجود صديقين ولكن الصديقية البكرية أو الصديقية الكبرى هي لواحد في كل عصر.

الغوث

وبعد حديثه عن هذا المقام بمدة كنا نذكر أمامه مقامات أهل الله ودرجاتهم فأخذ يتحدث عن مقامات القطب[1] الغوث، حديث الذائق المتمكن، وقد أطال الحديث عنه

---

(١) أخبر الشيخ شمس الدين بن كتيلة رحمه الله تعالى قال: كنت يوما جالسا بين سيدي (يعني أبي الحسن الشاذلي) فخطر ببالي أن أسأله عن القطب فقلت له يا سيدي ما معنى القطب؟ فقال لي: (الأقطاب كثيرة، فإن كل مقدم قوم هو قطبهم، وأما قطب الغوث الفرد الجامع فهو واحد).
وتفسير ذلك أن النقباء هم ثلاثمائة، وهم الذين استخرجوا خبايا النفوس، ولهم عشرة أعمال أربعة ظاهرة وستة باطنة، فالظاهرة كثرة العبادة والتحقق بالزهادة والتجرد عن الإرادة، وقوة المجاهدة، وأما الباطنة فهي التوبة، والإنابة، والمحاسبة والتفكر والاعتصام والرياضة، فهؤلاء الثلاثمائة لهم إمام منهم قطبهم يأخذون منه ويقتدون به، ثم النجباء أربعون وقيل سبعون وهم يقومون بحمل أثقال الخلق، فلا ينظرون إلا في حق الغير ولهم ثمانية أعمال، أربعة باطنة، وأربعة ظاهرة، فالظاهرة الفتوة والتواضع والأدب وكثرة العبادة، وأما الباطنة فالصبر والرضا والشكر والحياء، وهم أهل مكارم الأخلاق، وأما الأبدال فهم سبعة رجال، أهل كمال واستقامة واعتدال، قد تخلصوا من الوهم والخيال، ولهم أربعة أعمال باطنة، وأربعة ظاهرة، فالظاهرة الصمت والسهر والجوع والعزلة، ولكل من هذه الأربعة ظاهر وباطن، أما الصمت فظاهره ترك الكلام بغير ذكر الله تعالى، وأما باطنه فصمت الضمير عن جميع التفاصيل والأخبار، وأما السهر، فظاهره عدم النوم، وباطنه عدم الغفلة، وأما الجوع فعلى قسمين: جوع الأبرار لكمال السلوك، وجوع المقربين لموائد الأنس، وأما العزلة فظاهرها ترك المخالطة بالناس، وباطنها ترك

الأنس بهم، وللأبدال أربعة أعمال باطنة، وهي التجريد والتفريد والجمع والتوحيد، ومن خواص الأبدال أن من سافر منهم من موضعه ترك جسدا على صورته، فذاك هو البدل، والأبدال على قلب سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهؤلاء الأبدال لهم إمام مقدم عليهم يأخذون عنه ويقتدون به، وهو قطبهم وقيل الأبدال أربعون.

والأخيار سبعة ولهم إمام هو قطبهم، ثم الأوتاد، وهم أربعة رجال ومنازلهم منازل الأربعة أركان من العالم، شرقا وغربا وجنوبا وشمالا، ولهم ثمانية أعمال، أربعة ظاهرة، وأربعة باطنة، فالظاهرة كثرة الصوم وقيام الليل، والإيثار والاستغفار بالأسحار، والباطنة التوكل والتفويض والثقة والتسليم، ولهم واحد منهم هو قطبهم.

ثم الإمامان وهما شخصان، أحدهما عن يمين القطب، والآخر عن شماله، فالذي عن يمينه ينظر إلى الملكوت، وهو أعلى من صاحبه، والذي عن شماله ينظر في الملك، وصاحب اليمين هو الذي يخلف القطب، ولهما أربعة أعمال باطنة، وأربعة ظاهرة، فالظاهرة الزهد والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأما الباطنة فالصدق والإخلاص والحياء والمراقبة وقيل إن من على شمال الغوث أعلى من صاحبة وهو الذي يخلفه.

أما الغوث فهو رجل عظيم، وسيد كريم، تحتاج إليه الناس عند الاضطرار في تبيين ما خفي من العلوم المهمة والأسرار، وهو مجاب الدعوة، وهو الذي تنزل عليه الأحكام، فيوزعها على الإمامين، كل في دائرة اختصاصه، وهما يعهدان بها إلى الأوتاد الأربعة كل في جهته، وكذا الأوتاد توزع على الأخيار، والأخيار توكل الأبدال، وهكذا ينزل الأمر من السماء والحكم الإلهي من العرش فيوزع على كل واحد من هؤلاء الرجال، حتى يصل إلى من هو مقصود به.

أما الأفراد فهم الرجال الخارجون عن نظر القطب، فلا يقفون تحت دائرة تصرفه، فهم مع الحق تعالى مباشرة، أما الأمناء وهم الملامية، وهم الذين لم يظهر مما في بواطنهم أثر على ظواهرهم وتلامذتهم في مقامات أهل الفتوة.

وقد يطلق القطب على معنى غير ما سبق، من ذلك قول المرسي ﷺ كان الجنيد ﷺ قطبا في العلم، والتستري ﷺ قطبا في المقام، والبسطامي ﷺ قطبا في الحال، فلكل من المعاني السابقة قطب، أما القطب الحائز لأعلى درجة في العلم والمقام والحال... إلخ بمعنى أنه يكون الأستاذ الأكبر في هذه المعاني كلها، فهو الغوث الجامع، وهو الكون الصغير، وصورته على صورة الحق تعالى، تتجلى فيه الجمعية الإلهية التي استحق من أجلها هذا المقام الأوحد.

وعن الشاذلي ﷺ أنه قال: للقطب الغوث أي الجامع، خمس عشرة كرامة:

(١) الرحمة (٢) العصمة (٣) الخلافة والنيابة (٤) مدد حملة العرش (٥)يكشف له عن حقيقة الذات (٦) إحاطة الصفات (٧) يكرم بكرامة الحكم (٨) الفصل بين الوجودين (٩) انفصال الأول عن الأول (١٠) ما انفصل عنه إلى منتهاه (١١) ما ثبت فيه (١٢) حكم ما لا قبل وحكم ما لا بعد (١٣)حكم ما قبل وحكم ما بعد (١٤) علم البدء وهو العلم المحيط بكل علم (١٥) العلم المحيط بكل معلوم بدأ من الأول إلى منتهاه ثم يعود إليه.

هذه أوصاف وعلامات أو كرامات الغوث الجامع عن الشاذلي رضي الله عنه.

(ومما يروى أن المرسي رضي الله عنه قال: لو كان الحق سبحانه يرضى خلاف السنة، لكان التوجه في الصلاة إلى القطب الغوث أولى من الكعبة، ومعنى هذا يتفق مع مقالة شيخنا الشاذلي رضي الله عنه، ولذا قال ابن عطاء: أخبرني الشيخ نجم الدين الأصفهاني قال: قال لي شيخي ببلاد العجم: إذا لقيت القطب فلا تصلين وهو وراءك، فجئت إلى أبي العباس المرسي رضي الله عنه عند صلاة العصر، فلما دخلت عليه قال لي: أصليت العصر؟ قلت لا، قال: قم فصل فلما قمت أصلي ذكرت مقالة شيخي وعلمت أني لو صليت كان الشيخ أبو العباس وراء ظهري، فأقام الله في قلبي حالا وقلت حيثما كان الشيخ هناك القبلة فتوجهت لناحية الشيخ وأردت أن أكبر، فقال الشيخ لي: هو لا يرضيه خلاف السنة) وبهذا كان المرسي غوثا كما كان شيخه رضي الله عنه، ومما يؤكد ذلك أن الشيخ القونوي تلميذ ابن عربي قدم مصر، واجتمع بالشاذلي رضي الله عنه، وتكلم بحضرته بعلوم كثيرة، والشيخ مطرق إلى أن استوفى القونوي كلامه، فرفع أبو الحسن رضي الله عنه رأسه وقال: أخبرني أين القطب الغوث الآن؟ ومن هو صديقه وما علومه؟ فسكت القونوي ولم يرد جوابا.

ومما يروى أن الشاذلي رضي الله عنه قال (سألت الله تعالى أن يكون القطب الغوث في بيتي إلى يوم القيامة، فسمعت النداء: (يا علي قد استجبت لك) ومن هنا كما قلنا: أن كل من أراد له الله هذا الأمر العظيم، ولم يكن شاذليا فلا بد أن يتشذل.

وقال الشاذلي رضي الله عنه مؤكدا أيضا ما سبق: (أخذت ميراثي من رسول الله ﷺ، فمكنت من خزائن الأسماء).

ويقول أيضا الشاذلي رضي الله عنه (والله ما ولى الله وليا إلا وضع حبه في قلبي قبل أن يوليه– ولا رفض عبدا إلا وألقى بغضه بقلبي قبل أن يرفضه) ويقول المرسي رضي الله عنه (والله الذي لا إله إلا هو ما من ولي لله كان أو هو كائن إلا وقد أطلعني الله عليه، وعلى اسمه ونسبه وحظه من الله تعالى) فهذا لا شك لسان قدسي أو محمدي كان قد ورثه.

وذكر بعضهم عن القطب الغوث فقال: هو أكمل إنسان متمكن في مقام الفردية، وهو الواحد في كل زمان، موضع نظر الله، عليه تدور أحوال الخلق، وهو يسري في الكون وأعيانه الباطنة والظاهرة سريان الروح في الجسد، ويفيض روح الحياة على الكون الأعلى والأسفل، فهو من الكائنات بمثابة المهيمن

حتى قال: (إن من علومه كذا وكذا، وأنه هو الذى تتنزل عليه الأعطيات من الحق تعالى، فيوزعها على الخلق، وأنه لا يتحرك ولا يسكن شيء فى الكون علوية وسفلية إلا بإذنه، وإن من فى السماء ومن فى الأرض يأخذون مددهم منه، ولا يأتى أحدٌ ولا يذر إلا عن طريقه، إذ هو خليفة الله فى ملكه وظله فى خليقته). فقال له بعض مريديه (لقد رأيت أنك فى مقام الغوثية) فقال: (بحمد الله نلته فترة طويلة ثم أرادنى الحق له فكنت من المفردين ثم لأمر يعلمه الله تعالى، رد إلى بعد، وإن أعباء هذا المقام لشديدة على والله المعين).

وكان يوصى ذلك المريد بعدم التحدث فى ذلك لأن العبرة كلها بحسن الختام وأن تخرج الروح من الجسد على لا إله إلا الله، ومع هذا كله كان ﷺ متأدبا جدا مع ربه خائفا منه أشد الخوف، فقد كان شأنه وأمره كله متمشيا مع "أنا أقربكم من الله وأشدكم خوفا منه" رواه البخارى عن أنس.

وقد لاحظنا ذلك منه كثيرا فى كلامه وأعماله، وعلى سبيل المثال أننا قلنا له: ألا نعمل لك قبرا وضريحا وقبة؟ فقال: (أما القبر فنعم لكل مسلم، ولكن ما دامت الروح فى الجسد لا أمان لمكر الله، فلا تعمل لِيّ قبة ما دمت حيا، فإن خرجت روحى على لا إله إلا الله فاعملوا ما شئتم).

فهذه هى العبودية المحضة، وكان لا يحب أن يعلن عن مقاماته، أو التعالى بعلومه، ولا يرضى أن يعلن أحد عنه شيئا، ولذا ظل ما أباح به لبعض مريديه سرا بينه وبين

عليها، المكلف بحفظها ورعايتها، وإنه ليظل كذلك حتى يقبضه الله، فيخلفه من دونه في المرتبة، وهو رأس المراتب، وهذا القطب الحسي الجسماني.

وهناك معنى في القطبية آخر فهي معنوية روحانية، واحدة منذ القدم، وهذا قطب الأقطاب المتعاقبين سابقا في وجوده على وجودهم، وعلى وجود كل ما في عالم الغيب والشهادة، ولم يتلق القطبية عن قطب سبقه من قبل، ولكنه واحد منذ القدم، ولن يلحقه قطب آخر بعده، وهو بهذا المعنى (الحقيقة المحمدية) ويأخذ كل واحد من أقطاب كل زمن منه (من صاحب هذه الحقيقة) صورة نبي من الأنبياء أو ولي من الأولياء.

ربه، لم يفشه ذلك المريد، ولم يحدثنا عنه، إلا بعد أن اختار الله الشيخ لجواره، عملا بوصيته، وما ذكره ذلك المريد، إلا عند تسطير ذلك.

هذا ما يمكن أن نقوله بالنسبة لما عرفناه، من مقامات الشيخ، ودرجاته التى لم تذع، ولم يعلم أحد من عامة المريدين شيئا منها إلا عند تحرير هذا الكتاب، أما لو ذكرنا بعض العجيب من مقاماته ودرجاته، لخفنا على القلوب أن تزيغ، وعلى الصدور أن تتردد فيها الشكوك فتأثم بذلك.

وجد وهيمان

ويكفى على سبيل المثال لا الحصر، أننا رأيناه مرة وقد أخذه حال شديدة فكان لا يقر له قرار فى جلسته، وكان ينظر إلى أحدنا ممن حضر هذه الواقعة نظر من لم يعرفه وكأنه ما رآه أبدا، وصار بحيث لا يمكن التحدث معه من شدة وجده[1] وهيمانه،

---

(١) الوجد: الحزن لفقد المحبوب أو الفشل في تحقيق المراد، وقيل هو كل ما يصادف القلب من غم أو فرح، ويرد عليه بلا تعمد ولا تكلف ولا تصنع.

وهو عند الصوفية ألم يصيب قلب السالك، وشعور ملتهب يجتاح قلوب المبتدئين، وسر غامض بين الطالب والمطلوب، ولا يكشف عن حقيقته غير الكشف الصحيح، ومكاشفات من الحق تجعلك تشاهد ما كان منك خاليا، وأن تجد ما كان عندك معدوما، وكل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل.

وأول الوجد: رفع الحجاب ومشاهدة الرقيب، وحضور الفهم، وملاحظة الغيب، ومحادثة السر وإيناس المفقود، وهو فناؤك أنت من حيث أنت.

وصاحب الوجد إما أن يكون في حالة حجاب، فيهيجه الشوق إلى مطلوبه ومراده، وإما أن يكون في حالة كشف، فيسكن قلبه في أثر الشهود، أي أنه إما قلق محجوب عن مراده وإما ساكن ومستقر لشهوده هذا المراد.

التواجد: تكلف الوجد وذلك بتذكر السالك لنعم الله وآياته وبتفكره في الاتصال، وبعضهم يتصنع هذا الوجد تكلفا بضرب اختيار وليس لصاحبه كمال الوجد وقد أنكره قوم لما فيه من التكلف والتصنع والبعد عن حقيقة الأمر وأجازه قوم إذ به تحصيل الوجد ويجعل العبد مستعدا له بحرقته ورقته وحزنه، وأصله قوله ﷺ (إن لم تبكوا فتباكوا).

فكان يذكر كلمات لا يعيها ويقول أشعارا ما سمعنا بها، وهو لم يتعود القريض فى حياته، وينطق بلغة عربية فصحى، وأحيانا بلغة لا نفهمها، وأدرك البعض منا أنه ليس معنا الآن بحواسه، وليس فى هذا العالم، فلزمنا الصمت والسكون وكان ذلك فى عام ١٩٤٨.

ولعل هذا المقام وراثة لمقام رسول الله ﷺ الذى تحدثنا عنه سابقا عندما دخلت عليه السيدة عائشة رضى الله عنها فأنكرها، وسألها من أنت..؟ إلى آخر ما ذكر فى هذا الصدد.

وفى أثناء ذلك سمعناه يقول: (نعم..نعم يا عبد الفتاح أنت رئيس العالم الأدنى وجبريل رئيس العالم الأسنى) فالتفت بعضنا إلى بعض وما زلنا على السكون التام، ثم عاد الشيخ إلى حالته الطبيعية، وبعدها بمدة عندما وجدنا منه انشراحا، قلنا له: أنت قلت كذا وكذا، فاستغرب أن يصدر منه مثل ذلك، فلما أجمع كل من حضر تلك الجلسة على سماعه منه قال: يا أولادى ما كان بودى أن يعلم عنى ذلك فاكتموا على لأنكم تعلمون القلوب وزيغها وهى بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، ولا أحب أن يضار أحد بسبب الإنكار علىَّ وكان حديثه ذلك عام ١٩٤٩ تقريبا.

ليلة القدر

مما انفرد به شيخنا ﷺ (على ما نعلم ونسمع ونقرأ عن السادة أولياء الله)، أنه كان يعرف ليلة القدر كل عام، وأنها ليست ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان دائما، على ما درج عليه عوام العلماء أو العلماء كلهم، فكان يخبر بها مناما وتحدد له سنويا، وكانت تنتقل فى أوتار العشر الأواخر من رمضان، وكان ﷺ يسر بها إلى خلص مريديه

الوجود: العثور على الضالة وهو متعلق بتحقيق المراد، وبزوال الألم من القلب باكتشاف سببه وهو عند الصوفية شعور يتملك السالك لحظة شهوده للحق، فتمحق أوصاف بشريته بوجود الحق لأنه لا بقاء للبشرية عند ظهور سلطان الحقيقة ولا يكون وجود الحق إلا بعد ضمور البشرية.
والوجود ارتقاء عن الوجد.

ليقوموها ويؤدوا فيها أنواعا من العبادات والدعوات المجابات، وكثير من الإخوان كانوا يتعاونون فى سهر هذه الليلة مع بعض لينبه أحدهما الآخر ويشجعه على قيامها كلها حتى فى ليالى الشتاء الطويلة.

وكنا نحاول فى هذه الليلة أن نصلى مع شيخنا فجرها، ونسأله الدعوات فى سحرها، وكنا نرقب شمس يومها فنراها بحق كما ورد فى السنة من أن شمس صباح ليلة القدر تطلع بيضاء لا شعاع لها، وفى ليلتها تكون السماء صافية، ونجومها ساطعة ولو فى ليالى الشتاء ولا يغرب نجم فيها.

فكانت هذه منحة كريمة يمنحها الله لشيخنا، ويمن هو علينا بها، وكان يجرى لنا عدة اختبارات قبلها فيقول: (من منكم يعرف ليلة القدر هذا العام) فكنا نجد ونجتهد، ونبيت النية فى المنام لمعرفتها، ثم نخبر الشيخ بما رأينا فيصمت، ولو صادف أن أحدنا عرفه الله هذه الليلة، كان الشيخ ﷺ يسر به جداً ويقبله بين عينيه ويقول له: (نعم هى هذا العام كما رأيت) ولكن كان يندر ذلك جداً.

ومن غريب ما كان يحدث أحياناً فى شأن ليلة القدر، أنه كان يأمرنا بقيام ليلتين، ولا يكون ذلك إلا عند الاختلاف فى مطلع هلال رمضان بيننا وبين السعودية، فكان يقول: (ليلة القدر الحقيقية كذا وعندنا كذا) ولو اتحدنا فى بدء الصوم لم يكن ذلك، ولعله كان يعتبر أن أهل السعودية هم أصحاب الاعتبار فى تحديد الليلة؛ لأن فى أرضهم الكعبة المشرفة بيت الله، وليلة القدر تكون عندهم أولا، ثم تكون عندنا بعد ذلك إذا اختلفنا عنهم فى أول الصوم.

وبحمد الله ظلت هذه المنة ـ وهى معرفة ليلة القدر ـ متوارثة بين خواص أبنائه، فإنهم يعرفونها كل عام، وبفضل الله لا تخطئهم أبدا، فلله الحمد والمنة.

ومما يؤكد لك أيها القارئ أن الشيخ كان لا يحب الإعلان عن نفسه ولا عن مقامه أنه لما كان يتحدث فى مجلسه مع مريديه مذكرا داعيا إلى الأدب مبينا كيفية تخطى العقبات، إلى سائر أنواع السلوك. كان يقول: "قال بعض العارفين كذا وكذا فى هذا الشأن، وأن بعض العارفين لما وصل إلى هذا المقام مقام كذا، أدرك وشاهد وعاين كذا

وكذا، فعمل كذا، وخرج من عقبته تلك بكذا بعد كذا وكذا"، فلاحظ عليه بعض المريدين ذلك فقال: (إننا نقرأ فى كتب القوم، وهذا كلام جديد لم نعهده ومن ذلك العارف يا سيدى الذى تتحدث عنه وتقول؟ ألم تكن أنت؟) فأطرق وصمت، ثم ابتسم، ففهم أنه المعنى بالقول، وأنه لا يحب أن يقول عن نفسه شيئا ولا يقول أنا .... مفتخرا بمقامه.

مقام الأحدية

وحسبك له مقاما أنه قد نال بعد خلوته الصمدانية التى اختلاها فى شهر رجب الفرد وسبق الحديث عنها فى باب الخلوات، أنه قد تحقق بمقام الأحدية ودون هذا كل مقام، ولا يدرك كنه هذا المقام إلا ذوو الأفهام والأعلام من الرجال، فإن قلت أيها القارئ: كيف يذيع الشيخ ذلك، مع ما سبق من تأكيدكم كراهيته لإذاعة مقاماته، والتحدث عن نفسه؟ قلنا: إنه قد ذكر هذا لبعض مريديه، وقد أدخله الخلوة فكتب المريد للشيخ بما رأى، فرد عليه فضيلة الشيخ بقوله: (نعم يا ولدى، لقد نلت هذا المقام "مقام الأحدية"، وستناله إن شاء الله فيما بعد، وعليك بالكتمان)، وظل هذا المريد كاتما لهذا السر ولم يذعه إلا عند كتابة هذا التأريخ، وقد ذكرناه فى باب التحدث بالنعمة والاعتراف بفضل الله، ومرة سمعناه يقول: (من منكم يعرف ماذا تقول هذه الماكينة؟ وماذا يردد ذلك القطار، وماذا تقول تلك الهرة؟)وذكر كثيرا من أصوات الجمادات، والدواب والطيور الشيء الكثير، ولعله بذلك يلفت نظرنا إلى معرفة تسبيح كل نوع من المخلوقات حتى لو كشف لنا لكنا على علم به سابق، وكلما ذكر لنا شيئا نقول له: لا نعرف، فكان الشيخ ﷺ يحدثنا قائلا: (إن هذه الجمادات وهذه الحيوانات تقول كذا وكذا الآن)، فكنا نتقبله بصدر رحب، ولا نعجب ولا ندهش لأنه ليس على الله ببعيد، فمن علم داود وسليمان عليهما السلام لغة الجمادات ومنطق الطير وسخر لهما الجن والريح، قادر على أن يعلم شيخنا لغة الجمادات والعجماوات.

فلا تعجب أيها القارئ، واعلم أن الله على كل شيء قدير، فهو قادر على أن يعرفها لأمثال هؤلاء الورثة، وحسبنا إماما فى ذلك سيد الخلق ﷺ، فإنه قد استمع لشكاية الجمل والغزال، وتسبيح الحصى، وحنين الجذع الذى كان يخطب عليه ﷺ.

من ذلك ما روى ابن ماجة عن تميم الدارى ﷺ قال: كنا جلوسا مع رسول الله ﷺ إذ أقبل بعير يعدو، حتى وقف على هامة رسول الله ﷺ فقال ﷺ: (أيها البعير اسكن، فإن تك صادقا فلك صدقك، وإن تك كاذبا فعليك كذبك، مع أن الله تعالى قد أمن عائذنا، وليس بخائب لائذنا) فقلنا يا رسول الله: ما يقول هذا البعير؟ فقال: (هذا بعير، قد هم أهله بنحره وأكل لحمه، فهرب منهم، واستغاث بنبيكم ﷺ) فبينما نحن كذلك إذ أقبل أصحابه يتعادون فلما نظر إليهم البعير عاد إلى هامة رسول الله ﷺ فلاذ بها فقالوا: يا رسول الله هذا بعيرنا هرب منذ ثلاثة أيام فلم نلقه إلا بين يديك فقال ﷺ: (أما إنه يشكو إلى فبئست الشكاية)، فقالوا: يا رسول الله ما يقول؟ قال: (يقول إنه رُبى فى أمنكم أحوالا، وكنتم تحملون عليه فى الصيف إلى موضع الكلأ، فإذا كان الشتاء رحلتم إلى موضع الدفاء، فلما كبر استفحلتموه فرزقكم الله منه إبلا سائمة، فلما أدركته هذه السنة الخصبة هممتم بنحره وأكل لحمه)، فقالوا: قد والله كان ذلك يا رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام: (ما هذا جزاء المملوك الصالح من مواليه!) فقالوا: يا رسول الله فإنا لا نبيعه ولا ننحره، فقال عليه الصلاة والسلام: (كذبتم قد استغاث بكم، فلم تغيثوه، وأنا أولى بالرحمة منكم، فإن الله نزع الرحمة من قلوب المنافقين، وأسكنها فى قلوب المؤمنين)، فاشتراه عليه الصلاة و السلام منهم بمائة درهم وقال: (يا أيها البعير انطلق فأنت حر لوجه الله تعالى)، فرغى على هامة رسول الله ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: آمين، ثم دعا فقال: آمين، ثم دعا فقال: آمين ثم دعا الرابعة فبكى عليه الصلاة والسلام، فقلنا يا رسول الله ما يقول هذا البعير؟ قال: يقول جزاك الله أيها النبى عن الإسلام والقرآن خيرا فقلت آمين، ثم قال: سكن الله رعب أمتك يوم القيامة كما سكنت رعبى، فقلت آمين، ثم قال: حقن الله دماء أمتك من أعدائها، كما حقنت دمى، فقلت آمين، ثم قال: لا جعل الله بأسها بينها، فبكيت، فإن هذه الخصال سألت ربى، فأعطانيها ومنعنى هذه، وأخبرنى جبريل عن الله تعالى: أن فناء أمتى بالسيف جرى القلم بما هو كائن.

ولقد آثرنا نقل هذا الحديث بتمامه لما فيه من المعجزات الكثيرة من توسل الجمل بالشفيع الرحيم ﷺ ودعائه بهذه الدعوات التى كان يطلبها المصطفى ﷺ لأمته وكيف

عرف الجمل ذلك؟ وفى ذلك تبصرة لمن ينكر الوسيلة بسيد السادات، فإذا كان الله أمَّن به العجماوات فكيف بأمته التى تعب من أجلها وكيف لا يكون لها الأمان به ﷺ؟ مع أنه كان مشغولا بها ويرجو لها المنزلة عند الله والنجاة والحظوة.

تسبيح الجمادات والعجماوات

ولنرجع إلى ما كنا بصدده عن شيخنا ﷺ فنقول حدثنا ﷺ أن بعض المشايخ ولعله يقصد نفسه قد كشف له عن تسبيح الجمادات، فكان يسمع تسبيح اللقمة حين يأكلها، والماء حين يشربه، والإبريق حين يتوضأ منه، والسجادة حين يتهيأ للصلاة عليها، والثوب حين يلبسه، والحذاء حين ينتعله، فحار فى أمره، فقال يا رب كيف أستخدم هذه الأشياء؟ وأنا أسمع تسبيحها؟ وكيف أعيش وهى تتحدث إلىّ؟ يا رب، استر عنى تسبيحها حتى أستطيع أن أنتفع بها وأستخدمها، فاستجاب الله لدعائه، وستر عنه تسبيح هذه الجمادات ولعله كان بحال لا يستطيع معها كمال الجمع بين شهوده ربه فيها وسماعه تسبيحها، فخشى أن تفرق جمعه بربه، وتشوش عليه كمال جمعه، وتسبيح الجمادات معروف فالله تعالى يقول: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، أى الغافلون هم الذين لا يفقهون تسبيحها، أما من كشف عن بصره الغطاء حيث قامت قيامته فهو يفقه ويدرك تسبيح الجمادات، ولقد روى عن سيدى البيومى ﷺ وكان نساجا أن (المكوك) كان يتجاوب معه أثناء ذكره، ويقول بصوت مسموع يسمعه من أنار الحق بصيرته (الله،الله)، وكيف يتسرب إلينا، فى هذا شك، أو نستغرب مثل هذا؟. وقد قال الله تعالى فى شأن داود عليه السلام:﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠] وشيخنا ﷺ وأمثاله وارثون محمديون فلا ينكر عليهم مثل ذلك ولا يجحد ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

وقد اشتهر كل ولى بمقام خاص به فيقال: إن فلانا كان مقامه الزهد أو التوكل إلى غير ذلك من المقامات المشهورة بين القوم، إلا أن شيخنا ﷺ كان فى هذا الباب فريدا فى نوعه وحيدا فى وصفه، فما كان يتحدث عن مقاماته أو يذكرها لنا صراحة، ولكننا بملازمتنا له ومباشرتنا لسلوكه ومعاملاته وبما يرينا الحق عنه، كنا نوقن أنه تمكن فى كل مقام، وأخذ منه النصيب الوافر، فمثلا مما يدل على تمكنه فى مقام

الزهد، أننا كنا نراه دائما عازفا عن الدنيا مقبلا على الآخرة، وقد أتته الدنيا وهى راغمة كما نطق بذلك الحديث الشريف- حيث قال مخاطبا الدنيا (يا دنيا من خدمنى فاخدميه)[1] فكان إذا أتته الدنيا وركعت بين يديه أخذها من الله، وتصرف فيها بالله ولم يكن لها منزلة فى قلبه، يؤيد ذلك أنها كثيرا ما انزوت عنه وبادرته بالهموم، فما تغير ولا تأثر، وهذه علامة الزاهدين فيها، حيث يقول بعض الصوفية (علامة الزاهد ألا يفرح للدنيا إذا أقبلت، ولا يحزن لفقدها إذا أدبرت).

وكذلك رأيناه قد تمكن[2] فى مقام التوكل تمكنا ملحوظا ومشاهدا من جميع مريديه، فكان يثق بما عند الله، وبتدبيره لأموره وثوقا تاما، لا يخالجه فيه أى نوع من أنواع الشكوك، حتى أنه كان يقول لنا (إنى واثق من ربى تمام الثقة، وإنه لا يضيعنى ولا يضيمنى أبدا ولا يكلنى إلى سواه).

ثم يستطرد قائلا: (إنى لفى غاية الحياء والخجل من ربى جل شأنه، فإنه ما يخطر لى شيء على بالى، إلا وجدته بين يدى مقضيا، أو ميسر الحصول عليه، دون أى مشقة).

---

[1] رواه البيهقى فى الزهد الكبير عن أبى حازم وذكره الشعرانى وقال رواه أبو نعيم و غيره.

(٢) التمكين: هو الاستقرار في المحراب، وهو مقام الاستقامة والثبات على الصراط المستقيم، والتمكين صفة أهل الحقائق، وأحباب الله غائبون عن أنفسهم في الطريق وغرباء في المقامات، وقلوبهم في حضور مع الله.

التلوين: التغييرويقصد به عند الصوفية، تلون العبد في أحواله بالانتقال من حال إلى حال، أي الاحتجاب عن أحكام حال أو مقام سني بآثار حال أو مقام دني.

والتلوين علامة الحقيقة، وصفة أرباب الأحوال إذ هو مقام الطلب والفحص عن طريق الاستقامة، وهو الصراط المستقيم.

وما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين، لأنه ينتقل من حال إلى حال، وينتقل من وصف إلى وصف، فإذا وصل تمكن، فصاحب التلوين أبدا في الزيادة، وصاحب التمكين وصل واتصل.

والمتمكن لا يتردد ولا يتلون لأنه قد وصل إلى حضرة الله ومحي من قلبه كل سوى وغير.

وحسبك من تمكن شيخنا ﷺ فى مقام الرضا عن ربه، وهو ذروة المقامات عند كثير من الصوفية، أنه ما كان فى حال وتمنى غيرها أبداً، وما ورد عليه قضاء أو قدر من مقدرات الحق واهتز له عود، ولا تزعزع له جانب أو مال منه ركن، أو اضطرب له قلب، أو ارتجف له فؤاد، أو جال فى نفسه أى خاطر لا يرضى الله تعالى مهما كان ذلك البلاء شديد الوقع على النفس عظيم الأثر على المرء، وما ذلك إلا لرضاه عن ربه فى جميع أحواله، وتمام رسوخه وعظيم تمكينه فى مقام الرضا ولله الحمد والمنة.

ويكفينا له مقاما معرفته بربه وعلمه به وفهمه لكتابه وفقهه لحديث رسوله ﷺ، ولا يصل إلى هذا إلا من شهد وعقل عظمة الله عز وجل وعرفه بحق وتغلغلت هذه المعرفة فى كل ذرات وجوده، وإن هذا لا يتم له إلا بعد ضبطه التام لنفسه وعدم التفاتها إلى المخلوقات، وحفظ قلبه حفظا كاملا عن كل خاطر لغير الله، وأنسه التام بربه، وشهوده الدائم له، ورؤيته مولاه فى كل شيء، ومن ذلك ما روى عن الشيخ أبى بكر الكتانى ﷺ أنه قال: (كنت بوابا على قلبى أربعين سنة، وما فتحته لغير الله تعالى، حتى صار قلبى لا يعرف غير الله).

وقال أبو الحسن الخرقانى ﷺ: (لى أربعون سنة والله ينظر إلى قلبى، لا يرى فيه غيره، ما بقى فىَّ لغير الله شيء، ولا فى صدرى لغيره قرار).

وروى عن أبى العباس المرسى ﷺ أنه قال: (لى الآن أربعون سنة ما احتجبت عن الله عز وجل).

فأمثال هؤلاء الذين لم تغرب عن قلوبهم أبدا شمس الحقيقة، ولا يبرحون حضرة ربهم، وهو لهم السمع والبصر، إذا قالوا أو أشاروا فإنما عن الله يقولون، وبالله يعملون، ومن الله يأخذون، وإلى الله فى كل أمورهم يرجعون فعنهم حدث ولا حرج، فهؤلاء بحق عيون الله من خلقه ومحل نظره منهم ومظهر تجلياته، وبهم يرفع البلاء وينزل القطر، وهم الذين إذا رءوا ذكر الله، إذ هم أدلاء عليه بحق، وخلفاؤه فى ملكه بصدق.

القسم الخامس

ابتلاءاته

تعرض شيخنا ﷺ للابتلاءات والإيذاء، شأنه شأن كل من تعرض للدعوة إلى الله من الأنبياء والصالحين، وله فى ذلك الأسوة الكبرى سيدنا رسول الله ﷺ والصحابة الأول أمثال عمار وبلال وصهيب ﷺ.

ومع كثرة ما لقيه من بلاء، وما وجه إليه من إيذاء، كنا نرى كثيرا من مشايخ الطرق فى عصره لا يتعرض لهم، ولا يؤذون فى أشخاصهم ولا فى أعراضهم، وإن أتوا بما يخالف الشريعة، وكنا لا نجد سببا لترك الناس هؤلاء مع مخالفتهم، إلا لما بينهم وبين الناس من التجانس وعدم الصدق، ولموافقتهم الناس فى سلوكهم، وعدم التعرض لنهيهم عما يأتون من مخالفات، فلم يكونوا كاملى التمسك بسنن الشرع وأحكامه، فضلا عن آداب الطريق وواجباته والجهاد فى سبيله.

وإذا أردت أن تعرف الحقيقة التى لا مراء فيها، فاعلم أن مشايخ الطرق المزيفين؛ الذين اتخذوا المشيخة حرفة وتكسبا للأموال وإقبال الناس عليهم بالباطل، وحسبوا أن الطريق مسبحة طويلة وتمايل ورعدة، وطأطأة رءوس والظهور باللباس المخصوص، أو الإجازة الورقية المختومة من السجادة الفلانية، وأنه نقيب على كذا، ورئيس إقليم كذا إلى آخر ما هو مشاهد ملموس لتلك الجماعات التى أوقعت الكثير فى أعراض الصوفية، وتقولوا عليهم وظنوا أن كل الصوفية كهؤلاء، إذ وجدوهم عند أوامر الحق كسالى، وفى هوى أنفسهم أسارى لا يعرفون عن الشرع أحكامه، ولا يراعون للطريق آدابه، فمثل هؤلاء لا يسعى الشيطان بالعداوة بينهم وبين الناس لموافقتهم إياه فى الضلالة والإغواء، فالشيطان لا يقعد لهم ولا يغرى الناس بالإنكار عليهم أو التعرض لهم، أما صاحب الدعوة الحقة والكمال فى الصدق، فلا بد وأن يقابل من الناس بمعارضة شديدة وإيذاء مرير، إذ إنه تفرد لله ولم يصبح من جنسهم ولا على شاكلتهم، إذ هم أولياء للشيطان وهو ولى الرحمن، ولذا فهو لا يرضى عن سلوكهم ومعاملاتهم، ولا يوافقهم فى لهوهم، فلذا يتفننون فى إيذائه والنيل منه عملا وقولا، استجابة لهوى نفوسهم وتلبية لوسوسة شيطانهم.

الناس أعداء ما جهلوا

وحقا الناس أعداء ما جهلوا، فلم يعرفوا خصوصيته، ولم يدركوا منزلته من ربه، ونظروا إلى بشريته وأنه مثلهم يأكل كما يأكلون... إلخ ﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان:٧]. فلو نظر الكفار إلى محمد رسول الله ﷺ لآمنوا، ولكنهم نظروا إلى يتيم أبى طالب وفقير قريش فلم يؤمنوا، ولذا يقول الحق: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف:١٩٨] أى حقيقتك، ولا يعلمون خصوصيتك ورسالتك، وبهذا تعرف العداء بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن، ولا تسأل عن الأذى الذى يلاقيه أهل الله من هؤلاء الجاهلين الطغام.

مبالغة فى إيذائه

وشيخنا ﷺ لكماله وصدق حاله مع ربه بالغ أهل عصره فى إيذائه بشتى أنواع الأذى ومختلف ألوان التهم والافتراء عليه، وألصقوا به ما هو منه براء للحط من شأنه، وانفضاض الناس من حوله، ولو أردنا سرد ما تعرض له من أنواع الابتلاء لضاق بنا المقام، وعلى سبيل المثال لا الحصر نسوق بعض ألوان من هذا الابتلاء.

إيذاء أهله له

وما أشد وقع الأذى إذا كان من ذوى القربى ولحمة النسب كما يقول الشاعر:

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة *** على النفس من وقع الحسام المهند

فقد كان الشيخ ﷺ يعيش مع شقيقه الوحيد وأمهما فى بيت واحد ومعيشة واحدة، ولما جذب الشيخ إلى ربه واختلى لعبادته وتفرغ لذكره وطاعته، وأخذ نفسه بأنواع الجهاد فى سبيله بغية القرب والوصول، وأصبح لا يرعى أمر البيت، ولا يشتغل بهم العيش، أنكر عليه أخوه ذلك لقيامه وحده برعاية أمر هذه الأسرة، وانفراده دونه بتدبير شئون البيت والحقل، فطلب الأخ من الشيخ الانفصال فى المعيشة، وكان الأخ موظفا وعنده ما يكفيه هو وأسرته من وظيفته وكان قليل الولد وتم الانفصال وترك ذلك الأخ

الشيخ وأولاده الصغار، وفوق ذلك ترك له أمهما، واكتفى بتدبير أمر نفسه وولديه وزوجته.

موقف الشيخ من هذه المحنة

فلم يوهن ذلك من همة الشيخ، ولم يخالجه شك فى مولاه، إذ إنه هو الذى جذبه إليه واجتباه، وهو لا بد كافيه ومتوليه وسيرعاه ويرعى بنيه كما رعى مريم وتولاها لما اصطفاها، ولم يفكر فى ذلك أبدا، وظل فى خلوته عاكفا على عبادته، وإذا كان الله فى قضاء حوائج عمار مساجده وبيوته (فهم فى مساجدهم والله فى حوائجهم) فما بالنا بمن انقطع إليه بالكلية بقلبه وقالبه، وتجرد من كل ما يهمه ويشغله، فصار همه مولاه ولا يفكر فى شىء سواه، ولم يخطر بباله أسرة أو أولاد أو بيت أو معاش.

الشيخ فى خلوته والله يتولى أسرته

كان إذا فرغ ما فى البيت من زاد أتته زوجته وهو مستغرق فى عبادة ربه وذكره مستحيية أن تخبره بخلو البيت من الطعام، فتجلس بجواره باكية، فيفيق الشيخ من حاله واستغراقه، ويقول لها: ماذا حدث؟ فتخبره فى حياء وأدب: (إن الأولاد ليس عندهم عيش يكفيهم إلا اليوم) فيأمرها بالانصراف مطمئنا لها، ويتجه جهة القبلة يكلم مولاه كلام من يشاهده ويراه، كلام الواثق فيه الموقن به المطمئن لقربه منه قائلا (أأنت أجلستنى لك، وتضيع هذه الأسرة؟) ثم يرجع الشيخ ﷺ إلى استغراقه فى العبادة والذكر، ولا يتعلق هذا الأمر بباله، ولا يطرق قلبه بعد، ولا يتردد على خاطره ثانيا، فقد أغرق هذا الهم فى بحر توحيده الخالص لربه، وذاب هذا الأمر ذوبانه واستغراقه فى عبادته، ولم يُشغل به لانشغاله الدائم بذكره.

تفرغ لله تام وتوحيد خالص

حقا لم يترك ذلك الأمر أثرا فى نفسه أو فكره، وهكذا كل من صعب عليه أمر وعز مناله وزاد به انشغاله؛ فليغرقه فى بحر توحيده، ولينظر بقلبه إلى علم الله الأزلى فى

مكوناته وسابق حكمه وقضائه فى مخلوقاته، وأن تفكيره وتدبيره لن يحلا ما انعقد أو يغير ما به القدر قد سبق، وبما به الحكم قد نفذ.

ولعظم يقين الشيخ ﷺ بسيده وشديد وثوقه بربه وقوة جذبته إياه فلا يمضى إلا قليل من الوقت حتى يسوق الله إليه رجلا قد لا يعرفه، قاصداً التبرك به، فيقدم له هدية تكفيه هو وأسرته نحو الأسبوع، ولا يأتى آخر الأسبوع حتى يسوق الله إليه آخر يفعل ما فعل الأول.

أسرة الشيخ فى رعاية الله

وكنت تعجب كيف تعيش هذه الأسرة، وعددها تسعة أفراد وعائلها على هذا الحال، وليس له إلا ما تغله قراريطهم القليلة التى لا تكفى إلا مئونتهم بعض العام، ولكن مم العجب؟ فالله الذى رعى السيدة مريم فى محرابها، وكان يسوق لها رزقها، ويرسل لها الملك بطعامها كل يوم، فتكون عندها فاكهة الصيف فى أيام الشتاء، وفاكهة الشتاء فى أيام الصيف، ولما تُسأل عن ذلك تقول: (إنه من عند الله).

فكذلك كانت رعاية الله لتلك الأسرة إكراما لعائلها الذى جذبه له فأخذه عنده، فيسوق لها رزقها وما يكفيها على يد بعض من سخرهم الله من خلقه لخدمة أحبابه، ورعاية مصالح أوليائه، إذ هم فى حجر كفالته، وفى ضمانه ورعايته، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٧].

رزق كفاف

وظل الشيخ ﷺ على ذلك نحو سنة كاملة، حتى كبر ولدا الشيخ (أمين وكمال) وصارا يعملان فى الزراعة، وأصبح أمر الحقل إليهما وتدبير الزراعة لهما، ومع هذا ظل أمر المعيشة فى البيت على الكفاف والضرورى "اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا"[1].

---

[1] حديث رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرةﷺ .

نعم وإن كان الكثير من أولياء الله عاشوا بلا أسباب ظاهرة للعيش وكانت عندهم النعم والأرزاق موفورة إكراما من الله وتفضلا منه لئلا يشغل بالهم بهم الرزق، ولكن بحمد الله تعالى ومنته كانت حالة شيخنا كما علمت وهو فى تمام الرضا عن ربه بما هو فيه.

ضيق العيش كان تربية لأبناء الشيخ

وإن كنا سمعنا من أولاده الصغار أن هذه الأيام كانت عليهم شديدة وظروف العيش كانت قاسية، وبحمد الله ما مالوا إلى أحد، ولا تطلعوا إلى غير ربهم وباريهم، وما يدرينا أن هذا كان صقلا لهم وتربية ومجاهدة ورياضة؛ ليعودهم الحق الرضا عنه من أول أمرهم، حتى إذا سحت نعم الله فيما بعد أو أسبغت عليهم يكون شكرهم أعمق وحمدهم أدوم لتذكرهم غابر أيامهم وسالف عيشهم، وليعلموا فيما بعد عند مزاولة الأسباب ألا ينسبوا إلى أنفسهم عملا، ولا يركنوا إلى الأسباب، فمن ذا الذى تولاهم أيام أن فقدوا الكسب والأسباب؟ وهذا غاية الكمال لمن يدرك أن الله الفاعل وهو مسبب الأسباب، وعمل العبد امتثال للشرع فقط والفاعل الحق هو الله.

ومما يدل على أن أولاده أرادوا تخفيف عبء العيش عن الشيخ ﷺ ما جرى من ولده (أمين) لما فاتح الشيخ وقال: إنى أريد شراء ماشية تعمل فى الحقل وتدر اللبن على من فى البيت فطلب من الشيخ لذلك نقودا، فقال الشيخ ﷺ: إن ما معى من نقود لا يفى بشراء ماشية كبيرة، فأشار على الشيخ بعض المخلصين له بأن يشارك بهذا المبلغ أحد الناس فى شراء ماشية كبيرة، إذ إن أهل البيت فى حاجة ماسة لها، تدر عليهم اللبن، ويتبلغون بما تدره عليهم إلى العيش المعتدل، وتخفف عنهم وطأته وشدته، والحقل أيضا فى أشد حاجة إلى ماشية تعمل فيه.

فتكلم الشيخ كلام المتوكل على الله حق التوكل (سأشترى بنقودى هذه عِجْلَة صغيرة، وأشارك ربى، وسيرعى الله البيت والحقل كما رعاهما من قبل) فانظر- رعاك الله- بعين بصيرتك إلى هذا القول الصادر عن القلب الراضى والنفس المرضية، شأن الواثق بمولاه، الموقن بكرم من أخذه إليه وتولاه، وفعلا تم ذلك واشترى عِجْلة صغيرة، وبارك الله فيها وكبرت سريعا، وكثر نسلها، وكانت مصدر خير كثير للبيت، ونفع

عظيم للحقل، ثم ترادفت الخيرات على الشيخ، وصارت معيشته وسطا، ومرت محنة العيش الكبرى به دون أن توهن من عزيمته أو تضعف من همته، أو تشغل باله، أو تقلل من عبادته لربه، بل ظل لله ذاكرا لا يتوانى عن ورده، ولا يفتر عن تسبيحه، راضيا عن ربه فى سرائه وضرائه.

الابتلاء تمحيص وتطهير

وهكذا يبتلى الله المخلصين من عباده بمثل هذه الامتحانات ليظهر صدق نواياهم، وخلوص طواياهم، وكبير توكلهم على مولاهم، وليحرق بنار تلك المجاهدات ما عندهم من بشريات ورعونات، حتى لا يبقى فيهم بخارا للنفس، ولا ظلالا لتلك الصفات البشرية، ولا ميلا لغير مولاهم، وليعلم الصادق من المدعى، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [محمد: ٣١] وليكونوا فى محنتهم تلك قدوة لمريديهم فى صدق التوكل على الله فى جميع الأحوال والشئون، فعظم البلاء وشدته يكون بقدر ما يؤهل له الرجل، ويعد له الإنسان فى مستقبل الزمان، وعلى قدر أهل العزم تأتى العزائم، وبقدر الكد تكتسب المعالى، وكما كان شيخنا ﷺ دائما يقول: (من كانت بدايته محرقة كانت نهايته مشرقة) وأيضا فإن البلاء والمحن كنار المعدن تظهر رديئه من جيده، فإذا ظهرت أصالة معدنهم، وبان خلوص مقصدهم، وصفاء باطنهم، اصطفاهم ومكنهم وأعزهم وأعلى قدرهم، والاختبار محك الرجال، وعند الشدائد تظهر الأبطال.

نوع آخر من الابتلاء

استقرت الأحوال المعيشية فى بيت الشيخ مدة وجيزة، ثم جند ولده أمين الراعى الأكبر لشئون الحقل، فتعب الشيخ ﷺ وتحمل ألوانا من المشقة فى مباشرة أعمال الزراعة الشيء الكثير الذى كنا نشفق عليه منه.

وهنا تدرك بثاقب فكرك أيها المتبصر كيف يتعب الشيخ ويجهد نفسه اليوم وكان بالأمس لا يهتم بأمر المعاش وترك التعلق بالأسباب؟ لتعلم أن الشيخ أول أمره كان فانيا عن نفسه؛ والفانى لا يحس ولا يشعر بما هو فيه كما عليه حال المتسبب، وأن الفانى لا

شيء أمامه سوى ربه، واليوم عاد بربه أى أصبح باقيا به سبحانه وتعالى يسعى كما يسعى المتسببون، ولكنه فى سعيه يرى ربه ويراقبه فى كل عمله، أما أولئك فيعملون بأنفسهم وتدبير عقولهم.

وانظر مقالة الكفار على سيدنا الرسول ﷺ: ﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٧]. فكان ﷺ يعمل كما يعمل كل الخلق، ولكن فرق بين من يعمل بنفسه عن عقله وتدبيره، ومن يعمل بالله لتولى الله له إذ هو سمعه وبصره.

وانظر إلى الرسول ﷺ الذى سقى الجيش كله بماء نبع من بين إصبعيه[1]، وأطعمهم جميعا من فتات زاد أحدهم، ثم هو يربط الحجر على بطنه من الجوع، وتراوده الجبال أن تكون له ذهبا فيعرض عنها رضا بما عند الله، فهذه مقامات ودرجات ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

مضاعفة ذلك الابتلاء

ولقد زاد من أعباء الشيخ ﵁ فى رعايته لشئون الحقل قلة مياه الرى لأرضه والتى كادت تنعدم فى هذه الفترة، كل ذلك مع مباشرة الشيخ ﵁ لأعمال الطريق والدعوة إلى الله تعالى، فكان الشيخ ﵁ صابرا محتسبا، راضيا شاكرا ربه على كل حال، ولم نره فى يوم ما متبرما أو متضجرا، وكان دائما يقول: (كله يرضيه).

وكان يظن بعض العامة أو من لهم حسن اعتقاد فى الشيخ أن ولده لن يجند وسيعفى من الجيش ليخدم أباه الداعى إلى الله، إذ إنه ملجأ للناس ومقصد لقضاء

---

[1] حدث ذلك يوم الحديبية عندما عطش الناس كما روى البخارى و مسلم عن جابر﵁، وتكرر نبع الماء من بين أصابعه الشريفة مرات كثيرة فى مواضع عديدة.

حوائجهم، ولما يعلمون من قصة الشاب الذى حضر للجهاد وقال الرسول ﷺ ما معناه: "هل أحد من أبويك حى؟ قال: نعم قال: اذهب ففيهما فجاهد"[1].

فكان قيام ولد الشيخ بأعمال الزراعة جهادا تاما فى سبيل الله وخدمة عامة، إذ الشيخ فرغ نفسه لربه ولهداية الناس، فكانت خدمته ألزم ليزيد فراغه للإرشاد فلا يجمع عليه همين هم الدعوة والإرشاد وهم رعاية الحقل وشئون البيت، ولكنه ابتلاء إذ إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه، فإذا صبر اجتباه، وقد كان تجنيد ابن الشيخ من هذا النوع من الابتلاء الشديد ذى الوقع الأليم على النفوس البشرية.

ولقد انخلع لهذا البلاء قلوب كثير من المحبين تأثرا لما سيلاقيه الشيخ من مشقة وعناء، ولكن تلقاه الشيخ والحمد لله بالرضا والتسليم، مع شدته وقسوته ولما سيترتب عليه من تحمل الكثير من ألوان التعب والمشقة، ومما زاد هذا البلاء شدة وقسوة أن العامة ولا سيما الأعداء الذين يتلمسون للشيخ كل ما يرونه مطعنا فيه إذ قالوا: لو كان شيخا حقا لعوفى ابنه من التجنيد، ناسين أن قضاء الله النافذ لا ترده همة عارف ولا دعوة عابد، (وإن همم الرجال لا تخرق أسوار الأقدار).

ترك (أمين) الزراعة ابتلاء للمريدين

وكان هذا التجنيد ابتلاء جديدا للشيخ، وحدث ولا حرج عن المشاق والمتاعب التى لقيها ﷺ بسبب ذلك من خروجه لمباشرة أعمال الحقل بنفسه وغير ذلك كما كان ابتلاء لأبناء الطريق، فكان زلزلة لأقدام البعض وامتحانا للبعض الآخر، فقد سارع كثير من أبناء الطريق إلى خدمة الشيخ ومعاونته ما استطاعوا فى رعاية أعمال الزراعة، وخلع البعض العذار فى حب الشيخ وأسهم بجسمه فى العمل، وقابل سفاهة الناس حينما يتحدثون فى ذلك كيف يعملون فى حقل الشيخ ويتركون أعمالهم؟ ولقد تجلى ذلك فى تحملهم للأعمال مع الشيخ فى إنجاز متطلبات الزراعة، وكم كنت تعجب حين ترى المخلصين من أبنائه المريدين من العلماء والمتعلمين والموظفين الذين لم يتعودوا

---

[1] حديث صحيح متفق عليه عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما.

أعمال الزراعة ولم يباشروها مع أسرهم فى حقولهم الخاصة، وقد شمروا عن سواعدهم، وخلع كل منهم جميل ثيابه، ولبس ما يتناسب وعمل الزراعة، وأخذوا يتسابقون ويتعاونون ويتنافسون عاملين فى حقل الشيخ لينجزوا المطلوب فى أقصر وقت.

وكان الشيخ ﷺ ينظر إليهم بعينه الرحيمة وقلبه الشفوق، يدعو لهم سائلاً الله أن يمنحهم جزاء عملهم هذا قربا وصلة من الله.

وبحمد الله قد تحقق للكثير من هؤلاء المخلصين الكادحين فى حقل شيخهم القرب من ربهم، ونيل الدرجات الرفيعة فى الوصول إليه كما تحقق لهم سعادة وسعة عيش وهدوء بال فى حياتهم الدنيوية؛ إذ كانوا يعتبرون أن عملهم فى حقل شيخهم من مجاهدات الطريق ورياضاته، ومن ألوان تخريب النفس ومجاهداتها وتهذيبها وتصفيتها من كدوراتها، وتخليصها من مألوفاتها، وإخراجها عن رعوناتها، فقد كانوا يسمعون من العامة كلاما فى هذا الشأن شديد الوقع على النفوس، فيقابلونه بالابتسام والرضا، معرضين عنه غير ملتفتين إليه، مطمئنين لرضا الشيخ عنهم فى ذلك وكفاهم بذلك فخرا وشرفا.

وقد سبق أن قلنا أن الطريق ليس عبادة وزهادة ومسبحة وأورادا، وإنما رأس الطريق تلمس رضا المشايخ والسعى الدائم فى خدمتهم، وإخراج النفس عن عاداتها وطباعها البشرية، وتبديل صفات دنية بأخرى علية، واسمع مقالة أبى يزيد ﷺ (كيف الوصول إليك يا رب؟ فسمع هاتفا يقول: دع نفسك وقد وصلت).

فالطريق آداب وخدمة وتجرد عن المألوف من العادات، وترك الهوى والنفس وسائر المذمومات.

مقالات سوء وافتراءات

وإليك لونا آخر من ألوان الابتلاء وهو نيل الناس من الشيخ ﷺ وسخريتهم به كما حدث من بعض علماء الظاهر له، ولقد سبقت الإشارة إليه ومع ذلك كان ﷺ لا يأبه لصيحات المعارضين ولا يصيخ أذنه لافتراءات الجاحدين، وجهته ربه مسلما له قلبه،

ولا يشغله عن مولاه كيد الكائدين، لأنه لم يكن ينظر إلى ذواتهم، وإنما يرى فعل الله فيهم، ويعتقد أن مثل هذا لا بد أن يكون لكل صاحب دعوة صادقة إذ يبتلى الله بهم أحبابه إرثا نبويا، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

تصدى المكابرين الحاقدين له

ومما ابتلاه الله به تصدى المكابرين له بالأسئلة العلمية استشكالا لا استفسارا، فكان يؤيده الله دائما بإفحامهم، وأذكر من البلاد التى فتح الطريق فيها وكان له فيها أتباع ومريدون بلدة كثر فيها المثقفون المنتمون إلى جماعة الإخوان المسلمين، فكانوا يعتقدون أن دعوتهم هى الصادقة التى ترضى الله ورسوله ودعوة الطرق الصوفية إلى الله باطلة ومزيفة، فتعصبت شرذمة منهم وتعرضوا للشيخ ﷺ بقصد خذلانه، فيكف حينئذ عن زيارة بلدهم، ويترك المجال فسيحا أمام جماعتهم، فأعدوا له من غوامض الأسئلة ودقائق الشبه الشيء الكثير، فهذا سؤال فى المتشابه من كتاب الله الحكيم، وثان فى حديث يعارض ظاهره آية من القرآن الكريم، وثالث فى غامض علم التوحيد، ورابع فى المغيبات والأرواح... إلخ، وأتوا الشيخ ﷺ بقصد التحدى على ملأ من الناس فى ليلة من ليالى ربيع الأول كان الشيخ ﷺ عند أحد مريديه يحتفل بذكرى المولد النبوى الشريف، بدءوا يعرضون أسئلتهم الواحد تلو الآخر، فيتلقاها رضوان الله عليه فى ثبات الواثق بربه المعتز بعزته ويجيب عليها سؤالا سؤالا بما يفيض الله عز وجل به عليه من مدد لا ينقطع وعلم لَدُنى يدحض الشبه، ويجلو الغامض فيحس السائل وهو يسمع ما لم يسمعه أو لم يقرأه فى مرجع من قبل بالتضاؤل رويدا رويدا، ويجد نفسه قد أفحم ولزمته الحجة فيرتد مطأطئ الرأس خافض الصوت تاركا لزميله المجال، فينتهى ذلك الزميل إلى مثل ما انتهى إليه الأول وهكذا حتى أتى على آخرهم، والجميع يشهدون ويعجبون، ثم تنتهى الليلة وينفض الجمع، وينصرف هؤلاء وقد تظاهروا باحترام الشيخ ﷺ وإجلاله وأنهم علموا الكثير وأفادوا ما كانوا فيه حيارى يعلنون ذلك جهارا مع انطواء نفوسهم على حقد دفين وغيظ مكبوت، فيخرجون وقد بيتوا أمرا وراح شيطانهم يلقى إليهم بمكيدة

من نوع آخر لعلهم يصيبون من الشيخ اليوم ما خانهم حظهم فيه بالأمس، فيجتمعون ويتشاورون ويعدون لكل منهم سؤالا آخر واستشكالا جديدا ولغزا غريبا، فيأتون إلى الشيخ ﷺ الليلة التالية متظاهرين بالخضوع راغبين فى المعرفة، ويظهر كل منهم أوراقه التى كتب فيها ما جمعه من أسئلة، وأملاه عليه إبليسه من معضلات التفسير أو الفقه حتى فى اللغة العربية وفى الشعر الجاهلى والإسلامى واهمين أن بضاعة الشيخ فى الطريق بعض أحكام الدين فيتسع صدر الشيخ ﷺ ويبدى لهم سروره بما يعرض عليه لحبه فى هداية المسلمين لعلهم ينجذبون إلى طريق الله وتصفو نفوسهم، ولكن هيهات للقلوب المريضة أن تشفى مما فيها.

وحقا كان ما يفاض على الشيخ لا يمكن أن نسمعه منه فى وقت آخر، أو كنا كما روى عن الصحابة[1] أنهم كانوا يهابون الرسول ﷺ فلا يسألونه ويحبون أن يأتى البدوى فيسأله فيسمعون ما يرغبون، ومع هذه العلوم كلها وتلك المعارف البكر لم يذعن هؤلاء لدعوة الشيخ، وهو ﷺ قال أخيرا (كنت آمل لهم الهداية لطريق الله ولكن والله أعلم أن هؤلاء لا تلوح عليهم أمارة الهداية، وإنما قصدهم العناد والمكابرة) أو نقول: لعلهم كانوا يفعلون ذلك ليغضب الشيخ، أو يجيب بغير ما فى أذهانهم وما اطلعوا عليه، أو يتلجلج فى الإجابة، فيخرجون وفى أيديهم سلاح رخيص قصد التشهير والنيل من عرض الشيخ وأنه لا يليق للدعوة أو ليس أهلا للمشيخة وكم وقع هذا التحدى منهم مرارا، وكانوا يبوءون بالخيبة والفشل والخذلان فى كل مرة، وفى النهاية حين يئسوا من النيل من الشيخ ﷺ نعتوه بالذكاء النادر، والفطنة الحادة وأنه كثير الاطلاع مع أن ما سمعوا لم ينشر فى ديوان أو ذكر فى مطولات الكتب وجحدوا خصوصيته وولايته، وكذبوا والله.

فما كان لذكائه العقلى أن يسعفه فى مثل هذه المواقف لولا تأييد الله له بما كان يفيض به عليه من علوم ومعارف، وأنى لذكاء البشر أن يقارن بإلهام الله لأوليائه؟.

---

[1] روى ذلك مسلم فى صحيحه والنسائى فى السنن و أحمد فى مسنده وغيرهم عن أنس بن مالك ﷺ.

وقد أدى ذلك التعنت الظاهر والتحدى السافر إلى ثورة بعض المنصفين ممن لهم جانب قوى فى الدين واعتقاد راسخ فى أولياء الله، وكان ذا مكانة رفيعة ومنزلة سامية عند جميع أهل بلده وكلهم يعلمون قدره ويشهدون بفضله فقام فى مجلس من تلك المجالس ثائرا رافعا يديه قائلا: (ما هكذا تكون مقابلة الضيوف يا أصحاب العقول المثقفة؟ هل غركم ما حفظتم من علوم، وظننتم أنكم أعلم البشر؟ ما هذا الغرور؟ تريدون أن تفحموا الشيخ ﷺ وتظنون أنه لا يدرى من علومكم أو علوم الدين شيئا، كلا فإن الله يتولى أحبابه دائما بالنصر والتأييد مثلما تولوه بالعبودية والامتثال والطاعة).﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة:٥٦].

وبعدها لم تقم لهم قائمة، وشفوا غيظ صدورهم بحيلة العاجز فنالوا من الشيخ بألسنتهم فى غيبته ما يستوجبون به المقت والبعد بعدما عجزوا عن النيل منه فى حضرته.

بلاء من الأصدقاء

ومما لقيه من أنواع الابتلاء أن استهزأ به مرة أحد أصدقائه وكانت بينهما ألفة ومودة وخلطة ومسامرة وأنس ومجالسة قبل دخول الشيخ ﷺ طريق القوم، فلما افتقده ذلك الصديق، ذهب إليه يزوره، فوجده منصرفا عنه مشغولا بالذكر غائبا عن كل من فى المجلس، فحادثه كسابق عهده، فلم يظفر منه بما كان يعلمه من قبل، فاغتاظ الصديق وقال له متهكما (مالك ماذا جرى يا شيخ عبد الفتاح إنت عاوز تعمل ولى أو شيخ؟) وبكلام آخر ينم عن عدم رضا ذلك الصديق على الشيخ ثم تركه وانصرف فقرعت هذه الكلمات سمع الشيخ ﷺ، ورأى من ذلك الصديق استهزاء وسخرية ونظرة المتهكم.

وكان الشيخ ﷺ فى أول الطريق حساسا لا يطيق مثل هذه الألفاظ، فغضب وعزم أن يتلو عليه فى الليل اسما علمه الله إياه قصد النصرة على الأعداء، وليعرف هذا الصديق قدر الشيخ وأن الله هو الذى جذبه له وأنه لم يكن مدعيا ولا متصنعا.

وفى منتصف الليل أعد العدة لذلك، فتوضأ وقبل أن يتهجد كعادته كل ليلة، أراد أن ينفذ ما عزم عليه بالنسبة لذلك الصديق المستهزئ به، فإذا بالباب يطرق فى ذلك الوقت المتأخر من الليل، وفتح الباب فإذا به يجد رجلا مسنا من أولياء زمانه يسمى الشيخ (إبراهيم خضر) ﷺ، وقد سبقت الإشارة إليه وكان شاذليا له قدم كبير فى الطريق، وكان صاحب حال فقال الشيخ ﷺ: (ما الذى أتى بك يا شيخ إبراهيم فى هذه الساعة؟) فقال: (أنت يا أخى وكررها مرارا: خذ بيدى) وكان الشيخ ﷺ جالسا على قبة قاعته فى فصل الشتاء، فأخذ الشيخ ﷺ بيده وأجلسه بجواره، فالتفت الشيخ إبراهيم ﷺ إلى فضيلة شيخنا ﷺ وقال له: (مالك والسيد البدوى؟) يعنى الرجل الذى اعترض عليه.

فقال الشيخ ﷺ محاورا له (السيد البدوى ﷺ فى مقامه والله يظلنا ببركاته)– فقال الشيخ إبراهيم لشيخنا (أنت تلف وتدور فى الحديث معى، والله ما جئت إليك الآن إلا بأمر الخضر[1]ﷺ، جاءنى الساعة وقال لى، (قل للشيخ عبد الفتاح يترك السيد البدوى،

---

(١) (الخضر والخضرية): يختلف الفقهاء والصوفية في كثير من المسائل الدينية لتباين المشارب والأذواق واختلاف وجهات النظر والاستنباطات، ولا يكادون يجمعون إلا علي الأصول الشرعية، والقواعد العامة للإسلام، من تلك المسائل المختلف فيها مسألة الخضر ولكل رأيه ووجهة نظره، فيري الفقهاء أنه نبي بدليل طلب موسى عليه السلام منه أن يتبعه ليتعلم من علمه(هل اتبعك علي أن تعلمني مما علمت رشدا) ويري الصوفية أنه ولي ويكادون يجمعون علي ذلك، ويردون علي الفقهاء بأن المزية لا تقتضي الأفضلية ولا المساواة، فموسى عليه السلام كان رسولا من عند الله وصاحب وحي وشرع وعلمه خاص بالدعوة إلى الله وإصلاح البشر، والخضر علمه خاص بالمكونات، أو علمه شخصي لنفسه الذي يقال عنه أنه علم الباطن أو الغيب أو الحقيقة ولا يمنع أن يعلم خادم الملك من خاص أسراره ما لا يعلمه رئيس ديوانه أو أكبر وزرائه ولله المثل الأعلى.

ولعل الخلاف بين هؤلاء السادة ناشئ عن الولاية والنبوة أيهما أفضل؟ والحق الذي لا منازعة فيه أن النبوة أفضل ومن قال بتفضيل الولاية إنما يعني ولاية النبي فهي أرفع لا ولاية الولي، وبهذا اتضح القول الفصل وعليه فلا خلاف ولا إشكال.

ثم اختلف بعد في حياة الخضر فيرى فريق حياته إلي يوم القيامة حياة حسية وأنه يعيش بين أظهرنا، وفريق ينكر حياته ويستبعدها، لطول المدة بين زمن سيدنا موسى عليه السلام إلى الآن، والصوفية لا المتصوفة يرون أن وجوده وحياته وبقاءه إلى أن تقوم الساعة من باب القدرة التي لا يعجزها شئ ولا تتوقف على الأسباب والمعقولات ولا يستبعدون على قدرة القادر وجود الخضر في الأرض حياً فحياته في الأرض ليست بأغرب من حياة عيسى عليه السلام في السماء وأنه ينزل أخر الزمان إلى الأرض داعيا بشريعة سيدنا محمد ﷺ ويؤكدون أنه خضر موسى عليه السلام، ويرى بعض الصوفية أن لكل زمان خضرا والخضرية عندهم كالقطبية يتولاها رجل بعد رجل إلى نهاية الزمان، وفريق آخر منهم يرى أن الخضرية من عالم المعنويات والمثال، وأن حياته كحياة الشهداء(أي حياة برزخية) أو أنها " أي الخضرية" من الأحوال التي يرمز بها، فالخضر رمز إلى البسط وإلياس رمز لحال القبض، والفريق الذى يرى حياته كحياة الشهداء يقول بأن كل من رآه لا يكادون يتفقون على رؤيته بشكل واحد لشخصه المعروف فهو يتشكل لكل راء حسب حاله كما يرى كثير من الناس المصطفى ﷺ في صور متعددة وكذلك الأولياء الكمل يُرون بصور تخالف الصور التي كانوا عليها في حياتهمٍ، ويفسر ذلك بأن مرآة الرائي ليست مصقولة وأنها انطبعت فيها تلك الصورة على حسب حال صاحبها واستعداده من حسن أو تغيير أو نحو ذلك، وعليه فالرائي يستدل بما رأى على تقدم حاله مع الله، أو تغيره فيكون هذا كتربية له وإصلاح أو بشارة أو إنذار.

ويروى عن بعض العارفين أنه قال: (إن الله تعالى أطلع الخضر على أرواح الأولياء غيبا، فسئل ربه أن يبقيه في دائرة الشهادة حتى يراهم شهادة كما رآهم غيبا فأجابه الله إلى ذلك فحياة الخضر بدأت منذ وجود أول ولي، وهو على هذا من أبناء أدم عليه السلام صلبا وختام حياته مرهون بخروج آخر ولي من عالم الغيب إلى عالم الشهادة.

تلك خلاصة ما قيل في الخضر والخضرية والخضر لقب لهذا الشخص واسمه بليا (أحمد) بن ملكان وكنيته أبو العباس وكان أبوه من الملوك ولقب بالخضر لأنه جلس على الأرض فاخضرت تحته، وقد صح في البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: (إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة فإذا هي تهتز من خلفه خضراء).

وهناك روايات تدل على اجتماعه بالرسول ﷺ أكثر من مرة وأخذه عنه، فهو على ذلك صحابي.

رأينا فيه: وما نعتقده في الخضر أنه ولي أو رئيس الأبدال في كل عصر وأنه موجود حي بيننا إلى يوم القيامة لشربه من ماء الحياة، ويعضد ذلك اجتماعه بساداتنا الأفاضل كإمامنا الشاذلي رضي الله عنه وإنقاذه من ورطة الدراهم المزيفة زمن المجاعة التي حدثت بتونس وأنه لقيه مرة أخري بالمسجد ودارت بينهما محادثات عدة وأيضا اصطحابه لسيدي عبد القادر الجيلاني أكثر من خمسة وعشرين عاما، في صحراء العراق يعلمه ثم فارقه واجتمع كذلك بابن عربي ودارت بينهما محادثات ومناقشات، وأخذ عنه علوما، كتب عن ذلك كله ابن عربي في كتبه، وليس هذا فقط، بل له مع جميع الأولياء لقاءات ومحادثات وتعاليم أمر بتبليغها لهم أو بإنجاز مهام كلفها لهم، ومن هذا ندرك تماما وجوده وحياته ومعيشته بيننا.

ويكفينا مقال شيخنا ابن عطاء الله السكندري ﷺ الذي كثر لقاؤه به إذ يقول: (من أنكر وجود الخضر فقد غلط، ومن قال أن الخضرية رتبة يقوم بها رجل بعد رجل أو حال يتصف بها الإنسان في بعض الأحيان فقد وهم، والمنكر لوجود الخضر معترف على نفسه أن منة الله بلقاء الخضر لم تواجهه)– هذا ما نعتقده عن حياة الخضر وعن مقامه ومهمته.

وإن شيخنا ﷺ بحمد الله كم حدثنا بلقائه واجتماعه به بل بعض مريديه قد التقى به وأخذ عنه وردا في مبدأ سلوكه الطريق فقال له قل: كل يوم(باسمك اللهم أبتدئ وبك أستنصر) سبع مرات فقص ذلك المريد على الشيخ ﷺ فأقره على ذلك وأفهمه بأنه سيأتيك كثيرا معلما وموجها.

وأن ما نشهد به أن حياة الخضر حسية تؤكدها الوقائع التي أخبرنا عنها ساداتنا وأنه خضر موسى عليه السلام الذي علمه الله من لدنه علما، ويرد على من قال بعدم بقائه بما سبق من قصة حياة عيسى عليه السلام في السماء وحياة إلياس عليه السلام في الأرض إلى الآن، ونوفق بيننا وبين من قال إن الخضرية مقام يصل إليه العبد أنه لا يمنع أن من تأهل للقاء الخضر فقد وصل إلى ذلك المقام بدليل أنه لم يره كل ولي مع تأكد وجوده وحياته.

وقصة الخضر التي هنا في صلب الكتاب شاهد صدق على وجوده وأن له مهاما مع الأولياء يقوم بإنجازها، وأن هذه الواقعة ذات شقين فهي تشهد بأن الشيخ إبراهيم خضر ﷺ كان وليا وممن استأهل لقاء الخضر والاجتماع به، وأيضا تشهد بوضوح لشيخنا القاضي ﷺ بمكانته وما له عند الله من مقام مع أنه كان في أول سلوكه الطريق إلا أنه كان حساسا في مبدأ أمره وأن الله كان يغضب له ويغار عليه، فلو لم يكن هناك ضرر محقق سيقع على (السيد البدوي) الذي هزئ بالشيخ ما أتى الخضر وما أسرعه لينقذ ذلك الرجل مما كان سيلحق به على يد شيخنا ﷺ، وبعد ذلك كان الأعداء ينالون من الشيخ بأكثر من ذلك ويتعرض لأنواع قاسية من الأذى منهم وكنا نراه يبتسم ولا يحرك ذلك من غصن شجرته الطيبة الثابتة إذ قد رسخ قدمه في التمكين ورضي بما يجريه الله من مقدوراته على مخلوقاته.

ولا يتلو عليه شيئا، فإنه سيكون من أبنائه ومريديه) وأردف الشيخ إبراهيم قائلا: (يا شيخ عبد الفتاح نريدك من الأكابر وأن تكون همتك أكبر فلا يصل غضبك إلى هذا الحد، فليس هذا شأن الكمل من العارفين).

عند ذلك انطفأت جذور غضب الشيخ وترك ما عزم عليه، وخرج الشيخ إبراهيم خضر تاركا الشيخ ﵁ يتهجد ويذكر ربه.

وبعد أيام تحقق ما قاله ذلك الرجل الصالح الشيخ إبراهيم خضر، فجاء ذلك المعترض واتصل بالشيخ وأخذ العهد منه وأصبح من مريديه الخلص وملأ حب الشيخ ﵁ قلبه، وكثيرا ما كان يدعو الشيخ ﵁ إلى منزله متبركا به، ولقد أوصى أن يصلى عليه الشيخ، ويشيع جنازته فحقق الشيخ ﵁ وصيته وصلى عليه فكانت صلاته شفاعة له وبمثابة رضا الشيخ عنه.

القاتل بدعوته كالقاتل بسيفه

ومما تحققناه من الشيخ ﵁ ما عزم بعدها على قراءة هذا القسم على أحد من المسلمين مهما بلغه عنه من سخرية به أو كاد له أو تفنن فى إيذائه، وكان لا يحب أن يدعو أحد على أحد مهما فعل به ويقول: (القاتل بدعوته كالقاتل بسيفه) كما كان لا يحب أبدا قراءة (عدية يس) المعروفة على من سرق أو حرق أو أتلف... إلخ.

ويقول لمن قال له فى ذلك: (دع أمرك لله وسلم له كل شيء وهو أعلم بحالك وقادر على نصرتك أو رد حاجتك).

وانتقل الشيخ ﵁ إلى ربه ولم يستعمل شيئا من ذلك أبدا وقدوته فى ذلك مؤدبه ومربيه ومورثه[1] سيد الخلق ﷺ عندما أتاه ملك الجبال وقال له: (إن شئت أن أطبق

---

(١) هذا هو الميراث الحق علوم وصفات ومعارف وشمائل، لا درهم ولا دينار، ولا دنيا ولا جاه، وانظر إلى أبي هريرة ﵁ لما دخل السوق ووجد الناس في لهوهم منغمسين، وعلى دنياهم متكالبين، ولها متجاذبين، فأراد أن يلفت نظرهم إلى الأهم فنادى (أيها الناس أنتم كذلك في البيع والشراء، وميراث

عليهم الأخشبين فعلت)[1] وذلك حينما سخر منه أهل الطائف وبالغوا فى إيذائه، فابتهل إلى الله وهو على هذا الحال وقال: "اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون" فرد عليه الملك قائلا (صدق من سماك الرءوف الرحيم).

وقد تحققت وراثة الشيخ ﷺ؛ فما رأيناه انتقم من أحد أو غضب لنفسه بل كان يسامح كل من أساء إليه ويعفو عنه.

ونحن جميعا أبناء الشيخ القاضى ﷺ نحمد الله تعالى على ما غرسه فينا شيخنا ونشَّأنا عليه، فما فكرنا أبدا فى إيذاء من عادانا أو تعرض لنا بسوء أياً كان عداؤه فى العمل أو فى الطريق أو لأى شيء مع القدرة على النيل منه أو رد أذاه بأى نوع، لكن مع شدة ما نلاقيه من عداوة الجاهلين وسخرية الحاقدين ما ضاق بحمد الله صدر أحدنا أو فكر حتى فى الدعاء على خصمه أو من نال منه بسوء لما عودنا شيخنا ﷺ، إذ كنا نرى ألوانا شتى من الإيذاء تنهال عليه فما رفع طرفه إلى السماء داعيا على عدوه أو تحرك قلبه بالسوء نحوه، بل كان يسلم أمره إلى ربه ويبتسم رضا بما نزل عليه ويقول: (إن الله هو الفاعل فى الكل).

عدو خسيس دبر لمكيدته إبليس

ولقد بلغ ممن استحق المقت والطرد فاستوجب من الله الحرب بمعاداته لأوليائه، وتعرضه لأحبابه وأصفيائه إذ رأى ذلكم اللئيم أن الشيخ ﷺ، تتوافد عليه الرجال، وكثر فى سيرته المقال، ومما أذكى نار العداوة فى قلبه اشتعالا، أن رأى منهم للشيخ امتثالا وسمع منهم مدحا له وثناء عليه، وطواعية له وميلا إليه، وتفانيا فى خدمته واستجابة لدعوته، ومما زاده غيظا أن تعطرت المجالس بذكر كراماته وكريم صفاته، ورغب الكل

رسول الله ﷺ يقسم في المسجد)، فهرول الناس وخفوا لينال كل نصيبه من الميراث النبوي فلما دخلوا ما وجدوا غير العابد والذاكر والساجد والراكع، فرجعوا إليه يلومونه على مقالته، فقال ماذا وجدتم؟ فقالوا ما وجدنا شيئا إلا من يصلي ويقرأ ويذكر ويسبح، فقال هذا هو ميراث رسول الله ﷺ لا ما أنتم عليه من لهو وما انغمستم فيه من دنيا وزخارفها ومتعها فأدركوا ما يشير إليه أبو هريرة ﷺ وما يقصده.

(٢) رواه البخارى و مسلم و النسائى عن عائشة رضى الله عنها.

فى صحبته، ولهج الجميع بمقالته، وعملوا بعظاته، وقد هاله أن من دخل إلى الشيخ ﷺ واستمع لعذب حديثه ورأى حسن الاستقبال لجليسه، خرج معجبا بمقاله متأثرا بحاله وبدا عليه التواضع؛ فانخفضت من هؤلاء الرءوس وباعوا فى حب الشيخ المهج والنفوس.

فقال هذا اللئيم فى نفسه لا شك أن هذا الرجل عنده كتب سحرية، وحيل إبليسية وشعوذة شيطانية، يجمع الناس بها ويسلب الكثير من أموالهم ويستولى على عقولهم، وسول له الشيطان أنه لو تصدى للشيخ ﷺ لعد فى نظر الكل من الأبطال والشجعان فيسعى لفض الناس من حوله بكل حيلة، ويجتهد فى تقبيح سمعته بأى وسيلة، ففكر وقدر: ماذا عنه أقول؟ وبأى سلاح فى هذا الميدان أصول وأجول؟ فانتهى به التفكير ووصل إلى ذلك التدبير، فأبلغ رجال الأمن أن الشيخ يستولى على عقول الرجال بحيله السحرية، وبما لديه من كتب فيها استخدامات جنية، وأنه أفسد بشعوذته عقول العباد، ونشر بين الناس الفساد، وأصبح خطرا على الأمن فى البلاد، فخف رجال الأمن وأسرعوا إلى بيت مولانا الشيخ وعن كتب الشيخ والشعوذة مفتشين، وعن الناس الذين أخذ أموالهم وأفسد عقولهم باحثين، وبعد البحث والتفتيش ما وجدوا غير كتب الدين وما رأوا حوله إلا الرجال الصالحين، فتعرفوا عليهم فوجدوهم بالعقل موصوفين.

وما جاءوا للشيخ إلا سائلين مسترشدين عن أمر عقيدتهم والدين، وكاد الأمر بذلك ينتهى وأن الشيخ بحمد الله قد نجا مما كان يود له ذلكم الخبيث ويشتهى، إلا أن إبليس وراء هذه المؤامرة، وقد نسج شبكة تلك المكيدة المدبرة، ولغريب المصادفة رأى هؤلاء الباحثون أن فوق (دولاب) مكتبة الشيخ بندقية فسألوا لمن هى، فقال: (ليست لى، وأنها موضع نزاع بين اثنين، وأن لأحدهما على الآخر دينا، فأودعاها عندى حتى يأتى المدين بالمال، فأسلمها لصاحبها فى الحال).

وكان بما جبل عليه هؤلاء من نزعة الشر وجلب المتاعب، رأوا أنه عار عليهم أن يأتوا لأمر عنه يفتشون، وبالخزى والخيبة يخرجون، فقالوا للشيخ ﷺ (إنك أحرزت سلاحا بدون ترخيص، وأنه لا بد أن نقودك إلى الشرطة) فقال لهم الشيخ ﷺ (ما لهذا أتيتم؟، وما لتلك البندقية جئتم؟) فقالوا: (إنها مخالفة ولو كانت على سبيل المصادفة)

فأخذوا الشيخ إلى نقطة الشرطة، وظن الحاسدون أنه لا نجاة للشيخ ﷺ من هذه الورطة، وأن ما حاكه ذلك اللعين من تدبير قد نجح، وحسب الحاقدون أنه خطب قد فدح، فامتلأت أنفسهم بالسرور والفرح.

وما علموا أن رجال الله في حجر حضرته وأنهم في كفالته وعليهم يغار ولا يتخلى عنهم بنصرته.

وما أن وصل ﷺ إلى نقطة الشرطة حتى اجتمع الناس حوله ينظرون أمره، فرحب به الضابط وأفسح له صدره وقال: (إنه لا يعلم عنه إلا خير سمعة، وأن هذا كله هراء، والشيخ مما رمى به براء)، ولكن تنفيذا للأحكام: جعل الشيخ يبيت في النقطة ليلته، وسمح بالمبيت لكل من معه، ومن رغب صحبته، وأحضروا له الفراش، وكان كلهم له سُمّار، وفي الصباح أخذ الشيخ ﷺ إلى مركز بنها لإتمام الأمر فخلى سبيله بكفالة مالية، وما سجن الشيخ أو أهين، وما حدث شيء مما كان يتوقعه ذلك المجرم الأثيم.

ثم حددت جلسة لتلك القضية، وانتظر الجميع لها مختلف الأحكام، فمن كان مريدا للشيخ أو محبا رجا نصرا له على العدا، ومن كان نافسا حاقدا تمنى له الشر والردى.

وجاء ذلكم اليوم وامتلأت قاعة المحكمة بالقوم، وعندما نودى على الشيخ قام فخفقت القلوب لذلكم المقام، وترددت الدعوات، وكثرت إلى الشيخ النظرات، فاشرأبت إليه الأعناق، وحبست أنفاس الأصحاب والرفاق، وكان مما يثير الدهش والعجب ويلفت النظر، أن رأى كل من حضر مجذوبا في ساحة المحكمة يسير، ومعه عكازته، وعليه طرطور طويل وينادى (يا أيها القاضي احكم بالعدل) ثم يخرج إلى الشارع ويمر بنوافذ المحكمة ضاربا بعكازته الأرض قائلا (أيها القاضي احكم بالعدل)، وفي ذلك الحين كان بعض المريدين قد أخذه حال عظيم فجعل ينادى ويقول (يا أهل الله) ثم يقول مرة أخرى (يا رجال الله) (يا أبا الحسن يا شاذلي) (يا الله أدرك وليك القاضي ولا تشمت به الأعادي)، ثم أخذ القاضي يقلب فيما بين يديه من الأوراق، وينظر إلى من حوله من الرفاق ويقول هامسا (لا سند لما وجه إلى هذا الرجل من اتهامات، ولا دليل على تلك الادعاءات والأمر لا يعدو أن يكون من جملة المفتريات).

ثم توجه القاضى إلى الشيخ سائلا (ما شأن تلك البندقية، فقال الشيخ إنها ليست لى، فقال القاضى ولمن هى؟ قال إنها لفلان)، فجاء صاحبها وما أنكر ذلك الكلام؛ فقص أمام الكل قصته وبذا أفسد على الشاكى اللئيم خطته، وأبطل له دعوته، فحكم القاضى للشيخ بالبراءة، واعتذر للشيخ عما ساءه، فصفق له الحاضرون، وغص بريقهم الحاقدون، وحمل الشيخ على الأعناق؛ وسار فى موكبه بين الأحباب والعشاق، وركب سيارة خاصة مجللا بالحفاوة محاطا بالعزة والكرامة، ولقد صدق من قال: (رب ضارة نافعة)؛ إذ كانت هذه الحادثة لمكانة الشيخ معلية ورافعة، فقد انتشرت إثرها دعوته وعمت شهرته، وتقاطر الناس إليه وتسابقوا فى الإقبال عليه، وصدق من قال: (كم محنة فى طيها منحة).

حال الشيخ أيام المحنة

ومما يجدر بنا أيها القارئ الكريم أن نوقفك على حال الشيخ ﷺ فى هذه الأيام، وما ينبغى أن يكون عليه المؤمن عند المحنة والامتحان، فقد قابل بحمد الله هذا الابتلاء بالرضا والتسليم، وفوض أمره إلى الحكيم العليم، وكان مطمئن القلب كثير التضرع والدعاء للرب أن يخلصه من محنته، وينجيه من شدته، ويقول لخلص مريديه، ولبعض رواده وقاصديه، (نسألكم لنا صالح الدعوات فى الغيب والشهادات) متأسيا فى ذلك بمربيه سيد السادات ﷺ، فقد سأل من عمر ﷺ لما أراد الحج صالح الدعوات.

ومع أن الله تعالى قد أراه مناما البراءة والنصر والفوز والنجاة، وأجاب دعاءه فيما رجاه، كان يقول لنا دائما (لا أمان لمكر الله) وإذا قلنا له: وهل يتخلى الله عن أوليائه فى وقت الشدة؟ فيذكرنا سجن نبى الله يوسف ﷺ وما لقيه فى سجنه، وإذا ذكرنا له وعد الله لنخفف عنه شيئا من الاهتمام يقول وأين أنا من سيد الأنام ﷺ ؟ فقد وعد فى بدر بالعير أو النفير، ومع ذلك أخذ يدعو ربه رافعا يديه[1] حتى سقط عنه الرداء فأشفق عليه الصديق وكان به خير رفيق، فأخذ يطمئنه وبوعد الله يذكره، ولكن الرسول ﷺ نظر إلى مطلق علم الله، وأبو بكر واقف عند وعد مولاه، وشتان مابين

---

[1] روى ذلك مسلم والترمذى وأحمد وغيرهم عن عمر بن الخطاب ﷺ

الرسول والصديق، ولكن انظر فيما بعد، فقد خرج سيد الصديقين عن ذلك الحال وتجلى ذلك فيما عبر عنه بالمقال، (لا أمان لمكر الله، ولو كانت إحدى قدمى فى الجنان)، نعم قد خرج الصديق من حضرة التقييد إلى واسع حضرات علم الله المطلق، مقتديا برسول الله ﷺ فى نظره إلى مطلق علم الله، إذ القيد صفة العبد لا صفة الرب، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

هكذا يكون الكمال اطمئنان القلب وهدوء البال وانشغال بالأركان ولهج باللسان بما ألم فى الحال، وحقا "يبتلى المرء على قدر دينه، وأشدكم بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل"[1].

ابتلاء من لون آخر (مرضه الجثمانى)

ومما صادفه الشيخ من ألوان الابتلاء، ما اعترى جسمه من أمراض، منها ما كان فى أول أمره للتطهير والإعداد كالقروح والدماميل التى شملت جسمه كله والتى سبق الحديث عنها فى إرهاصات ولايته، وفى أخريات حياته استبدت به العلة ولازمته الأوجاع وتكاثرت عليه الأمراض، فمن ضغط الدم المرتفع إلى مرض الكبد والمعدة إلى تصلب الشرايين، وما أشد ما كان يعانى من آلامها، وغير ذلك مما لم يكن يسلم منه جسمه من أمراض، ويحس معه بالوهن، وثقل الحركة وضعف البنية، وكان لا بد له من كل ذلك؛ فإن كمل الرجال لا بد أن يكونوا على مثل هذه الحال.

كما ابتلى بمرض الأسنان، فخلع أسنانه إلا الثنايا بالفك العلوى وتولى الدكتور حسين عباس زكى عمل طاقم أسنان قدمه هدية لفضيلته، ولضعف لثته لم يستعمله إلا نادرا، ورضى بما اختاره الله له، كما أن إدمانه على القراءة ودوام الاطلاع فى كتب التفسير والحديث والفقه والتصوف وغيرها من الكتب الدينية، كان سببا فى ضعف بصره، مما اضطره إلى عمل عملية فى عينه ثم عمل عدة نظارات طبية تعينه على مواصلة الاطلاع.

---

[1] رواه أحمد فى مسنده عن سعد بن أبى وقاص ﷺ بإسناد حسن.

وكان مما ابتلى به أيضا ما أجرى له من عملية جراحية، على يد طبيب حاذق قريب له، يدعى الدكتور فوزى هاشم، أعد له العدة ونقل الأجهزة الطبية إلى منزل الشيخ وأجراها له فى حجرة نومه تكريما له، وكم تردد فى أمر تلك العملية، وما أقدم عليها حتى أقعدته العلة عن كثير من عباداته البدنية.

وزاده إليها مسارعة نصح الأطباء، وإشفاق الكل عليه من عواقبها، وفى اليوم السابع من إجراء هذه العملية، وقد تماثل للشفاء، سارَّ خلص المريدين قائلا: (من فضل الله على أن السيدة زينب رضى الله عنها قالت لى: الآن اطمأننت عليك، وسأتركك فى رعاية الله، بعد أن ظللت بجوارك منذ بدء العملية إلى الآن)، وكم كانت فرحته بهذه الرعاية من أهل البيت، وزاده سرورا أن عواقب العملية كانت حميدة.

هذا كله إلى غير ما كان يعانيه من أمراض المفاصل والساقين والقدمين، وخروج حرارة شديدة من قدميه، كنا نحسها حتى فى برد الشتاء، وكان لا يطيق أبدا وضع أى غطاء عليها، مهما كان البرد.

هذا إلى امتناعه عن كثير من الأطعمة لضعف معدته، واقتصاره أحيانا على تناول السوائل والقهوة وعسل النحل المذاب فى الماء لسهولة تعاطيه.

ولو أشفقنا عليه من قلة الغذاء يقول: (الحمد لله يكفينى هذا السائل من العسل فهو دواء وغذاء). ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل:٦٩].

الشيخ ينعى نفسه

وفى أخريات حياته توافد على بيته أكابر العلماء، من أمثال فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر، وفضيلة المرحوم الشيخ محمد أبو العيون وكيل كلية أصول الدين، والوعاظ والأئمة الذين لا يحصى عددهم، كما كان بيته كعبة لقصاده من علية القوم كأساتذة الجامعات، ورجال القضاء، والوزراء وفى مقدمتهم ابنه البار الدكتور (حسن عباس زكى) وإخوته السيد محمد عباس، والسيد عبد الفتاح عباس، والدكتور حسين عباس، ومن أساتذة الجامعات الدكتور أمين عبد الله، ومن مديرى

المؤسسات السيد عمر مرعى وغيرهم كثير ممن هم على نمطهم ومشربهم، وكم كانت فرحة عامة المريدين بهذا لظهور شيخهم بين هؤلاء السادة، وإقبال الناس عليه، وتجاذبهم إياه إلى بيوتهم قصد التبرك به والحظوة بمدده، وقام بين المريدين اختلاف فى وجهات النظر، إزاء هذه الظاهرة، فمنهم من تطاول عنقه فرحا بذلك.

وهناك من أبناء الشيخ من تنبأ بقرب رحيل الشيخ ونهاية حياته، عندما رأى هذه النعم تترادف، وعمت دعوة الشيخ وذاعت، وأصبح للشيخ فى كثير من البلاد مريدون كل واحد منهم يعتمد عليه فى الإرشاد وله من المذاقات والمشاهدات ما لا يعلمه إلا الله.

وبدأت حدة عداء الناس له تخف، وكان هؤلاء المريدون الحريصون على بقاء الشيخ معهم كلما رأوا كثرة العربات والسيارات عند منزل الشيخ لزيارة كثير من الأغنياء والسادة له ﷺ يقولون (كنا لا نحب ذلك، كنا نريد الشيخ لنا طويلا، نحن نريده دائما بيننا، فهذا الظهور يؤذن بالرحيل) وكثر التهامس بين المريدين فى ذلك، فلما كثر تهامسهم قال الشيخ لهم (ما هذا؟ وفيم تتهامسون وبم تفرحون؟ ألا تعلمون أن فى ذلك الظهور إيذانا بنهايتى، فما تم شىء إلا وبدا نقصانه).

ولقد رأيتنى مرارا أقرأ فى نومى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ وتعلمون أن هذه السورة نزلت تنعى إلى الأمة رسولها، مؤذنة بانتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ولما قرأها على الصحابة فرحوا بالفتح والنصر، ولكن عمر ﷺ سأل ابن عباس عن هذه الآية فقال: (أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم)[1].

تأثر ودهشة

دهش المريدون، حين سمعوا الشيخ ﷺ يتحدث عن قرب انتهاء حياته، واستبعدوا انتقاله إلى الحياة البرزخية بهذه السرعة، وبهذه المفاجأة ورجوا ربهم أن ينسأ له فى عمره، وأن يطيل حياته معهم، وأن يأخذ من أعمارهم ويمد فى عمره، والله على كل

---

(١) روى نحو ذلك البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما.

شيء قدير، وسبب هذه الدهشة، أنهم يعتقدون من قلوبهم أنه لهم بعد الله ورسوله أعظم سند وأقوى عضد وأكبر عون وخير ملاذ فى هذه الحياة.

وقد تحدث ﷺ فى أمر رحيله مرة أخرى فى ليلة من ليالى زيارته لمولانا الإمام الحسين ﷺ فأثر ذلك فى قلوب المخلصين من أبنائه، وحاروا كيف يعيشون بعد أن تغرب عنهم شمس شيخهم، ويغيب عن أعينهم نجم هدايته، وهم لا يسيرون إلا بنوره وهديه، ولا يعملون إلا بتوجيهه وإرشاده، ولا يرتعون إلا فى بحبوحة فيضه وإمداده، ولا يتفيئون إلا فى ظلال كرمه وإنعامه.

ولكن هل فى ذلك الأمر من حيلة إنها أقدار وآجال ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ايونس:٤٩] إلا أن بعض المريدين ممن يعز عليهم أن يتركهم شيخهم فى وهج صحراء هذه الحياة وهو لهم الظل الظليل والنبع الصافى، والكافل لهم والمرشد والدليل والآخذ بيدهم من كل شدة، وهو لهم خير عدة، فراح كل يدير النظر ويفكر، ماذا يعمل؟ فقام أحد المريدين وقال: (وهبت لك من حياتى يا مولاى خمس سنوات راجيا قبولها) فصمت الشيخ ﷺ ولم يرد وساد سكون، وتطلعت العيون، كأنما تقول وماذا يكون؟ وكنت أجلس بجوار الشيخ ﷺ فقلت: (سيدى وأنا وهبت لكم سنتين من عمرى امتدادا لحياتكم وأكون سعيدا إذا توجهما الله بالقبول) فأسكتنا الشيخ عن الخوض فى هذا الأمر، وسادت فترة صمت طويلة، أمرنا بعدها بالانصراف إلى مخادعنا، وأصبح الصباح فأتممنا الزيارة وعدنا إلى بلادنا.

ومضى على ذلك مدة، وفى يوم من أيام الجمع خرج الشيخ ليؤدى صلاة الجمعة فى مسجد بنى هاشم فى شبلنجه، وبينما يدعو الشيخ ربه بين الخطبتين كما هو مألوف وأنا بجواره أدعو كذلك، وكنت أسر فى دعائى بقبول هدية السنتين لشيخى، والشيخ لا يسمع، وبعد أن أتم دعاءه، التفت الشيخ إلى وقال هدئ من روعك يا عبد الجليل وطب نفسا فقد قبل الله منك هديتك وضم الله إلى عمرى سنتين ليس غير.

وليس هذا بعجيب أو غريب (يمحو الله ما يشاء ويثبت) فقد سبق أن قلنا أن لله علما مطلقا وآخر مقيدا، وحضرة إطلاق وحضرة تقييد، فالإطلاق بالنسبة لذاته، والتقييد بالنسبة لمخلوقاته، وقضاء مبرما وقضاء معلقا، ولقد ذكر ابن سعد فى طبقاته

الكبرى الجزء الأول قال: حدثنا زيد بن أسلم عن أبى صالح عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، ثم جعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصا من نور، ثم عرضهم على آدم فقال: إى رب من هؤلاء؟، قال (هؤلاء ذريتك) فرأى رجلا منهم أعجبه نور ما بين عينيه، قال إى رب من هذا؟ قال هذا رجل من ذريتك فى آخر الأمم يقال له: داود، قال (إى رب كم عمره؟ قال: ستون سنة قال: فزده من عمرى أربعين سنة) قال: (إذن تكتب وتختم ولا يتبدل) قال: (فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت) قال: أولم يبق من عمرى أربعون، قال الملك: أولم تقطعها ابنك داود، قال رسول الله ﷺ :(فجحد فجحدت ذريته) (١).

وفى رواية فرأى فيهم رجلا يزهر قال إى رب، أى بنى هذا؟ قال ابنك داود، قال: فكم عمره؟، قال ستون سنة، قال إى رب زده فى عمره، قال : لا إلا أن تزيده أنت من عمرك، قال: وكان عمر آدم ألف سنة، قال: إى رب زده من عمرى فزاده أربعين سنة، وكتب عليه كتابا وأشهد عليه الملائكة، فلما احتضر آدم آتته الملائكة لتقبض روحه فقال: (إنه قد بقى من عمرى أربعون سنة) فقالوا: (إنك جعلتها لابنك داود) قال: إى ما فعلت، فأنزل الله الكتاب وأقام عليه البينة، ثم أكمل الله عز وجل لآدم ألف سنة وأكمل لداود مائة سنة، نسأل الله تعالى أن يقبل منا أعمالنا، ويرضى عنا شيخنا، ويذكرنا دائما، ويهدينا ويهب لنا من فضله وجوده ومنه إنه سميع مجيب.

كيف انتهت حياته ﷺ

كثيرا ما حدث الشيخ المخلصين بقرب وفاته ونهاية حياته، ومما عرفناه عنه أنه كان يكثر من ذكر الموت والانتقال إلى الآخرة فى منتصف شوال من كل عام حتى عيد الأضحى، فلعله كان يلفت نظرنا الى أن رحيله فى مثل هذه الأيام إذ انتقل فى منتصف ذى القعدة، وكان عقب حديثه عن الموت يختمه بقوله ربما أفارقكم هذا العام فكانت

---

(١) حديث صحيح رواه الترمذى والحاكم وابن حبان وغيرهم عن أبى هريرة ﷺ .

قلوبنا تخفق فرقا من هذا الأمر، ولكن فى سنتيه الأخيرتين ترك هذا، فلذا نسينا هذا الأمر وما تحدث فيه بعد.

ولكن قد رأى الأصفياء من أبنائه أن شيخهم أوشك على الرحيل هذا العام فقال أحدهم: (لقد رأيت فى عصر يوم من أيام رمضان من السنة التى انتقل فيها أن الشيخ قد وضع فى نعش ملتفا بعباءة حجازية، مخرجا يده من نعشه وهو محمول على الأعناق وأخذ يلوح بها فى الهواء ثم سار موكب الجنازة إلى الموقع الذى أقيم به الضريح الآن ووضع النعش، وكان إذ ذاك أرضا زراعية وقت الرؤيا، ثم قال المريد الرائى لأحد إخوانه فى المنام، وكان عمدة بلدة مجاورة يا عمدة هات الخفراء ليحرسوا النعش حتى نبنى للشيخ هنا قبرا ونقيم عليه قبة) فقام المريد من نومه مذعورا وأخفى الرؤيا عن شيخه استحياء منه أياماً، وبعدها بمدة كان ذلك المريد يجلس مع شيخه ولم يكن معهم أحد، وأخذ الشيخ يلوح لمريده بقرب رحيله، فوجد المريد الفرصة سانحة ليقص رؤياه عليه.

فقال الشيخ ﷺ(إنها رؤيا صادقة، إلا أنه لن يحدث إن شاء الله فى النعش خوارق حسية أبدا، لأنها شهوة نفس وبقايا رعونات بشرية، لا تكون لِكُمل الرجال).

(يا بنى أأجلس لله أكثر من ثلاثين عاما، ثم تكون هناك بعد لنفسى رعونات ولم أتخلص منها، لن يكون ذلك إن شاء الله) قالها مقالة الواثق المطمئن المعاين المشاهد لما سيكون.

وهكذا شأن كمل الرجال لا فرق عندهم بين ما هو الآن وما هو آت، فالمعلومات والحوادث وكل ما سيكون وسيجرى على مر الأيام، كل ذلك حاضر لديهم، وحسبك حديث حارثة فقد تخطى الزمان والمكان، ورأى ما سيكون حادثا الآن، فرأى أهل الجنة فى الجنة يتنعمون... إلخ. مع أن منهم من هو حى وقتئذ ومنهم من سيولد فيما بعد.

فانظر رعاك الله بعين قلبك إلى مثل هذا يسترح فؤادك وإياك والشك، وصدق الشيخ فيما قال، وفعلا تحققت رؤيا المريد كاملة ما عدا الحركة التى رآها من يد الشيخ وهو فى نعشه، فقد انتقل ﷺ بعدها بشهرين تقريبا، ولم يكن مسجده ولا ضريحه قد بنى

ودفن الشيخ فى مقابر الأسرة ضمن مقبرة البلد العامة فى حراسة الله ورعايته، إلى أن هيأ الله له الانتقال إلى ضريحه ومسجده الذى يحمل اسمه بعد نحو سنة من وفاته فى حفل جامع حضره الوزراء والوجهاء وجميع الإخوان والأصدقاء والأعداء، وكان يوما مشهودا نتحدث عنه فى مكان آخر من هذا الكتاب إن شاء الله.

دليل آخر على نعيه نفسه :

ولقد قال الشيخ لابنه الأكبر من صلبه الأستاذ (سليمان) وهو مسافر إلى (دسوق) حيث يعمل مفتشا هناك (يا سليمان لقد رأى السيد حسن عباس زكى فى منامه أنى سأموت قريبا والعلم عند الله، وإن كان ما قاله موافق لما عندى) قال لابنه ذلك لعله ينتبه، ويملأ عينيه من النظر إلى أبيه فسوف لا يراه بعد.

وانظر حكمة الشيخ ﷺ ونظره إلى علم الله المطلق فقال: (والعلم عند الله) إذ يمحو الله ما يشاء ويثبت.

وهذا لا شك أدب نبوى كريم، وبعد هذا المقال سلّى ولده الحبيب لديه بأشياء أخر لئلا يقع فى نفسه ألم الفراق من الآن، ويؤثر عليه فى سفره وغربته، وضاحكه ولاطفه ودعا له بالسلامة وانصرف، ولكن سليمان قال: كنت لا أصدق أن أبى سينتقل قريبا بهذه السرعة، وعادة الإنسان دائما يبعد عن نفسه كل خاطر يسوءه فى المستقبل ولا يحب أن يفكر فيه، إذ التفكير نفسه فى مثل هذا مؤلم وشبحه مخيف، والإنسان عادة يهرب من كل ذلك، وفعلا انتقل الشيخ ولم يره ولده بعد ذلك.

وحين علم بنبأ وفاته جاء على عجل والدموع تملأ عينيه، والحزن يحز فى نفسه، والأسى يمزق نياط قلبه، وأخذ يتلوى من ألم اللوعة، وتتصاعد أنفاسه بالأنات والزفرات، على أب رحيم به وبالناس أجمعين، وكانت حياته خيرا وبركة للكل، وأمنا ورخاء للجميع.

وإذا كان الله يمن برفع البلاء والعذاب عن أمة من أجل صالح منها، ويرسل القطر ويخصب الأرض ببركة أوليائه، فكيف بخاصته وأصفيائه.

وليس ولده وحده هو الذى كان لا يتطرق إلى باله انتقال فضيلة الشيخ ﷺ فجأة، فكنا جميعا لا نفكر فى نهاية شيخنا، والحكمة يعلمها الله سبحانه كنا نستبعد هذه النهاية ونسينا هذا الأمر نهائيا بعد هذا الذى حدث كله، وفى غمرة هذا النسيان، وفى بحبوحة نعمة الشيخ ووارف ظله ورعايته فوجئنا بالخبر اليقين، لقد انتقل الشيخ إذ لم تكن هناك مقدمات لوفاته كمرض أو اعتكاف عن المريدين، وفى ظهر يوم الأحد الموافق ١٥ من ذى القعدة سنة ١٣٨٣هـ شعر بمرض لم يكن بالجديد عليه إلا أنه زاد قليلا عما اعتاده عن ذلك، وفى صلاة العصر صلى معنا كعادته، وجلس بعدها بين المريدين، إلا أنه كان يشعر بوطأة المرض عليه، فكنا نراه يرفع يديه معا إلى أعلى متألما دون أن ينطق بشىء، ونلحظ على وجهه التأثر، وقبيل المغرب بساعة ذهب الألم وكأن لم يكن، وجلس يحدثنا كعادته، وذهب إلى دورة المياه استعداد لصلاة المغرب.

وعند الوضوء أراد أحد المريدين أخذ يده ومعاونته فأبى ودعا له، وأحضر له فى حجرته طست وإبريق، وتسابقنا جميعا لصب ماء الوضوء له ومساعدته فى تشمير ذراعيه، فامتنع ودعا ابنته الصغرى (نفيسة) فجاءت وساعدته على تشمير ذراعيه، وصبت ماء الوضوء له ودعا لها، ولعل هذا لحكمة لتنال (نفيسة) بركة دعاء والدها، وبحمد الله تحقق لها كل ما دعا به، فتزوجت من عالم واعظ شريف النسب أكرم عشرتها وأحسن معاملتها وعرف قدرها، وحفظ مكانة أبيها فيها، وكان هذا آخر وضوء له صلى به المغرب والعشاء.

ثم جلس بين المغرب والعشاء يسامر جلاسه، حتى أنه كان يداعب بعض المريدين، إذ عرض عليه ما كتب على بعض الأدوية التى كان يتعاطاها بلغة أجنبية ليقرأها فأخفق فى قراءته، فقال له الشيخ (كيف تعلمت الإنجليزية وغيرها، ولم تستطع قراءة اسم هذا الدواء).

وكأنه بذلك يريد أن يخفى علينا أمره، ونسينا ما حدث له من مرض حتى لا نفكر فى نهايته المحتومة التى يعرف ويتيقن أنها الليلة لأمور شاهدناها منه وأدركناها فيما بعد، وفسرنا بعض أعماله التى لم يعتدها من قبل إذ رأيناه بعد أن خفت حدة المرض قبيل المغرب، وجدناه يجلس أمام (دولابه) ويخرج علبة من الصفيح ويضع فيها نقودا

كانت فى حافظته، وأودع نقودا أخرى فى ظرف خاص بتبرعات المسجد المزمع إنشاؤه، وكنا عزمنا على شراء أسمنت بمبلغ خمسة وعشرين جنيها مصريا، وكانت فى حافظته ونام بها فأخرجها فى ساعته الأخيرة من حافظته ووضعها تحت وسادته وجدناها بعد وفاته، ولم نجد فى حافظته سوى قرش واحد، وكأنه بهذا العمل يريد أن يبعد مال الورثة عن حصيلة المسجد، ولا يدعنا فى حيرة وشك، فوجدنا الأمور كلها مرتبة، كل شىء فى مكانه ولقى ربه، وليس فى جيبه شىء من حطام الدنيا.

وأيضا كان من عادته أن يتناول طعام العشاء مع أهله بعد انصراف المريدين، وفى هذه الليلة قبل صلاة العشاء بنصف ساعة طلب ما أعد له من عشاء فأحضره أحد المريدين وكان مرقا، فأشار الشيخ عليه بوضعه فى كوب ثم شرب ما استطاع منه، وحمد الله على ذلك، وقبيل العشاء بدقائق أراد الصلاة وقال لنا: (أنا سأصلى وحدى لأذهب إلى دورة المياه)، وصلاها قبل وقتها بدقائق، وهذا جائز عند بعض المذاهب الكبيرة، فأجازها الشافعى ﷺ كما هو مذكور فى مذهبه.

وحينما قام ليصلى طلبنا منه أن يصليها جالسا لما به من إرهاق، فقال: (أخاف ألا تقبل)، وصلاها من قيام وبعد صلاته ذهب إلى دورة المياه، إلا أن الإرهاق كان باديا عليه، ثم أذن للصلاة، وصلينا وخرجنا بعد أن اتخذ الشيخ مكانه للنوم على فراشه المعتاد وسلمنا عليه وقبلنا يده وهو مضطجع لم ينم، فدعا لنا وكان سلام وداع، وذهبنا إلى بيوتنا ولا شىء يخالج نفوسنا بأمر الشيخ.

وفى منتصف ليلة الإثنين الموافق ١٦ من ذى القعدة عام ١٣٨٣ هـ الموافق ٣٠ من مارس ١٩٦٤ م جاء إلى منزلى (عبد الجليل) أحد أبنائه نسبا (كمال) وأفجعنى بالخبر فذهبت إلى بيت الشيخ توا فتحسسته وتيقنت انتقاله لربه ومفارقته للحياة، فقبلته وودعته وأسدلت عليه غطاءه، ثم توليت إبلاغ إخوانى فى منازلهم فجاءوا مسرعين وقالوا لى: (إننا لا نصدق أن الشيخ روحه فارقت جسده، ولعلها إغماءة) فقلت: (إنا لله وإنا إليه راجعون) ثم قلت: (دخلت على الشيخ وتحسست جسمه فتيقنت انتقاله، فقبلته وخرجت).

ثم أبلغت النبأ لأبنائه المريدين فى جميع البلاد وفى مقدمتهم ولده السيد/ سليمان إذ كان فى دسوق حيث يعمل، فاكترينا سيارة خاصة ذهبت إليه وأحضرته وأسرته، فجاء بعد بزوغ الشمس بقليل، ثم أبلغت حبيبه الأول العزيز عليه السيد/ حسن عباس وما أن كلمه نجل أحد المريدين فى المسرة الساعة الثالثة صباحا، وقيل له: (واحد من شبلنجة يكلمك) فرفع السماعة وقال: (هل انتقل الشيخ؟) قالها قبل أن يعلمه ذلك النجل فرد عليه وقال له: نعم.

ثم علمنا من السيد/ حسن عباس بعد أن الخبر كان عنده قبل أن يكلمه فى المسرة، فقال حينما كنت أقرأ وردى ليلا سمعت من يقول إن الشيخ انتقل إلى رحمة الله، فحينما كلمتمونى فى المسرة لم يكن الأمر غريبا على.

وهكذا كانت نهاية حياة شيخنا ﷺ، فكان رجلا والرجال قليل، عرف الله فقام بما له من حق وواجب فأداه قصد رضاه، وعرف الدنيا فمال عنها ولم تنل منه ولم ينل منها غير ذكر مولاه والعمل ابتغاء وجه الله، وما علمنا أنه تمنى أن يكون ذا منصب أو جاه، وما ركن لأهلها ولا غره زخرفها ومتاعها، بل سخر منها وأعرض عنها (يا دنيا مرى على أحبابى، ولا تحلولى لهم).

الإعداد لتشيع جنازة الشيخ

وفى الصباح تجمع أبناؤه فى (شبلنجة) وأخذوا يرتبون لتشييع جنازته ويعدون العدة لذلك.

وكنا نرغب ألا يقام له مأتم إذ الكل مصاب والكل يعزى، ولكن حرصا على التقاليد والعرف، وتوقع مجيء زملاء ابنه السيد سليمان أقمنا مأتما إرضاء لأسرته.

وبرغم تعجيل الدفن اتباعا للسنة، وعدم انتظار أحد، كان مشهد جنازته يعد بالمئات وكان الكل يأتى ويجلس يعزى صاحبه.

وما عرف الناس فضله إلا بعد رحيله، وما أفاقوا من غفلتهم إلا بعد انتقاله، وقد رثاه بعض العلماء من أبنائه بكلمات ما فاه بها قط، وعلمنا أنها كانت من فيض الله

عليه ومن واردات الحق إليه، وكأنما كان يشاركنا الملأ الأعلى فى ذكر مآثره ومكرماته، وبحق كانت هذه الكلمات لها وقع على القلوب، وأثر بالغ فى النفوس وكادت تنخلع لها أفئدتنا فكانت تجمع بين السلوى والأسى فكنا نحس أن الشيخ حاضر معنا بجسمه نلمسه وننظره، إذ كانت الكلمات صورة صادقة معبرة عن الشيخ بحق.

وإذا أمعنا النظر ودققنا الفكر لم نر الشيخ، فتكاد هذه النظرة تفتت أكبادنا وتقطع نياط قلوبنا فكنا نلوذ بتلك الصورة المعبرة عنه لنخفف وقع الألم علينا، ونغمض أعيننا عن نظرة الفراق، ثم إذا استبد بنا الأسى والحزن رجعنا إلى الله واحتسبنا هذا عنده وسألناه الصبر والسلوان.

لحظاته الأخيرة

بعد دفن الشيخ بيومين جلسنا مع الست زوجته، وهى أمنا جميعا نواسيها وتواسينا، فقصت علينا ما كان فى لحظاته الأخيرة، قالت: (كان من عادته رضى الله عنه، ورحمه أن ينام وحده، وفى هذه الليلة حرصت أن أنام معه، إذ وجدت دافعا يدفعنى إلى النوم فى حجرته، فنمت بجواره من غير أن يحس الشيخ بى، وحاولت أن أنام كعادتى، فلم يطاوعنى النوم، حتى منتصف الليل إذ أحسست يده تسقط من على صدره إلى الأرض فى صوت مسموع، ولم أحس بحركة أخرى قبل تدل على الوفاة من صوت أو حشرجة، أو تردد أنفاس مما يأتى من الموتى، فناديته فلم يرد فأضأت المصباح، وكان من عادته أن يطفئه قبل أن ينام عملا بالسنة، فنظرت فى وجهه، ووضعت يدى على صدره، وأذنى على فمه لعلى أشعر بحياة، فعرفت أنه فارقها الآن فقط، لأن جسمه ما زال دافئا، ووجدت تحت وسادته هذا المبلغ (٢٥) خمسة وعشرين جنيها وأظن أنه وضعه عند نومه وليست عادته)، فالتفتنا إلى بعضنا، وقلنا لعله المبلغ الذى كان مزمعا شراء أسمنت به للمسجد، فعلمنا أنه أخرجه ليبعده عن مال الورثة.

فقل لى بربك من كان يعالج أمر الموت، كيف يكون ذاكرا لمثل هذا؟ ثم تقول السيدة زوجته: ثم ناديت ولدى (كمال) وقلت له: قل للشيخ عبد الجليل (أبى قد انتقل إلى جوار ربه)، وهنا أقول حينما أخبرنى كمال بالأمر تذكرت قولته ﷺ لبعض مريديه (ستظلون فى لهوكم ولعبكم وبعدكم عن مجلسى حتى يأتى إليكم من يقول

لكم فى بيوتكم إن عبد الفتاح مات). وقد حدث فعلا ما قاله الشيخ، فإن بعض أبنائه المريدين والنسبيين كانوا فى لهوهم سادرين وفى نعمة الشيخ أيام حياته لاهين وفى ظلال رغد بره وعطفه غافلين، ولا يكثرون من مجالسة الشيخ والتردد عليه، حتى انتقل إلى رضوان الله تعالى، فندموا على تفريطهم وتحسروا على إهمالهم، ولا فائدة فى الندم بعد فوات الفرصة.

وهكذا لا تُعرف أقدار الرجال إلا بعد رحيلهم، ولا تدرك قيمة النعمة إلا بعد زوالها، (وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر).

أهل الخصوصية لا يعرف فضلهم إلا بعد رحيلهم

الخصوصية نور الحق سبحانه يشرقه الله فى قلوب خواص عباده المقربين بعد تطهيرها من كل ما سواه، ويخلع عليهم من كمالاته، ويحليهم بصفاته، فتراهم ملتزمين للكمال يظهر عليهم فى أعمالهم وأقوالهم ما تحار فيه العقول وتذهل له الأذهان.

وعلامة إشراق النور فى القلوب ترك الاختيار والتدبير، والاكتفاء بنظر الله العلى الكبير الواحد القهار، ولو أشرق نور اليقين فى قلب عبد لرأى الآخرة حاضرة لديه، والدنيا مكسوفة الأنوار بادية العوار، كما رآها حارثة ﷺ، وكما أخبر عن حقيقة إيمانه، فقد روى عن أنس ﷺ أنه قال: (بينما رسول الله ﷺ يمشى إذ استقبله شاب من الأنصار، فقال له النبى ﷺ: (كيف أصبحت يا حارثة؟). قال: (أصبحت مؤمنا بالله حقا) فقال له: (انظر ما تقول، فإن لكل قول حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟)، فقال: (يا رسول الله: عزفت نفسى عن الدنيا (أى أدبرت وهربت) فأسهرت ليلى، وأظمأت نهارى، فكأنى بعرش ربى بارزا، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها، فقال له: (أبصرت فالزم عبد نور الإيمان قلبه) [1].

---

(١) رواه البيهقى فى شعب الإيمان والبزار كلاهما عن أنس بن مالك ﷺ والطبرانى فى الكبير عن الحارث بن مالك ﷺ

وكما رأى الآخرة أيضا معاذ بن جبل ﷺ حين دخل على النبى ﷺ وهو يبكى، فقال: (يا رسول الله، ما أصبحت صباحا قط إلا ظننت ألا أمسى، وما أمسيت قط إلا ظننت ألا أصبح، ولا خطوت خطوة قط إلا ظننت أنى لا أتبعها بأخرى، وكأنى أنظر إلى كل أمة جاثية، كل أمة تدعى إلى كتابها مع نبيها وأوثانها التى كانت تعبد من دون الله، وكأنى أنظر إلى عقوبة أهل النار، وثواب أهل الجنة، فقال ﷺ: (عرفت فالزم)[1].

فهذان مثلان من أمثلة أهل الخصوصية وممن أشرق نور الإيقان فى قلوبهما، وشرح الله صدرهما، فرأيا ما كان آجلا عاجلا، وما كان آتيا واصلا، فإذا تكامل إشراق نور الإيقان غطى وجود الأكوان، ووقع العيان على فقد الأعيان، ولم يبق إلا نور الملك الديان.

وهكذا قد سمعنا من أحد المريدين أن شيخنا ﷺ قبيل انتقاله أسر له قال: (يا بنى لى مدة طويلة والجو أمامى متغير، والمناظر مختلفة جدا، وكأنى لا أعيش هنا، وأحس بما لم أحس به من قبل، وتمر أمامى صور كثيرة، من مشاهد الآخرة وتتنوع وتتشكل، وأرى أماكن ومنازل ما رأيتها من قبل ولا أستطيع وصفها، وأصبحت قانعا بعلم الله فى كل شيء، والدنيا أمامى مكسوفة ولا تساوى فلسا).

ويفهم من هذا أنه ﷺ صار بالحال التى ذكرها حارثة ومعاذ رضى الله عنهما ، وأنه يرى ما لا يراه غيره وإن كان يعيش معهم، كما كان يعيش معاذ وحارثة مع الصحابة ورأيا ما رأيا، ولا شك أن هذه مذاقات ومشاهد لا يدركها إلا أهلها.

وليست الخصوصية مقصورة على ما سبق، بل هى خصائص ومميزات متنوعة، يخص بها الله من يشاء من عباده.

---

(٢) رواه أبو نعيم فى الحلية و العقيلى فى الضعفاء الكبير والأصبهانى فى طبقات المحدثين عن أنس بن مالك ﷺ.

وانظر إلى إمام الصديقين أبى بكر ﷺ (الذى لو وزن إيمانه بإيمان هذه الأمة لرجح)[1]، ومن الأئمة عمر الذى نزل الوحى مصدقا له فى كذا موضع من القرآن، والذى قيل فيه، (لو كان هناك أنبياء بعدى لكان عمر منهم). فعمر حسنة من حسنات أبى بكر رضى الله عنهما. أبو بكر الذى قيل فيه (من أراد أن ينظر إلى ميت يمشى على وجه الأرض، فلينظر إلى أبى بكر) [2]، أبو بكر الذى كان يشم من فمه رائحة الكبد المشوية شوقا إلى الله وهيبة منه، ثم هو بعد هذا كله يقول: (لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدمى فى الجنة).

فمثل هذه الخصوصيات يكرم الله بها عباده المخلصين الصديقين، وتتنوع الخصوصية بتنوع درجة صاحبها حسب مقامه ومكانته من ربه، ولكن خصوصيته على أى حال تشعر بتمام قربه وبكمال وصله، وأنه من الله وبالله، وأنه عنده فى مقعد الصديقين أولى الكرامة والمكانة التى لا يعلمها إلا المانح الفياض الوهاب لذوى الألباب.

هذا قليل من كثير مما لأهل الخصوصية من منزلة عليَّة، وأنَّى لنا معرفة هؤلاء وقد اختصهم الحق بفضله، وأرخى عليهم كنفه وأسبل عليهم ستره لأنهم عرائس حضرته وعليهم يغار.

وخلاصة المقال أن هؤلاء الرجال لا يقدر قدرهم إلا من اجتباهم، ولا يعرفهم غير من أخلصهم له واصطفاهم واختصهم بفضله ومنحهم من سره، وبحمد الله كان لشيخنا خصوصيات من الله كبرى، عرف بعض مريديه منها النذر اليسير، أما حقيقته فلا يعلمها إلا العليم الخبير.

---

[1] رواه الإمام أحمد فى كتاب فضائل الصحابة من قول عمر بن الخطاب ﷺ وأخرجه ابن حجر فى المطالب العالية عن عمر أيضا.

[2] ذكره الشعرانى فى كتاب العهود المحمدية (١/ ٢٣٠)

ولهذا كان أسفنا شديدا وألمنا كبيرا بتقصيرنا فى حق شيخنا وفى حق أنفسنا، وطول أملنا الذى فوت علينا الكثير من الفرص التى لو عرفنا قدرها لاغتنمنا منها كريم آدابه ونلنا الكثير من مذاقاته ولدونا بعض ما أفيض عليه من علوم ومعارف التى لو وجد لها حملة ونقلة لملأت المجلدات، وإن ما دون له ﷺ فى قسم المعارف من هذا الكتاب ما هو إلا نزر يسير وقطرة من بحر كبير.

وهذا شأن أهل الخصوصية لا يعرف قدرهم إلا بعد رحيلهم، متأسف عليهم بعد انتقالهم، حين يطلب من غيرهم ما كان يوجد عندهم، فلا يظفر الطالب بشيء فيذكرون وبذكرهم تتنزل الرحمات، ويعض المفرطون أصبع الندم على ما مضى، ولات حين مندم.

وهذا يفسر لنا معنى الوارد، الذى أتى للشيخ ﷺ ونصه: (أهل الخصوصية مزهود فيهم أيام حياتهم، متأسف عليهم بعد مماتهم، وهناك يعرف الناس قدرهم حين لم يجدوا عند غيرهم ما كانوا يجدونه عندهم ولات حين مندم).

معرفة الولى أصعب من معرفة الله

أولياء الله أهل كهف الإيواء قليل من يعرفهم، ولذا يقول سيدى أبو العباس المرسى ﷺ: (معرفة الولى أصعب من معرفة الله فإن الله معروف بكماله، وأنى لك تعرف مخلوقا يأكل ويشرب مثلك، فإذا أراد الله بك خيرا عرفك بوليه، وبما يطويه عنك من وجود بشريته ويشهدك وجود خصوصيته، فيا سعادة من وفقه الله لمعرفة وليه، وإليه هداه فآمن به وسلم قياد نفسه إياه، ولقد صدق من قال: (إن لله رجالا من نظر إليهم سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا) ورؤيتك الولى خير لك أنت من رؤيتك لله، لأن الولى الوارث لرسول الله ﷺ لا يتمثل به الشيطان، وأنت تفيد منه قدر استعدادك وحاجتك، والشيطان قد يتمثل بالله، وولى الله يمدك بالأنوار وأنت ببشريتك، وقد لا تطيق أنت ببشريتك أنوار رؤية الله مباشرة وإلا أحرقت سبحات وجهه سبحات وجهك، فالولى مكثف للأنوار الإلهية، ولذا قال بعض الشيوخ لتلميذه (رؤيتك لأبى يزيد، خير لك من رؤيتك الله، سبعين مرة)، إذ الوصول إلى الله كما قالوا: وصولك إلى العلم به، وتحقيق الوصول

إليه وصولك إلى عارف به، فإن أوصلك الحق إلى عارف به وأطلعك على سر خصوصيته فقد وصلك إليه، فلا طريق إلى معرفة الله إلا عن طريق من عرف الله.

فإذا أحب الله عبدا قاده إلى صحبة ولى من أوليائه، ورزقه الاعتقاد والتصديق بطريق القوم والإيمان بكلامهم، لأن التصديق بهم وبكلامهم ولاية صغرى، والفهم فى كلامهم ولاية كبرى، أما من قال مثل قولهم فذاك النجم الثاقب الذى لا يدرك، وقد قال سيدى أبو الحسن ﷺ: (من لم يعتقد فى علمنا هذا يخشى عليه سوء الخاتمة والعياذ بالله، ومن لم يتغلغل فى علومنا مات مصرا على الكبائر وهو لا يعلم).

حكمة إرسال الرسل من البشر

ولعلنا من هنا نلمس حكمة إرسال الله الرسل للخلق من جنسهم وهو قادر على إبلاغهم دعوته وتعريفهم رسالته، ولكن لعدم المجانسة والإلف بين القديم والحادث، خصوصا وأن البشر ما زالوا فى أغلفة بشريتهم وفى أصداف إنِّيتهم وحجب صفاتهم الآدمية، فلا يتأتى لهم التعرف على واردات الحق ومعرفته، ومعرفة أحكام الشرع التى يحبها الله أو التى يتعبد الله بها عباده دون مبلغ لهم تلك الأحكام، ويقوم على رعايتها ويرعى حرمات الله فى الخلق؛ لذا أرسل الله الرسل إلى الخلق مبشرين ومنذرين، لكمال علاقة الرسل بربهم وفهمهم عنه لخروجهم من عالمهم النفسى ومن طينتهم البشرية إلى عالمهم الروحى، ولاتصافهم ببعض صفات الحق، وتحليهم بالمحامد من الصفات.

بذا كانت صلتهم بالله أقرب، وأيضا هو أعدهم لهذا واختصهم من بين سائر جنسهم ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤] فالرسول بهذا يخاطب الخلق ويعالجهم على قدر حالهم، ويتدرج معهم حسب عقولهم، "أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم" ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم:٤]. فالرسول يعرف كيف يصل إلى نفوسهم، ويوصل إليهم دعوة ربهم، ولما بينهم من الجنسية الآدمية والعلاقة البشرية يمكن الإفهام والإرشاد، والنفع والاقتداء بالرسول فى سلوكه وسائر حركاته، فيعمل الخلق كما يعمل، ويعالجون الأمور كما يعالجها "صلوا كما رأيتمونى أصلى" ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل:٤٤] فهو المبين

والموضح والمشرف على تنفيذ أحكام الله ومراقبته وحفظ حدوده، ثم هو يخلصهم تدريجيا مما يعيبهم ويفسد عليهم عبادتهم حتى تكون أعمالهم لله خالصة، فيكون لهم بها المنح والدرجات والوصول والقرب، لذا كانت الأسوة بالرسول ضرورية ووجوده بين الله والناس أمرا محتما لصلاح البشرية وهداية الآدمية.

وكذلك الولى وارث لصاحب الرسالة وله عند الله المكانة وله من مورثه صفاته وكمالاته، فالتعرف عليه والاقتداء به تعرف على الله ووصول إليه، إذ لا يمكن للبشر القرب من الله أو الوصول إليه وهم عنه محجوبون، تحجبهم نفوسهم، فكانت الحاجة ماسة إلى معلم ومرشد يرفع الرانات ويجلو عن القلوب أصداءها وينير العقول لهدى ربها حتى تتعرف عليه وتهتدى إليه.

القسم السادس

كراماته وآثاره

الولي– الوسيلة– الكرامة

الولي:

من والى الله بالطاعة، أو تولاه الله بالرعاية والتأييد، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة:٥٦] ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

والولى يكون ذكرا أو أنثى، فالسيدة مريم رضى الله عنها نص القرآن على أنها صديقة، والصديقية وحدها ولاية لا نبوة، أما النبوة والرسالة فلا بد أن يكون صاحبهما ذكرا حرا، ولما كنا بصدد ذكر الولاية والنبوة والرسالة، يجرنا الحديث إلى القول بأن النبوة والرسالة أرفع من الولاية بلا شك، وما يلغز به بعض الصوفية قائلا: (الولاية أرفع من النبوة) فمراده ولاية النبى أرفع من نبوته وكل نبى ولى وليس كل ولى نبيا، كما أن كل رسول نبى وولى وليس كل نبى رسولا، فولاية الرسول أرفع من ولاية النبى، ونبوة الرسول أرفع من نبوة النبى، وما أثير حول مسألة سيدنا موسى ﷺ وسيدنا الخضر ﷺ وهو ولى علم سيدنا موسى وهو نبى، فما علَّم الخضر سيدنا موسى عِلْمَ الأحكام والشرائع التى يتعبد الله بها عباده وعليها مدار الثواب والعقاب، وحجة الله على العباد وهذه مهمة الرسل، وإنما علم الخضر سيدنا موسى ﷺ ما هو متعلق بالكائنات مما لا يترتب عليه ثواب أو عقاب، ولا حجة فيه لله على العباد، ولا يعدو ما أخبر به سيدنا الخضر عن كشف مغيبات وتنفيذ أقضية ومقدرات، وليست هذه مهمة الرسل وإنما رسالتهم تنحصر فى الهداية والإرشاد والدلالات، وفى الوقت نفسه كان سيدنا الخضر فى هذا الوقت يعبد ربه على شريعة سيدنا موسى ﷺ، والمزية لا تقتضى الأفضلية.

الولى يوحى إليه إلهاما أو مناما والنبى كذلك، وقد يأتيه الملك ببعض الأوامر الشرعية الخاصة به التى هى من باطنية رسالة رسول ذلك الوقت، أما الرسول فيجمع

كل أنواع الوحى؛ النفث فى الروع والإلقاء فى القلب والإلهام والملك ويأتيه الملك فى عدة تطورات، وما يوحى به إلى الرسول شريعة ربما لا يكون إلا بالوحى الملكى، أما ما يوحى إليه فى خاصة نفسه فلا يشترط فيه الوحى الملكى، وإنما يبلغ به بأى صورة من صور الوحى، قال ﷺ: "أوتيت القرآن ومثله معه"[١] و"أعطانى ربى ثلاثة علوم: علم أمرت بإبلاغه للناس، وعلم خيرت فيه، وعلم فى خاصة نفسى" الحديث بالمعنى.

الوسيلة:

كالوصيلة وزنا ومعنى؛ وهى تلبية طلب الولى عند الله وإجابة دعوته وقبول شفاعته فيمن توسل به ورجاه وتوجه به إلى الله.

فما التوسل إلا طلب من الله تعالى مع الاستشفاع إليه بمن يحب أو بما يحب، فالله جل شأنه هو المقصود بالعطاء، والمطلوب منه وحده لا سواه.

والاستشفاع بالأنبياء والأولياء ثابت لا خلاف فيه بين أهل الدين ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

والوسيلة التى كثر حولها الجدل فجحدها عن عمد المنافق وأنكرها عن غير قصد الجاهل، لا فرق بينها وبين الشفاعة التى أجمع أهل العلم على جوازها؛ حيث قد ثبت عن أبى داود أن الصحابى قال لرسول الله ﷺ "إنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك"[٢] فأقر النبى ﷺ الاستشفاع به إلى الله، ونهى عن الاستشفاع إلى أحد من الخلق بالله تعالى.

وقال الله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] فظهر لك أيها القارئ لهذه الآية أن الأمر بابتغاء الوسيلة أمر عام يشمل الوسيلة بالأحياء

---

[١] رواه أحمد فى المسند و ابو داود فى السنن والطبرانى وغيرهم عن المقدام بن معديكرب ﷺ.

[٢] رواه أبو داود و الطبرانى و البزار و غيرهم عن جبير بن مطعم ﷺ .

والأموات والأعمال الصالحات، والقول بتخصيص الآية أو تحديدها بالعمل الصالح فقط أو بالحى دون الميت أو بالنبى دون الولى إنما هو تحكم فى دين الله لا مبرر له وشذوذ لم يقبله جمهور المسلمين من قبل، ولن يقبله من بعد المحقون المنصفون.

وإليك الأدلة من السنة النبوية القاطعة بعموم آية الوسيلة وعدم تحديدها بنوع ما من أنواعها، نذكر هذه الأدلة والرد على من أنكرها دون تجريح أو تقبيح أو ابتداع أو تكفير.

أولا: إن الوسيلة ليست قاصرة على العمل الصالح، لأن كلمة اتقوا الله متضمنة الأمر بالعمل الصالح إذ معناها: الخوف من الله الذى يثمر العمل الصالح كما أن التقوى نفسها عمل صالح من أعمال القلوب.

وعلى هذا يكون المراد من ابتغاء الوسيلة بعد الأمر بالتقوى طلب الوصول إليه والقرب منه، ولا يكون ذلك إلا بالتقرب من الواصلين المقربين منه تعالى الذين رضى عنهم، وعرفوا طريق الوصول وقد وصلوا وتقربوا فعلا منه، فطلب القرب من هؤلاء هو طلب القرب من الله، ولذا أعقبها بقوله ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ [المائدة:٣٥] أى سبيل القرب والوصول إليه ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة:٣٥] بالقرب منه تعالى وهو غاية ما يسعى إليه المؤمن.

ثانيا: فقد توسل الضرير الحى بالنبى ﷺ أيام حياته، فقد روى الترمذى بسنده عن عثمان بن حنيف، أن رجلا أعمى أتى النبى ﷺ فقال (إنى أصبت فى بصرى فادع الله لى) قال: (اذهب فتوضأ وصل ركعتين ثم قل: اللهم إنى أسألك، وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة، يا محمد إنى أستشفع بك على ربى فى رد بصرى) ثم قال ﷺ (وإن كانت لك حاجة فافعل مثل ذلك).

ثالثا: فقد توسل الحى بالميت، حيث أخرج الطبرانى[1] فى معجمه الصغير، عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف: أن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان ﷺ، فى حاجة له فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر فى حاجته، فلقى ابن حنيف فشكا إليه ذلك (أى بعد وفاة النبى ﷺ وبعد خلافة أبى بكر وعمر) فقال له عثمان بن حنيف (وهو الصحابى العالم بدين الله)إيت الميضأة فتوضأ ثم إيت المسجد فصل فيه ركعتين، ثم قل (اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبى الرحمة يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربى فيقضى حاجتى) قال: (وتذكر حاجتك حتى أروح معك) فانطلق الرجل يصنع ما قيل له، ثم أتى باب عثمان بن عفان فأجلسه معه على الطنفسة (الوسادة) فقال: ما حاجتك؟ فذكر حاجته، فقضاها له، ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتى كان الساعة) وقال (ما كانت لك من حاجة فاذكرها) ثم إن الرجل خرج من عنده فلقى عثمان بن حنيف فقال له: (جزاك الله خيرا ما كان ينظر فى حاجتى، ولا يلتفت الى حتى كلمته) (يريد أن ابن حنيف كلمه وتوسط له عند عثمان)، فقال عثمان بن حنيف، والله ما كلمته، ولكنى شهدت رسول الله ﷺ أتاه ضرير، فشكا إليه ذهاب بصره فقال له النبى ﷺ: (أو تصبر؟) فقال: (يا رسول الله إنى ليس لى قائد وقد شق على) فقال ﷺ: (ايت الميضأة فتوضأ، ثم صل ركعتين، ثم ادع بهذه الدعوات) قال ابن حنيف (فوالله ما تفرقنا، وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل، كأن لم يكن به ضر قط).

وهذا نص صحابى قطعى صريح فى صحة التوسل بالموتى، وقد صحح هذه القصة البيهقى والمنذرى والهيثمى.

علماء الأصول والتوسل بالموتى

وقد أجاز علماء أصول الدين التوسل بصالح الموتى،وفى مقدمتهم الإمام فخر الدين الرازى فى كتاب (المطالب العالية) وسعد الدين التفتازانى فى شرح (المقاصد)

---

[1] أخرجه الطبرانى والنسائى وأحمد والحاكم والبيهقى وغيرهم عن عثمان بن حنيف رضى الله عنه.

والشريف الجرجانى فى حاشية (المطالع) وفى مناسك الإمام أحمد بن حنبل رواية أبى بكر المروزى فى التوسل إلى الله تعالى بالنبى ﷺ فى قبره، وهناك صيغة طويلة للتوسل به ﷺ عند الحنابلة ذكرها أبو الوفاء بن عقيل فى (التذكرة) فلا خلاف عند كبار الحنابلة على ذلك.

وتوسل الإمام الشافعى بالإمام أبى حنيفة مذكور فى أوائل (تاريخ الخطيب) بسند صحيح، وفى الرسالة القشيرية ما نصه (قبر معروف الكرخى ترياق مجرب)، وفى كتاب (تاريخ بغداد) للحافظ الخطيب، أن الحسن بن إبراهيم أحد أئمة الحنابلة قال (ما أهمنى أمر، فقصدت قبر موسى الكاظم، إلا سهل الله تعالى ما أحب) وفى عمدة المريد قال سيدى زروق (مدد الميت أقوى من مدد الحى، وكرامة الله لأوليائه لا تنقطع بموتهم).

وقد قال شيخنا القاضى ﷺ حينما سئل عن توسل الحى بالميت: (إن الولى أيام حياته كانت روحه فى قفصها كالسيف فى غمده، فلما ينتقل إلى الحياة الأخروية تنطلق روحه وتتجرد كتجرد السيف عن غمده، ويصير كتيار جارف لا يقيده الزمان ولا المكان، وهو مع كل من يطلبه فى أى مكان ما دام الطالب أو المتوسل صادقا).

الرد على منكر التوسل بالموتى

ومن العجب أن كثيرا من علمائنا يجيزون التوسل بالصالحين الأحياء وينكرون التوسل بالموتى الصالحين، وكيف يتأتى ذلك منهم؟ مع أن المعلوم عقلا وشرعا أن حياة الموتى عند الله أتم وأكمل من حياة الأحياء على الأرض كما قال الشيخ زروق، وكما قال شيخنا ﷺ.

وقد قال الله تعالى ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] وما ورد فى الصحاح من اجتماع أرواح الأنبياء بالنبى ﷺ ليلة الإسراء واحتفالهم المقدس به، وما حدث بينهم وبينه ﷺ من أخذ ورد فى المعراج من سماء إلى سماء؛ مما يدل على أن حياة الأرواح بعد الموت موصولة بأهل الأرض.

قد صح أن النبى ﷺ وقف على المشركين الذين قتلوا يوم بدر وسحبوا إلى القليب، وقد جعل يحدثهم، فلما سئل عن ذلك قال: (ما أنتم والله بأسمع منهم)[1].

فإذا كان المشركون بعد الموت يسمعون كما يسمع أحياء المسلمين فى الحياة فكيف يكون شأن موتى المسلمين؟ قال الله تعالى (فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[آل عمران: ١٧٠] ، ففى هذه الآية دليل على اتصال الحى بالميت بالقدر الذى يريده الله له.

ثم إننا نخاطب الرسول ﷺ فى صلاتنا خطاب الحى الحاضر فنقول: (السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته) كما نقول (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) كما شرع لنا خطاب الموتى عند زيارتهم وإلقاء السلام عليهم شأن الأحياء الحاضرين بالفعل.

وقد صحت أحاديث[2] سماعه ﷺ صلاة المصلين عليه ورده عليهم، وذلك كله دليل قاطع على علاقة الأحياء بالموتى وعدم انقطاع الصلة بينهم كما يزعمه الماديون المسلمون.

وكيف ينكر العاقل المؤمن بالله وكتبه ورسله أن حياة الناس وجميع المخلوقات انتهت بانتقالهم إلى الدار الآخرة وقد أخبرنا القرآن الكريم وحدثنا عن عذاب آل فرعون فى القبور ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:٤٦] ومقتضاه أن يكون هناك نعيم قطعى يعرض الصالحون عليه غدوا وعشيا عدلا من الله وفضلا، ولا يكون العذاب والنعيم إلا للمدرك الحى، ثبت من ذلك أن الكافر حى فى قبره يسمع ويرى ويحس ويتألم، فكيف لا يكون النبى أو الولى حيا فى قبره يسمع ويرى بالنعيم الأخروى ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

---

[1] متفق عليه عن ابن عمر و عن أنس بن مالك ﷺ.

[2] منها ما رواه ابن ماجه عن أبى الدرداء ﷺ بإسناد جيد والبيهقى فى شعب الإيمان.

ومما يؤيد علاقة الأحياء بالموتى، وصحة التوسل بهم فى الحياة البرزخية

أولا: (حديث عرض الأعمال) على الرسول ﷺ فقد أخرج البزار فى مسنده عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ "حياتى خير لكم، تحدثون ويحدث لكم، فإذا أنا مت كانت وفاتى خيرا لكم، فما وجدت من خير حمدت الله، وإن وجدت شرا استغفرت لكم" ولا يعارضه حديث الحوض، فإن أعمال أمته الإسلامية تعرض عليه، أما من حيل بينهم وبين الشرب من الحوض وأخذوا إلى جهة النار فهم من المنافقين والمرتدين الكفار.

ثانيا:ومما يدل على أن الأموات أحياء فى قبورهم، ويحسون بما عليه الأحياء من طاعة أو معصية، قول رسول الله ﷺ "لا تؤذوا أمواتكم بمعاصيكم"[1] يفهم من ذلك، أن أمواتنا يفرحون إن أطعنا الله ورسوله، ويتألمون إن عصينا الله ورسوله.

ثالثا: قوله تعالى ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء:٦٤] ففى هذه الآية حث الله الناس على التوسل برسول الله ﷺ حيث ربط سبحانه وتعالى قبولهم عنده باستغفاره لهم ﷺ، فقبولهم عند الله مشروط باستغفارهم، ثم باستغفار الرسول ﷺ لهم بعد ذلك.

فوجب بدلالة النص أن نسعى إلى حضرة الرسول ﷺ ونستعين به على إزالة ما أحاط بنا من رجس وحاق بنا من فسوق، وما دمنا متمسكين بهذه الوسيلة وملتزمين باب الرسول وأعتابه فلا يمسنا بعد ذلك سوء، ولن يلحقنا بعد ذلك وصب ولا نصب، بدليل قوله فى ختام الآية ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء:٦٤].

---

[1] أخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول من حديث عبد الغفور بن عبد العزيز عن أبيه عن جده مرفوعا.

والتوسل بالرسول ﷺ باق ما بقيت السماوات والأرض وما بقى الناس وما بقى القرآن، وتقييد ذلك بحال حياته تحكم لا يقبله العقل، وقد قرر المحققون أن الأرواح بمفارقتها للبدن وخروجها من سجن البشرية تكون فى حالة أقرب إلى ربها، وانطلاق أكبر مما كانت عليه فى الدنيا، ورجاء أعظم فى نفعها من الأرواح المحبوسة ببشريتها والمشغولة بالمحافظة على آدميتها، وما الموت إلا انتقال من حياة مقيدة إلى حياة مطلقة، ومن حياة بدنية إلى حياة روحية.

ولقد ثبت أن السلف الصالح كانوا يتوسلون بالموتى الصالحين، وما روى عن العتبى[1] وهو من شيوخ الإمام الشافعى ﷺ، يدلنا دلالة قاطعة على أن الناس فى خير القرون كانوا يذهبون إلى الرسول ﷺ، ويتوسلون به إلى الله وذلك بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، فقد روى عن العتبى هذا أنه قال (كنت جالسا عند قبر النبى ﷺ، فجاء أعرابى وقال (السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول فى كتابه العزيز: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ وقد جئتك مستغفرا من ذنبى، مستشفعا بك إلى ربى، ثم بكى وقال البيتين المشهورين:

يا خير من دفنت فى القاع أعظمه ** فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه ** فيه العفاف وفيه الجود والكرم

قال العتبى: (ثم استغفر الأعرابى وانصرف، فغلبتنى عيناى فرأيت النبى ﷺ فى النوم فقال: (يا عتبى إلحق بالأعرابى، فبشره بأن الله قد غفر له) فخرجت فلم أجده)، فالأعراب والملوك والأئمة من السلف كانوا يتوسلون بالرسول والأولياء أحياء وأمواتا.

التبرك بآثار الصالحين وقصد الأماكن المباركة

إن التبرك بآثار الصالحين جائز، فقد نقل الحافظ فى (فتح المتعال) بسنده أن الإمام أحمد﷛ أجاز تقبيل قبر النبى ﷺ وغيره تبركا، كما تبرك الإمام أحمد أيضا بالشرب من

---

[1] روى ذلك البيهقى فى شعب الإيمان عن أبى حرب الهلالى و ابن عساكر فى معجمه عن العتبى

ماء غسيل قميص الإمام الشافعي ﷺ، وقد روينا سابقا أن الإمام الشافعي كان يتبرك بزيارة قبر الإمام أبي حنيفة مدة إقامته بالعراق، وفى صحيح السيرة أنه كان مع خالد بن الوليد ﷺ شعرة من شعر النبى ﷺ يتبرك بها، وما شهد بها مشهدا إلا نصره الله، كما رواه البيهقى وأبو يعلى وآخرون.

وفى صحيح مسلم وأبى داود والنسائى وابن مالك عن أسماء بنت أبى بكر أنها أخرجت جبة طيالسية وقالت: (كان رسول الله ﷺ يلبسها، فنحن نغسلها للمرضى فيستشفى بها) وفى طبقات ابن سعد عن ابن قسيط والعتبى (كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا خلا المسجد جسوا رمانة المنبر التى تلى القبر بميامنهم، أى تبركا وتوسلا، ثم استقبلوا القبلة يدعون).

وروى عن عبد الرحمن بن عبد القادر، أنه رأى ابن عمر ﷺ واضعا يده على مقعد النبى ﷺ من المنبر، ثم وضعها على وجهه (أى تبركا)، كما روى عنه أنه كان يضع يده على رمانة المنبر مكان يد رسول الله ﷺ ويمسح بها وجهه.

كذلك ثبت أن بلالا مرغ خديه على عتبات الحجرة النبوية باكيا بين يدى الصحابة ﷺ، ولم يرد أن أحدا من الصحابة أنكر عليه، ولا شيء فى قصد الأماكن والمعالم التى يرجى فيها استجابة الدعاء والتوسل كالمساجد والأضرحة، لأنه شرع منصوص عليه كما حدث ليلة الإسراء، فلقد نزل الرسول ﷺ عن براقه، فصلى فى عدة أمكنة معينة، منها طور سيناء، ومولد عيسى ﷺ، ثم أن فى مشاهد الحج واختيار أماكن معينة فيه للدعاء والتعبد ونحوه أكبر دليل على ذلك.

وليس فيما ذكر آنفا ما ينافى الشرع أو يخالف قاعدة من قواعد الدين أو يجافى السنة فقد ثبت تبرك المسلمين بشعر النبى ﷺ ووضوئه وسؤره وملابسه حال حياة الرسول، وإقراره لذلك وعدم إنكاره له.

ولا شك أن ما فعله ابن عمر من وضع يده على رمانة المنبر، وتمرغ بلال وبكائه، تعبير صادق عن حب للرسول ﷺ أفعم قلوبهم واستولى على مشاعرهم وملأ جوانحهم، وترجمة صحيحة عن وجدهما وهيامهما بالمصطفى ﷺ، وللعشاق المولهين والمحبين

الوجدين تعبيرات عن العشق والوله والحب لا ينكره ذائق، ولا يجحده واجد، ومن ذاق عرف، فلم ينتقد ولم يعترض، وكل ما يبدو من المحبين إنما هو لإطفاء نار الشوق وإرواء قلب متعطش متشوق إلى محبوبه.

وأما ما روى من أن سيدنا عمر قطع شجرة البيعة، إنما كان لمنع الشر الذى كان لا يزال قريبا من القوم، ولم يكن أبداً لمنع التبرك الذى هو من تأكيد الإيمان بالله وقدرته؛ وهذه الفعلة من عمر كانت مجرد اجتهاد فى حكم ومن باب سد الذريعة.

انتفاع الميت بعمل الحى

وكما ينتفع الحى ببركة الميت وسره، فكذلك الميت ينتفع بعمل غيره من الأحياء، قال رسول الله ﷺ: "إذا مات الميت انقطع عمله، إلا من ثلاث"[1] الحديث، فهذا الحديث يثبت انتفاع الميت بعمل غيره وهو الابن، فإن الأب غير الابن وقد ثبت انتفاع الأب بعمل ابنه.

والخلاصة: إن انقطاع عمل الميت لا ينفى بركته، ولا انتفاعه بعمل الغير، وأقرب الأدلة على ذلك صلاة الجنازة والصدقة والحج عنه والدعاء له: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [الحشر: ١٠] وهو نص فى انتفاع الميت بعمل الحى.

الوسيلة نوع من البرزخية

الوسيلة نوع من البرزخية كان عليها نظام الرسالة، فالرسول ﷺ برزخ بين الله وبين الناس، يأخذ من الله ويوصل إلى الناس بما يلائمهم ويناسبهم.

فالمتوسل به برزخ بين العبد الذى قد لا يؤهله عمله إلى الطلب من الله، لأنه لا يقدر الله قدره، ولا يستطيع أن يعلن عن أمره وشأنه، فيوصله المتوسل به إلى الله ويبلغ

---

[1] أخرجه الترمذى بسند صحيح عن ابى هريرة ﷺ.

حاجته إليه، لأنه أعرف بالله ويحسن الدخول عليه، وسؤاله حاجات المتوسلين به (أبلغونى حاجات ذوى الحاجات) فقد يعجز بعض الناس عن إبلاغ الله أو الرسول ﷺ حاجته، حيث لا يستطيع معرفة زمان أو كيفية إيصال حاجته إلى الله تعالى، ولا يحسن الدخول عليه، وفى توسله بالرجل الصالح اعتراف منه بالتفريط فى حق مولاه، حتى إنه لا يرى نفسه أهلا لأن يسأل الله مباشرة، فتوسل إليه بمن يحب من الصالحين.

شبه يتذرع بها المعترضون:

١- طلب المتوسلين من الرسول أو الولى مباشرة، بأن يقولوا نسألك بفلان، والرد على هذه الشبهة أن نقول للمعترضين: إن الصيغة المشهورة فى التوسل: (اللهم إنى أسألك بك أو بأسمائك أو ببركة فلان) فإذا قال المؤمن: (أسألك بفلان مباشرة إنما يريد التوسل إلى الله ببركته أو منزلته عند الله) فكلامه كما يقول علماء اللغة (على حذف مضاف) ملحوظ فى قلب المتوسل.

٢- قراءة الفاتحة لفلان الحى أو الميت، إن قراءة الفاتحة لفلان من الناس لا شىء فيها، لأنها توسل بالقرآن لم يمنعه أحد، ولم يقل أحد إنه بدعة، كما أن نفس حركة القراءة للفاتحة عمل صالح، والتوسل لله بالعمل الصالح لم يمنعه أحد بل منصوص عليه، كما فى حديث الغار والصخرة، رواه البخارى ومسلم، كما أن الفاتحة أساس كل صلاة، ورقية رسول الله ﷺ، فالفاتحة لفلان حيا كان أو ميتا، توسل إلى الله بشىء من كتاب الله وكتاب الله كلامه الأزلى فكأنه توسل بصفة من صفات الله.

كما أننا نقرأ الفاتحة فى صلاة الجنازة على الميت اتباعاً للرسول ﷺ فى ذلك، والفاتحة متى جازت قراءتها على الميت فى نعشه، فقد جازت قراءتها عليه فى القبر، فإن قراءة الفاتحة فيها نفع للحى والميت.

وإذا كان قرص الأسبرين يعتقد فيه النفع، أفلا يكون النفع فى آيات قرآنية يرددها العبد ولها صورة صالحة تقف أمام الله وترجو لصاحبها الخير من الله، فالصلاة لها صورة تدافع عن صاحبها، والفاتحة لها صورة تسأل الله الخير لصاحبها، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟

بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة:٤٥] فأمرنا الله بالاستعانة بالصبر والصلاة وهى من أعمالنا الحادثة المدخولة التى يعلم الله مدى صحتها أو بطلانها، أفلا يكون التوسل بمقام الولى وجاهه من الله أولى؟ وإذا كان العبد المسلم يستعين فى كشف ضره وإزالة ألمه بالطبيب غير المسلم، أفلا يجوز أن يستعين العبد فى كشف ضره بمن هو إلى الله أقرب؟.

٣- قال المعترضون: إن الوسيلة وساطة، والله ليس فى حاجة إلى وساطة فنقول لهم: إن الوسيلة ليست وساطة كما يقول المرجفون، لأن الوسيلة كما قلت سابقا هى طلب من الله مع الاستشفاع إليه بمن يحب، لأن المتوسل يعتقد أنه ليس أهلا لأن يطلب من الله مباشرة؛ وأما القائلون بالوساطة، فقد بين الله فى القرآن الكريم كفرهم بها، حيث يطلبون من وسطائهم مباشرة ويرفعونهم إلى رتبة العبادة والفعل مع الله، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣] فانظر إلى قولهم: (ما نعبدهم) وانظر إلى قولهم: (ليقربونا) وتأمل، فقد أثبت الله تعالى فى العبارة الأولى، أنه يعبدونهم، وفرق كبير بين (نعبدهم) وبين (نتوسل بهم أو نستشفع بهم).

فالتوسل والاستشفاع غير العبادة لغة واصطلاحا وعقلا وشرعا، وكذا أثبت أن الكفر والشرك كانا بعبادتهم لوسطائهم، وفى العبارة الثانية أثبت تعالى أنهم عبدوهم ليقربوهم، فقولهم (ليقربونا) فيه إثباتهم قدرة الفعل والترك للمخلوقين، الذين اتخذوهم وسطاء فجعلوهم آلهة بيدهم الأمر من دون الله، ولا كذلك التوسل الذى هو طلب مباشر من الله انفرادا مع مزيد رجاء فى القبول بالتوسل والاستشفاع بمن له منزلة رفيعة عند الله، فلا مجال لمنع التوسل مستشهدين بهذه الآية السابقة لأنه مغالطة كبرى.

٤- قول المتوسلين (إن فلانا من أهل التصريف) ليس فى هذه العبارة ما يوهم أن فلانا هذا له فى الأمر مع الله شىء، لأنهم حين يقولون هذه العبارة وهم المؤمنون صدقا الموحدون حقا إنما يريدون أن فلانا هذا من أهل الوجاهة عند الله والقبول لديه، وأنه من أهل استجابة الدعاء سواء كان نطقا باللسان، أو توجها بالقلب، أو تحركا للإرادة،

وكنه الهمة فى حدود ما جاء فى الحديث القدسى الصحيح (ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه) [1].

وحديث (من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين) [2] أو كما قال ﷺ "رب أشعث أغبر ذى طمرين مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره"[3] وهو معنى قول السادة الصوفية: (إن لله عبادا إذا أرادوا أراد) وذلك ترجمة لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] فافهم، فالمراد بالتصريف هنا هو تفضل الله تعالى على عبده بإيقاعه تعالى للأمر كما سبق فى علمه القديم على مراد عبده الظاهرى، كما يجىء فى دعائه القولى أو توجهه القلبى أو تحرك إرادته الروحية؛ وذلك تنفيذاً لترتيب الأسباب والمسببات على مقتضى مافى اللوح وأم الكتاب .

فليس العبد مصرفا شيئا مع الله، ولكن الله تعالى يتفضل فيصرف الأشياء كما هى فى علمه على مراد أوليائه وأحبائه ظاهرا، أو أن الله تعالى يجعل عبده الصالح نفسه أداة تنفيذ من أدوات تنفيذ المراد الإلهى الأزلى الذى قد يظهر فى صورة مراد العبد البشرى.

ومثل ذلك أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله، وكان ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم، وهو ليس إلا عبدا أنعم الله عليه، وليس له من الأمر شىء ككل عبد، لكن الله جعل إرادة هذا العبد سببا عاديا فى سابق علمه، وجعل هذا العبد أداة لتنفيذ المراد الإلهى الذى انفعلت به إرادة العبد البشرية على مقتضى العلم القديم، ففاضت من عالم الغيب إلى عالم الشهود.

أو أن هذا خاص بالربانيين الذين هم على أقدام الأنبياء، فكل ما يصدر عنهم ليس منهم، فقد ذابت بشريتهم ونفيت إرادتهم، وبقيت روحانيتهم أثرا لقيامهم بالمحبوبية،

---

[1] رواه البخارى عن ابى هريرة ﷺ

[2] رواه البيهقى فى الشعب عن عمر بن الخطاب ﷺ

[3] رواه مسلم عن ابى هريرة ﷺ

كما جاء فى الحديث القدسى الصحيح (فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به إلخ الحديث) [1] ومعنى هذا تجرد الولى من كل شىء إلا من مظاهر انعكاس الصفات الإلهية عليه فتظهر شئونه كأنها منه، وما هى إلا من الله، وهو مقام ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص:٣٩]، وإليك ما يدل على أن وقوع المقدور قد يكون على يد شخص دون شخص ولا يشترط علو مكانته ورفعة مقامه، من ذلك ما روى أن سيدنا موسى عليه السلام لما خرج لسقيا قومه ناجاه الحق تعالى بما معناه لن تسقوا حتى يأتى عبدى (برخيا) ويطلب لكم السقيا، فانظر كيف لا يجاب طلب موسى ويجاب لعبد من أمته، فكأن هذا العبد أداة لتنفيذ مراد الله وسقيا القوم، إذ بهذا نعلم أنه فى علم الله كان كذلك فهو سبب وأداة وليس له مع الله شىء فى الإيجاد ولله فى خلقه شئون.

وهو أيضا معنى قول السادة الصوفية رضى الله عنهم على لسان الحق تعالى {عبدى أطعنى أجعلك ربانيا، تقول للشىء كن فيكون} أخذا من حديث {ما يزال عبدى} رواه البخارى وغيره.

وقد بين الله طريق الدخول إلى هذا المقام فقال ﴿كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران:٧٩].

٥- قولهم (مدد يا سيدى فلان) لا شىء فيه ولا غبار عليه، ولم يقدح أبدا فى عقيدة التوحيد للمتوسلين، لأنهم إما يطلبون المدد من الحى أو الميت، فطلب المدد من الحى معناه طلب دعائه لهم، وتوجه قلبه إلى الله لقضاء حاجاتهم، وتعلق همته بمسألتهم وذلك لما فيه من بركة صلاحه وتقواه وسره مع الله تعالى.

وطلب المدد من الميت الصالح معناه التوسل به إلى الله تعالى والاستشفاع به فى قضاء الحوائج، والاستمداد من مدد الله وسره الذى أعطاه، ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٢١].

---

[1] رواه البخارى عن ابى هريرة رضي الله عنه

وفى أول هـذا البحـث أثبتنـا أن التوسـل إلى الله بصـالح الأحيـاء والموتى لـيس معنـاه التوسل بالذات الشخصية من اللحم والدم والعظم والعصب، وإنما التوسل بما استودعه الله من سر وتوجه وهمة إلى غير ذلك من الطاقات التى لها آثار إيجابية مسلم بها علما ودينا، وتوجيها من الإنسان إلى الإنسان، أو منه إلى بعض الأكوان.

ولنضرب مثلا بالحسد، أو بالتنويم المغناطيسى، وأثرهما محسوس مقرر فى العلم والشريعة، فهذا شىء من بعض معانى المدد عند المحققين، فطالب المدد طالب خير من الله وملتمس منه مدده بوسيلة مشروعة.

٦- قال المنكرون للتوسل بالأموات الصالحين: توسل سيدنا عمر ﷺ بالعباس لأنه حى وعدل عن التوسل بالرسول ﷺ لأنه ميت، فقد ثبت فى صحيح البخارى عن أنس بن مالك أن عمر بن الخطاب استسقى عام الرمادة بالعباس عم النبى ﷺ فسقوا، وكان من دعاء عمر ﷺ (اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا) فيسقون.

والرد عليهم: أن سيدنا عمر ﷺ لم يستسق بسيد المرسلين، واستسقى بعمه العباس! ليس لأن الاستسقاء بالرسول بعد انتقاله غير جائز، وإنما سبب ذلك أن الاستسقاء عبادة بدنية، لا بد فيها من صلاة ركعتين سنة الاستسقاء ثم الدعاء من الإمام عقب صلاة الاستسقاء.

ولكون سيدنا عمر هو الإمام المشغول بإحياء سنة الاستسقاء من صلاة ودعاء لم يكن هناك وقت يتوسل فيه بالرسول وإنما توسل بالعباس عمه لوجوده معه، فلولا اشتغاله بهذه العبادة الدينية، لسارع وذهب إلى مسجد الرسول واستسقى برسول الله ﷺ، لا سيما وأن عمر يعلم علما جازما أن حياة الرسول الروحية أقوى من حياته البدنية أضعافا مضاعفة وأقوى أيضا من حياة الشهداء، فقد مات الرسول ﷺ شهيدا بسبب أكلة أكلها، ولقد كانت السيدة عائشة رضى الله عنها تعلم الكثير عن الحياة الروحية، فكيف بعمر المعروف بالمخاطبات الروحية، وخاطب سارية مخاطبة روحية وحذره من أعدائه مع ما بينهما من مسافات شاسعة. فقال: (يا سارية الجبل).

روى أن السيدة عائشة لما مات سيدنا عمر ودفن بجوار أبى بكر ﷺ، أرخت على وجهها الحجاب بعد دفن عمر، وكانت تذهب قبل ذلك لزيارة أبيها وسيد الوجود، سافرة الوجه لأنها فى حضرة أبيها وزوجها، فلما دفن عمر أرخت الحجاب، لأنها فى حضرة أجنبى.

فالقول بأن عدول عمر دليل على أنه لا يصح التوسل بالأموات لا دليل عليه، ومما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن سيدنا عمر لا يقصد بتوسله بالعباس عم النبى ﷺ عدم جواز التوسل بالأموات، أنه أقر بلال بن الحارث حينما جاء إلى قبر رسول الله ﷺ فقال بصوت مسموع سمعه عمر والصحابة (يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم هلكوا) [1] فأتاه رسول الله ﷺ مناما وأخبره أنهم يسقون، فذهاب هذا الصحابى إلى قبر الرسول، وطلبه من الرسول أن يستسقى لأمته فى خلافة عمر وفى حضرته دليل صريح على جواز التوسل بالأنبياء والمقربين أحياء أو ميتين، وأن التوسل ليس أمرا محدثاً كما يقولون، بل كان يفعله السلف الصالح فى خير القرون.

٧- يقول المعترضون: إن التوسل بالأنبياء والأولياء إشراك بالله لأنه لا يفترق عن اتخاذ الأصنام أولياء ولا عن عبادتهم من دون الله، ونحن نقول لهم أن القرآن قد خاطب المشركين عبدة الأصنام بقوله ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢] وحكى عمن اتخذ الأصنام شركاء لله فقال ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام:١٣٦] وحكى عنهم أنهم كانوا يعبدون الأصنام من دون الله فقال: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ [يونس:١٨] وحكى عنهم أنهم كانوا يتخذونها أولياء من دون الله فقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الشورى:٩].

والذى نلفت إليه النظر هو أن ما قص الله علينا فى شأن المشركين هل ينطبق على المتوسلين بالأنبياء والمرسلين؟ وهل يوجد فى المسلمين من يعتقد أن السيد البدوى مثلا

---

[1] رواه ابن أبى شيبة بإسناد صحيح عن مالك الدار (فتح البارى٢/ ٤٩٥ لإبن حجر)

نِدٌّ لله رب العالمين أو شريك له فى ملكه؟ وهل يوجد بين المسلمين من يعبد الولى من دون الله؟ وإذا كان الجواب قطعا هو بالسلب، وأنه لا يوجد أحد يعتقد هذا الاعتقاد بين المسلمين، إذن فما هو الوجه الذى بنى عليه المعترضون هذه الفرية المفتراة؟.

كلمة أخيرة

إننا لا نلزم الناس بما نحن عليه من التوسل بالأنبياء والأولياء، وحب أهل بيت رسول الله أجمعين، والاستشفاع بهم فى قضاء الحاجات والالتجاء إليهم فى المدلهمات، ولا نقبح ولا نكفر المعترضين علينا، ولا نحملهم على الاعتقاد بالوسيلة، وإنما كتبنا هذا البحث لنبين لمن أضله الهوى وأعماه الحقد، أننا لا نعتقد إلا ما هو مؤيد بالأدلة الشرعية والبراهين القطعية من الكتاب والسنة النبوية ولا ينكره العقل السليم، وإننا لنرجو لكل مسلم أن يهديه الله إلى حب الرسول الأعظم ﷺ والصالحين من أمته، وأن يعتقد فيهم النفع ودفع الضر بإذن من الله، فالكل فى قبضته، لعله ينال من فضلهم، ويحظى بمددهم فى الدنيا والآخرة إنه سميع مجيب.

كراماته ﷺ

الكرامة:

أمر خارق للعادة يظهر على يد من صلح من الناس واستقام سيره مع الله واتقى ربه في سره وعلنه، وصدقت عليه الآية الكريمة ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [يونس:٦٢، ٦٤].

وهذه الكرامة آية من آيات الله يظهرها على يد من اصطفاه من عباده، ليزداد بها إيمان المؤمنين وتقوى المتقين وقربى المقربين، والله لا يصطفى إلا من قام بحقوقه كاملة غير منقوصة، والكرامة للأولياء كالمعجزة للأنبياء إلا أن المعجزة فيها تحد، والكرامة لا يتحدى بها الولى، وإنما تظهر على يديه من غير تفعل، وربما كانت منه من غير أن يشعر هو بها، ولا يكون له فيها إرادة ولا اختيار.

وبعض العارفين يقول: قد تكون الكرامة من الولى على سبيل التحدي، وذلك إذا غلبه الحال، وكان مأخوذا عن عقله وحسه وشعوره وإدراكه فحينئذ لا يكون هو المتكلم بنفسه أو المتحدى بفعله، وعليه يكون ذلك الأمر الخارق ليس منه، وإنما الفاعل والناطق فيه هو الله فى صورة ذلك الولى.

وهناك أمر خارق للعادة يشبه الكرامة فى مظهره ويفارقها فى معناه ومصدره، فهو مجرد وسوسة من وساوس الشيطان، وتخيل من تخيلات النفس، تظهر على يد أناس تعددت مذاهبهم وعقائدهم، وفرق بين ما كان من الخوارق كرامة صادرة عن ولى عامل بسنن الشرع وآداب الطريق أكرمه الله بها وأعزه واختاره مظهرا لقدرته، وبين ما كان منها مجرد خارقة من الخوارق لا صلة له بالكرامة والولاية ظهرت على يد المغرورين الذين أضلهم الشيطان وأبعدهم عن العمل بالسنة والكتاب.

والميزان الذى توزن به كل خارقة تظهر للعين هو ميزان التقوى، فحيث لا تقوى لا ولاية، والتقوى معناها امتثال الأوامر واجتناب النواهى، أو كما قال أحد المحققين: هى ألا يراك الله حيث نهاك،ولا يفقدك حيث أمرك.

فالتقوى هى أساس الكرامة، ومصدر إشراقها الذى أشار إليه أبو العباس المرسى بقوله: (إن الأنوار الظاهرة فى أولياء الله إنما هى من إشراق أنوار النبوة عليهم).

بهذا بان أمر الكرامة، واتضح الفرق بين الكرامة وغيرها من الخوارق، وعليه لا إنكار ولا جحود لما ظهر على أيدى أولياء الله من خوارق، فإن إنكارها اجتراء صارخ على الواقع وعلى التاريخ وعلى كلام الله وعلى حديث رسول الله ﷺ، وعلى العقول السليمة التى سلمت بها فى الماضى والحاضر، فقد ظهرت الكرامة للأولياء ظهورا منذ كانت الحياة على كوكب الأرض، فيها مؤمنون صالحون متقون، ونصوص القرآن والحديث النبوى والآثار والمشاهد لذوى العقول والأبصار كل ذلك براهين صادقة وأدلة واضحة على الكرامة، وعلى سبيل المثال نذكر ما ورد فى القرآن الكريم:

١- قصة عرش بلقيس ونقله من اليمن إلى فلسطين فى طرفة عين على يد آصف وزير سليمان بن داود عليهما السلام، وهو ليس نبيا وإنما هو ولى من أولياء الله.

٢- قصة الخضر ﷺ مع موسى ﵇، وما فيها من خوارق ظهرت على يد عبد الله الخضر ﷺ وهو ليس نبيا، وإنما هو ولى من أولياء الله.

٣- قصة السيدة مريم- رضى الله عنها- حيث كانت توجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف، ولما رآها سيدنا زكريا ﵇ عجب إذ كان القائم بخدمتها ولا يدخل عليها سواه فقال: (قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ)[آل عمران:٣٧].

٤- قصة أهل الكهف الذين فروا بدينهم من الطغاة الظالمين، فآواهم ربهم وأجرى عليهم الخوارق العديدة، وهم ليسوا بأنبياء ولا مرسلين، وإنما هم من عباد الله الصالحين.

٥- ومن الحديث الشريف[١] قصة الثلاثة الذين آووا إلى غار فى الجبل، فانحدرت صخرة سدت عليهم الباب فلم يستطيعوا الخروج منه، وعجزوا عن رفعها فدعوا الله تعالى وتوسلوا إليه بصالح أعمالهم، فاستجاب الله لهم فانفرجت الصخرة، فخرجوا من الغار، فكان انفراج الصخرة عنهم كرامة لهم، وأمر خارق للعادة، لأنهم لم يستخدموا أى قوة حسية، ففيها وسيلة بالصالحات وفيها كرامة خارقة للعادات.

٦- وقصة[٢] الرجل الذى كان فى الصحراء وحده وسمع من يقول فى السحاب، اسق زرع فلان، فعجب الرجل إذ لم ير أحد فوقه ولا تحته، فهطل ماء السحابة فتجمع الماء وجرى فى مسيل فتبعه الرجل حتى وجد بستانا يدخله ماء تلك السحابة، ووجد رجلا قائما يعمل فيه، فسأله عن اسمه فوجده هو الاسم الذى سمعه من ناحية السحاب، فقال له: ما شأنك؟ قال هذا بستانى أقسم ثماره ثلاثا، ثلثاً فى سبيل الله، فأتصدق به على الفقراء، وثلثاً أطعمه أهلى، وثلثاً أنفقه على إصلاح ذلك البستان.

٧- ومن الآثار مقالة سيدنا أبى بكر ﷺ لابنته عندما حضرته الوفاة (إنما هما أختاك) ولم يكن له غير بنت واحدة وكانت زوجته حاملا فولدت أنثى- أصل الحديث عن عائشة زوج النبى ﷺ أنها قالت: إن أبا بكر الصديق كان نحلها جاد عشرين وسقا من ماله بالغابة، فلما حضرته الوفاة قال: والله يا بنية ما من الناس أحد أحب إلىَّ غنى بعدى منك ولا أعز علىَّ فقرا بعدى منك، وإنى كنت نحلتك جاد عشرين وسقا فإن كنت جددتيه واختزنتيه كان لك، وإنما هو اليوم مال وارث وإنما هما أخواك وأختاك فاقتسموه على كتاب الله قالت عائشة: يا أبت والله لو كان كذا وكذا لتركته وإنما هى أسماء فمن الأخرى؟ فقال أبو بكر (ذو بطن بنت خارجة أراها جارية) [٣].

---

[١] رواه البخارى عن ابن عمر ﷺ .

[٢] رواه مسلم و أحمد و غيرهما عن ابى هريرة ﷺ

[٣] رواه مالك فى الموطأ عن عائشة رضى الله عنها.

٨- ومقالة سيدنا عمر ﷺ وهو يخطب على المنبر بالمدينة، فرأى العدو يكاد يظفر بجيش المسلمين، وكان قائد الجند سارية، فقطع خطبته وقال: (يا سارية الجبل) فسمع سارية ومن معه من الجند بالشام قول عمر، والتجأ إلى الجبل، وكان فى ذلك النصر[1].

فهذه خوارق جرت على يد أولياء، وليسوا برسل ولا أنبياء.

وخلاصة القول فى الخوارق أن الخارق للعادة لا يكون كرامة يكرم بها من أتت على يديه إلا إذا كان صاحبها مسلما متمسكا بالشريعة المحمدية، يسير فى حياته على هداها ويطفئ غلته من رحيقها إذا أظمأته حوادث هذه الحياة، وكل من كان عليه للشرع اعتراض فهو مغرور مخادع.

فجميع الذين تظهر على أيديهم خوارق ولم يكونوا مسلمين، أو كانوا مسلمين ولم يكن سلوكهم سليما ولا خلقهم قويما، ولم يكن سبيلهم سبيل المؤمنين الصادقين المتقين، ليسوا بأولياء الله، ولا ما يصدر عنهم بكرامة، ولو مشوا على الماء وطاروا فى الهواء.

وأزيدك فى هذه المسألة توضيحا، أن كل من ادعى الولاية أو نسبت له، ولا يؤدى فرائض الله، ولا يجتنب المحارم، فليس بولى لله يقتدى به أو يلتفت إليه، لأنه ربما يكون وليا للشيطان.

ولو بلغ الرجل ما بلغ من الزهد والعبادة والعلم، وأتى ما أتى من الخوارق، ولم يكن مؤمنا بالله ورسوله ﷺ، فإنه ليس بولى أبدا كالأحبار والرهبان من علماء النصارى والنساك من الهنود أولئك ممن يمشون على النار وهى فى أشد حالات الاشتعال ولا تمسهم بسوء، أو الذين تلدغهم الثعابين والحيات ولا تؤثر فيهم وسائر المشركين والسحرة والكهان والذين يتناولون السموم ولا تؤثر فيهم.

---

[1] روى هذه القصة ابن عساكر و ابن الاعرابى فى كرامات الأولياء عن ابن عمر رضى الله عنهما.

ويضاف إلى هذا فى البعد عن الكرامات والولايات التحدث إلى الأرواح من إنس وجن، وسماع أصواتها ورؤيتها يقظة، والتراسل الفكرى وقراءة أفكار الآخرين.

وكذا العلاج الروحى وشفاء الأمراض حضورا وغيبة وإحضار الحاجات من أماكن بعيدة، وكذلك جميع التنبؤات التى تتحدث عن المستقبل المغيب، وعمل الطوالع وحساب الرمل ورصد النجوم، وكل ما يكون من ورائه إجابات الأسئلة عما يكون فى المستقبل لكشف المجهول الغامض، إذا ظهر هذا كله على يد غير المتقى ربه فهو شعوذة وسحر، أو تلبسات شيطانية، وإن كان بعض ما سبق يسمى علما وله قواعده وأصوله، إلا أننا لا نعده من باب الكرامة، التى ليس لها قواعد مرسومة ولا قوانين مضبوطة إلا التقوى وملازمة الشرع.

على أن الولى الصادق يمكن أن يأتى بأمور من ذلك القبيل كعمل جانبى من نشاطه الروحى، وربما جرى على يديه من غير شعور منه ولا إرادة ولا اختيار، فتكون كرامة له، لأنه استمدها من تقواه، ومن المقام الذى أقامه فيه مولاه، وجعله موصولا برسول الله ﷺ، فى حين أن غير الولى يستمده من مصدر آخر بعيد عن الإيمان والتقوى.

وبين الولى ومدعى الولاية تشابه ظاهر كالتشابه بين الماس والزجاج، والذهب والإبريز والبهرج، فإذا غمَّ الأمر على طالب الحقيقة فليس سوى ميزان التقوى كما ذكرنا آنفا، يزن به عمل صاحبه، ويعرف من لسانه الحق من الباطل، والمدد الإلهى من المدد النفسى أو الشيطانى.

وليس كل من كثرت خوارقه كانت ولايته أتم وأكمل، بل كلما قلت كراماته الحسية كانت ولايته أتم وأكمل.

وقالوا فى ذلك (إن كل من كان عروجه أكثر ونزوله أقل، فهو أكثر كرامة، لأنه لم ينزل إلى عالم الأسباب، فنظره مقصور على مسبب الأسباب، والأسباب فى نظره مزيفة، فهو يجول فى عالم القدرة لا عالم الحكمة، ومن كان نزوله إلى عالم الأسباب

أكثر بعد العروج إلى الأعلى حيث نزل للإرشاد والتسليك، فلا بد له من التناسب بينه وبين الناس للإفادة والإرشاد فتكون كراماته وخوارقه الحسية أقل).

ومما حكى فى هذا الشأن أن الحسن البصرى ﷺ كان واقفا على شاطئ نهر ينتظر السفينة، فجاء حبيب العجمى ﷺ فوجده واقفا، فقال له: ماذا تنتظر؟ فقال: السفينة فقال له: وأى حاجة إلى السفينة؟ أما لك يقين؟ فقال الحسن: أما لك علم؟ ثم مشى حبيب على الماء، وبقى الحسن حتى ركب السفينة، فلما كان الحسن نازلا إلى عالم الأسباب كان منه السير على قدم الشريعة، وحبيب لما لم ينزل كان نظره إلى عالم القدرة، والفضل للحسن، فهو صاحب علم جمع بين علم اليقين وعين اليقين، وعرف الأشياء كما هى، وفى نفس الأمر جعلت القدرة مستورة خلف الحكمة، وحبيب صاحب شكر، وله يقين بالفاعل الحقيقى من غير أن يرى للأسباب مدخلا، وهذه الرؤية غير مطابقة لما فى الواقع[1].

وأيضا كما قالوا: ليس من شرط الولاية علم الولى بنفسه أو بمقامه ووظيفته، كذلك ليس من شرط الولاية علمه بما جرى على يديه من خوارق، فكثيرا ما ينقل الناس عن الولى خوارق له لا يعلمها، فيأتون إليه ويقولون: رأيناك فى مكان كذا وكذا، وهو لم يخرج من بيته، ويقولون: رأيناك معنا فى قضاء مصلحة ما، وهو لم يخرج من بيته أيضا، فيعجب الولى ويقول: (الفضل كله لله).

الكرامة والمجاذيب

الصوفى الحق لا يتعلق بالكرامات ولا يرى الإخبار عن المغيبات من الكمال، ولذا كان المجذوب الذى كثيرا ما يخبر الناس عن أحوالهم، ويكشف مساتيرهم ليس برجل كامل عند القوم، وإن كان عند العامة هو الولى الحق، وماذا يعنيه بكشف أستار الخلق؟

---

(١) وترادف الكرامات الحسية على ولي، واشتهاره بها ليست دليل كمال، ولذا قال بعضهم: (ما رأيت الكرامات إلا على البله من الصادقين، والكرامة العظمى المعرفة والاستقامة وإزالة الحجاب).

وإن الله ستير يحب كل ستير، والحديث "من ستر على مسلم، ستره الله" رواه مسلم عن أبى هريرة.

والشافعى ﷺ يقول: (من نصحك فيما بينك وبينه فقد نصحك وزانك، ومن نصحك فى الناس فقد فضحك وشانك).

فما يريد المجذوب بذلك إلا جلب الناس عليه والشهرة بينهم، وليس من الله فى شيء، وليس له فى الآخرة من نصيب حيث لم يتأدب بأدب النبوة، وقد كان النبى ﷺ إذا عرف عيبا فى أحد ذكره على سبيل العموم، (ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا) ومن تأدب بهذا الأدب فهو الصوفى الحق.

وتحقيقا لموقف هؤلاء المجاذيب أن من أباح سرا أو كشف سترا إن كان مأخوذا مغلوبا على عقله ليس بكامل تدبيره فلا لوم عليه، وعلامته أنه عندما يفيق من حاله ويذكّر بما كان منه يندم ويتأثر ويلوم نفسه، أما من أخبر عن المغيبات وأباح الأسرار وكشف الأستار وهو فى صحوة فملوم، ومعيب عليه ذلك فى عرف الرجال، وهو مجذوب موقوف، فرح بهذه الكشوف، وقد يسلب والعياذ بالله.

والإخبار بالمغيبات كان فى الصدر الأول يقع منه الشيء الكثير ولا يلتفت له، لأنها أمور عادية بالنسبة لهم، إذ هم قد تخلصوا من بشريتهم، وكم أخبر ﷺ بما يحدث فى آخر الزمان وقد حدث، فأخبر عن حدوث الفتن فى أيام عثمان ومعاوية، وعن استشهاد ولده الحسين، وعن خروج السيدة عائشة إلى صفين عندما قال: "ليت شعرى أيتكنَّ تنبحها كلاب الحوأب" رواه البزار عن ابن عباس، ومقالته لعمار بن ياسر (ويحك عمار تقتلك الفئة الباغية) [1] وقوله له: (وآخر زادك من الدنيا لبنا) [2]وإخبار أبى بكر عمن يولد له بعد وفاته كما سبق فى قصة السيدة عائشة رضى الله عنها، وقول عثمان لمن دخل عليه: (يدخل أحدكم وأثر الزنا فى عينيه) وكان ذلك الرجل قد

---

[1] رواه البخارى عن أبى سعيد ﷺ و مسلم عن ام سلمة رضى الله عنها.

[2] رواه الطبرانى فى الاوسط و الحاكم فى المستدرك عن عمار بن ياسر ﷺ

نظر فى طريقه إلى امرأة، فقال: أوحى بعد رسول الله ﷺ؟ فقال عثمان: لا، وإنما هى فراسة المؤمن، وعمران بن حصين كان يرى الملائكة تنزل عليه عند قراءة القرآن، ثم غاب عنه ذلك لما اكتوى.

وأكابر الأولياء يعتبرون هذه الخوارق لعب أطفال يتلهى بها الصغار، ولذا لو ظهرت لهم كرامة يتوارون منها كما تتوارى الحائض من حيضتها ولا تحب أن ترى على حالتها، فهى عندهم منقصة وعيب.

هذا كله راجع إلى تخليص النفس وتطهيرها، وإطلاق الروح من عقالها لترجع إلى عالمها فترى ما ترى وتعلم الإنسان بما رأت.

والمرء منا فى حالة نومه عندما تغلق عليه أبواب حسه، ويقل سلطان عقله، يرى أنه فى السماء ودخل الجنة، وسافر إلى أقصى بلاد العالم وجسمه لم يبرح مكانه.

فإذا كان هذا فى المرء الذى بدأ صلاحه فيرى فى نومه ما فى ملكوت السماوات، ويعرف المغيبات إذ قل سلطان حسه على روحه وبطل تدبير عقله لجسمه، فرجعت الروح إلى عالمها، فرأت ما أخبر به لما استيقظ، فما بالنا بمن تخلص من بشريته فهو فى صحوته ويقظته كمن هو فى نومه فروحه صاحبة السلطان وهى معلقة بربها، وبعالمها الأول فلا بدع ولا إنكار، إذا رأى وأخبر عما رأى وهو فى يقظته، أو تصرفت روحه وعملت ما عملت من الخوارق وهو بجسمه فى مكانه إذ الروح لها من القوة والإطلاق ما لا يقف عند حدّ، ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] فما كان من الله لا يستطيع أن يعمل مثله سواه، فمن تخلص من بشريته زادت روحانيته، ونظر ملكوت ربه، قال عيسى عليه السلام: (أجيعوا بطونكم تروا ملكوت ربكم).

تنوع الكرامات

وتتنوع الكرامات بتنوع مقامات وأحوال الرجال، فكل ولى له كرامات حسب ينبوعه الذى منه شرب فمنهم الموسوى على قدم سيدنا موسى ﷺ، ومنهم العيسوى على قدم سيدنا عيسى ﷺ، وكلا النوعين تظهر خوارقه فى الآفاق، لأن معجزة سيدنا موسى كانت اليد والعصا، ومعجزة سيدنا عيسى إحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص، صلى الله على نبينا وعليهما وسلم.

أما المحمدى نسبة إلى سيدنا محمد ﷺ فكرامته الكبرى ما يفيضه الله عليه من معارف وعلوم بكر لا تؤخذ من كتاب، وإنما مصدرها ا لإلهام الربانى الذى يرد على القلوب من العليم الوهاب، كالسيد الأعظم فى معجزته العظمى الخالدة القرآن وما اشتمل عليه من أسرار فى نظمه وسياقه وحروفه وكلماته، حتى أنهم يعلمون للحرف الواحد منه علوما لا يجمعها الكثير من الأسفار، ولا تفى بها الأقلام ولو كان مدادها الأنهار.

ومن ثم فالخوارق الحسية لهذا النوع المحمدى من الأولياء قليلة بالنسبة لما يمن الله به عليهم من معارف وفيوضات وعوارف وإلهامات.

وبحمد الله كان شيخنا القاضى ﷺ ممن تحققت فيهم الوراثة المحمدية الحقة، فقد اختصه الله بعلوم لدنيّة ومعارف ربانية حار فيها الكل، وأدهشت فطاحل العلماء، وكثيرا ما كان يعرض الآية القرآنية التى لم تحل التفاسير شبهها، فتسمع منه التفسير البكر الذى ما سمعته من قبل، فلا تلبث أن تهدأ نفسك، ويطمئن قلبك، وتستريح إلى قوله دون قول من سواه، وتشعر باستجابة روحية تهز كل كيانك، وتملك عليك زمام أمرك، وتستولى على كل مشاعرك وأحاسيسك، وكذلك كان شأنه فيما غمض من الحديث النبوي، أو أشكل من عبارات القوم وألغازهم، وما كان أسلس حديثه، وأوضح بيانه، إذا تناول مسائل من علم الكلام غمضت على علماء الكلام أنفسهم وعز عليهم فهمها، فنارت للمستمع ووضح فهمها لكل إنسان، وأحس بأنه تمثلها تمثلا كاملا، وكنت توجه إليه السؤال فتتلقى ما ألهمه الله به من إجابة تريحك، وتظنها الإجابة التى ليست بعدها إجابة، ثم تمر عليه بعد فترة فيجلسك إلى جواره ويسمعك مزيدا من إيضاح أفاء الله به عليه (فى صلاته أو منامه) فتعجب إلى هذا البحر الذى لا

ينفد، والمعين الذى لا ينضب، وترى فيه آية من آيات الله وتجدك تنطق سبحان الله! ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥] وبحق نقول: (إن هذه الفتوحات كانت تجليات لا يدركها إلا ذوو الأفهام من الرجال)، والذى كنا نلحظه أنه لا يفتح له ذلك الفتح إلا إذا كان أمامه من يستأهل ذلك الرزق المعنوى، وكما قالوا: إن قلوب الرجال مفاتيح ينابيع الفيوضات للرجال، فكلما زاره من له فى ذلك الأمر مذاقات وكان من ذوى البصائر سمعنا العجيب القريب والفريد الجديد.

وسيصادفك أيها القارئ الكريم فى قسم المعارف من هذا الكتاب ألوانا من معارفه سيقت على سبيل المثال، وليست إلا قطرة من بحره الفياض، إذ إن كثرة إنعامه وإرفاده جعلتنا لا نفكر أبدا فى فراقه، فلماذا نكتب وندون؟، ولماذا نجمع ونحمل؟، وهل من عاش على شاطئ نهر لا يبرحه، ومن ظل فى ظله ولم يفارقه يحمل ماؤه ويتكلف جمعه واختزانه فما ظننا أبدا أن مورد فيضه ينقطع، وما حسبنا أن معين علمه ينفد أو ينضب حينما يختاره لجواره مولاه، كل ذلك جعلنا لا نفكر فى جمع معارفه، أو تدوين علومه وكل ما به فاه أو عنه تحدث أو به أخبر.

تلك كانت منة الله الكبرى على شيخنا ﷺ، ولقد كان هو نفسه يحدثنا بنعمة الله عليه ويقول: لقد طلبت من الله أن يعرفنى به، وأن يفتح على باب علومه ومعارفه، فتفضل على بإجابة الدعوة، وزادنى فضلا حين ساق لى مريدين جلَّهم من العلماء والمثقفين، ولقد رأيت ذلك أول دخولى طريق القوم، فلّله الحمد والمنة.

إخباره بالمغيبات

أما كراماته الحسية وإن كانت دون ما سبق من كراماته المعنوية، فقد كان يلمسها تمام اللمس شديدو الاتصال به لعزوفه عن الشهرة، ويقينه بأن المحمدة من البوارق التى تشغل السالك عن الوصول، وليس هذا طريق الكمال، ويعتبر إخباره بالمغيبات بعض هذه الكرامات، وقد كان يسوقها تثبيتا لبعض المريدين، ومن أمثلة ذلك:

١- إخبار الشيخ ولده السيد سليمان بأنه سيكون مفتشا بوزارة المعارف وكان ذلك أول دخوله الأزهر للتعليم، وكان الشيخ فى بداية عهده بالطريق فاستكثر ولده

ذلك وهو لا يزال طالبا فى معهد الزقازيق الدينى، فقال له الشيخ فى وثوق بربه وسيتحقق ذلك فى حياتى إن شاء الله، وفعلا تم ذلك وصار ولده مفتشا فى حياته.

٢- لما تزوج ولده السيد سليمان بكر بالإناث ورزق منهن بثلاث، فلما ولدت له الرابعة تغير حاله، وكان يرجو من الله الذكر، فبشره الشيخ بغلام يولد له بعد بناته الأربعة، فتلقى بشرى أبيه بالابتهاج راجيا من الله تحقيقها، وكانت بسمة الشيخ وقتذاك وهو يقول فى يقين (وسيكون ذلك فى حياتى وسأقبله إن شاء الله)، فقوى الأمل ودنا تحقيقه، وفعلا حقق الله للشيخ بشراه، وولد له غلام، وتماما للنعمة كان ميلاده بالمدينة المنورة، أيام كان يعمل معلما بمدينة الرسولﷺ، وسمى (مصطفى) تيامنا باسم رسول الله ﷺ.

وكانت فرحة الشيخ به كبيرة وقبله ودعا له بخير، وقبيل وفاة الشيخ بشر نجله بغلام ثان، فولد له بعد انتقاله بأسبوع وسمى أحمد.

٣- لما عزم على أداء فريضة الحج عام ١٩٤٠ ميلادية رأى فى منامه أن أمه ستموت وهو فى الحجاز، مع أنها كانت فى أتم صحة.

فأوصى بما ينبغى أن يعمل لها شرعا عند وفاتها فى غيبته، فأصاخ أهل البيت السمع إلى وصاياه إرضاء له، مع ما فيها من إبطال لعادات درج عليها الناس، ولكن قد أصرَّ أكثرهم فى نفسه إنكار ذلك حيث لم تجر به العادة.

وسافر الشيخ ﷺ إلى الحجاز، ومضت مدة يسيرة وهو هناك مشغول بأداء الفريضة، وفى صبيحة يوم من الأيام استيقظ من نومه فحدث من صحبه فى الحج أن أمه قد توفيت ليلة أمس، ووصف لهم وصف الرائى المشاهد كيفية غُسلها، وأنها أنزلت من طابق البيت الثانى إلى الدور الأرضى، وحدد لهم الحجرة التى غسلت فيها فسرى عنه من سمع وقالوا له لعل ما رأيته من أضغاث الأحلام، فقال ما عودنى الله ذلك فى رؤياى، وإن شئتم التأكد من كلامى فسجلوا هذا التاريخ عندكم.

وبعد عودتهم من الحجاز تحقق من صحبه فى هذه المرحلة صدق رؤياه بكل دقة وعرفوا من أهل البلد أنها توفيت فى نفس هذه الليلة، وغسلت فى المكان الذى وصفه الشيخ ﷺ.

٤- ومما أثر عن الشيخ ﷺ فى هذه الحجة أنه تعرف عليه رجل من (كفر سنجلف) منوفية، وكان ملتحيا سبكى المذهب وهابى العقيدة، ينكر التوسل بالأنبياء والأولياء كما أشرنا إلى ذلك من قبل، إلا أن الله منَّ على الشيخ ﷺ بهداية ذلك الرجل، حتى حسنت عقيدته فى أولياء الله تعالى، وصار من أتباع الشيخ ﷺ الواثقين المعترفين بخصوصيته وولايته، وكان هذا تكريما لشيخنا ﷺ، حيث تحقق فيه قول الرسول ﷺ "لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم"[1] وزاد الله شيخنا تكريما أنه كان من عادة الحجاج المبيت بالطور ثلاث ليال، فرأى الشيخ ﷺ فى منامه أن الحجر الصحى سيقصر على ليلتين فقط، فأخبر الشيخ ﷺ ذلك الرجل بما رأى وبعد مدة وجيزة نادى المنادى، يا حجاج احزموا أمتعتكم فسفركم اليوم، فصاح الرجل مهللا، وقال بصوت أسمع جميع الحجاج نعم يا سيدى ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾.

وبعد نصف ساعة من صدور هذا الأمر نادى المنادى مرة ثانية يا حجاج ارجعوا إلى أماكنكم فقد ألغى سفركم اليوم فعز ذلك على الشيخ، وقد ألف من ربه صدق رؤياه، وهناك قال الرجل للشيخ لا عليك سيدى فقد تحققت رؤياك بالنداء الأول وخروجنا استعدادا للسفر، فهذا يدل على تخلص ذلك الرجل من عقيدته الأولى وهى إنكار الوسيلة وعدم الاعتراف بالأولياء ولا بكراماتهم.

ويريد الله للشيخ إظهار كرامته، فلم يمض على ذلك دقائق معدودات حتى صدر نداء ثالث استعدوا يا حجاج فقد تقرر أخيرا سفركم اليوم وهكذا تحققت رؤيا الشيخ ﷺ وكانت كفلق الصبح ولله الحمد والمنة.

---

[1] رواه البخارى و مسلم عن سهل بن سعد ﷺ

٥- ويشاء الله تعالى أن يتوج ليلة عودة الشيخ بكرامة شاهدها الرفاق وعاينها المستقبلون لهم وتناقلتها الألسن إلى كل مكان.

كانت هذه الليلة مطيرة ذات عواصف ورعود وسار القطار من الزقازيق إلى بنها سريعا إذ صدرت الأوامر إلى السائق ألا يقف إلا فى بنها.

وعلى هذا فسيمر القطار على (شبلنجة) بلدة الشيخ دون أن يقف بها وفى ذلك من الإرهاق للشيخ ﷺ ما فيه حيث إنه سيرجع من بنها إلى (شبلنجة) فى جو متغير متقلب، ووسائل النقل فى هذا الوقت تكاد تكون معدومة، وما أن جال بخاطره هذه الملابسات حتى وقف القطار فجأة فى (شبلنجة)، وكان الظلام شديدا، فنزل الشيخ ﷺ ورفاقه، وفى لحظة أدرك السائق خطأه، فقاد القطار إلى بنها، وما أن عرف الرفاق أن هذه (شبلنجة) وليست بنها حتى أحاطوا بالشيخ مهللين متبركين داعين له بطول العمر وسعة المدد.

وهكذا من كان مع الله كان الله معه بالتكريم، وكل الكون مسخر له وخديم..

٦- وقريب الشبه بوقفة القطار السابقة كرامة أخرى لشيخنا ﷺ ما حدث لابنه السيد سليمان فى بدء تعليمه وهو مسافر من شبلنجة إلى الزقازيق، فقد خرج معه الشيخ يودعه ويطمئن عليه حيث كان صغير السن، ويقف القطار فى المحطة ويحول ازدحام المسافرين دون ركوب ابنه القطار، على حين أن من معه استطاع حمل متاع ولده ووضعه فى القطار، ثم يصفر القطار مؤذنا بالرحيل، ويتحرك القطار فعلا ويسير وبه أمتعة الابن دون أن يركب، فما الحيلة؟ وما السبيل؟ فقد سار القطار بالمتاع وولده فى يده لم يركب، ويظهر على الشيخ التأثر فيرفع طرفه إلى السماء مفوضا أمره إلى ربه ويتمتم فى ضراعة بالغة.

وبعد برهة يقف القطار فجأة ولم يبرح المحطة، وتتهيأ الفرصة لابن الشيخ فيجرى ويركب، ونرى السائق ينزل ليفتش عن سبب وقفة القطار وعطله، ويدور حول

القاطرة فلا يجد لذلك أسبابا ظاهرة، ثم يعود السائق فيركب ويحرك عجلة القيادة فيسير القطار، ويرسل الشيخ طرفه إلى السماء مرة أخرى دامع العين مظهرا عجزه عن شكره ربه.

قبول رجاء وتحقيق أمنية

٧- لما عزم فضيلة الشيخ ﷺ على الحج للمرة الثانية سنة ١٩٥٠ أراه ربه أن وفد الحجاج من مريديه هذا العام أحد عشر حاجا، وتقدم الجميع بطلبات الحج إلى مركز بنها- قليوبية، وقبلت الطلبات إلا طلب مريد واحد فقد ألغى طلبه، حيث كان للمحسوبية فى ذلك العهد نصيب كبير، وسبب رفض طلبه، أنه كان أبيا أنفا، يعتز بربه، وكان ذلك منه يغيظ بعض ذوى الجاه والسلطان من بلده، فكادوا له بما فوت عليه قبول طلبه، فأوجد ذلك فى دخيلة نفوس الضعاف من المريدين بعض الشك والريبة، وتساءلوا لم نقص العدد الذى أخبر به الشيخ واحدا؟.

وكان ذلك المريد الذى رفض طلب حجه من المخلصين فى حبهم للشيخ، التواقين إلى ملازمة الشيخ ﷺ وصحبته فى كل مكان، ويعز عليه ألا يكون له فى رحلة الحج نصيب، فقال له الشيخ ﷺ (ما أخلف الله وعده معى أبدا، فكن على يقين بأنك ستحج معنا إن شاء الله وستكون تتمة العدد الذى أخبرت به من قبل)، فقال له ذلك المريد مستبعدا ذلك حسب عقله وتفكيره: كيف يتم ذلك يا فضيلة الشيخ وباخرتكم ستتحرك بعد أيام قلائل، وكاد أن ينتهى موعد قبول الطلبات؟.

فأجاب الشيخ ﷺ إجابة الواثق بوعد ربه (قلت لك ومع هذا فلم يخلف الله وعده معى إن شاء الله).

وفجأة أرسل حبيب أثير لدى الشيخ ﷺ موظف بوزارة الداخلية خطابا يعرض عليه فيه خدماته فى تيسير أى شأن من شئون الحج دون أن يطلب منه الشيخ ﷺ ذلك فسلم الشيخ الخطاب إلى ذلك المريد قائلا له: اذهب أنت ومعك ابن عمك (عبد الجليل) الذى صار خليفة الشيخ فيما بعد إلى ذلك الموظف، ليبسر لك أمر الحج.

وما أن ذهبا إلى مكتب ذلك الموظف بالقاهرة، حتى ألفياه فى إجازة عارضة، ولم يعرفا عنوان بيته؟، فرجعا إلى الشيخ ﷺ وأخبراه بما حدث، فقد بدت علامات اليأس على صاحب الطلب، فقال لهما الشيخ ﷺ: أنا لا أيئس من رحمة الله، اذهبا مرة ثانية فى الغد ويقضى الله أمرا كان مفعولا، فامتثلا أمر شيخهما، وذهبا فى الغد مبكرين، فيسر الله لهما ببركة شيخهما كل أمر عسير، والتقيا بذلك الموظف الذى حرر الطلب لفوره، وعرضه على المسئولين، فوافقوا واحتسب من حجاج قسم السيدة زينب - رضى الله عنها- فى ذلك العام، وما رجع ذلك المريد إلى بلده، إلا ومعه جواز سفره إلى الأراضى الحجازية، وعلم بذلك من كادوا له بتعطيل قبول طلبه الأول، حتى اغتموا ورد الله كيدهم إلى نحورهم، وهكذا حج ذلك المريد مع شيخه ﷺ وسعد بصحبته، وشاعت الفرحة فى صفوف أبناء الشيخ ﷺ، وانقشع ما خيم من سحب الشك على ضعاف النفوس، وقويت عقيدتهم فى شيخهم، وهنا يدعوهم فضيلته إلى شكر الله بعد أن كبت أعداءهم، وفوت عليهم تدبيرهم، ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

٨- وأيضا لما فات سليمان صحبة والده فى الحجة الأولى والثانية، أسف وهو يودعه فى الحجة الثانية معلنا حزنه على حرمانه من صحبة أبيه فى المرتين، فتأثر الشيخ ﷺ أبلغ التأثر، وكتب إلى ولده من الأراضى المقدسة يخفف من حزنه، ويهدئ من ألمه قائلا: (اطمئن يا ولدى فستحج معى إن شاء الله فى المرة الثالثة، وقد أرانى الله ذلك).

وما لبثت الأيام أن مرت سراعا وحل عام ١٩٦٠ الميلادى حيث موعد الحجة الثالثة للشيخ ﷺ، فصادف ذلك انتداب ابنه سليمان مدرسا بالسعودية فتقابل مع أبيه، ونعم بصحبته وأدى فريضة الحج مع إخوانه المريدين، وكانت آخر حجة للشيخ ﷺ.

انكشافات ورؤية البعيد كالقريب

٩- لما أعد الشيخ ﷺ العدة لزيارة سيدى أبى الحسن الشاذلى -رضوان الله عليه- عام ١٩٦٣ م استجابة لأمر له من الله بذلك، أراه الله فى منامه مسجد سيدى أبى الحسن ﷺ، فوصفه لأولاده كما شاهده، فقد رآه مسجدا لم يتم بناؤه، ولا تعدو جدرانه فى ارتفاعها أكثر من متر ونصف، وبلا سقف بالطبع.

وفى صبيحة هذا اليوم زار الشيخ ﷺ زائر وحدثه بأنه قادم من زيارة سيدى أبى الحسن ﷺ، ومن جملة ما حدث به وصف مسجده وأنه قد تم بناؤه بسقفه وعرشه، وهنا تبادل المريدون النظرات، ودخل فى نفوس الضعاف ما دخل من شك لما أحدثه الرجل من بلبلة بحديثه.

أيهما نصدق رؤيا الشيخ ﷺ أو وصف ذلك المشاهد المعاين؟

كل هذا والشيخ صامت فى رسوخ الجبال لكمال يقينه بربه فما عوده أن يريه إلا حقا وتأكده مما رأى مناما، إذ رؤيا الأولياء كالمشاهدة.

وتمر بضعة أيام، ويسير الركب وعلى رأسه الشيخ ﷺ إلى (حميثرا) وتكون المفاجأة السارة عندما يشاهد وفد الزيارة مسجد سيدى أبى الحسن ﷺ كما وصفه الشيخ ﷺ تماما، سورا دون سقف، فيهللون ويكبرون، ويتحقق صدق شيخهم، وكرامته عند ربهم.

دحضه للباطل

١٠- ومن كراماته ﷺ أنه إذا سمع عن دجال حل ببلده أو ببلدة مجاورة، لسلب أموال الناس بالباطل، وإضلالهم وإغوائهم، ثار ثورة عنيفة وأرسل أحد مريديه قائلا له: (اذهب ولا تعبأ بسحره ولا تهتم بشعوذته، واقرأ آية الكرسى فى مواجهته فيخذله الله، ولن يستطيع جنى أن يقرب منك، ما دمت تتوجه بقلبك إلى صورة شيخك، مرددا اسمه فى نفسك، متوسلا به إلى رسول الله ﷺ أن يحفظك ويسلمك من كيده).

(أ) ومن أمثلة ذلك، أن دجالا نزل بقرية تدعى (تل المطلب) بجوار بلدة شبلنجة، واستخدم الجن فى معرفة أسرار الناس وكشف أستارهم.

كان ذلك المشعوذ يخبره الجنى الذى يستخدمه بأن هذا الداخل عليك الآن يدخر بمنزله مبلغ كذا، بحجرة كذا فى الرف العلوى من الصوان مثلا، فيتوجه المشعوذ إلى زائره بذلك، ويحدد له المبلغ الذى ادخره ويعين له مكانه ويأمره أن يحضر نصفه ويبقى له النصف الآخر، فإن استجاب فبها، وإلا انهالت عليه الصفعات دون أن يرى يدا

تصفعه، ويسحب على وجهه ممرغا فى التراب مجرورا فى الأشواك، ولا يرى من يسيمه هذا الخسف ولا ذلك العذاب، ويستغيث ولا مغيث، إلا أن يستجيب له ذلك المشعوذ بعد أن يصرخ متذللا، خذ نصف المبلغ كما شئت بالله ودعنى، أو خذه كله إن أردت وارفع عنى ما أنا فيه، وفى الحال يخلى سبيله ويعفى مما نزل به.٠

يرى الناس هذه الصورة، ويشاهدون تعذيبا بلا معذب، فيدركون ما عليه ذلك المشعوذ من قدرة على تسخير الجان فى الإضرار بالناس، فتقع الفتنة ويلقى فى قلوبهم الرعب، ويسهل على ذلك الدجال سلب أموالهم وابتزاز ما لذ وطاب من طعامهم وشرابهم وأمتعتهم.

عرف شيخنا ﷺ ذلك فغضب لله غضبة شديدة، وأرسل ثلاثة من خلص مريديه لذلك الضال المضل النصاب، وما أن وصل مريدوه الثلاثة إلى باب الحجرة التى اتخذها ذلك الدجال وكرا له، وعرف من خدعوا به ما أرادوا عمله فى ذلك المشعوذ فأخذ أهل تلك القرية يحذرونهم مغبة ما يقدمون عليه وهم بيقينهم بالله لا يكترثون وبعقيدتهم الراسخة فى شيخهم لا يعبئون ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة وإقداما فيلتقون بالرجل ويتسلحون بما أمرهم به شيخهم أن يقرءوه.

ويتمتم ذلك الدجال بتعاويذه، ويميل على الحائط يمنة ويسرة، ويكرر التمتمة فى حدة وانفعال، ثم يرد مهتز الكيان، مختل التوازن، خائر العزيمة باديا عليه الخذلان، وينكشف فى النهاية كما حدث الرجل بنفسه أن شيطانه الذى يعاونه قد أخبره أنه لا يستطيع أن يدخل الحجرة التى هو فيها، ما دام فيها هؤلاء النفر، قائلا: لو اقتربت الآن منها احترقت فى الحال، ثم يطأطأ النصاب رأسه أخيرا ويقول فى ذلة ابتعدوا عنى، دعونى ولا تحرمونى لقمة (عيشى) فقالوا له (إن طريقتك هذه فى كسب العيش ابتزاز لأموال الناس بالباطل، وذلك ما لا يقره الدين، بل ينكره الشرع كل الإنكار، ويعاقب عليه بأشد العقوبات، ارحل أيها المشعوذ الدجال من ديارنا، فلا بقاء لك عندنا، وحذار أن تحدثك نفسك بالبقاء بعد الآن، حينئذ لن تلوم إلا نفسك).

ولا يرى الرجل له بقاء بعد أن انفضح أمره، وانكشفت خدعه، فلا يبزغ فجر اليوم الثانى إلا وقد خلا منه المكان، فقد اتخذ من ظلمة الليل ستارا، وفر فى جوفه دون أن يشعر به أحد أو يعرف طريقه إنسان.

وبذلك استراحت من شره القرية، وما يجاورها من البلدان، وأمن ساكنوها على أنفسهم وأموالهم، بعد أن سلب ما سلب من الأموال وخدع كثيرا من النساء والرجال، بأن هذا تقضى حاجته أو يكسب قضيته، أو هذه تحمل بذكر وهذه تتزوج بمن ترغب.

(ب) وجاء رجل آخر يتخذ الدجل والشعوذة سبيلا لكسب المال والاستيلاء على عقول النساء والرجال، إلى عزبة قريبة من شبلنجة تابعة (لنقباس) مركز بنها يسمى نفسه (الشيخ حامد) ويستخدم جنيا يسمى (مروى) وطريقته فى السحر غريبة، إذ يأمر الجالسين بإطفاء المصباح ويأتى إليهم من حجرة مجاورة فى صورة امرأة تسمى الحاجة (زينب) وعن طريقها يسخر جنيا، يكشف بعض المغيبات الماضية سالبا بذلك أموال الناس عن طريق الخداع والكذب والتضليل، ويتهافت عليه الجميع، ووقع فى حيلته الكثير، فأرسل الشيخ ﷺ مريدا من أبنائه، وقال له: اجلس فى مجلس ذلك الدجال، ولن يستطيع أن يدخل عليك جنى ما دمت موفدا من قبلنا ومنتسبا إلينا وفعلا ذهب ذلك المريد حيث يجلس الدجال.

وما أن علم الجنى بأمره، حتى صرخ صرخة مدوية، وجرى فوق سطوح المنازل، ولم يستطع أن يدخل على المريد تلك الحجرة، وهنا استغاث الدجال بصاحب المنزل، وطلب منه أن يطرد المريد من منزله، حيث أنه أغضب العفاريت وربما يحصل له أو لأهل بيته ضرر من وراء ذلك، فترك المريد الدار، وبها النصاب بعد أن انكشف لهم حاله.

وأفهم أهل البيت دجله وغشه وخداعه، ثم ترصد ذلك المريد لهذا المشعوذ وهو يسير فى الطريق، فلما وصل به المسير حيث يجلس ذلك المريد فى الطريق صرخ وجرى فى الحقول، وأخذ يتوارى بين المزارع والأشجار، ويقول رجل يقرأ على بعض التعاويذ ويريد أن يحرقنى فانكشف أمره لمن حضر، وبعدها ولى مدبرا لافتضاح أمره ومعرفة حيله.

وهكذا كان الشيخ ﷺ يحارب كل مبتدع ونصاب ودجال، ويحمى مريديه من شرهم بإذن الله، وكثيرا ما كان يقول: (إن نفس المريد الصادق، نار تحرق الجنى) واستدل على ذلك بقول الرسول ﷺ لعمر: (**يا عمر ما سلكت فجا إلا وسلك الشيطان فجا آخر**)[١].

نبوءة تتحقق:

١١- ومن كرامات شيخنا ﷺ تبشيره مريدا أثيرا لديه بأن امرأته ستلد له الذكر فى مرتين فى صورة إلى التصريح أقرب منها إلى التلميح، فقد تعود ذلك المريد عندما تحمل زوجته ويقترب وقت وضعها أن يقدم إلى الشيخ مجموعة أسماء بعضها ذكور والبعض الآخر إناث، ليختار الشيخ ﷺ اسما لذكر، واسما لأنثى، فيكون أحدهما اسما لمولوده، ذكرا كان أو أنثى، ولكن الشيخ ﷺ لم يكن يختار فى المرتين إلا اسم ذكر، ويعرض عن أسماء الإناث، فيقول ذلك المريد يا سيدى الشيخ لم لم تختر اسم أنثى؟، فيسكت الشيخ ﷺ وهو لا يحب أن يكرر مع الشيخ القول، فيقوم متفائلا خيرا، وفعلا كان يتم الوضع، وتصدق البشارة، وتحقق ذلك فى المرتين بفضل الله ومنته، فتلد زوجته ذكرا فى المرتين، وكان عندما يأتى مخبرا شيخه ﷺ بما تم ينظر إليه كأنما الأمر عنده من قبل.

أدبه مع ربه فى الإخبار بالمغيبات

١٢- ومن كراماته ﷺ أنه عندما انتدب ابنه سليمان إلى السعودية، وادخر مبلغا من المال، احتال عليه من أدخله فى شركة وهمية مقرها (منيا القمح)، ومرت أشهر قلائل وشريكه ينقده ربحا وهميا، والحقيقة أنه من رأس المال، وما أوشك أن يفتضح سر هذه الشركة الوهمية حتى أشعل شريكه فى محل الشركة حريقا متعمدا ليبهم أمر اختلاسه لأموالها.

حدث ذلك الحريق فى منيا القمح ولم يكن للشيخ ﷺ به علم، حتى وصلت مكالمة تليفونية من صديق إلى بعض مريديه (احضر حالا إلى منيا القمح) ولم يفهمه السبب،

---

[١] رواه بن أبى شيبة فى مصنفه عن محمد بن سعدعن أبيه رضى الله عنهما

فحار المريد فى أمر هذه الإشارة الغامضة فأخبر الشيخ ﷺ بذلك، فقال له: اذهب يا بنى الآن إلى منيا القمح وستجد أن شريك سليمان قد أحرق الدكان، وما أن وصل ذلك المريد إلى منيا القمح حتى وجد صدق ما أنبأه به الشيخ ﷺ، وأن محل الشركة قد احترق مدعيا شريك ابنه أن هذا من قضاء الله وقدره، ولا دخل له فى ذلك، ولكن الشيخ ﷺ بإلهام من الله، وبنور فراسة المؤمن أظهر أمره، وكشف خدعته، وقد اتضح ذلك جليا بعد أن اعترف الشريك نفسه بذلك، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧].

ولما رأى الشيخ ﷺ ما أصاب ابنه من هم لذلك استدعاه وقال له فى حنان بالغ: (يا سليمان، لا تأسف لما حدث، فقد أرانى الله أن ما فقد من مالك سيرد عليك بإذن الله إلا قروشا قليلة لا تعد ذات قيمة، فطب نفسا وتقبل امتحان الله لك بالرضا، فقد لطف الله بك غاية اللطف).

ولم تمض بضعة أيام حتى أتى الشريك إلى الشيخ ﷺ وقد ألقى فى قلبه الرعب، وبدت عليه الذلة، واستسلم لدفع مبلغ ابنه على أقساط، وقد تم فعلا دفعه لأكثرها دون قضاء أو محاكمة، ولم يبق إلا القليل، وما زال يواصل الوفاء به فى مواعيده، كل ذلك بفضل الله، وبركة شيخنا رضوان الله عليه.

ومرة ذكر هذا الحادث أمامه فتألم سليمان لضياع ماله فنظر إليه والده ﷺ وقال يا بنى (والله لقد عرضوا على هذا منذ فترة أيفقد ولدك أحد أولاده، أو تمرض زوجته، أو يضيع بعض ماله؟ فسلمت الأمر لله، وأخيرا وأنا فى المنام فهمت خيرة الله فى ضياع بعض المال، فاحمد الله على ذلك) فسرى عن ولده، ورجا من الله الجزاء فيما ابتلاه.

اطلاعه على البواطن وعما فى القلوب

١٣- ومن كراماته ﷺ أنه جاءت إليه امرأة من (الإسماعيلية) ومعها ابنها الطالب بالثانوية العامة، وقالت له: إن ابنى هذا أعرض عن استذكار دروسه، وآثر العزلة والانطواء على نفسه، وإن كلمه أحد من الأسرة لا يرد عليه، وعالجته كثيرا بمختلف

الأدوية التى وصفها له الأطباء، فلم يشف، وقد قيل لى: إنه مسحور أو مخبول، أو مسه شيطان.

فنظر إليه الشيخ ﷺ وعرف بنور الله ما فى طوية نفسه، ووقف على حقيقة أمره، ثم التفت إلى أمه، وقال لها: هونى على نفسك إن ابنك هذا ليس مسحورا ولا مخبولا، ولا أى شىء مما تظنين، وقواه العقلية كاملة، وليس به سوى حب تمكن من قلبه فأضناه، واستولى على عقله، ثم التفت إلى الطالب، وقال له (ولد: أنت تحب؟ قل الحق) فاعترف على التو وقال: (إنى أحب فتاة، وأريد التزوج منها).

فقال الشيخ لها: (الحمد لله صدقت فراستى خذى ابنك، وليقض الله به أمرا كان مفعولا).

محاربته للجن

١٤- ومن كراماته ﷺ أنه كان يجىء إليه المصروع، أو من به مس من الجن، بعد أن عجز الطب عن علاجهما، فيضع الشيخ ﷺ يده على رأس كل منهما، ويقرأ بعض آيات القرآن الكريم فيبرأ المصروع، ويشفى الممسوس من الجن بإذن الله، وقد انفرد الشيخ ﷺ بهذا النوع من العلاج، دون غيره فى عصره وزمانه ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

غضب الله لوليه

وكان شيخنا ﷺ فى بدء خطواته الأولى فى الطريق ذا حال مشتعل، لا ينفعل بغضب من أمر ما حتى يعقب ذلك إصابة صاحبه بما يكره، من غير أن يتوجه إلى الله بالدعاء عليه، ومن ذلك:

١٥- أن مريدا عكف على خدمته مدة، ثم أذاع عن الشيخ لأمر فى نفسه، أنه ساحر ويستخدم الجن، فما كان أشد غضب الشيخ ﷺ أن يصدر هذا الأمر من مثله، وهو بملازمته له قد رأى ما رأى من تكريم الله له، وفى الحال أحس بآلام فى أطرافه،

ثم تآكل فيها، ويكتشف أنه قد أصيب بمرض من أخبث الأمراض وهو الجذام، وظل أسير آلامه وتشويهاته حتى مات.

والعجيب أنه ليس فى أصوله ولا فى عائلته كلها من مرض به، حتى يظن أنه قد ورثه منه.

١٦- ومريد آخر رآه الشيخ ﷺ مرة زائغ العين فى منزله، ولم يغض طرفه عن أهله، فتحرك قلبه بثورة غضب شديدة، ثم نام الشيخ فأراه الله أن هذا الآثم سوف يموت ولده الوحيد بعد واحد وعشرين يوما.

فاستيقظ الشيخ ﷺ وتمر الأيام، وفى ذلك اليوم المحدد وقع قضاء الله، وقضى وحيده نحبه، وعاش الآثم بعد ذلك ما عاش، ثم مات دون عقب له من بعده.

هذا وقد قضى الله على هذين الاثنين بالطرد من الطريق، جزاء ما فعلا ولأنه لم تصدق إرادتهما مع الله.

١٧- ومرة كان له مريد صحبه أول الطريق، وكان يقوم له بواجب الخدمة فألهته مشاغله، ومجالسة بعض أهل الدنيا، فأخره ذلك عن حضوره إلى شيخه، فما درى إلا والنار مشتعلة فى أطراف ثوبه دون وجود نار فى المكان، فعلم أن هذا لتأخره عن شيخه، فجرى مسرعا إليه يطلب الصفح والعفو.

ومما منَّ الله به على شيخنا ﷺ أنه إذا دخل بيتا كثر خيره، وكف عنه كل شر.

١٨- ومن ذلك أنه كان جالسا فى بيت أحد المحبين ليلا، وإذا به يقول وهو مأخوذ (افتح باب القاعة فورا) وما أن فتح الباب حتى تحطم المصباح تحطيما دون ما سبب.

فقال الشيخ: (الحمد لله جاءت فى المصباح، وسلم أهل البيت)، وفهمنا من الشيخ بعد أن هدأ أنه ثمة قضاء كان سينزل، فلطف الله بأهل البيت تكريما للشيخ، واستبدل به تحطيم المصباح.

١٩- ومن كراماته ﷺ التى ما زال أثرها ماثلا للعيان، إسهامه ومشاركته بماله ولسانه وقلبه وبكل إمكانياته فى تأسيس جمعية المحافظة على القرآن الكريم (بشبلنجة).

فكان أول مشجع للسيد (متولى محمد متولى) صاحب فكرة إنشاء هذه الجمعية، وكان الشيخ ﷺ أول متبرع لها بماله الخاص منه ومن أبنائه المريدين، وما أن تبرع الشيخ ﷺ وأعلن ذلك عنه حتى توالت التبرعات، وترادفت المساعدات من أهل البلدة ومن البلاد المجاورة لها، فسن بذلك سنة حسنة (ومن سن سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة) [1].

وبعد انتقاله ﷺ إلى جوار ربه ساند بماله وجاهه فى بناء دار لها وجاهد فى ضمها للأزهر الشريف السيد (حسن عباس زكى) محبوب الشيخ ومريده الصادق، ولقد ظل مريدو الشيخ عاملين بوصيته فى مساندة هذه الجمعية ومساعدتها بالمال والخبرة والجاه، حتى تولى رعايتها والقيام بأمرها الأزهر الشريف فتركوها فى يد أمينة، داعين لها بالتوفيق فى تحقيق رسالتها على الوجه الأكمل [2].

الله يحقق آماله

ومن تكريم الله لشيخنا ﷺ فى حجاته الثلاث ما يأتى:

(أ) الحجة الأولى:

كان شيخنا ﷺ شغوفا بالحج الأكبر لأنه الركن المكمل للإسلام، ولولوعه برؤية البيت الحرام وزيارة المصطفى عليه الصلاة والسلام والتمتع بالمشاهد القدسية والمعالم

---

[1] رواه الترمذى و ابن ماجه وغيرهما عن جرير بن عبد الله رضى الله عنهما.

[2] وبفضل الله و ثمرة لشجرة الخير التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء أصبحت هذه الجمعية بعد عام ٢٠٠٨ م (مجمع معاهد الشيخ عبد الجليل قاسم الأزهرية) تشمل معهد ابتدائى للبنين ومعهد اعدادى وثانوى للبنين ويشمل ٣٦ فصل للتعليم بكافة مقوماتها التعليمية الحديثة.

الإسلامية، والآثار المحمدية التى شرفت بوطء قدم المصطفى ﷺ لها، وأشرقت بنوره عليه الصلاة والسلام.

ولكن أنى له ذلك مع ضيق ذات يده، فبث شكواه هذه لربه فى خلوته به، متوسلا بالمصطفى ﷺ لتحقيق مآربه وقضاء حاجته.

ومع يقينه بأن الحق لا يخلو منه مكان، وأن سر المصطفى ﷺ مبثوث فى جميع النواحى والأركان، وأنه لا يطلب الله تعالى أو رسوله ﷺ فى مكان بذاته، فإن الحج هو الشعيرة التى تجمع بين الظاهر والباطن، كما أن فى رؤية المناسك تذكيرا وإحياء لسنة الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى السلام، وأيضا فيه جهاد بدنى ومالي، وتحمل أعباء ومشقات وصبر على الغربة وترك الأهل والوطن، كل ذلك فيه ما فيه مما يجلب ـ رضا الله ورسوله ﷺ ـ ولقد شغله هذا الأمر حتى استولى عليه، فرأى فى منامه من يقرأ عليه قوله سبحانه ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥] فقام من نومه، وقال: (ما تفسير هذه الرؤيا؟ وما صلتها بما أنا فيه؟) وقلب صفحات كتب التفسير، فرأى فى بعضها أن هذه الآية نزلت حين ترك الرسول ﷺ مكة آسفا عليها إذ نظر إليها بعد خروجه منها وقال: "وَاللَّهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَوْلاَ أَنِّى أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ" رواه أحمد عن عبد الله بن عدى.

فنزلت هذه الآية مطمئنة له وتطييبا لخاطره، ووعدا له أنه سيعود إليها يوما ما.

ولقد قرأ الشيخ ﷺ ضمن ما قرأ فى تفسير هذه الآية، تعليقا لبعضهم مقتضاه أن من قرأ هذه الآية أو قرئت له فى المنام وفق لحج بيت الله الحرام فاطمأن قلبه، وسر بهذه الرؤيا، ثم أردفتها أخرى مؤكدة له ذلك، فشكر ربه وسأله تهيئة الأسباب فهو على كل شيء قدير.

وما هى إلا شهور قلائل، حتى وجد معه المال اللازم لنفقات السفر والعيال إلى أوبته، وقد رزق بهذا المال من حيث لا يحتسب، وصدق عليه قوله تعالى ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٣،٢].

فأعلن ذلك لخلص مريديه، وأنه عازم بإذن الله تعالى على الحج هذا العام، فمن يسرت له الأسباب، ولم يكن لديه موانع شرعية، فقد وجب عليه الحج.

وكانت هذه حجته الأولى سنة ١٩٤٠ م وكان الوقت شتاء، ووسيلة الانتقال فى السعودية للحجاج الإبل، وقد حدثنا عن هذه الحجة فقال: (إنها كانت أطيب حجاتى، إذ وجدت فيها متعة روحية لا تعادلها متعة)، وكانت سبل العبادة مهيأة مذللة، وفيها من الهدوء التام وعدم التزاحم على المناسك، ما يجعل العبد يؤدى نسكه فى أكمل خضوع، حتى أنه كان لا يترك تقبيل الحجر فى كل شوط من أشواط الطواف بيسر وسهولة.

واستطرد قائلا: (إن عدد الحجاج المصريين فى هذا العام كان لا يتجاوز ثمانمائة حاج تقريبا، وسبب قلة الحجاج فى هذه السنة نشوب الحرب العالمية الثانية فتخوف الكثير من السفر، إلا أن الشيخ ﷺ قد توكل على الله واعتمد عليه ولم يتخوف برغم ما قيل له من كثير من الناس: إن حجك هذا العام مخاطرة بنفسك، فأبى إلا إنفاذ ما عزم عليه متحققا بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٩].

ومما حدثنا به ﷺ أنه كان يقوم بأوراده كاملة وهو على ظهر الجمل، حيث كان رفيقه على راحلته، وهو فى طريقه إلى المدينة المنورة أحد مريديه ييسر له كل حاجاته، حتى صار متفرغا تاما لربه، وقضى على هذا النحو ثلاثة عشر يوما إلى أن وصل إلى مدينة الرسول– عليه الصلاة والسلام.

وكان يتيامن بزيارة الرسول ﷺ قبل الحج ويعتبرها استئذانا من الرسول ﷺ بالدخول على حضرة الحق فى بيته ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:٩٦].، وهكذا كرم الله سبحانه وتعالى شيخنا ﷺ فى حجته الأولى بتحقيق ما وعده به فى رؤياه، تيسير الأسباب لذلك مع ما كان عليه من ضيق الحال فرزق بمال من حيث لا يحتسب ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات:٨].

وكذلك كانت كل أموره فى السفر والإقامة مذللة، وجميع حاجاته مقضية، وهكذا كل من أحبه الله فرغه لخدمته وكفاه أمر دنياه وشغله بطاعته وسخر من

يشاء فى القيام على راحته وقضاء حاجته (هم فى طاعتهم لربهم، والحق فى حوائجهم).

(ب) الحجة الثانية:

لما حج شيخنا ﷺ الحجة الأولى تاقت نفسه إلى الثانية ليحقق حديث الرسول ﷺ "من حج مرة، فقد أدى فرضه، ومن حج الثانية فقد داين ربه، ومن حج الثالثة فقد حرم الله بدنه وشعره على النار".

وبحمد الله يسرت له الأسباب كالمرة الأولى، فعزم على أدائها، وأعلن ذلك لجميع مريديه وذلك فى سنة ١٩٥٠ م، وكان الوقت صيفا والجو شديد الحرارة، فتعلق به الكثير من أبنائه ورجا الكل صحبته، ولكن شاءت إرادة الله أن يكون الوفد أحد عشر حاجا، تصديقا لرؤياه ﷺ التى سبق الحديث عنها.

وقد رافقناه فى هذه الحجة وكان مريضا لا يناسبه شدة الحر، ومع هذا كله لم يترك وردا من أوراده مما اعتاده فى حله وإقامته؛ ومكثنا فى هذه الحجة ما يقرب من ستين يوما، تمتعنا فيها بصحبة الشيخ ﷺ فى تلك الديار الطاهرة، والأماكن المقدسة، وكثيرا ما كان يتحين الفرص لإرشادنا إلى ما نتزود به من زاد الآخرة، ويقول: (هذه فرصة قد لا تعوض لبعضكم، فاغتنموها) كما كان يحثنا على كثرة الطواف، وتقبيل الحجر الأسود، وطول الإقامة فى الحرم، وإدامة النظر إلى الكعبة لأن النظر إليها عبادة، وكثيرا ما لفت نظرنا إلى آداب باطنية، وأحكام إلهية فى الطواف والسعى، والحكمة منهما، والبيت ومكانته، والغرض من حج الناس إليه وما ورد فيه، وحكمة استلام الحجر وتاريخه، والآيات التى ورد ذكرها فى الحرم كقوله تعالى ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ [آل عمران:٩٧]، ومقام إبراهيم، والحجر والميزاب، وزمزم وماؤها وأصلها، وكان شرحه لذلك ونحن نرى تلك المعالم ونشاهد هذه الآثار يزيدها إيضاحا وبيانا، فكنا عند العود إلى تلك المشاهد، نتذكر ذلك ونذكر شيخنا وفضله علينا.

وفى أثناء زيارتنا للمصطفى ﷺ كان يحببنا دائما فى الجلوس بالروضة الشريفة، والصلاة فيها، والاقتراب من مثواه الطاهر الشريف ﷺ، ويذكر لنا أن الزيارة التى يحبها

تكون من شباك الروضة، مقابل الرأس الشريف، ويقول: (إن قلبى يرتاح لذلك أكثر من الوقوف تجاه الوجه الكريم)، وما زلنا نحرص على ذلك فى زيارتنا للمصطفى ﷺ.

ولقد كان ﷺ يرغبنا دائما فى كثرة الصدقات قائلا (إن فى ذلك إجابة لدعوة أبينا إبراهيم عليه السلام ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ [إبراهيم:٣٧] وإن الصدقات من أهم مشروعات الحج)؛ حتى لقد جمع منا فى يوم عرفات مبلغا من المال، كل على حسب سعته من غير تحديد، ليكون الإنفاق عن رغبة أكيدة ونية صادقة، لمضاعفة الأجر، وقد وضع النقود فى صرة أمامه، وأخذ الفقراء يتوافدون على خيمته، وهو يعطى كل وافد كعادته مع مداعبته فى كثير من الأحيان لأطفال الفقراء بما يدخل عليهم السرور فى هذا اليوم العظيم (من أدخل السرور على فقير فليس له جزاء إلا الجنة) وقبيل غروب شمس عرفة من ذلك العام، أمطرت السماء مطرا غزيرا، حتى صار يتساقط على رءوسنا قطعا من الثلج كبيرة، فخشى بعضنا على نفسه، ولكن الله سلم، ورأينا غيرنا قد جرح رأسه بسبب تساقط قطع الثلج، ومع هذا فقد استبشرنا بهذا المطر خيرا، ورجونا أن يكون هذا بشرى غفران الذنوب، وقبول حج من حج هذا العام.

وهكذا كان يتجلى لمن صحب الشيخ- رضوان الله عليه- فى هذه الحجة أربع كرامات:

(١) تحقيق رؤياه بأن الوفد الذى حج معه كان أحد عشر حاجا من مريديه كما رأى.

(٢) أحبط الله كيد من كادوا لمريده وألغوا الطلب الذى تقدم به للحج معه، بتيسير حجه فى النهاية تماما لتحقيق الرؤيا، وتصديقا لما أكده الشيخ ﷺ لمريده كما سبق بيان ذلك بالتفصيل.

(٣) من الله على جميع من صحبوا الشيخ- رضوان الله عليه- فى هذه الحجة بسلامة العودة مع كثرة من مات من الحجاج بضربة الشمس للارتفاع الشديد فى درجة الحرارة فى ذلك العام، حتى كان يصاب الواحد بضربة الشمس وهو جالس بمسكنه فى الظل.

(٤) قيامه بأوراده البدنية التى كان يقوم بها أول الطريق وأقعده عنها مرضه، فكان ذا خفة ونشاط لم نعهدهما، وكان ﷺ يصلى تهجده الذى ظل مواظبا عليه فترة جهاده أول الطريق، هذا فضلا عن أنه كان يأتى بمثل ذلك العدد من الركعات وقت الضحى فى الروضة الشريفة لخلوها وقتئذ من الزحام المعروف من راغبى الصلاة فى الروضة، وكم كان سروره ﷺ بذلك لعودة الصحة والنشاط والخفة له، وكأنه ليس به من مرض أو علة، كان هذا كله فى فترة إقامته بالمدينة المنورة، ولما ذهبنا إلى مكة المكرمة تغير الجو واشتد الحر، فصعب عليه الأمر، ولم يأت بهذا كله، وإن لم يفتر عن الإكثار من الطواف والذكر والصلاة وقراءة القرآن، والصلوات على رسول الله ﷺ، ودوام النظر إلى البيت، والتمتع برؤيته والابتهاج بمنظر الحجيج وهم يطوفون ويقبلون الحجر ويصلون فى المقام وفى حجر إسماعيل وتحت الميزاب وعند الملتزم، فكل هذه الأماكن ورد فضلها وفضل الصلاة والدعاء فيها، وعدنا الله ذلك مرات ومرات آمين.

(ج) الحجة الثالثة:

ولقد حج ﷺ الحجة الثالثة سنة ١٩٦٠ م وكنا نرافقه أيضا فى هذه الحجة، إلا أنه كان فيها على جانب من ضعف الصحة كبير، وقد اشتدت عليه وطأة مرض ضغط الدم المرتفع، إذ كان الجو ما زال صيفا والحرارة شديدة، وبخاصة حر مكة فإنه كان قاسيا، وكان الحاج يصاب بضربة الشمس وهو فى الظل لم يبرح مسكنه، وكنا نخشى على شيخنا فى هذه الحجة، إلا أن الله لطف به وخفف عنه، فقضى ﷺ أكثر أيام الحج فى الطائف- مصيف السعودية- حيث كان ولده السيد/ سليمان يعمل مدرسا بإحدى مدارس الطائف فى ذلك العام، ولكنه قضى يوم عرفة فى تعب شديد، فقد اعتراه نزيف حاد من أنفه فى فترات متقطعة، ولازمه ذلك النزيف حتى حططنا رحالنا بمنى ليلة العيد وهناك تضاعف ذلك النزيف بصورة مخيفة أزعجتنا جميعا، وتلمسنا الأطباء فلم يتيسر لنا، لأن الإصابات كانت كثيرة جدا هذا العام، وامتلأت مستشفيات منى بالمرضى وشغل الأطباء بعلاجهم، إلا أنه قابلنا مصادفة طبيب مصرى، فوصفنا له الحالة مع ما يداخلنا من وجل وخوف وإشفاق على الشيخ، فقال لنا: (احمدوا الله فإن النزيف لمرضى ضغط الدم لطف من الله به، فهو أشبه بعملية الفصد التى تحدث فى مثل هذه الحالات لتخفيف مضاعفات ضغط الدم).

ثم هدأ من روعنا وقال: (إن النزيف نعده نحن الأطباء فى شدة الحر صمام أمن لمرضى الضغط)، فتفاءلنا خيرا، وترك شيخنا منى وعاد إلى مكة سريعا للعلاج، وأقام بعضنا معه فى مكة لتمريضه، إذ الشرع يجيز ذلك فى مثل هذه الحالات، وتمت مناسك الحج وعدنا جميعا سالمين، غير أنه أصابه المرض فى الطور مرة أخرى ولكن الله سلم فى هذه المرة أيضا.

ومكث بعد ذلك أربع سنين يعانى آلام المرض، ولا عجب فى ذلك فإن الكمل من العارفين دائما مرضى الأجسام، معتلو الأبدان، وقد شاهدنا كثيرا من الأولياء الصادقين ناحلى الأجسام ضعيفى الحركة حتى لا يكادون يقومون إلا بمعاونة من معهم، وما رأينا أو سمعنا عن ولى كبير الجسم أو قوى البنية، وذلك لحكم الله يعلمها إما من شدة ما يعانون من حمل البلاء عن العباد، أو تخليصهم من ناسوتيتهم وبشريتهم، ليلقوا ربهم بأرواح خالصة وأسرار صافية، وقد قرأنا كثيرا فى كتب القوم أن ذلك من أمارات صدقهم وعلامات تمكينهم، ثم انتقل إلى جوار ربه، يوم الإثنين السادس عشر من ذى القعدة سنة ١٣٨٣ هـ الثلاثين من مارس سنة ١٩٦٤ م، كما فصلناه قبل.

ومما يجدر بالذكر أن الشيخ ﷺ كان يقول يوم (منى) عندما اشتد عليه المرض: (لا أحب يا رب أن أموت هنا، أريد أن أموت بين أولادى)، فكنا نعجب لذلك ولا نستطيع مراجعته، ولما عدنا وخفت حدة المرض كنا نذكره بهذه المقالة، ونقول له كيف تتمنى عدم الموت فى الأراضى المقدسة؟ فيقول لنا: (سوف ترون بعد موتى الحكمة لذلك).

وفعلا لما انتقل إلى جوار ربه ودفن ببلدة شبلنجة فى ضريحه المبارك حيث مسجده الميمون، عرفنا السبب فى دعوة شيخنا ﷺ يوم (منى)؛ لأن وجوده بيننا فى ضريحه ومسجده ساعد على نشر الطريق وازدهاره، ولم يكن ذلك يحصل لو دفن الشيخ فى الأراضى المقدسة، وإن كان دفنه ﷺ فى الأراضى المقدسة خيرا له، إلا أنه لم يكن خيرا للمريدين، إذ وجود ضريحه بينهم وترددهم عليه فى كل وقت تلمسا لبركاته مما يلهب حماسهم ويزيد فى أنوارهم ويزكى نفوسهم، حتى رأى بعض خلص مريديه فى المنام أثناء بناء ضريحه، أن ذلك الضريح سيكون سببا لإدرار الأنوار على المريدين، على أنه لا

يشترط وجود الجسم للولى فى مكان ما وتقيد روحه به، بل هى مطلقة تجوب الآفاق، وتكون حيث يطيب لها المقام، حسب استعداداتها وعلمها بربها ورقيها ودرجتها فى القرب.

ولذا مرة قلنا له: إن الحسين ﷺ له ضريح فى القاهرة مشهور، وآخر فى العراق يزار، فقال ﷺ بهذا النص: (إن روح الولى كتيار جارف حيث تطلبها تجدها، فلا تتقيد بمكان).

فمن هذا نعلم أنه ﷺ وإن كان مدفنه فى شبلنجة فروحه حيث شاء الله لها من الجولان فى المدينة أو غيرها، ولقد رأى الكثير من الإخوان هذه الرؤيا وتعددت، رأى أن لشيخنا ﷺ مقاما يزار فى أسيوط، ورآه آخر فى الإسكندرية، فلما تكاثرت هذه الرؤى، قلنا لعل للشيخ تعلقا بهذه الأماكن، وأولياء الله لا حرج عليهم، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الحديد: ٢١] فما بال الخاصة والأصفياء.

وجدير بالذكر أن نسوق لشيخنا ﷺ فى هذه الحجة الثالثة كرامة من كراماته العديدة.

فقد حدث فى المدينة المنورة وهو مع بعض مريديه، وقد جلس بينهم بعد صلاة العصر فى الحرم النبوى الشريف فى زى لا يتميز فيه عن مريديه بشىء ولا يستطيع القادم ممن لم يره من قبل أن يميز الشيخ عن أولاده الجالسين معه، وإذا بمجذوب يسرع الخطى شاقا الصفوف إليه، ثم يقف أمامه فجأة مصوبا نظره إليه، مشيرا بإصبعه نحوه، موجها حديثه لمريديه وهو مأخوذ: (استوصوا بهذا الرجل خيرا، والله لقد رأيت وجهه فى الحجرة الشريفة).

ثم انصرف ذلك المجذوب إلى الروضة ولم نره بعد ذلك.

ومما حدثنا به شيخنا ﷺ: أنه أعد العدة لزيارة بيت المقدس مسرى الرسول ﷺ ومكان اجتماعه بالأنبياء عليهم السلام ومدفن كثير منهم، إلا أن ظروفا دولية حالت دون تحقيق هذه الرغبة، مع إعداده جواز سفره ودفع الرسوم المقررة، ومازال الجواز

لدى أبنائه ذكرى طيبة، وقد كان ذلك عام ١٩٤٨م حيث كانت الحرب مشتعلة بيننا وبين إسرائيل.

وبحمد الله وفقنا للحج مع شيخنا مرتين، وكانت فرصة طيبة ما بعدها فرصة، وعزمنا على التأسى بسنته، وهى الحج كل عشر سنين مرة، وبفضل الله وفقنا لأداء الحجة الثالثة ولاء لسنة شيخنا ﷺ وحرصا على ترسم خطاه سنة ١٩٧٠م، وكان الوقت شتاء والجو معتدلا، وكان فيها ما فيها من نعم الله الكبرى، وأفضاله السابغة علينا، وآيات الله العظمى التى لا مجال للتحدث عنها فى هذا المقام.

وإتماما للنعمة تحقق ما رغبنا فيه من صحبة حرم شيخنا فى هذه الحجة تيمنا بها وتبركا، كما نعمنا من قبل بصحبة شيخنا ـ رضوان الله عليه ـ فى حجتيه الثانية والثالثة، فقد كان لصحبتنا لها مع ولديها ومحرميها السيدين/ سليمان ومحمد، ماجعل السرور والتيسير يظللانا فى كل خطوة من خطوات هذه الرحلة المباركة، وكنا نستدر دعواتها ونلتمس بركاتها فى كل بقعة من البقاع الطاهرة فى الأراضى المقدسة، ونعدها لنا أما كما كان شيخنا لنا أبا، ونعاملها بكل ما يجدر بالأم من إجلال وتكريم وتقدير، وفاء ببعض ما لشيخنا علينا من فضل، نضرع إلى الله أن يقبل حجتنا ببركة صحبتها ورضاها عنا، وقد عادت والحمد لله راضية عنا، داعية لنا مما استبشرنا معه بخير لنا كبير.

ومما يجدر بالذكر أن الذى يسر لنا هذه الحجة برغم القيود على الحج وقتئذ من أجرى الله الخير على يديه، أخونا الأكبر ومحبوب شيخنا الأول والأمين على طريقنا، والحارس له والراعى شئونه والعامل على نشره ودعمه السيد/ حسن عباس زكى، العارف بربه ورجل الإسلام الأول وحمامة السلام بين جميع الدول العربية عامة، جزاه الله خير الجزاء.

٢٠- بينما كنا نستعد لبناء المسجد وبدأ الشيخ ﷺ فى جمع التبرعات من المريدين والمحبين أخبرنا أن الله أراه الليلة مسجده تام البناء مشيد الأركان، فقيل له: (هذا مسجدك إن شاء الله)، فأخذ ﷺ يصفه لنا وصفا دقيقا، فقال: (إنه ليس بالكبير ولا

بالصغير، وهو ذو أعمدة أربع ليس غير) وقد انتقل رحمه الله، قبل أن يشرع في بنائه والحمد لله قد تم بناؤه وكان كما وصفه ﷺ تماما.

٢١- وفي يوم من الأيام قال لبعض خلص مريديه (إني رأيت الليلة، كيفية خروج الروح من جسدى عند الموت، وحدد لى وقت خروجها بالساعة واليوم والشهر والسنة) فاشرأبت الأعناق إلى معرفة هذا الوقت وقرأ الشيخ ﷺ في وجوههم ذلك، فعقب قائلا: (إنه سر بيني وبين ربى ولا أستطيع الإباحة به، وكل ما يمكنني أن أقوله لكم في هذا الموطن هو أن روحي خرجت سهلة وميسرة والحمد لله، وقمت من نومي فرحا مبتهجا بهذه الرؤيا).

ومما يلفت النظر أن الشيخ ﷺ أخبرنا أنه كتب تاريخ وفاته في مذكراته الخاصة، إلا أنه قبل انتقاله بأيام أحضر هذه المذكرة وأحرقها أمامنا ولما سألناه في ذلك قال: (إن فيها أسرارا ربانية، وإباحتها كفر كما تعلمون).

٢٢- ولشيخنا ﷺ كرامات غير ذلك عديدة لسنا بصدد حصرها، بل له مع كل مريد أكثر من كرامة ومما يدل على ذلك أنه في أثناء كتابتنا هذا التأريخ جاءنا مريد صادق وقال: إن لشيخى معى كرامات كثيرة أذكر منها الكرامة الآتية:

كنت في (بنها) لعلاج ابنى ولم يبق معى من النقود إلا أجرة السيارة إلى بلدنا في الوقت الذى رغب ابنى الصغير في شراء شيء يأكله، وألح في الطلب وبكى، ووقعت في حيرة أأشترى ما يرغبه الولد بأجرة السفر وأحمله على كتفي وأمشى إلى بلدى على قدمى التى تبعد عن بنها بخمسة كيلومترات؟ أم أعرض عن رغبة الولد؟ وأتغاضى عن بكائه الذى يقطع نياط قلبى؟

وفي أثناء هذه الحيرة وهذا الصراع النفسى رأيت الشيخ ﷺ واقفا أمامى فجأة وحده، في موقف السيارات ببنها، ولم يكن عادته أن يسافر وحده أبدا، فسلمت عليه وقبلت يديه، ثم وضع يده في جيبه وأخرج قطعة نقود وسلمها لابنى، فسررت وفرح الولد بها جدا، ثم غاب الشيخ ﷺ عن نظرى، وتلفت يمنة ويسرة وفي كل الجهات فلم

أجده، فأخذت أجرى هنا وهناك باحثا عنه، ولكن دون جدوى، فعرفت أن الشيخ ﷺ جاء ليخلصنى من أزمتى ويفرج عنى كربتى.

ولما ذهبت لزيارة الشيخ ﷺ فى شبلنجة عصر هذا اليوم وجدته بين مريديه مرشدا وناصحا، ولم تبد عليه أمارات السفر وعلمت من المتصلين به الملازمين له أنه لم يسافر اليوم مطلقا، فعرفت أنها كرامة لشيخنا أكرمنى الله بها.

ولما علم الشيخ ﷺ حيرتى وسؤالى إخوانى: هل سافر الشيخ اليوم؟ نظر إلى وقال: يا عفيفى اسكت ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر:٣٤] ولذا كتمتها فى نفسى ولم أعلنها إلا اليوم لكم بعد انتقاله.

ومما حدثنا به بعض مريديه وكان حديث عهد بالخروج من الخلوة وما زالت به آثار روحية مما كان مأخوذا به فى خلوته، أنه كان عائدا إلى بلدته ليلا، وكانت ثمة مسافة ليست بالقصيرة بين المحطة والبلدة، فأحس برعب وخوف من حلكة الظلام، وخشى من أن يتعرض له أحد فى الطريق، وفى الحال يرى شيخه فوق رأسه فى الهواء بهيئته فى بيته جالسا على حشيته التى تعود الجلوس عليها فى أخريات حياته، وفى يده فاكهة الموز يزيل قشرتها ليأكلها، حينئذ تبددت وحشته وشعر بالأنس وانقشع عنه كل خوف وزال كل رعب، وظل هذا المشهد يظلله حتى دخوله البلدة، فحمد الله على ما أنعم به عليه من كرامة لشيخنا ودعا الله جل شأنه أن ينفعنا به ويوسع فى مدده.

٢٤- حانت ليلة نقل شيخنا ﷺ من مقابر شبلنجة إلى ضريحه المقام له بمسجده، وكانت بلدة شبلنجة بأسرها تنتظر إطلاق التيار الكهربى لأول مرة بعد أن تمت بها التوصيلات اللازمة لذلك، ومضى على ذلك مدة طويلة، وطال الانتظار حتى كاد الناس أن ينسوا هذا الأمر.

وفى ليلة نقل شيخنا ﷺ إلى ضريحه، انطلق التيار الكهربى ونارت القرية كلها، ودخل السرور كل بيت وكل قلب.

وهكذا كـان رضـوان الله عليـه يمنـا علـى البلـدة، وكـان تكريمـا مـن الله أن ينير بـه البلدة حسا، كما أنارها بنقله معنى وروحا.

٢٥- وحسبك فى الخلود له تلك الكرامة .. حقا إنها كرامة دونها كل كرامة، ألا وهى حفظ جثمانه الشريف فى قبره، وبقاء جسده بكامل رسمه، إذ الكرامات بأوقاتها مرهونة، ولمن حصلت أمامهم فقط مشهودة ومعلومة، أما هـذه الكرامة فإنهـا مـا زالـت دليل صدق على مقامه وبرهان حق على رفيع شأنه.

وإن قيل أن هذا يكون لكثير من الأولياء: قلنا نعم، يكفينا أنها لا تكون إلا للأولياء وللخاصة من الأصفياء.

ودفن ﷺ بمقابر أسرته يوم الاثنين ١٦ من ذى القعدة سنة ١٣٨٣، وظـل بهـا قرابـة سنة، ثم نقل من تلك المقابر فى اليوم التاسع والعشرين من شعبان من السنة التالية.

وعند نقل جثمانه الشريف إلى ضريحه المنيـف، وجـد بكامـل هيئتـه، لم يـدخل البلـى رسمه، ولم يصل الفناء إلى جسمه، إذ حرَّم الله على الأرض أن تنال منه.

وأنى لها ذلك وقد تخلص من ناسوتيته، وتبدلت صفات بشريته، فـلا تأكـل الأرض من الأموات إلا الشهوات، ولا يصيب الدود من الأجسام إلا مـا كـان فيهـا مـن مـذموم العادات، وقبيح الطبع والصفات.

وليس هذا على ولى الله بكثير، إذ إنه أعلى درجة مـن الشـهيد، فالشـهيد قتـل نفسـه فى سبيل الله مرة، والولى قتل نفسه فى سبيل الله مرات.

وإذا كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقـون، فالأوليـاء أحيـاء فـى قبـورهم ينعمـون، ويعبدون الله عبادة تلذذ وتشريف لا عبادة أمر وتكليف، فمن كان فيهم فى الدنيا همـه الذكر يكون الذكر أكبر همه فى القبر، ومـن كـان محبـا للصـلاة يكـون فـى قـبره دائمـا قائما راكعا ساجدا مناجيا مـولاه، ومـن كـان للقـرآن تاليـا يكـون فـى قـبره علـى الـدوام لآياته قارئا ومرتلا.

وشيخنا ـ رضوان الله عليه ـ كان شغوفا بالصلاة على حبيبه ومربيه ﷺ، فرآه الكثير فى المنام قارئا لها ممسكا بها، وقد روى أمثال ذلك عن الأولياء، والسلف الصالح، فسمع القرآن يتلى من قبورهم، ورءوا قائمين بالصلاة ذاكرين الله، متلذذين بالطاعة التى كانت لهم فى الدنيا أربح بضاعة، فلا عجب أن يظل جسمهم على حاله إلى أن تقوم الساعة فى حرز ومناعة.

وكان يوم انتقاله من المقابر العامة إلى ضريحه المبارك يوم الجمعة، وكان يوما مشهودا، قد سمعناه ﷺ أكثر من مرة يردد أن يوم الجمعة يوم مشهود، قالها فى حياته وقبل انتقاله بشهور، فلم نعرف لهذه العبارة سرا، ولم ندرك لها حكمة، إلا بعد انتقاله إلى ضريحه يوم الجمعة، وكان بحق يوما مشهودا، كما أخبرنا بذلك رضوان الله عليه، فقد افتتح فى ذلك اليوم مسجده المبارك وضاق المكان على سعته بالعلماء والوزراء، والأكابر والمحافظ، ورجال الإدارة، وسارع الكل من شتى البلدان ليشاهدوا ما للشيخ من كرامات، ويلقون منه النفحات والبركات، وظن العامة أن تكون للشيخ كرامة (الطيران بالنعش) أو الجرى بمن يحملونه، وكيف يكون ذلك؟ وهو لا يحدث إلا من أصاغر الأولياء؟ كما أخبرنا ﷺ بذلك إذا خرجت روحهم وما زالت بقايا نفوسهم.

أما السادة المتمكنون العارفون الراسخون يعد هذا عندهم من الرعونات ومن مذموم الصفات، وهل طار بنعشه أحد الصحابة وهم على ما هم عليه من صلة بالرسول ﷺ ومعاشرة له، وبحمد الله لم يحدث من الشيخ ﷺ جرى أو طيران، وسار نعشه حيث ضريحه تحدوه السكينة، ويظلل الجميع المهابة والإجلال كما كان ذلك أول دفنه فى مقابر أسرته يوم انتقاله.

وكم كانت فرحة أحبابه ومريديه وحسرة أعدائه وحاسديه، عندما رأوا جثمان الشيخ ﷺ كما هو يوم دفنه، وكفنه بجدته ولمعانه، ولا عجب فى ذلك، فكما حرم الله النار على إبراهيم خليله، وعلى معدة الحوت يونس رسوله عليهما الصلاة والسلام، فكذلك حرم الله على الأرض أن تنال من أجسام أحبابه وأوليائه وفاء بوعده: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟

يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس:٦٢ -٦٤].

٢٦- ومن كراماته ﷺ أنه كلما انتابت الحيرة كثيرا من مريديه فى بعض أمورهم وتلمسوا وجه الصواب قدر جهدهم فى التفكير، كان يرمز أو يشير من طرف خفى بما سيكون عليه الأمر بعد، إذ قد يطلعه الله على ذلك مناما، أو كشفا ربانيا، ولكن الحكمة تقتضى الكتمان، فيرمز الشيخ ـ رضوان الله عليه ـ بما قد لا ينتبه البعض إلى فهم هذه الإشارات أو تفسير تلك الرموز، وبعد أيام يتحقق كلامه ويفسر الواقع لهم إشارته، فيذكرون قوله السابق، ويدركون أنه كان يشير إلى ما سيتم عليه الأمر، ويرمز إلى ما سيكون فى المستقبل، لتسكن نفوسهم وتطمئن قلوبهم، أو يتصرفون تجاه ذلك بما يرضى الله، ومن نارت بصيرته من المريدين يدرك معنى إشارات الشيخ ويفهم مدى تلميحاته، فيستبشر ويلزم الصمت حتى يحقق الله الأمر كما أشار الشيخ ﷺ ولا يصرح بالحقيقة تأدبا مع الله وحفظا لحرمة الشيخ إذا لم يصرح هو بذلك، وكان أدبا منه لنا ربانا به وسرنا عليه، إذ الإخبار بالمغيبات وسبق الأحداث فيه ما فيه من شهوة النفس الخفية، وفيه منازعة للربوبية، إذ هو سبحانه قد أخفى وستر واستأثر بعلمه ذلك حتى موعد ظهوره، وما يعقلها إلا العالمون.

ومما يروى عن الغزالى ﷺ أنه تكلم عن الروح وذكر خصائصها ولكن عند ذكر حقيقتها ومكانها من الجسم، قال: (أما ما أمسك عنه القرآن ولم ينطق به سيد بنى الإنسان، نمسك عنه ونلوى العنان) فيفهم منه أنه كان يعلم أمر الروح ولكن أدبه جعله يلزم الصمت.

تلك بعض كراماته الحسية فى حياته وهى نذر قليل بالنسبة لكراماته المعنوية، وعلومه ومعارفه وفهمه عن الله وتفقهه فى دين الله، "من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين".

كراماته بعد وفاته دليل حياته

أما بعد لقائه بربه، فقد تجلت كراماته الحسيه، فكم تعطلت شئون لأولاده وتعثرت أمور لمريديه، وبدت لا محالة دون حل، فإذا بها تذلل بعد زيارتهم ضريحه، والتوسل به إلى ربه.

وستجد أيها القارئ الكريم فيما بعد إن شاء الله، أن ولده أمين ذهب إليه مرة وهو فى ضريحه لأمر عصيب يبدو فى نظره أنه محال تحقيقه، إذ كان يلقى دائما بجميع أثقاله فى ساحة والده أيام حياته فإلى من يذهب الآن؟

فوقف أمام ضريحه ملحا فى الخلاص من هذه الشدة راجيا النجاة مما هو عليه من ضيق وبأس، وبحمد الله تم له الفرج وحدث ما لم يكن فى الحسبان، بفضل الله المنان، كرامة لشيخنا صاحب الإحسان.

أفلا يكون هذا أكبر شاهد وأوضح دليل على حياة الأولياء فى قبورهم وإحساسهم بحال أولادهم ومريديهم.

وأيضا لما كتبنا فى هذه الخصائص شيئا عن صفاته وهيئته ولباسه، وذكرنا (وتطالعك أول الكتاب صورته عنوان وجاهته وأناقته) ونسينا وضع الصورة أول الكتاب حتى تم معظم طبعه، فإذا به يأتى ﷺ مناما إلى الأستاذ محمود طعيمة المهتم بأمر طبع هذا الكتاب مع أنه لم يره أيام حياته قائلا له (أين الصورة التى قلتم عنها أول الكتاب) فقد أدركنا الأمر.

وحسبك من كراماته الحسية بعد وفاته أن يبنى ضريحه هذا البناء المشيد الجميل، ومسجده الذى كان قد أعد العدة لبنائه وتم ذلك فى مدة يسيرة لا تكاد تصدق وفى وقت تعذر فيه الحصول على مواد البناء، وناهيك بما يستتبع ذلك من مشقة وعناء، ويعتبر المسجد تحفة فى بنائه، كما تعد مئذنته آية من الفن العربى فى العمارة الإسلامية، وتراها ليلا مضاءة، تجذب إليها الأنظار وتمتد إليها الأعناق بالتقدير والإعجاب.

ولقد زار ذلك الضريح بعض العلماء الشرعيين، وكنا نظن أنه من المنكرين على الشيخ ﷺ لما علمت أيها القارئ سابقا من مناوأة علماء الظاهر له ومعارضته، ولكن ذلك العالم لما دخل الضريح لا ندرى ماذا حدث له؟ فخرج قائلا: (أشهد أن هذا الشيخ محق، ولو لم يكن على صلة كبيرة بربه ما هيأ الله له من يشيد له ذلك الضريح، ويقوم له ببناء ذلك المسجد العظيم، فحقا إنه ولى الله، وقرأ الآية ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]. ولما التقى ذلكم العالم بأولاد الشيخ لصلبه، قال كلمة رثاء كانت كلها عبرا وحكما، وسرد فيها مناقب الشيخ ﷺ وكريم صفاته.

وهكذا ينطق الله الحق على لسان الخلق، وهذا يدلك على أن لذلك المكان روحانية عالية وجلالا كبيرا، يحث بذلك كل زائر لهذا المكان ويشعر به كل وافد إليه، وما أنكر ذلك أحد أو جحده إنسان.

وجدير بالذكر فى هذا المقام أن يشاد بالفضل العظيم لأخينا فى الله العارف به السيد (حسن عباس زكى) وزير الاقتصاد والتجارة الخارجية السابق، فقد أسهم فى بناء المسجد والضريح بأوفى نصيب وأعظم مجهود، وجزاه الله خيرا عما قدم من فضل وجهد وعون.

التجاؤنا إليه فى الشدائد

ومرة دخل بعض المريدين ضريحه، وحسب أنه سيظفر بجلسة مع شيخه وحده، مناجيا داعيا، وإذا به يرى ويسمع (أمين) ولد الشيخ ﷺ لصلبه يقول لأبيه فى حدة وصرامة، ويخاطبه خطاب المشاهد المعاين، ويقلب نظره فيه نظر الرائى المبصر: (يا أبى أنا لا أطلب منك أبدا أى شىء بعد فى الدنيا، إذ قد تركت لنا ما يكفينا، غير ما تركته لنا من جاه ومنزلة بين الناس، ولكن هذا الأمر الذى وقعنا فيه، إن لم تسارع بزواله وتخليصنا حالا منه، وتمحو ما لحقنا من ورائه من أذهان الناس، تغيرت نظرة الناس إلينا، وعقيدتهم فينا، يا أبى: أنت كنت أيام حياتك تقضى مصالحنا، وتحل مشاكلنا

فإلى من نذهب اليوم؟ أنت تعلم ما نحن فيه، فبما لك عند الله من منزلة، عجل بالخلاص مما نحن فيه) فالتفت ابن الشيخ ﷺ فوجد ذلك المريد خلفه يسمع مقالته، فقال له: ماذا حدث يا أمين؟ فقص عليه قصته، فتأثر ذلك المريد، وتوجها معا إلى الله متوسلين بالشيخ فى إنجاز ما طلب ولد الشيخ وبحمد الله، تم الخلاص سريعا من هذه المشكلة وكان الأمر خلاف ما نتوقعه، ولم يبق لذلك أثر فى العقول ولا فى الأذهان وكأن هذا الأمر ما كان.

أعمال خالدة الذكر

ومن كراماته ﷺ أعمال صالحة خالدة يجرى ثوابها عليه، ويصل أجرها إليه، بعد انتقاله إلى مولاه، تحقيقا للحديث الشريف الصحيح "إذا مات ابن آدم، انقطع عمله إلا من ثلاث .."[1] الحديث.

ومن هذه الأعمال الصالحة، ما يأتى:

أ) ذلك المصحف الشريف الذى كتبه بخطه،وسبقت الإشارة إليه، والذى يتداوله الناس للتلاوة فى احتفالاتهم الدينية، فلا ريب أنه من الأعمال الجارية ثوابها عليه، وأن الملائكة ستظل تستغفر له ما بقى ذلك العمل.

ب) كتاب كنوز الأسرار فى الصلاة والسلام على النبى المختار، الذى جمعه وطبع فى حياته على نفقة العارف بالله الوزير المسلم السيد (حسن عباس زكى) ثم طبع مرة ثانية من سيادته فى مطابع دار الشعب، ونشر فى العالم الإسلامى كله.

وبحق صار هذا الكتاب فريدا فى صيغه فى الصلاة على النبى ﷺ، وإن لكل صيغة من الأجور والمثوبات ما لا يقدر، ومن رغب فى معرفة فضلها فليرجع إلى المطولات التى عنيت ببيان فضل صيغ الصلاة على النبى ﷺ، والروايات التى لكل صيغة وفائدتها وثوابها، مثل كتاب (سعادة الدارين) للشيخ النبهانى، وكذا (جواهر البحار) ونحوهما،

---

[1] رواه الترمذى عن ابى هريرة رضى الله عنه.

ومازال ثواب قراءة هذه الصلوات المطبوعة المتداولة فى العالم أجمع راجعا إن شاء الله وجاريا بفضله تعالى على من كان سببا فى جمعها ونشرها وطبعها ونسخها وحث الناس على قراءتها.

"من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة" رواه مسلم وغيره عن جرير.

ج) ومن الأعمال التى يجرى ثوابها عليه أيضا أعمال مريديه السائرين على طريقته العاملين بهديه، فلشيخنا مثل ثواب أعمالهم الصالحة التى دلهم عليها، وأرشدهم إليها مصداقا لقوله ﷺ "الدال على الخير كفاعله" رواه الطبرانى والبزار عن بن سعد.

ويشهد الخلص من مريديه أنه ﷺ ما زال مرشدا وموجها ومبشرا ومحذرا لهم بعد انتقاله فى صورة الذى حمل لواء الهداية بعده.

(د) ومن الأعمال التى يجرى ثوابها عليه مسجده المبارك الذى تجذبك إليه أنوار مئذنته، ويأخذ بلبك عمارته وهندسته، ولقد اشترى ﷺ أرض هذا المسجد وأعد بعض مواد بنائه وجمع له ما تيسر من تبرعات أبناء الطريق لإقامته وإنشائه، واطمأن على رسمه وقال: (إن هذا الرسم مطابق لما أرانى الله من هيكل هذا المسجد بعد بنائه) إذ قال ﷺ (سنرسى حجر الأساس لهذا المسجد إن شاء الله فى يوم الاثنين) وفى يوم الاثنين انتقل إلى جوار مولاه، ولا شك أنه سيجرى الله عليه بفضله من الأجور والدرجات، بعدد المصلين فيه إلى ما شاء الله.

بقاء طريقته

ومن كراماته ﷺ بقاء طريقته وإمداداته بعد نقله؛ فلقد كان بعض مريديه يتخوف من تصدع وحدتهم، وتفرق كلمتهم، وإخفات نور الطريق، بعد نقل الشيخ إلى جوار الله، فعرف الشيخ بإلهام من الله ما يجول بخواطرهم، وما تتحدث به إليهم نفوسهم فابتسم ابتسامة الواثق، وقال لهم مرة فى بعض محادثاته (يا أولادى لن تراعوا فستكونون

بعدى أكثر ألفة واستمساكا بالطريق كما كنتم فى حياتى) واستطرد قائلا (إن كنتم واثقين بأن لى عند الله منزلة لمسها الكثير منكم، وأن لى جاها عنده جل شأنه، فسأكون بعد موتى أعظم جاها، وأرفع منزلة، فالسيف فى قرابه يكون صالحا للدفاع، وإذا نزع عنه غمده كان أمضى وأفعل منه وهو فى قرابه، فالروح بعد خروجها من صدفها وجسمها، تكون أرقى وأقدر حيث تخلصت من سجنها).

وحقا إن الروح ما دامت فى جسمها فهى مقيدة به، مهما طهر الإنسان وخلص من بشرياته، فأولياء الله المحقون فى برازخهم، كراماتهم أعظم وأكثر منها فى حياتهم، وهذا أكبر دليل على أن الكرامة للولى فى حياته وبعد انتقاله وبخاصة إذا كان الولى ذا وراثة محمدية، فهو الذى تكون طريقته من بعده أكثر انتشارا واتساعا منها فى حياته.

خليفة الشيخ ﷺ

كتب هذا الفصل نجل الشيخ الأستاذ سليمان

لقد صدق الله والدى فى قوله وبدلت مخاوف مريديه وأنسوا واطمأنوا عندما وجدوا بعد نقله دفعا قويا إلى الله، واستمساكا بوحدتهم وطريقتهم، وذلك لما بعد تولى قيادتهم الروحية خليفته ولى الله الكبير التقى النقى الطاهر العارف بالله (الشيخ عبد الجليل قاسم ﷺ) وتعجب أنه لم يختر خليفته من ذريته وإنما انتقاه من صفوة أبنائه الروحيين برغم أنى أكبر أولاده صلبا وأعمل مفتشا فى التربية والتعليم وكنت على صلة محمودة بالطريقة ومعرفة لآدابها، وجهاد لا بأس به.

ولا عجب ولا غرابة حيث إن الله اصطفى الشيخ (عبد الجليل قاسم ﷺ) لرسالته واجتباه لولايته، ولم يكن بين المريدين من يحمل صفاته ويتجمل بصفائه، ويكفى دلالة على صدق ذلك قول أبى ﷺ لنا: إن الرسول ﷺ أمسك بذراعه (يعنى ذراع الشيخ عبد الجليل) ليلة التقائى به لأول مرة وقال لى (خذ بالك من هذا) وصدق الله إذ يقول ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وقد أخبر أبى ﷺ الكثير من المخلصين للطريق ومن يهمهم الأمر قبل انتقاله بتولى فضيلة الشيخ (عبد الجليل قاسم ﷺ) قيادة الطريق بعده.

أ) فقد قال أبى ﷺ للسيد/ حسن عباس زكى أمين سره فى عهده وصمام أمن الطريق بعده: إن الخليفة بعدى (عبد الجليل قاسم ﷺ) وبين له بعض خواصه ومميزاته، وأمره بإعلان ذلك على المريدين بعد انتقاله.

ب) كما رأى أيضا السيد/ (محمد عباس زكى) رؤيا منامية فعرضها على الشيخ ﷺ فى منامه، ففسرها له فقال له السيد/ محمد: (ومن الذى يفسر لى رؤياى بعدك يا سيدى الشيخ) فقال ﷺ (عليك بالشيخ عبد الجليل ﷺ) ولما استيقظ من نومه ذهب إلى

شبلنجة وحدث أبى ﷺ بما رأى، واستفسر عن الشيخ (عبد الجليل) ومكانته فى الرؤيا فقال أبى ﷺ: (يا محمد إنه الخليفة بعدى، ولا تبح بهذا السر لأحد إلا بعد موتى).

(ج) ولقد انفرد أبى ﷺ بالشيخ (عبد الجليل ﷺ) وابن عمه الشيخ (جودة قاسمﷺ)، فوجه حديثه إلى الشيخ جودة قائلا: (إنها نقالة فى البيوت وفى الأقطار، الولد هذا - وأشار إلى الشيخ عبد الجليل- هو خليفتى، التفوا حوله وعضدوه وكونوا رجالا من بعدى).

(د) وقال أبى ﷺ بعد ذلك للشيخ عبد الجليل: (أسهم فى بناء المسجد بمبلغ أكثر من إخوانك لأنك أنت الخليفة)، وكان ذلك الحديث أمام (محمد حسنين هرجة الشهير بحسنى هرجة من بلدة العزيزية شرقية).

وقد صدق الله أبى وكان فضيلة الشيخ (عبد الجليل ﷺ) هو خليفة أبى ﷺ بحق الذى حمل لواء الهداية بعده وأدى الأمانة التى حملها من شيخه على الوجه الأكمل.

بعض مميزات خليفة الشيخ

ولقد وهب الله سبحانه وتعالى خليفة أبى ﷺ: سلامة الفطرة، وحسن الاستعداد، مما جعله جديرا بحمل الأمانة كفئا لها، فهو من علماء الأزهر الشريف، نبت فى أحضان الدين، ونشأ شابا فى طاعة ربه، غاض الطرف طاهر الذيل فى حياء العذراء، يقضى نهاره فى الطاعة والصيام، وليله فى الذكر والقيام، ولمواظبته النادرة على قيام الليل، كان شيخه يدعوه (بفارس الليل) عرف الطريق إلى شيخه فى سن الثالثة والعشرين، واختلى إلى ربه بإذن شيخه بعد ذلك بقليل، فتفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، وأطلعه الله على كنوز الأسرار، وكشف عن بصيرته الأغيار، وملأ سره بالأنوار، فحفظه الله ونصره على نفسه وهواه، وتخطى آمنا بفضل رعاية شيخه ـ رضوان الله عليه ـ له عقبات الطريق وجنبه الله وعرها، وسلم من مزالقها، ففتحت له خزائن المعرفة، وانطلق لاتعوقه العوائق ولا تحده الحواجز ولا تحجبه العلائق، يرتفع فى حضرات الشهود، وينعم بأسرارها وبمذاقاتها ويجنى من شتى ثمارها، ففاضت ينابيع العلوم على

لسانه، ينطق من العلم المكنون والمعارف اللدنية بما يدهشك ويستولى على قلبك، لأنك تستمع منه كل يوم جديدا لم يسبق إليه، وعلما بكرا لم يفتض من قبل، لأنه غرف من معين شيخه ونهل من مورده، ومن ينبوعه شرب، ومن بحار لآلئ علومه جمع ووعى، ومن خزائن أسراره ملك وحوى، وذلك فضل الله يختص به من يشاء من عباده، والله ذو الفضل العظيم.

وحسبك لما ذكرناه آنفا من استيصاء الرسول ﷺ به شيخه، ومن أول أمره فى الطريق نظر إليه الشيخ نظرة خاصة أظهرت كل ما فيه من صفات المريد الصادق، فقد هاجر من مسقط رأسه وموطن أهله (كفر أبى زهرة مركز بنها) إلى شبلنجة بلد الشيخ ليكون دائما بجواره، وملازما له فى كل أحواله وفى حله وترحاله، سلم نفسه لشيخه ﷺ فأحبه من كل قلبه، ورعى كل شئونه، وأعده وارثا لحاله، واختار له زوجته التى منها أولاده، من بلدة العزيزية شرقية.

وقد حرص أبى عليه رضوان الله أن تكون شريفة النسب، وقد كانت كما أراد والحمد لله، فهى من أسباط ولى الله (سيدى جودة) دفين منيا القمح، وله مقام يزار إذ هو جد أبيها لأمه، وقد انعكس عليها كثير من صفات أهلها وجدها ﷺ.

ولقد اختار أبى له المكان الذى بنى فيه بيته الذى يسكنه الآن، وكان غريبا أن يختار أبى هذا المكان بالذات، مع وجود غيره من الأمكنة المفضلة عليه، ولكن سرعان ما أن زالت الغرابة عندما عرف بعد أن المنزل الذى اشتراه لخليفته قريب من مسجده ﷺ، وقد باشر أبى ﷺ شراء أرض هذا المنزل، وتولى بنفسه الإشراف على أعمال بنائه، وإعداد أبوابه ونوافذه، كما كان يتولاه فى كل أموره، أكثر مما كان يعمله لأولاده صلبا، مما جعل القاصى والدانى يشهد بذلك حتى جاء بعض الحاسدين من أعداء الطريق يريد التفرقة بين خليفته وبيننا نحن أبناءه لصلبه قائلا أمام الكل: (إن أباك يا سليمان كان يعمل للشيخ عبد الجليل أكثر مما كان يعمل لكم)، فابتسمت لأفوت على هذا العدو الفرصة لأنى عرفت هدفه وقصده، وأنه يريد أن ينفث سمومه للتفرقة وهدم بناء تلك الوحدة.

وقلت: (أنا أعلم بذلك منك وهذا مما يسرنا، وإنه له المنزلة فى قلبى بعد والدى)، وإننا بحمد الله لمسنا فيه الحرص علينا، وعلى مصالحنا أكثر من حرصه على نفسه، ليرد جميل شيخه وليحقق قوله تعالى ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣].

وظل أبى ﷺ يتعهد خليفته بالتربية ويتولاه بالإرشاد ويتبعه بالنصح والإمداد، وهو يثب المقامات وثبا، ويلازم شيخه ملازمة الظل للأصل أكثر من عشرين سنة، لا يتركه فى سفر ولا إقامة، يقتفى أثره ويتتبع خطاه وينهج نهجه ويتذوق من مذاقاته، ويستقى من معينه، ويستجيب لكل تعاليمه، ومن ثم آثره شيخه بالحب الكبير، فكان يشعر بكل راحة فى وجوده ويفرده بمكانة خاصة، ويوصى ذوى الحاجات أن يستدروا دعواته، ويدعوه للحديث فى المجالس، فيهش لقوله، وتتفتح أسارير وجهه لما يفاض عليه من معارف وأسرار.

وهكذا: أسلم لشيخه ﷺ القياد، فأفلح وأفاد وسار من رقى إلى رقى، حتى تسنم من المراتب ما أهله للهداية والإرشاد وما جعله خليفة لشيخه.

ليست الطريقة وراثة نسبية

وبذلك يستبين لك أيها -القارئ الكريم- أن طريق الله عز وجل لا يعرف التحيز، ولا التوارث للرئاسات، فتلك خصوصيات يؤثر الله بها من يشاء من عباده ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

وحقا قد تمثلت فيه الوراثة الصحيحة لشيخه، فما أن قلد أعباء الخلافة حتى منحها كل وقته، وانصرف إليها بكل همة، ومن يومها قل نومه وضعف أكله واعتراه بعض الهزال، للدقيقة عنده حساب، يرعى المريدين ويظللهم بالحب، ويتتبعهم بالإرشاد، كل حسب ما يناسبه ويراه، لا يقدم أحد على أمر من أمور دينه أو شأن من شئون دنياه إلا بعد استشارته مستنيرا بما أمده الله من إلهام فيه، فشغلته شئون المريدين، فيبيت بهَمٍّ هذا ويستيقظ على مشكلة ذاك، يستعين بالله على تفريج كروبهم ويوجههم إلى ما يحل

مشاكلهم، ولا يستريح حتى تحل العقد وتنفرج الكرب اقتداء بشيخه فى رعايته لأولاده أيام حياته وتدبير كل شئونهم.

همة عالية

لقد كان للخليفة همة عالية تجلت أول ما تجلت فى بناء المسجد والضريح، وفى دقة إشرافه على بنائهما، وسهره على إنجازهما، فى أسرع وقت ممكن، مع ظهورهما فى أبدع صورة وأجمل هيئة، وتتجلى تلك الهمة دائما فى كل أمر يراد منه، فما أسرع ما يصرف همه إليه، وما أسرع ما ينجز.

وما نحن بصدد الترجمة له فلذلك مكان غير هذا المكان، وإنما هى لمحة مبتورة لا تعطى إلا خطوطا قصيرة لتلك الصورة اقتضاها المقام فى سياق الحديث عن بقاء طريقة الشيخ ﷺ من بعده ما دام محقا وصادقا.

إنما القصد أن ترى كتابا من كتبه ولتطلع على جوهرة من نفيس جواهره.

الخليفة مرآة الشيخ

ولعل فى إيثار خليفته ذاك بالخلافة على ذريته وأبنائه من صلبه أبلغ آية على أن طريقة المترجم له فى سنام طرق الحق والصدق، إذ آثر داعى الحق على هواه، ونفذ ما يحبه الرسول ﷺ ويرضاه.

على أن إمدادات الشيخ ﷺ ظلت قبسا مضيئا منيرا لطريق أبنائه ومريديه بعد انتقاله كما كان فى حياته، فهو دائم الاتصال بخليفته اتصالا روحيا، يطلعه على دقائق أحوالهم أولا فأولا، ويتتبعهم بالترغيب والترهيب والتبشير والتحذير.

والخليفة أمين يؤدى الرسالة، ويبلغها بأمانة، لا يحابى ولا يواري، يبصر المقصر بتقصيره، ويبشر المتقدم فى طريقه، ويقول: (إنما أنا مرآة تعكس لكم مراد الشيخ وتعاليمه).

ومن هنا تولد فيهم نشاط جديد، فأسرعوا الخطى فى طريقهم إلى الله، ملتفين حول الخليفة وقد منحوه كل حبهم، ودامت اجتماعاتهم فى الله، يحيون ذكرى مولد الرسول ﷺ طوال ليالى شهرى ربيع الأول والآخر من كل عام، إحياء لسنة شيخهم ﷺ فى هذه الذكرى الطاهرة، ويستهلونها بالاحتفال بذكرى مولد شيخهم التى تصادف أول ليلة من شهر ربيع الأول من كل عام، ويقضون بقية شهور السنة فى جلسات علمية تعبدية فى مسجدهم وبجوار ضريح شيخهم، فالمسجد مقرهم الدائم، وملتقاهم على اختلاف أماكنهم وبعد ديارهم، فهو منزل كل مريد ومحط رحال كل آت من بعيد، الدرس منه يقرأ، والخليفة فيه يجلس، فيخص القصاد والمريدين بما يفيض الله به عليه من الإرشاد كل حسب حالته وما يناسبه، وقاضيا لكل حاجته ومبلغا الكل غاية المراد.

ماننسخ من آية أو ننسها نات بخير منها أو مثلها

لعلك -أيها القارئ الرشيد- بعد رحلتك معنا فى هذا الكتاب أدركت مكانة الشيخ ﷺ وعرفت قدره، وثبت عندك له صورة واضحة، وأنه بحمد الله ما انتقل إلى جوار مولاه حتى ترك ورثة له فى حاله ومقامه وعلمه وكماله، ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[البقرة:١٠٦] والآية كما قال المحققون (ولى الله أو العارف).

وحقا: إن لله ملائكة سياحين يسوقون الأهل إلى أهلها، وكما قالوا: (الصديق عنوان صديقه،وإن القرين إلى المقارن ينسب).

سبق أن قلت اختار أبى ﷺ وارثه فى الهداية والتسليك، وخليفته للدعوة والقيام بأمر الطريق الشيخ (عبد الجليل ﷺ) لما امتاز به من بين أبنائه بتلكم السمات، وما خصه به شيخه بالمكنونات، إلا أن هناك أعلام هداية دالة على ذلكم الطريق، ومنارات إرشاد فى هذا السبيل، وكما أن الخليفة الأول لسيد الخلق سيدنا أبو بكر، وأنه ما استحق ذلك إلا لقربه من ربه، ولكمال إرثه المحمدى، ومع هذا فقد قال ﷺ: "أصحابى كالنجوم، بأيهم

اقتديتم اهتديتم"[1] فكذلك لم يكن الوارث الوحيد للشيخ فى كل شيء خليفته، فهناك من بعده ورثة آخرون لعلمه وهدايته، وكواكب لامعة هادية إلى سننه ونهجه، دالون على طريق الحق ومرشدون، كل واحد منهم جدير بنشر الرسالة، وحقيق بحمل تلك الأمانة وهم بحمد الله كثيرون، إذ كما علمت أن جل أبناء الشيخ ـ رضوان الله عليهم ـ علماء عاملون ومخلصون صادقون ولا حرج على فضل الله يهبه من يشاء.أهـ

بقلم سليمان القاضى

---

[1] رواه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم و البيهقى و غيرهما عن جابر بن عبد الله ﷺ

كتبه تصحح نسبه

الكتاب مأخوذ من الكتب وهو الجمع والضم، فهو يضم ويجمع معلومات أو معارف أو آداب ينال منها القارئ حسب همته وما قدر له الحق من نفع بتلك الآداب، أو هداية وإرشاد وإن كان الكتاب فيه سر صاحبه إلا أنه مهما كان لا يصل إلى منزلة الإنسان الذى أوتى البيان، فهو على بينة من ربه، ذلك الإنسان المرشد الدال الذى يلاحظ لكل استعداده وحاله، ويصف له ما يتناسب من علاج حسب علته ودائه كالطبيب النطاسى الخبير العالم المدقق.

فالشيخ ﷺ لم يؤثر عنه أن كتب كتابا أو ألف ديوانا أو رسالة، لأنه تمثل بحال سيدى أبى (الحسن) ﷺ لما سئل لما لم تؤلف كتابا؟ فقال أبو الحسن ﷺ: (كتبى أصحابى).

فكذلك أولاد شيخنا ﷺ وأصحابه الذين بثهم علمه، ونفخ فيهم من روحه، وأودعهم سره، هم بحمد الله من بعده منارات هدى، وأعلام إرشاد للقاصى والدانى لا يخبو ضوءهم، لأنه من نور الله، لأن الله قد شرح صدورهم وأتم نورهم، ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر:٢٢] فمن كان يمده نور الله وإلهاماته وارداته فلا ينقص نوره، ولا تأفل شمسه، ولا يغيب نجمه، ومن كان بالله دالا عليه هاديا بعلمه إليه، فهو على بصيرة من ربه لا ينفد علمه، ولا ينضب معين ورده، ويكفيك أيها القارئ الكريم الاجتماع بأحدهم والجلوس إلى بعضهم، لتدرك حقيقة ما نقول وصدق ما نعلن، فإن قدر لك الاجتماع بأحدهم ولم يرشدك إلى الله تعالى مقاله هداك إلى طريق الحق حاله، وإن لم تتمثل بحاله فلا شك أنك انتفعت بسره وبمجالسته وإن لم تشعر؛ إذ هذا من أعمال القلوب، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]، وانظر حديث المصطفى ﷺ فى الجليس الصالح حيث يقول فيه:"إما أن يحذيك، وإما أن

تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبا"[1]وحسبك الحديث الآخر "هم القوم لا يشقى جليسهم"[2] فما ذكرنا فى هذا الكتاب من خصائص لشيخنا أبرزناها ومآثر عنه رويناها ومميزات إليه نسبناها أو مفاخر قلناها ما هو إلا قطرة من فيض أو زهرة من روض مما كان عليه أمر شيخنا ﷺ ولولا مخافة الدخول فى الوعيد الشديد الذى أنذر به سيد الخلق ﷺ: "كاتم العلم ملعون"[3] لما قلنا للناس شيئا عن شيخنا ﷺ لأن المحب العاشق لا يحب أن يعلن عن شيء من سر محبوبه وحقيقة أمره لغير أهله غيرة عليه، وما روينا عن شيخنا شيئا مما ذكرناه فى هذا الكتاب عنه إلا لنسلم من طائلة الكتمان، ولولا مخافتنا على القلوب من الزيغ وعن النفوس من الميل لقلنا عنه الكثير مما هو أعجب وأغرب، ولكنا توسطنا فى الأمر، فذكرنا قدر ما تطيق العقول، وضربنا صفحا عن الغريب البعيد عن العقول خوفا من لجلجة الصدور.

وإننا نعلم تمام العلم وندرك كمال اليقين، أن ما سطرناه فى هذا الكتاب سيكون موضع القيل والقال ممن طمس الله بصائرهم، ومجال اعتراض وإنكار لمن أعمى الله قلوبهم وجلسوا قاطعى طريق الله على مريدى الله، وأنهم أشواك تؤذى كل من مر فى طريق الصواب وسلك سبيل الحق من الأحباب.

ولكنا نقول: متى كان طريق الحق بمنأى عن هذه الأشواك وبمعزل عن هذا القتاد، وطريق الحق ما هى إلا طريق رضاه والجنة، والرسول ﷺ يقول "حفت الجنة بالمكاره"[4].

ونحن نقولها صريحة، ونعلنها بلقاء بحق ليطمئن قالة السوء فينا، وأكلة لحوم البشر إننا من جانبنا من الآن قد سامحناهم، ولوجه الله تركناهم، لأن هذه شيمة شيخنا ﷺ وما

---

[1] متفق عليه عن أبى موسى الأشعرى ﷺ

[2] رواه مسلم و غيره عن أبى هريرة ﷺ

[3] رواه ابن عدى و الخطيب وابن عساكر وغيرهم عن جابر ﷺ بمعناه.

[4] رواه مسلم عن أنس بن مالك ﷺ.

عليه عودنا، وما به أخذنا فى طريق التربية إلى الله، وما غرسه فينا من كريم الصفات ومحاسن الشيم أننا نعفو عن المسيء، ونسامح الناهش لعرضنا،وذلك مصداقا لورد شيخنا ﷺ الذى مر بك وعنه أخذناه، أن نقول كل يوم: (اللهم إنى جعلت عرضى صدقة على كل من تكلم فيه).

هؤلاء أيها القارئ الأريب مريدو الشيخ وهم كتبه، فلا يصل المرء إلى نهاية أحدهم، ولا يفرغ من قراءة ما فى صدورهم، لأنهم فرَّغوا لربهم قلوبهم، فأحلها وارداته، وعلقوا به هممهم فأعزهم وتولاهم وأباحهم سره فناجاهم وصافاهم، فما يزال الحق يمدهم ويرعاهم ويفرغ فى صدورهم ويتولاهم، فعلومهم بكر دائما، وموردهم صاف خالص متجدد أبدا، تسمع منهم الآن جواهر الحكم، وبعد لحظات تبرز منهم غوالى المعانى وفريد الكلم، تشم منهم آنا عبيرا طيبا وآخر أريجا عاطرا، كل يوم هو فى شأن، فهم من شئون الحق المتجددة يمدون، إذ يتعرفون بفضل الله على مراده سبحانه منهم، أو ما يريده من خلقه، فهم مظهر لتجليات الحق ومهبط لوارداته، ومطلع لشموس هداياته، وما أخذوا ذلك أو نالوه وما وصلوا إلى ذلك أو أعطوه إلا بما نفث فيهم شيخهم من روحه، وما أودعه فى صدورهم من سره فهم مظاهر لكريم شمائله، ومطالع لشموس معارفه، وصور متنوعة لتعدد تجليات الحق عليهم.

ولقد سبق لك -أيها القارئ الكريم- أن عرفت أن الله سبحانه وتعالى كمل شيخنا ﷺ ومنّ عليه بمنن كثيرة متعددة من علوم ومعارف، إلى كرامات حسية أو معنوية، إلى إجلاء للغامض مما دق من علوم القوم وعباراتهم، إلى آخر ما ظهر عليه من تجليات الحق تعالى وما اختصه لنفسه أعجب وأغرب فلا غرو ولا عجب، أن يرثه أبناؤه ﷺ كل على قدر حاله واستعداده، فترى فيهم من يحدثك بلسان ربانى، قد ورث شيخه فى علومه ومعارفه، ومنهم من تجد عنده الرأى والمشورة لما يستقبل من الزمان وارثا حاله ﷺ فى الكشف، ومنهم من يزيل ريبك أو ما عندك من لبس فى أقوال القوم وعباراتهم، إلى غير ذلك من منن الله التى لا تحصى، وتجلياته التى لا تنتهي، وهم فى ذلك مقتدون

برسول الله ﷺ وصحابته متأسون بهم: "أفرضكم زيد، وأقرؤكم أبيٌّ، وأعلمكم بالحرام والحلال معاذ بن جبل"[1] رضى الله عنهم.

وها نحن أولاء نقدم إليك بعض كتبه، ونماذج من أعلام التصوف، رافعى لواء الطريقة الشاذلية القاضية، من هؤلاء الرجال من لهم المكان المحمود؛ والكل يعترف بمقامهم المشهود، ذلكم فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود.

[1] رواه الترمذى و النسائى و غيرهما عن أنس بن مالك ﷺ

حسبه تعريفا وكافيه تشريفا أنه صاحب العقيدة الصوفية الحقة، الذى وهب نفسه مدافعا عن قضية التصوف والمتصوفة، وكرث جهده مخرجا تراثهم مذيعا أخبارهم باذلا كل ما يستطيع فى الدعوة إلى طريقهم وترسم آثارهم، والاهتداء بأعلامهم.

هذا فضلا عن مؤلفاته العديدة التى ملئت بحكمه الرشيدة، إذ فاضت من قلبه السليم وجرت على لسانه القويم، وبدت فى بيانه العليم عن هدى الصوفية المستقيم، حتى لقب فى الأوساط الصوفية بأنه غزالى زمانه، وإمام صوفية القرن العشرين.

تعرف ولقاء وود ووفاء

التقى فضيلة (الدكتور) بشيخنا القاضى ﷺ أول لقاء فى منزل السيد/ حسن عباس زكى وقد ذكر فضيلته هذا اللقاء فى كتابه (المدرسة الشاذلية) وفى تقديمه لهذه الخصائص القاضية.

ومن يومها - والحمد لله- وفضيلة (الدكتور) لشيخنا محبا وواليا، ولحرمته راعيا، ولطريق الله سالكا وداعيا.

وهو برغم شهرته العلمية ومكانته الدينية يفخر باتصاله بفضيلة الشيخ ويعتز بنسبته إليه، ولا أدل على ذلك من تردده الدائم على مجلسه أيام حياته ﷺ وحرصه ما أمكن على زيارة مثواه بعد انتقاله، والتقائه بأحبائه وأصفيائه، إذ هو يرى فيهم صورة شيخهم ويأنس ويستمتع بأحاديثهم، وما ذلك إلا اعتراف منه بكبير فضل شيخنا ﷺ وإدراك لعلى قدره، وأنت تعلم ـ أيها القارئ ـ أن فضيلة الدكتور كثيرا ما التقى فى مصر وفى بلاد العالم العربى وغيرها برجال مختلفى المشارب والمذاقات الصوفية ومتنوعى الرشفات والرشحات الحقيقية، وبفلاسفة مختلفى الأفكار والنزعات العقلية.

وكم قرأ فى كتب القوم القديم منها والحديث، ثم تراه بعد ذلك قد حط رحاله فى حضرة شيخنا ﷺ وألقى بجرانه فى تلكم الساحة، واطمأن قلبه إليه، وشغف فؤاده بحبه، وبدا منه الإخلاص التام والوفاء الكامل ووده الصادق للشيخ ﷺ وللطريق.

وغير خاف عليك ـ أيها القارئ ـ من هو الدكتور عبد الحليم ﷺ صوفى عصره، رجاحة فى العقل وصفاء فى الفكر، وصدقا فى الحكم، وسدادا فى الرأى، ثم هو يرى فى الشيخ ﷺ ضالته المنشودة التى كم سعى إليها والشخصية الصوفية التى كان يقرأ عنها فى كتب القوم عن سلفنا الراحل، والصورة الصادقة للرعيل الأول، والمثل الواضح لرجال الله الكمل.

تدرك من هذا كله –أيها القارئ– فضلا عن كمال شيخنا ﷺ وعلو منزلته مكانة الدكتور عبد الحليم محمود ﷺ ورفعة شأنه، إذ ساقه الله لينهل من ذلكم النبع، فلو لم يكن أهلا لحضرته لما وجد فيها طلبته، ولو لم يكن جديرا بذلك المورد ما ارتوت منه غلته.

منزلته عند شيخنا

ومما يدلنا على مكانته لدى شيخنا ﷺ وعلو منزلته عنده اهتمامه به وحدبه عليه، ورغبته فى ملازمته، فقد حدث أن فضيلة شيخنا لما عزم على زيارة سيدى أبى الحسن الشاذلى ﷺ فى حميثرة أحب أن يكون فضيلة الدكتور عبد الحليم معه فى تلك الرحلة، وأعد له مكان مع رجال الرحلة المباركة، ولكن فى آخر لحظة لظروف طارئة وأسباب قاهرة لم يتمكن فضيلة الدكتور من السفر مع شيخنا، فأسف الجميع لذلك لتعلق الكل به وحرصهم على صحبته لهم فى هذه الرحلة الميمونة، ولا أدل على ذلك من تذكرنا له وتردد اسمه على كثير من الألسنة والدعاء له فى مقام سيدى أبى الحسن ﷺ.

وفى ذلك الرحاب الطاهر وفى ساعة مباركة منَّ الله فيها علينا بنفحة من صاحب الساحة الرحبة والمقام المبارك ـ سيدى أبى الحسن الشاذلى ﷺ ـ فذكر شيخنا ﷺ فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود ﷺ فأثنى عليه، وذكر فضله، ثم رفع يديه لله ضارعا ومنه راجيا (أن يعلمه من العلم المكنون، ويفتح له باب الغيب، ويفيض عليه من نفحات القرب) فأمن الجميع على دعاء شيخنا، ثم أسر الشيخ للبعض فقال (إنى أنتظر له مشيخة الأزهر، فهو جدير بها، ولا أجد فى نظرى أولى بها منه) وبحمد الله قد تحققت نظرة الشيخ ﷺ، وها هو ذا اليوم قد تربع على عرش مشيخة الأزهر، وتفاءل المسلمون

جميعا فى بقاع العالم خيرا بتوليته ذلك المنصب ورجوا للإسلام نهضة، وللدين رفعة على يديه.

ولما عدنا من الرحلة وأخبرنا فضيلة الدكتور عبد الحليم بدعوة الشيخ ﷺ له فرح واستبشر وبحمد الله ظهرت آثار هذه الدعوة جلية فتفجرت الحكمة على لسانه وعذب بيانه واشتاق الكل لسماع حديثه المفصح عن كامل يقينه وصادق عرفانه، وأقبل راغبو التصوف والمتعطشون إلى المعرفة على كتبه، وحرص الكل على الالتقاء به والنفع منه والإفضاء له بما لديهم من شكوك وشبه ليجلو لهم الحقيقة فتزول هذه الشكوك والشبه ويخلصهم من حيرتهم، وكنا نرى له يوما بعد يوم قربا من الله ودنوا ورقيا فى الدرجات ورفعة فى المقامات.

بعض خصائصه

وماذا نقول فى علم شهد الكل رفعته، وفى منهل صاف ذاق المسلمون عذوبته وما علمناه مغرورا ولا متكبرا ولا بعلمه على الناس أو الأقران متعاليا، يسمع من الشاكى شكاته ويصغى لأناته ويرشد الراغب ويوجه الحائر إلى أقرب الطرق إلى الله وأقومها إذ لديه إجازة فى التسليك والتربية لطريق السادة الشاذلية، وهو مع هديه وإرشاده فما يزال دائبا مجدا فى سيره إلى الله وجهاده إذ ما من وصول إلا وبعده وصول، وما من قرب إلا وبعده قرب، فكما أن كمالات الله تعالى لا تنتهى فالسير إليه والوصول له لا ينتهى، يعمل دائما فى طاعته ويسعى صابرا محتسبا مكتفيا بعلم الله تعالى فيه، راجيا فى كل أمره رضا ربه، ويكفيه فخرا دينيا زيه وملبسه، وسمته ومشيته، وصمته واتزانه، وهدؤه ورزانته، لا يحب الظهور بأى حال، معرضا عن الدنيا بشتى صورها، راضيا فى معيشته بما كفى، نائيا عن الترف واللذائذ، وليس كما يتوهمه بعض المغرضين أنه للدنيا جامعا وعلى حطامها مقبلا وما قلنا ذلك إلا بعدما تحققناه ولمسناه عن مشاهدة وعيان، وملازمة له فى كثير من الأحيان وسبر لخفى حاله المستور عن الناس، فهو بحق شعار للعلماء المخلصين والورثة للسنة العاملين، والهداة للطريق المحقين.

وحسبك له كمالا صلابته فى الحق، وأنه لا يخشى فى إعلانه لومة لائم، وقد يظن البعض ممن يجهل مقصده ونيته، أن فيه التشدد أو العصبية، ولكنها النزعة الدينية،

والصلابة العمرية الفتية، يدفعه إلى ذلك صادق إيمانه، وعميق إخلاصه، وراسخ إيقانه، فلا يحابى ولا يجامل، ولا يمارى ولا يجارى، يعلن الحق حقا ويستمسك به وليس عنه يحيد ولا يبالى وإن وقف فى ميدانه الوحيد، لا يخاف عظيما و لا يهاب عزيزا من قريب أو بعيد.

ومع هذا كنا نراه متغاضيا دائما عن الزلات، صفوحا عن الإساءات، وكم نال منه ذوو السفه والبذاءات وطيروا من حوله الشائعات، ورموه بكثير من المفتريات؛ وكما علمناه سخيا بماله وجدناه كريما فى طباعه، فما حرك ذلك منه ساكنا، ولا هز له عودا ولا غير من هدوئه المعروف ولا بدل من حلمه المألوف، حتى كان بعض المخلصين ممن حوله يثورون ويغضبون، ويغرونه بالرد على هؤلاء الحمقى أو هم للحقيقة يعلنون وعنه يدافعون، فكان ينظر ويبتسم ويصمت وكأن حاله يقول: (سوف تظهر الأيام الحق من الزور؛ وتبدد شمس الحقيقة هذه الغيوم) وكأنما يتمثل بقول الشاعر:

لو كل كلب عوى ألقمته حجرا ** لأصبح الصخر مثقالا بدينار

هذا عدا حرصه الكبير وسعيه الكثير لنشر تعاليم الإسلام فى جميع بلاد العالم الإسلامى بشتى الأساليب، بكتبه ومحاضراته، وإذاعاته وتسجيلاته، وذهابه لكثير من بلاد المسلمين داعيا وهاديا، وزيارته للمراكز الإسلامية فى البلاد الأجنبية موجها ومرشدا، بعد توليه منصب وزير الأوقاف ومشيخة الأزهر، ثم إحساسه بمشاعر إخوانه المسلمين فى كل مكان والتعرف على أخبارهم والسعى فى حوائجهم، وموالاته لهم وسهره على نشر التراث الإسلامى وآداب الطريق، وتوعية المسلمين وتعريفهم بشرع ربهم وسنة نبيهم ﷺ؛ ليكونوا على بينة من أمر الدين، وليعتصموا بحبل الله المتين، كى يتفهموا أسرار الإسلام ويدركوا مقاصد الشرع فى الأحكام، فتعود للمسلمين العزة والغلبة فى كل مكان ويرجعوا إلى ما كان عليه سلفهم فى غابر الأيام.

وكم نالت المساجد فى عهده من رعاية وعناية، وكم بنيت مساجد لله وأنشئت دور لتحفيظ القرآن الكريم، ورصدت الأموال لدروس الوعظ ونشر الدعوة فى كثير

من البلدان، كل ذلك جعل الجميع ينطق ويعترف بأنه ما كـان للمسـاجد شـأن كشـأنها فى عهد الدكتور عبد الحليم، حتى سمى الكثير وزارته وزارة المساجد والقرآن.

ومما هو جدير بالذكر اهتمامه بمسـجد شـيخه القاضـى ﷺ وبمكتبـة ضـريحه، إذ هـو يسهم بنصيب يشكر عليه فى إمدادها بكل مؤلفاته.

وإن له ثقة كبيرة فى هذا المكـان لمسـناها واضـحة فـى تعبيراتـه وتصـرفاته مما يجعلنـا نعتز بهذا الـولاء منـه مع أننـا نـدين لـه جميعـا بفضـل التتلمـذ عليـه فـى الأزهـر الشـريف وتخصصاته، ومع هذا فهو يتنزل معنا ويعتبر نفسه واحدا منا كمـا أنـه دائـم السـؤال عنـا يتحسس أخبارنا، وفـى أى مناسبة يتحـدث عنـا مشـيدا بنـا، معلنـا عـن طريقنـا، ومجمـل القول فمن نحن حتى نعرف المسلمين بالدكتور عبـد الحلـيم محمـود؟ وقـد عمـت شـهرته البقاع والبلاد، ولكنا أردنا ـ بمناسبة حديثنا عن كتب الشيخ (أصحابه) ـ إلماعـة سـريعة لما نعلمه عنه من رفعة فى المقام، وعلو فى الشأن، فالشمس لا تحتاج إلى برهان، والبحـر لا ينكر فضله إنسان.

الدكتور حسن عباس زكى

كيف اتصل بالشيخ

تعود السيد/ (عمر مرعى) [1] ــ جزاه الله خيرا ــ أن يستضيف فضيلة شيخنا رضوان الله عليه فى مسكنه بالقاهرة تبركا به، واعترافا بفضله، وكان يهتم جدا لمقدمه، ويعد مأدبة احتفاء به، ويدعو إليها الكثير من السادة والعلماء ومن لهم معرفة بطريق القوم ليتمتعوا بجلسة روحية مع فضيلة الشيخ ﷺ وكنت تجد السيد (عمر مرعى) فى هذه المناسبات يسيطر الفرح والسرور على كل جوارحه، وترى منه إنفاقا عن سخاء طبعى وكرم فطرى.

وكانت جلسة الشيخ ﷺ تعد من أعز وأندر الجلسات فى هذا العصر، إذ يدور فيها نقاش علمى بعيد عن التحزب والتعصب والجدل، وتعرض فيها بعض المشكلات الدينية تبسط فيها وجهات النظر فيما ظن أنه خلاف بين المذاهب وفى الحقيقة لا خلاف، إذ الشريعة جمعت بين الرخص والعزائم، فبعض أصحاب المذاهب أخذ بالرخصة والبعض الآخر أخذ بالعزيمة، وهذا من كمال الشريعة المحمدية لتلائم عزيمة القوى، وتوافق حال الضعيف، كما كان يدور الحديث فى مناقب رجال الطريق وحالهم شرح لبعض مقالاتهم.

وكان ممن حضر فى بعض تلك الجلسات فى منتصف عام ١٩٦١ السيد/ (حسن عباس زكى) وقد دعاه السيد/ (عمر مرعى) ليلتقى بالشيخ إذ حبه المعروف دائما

---

(١) السيد/ عمر من أسرة مرعي بالعزيزية وهي أسرة شريفة عريقة الجد ويمتاز من بين هذه الأسرة بمحبته للصالحين واستضافتهم في بيته، وهو كثير الزيارة إلى أضرحة الأولياء وميزته العظمى سلامة الفطرة ونقاء السريرة وبذله الفائق عن الحد وكرمه الحاتمي وهو الآن يشغل منصب رئيس مجلس إدارة مؤسسة المطاحن.

للخير جعله يدعو كل من يعرف عنه رغبة فى سلوك الطريق وحبا لأهل الله وميلا لمعرفة ربه وشوقا للتعرف على أهل الله.

ولما التقى السيد/ (حسن عباس زكى) بفضيلة الشيخ ﷺ لأول مرة نظر كل منهما إلى الآخر متأملا، وحدقا النظر طويلا، وكأنما هذه النظرة تغوص فى أعماق الماضى لتظهر ما بينهما من أواصر وعلاقات قديمة، وتخرج ما كان بينهما من سابق اتصال أزلي، أو كأنهما كانا على موعد، إذ لمعت فى وجهيهما علامات السرور، وبدت منهما أمارات الراحة لهذا اللقاء، وكنت تدرك أن كلا منهما كأنه كان يفقد شيئا فعثر عليه، أو لكل منهما ضالة اهتدى إليها واطمأن لوجودها واستراح لنيلها، حقا "**الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف**" وقبيل انتهاء الجلسة رغب السيد/ (حسن عباس زكى) أن ينفرد بالشيخ ﷺ فى جلسة خاصة، فمكنهما السيد/ عمر من ذلك وهيأ لهما حجرة بعيدة عن الاجتماع، وبعد فترة طويلة خرج الشيخ والسيد/ (حسن عباس زكى) من تلك الحجرة، ثم ودع الشيخ الجميع وعدنا إلى شبلنجة.

ولما جرى حديث الشيخ ﷺ فيما بعد عن السيد/ (حسن عباس زكى) قال فضيلته: (إنه ابن طريق بحق، أفضى إلى بما عنده، فوجدته ذا قدم راسخة ومقام كبير فى الطريق، ومما زادنى إعجابا به وتفاؤلا له برقى كبير، أدبه وحسن عرضه فى أخذه العهد إذ قال لى: (أنا متوضئ وهل أصلح أن أكون من أبنائك وأتشرف بأخذ العهد منك)، فقدرته جدا لأدبه وأعطيته العهد، إذ الطريق كلها أدب، "ومن زاد عليك أدبا، فقد زاد عليك فى الطريق".

وبعد أيام التقى السيد/ حسن عباس زكى بفضيلة الشيخ ﷺ فى عزبة السيد/ (عمر مرعى) بالسعديين شرقية، وكانت هذه الجلسة خاصة أفرغ فيها للشيخ كل ما يدور فى نفسه وأطلعه على مكنون صدره وبما هو عليه، وما الذى يرجوه، وتوسل إليه أن يدعو له ويرعاه، فقبل الشيخ رجاه، وتمنى له القرب والوصول، ومن يومها وعين الشيخ ترعاه ونظره يكلؤه، وظل ملازما للشيخ ﷺ حتى انتقاله إلى جوار ربه وهو عنه راض تمام الرضا؛ لأنه مع مكانته وجاهه كان فى حضرة الشيخ متحليا بكامل الأدب، حافظا لإشاراته، منفذا لرغباته واعيا لتلميحاته، وما بدأ السيد/ حسن عباس أمرا أو

عزم على عمل حتى يستشير الشيخ فيه، إذ هذا أدب كبير فى الطريق، فلا ينبغي للمريد أن يشرع فى أمر أو يدخل فى عمل حتى يستأذن شيخه وهو بحمد الله كان محافظا على كل آداب المريد مع شيخه، وخلاصة القول فيه أنه كما قال الشيخ عنه: (إنه ابن طريق بحق، عامل بكل آدابه).

ظل السيد/ حسن عباس زكى يتسلق المقامات ويرتقى الدرجات ويعرض كل ما يراه على شيخه ويسأله التوجيه فيما يرى، وبعد مدة وجيزة رأى فى منامه أن الرسولﷺ خلع عليه بردته فهنأه الشيخ بهذا، وقال له: (أنا مترقب لك علوا أكثر، وأنت جدير بتلك المنزلة وأهل لها) وأعطاه الشيخ إجازة بالتسليك فى طريق القوم، إذ هو يستحق هذه الإجازة بتلك الرؤية.

ولقد أسر إليه الشيخ مرة بعد أخذ العهد (إنك ستترك الوزارة، إذ كان يومها وزيرا للاقتصاد، ولكنك ستعود إليها بعد)- فقال له السيد/ حسن: (أنا لا يعنينى أبدا أن أكون فى الوزارة أو خارجها، وإنما الذى يعنينى علاقتى بربي ورضاك عنى) فقال له (من أجل ذلك ستترك الوزارة، ليكمل تفرغك له سبحانه حتى تقطع عقبات الطريق، ثم تعود إن شاء الله إلى الوزارة كاملا محصنا لا يخاف عليك فى الطريق، مأمونا عليك من مزالقه، لا تخدعك الدنيا بزخرفها، ولا تغرك بمناصبها وزينتها) وكانت هذه كرامة للشيخ، إذ خرج السيد/ حسن من الوزارة لينفرد للحق، وظل خارجها حتى انتقال الشيخ إلى جوار ربه، وبعدها عاد إلى الوزارة تصديقا لما أخبر به الشيخ، وبحمد الله كم جرى على يديه فى هذه المرة من خير وفير للبلاد، فتخلصت من ضيق اقتصادى وتحسن مركز مصر الاقتصادى بين دول العالم، وشهد بذلك الجميع، وتحدث الكل عنه، وأحس أهل البلاد بالرخاء، ونعموا بوفرة الخبز والكساء، ولله رجال يجرى الخير على أيديهم فكان وارثا يوسفيا فى عصره أمينا على خزائن مصره، فبارك الله فى مواردها وأسعد حال أهلها، مما جعل حكامها ورؤسائها يشيدون بذكره وجهوده، ويتندرون بإخلاصه فى العمل وبذله كل ما يستطيع فى سبيل رخاء الشعب وطيب عيشه.

حب الشيخ له

ولقد كان حب الشيخ له كبيرا جدا، فيعد العدة لاستقباله فى شبلنجة قبل مجيئه، ويحثنا على المسارعة بعد خروجنا من أعمالنا مباشرة لنكون فى استقباله، وكان الشيخ يوم زيارته يلبس حلة من السرور والسعادة لا تقدر، وما كان حب الشيخ له إلا لمكانته عند الله ولما يحويه فى صدره من أسرار وأنوار وعلوم ومعارف وإلا فكم التقى الشيخ بكثير من الوجهاء والعلماء وأصحاب المناصب الرفيعة فى مصر وغيرها حتى رأينا مرة بعض ذوى الجاه والمنصب الكبير يرجو زيارته فى شبلنجة فأبى الشيخ، ولما رأى منه الغضب داعبه فيما بعد جبرا لخاطره بقوله: (إن منزلى فى شبلنجة لا يليق لك)، وكم رجاه بعض العلماء والسادة فى زيارته فى بيوتهم فيأبى، ولما قلنا له فى ذلك قال: (إن أمثال هؤلاء لا أجد فى وجههم نورا، وإن الجلوس معهم يقسى القلب) فبذا تأكد لنا أن حب الشيخ للسيد/ حسن عباس زكى ما كان إلا لخصوصيته وقربه من ربه.

دلائل ذلك

وكان حب الشيخ له يتزايد بمرور الأيام وتعاقب الأعوام، وكان لأى مناسبة يذكر فضيلته السيد/ حسن عباس وما له من مزايا نادرة، وصفات فريدة، وهمة وثابة، قلما تكون فى أفاضل الرجال، وكم أثنى على عزيمته الفتية، ولقد حدث أن كان الشيخ مريضا جدا، وكنا نسعى جهدنا فى تخفيف آلامه حرصا على سلامته وسعادته إذ هو مصدر سرورنا ونستمد منه جميعا سعادتنا ولا نحب أن نراه متألما.

فسمع الشيخ أن السيد/ حسن عباس نجح فى مجلس الأمة فاعتدل الشيخ وقال: (إذا سأذهب إليه مهنئا وإن كنت أعلم أن هذه المناصب لا قيمة لها عنده، إذ مكانته مع الله أكبر وأعلى، وأنا أعلم منه يقينا أنه لا يحفل بذلك المنصب إلا أنى أحب أن أراه وأجلس معه فى هذه المناسبة).

فوافقنا على رغبته إلا أننا رجوناه أن يؤجل الأمر يوما حتى تخف عنه حدة المرض إذ كنا نخشى عليه المضاعفات، فقال: (إن هذا سيشفينى إن شاء الله) فلم نمانع الشيخ

ﷺ فى رغبته، وإن كنا جميعا مشفقين عليه وسافرنا إلى القاهرة وبينما نحن فى السيارة إذ قال الشيخ ﷺ:

(ولد يا عبد الجليل، أنا شفيت خلاص)، فقلنا جميعا (الحمد لله) ورأينا عليه أمارات العافية، ولمعت على وجهه علامات السلامة والشفاء، وزال ما به من علة تماما، ففرحنا واستبشرنا، فلما قلنا للسيد/ حسن عباس ذلك قال: (حقا إن لقاء الأحبة شفاء من كل علة).

ويومها ذهبنا إلى منزل الدكتور/ أمين عبد اللا[1]، فصلينا العصر عنده فقال الشيخ: (من سيتقدم ليصلى بنا؟ ومن تقدم سيفوز بها؟) فقدمنى السيد/ حسن عباس زكى وقال (تقدم أنت)، وما علمت لذلك سرا وما فهمت هذا الرمز إلا بعد انتقال الشيخ ﷺ إلى جوار مولاه، فذكر لنا ذلك السيد/ حسن عباس وقال: (أنا فهمت من الشيخ أنه يريد بذلك الخلافة) ولم يسافر الشيخ بعدها إلى القاهرة.

حسن عباس يعيد للطريق شبابه

وكم كنا ننتظر حضور السيد/ حسن عباس إلينا، إذ إن لقاءه يضفى علينا السرور والبهجة، وكنا نحس برقة فى شعورنا وتحرك فى وجداننا، وكانت جلسته تجعلنا ننعم بجو روحى فريد، كانت بحق جلساته علمية تشرق أنوارها على القلوب فتضيء أركاننا وتهتز جوارحنا جميعا وكنا نتزود منها بخير زاد إلى الله قلما يهيأ لنا فى جلسات أخرى، إذ هو رجل خير والخير دائما فى أثره.

فقد جعل الله للخير مفاتيح وللفيض وسائل فعندما تلتقى الأرواح ذات المعرفة الأزلية ترجع إلى فطرتها وتتنزل عند اجتماعها الرحمات وتظهر التجليات على القلوب فتفيض على الألسنة بالغيوب وتخرج جواهر الحكم ولآلئ المعارف من مكنونات

---

(١) السيد/ أمين عبد اللا من أسرة عبد اللا بالصنافين شرقية وكان محبا لشيخنا دائم التعلق به وله كشف كبير في الطريق وعنده جلاء بصيرة يشهد به الجميع حتى عرف بين محبيه وعارفيه بكشفه وجلائه البصيرى.

الصدور إذ طاب الجو وآن الأوان لنزول الغيث ليروى ماء الغيب غرس الحقائق التى فى الصدور لتثمر جنى المعارف وتزهر رياحين الرقائق فيشم الجميع عبير نسمات الرحمن وينال الكل من فيوضات المنان.

وكلمة صريحة نقولها وحقيقة واضحة نعلنها أن دخول السيد حسن عباس الطريق أعاد إلى الطريق شبابه، فحرك همم المريدين للعمل الدائم وتلاوة الأذكار والأوراد، وأشحذ عزائمهم حتى أخذوا بعزائم الأمور وتحلوا بآداب الطريق، ونقلوا عنه حسن معاملته، وتأدبوا بجليل آدابه، فتفجرت من قلوبهم العيون التى فاضت جداولها بماء المعرفة وسلسبيل العلوم، وتهذبت طباعهم، ورقت أحاسيسهم، ولقد لمسنا ذلك كله واضحا جليا وعلمنا أنه مشعل النور الذى أرشدنا ضوءه وأنه محركنا إلى العمل الصالح، والمشيع بيننا روح الجد والتنافس، والداعى لنا بلسانه وحاله إلى الاستمساك بآداب الطريق والتعلق بكمالاته.

ومن يومها كثر توافد الناس على الطريق، فأتى الناس أفواجا ليروا ذلك الوزير الذى يغشى مجالس الشيخ دائما، وأيضا قام هو من جانبه بنشر الطريق وذكر مآثر الشيخ ﷺ وتعداد مكرماته وتشويق محبيه وعارفيه إلى لقائه.

مسارعته فى عمل البر

كما قام بطبع كثير من أوراد الطريق على نفقته وحسبنا كتاب (كنوز الأسرار فى الصلاة والسلام على النبى المختار) إذ ما انتشر فى العالم مطبوعا، وما عرفه المسلمون إلا بهمته، وهكذا كان لا يترك وسيلة من وسائل الإعلام عن الطريق والشيخ إلا قام بها خير قيام ولا يزال كذلك، ولما أقبل الناس وكثر الزوار وتناقل السادة وعلية القوم الأحاديث عن الشيخ، وقال أحد المريدين للشيخ: (ما لنا والوزراء، وكان يكفينا ما كنا عليه أولا) فقال الشيخ ﷺ: (تعلمون أنى لا أحب الظهور، ولكن سترون فيما بعد أن لحسن عباس رسالة فى الطريق جاء ليقوم بها) فسكت ذلك المريد، وفعلا تحقق كلام الشيخ ﷺ بعد انتقاله، إذ كان حسن عباس أول جامع لشمل المريدين وموحد لصفوفهم بعد الشيخ ﷺ فكان صمام أمن حمى به الله الطريق بعد الشيخ من التفرق، ومن النزاعات المختلفة والتحزبات المهلكة، وجعل كلمتهم واحدة وهدفهم واحدا كحالهم

أيام شيخهم، وظل يذود عنه ما استطاع بجاهه وماله، وما بنى مسجد الشيخ ﷺ وما أقيم ضريحه، وما نقل من المقابر العامة إلى مثواه الحالى فى حفل بهيج إلا بجهود حسن عباس وهمته.

طيب عنصره

ولقد أيقنا تماما بمعاشرتنا له طيب عنصره وأصالة معدنه، فقد بدا ذلك واضحا فى معاملاته، وكمال صدقه مع الشيخ، وحفظه لعهوده، ووفائه ووداده، وحفظ حرمته فى حياته وبعد انتقاله، ولا غرو فى ذلك ولا عجب، إذ ثبت لدينا وتحقق شرف انتسابه إلى الدوحة المحمدية، وأن نسبه لأمه ينتهى إلى سيدنا الرفاعى الكبير ﷺ (ابن بنت القوم منهم).

إخلاصه وصفاؤه

وإن نفاسة جوهره وطهارة قلبه ونقاء معدنه كل ذلك جعل الشيخ يقبل عليه ويخصه بنظرة خاصة، وإن سخاوة نفسه، وسلامة صدره استدرا غيوث الرحمات، فأمطرت سماء قلب الشيخ ﷺ ماء الطهارة الذى غسل كل بقايا للنفس عند السيد/ حسن عباس وخلصت باطنه من كل الشوائب فقصر له بذلك مسافة الطريق وطويت صفاته البشرية النفسية، وتحلى بمحامد الصفات الربانية وبهذا يكون الوصول.

وبفضل الشيخ ﷺ وبخالص صدق السيد/ حسن عباس وكمال توجيهه أثمرت فيه نظرة الشيخ فاستراح من كثير من المجاهدات والرياضات، وتخطى بحمد الله الوعر من العقبات، فارتقى كثيرا من المقامات، حتى صار خاليا من رعونات النفس، وكدرات البشرية فسهل له الوصول ونال المأمول.

ولما تم تخليصه، وصلح تخصيصه، فاض سر الشيخ عليه بأسرار الحكمة، فأشرق على قلبه بأنوار اليقين فبدت كواكب إخلاصه ونبتت فى فؤاده حبة المحبة، وما زال الفيض يتوالى عليه ويسقى أرضه، حتى أثمرت شجرة معرفته وفاحت من فيه عبير رياحين الحكمة، فشمها القاصى والدانى، وعمت الأقطار أريج ريحه.

ولذا كنا نوقن جميعا أن اتصال السيد حسن عباس واجتماعه بالشيخ ﷺ سبب كل خير، ومفتاح لخزائن علوم الشيخ فتفيض تلك العلوم وتنبثق هذه المعارف على الحاضرين، وكم قال الشيخ ﷺ: (إن حسن مفتاح كل خير، وإنه سبب هذا الرزق) وذلك لأن العارف يكون مشحونا بالأسرار ممتلئا بالعلوم والعرفان، وعندما يحضر من يستحق ذلك الفيض يخرجه الله من قلب ذلك العارف على لسانه، ولما كنا نتحدث في تلك العلوم بعد الجلسة مع السيد حسن عباس كان الشيخ يعلن أنه يسمع معنا هذه العلوم لأول مرة، وهذا رزق ساقه الله منحة للوافدين ليس للعارف فيه تعمل أو تفعل.

ويشبه سادتنا ذلك بمرور السحاب الممتلئ بالماء فحيث تصلح الأرض لذلك الخير، ويطيب الجو، ويتلاءم حال تلك السحب، وحال الأرض، تفيض بمائها الذى يخرج من الأرض كنوزها، ويبرز جواهرها، ويبدى الأسرار والذخائر، وكذلك كان حال الشيخ ﷺ مع (حسن عباس) وأمثاله من مستحقى الفيض، ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ [ق:٩]. فحقا كما قالوا: إن كل شيء في كل شيء، وإن الأسرار كامنة في الروح إذ هي من أمر الرب سبحانه، فتخرج تلك الأسرار من الشيوخ أو على يد الشيوخ لمريديهم المحبين المخلصين لهم بالتفانى فى حبهم والتسليم لأمرهم فيحظون بها وينعمون بخيرها.

توافق فى وجهات النظر

وكان إذا حضر السيد/ حسن لزيارة الشيخ يختلى بالشيخ ساعة، يقص عليه رؤاه، ويصارحه بما يجول فى نفسه فيوجهه الشيخ بما يراه، ويخلص له النصح ليؤهله لمعرفة مولاه، ثم يفرغ ما فى قلبه فى صدر السيد/ حسن عباس: (ما أفرغ فى قلبى شيء إلا أفرغته فى صدر أبى بكر) ولذا كثيرا ما رأينا بينهما توافقا فى الرأى، واتحادا فى وجهات النظر، حتى كان الواحد منهما يبدأ بأول الحديث، أو يجول فى خاطره الحديث أو يعزم على أن يعمل عملا ما فنرى الآخر يتم الحديث، أو يشرع فى عرض ما فى صدر الآخر، أو يقوم بعمل ما يريده الآخر، ثم يلتفت بعضهما إلى الآخر ويقول كل منهما: (هذا ما كان عندى تماما) وهذا التوافق لا يكون إلا حيث الاتفاق والوئام،

والترابط المعنوى التام، واتحاد الخواطر والوجدان، وأن روحيهما تعشقتا، وقلبيهما التقيا على محبة الله ورسوله فلا ينقطعان عن بعضهما أبدا، وكل منهما هواه فى هوى الآخر، ورغبته فيما يحبه الآخر، وميل كل واحد منهما فيما يريد صاحبه.

توفيق إلهى وهمة نادرة

وإننا بحق ما رأينا على أخينا السيد/ حسن عباس بعد دخوله الطريق وقفة أو فترة أو توانيا أبدا، بل كان دائما فى رفعة وسمو ورقى وعلو، وما كان يعنيه أو يهمه إلا علاقته بربه، وما كان يحرص على شيء إلا استشعاره الرضا من شيخه، وإن كل مطلب دنيوى أو غاية مادية حتى درجات الطريق ومقاماته كل ذلك لا يحفل به ولا يعول عليه، وأذكر أول لقاء به، وعرفه شيخنا بى وقال لى: (ادع له)، فالتفت إلى وقال: (لا تدع لى بطول العمر، أو بشيء من الدنيا، بل ادع لى بالتوفيق والرضا، وأن يجعلنى من أحبابه).

فتأمل أنت- أيها القارئ- تر ما يهدف إليه ذلك الرجل والرجال قليل.

نعم وإن كنت تراه يعمل فى وظيفته بهمة لا تعرف الملالة، ويسعى فى عمله دائبا بعزيمة لا تتطرق إليها السآمة، فنعلم تماما وندرك يقينا أنه مع هذا الانهماك الذى تراه فى سعيه، وعمله المتواصل فى وظيفته، أو ما يناط به من عمل فهو لا ينفك قلبه أبدا عن التعلق بالله، ولا يخلو باله لحظة عن مراقبته لمولاه، وما يدرك ذلك إلا ذوو القلوب وأرباب البصائر، وكم ذكر لى أنه فى كثير من اجتماعاته بالناس يقرأ أوراده وما يفوته مما دار فى الاجتماع شيء، بل كان يناقش بعض الآراء ويعرض رأيه ولا يقلل ذلك شيء من علاقته بربه، فلا يصرفه جمعه عن فرقه ولا فرقه عن جمعه، وله فى ذلك الأسوة بسيدنا عمر ﷺ فما شغله وعظه الخلق عن توجيهه النصح لسارية قائد جيشه وهو بالشام.

لذا كان عمله صحيحا متقنا، ورأيه صائبا ناجحا، وكم حاول الكثير أن يعول عليه فى بعض أموره، أو يلتمس له أى خلل، أو يرى أى مطعن فلم يجد إلى ذلك سبيلا.

وهذا لا شك تأييد من الله وكمال رعاية له، لحسن مراقبته ودوام تعلقه بربه.

وما سمعنا أو علمنا أنه كرئيس عمل أشر مرة على مذكرة ترفع إليه أو كتب على طلب مما يقدم له غير الحق والصواب، وكانت يده حساسة توضع على الخطأ على غير إرادة منه ولا تعمد، وكم حدث بذلك الكثير ممن كان يعمل تحت رئاسته، فهو وإن كانت نظرته عابرة لما يعرض عليه، أو تصفحه سريعا لما يقرأ، فكان من الله مسددا، وبعنايته محفوظا ومحصنا (من كان لله مراقبا، كان الحق له ناصرا ومؤيدا).

مكانته فى التصوف

وإن له فى المجال الصوفى الباع الطويل والمذاق الفريد والسبق العظيم، وكم التقى بكثير من رجال الله وصوفية كل بلد عربي، وكان برنامج الزيارة له فى كل رحلاته خارج مصر هو زيارة أولياء الله، والاجتماع بفحول العارفين والتردد على أضرحة المشايخ المنتقلين، وكم جلب النادر من كتب المتصوفين والمخطوطات الفريدة عن ساداتنا المحققين.

وكان إذا عاد من رحلته يقص علينا ما دار بينه وبين هؤلاء، وحكمه على كل من التقى به منهم، وما كان يصدر ذلك الحكم إلا عن فراسة المؤمن الحق والملهم المكاشف الذى يرى عين الصدق ولا يكون ذلك إلا بعد سماعه منهم، وتعرفه على علومهم ومقاماتهم، وإدراكه لمشاربهم ومذاقاتهم بعد ما يوجه إليهم بعض استفسارات أو يطلب منهم شرح عبارات أو حل رموز وإشارات، فيسمع كلامهم وينظر إجاباتهم فيعرف بذلك غور علومهم وإدراكاتهم ودرجات معرفتهم.

ثم يحدثنا عما لمسه وأحسه من نفحات روحية فى زيارته لأضرحة الصالحين وما استشعره عند كل ولى وكم أفضى له كثير ممن التقى بهم بأسراره مع الله واختصاصاته، وأطلعه على ما منحه مولاه أو ما أعطاه له شيخه الراحل من دعوات مستجابات، أو فوائد مجربات وقف على سرها وأدرك فضلها، ثم يقدمها للسيد/ حسن عباس ويأذن له فيها، قائلا: (إن هذا سر أول ما يذاع لك أنت، وما أفضيت به لك إلا لعلمى أنك أهل لذلك وأكبر منه) ثم يعلق بعضهم على ذلك إننا لا نعلم مصرالإسلامية الصوفية إلا

بحسن عباس كما لا يعلم أهل أوربا مصر الفرعونية السياحية إلا بالأهرام، وإن شهرته الدينية ومكانته الصوفية فى العالم الإسلامى ليشهد بها الجميع ولا ينكرها إلا حقود أو حسود، ولا يجحدها إلا جهول كذوب طبع الله على قلبه وأعمى بصيرته.

وكم حل عقدا وفك أزمات وأزال ما فى الصدور بين الرؤساء، وأحل محلها الإخلاص والوداد، وكم قرب وجهات النظر بين كثير من أولى الأمر فى دول العالم العربى، وجمع على الصداقة والمحبة حكام البلاد، والكل يعتبره حمامة السلام، وشعار الوفاق والإخلاص وعنوان الحب والوئام.

بعض مزاياه

تذوقه للمعانى

وإن جلسة واحدة معه وسماعك لكلامه فى تفسير آى القرآن الكريم أو حديث لرسول الله ﷺ، ولمساته الصائبة لمرامى الكلام، ونظراته المسددة للأمور، وإيضاحه إشارات الرجال، واختياره لبعض الأشياء أو المعانى على البعض الآخر تعرفك بوضوح أنه انفرد بذلك من بين أبناء عصره، وتدرك تماما أن له فوق عقله العاقل وذكائه الفذ النادر فهما وتذوقا انفرد بهما، وأن ما عنده لا يدخل فى طاقة أولى العقول الإنسانية، أو تحت حيطة ذوى العلوم وأرباب الأقلام البشرية بل هى إلهامات ربانية، ومواهب لدنية وأعطيات حقانية مكسوة بالأنوار التى تنفذ إلى قلوب السامعين، وتبهر نفوس الحاضرين فيدركون جميعا أن هذا ليس وليد تحصيل ومدارسة، أو تجارب فى الحياة وممارسة.

همته وفراسته

وما جربنا عليه أبدا فتوراً فى همة، أو ضعفا فى عزيمة، أو ترددا فى رأى أو ميلا فى حكم، وإن حكمه دائما لوليد فراسة ما أخطأت أبدا، لأنها فراسة المؤمن الذى يرى بنور الله، وكم قال وأخبر عن أمور كنا نعارضه فيها بمقتضى عقولنا، وما وصل إليه فهمنا وتجاربنا أو حسب العرف والعادة فيقول: سوف ترون صدق ما أقول، وما جرت

الحوادث أبدا بخلاف ما أبدى، وما أظهرت الأيام إلا كما أشار، وكنا نقول له بعد حصول الشيء كما رأى، كأنما تسبق الأيام نظراتك فترى ما يقع فى المستقبل، فيبتسم لذلك ثم لا يعلق عليه بعد.

الأيام تصدق فراسته

فى عام ١٩٧٠ م رغبنا فى الحج وفاء بما درج عليه شيخنا ﷺ، فقد حج الأعوام ١٩٤٠، ١٩٥٠، ١٩٦٠، وأردنا أن نحج فى سنة ١٩٧٠ م وكانت ظروف الحج عسيرة جدا، فتكفل السيد/ حسن عباس بكل الوسائل إذ كان يلزم للحاج دعوة داع من السعودية، وإيداع مبلغ بالعملة الحرة كبير، وأنى لنا ذلك وعددنا كثير، فكلما قدمت له راغبا فى الحج، قام بدوره بعمل دعوة له، وإيداع ذلك المبلغ المشروط فى مصارف السعودية، إلا واحدا من الإخوان وكان فى ذلك الحين أتم ما يكون ولاء للطريق ورعاية لآدابه وحفظا لحرمة الشيخ، وخدع الجميع فيه حتى ظن الكثير أنه سيكون له الأمر بعد، والدكتور حسن يرفض تيسير الحج لذلك الإنسان، ولو ناقشته فى أمره يقول لم ينفتح قلبى له للآن، وأخيرا وافقنى مجاملة لإخوانه، وصدقت الأيام فراسته، فما جاء ذلك الرجل من الحج حتى تنكر للطريق، وبدأ يزن علينا بعقله، ويريد تسيير الأمور حسب هواه، وكان الدكتور (حسن) لما يسمع ذلك ينظر لى نظرة تنم عما كان يكنه له من قبل.

ومرة أخرى كان يتردد عليه رجل له وجاهته الدينية فى العالم العربى، والكل يلتمس منه الدعوة الصالحة ويتبرك به ويشرف بمجالسته، والكثير يتمنى استضافته، ولكن كان الدكتور حسن يسر لى عنه شيئا لا يريد ذكره، وتمر الأيام ويرى هذا الإنسان فى حال الله يعلم بها ويقدم للمحاكمة، ولما التقيت به حدثنى عما كان منه، ثم أردف بعد قائلا (ولعلك تذكر أيام أن كان هذا الشخص الكل يرجو رضاه، وماذا قلت لك؟) فابتسمت وقلت له: (لعلك كنت تسابق الأيام بنافذ بصيرتك، وتغوص فى أعماق الغيب لترى المجهول المستور، فأنت حارثة زمانك) فيتواضع ويقول: (ليس كذلك إلا أن لى فراسة فى الأشخاص) وحقا "اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله".

سلوكه فى بيته

وإنك لتعجب لسلوكه فى بيته، وانصرافه التام عن المتع والملاذ، وعدم اهتمامه بأمر معاشه أو طعامه ولباسه، يقضى أوقاته فى قراءة أوراده، أو تصفحه كتب القوم، أو التقائه بمحبيه وزائريه ملتمسى الخير والراجين قضاء المصالح فييسر لكل أمره ويجيب لكل سؤله فى سرور وسعادة دون تأفف أو ضجر، إذ يعز عليه ما يلم بالناس ويؤلمه ما يؤلمهم، ويتمنى لكل سعادة وسلامة.

لا يحب الظهور

وهو لا يحب الظهور أبدا، ولا يرغب فى الإعلان عن نفسه قط، ويتمثل بالحكمة القائلة: (حسبك من الأمر علم الله بك، ولا عليك بعد من الناس رضوا أو سخطوا).

ولا يعبأ أبدا بكلام الناس عليه وأحاديثهم السوء عنه، ويهز كتفه إعراضا وإغضاء، إذا ما علم بما يقوله الناس عنه، ويبتسم ابتسامة الساخر بهم المعرض عن لهوهم، ناظرا إلى مولاه فى كل شيء ومكتفيا به وليا ونصيرا ورقيبا وحسيبا.

الصوفى ابن وقته

ومما لمسناه وأعجبنا به عملية إسقاطه للحوادث الماضية من حسابه وتفكيره وتدبيره، وكنا إذا تحدثنا معه فى ذلك قال: (أنا لا أعيش فى المشكلة أكثر من وقتها الذى حدثت فيه، وبعد انتهاء وقتها أسقطها من حسابى، ولا أفكر فيها بعد أبدا حتى لا أعكر صفو وقتى الحاضر، ولا أشغل بها نفسى فيفوت ذلك على حقوق ربى فى حاضر وقتى أو مستقبله).

ولهذا كان إذا حدث عندنا ما يهم وأخذنا نفكر فيه نذهب إليه لنعرض عليه أمرنا هذا مهمومين به فيبتسم ويقول: (كونوا مثلى أسقطوها من حسابكم، ودعوها لله يتولاها بحله اللائق الصالح، واحتفظوا بحق الوقت، فإن لكل وقت حقا، ولا تعكر حاضرك بما كان فى الماضى، ولا تهتم بما يكون فى المستقبل، فما مضى قد انقضى والتفكير فيه عبث، وما هو آت لا ندرى ما الله فاعل فيه).

ثم يذكرنا بالحكمة الصوفية القائلة: (الصوفى ابن وقته).

فكانت هذه الوصية تريحنا كثيرا عندما تتأزم الأمور وتتعقد المشاكل، وكنا نحاول ما استطعنا العمل بها لإراحة أعصابنا وتهدئة خواطرنا، فجزاه الله عنا وعن المسلمين خير الجزاء.

إلزامه أهله العمل بالشرع

وكثيرا ما نرى رجالا تحلوا بالشمائل الحسنة؛ وتخلقوا بالصفات الفاضلة، وابتعدوا عن الرذائل والمحرمات، ولهجوا بالذكر والعبادات، ولو خالطتهم فى أسرهم ودخلت بيوتهم، ورأيت معاملة أهلهم وذويهم لحكمت عليهم بأنهم يلبسون للناس لباس التقوى والصلاح فى الخارج، وفى بيوتهم ومع أهليهم وما درجوا عليه فى منازلهم ما يخالف الشريعة المحمدية، فلا رعاية لحرمات الدين ولا حفظ لآداب الشرع ولا قيام بالفرائض.

والحق يقال إننا ما علمنا عن ذلك الرجل ظاهرا وباطنا فى الداخل والخارج فى خاصة نفسه ومع أهله إلا استمساكا بآداب الشريعة وعملا بكل فضيلة، ولقد طبع أهله على معرفة الحقوق والواجبات الدينية، ونشأ أسرته على رعاية الآداب المحمدية والعمل بالسنة النبوية فى الحل والترحال فى الطعام والشراب واللباس.

وكم تسر إذا زرته فى بيته أيام الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر عربى أو أيام المواسم الدينية التى يستحب فيها الصيام فتجد البيت كله رجالا ونساء أطفالا وخدما وكأنهم فى شهر رمضان لصومهم هذه الأيام البيض المعروفة وتلك المواسم المشهورة.

وكان يهتم بأداء الفرائض فى أوقاتها وفى جماعة، فإذا جاء وقت الصلاة ترك أهل البيت أعمالهم مهما كانت وتفرغوا لأداء فرض الله، وهكذا يكون الرجل المؤمن محافظا على آداب الدين آمرا أهله بها حاملا لهم على المحافظة عليها، وأعجبنى منه أنه لا يحب اختلاط الرجال بالنساء، ويكره جدا تلك الإباحية السائدة بين العائلات حتى أنه من

شديد حرصه لاحظت أنه يرفض أن يلعب الأطفال البنات مع الأطفال الذكور مهما كانت الصلة والقرابة، ويقول (الولد ذكر وله طباعه، والبنت أنثى ولها عاداتها، ولا أحب الاختلاط بين الجنسين بأية صورة وعلى أى حال) قال تعالى ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ [التحريم:٦] وقال جل شأنه ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾ [طه:١٣٢].

اهتمامه بالطريق وبإخوانه فى الله

وإن جهوده للطريق لا تجحد، وخدماته للإخوان لا تحصر، ودوام مواصلته لنا وتودده دائما إلى ضريح شيخه وسؤاله عن كل إخوانه، وتفقده أحوالهم وكأنهم جميعا مسئولون منه مؤمنا تمام الإيمان أن الطريق وأبناءه أمانة استودعها شيخنا له، فهو يقوم برعايتها وكفالتها خير قيام وفاء وبرا لشيخه الذى أخلص له النصح وأفرده بالحب ومكنه من نفسه وقلبه مكانة لا تعدلها مكانة، ما زال هو يذكرها ويدين بالفضل والجميل لشيخه.

ويكفى دليلا على ذلك أنه أول ما تقابله أو تكلمه فى المسرة يفاتحك بعد السلام كيف حال إخواننا؟ وفلان ماذا عمل فى كذا؟ وما حال فلان.. إلخ، وكأنه يعيش معهم بأحاسيسه يشاركهم ما هم فيه.

ولقد ظل حبه وتعلقه لأسرة الشيخ ﷺ يشاركهم ما وسعه جهده فى جميع أمورهم، ويتحسس دائما أخبارهم، ويقف على جل شئونهم مذللا لهم كل ما أهمهم وميسرا كل ما صعب عليهم راجيا بذلك رضا شيخه فيهم.

وكم أسهم ـ جزاه الله خيرا ـ فى بناء مسجد شيخه بماله الخاص وسعيه المشكور لدى وزارة الأوقاف بل لدى الكثير من الأغنياء الذين يلمس منهم رغبة فى الصالحات وعمل المبرات حتى إتمامه على أحسن حال.

ولقد تعهد ذلك المسجد دائما؛ فعمل على فرشه بالسجاد وتركيب مكبرات للصوت وإمداده بالمصحف المرتل والجهاز المذيع له، وغيرها من المآثر والأعمال التى لا تدخل تحت حد ولا حصر، وحسبك مساعدته فى توسعة المسجد الجديدة وبناء الطابق

العلوى الجديد الذى أراد من بنائه أن يكون مجتمع الإخوان فى الحضرات والأذكار والدروس والعظات واللقاءات اليومية.

ولا تنسى مكتبة ضريح شيخه الجامعة التى جلب لها نوادر الكتب وفريد المخطوطات والعديد من المؤلفات فى مختلف العلوم وبخاصة كتب الإسلام والتصوف، كل هذه الكتب قد اشتراها من ماله الخاص أو أهداها من مكتبته التى فى منزله والتى تعد من أمهات مكتبات القاهرة وليس هذا مبالغة منا أو زخرفة فى القول، فنظرة إلى هذه المكتبة تريك صدق ما نقول، وتوقفك على حقيقة ما إليه نشير.

حرصه على قربه من شيخه

ومما يدل على تفانى السيد/ حسن عباس فى حب شيخه وصدق ولائه ووفائه بعهده وحفظه لحرمته وحرصه على دوام اتصاله به وقربه منه بعد انتقاله كما كان أيام حياته، أن اتخذ مثواه الأخير ومقبرته فى شبلنجة بجوار ضريح شيخه لينعم بجواره وليسعد بقربه منه فى برزخه.

وهذا أيضا برهان قاطع على أن روحيهما كما تعارفتا وتآلفتا فكذلك جسماهما كانا من طينة قد اتحدت معادنها وتجانست جواهرها.

وإن هذا العمل من السيد/ حسن عباس علامة على إيثاره شيخه وتفضيله القرب منه على كل من سواه، وهذا منتهى الحب ونهاية التفانى وغاية الإخلاص، إذ ضرب صفحا عن العادات والتقاليد فى مثل هذه الحالات، فلم يقبل أن يبتعد عن شيخه ليدفن بعد عمر مديد فى الخير إن شاء الله فى مقابر أسرته وبجوار أهله ووالديه، وآثر أن يكون فى آخرته بجوار شيخه ليبعث فى وفده وليحظى برفده، وليرفرف عليه لواؤه وليستظل معه بظل الله يوم لا ظل إلا ظله، وليتحقق قربه منه بعد انتقاله كما آثر دوام الاتصال به فى حياته "الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف..." رواه أحمد عن عائشة.

ومما أكرم الله به شيخنا فى أخريات حياته تحقيق رغباته وتلبية طلباته دنيوية وأخروية، فبمجرد الهم أو العزم أو التوقان لشيء يجده حاضرا عنده دون عناء، وقد يكون دون أسباب ظاهرة فى كثير من الأحيان.

من ذلك أنه تاقت نفسه لزيارة سيدى أبى الحسن الشاذلى ﷺ فى حميثرا بمحافظة البحر الأحمر، فأحس بهذه الرغبة السامية حبيبه السيد/ حسن عباس زكى.

وما هى إلا أيام حتى حقق السيد/ حسن عباس زكى رغبة فضيلة الشيخ ﷺ وأبلغه بإتمام العدة للسفر، وسأله تحديد موعد الرحلة، ولما كان من عادة الشيخ ﷺ التفاؤل بالسفر يوم الخميس، فقد حدد الرحلة يوم الخميس ١٠ من ذى القعدة سنة ١٣٨٢ الموافق ٤ من أبريل سنة ١٩٦٣، فبات فضيلته ليلة الخميس بحى سيدنا الحسين ﷺ وبعد أداء صلاة الفجر بمسجد سيدنا ومولانا الحسين ﷺ انطلق الركب الميمون من ميدان سيدنا الحسين ﷺ تحفه العناية وتحيطه الرعاية ويحدوه التوفيق والسداد.

وقد تشرف بصحبة الشيخ ﷺ فى هذه الرحلة الميمونة السيد/ حسن عباس زكى، والسيد/ محمد عباس زكى والسيد/ عبد الفتاح عباس زكى، والمرحوم فضيلة الشيخ/ محمد أبو العيون وكيل كلية أصول الدين السابق، وفضيلة الشيخ/ محمد عمارة شيخ مسجد السيدة زينب– رضى الله عنها– السابق والمرحوم الحاج أبو الوفا دنقل من أعيان الصعيد ورجل الأعمال المشهور، كما صحبته أنا وأخى الشيخ جوده قاسم من العلماء والمدرسين وإمام وخطيب مسجد شيخه القاضى ﷺ بشبلنجة، والحاج زكى الجزار عمدة نقباس والحاج على السمان بمنيا القمح شرقية، والسيد أبو شقرة صاحب محلات الكبابجى بالقاهرة والسيد عبد الحميد الشيمى صاحب مكتبة بالقاهرة وآخرون من مريدى الشيخ ومحبيه وأصدقاء السيد الوزير.

اتجه الركب إلى مدينة السويس التى تبعد عن القاهرة بمسافة ١٣٣ كم، وفى منتصف الطريق تقريبا بين السويس والقاهرة أشار الشيخ بالوقوف لصلاة الضحى وزيارة الشيخ (الدكرورى) ﷺ ، وبعد أداء سنة الضحى وزيارة الشيخ ودعاء كل منا

بما يحب، تفضل الحاج أبو الوفا دنقل رحمه الله وطيب ثراه ووزع على كل منا سبع تمرات عملا بالسنة فأكلناها شاكرين له.

وفى مدينة السويس تناولنا طعام الإفطار، وأثيرت مناقشة حول معنى (الله أكبر) فأدلى كل من الحاضرين بدلوه فى المناقشة، ثم ختم فضيلة الشيخ المناقشة بقوله: (الله لا يقارن بشىء أبدا، فليس هناك كبير وأكبر بالنسبة إليه، ولما كان المرء يردد فى صلاته هذا اللفظ والله يتجلى على العارفين من عباده بعدة تجليات، فيقال لهم: الله أكبر مما تجلى عليكم، ولما كانت التجليات على العارفين لا تنتهى أبدا، وهم دائما فى ترق مع الله، فكان المعنى الله أكبر مما تشاهدون ومما يظهر لكم من تجليات فى الدنيا والآخرة، وأما غير العارفين فبالنسبة لهم أن الله أكبر مما يفهمون أو يتصورون).

وعرجنا أثناء سيرنا على ساحل البحر الأحمر على العين الساخنة وهى آية من آيات الله؛ فهى متصلة بالبحر الأحمر ومع ذلك فماؤها مغاير لماء البحر لونا وحرارة وطعما.

وتابعنا السير إلى رأس غارب التى تبعد عن السويس بمسافة ٢٣٠ كم، فتناولنا طعام الغداء فى استراحتها وصلينا الظهر والعصر معا جمع تقديم، وفى الساعة الثالثة والنصف مساء واصل الركب سيره إلى الغردقة التى تبعد عن رأس غارب مسافة ١٦٠ كم، وقبيل الغردقة بقليل قمنا بمشاهدة معهد الأحياء المائية، ورأينا عجائب المخلوقات البحرية ذات الأشكال والأحجام والألوان التى تبهر العقول وتدهش الألباب، وفى مدخل مدينة الغردقة استقبلنا السيد (لمعى شلبى) مدير السياحة بالمحافظة (من الزقازيق) ورحب بنا أجمل ترحيب، وكان لطيفا فى حديثه، كريما فى استقباله وقد أكرمنا الله ببركة شيخنا ﷺ فى الغردقة فبتنا فى فندق الغردقة ليلة الجمعة فى راحة تامة وسرور عظيم.

وفى الرابعة صباح يوم الجمعة بعد صلاة الفجر مباشرة تحرك الركب إلى (سفاجة) التى تبعد عن الغردقة بمسافة ٦٠ كم، وبعدها واصل الركب المسير إلى (القصير) التى تبعد عن سفاجة بمسافة ٨٠ كم، وفى (القصير) استقبلنا السيد مأمور المركز وتحدث معنا حديثا لطيفا دل على أنه شاب طيب القلب محب لأولياء الله، يعرف الكثير من تاريخ سيدى أبى الحسن الشاذلى ﷺ كما استقبلنا فى القصير شيخ العرب (شاذلى) وابن

عمه الحاج (أحمد عبد الله) وبعد استراحة قصيرة تناولنا فيها طعام الفطور أعد شيخ العرب واسمه (شاذلى توفيق على مصطفى) نائب عمدة عربان العبابدة سيارته الخاصة وسار أمام الركب كدليل له، لأنه خبير بدروب الصحراء ومسالكها.

وسار الوفد إلى (مرسى علم) فوصلنا إليه قبيل الظهر، فصلينا الجمعة فى مسجده، وخطب المصلين الشيخ (محمد عمارة) شيخ مسجد السيدة زينب رضى الله عنها، وكان موضوع الخطبة (فضل العمل) وكان جميلا منه ذلك، إذ إن هذه المنطقة منطقة عمال.

وبعد الصلاة اتجهنا إلى نادى الصيد بمرسى علم وتناولنا طعام الغذاء، وقد أكرمنا أهل هذا النادى أيما إكرام.

وفى الثانية والنصف من مساء يوم الجمعة تابعنا المسيرة إلى (حفافيت) التى تبعد عن (مرسى علم) بمسافة ٨٥ كم، وفى منتصف الطريق بين (مرسى علم) و(حفافيت) وفى ملتقى طريق ادفو بطريق (مرسى علم) شاهدنا مقام سيدى (سالم عوض) فأشار الشيخ بالوقوف لصلاة العصر وزيارة صاحب هذا المقام ﷺ.

وانتهى بنا المسير إلى رحاب الشاذلى الطاهر ﷺ فى مساء الجمعة ليلة السبت بعد العشاء، فطافت بنا السيارة حول المقام سبعة أشواط وهذه سنة مرعية عند أهل الصحراء كلما أرادوا زيارة أبى الحسن الشاذلى ﷺ، لأن مقامه ككعبة يطوف حولها القاصدون، فصلينا المغرب والعشاء بمسجده ﷺ جمع تأخير، والمسافة بين حفافيت ومسجد الشاذلى ٧٥ كم إلا أن الطريق فى تلك المسافة غير معبد، وعطبت فيه بعض السيارات وانتقل من فيها إلى باقى السيارات، وتحمل فى ذلك المرحوم أبو الوفا دنقل كثيرا من المشاق جزاه الله خيرا.

تعليقات على الرحلة

مقام سيدى أبى الحسن ومسجده

مقام سيدى أبى الحسن الشاذلى مسدس الشكل، ومقصورته خشبية مطلية بطلاء أخضر جميل، ومحلاة بصفائح النحاس، وقد فرش الضريح بالسجاجيد العجمية

الفاخرة، طبقات بعضها فوق بعض، وهناك لوحات فيها بعض مناقب الشيخ ﷺ وشيء من تاريخه، وبه مكتبة صغيرة فيها مصاحف وكتب صوفية وسجل خاص لقيد أسماء الزائرين.

أما المسجد فى هذا الوقت فهو عبارة عن فناء أمام المقام من الناحية الشرقية يحيط به سور ارتفاعه مترين أو ثلاثة به محراب بجانبه منبر صغير والمسجد غير مفروش ولا سقف له وبجوار المقام حجرتان صغيرتان لخدم ضريح الشيخ ﷺ وفى الجهة الغربية من المقام قبر بعض مريديه، وهو الشاب الصغير الذى كان يرافق سيدى أبى الحسن فى سفره إلى الحج ومات فى حياته، وصلى عليه ودفنه فى هذا المكان، وفى الجهة الغربية القبلية للضريح بئران، ماؤهما عذب نوعا ما، وفى الناحية القبلية جبل شاهق على قمته متعبد الشيخ أبى الحسن ﷺ.

إكرام الله للوفد

وفى صباح يوم السبت ١٢ من ذى القعدة سنة ١٣٨٢ الموافق ١٩٦٣/٤/٩جلس فضيلة الشيخ ﷺ فى فناء المسجد وحوله الوفد، فبادرنا الشيخ قائلا: (إنى رأيت الليلة أن الله أكرم هذا الوفد جميعه، وقضى لكل منهم طلبه حتى سائقى السيارات).

وقد تناولنا طعام الغذاء فى هذا اليوم فى كوخ بجوار مسجد الشيخ ﷺ، وقد أعد لنا الطعام على نفقته نائب عمدة القصير أكرمه الله وجازاه خير جزاء حيث قام بخدمة الوفد بإخلاص ووفاء، وبعد هذه الزيارة التى أخلص فيها نائب العمدة وضحى بقدر ما يستطيع لهذا الوفد الربانى، قد أكرمه الله تعالى بنجاحه عضوا فى مجلس الأمة عن دائرة إقليم القصير.

ثعبان خطير يلقى مصرعه

وبينما نحن جلوس فى الكوخ بجوار سيدى أبى الحسن يتحدث إلينا شيخنا ﷺ، ويذكرنا بنعم الله وآلائه علينا، ويحثنا على العمل الصالح والرجوع إلى الله، دخل وسط الجمع ثعبان شرس مشهور فى هذه الجهات بخطورته يسمى (الطريشة) فتناول الشيخ

عمارة حجرا كبيرا وقتله فى جرأة المؤمن وشجاعة التقى، فحمد الله الجميع على سلامتنا من هذا المكروه، كل ذلك ببركة شيخنا وشيخه أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنهما.

المبيت ليلة أخرى وترحيب أبى الحسن بالوفد

تناقش الإخوان حول العودة وجرت مناقشة ومحاورة، والشيخ صامت إلى أن استقر رأيهم جميعا على المبيت بجوار أبى الحسن ليلة أخرى وهنا قال الشيخ ﷺ: (هذه كانت أمنيتى، ولم أصارحكم بها، فالحمد لله الذى شرح صدوركم إلى ذلك).

ترحيب أبى الحسن بالوفد

ولقد رأيت أول ليلة للزيارة سيدى أبا الحسن ﷺ فى المنام وأخذت أحدثه بسرور تام ويقول لى (لا تكفى ليلة واحدة للمبيت عندى) فساررت الشيخ ﷺ بهذه الرؤيا، ففرح الشيخ رضوان الله عليه بها جدا، إذ وافقت رغبته رغبة سيدى أبى الحسن الشاذلى ﷺ وكما قالوا: (إن الولى لا يزار إلا بإذن منه).

وأخيرا بعد نقاش الإخوان حول العودة اتفقوا جميعا على المبيت ليلة أخرى كرغبة شيخنا ﷺ وكإرادة سيدى أبى الحسن الشاذلى، وقد رأى السيد حسن عباس أيضا فى هذه الليلة مثل هذا المعنى وأعمق فاستبشرنا جميعا وتفاءلنا لقبول هذه الزيارة، وبعد أن قص كل من المريدين على الشيخ رؤياه قال الشيخ ﷺ، وأنا رأيت أنى أقرأ قوله تعالى ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ... **الآية**﴾ [الفتح:٢٧]. وعرفت من ذلك أن لكم أجرا كأجر الحاج لا سيما هذا العام الذى حرم فيه المصريون من الحج والزيارة.

جلسة روحية فى المقام:

فى عصر يوم السبت وبعد الصلاة أمر الشيخ ﷺ بقراءة سفينة النجاة فى المقام ثم تحلقنا حول المقام واقفين وقد أخذ كل منا بيد أخيه وشرعنا نذكر الله من قيام فكانت ساعة طيبة شملتنا فيها رحمات مولانا وعمتنا نفحات سيدنا أبى الحسن ﷺ، ثم قرأنا الفواتح للحاضرين والغائبين من إخواننا، فكانت بحق جلسة روحية عمتنا فيها رحمات

ونفحات وقد امتلأت قلوبنا أمنا واطمئنانا ورجاء وشمل الجميع السكينة والوقار، وقد قال شيخنا ﷺ (أسأل الله ببركة أبى الحسن أن يفتح للدكتور عبد الحليم بصيرته، ويرزقه من العلم المكنون، وأن يكشف له من أسرار غيبه) وقد كان فضيلة الدكتور عبد الحليم معدا العدة للذهاب معنا فى تلك الزيارة.

استبشار الأعراب بالوفد

وقد فرح الأعراب المقيمون فى ساحة أبى الحسن بقدوم الشيخ ومن معه إذ غمرهم الشيخ ﷺ بكثير من الهدايا وحينما أزمع الوفد على الرحيل تكاثفت السحب ونزل المطر غزيرا فطار الأعراب فرحا وسرورا بخير السماء المنتظر وقالوا (إن فى أثركم الخير العميم فمنذ زمن طويل لم تجد السماء بمثل هذا المطر، وقبلوا كثيراً من أفراد الوفد وقالوا أنتم أهل خير) فعلمنا أن ذلك كله ببركة شيخنا ﷺ.

طيور حول المقام

وقد رأينا جميعا حول ساحة أبى الحسن ﷺ وعلى قمم الجبال طيورا مختلفة الألوان والأحجام، ولم نر مثلها فى الصحراء مدة سفرنا فيها مع طول المسافة، وقد سألنا فضيلة شيخنا ﷺ أنى لهذه الطيور العيش فى هذا المكان المقفر الذى لا أسباب فيه لحياة الطيور وإقامتها؟ فقال: (لعلها ملائكة تبارك ساحة أبى الحسن وتستغفر للزائرين).

مكان لم يعص الله فيه

ومما يعرف من سيرة سيدى أبى الحسن الشاذلى ﷺ أنه طلب من الله ورجاه أن يكون مثواه فى مكان لم يعص الله فيه؛ فألهم السفر إلى وادى (حميثرة) بجوار (إدفو) مركز (أسوان) حيث لم يقم فى هذا الوادى أحد قبل سيدى أبى الحسن قط.

فعرج على هذا المكان وهو فى طريقه إلى الحج وظل مدة يتعبد الله فيه حتى اختاره لجواره، وقد من الله على هذا الوادى فنبعت فيه عينان بجوار ضريح سيدى أبى الحسن وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ومما هو جدير بالذكر في هذه المناسبة أن الله وزع أولياءه على بقاع الأرض ليكونوا أعين الله فيها، ومحل نظره منها، فكان نصيب أبى الحسن ﷺ هذه الصحراء الشرقية.

نبوءة تتحقق

قال الشيخ: (إن هذه البقعة سيأتى لها يوم يكون فيها العمران، وتكون فيها وسائل المعيشة ميسرة، وتمهد الطرق إليها تكريما لسيدى أبى الحسن ﷺ) وفعلا قد تحقق كثير من ذلك فعبدت الطرق اليوم وبنى هناك بجوار الضريح مسجد عظيم تقام فيه الشعائر الدينية وأقيم بعض الإستراحات بجواره لاستقبال زائريه لكثرتهم بعد تمهيد الطريق إلى أبى الحسن ﷺ.

وإن هذا لدليل قاطع على أن أسيادنا ﷺ أحياء فى قبورهم ولهم عند الله المنزلة، إذ لولا سرهم وكرامتهم ما توجه أحد إلى تشييد أو تجديد أضرحتهم أو سعى فى تمهيد الطريق إليهم رضوان الله عليهم أجمعين.

(أ) وفى ختام حديثنا عن تلك الرحلة الميمونة وما يتعلق بها يتوجه الوفد بالثناء والدعاء للمشرف على نظام الرحلة وإعداد ما لزم لها السيد (أبو الوفا دنقل) رحمه الله من أعيان الصعيد ورجل الأعمال المعروف صديق السيد حسن عباس زكى، وكنا جميعا نستريح لحسن تصديه للأمور وحزمه الذى يبلغ الشدة فى بعض الحالات، وهو رجل فى سن الستين من عمره ولكن كان يمتاز بنشاط ملحوظ وحركة دائبة وخدمة صادقة، وقد بذل فى هذه الرحلة عن سخاء وكافح عن صدق نية وإخلاص قلب؛ فجازاه الله خير الجزاء وطيب مثواه.

(ب) كما يتوجه الركب بأثره وعلى رأسه فضيلة الشيخ ﷺ إلى الله جلت قدرته وتعالت حكمته أن يكرم السيد/ محمد مصطفى من المنيا وأن يحسن ختامه ويبلغه مناه فى الدنيا والآخرة جزاء ما أسهم فى هذه الرحلة فقد تبرع بسيارته الخاصة لنقل هذا الوفد إلى سيدى أبى الحسن مع سيارات السيد/ أبو الوفا دنقل.

موسم زيارة أبى الحسن

جرت عادة أعراب الشرقية وأهل الدقهلية وكثير من الشاذلية فى شتى البقاع أن يحجوا إلى مقام سيدى أبى الحسن الشاذلى ﷺ فى العشر الأولى من ذى الحجة كل عام، ويسمونه الحج الأصغر فيكتمل الجمع فى يوم عرفات ويظلون مرابطين حول مقام سيدى أبى الحسن الشاذلى ﷺ حتى يصلوا العيد، ثم ينصرف كل إلى أهله وقد تم بينهم جميعا التعارف والتآلف وهذه العادة الكريمة نفحة من نفحات سيدى أبى الحسن ﷺ لأهل الصحراء الشرقية.

خصائص طريقتنا ومزاياها

طريقتنا طريق أهل الخصوص سيما أهلها التواضع والانكسار وغض الطرف وانخفاض الرءوس (أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى)[1] لا ينطوى تحت لوائها ولا يستظل برايتها إلا الصادقون المخلصون الذين لا يقصدون إلا وجهه ولا يرجون إلا وصله، جل المنتسبين إليها العلماء بأحكام الشريعة والفقهاء بأصول الدين لنؤهلهم ليكونوا علماء بالله ربانيين، بطرق الوصول إليه تعالى عارفين هادين ومرشدين وداعين على بصيرة إليه، دالين بحق عليه، الواحد منهم بأمة إذا رئى ذكر الله، وإذا انفعل انفعلت له الأكوان.

أبناؤها والقائمون بأمرها عقولهم راجحة وأفكارهم صائبة وقلوبهم صافية، عرفوا لله حقه فأدوه، وفى السر والجهر راقبوه فحفظهم وبالرعاية صانهم، لا ترى منهم شطحا ولا ما يخالف ظاهر الشرع، كرامتهم معرفتهم بربهم وفهمهم عنه، خوارقهم الحسية غير مقصودة ولا مرادة، وأكبر كرامة لهم الاستقامة ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨]. ترى الواحد منهم ملئ قلبه بالأنوار، وأفعم بالأسرار ولا يظهر على جوارحه لذلك آثار، لأنهم بالشرع متمسكون ومن مقامهم متمكنون، لا إلى الظهور يميلون، ولا إلى أنفسهم بالشهرة يلوحون، يكفيهم من عملهم علم الله تعالى بهم، لا تهز أعوادهم رياح البسط، ولا تحرك شامخ بنائهم طوارق القبض، طريقتهم إلى الله دائما فتية لا تشيب ولا تهرم لدوام مددها واستمرار تجدد وردها، فلا تفتر عزائمهم ولا تضعف هممهم، لا يقفون عند مقام، ولا يقنعون بوصل أو درجات، إذ ما من وصول إلا وبعده وصول، لأن غايتهم الله ومقصدهم رضاه، وإذا كان الحق لا ينتهى فكذلك سعيهم إليه لا ينتهى.

---

[1] كشف الخفاء (١/ ٢٠٣ رقم ٦١٤)

قوم لا يحبون الظهور لأنه كما يقولون (الظهور يقصم الظهور) لذا لا يرفعون لطريقتهم لواء اشتهار، ولا ينادون على أنفسهم بافتخار، عبيد لله حقا إن شاء أظهرهم وإن شاء أخفاهم، يحبون السلام ويعرضون عن سفاهة اللئام، ولا يجارون فى حماقتهم الطغام، لا يلتفتون إلى كلاب الدنيا فى نباحهم عليهم، ولا يتأثرون ممن خاض فى أعراضهم أو نال منهم، وردهم كل صباح ومساء (اللهم إنى جعلت عرضى صدقة على من تكلم فيه) شيمتهم الصفح عن الذامين، وطبعهم ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾. لا تثنيهم عن هدفهم الأسمى وهو (الله) عوائق الدنيا ولا مثبطات الهوى ولا نوازل القضا، لا تخدعهم بوارق الأنوار، ولا تغرهم شوارق الأسرار.

سيرهم إلى الله لا ينتهى وسرهم دائما مرتق، همهم التخلص من الكدرات والإنيات، والخروج عن دنيا الطباع والرعونات وسيء العادات وقبيح الصفات، هم فى مراقبة دائمة لأنفسهم لأنه لا أمان لمكرها ولا اطمئنان لخدعها، يحاسبون أنفسهم على الأنفاس والخطرات فى الغدو والروحات، همهم التعرف على واردات الحق فى البطون والظهور والوقوف عند حده، والتلذذ برؤية مواقع قدره، لذا تراهم فى موافقة دائمة لأمره ورضا تام بحكمه واكتفاء بعلمه وتحر قدر الجهد فى الاتصاف بوصفه والتحلى بنعته، لا يسعون لدنيا أو جاه وليس للشيخ على المريد عوائد مالية أو رواتب شهرية.

لا يتطلعون لما فى أيدى الناس، ولا يمدون النظر لمتاع الدنيا أو عرضها عملا بقول الحق تعالى ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]، ولا يطلبون من الغير لا بالتلويح ولا بالتصريح، غناهم بالله ومطلبهم رضاه، ولا يسيرون فى ركاب سلطان من أجل سلطانه، ولا يصحبون ذا مال من أجل ماله، لا يفرحون بكثرة الجموع إنما فرحهم بسريان نور الهداية فى القلوب وإشراقه فى البصائر، وسرورهم بقربه ومشاهدته، وأنسهم بمجالسة الحق وذكره، ونعيمهم فى مسامرته، وحظهم العكوف الدائم فى حضرته، يزنون أعمالهم بميزان الشرع ويحكمون فى قضاياهم الحق، لا تتحكم فيهم الغريزة ولا يتأثرون بهوى أو طبع أو عاطفة، لو أبصرت أحدهم وسمعته لعرفته بما جلله ربه من الهدى والخشوع وتحلى به من محامد الصفات وكريم العادات.

تراهم فى مجلسهم يتحدثون فى الشرع والفقهيات ومسائل الدين وتصحيح العبادات، ثم يغوصون إلى أسرار التشريع ويعودون وقد عرفوا الأسباب والعلل الباطنة لأحكام الشرع وهذه خاصية أهل الله والمتفهمون لأسرار التشريع، ثم ينتقلون فى حديثهم من قطف وورود أسرار الأحكام الفقهية إلى شم أزهار لطائف الإشارات المعنوية، إلى التعطر برياحين رقائق العلوم القدسية التى انطوى عليها كتاب الله سبحانه وتعالى وحديث الرسول ﷺ.

ثم يجذبهم الحديث إلى ذكر مقالات الرجال، والفرق بين المقام والحال، والمقارنة بين حال كل ومقامه بما يشابهه من حال ومقام الآخر، وأيهما كان مقامه موسويا أوعيسويا، وأيهما صاحب الكرامة الحسية الآفاقية، وأيهما صاحب العلوم اللدنية والإشارات الربانية، وهكذا حتى تشعر أيها المستمع الكريم أن القوم على مائدة روحية فريدة، قد جمعت من شتى ألوان المذاقات والطعوم، أو أنك فى رياض ملكوتية جمعت بين مختلف أصناف العلوم اللدنية والمعارف الإلهية، فيتزود كل حسب استعداده، وتتعطر نفس كل حسب وسعه وطاقته ويحصل الجميع على أرزاقهم حسب ما كتب لهم، قال تعالى ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. أى فيك، فما طلب سيد الكونين ﷺ زيادة فى مال أو دنيا أو جاه، وما رغب فى معجزات أو مقامات أو منازل أو درجات إلا زيادة فى العلم بالله، وأى طلب أسمى وأرفع من العلم به والتعرف عليه، إذ بهما يكون قرب العبد من ربه.

وكما قالوا: (بالعمل وبالمبرات تدخل الجنات، وبالعلم وبالمعرفة تصل إليه وتعرفه، وبالأدب تدخل حضرته، وعلى قدر علمك به يخلع عليك من صفاته وتحظى بكثير من تجلياته).

والآن قد عرفت شيئا عن مجلسهم العلمى فلا يفوتك أن تقر عينك ويثلج صدرك بما يدور فى مجلس ذكرهم، فوردهم الجماعى (سفينة النجاة) لسيدى (أحمد زروق) يرددونها جماعة فى حضراتهم ليلة الإثنين وليلة الجمعة من كل أسبوع أو عند كل مناسبة يجتمعون فيها أو يقرءون قصة المولد الشريف من وضع الشيخ (الوليدى) رضي الله عنه أو

يذكرون الله جالسين أو قائمين ذكرا شرعيا لا يتمايلون فيه يمنة ولا يسرة بل بما يشبه الركوع والقيام دون آلات ولا نغمات، يذكرون اسم الجلالة (الله) أو أسماء للحق أخرى متعارفة عند أهل الطريق، ينطقون بها واضحة دون تحريف أو تصحيف، ولا يحرصون على اللباس الخاص الذى ينادى عليهم بالشهرة ويميزهم عن سائر الجماعات، ثم لكل ورده الخاص حسب فتحه واستعداده وما يليق بعلاجه، ترى الواحد منهم لا يفرغ من ورد إلا وجب عليه ورد آخر، وأورادهم عندهم كالفرائض لا يقصرون فيها، وعندهم أهم من وردهم دوام المراقبة التامة للحق فى أعمالهم وتحركاتهم وفى معاملاتهم وعباداتهم، حتى لو شغل أحدهم بعمل المعاش فقلبه معلق بربه مراقبا له فى سره.

وهذا أهم ما يحرص عليه أهل الحق وكل راغب طريق الصدق، ثم لكل منهم خلوة خاصة بربه فى الجزء الأخير من الليل كما عودهم ورباهم على ذلك شيخهم ﷺ، وكم أكد لهم أن من لم يكن له ورد من الليل لا يشم من طريق أهل الحق شمة، ولا ينال من علوم القوم رشفة، ولا يذوق من المعارف والتجليات والمكاشفات ذوقة، ولولا مخافة زيغ القلوب لذكرنا بعض ما امتاز به أهل تلك الطريق من العلوم والغيوب، وما حباهم ربهم من المنح والاختصاصات إذ لكل منهم ميزة خاصة وكشف خاص وعلوم انفرد بها، ولكن بحنا ببعض ما يمكن به التعرف على بعض وصفهم أو الإحاطة ببعض رسمهم، لتدرك طرفا من أمرهم، وتحيط علما ببعض خبرهم ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [البقرة:١٠٥]

أما ما تحلوا به من بعض الشمائل فيكفيهم الإغضاء عن إساءة المسيء، ولا يقابلون السيئة بمثلها، يحملون عن الناس كلهم ويسعون فى قضاء مصالح المسلمين ابتغاء رضاء سيدهم ولا يرجون على ما قدموا جزاء ولا شكورا.

تراهم ينظرون ربهم فيهم وفى مكوناته، ويراعون حرمة رسول الله ﷺ فى أمته، ولا يرضون أن يسيئوه فى أحد منهم، هم قوم غرباء فى عصرهم لا يعرفهم إلا من كان على شاكلتهم، ولعامية أهل هذا الزمان وجهلهم بالشرع وإهمالهم لسنة نبيهم ﷺ ظنوا

أن ما عليه تلك الجماعة من سلوك وأخلاق، وما عرف عنهم من منهج وعادات، وأن ما يأتون من أذكار وأوراد وعبادات ونوافل وسنن مخالف للشرع ومجانب للسنة فطعنوهم ونسبوا إليهم ما ليس فيهم كذبا وافتراء أو جهلا وعنادا، وعذرهم فى ذلك أن ما درج عليه بعض الطرق أو ما يأتى به بعض العلماء الرسميين لا يتفق وما عليه هؤلاء، ولو درسوا أصول الدين وعلموا سنة سيد المرسلين ﷺ لعرفوا أن هؤلاء يحيون موات السنة وينقبون عن آثار الطريقة بعد درسها ويقيمون بناءها بعد هدمها، ولو أمعنت النظر ودققت الفكر وكان لك اطلاع واسع على السنة ومعرفة لما كان عليه السلف لأدركت أنهم صورة صادقة لما كان عليه الرعيل الأول من العمل بالسنة والتأسى بما كان عليه الصحابة والسلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين.

فكم أحيوا سننا قد اندرست وأقاموا شعائر قد هجرت، منها سنة السواك وسنة العقيقة وسنة التهجد، وكثيرا من سنن صاحب الشرع ﷺ وآداب الطريق فلهم من الأجر ما نطق به حديث المصطفى ﷺ "من أحيا سنة من سنتى قد أميتت بعدى كان له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئا"[1].

تراهم دائما على الحق ثابتين، ولا يجاملون أحدا مهما كان شأنه على حساب الدين، ويعلنون أحكام الشرع غير عابئين بغضب المعادين أو لوم المارقين، ولا عليهم بعد ذلك أرضى الناس أم سخطوا، فهم لا يخشون فى الحق لومة لائم، وكما تحلوا بكرم الطبع تحلوا بسعة البذل، وكما فتحوا صدورهم لكل سائل ومسترشد، وأخلصوا التوجيه لكل راغب ومستنصح، وتعهدوا كل ذى حاجة وتتبعوا كل ذى علة، وما يزالون به حتى تقضى حاجته وتزال علته، كذلك فتحوا بيوتهم لإكرام الضيف وإيواء الغريب وإن كان ذلك فى هذا الزمان بدعة، يعدها المتنطعون بلاهة ولكنها سنة اندرست ومات أهلها، وليس فى هذا العصر من يعمل بها أو يشجع عليها إلا صوفى صادق، وثق بما عند الله أكثر من وثوقه بما فى يده، لأن خير ما يتحلى به الصوفى

---

[1] رواه الترمذى وابن ماجه وغيرهما عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى عن أبيه عن جده.

الكرم والبذل، فإذا كان طريقهم بذل النفوس فى سبيل الوصول إلى حضرة القدوس أفلا يكون بذل المال أهون من بذل النفوس؟. وقد قالوا: (أقبح القبيح صوفى شحيح) ورثوا هذه العادة عن شيخهم إذ كان يقدم الطعام للمريدين والمحبين والقاصدين فى أوقات الطعام بسخاء وكرم وابتسامة وطلاقة، فهم على هذه السنة درجوا وعلى تلك العادة الحسنة نشئوا.

ومسجدهم الآن بحمد الله يقدم للضيوف والقصاد الطعام والشراب فى جميع الأوقات، دون رغبة فى شهرة أو إعلان أو تظاهر أو امتنان، ولا يميلون إلى التكلف للضيف اتباعا للسنة (لا تتكلفوا للضيف فتبغضوه) هذا عدا إجراء عادات شهرية وموسمية للفقراء الذين قال الله فيهم: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة:٢٧٣]. يواسونهم ويساعدونهم فى مناسباتهم وملماتهم دون خدش لشعورهم أو جرح لكرامتهم.

لا يحفلون بكثرة الطاعات، ولكن يحرصون على الصفاء فى القلوب والإخلاص فى الأعمال، ولا يهتمون بكثرة العدد، ولا يطلبون أخذ العهد على كل من حضر أو ورد، بل لا يدخل فى طريقتهم ولا يقبل فى جماعتهم إلا كل من تأكدوا صدقه، وتبينوا صحة قصده بعد اجتيازه أنواعا من الامتحانات وعديدا من الاختبارات ليظهر خلوص إرادته وصدق نيته، وأنه للحق طالب وللوصول إليه راغب، ليسوا من ذوى الشارات أو الشعارات ولا الطبول ولا النغمات، ولا من ذوى العادات فى الموالد الرسمية، فكل ما خالف الشرع لا يعملون به ولا يدعون إليه ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣].

القسم السابع

معارفه وارداته

يقول الله تعالى مكرما وليه الخضر فى قصته مع موسى ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥]. ويقول جل شأنه فى موقف آخر ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢].

ويقول عز من قائل ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩].

ويقول رسولنا صلوات الله وسلامه عليه "إن من العلم كهيئة المكنون"[١] ويقول "من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم"[٢]، صدق الله العظيم، وصدق رسوله الكريم فيصطفى الله من عباده من يوفقه إلى طاعته، ويتفانى فى تقواه، وينسى فى سبيل ذلك كل شيء سواه، ويظل يرقى فى مدارج الكمال مع ربه حتى يتخلص من رانات البشرية، وكثافات المادية، فيحسر[٣] عن الروح كل ما غطاها من كدرات وبذلك تعود إلى عالمها الأول فتدرك ما انطبع فيها مما شاء الله من علمه اللدنى، حينئذ ينطق صاحبها بالحكمة ويتحدث بالأسرار، ويرد عليه من الفيوضات ما لا يحيط[٤] به إلا الله.

ولقد كان لشيخنا فى هذا المقام مدد متتابع، ومعين لا ينضب، وفيض لا ينقطع، لأنه ليس من علمه فينفذ، أو اطلاعه فيقف عند حد، ولكنه من فيض الله ومدده ومكنون غيبه وخزائن رحمته وأثر مظهر تجلياته، وكلها من بحر علمه، وعلمه جل شأنه حاشاه أن تحده الحدود، أو يدخل فى دائرة الحصر أو تصل إليه النهايات، لأن علمه

---

(١) رواه الديلمى عن أبى هريرة ﷺ

(٢) رواه أبو نعيم فى الحلية من حديث أنس ﷺ

(٣) ينكشف. يرفع. يزول

(٤) يحصيه. يعلمه. يقدره

سبحانه صفته الأزلية القديمة، وصفته قائمة بذاته، وكما أن ذاته العلية لا أول لها ولا آخر، فصفته تعالت قدرته لا بداية لها ولا نهاية.

من مكنون هذا العلم اللدنى كانت إمدادات شيخنا - رضوان الله عليه - فعلمه الله من لدنه علما كان يفيض ولا يغيض، وأمده منه بما شاء الله ولا حرج على فضل الله وليس بكثير على مثله ذلك الفضل، فقد تولاه النور المحمدى بالتربية والتقويم، وسار على نهج سيده أبى الحسن الشاذلى فى التسليك والتلقين.

فله من مورثه الأول ﷺ الذى أوتى القرآن وخص بجوامع الكلم العلم اللدنى وفريد الحكم، وكان له نصيب الوراثة الأوفى من سيده أبى الحسن الشاذلى ﷺ صاحب العلوم البكر التى شهد له بها شيخ إسلام زمانه العز بن عبد السلام والذى جاءه منكرا فلما سمع مقاله لم يملك حاله، وخرج مناديا بأعلى صوته (هلموا إلى العلم القريب العهد بالله تعالى).

وهكذا أحرز شيخنا بحمد الله حظ الوراثتين، فكان له من المعارف والعلوم ما يملك على السامع أمره ويأخذ بمجامع قلبه لإحساسه وهو يستمع إليه بجديد لا عهد له به من قبل، يهز فى كيانه هزا، ثم يأخذ طريقه إلى قلبه فيستقر فيه بعد ذلك استقراراً.

لقد كان يسأل فيزف الإجابة عرائس علوم لم تفتض، وجواهر مكنونات لم تمسس من قبل... إلهام يلهم به من الله كما كان يقول فى كثير من الأحيان: (ما أنا إلا سامع مثلكم، وما كان لى عهد بالإجابة عند السؤال).

ومن ثم فحديثه حينئذ يكون بالعربية الفصحى ولا عهد له بتعلمها، وفى تدفق وسرعة لا تستطيع تتبعها بالتسجيل لو شئت، ومما لا تجده فى تفسير من التفاسير أو مؤلف من المؤلفات مما يقطع بأن هذا الفيض ليس من كلامه، ولا ثمرة بحث وعاه عقله، وإنما هو معارف يشعر سامعها حيالها بالقهر والرضوخ ولا يجد مجالا للاعتراض عليها لما يختص به إلهام الله من صولة، وليس ذلك فحسب وإنما كنت تحس مع هذه الصولة بإبانة ووضوح امتاز بهما رضوان الله عليه فى حديثه وهما إن دلا على شىء فإنما يدلان على حديث الخبير المتذوق المشاهد.

وإنا لنذكر ضمن ما نذكر فى ليلة من ليالى ربيع الأول وهو يحتفل بذكرى المولد النبوى الشريف أنه مكث يتحدث عن أسرار الحروف الأبجدية من ألفها إلى يائها وعن حكمة مجيء كل حرف على الرسم الذى يرسم به وعن كنهه وحقيقته، فأفاض بالعجيب من الأسرار بما ظل يتناوله حتى مطلع الفجر، وغير هذا كثير وكثير وكثير.

وكان ما نحس به من استمتاع ونحن نهيم بسماع هذه المعارف لا يلفت أنظارنا إلى الاحتفاظ بتسجيلها مع تتابعها وكثرة نظائرها ولو وعيناها لكانت من أثمن الكنوز وأعظم الذخائر.

وإنا إذ نذكر بالندم تفريطنا وتقصيرنا فى هذا الشأن لنعرض هنا ما التقطناه فى أخريات حياته عندما أفقنا من غفلتنا ونبهنا إلى واجبنا فى ذلك صفيه وخليله ومن اختصه شيخه بكبير حبه، فعرف له حقه وقدره حق قدره (السيد الدكتور/ حسن عباس زكى) وزير الاقتصاد والتجارة الخارجية سابقا جزاه الله خير الجزاء، فقد كان لنا بفضله ما نعرضه هنا ونعده نزرا يسيرا من فيوضاته، وقطرة من بحر معارفه وارداته ونستطيع أن نقسم ذلك التراث إلى جزأين أساسيين.

الأول: واردات.

الثاني: معارف وعلوم.

ونبدأ بالحديث عن الواردات، ثم نثنى بالمعارف والعلوم.

الجزء الأول

الواردات

كلمة (الواردات) تذكرنا بلفظ آخر شبيه بها وهو (الأوراد) والفرق بينهما: أن الأوراد جمع ورد وهو ما يردده المريد من أحزاب قرآنية وصيغ مأثورة وأذكار مأذون له بها.

وثمرة هذه الأوراد ما يرد عليه من الحق مناما أو يقظة وهو ما نسميه (بالواردات) ولذلك قيل (من لا ورد له لا وارد يأتيه).

والوارد يطلق، ويراد به معنيان:

معنى عام لا يقصد إليه هنا وهو كل ما يرد على المريد من أنوار، ويهبط عليه من فيوضات سواء وردت بنصها فحددتها ألفاظ لا تحتمل التغيير ولا التبديل، أو بمعناها فكانت انطباعة فى القلب يتناولها لسان العارف بالتعبير.

ومعنى خاص وهو ما نريده وعليه يدور الحديث.

ويحسن أن يكون مفتاح الحديث عن الواردات وكيفية تنزلها على صاحبها الوارد الآتى لشيخنا ﷺ.

يقول الوارد:

(أول ما يأتى الوارد يفاجئ الروح، فإن وجد فى القلب استعدادا أسلمته الروح للقلب، وإن وجد فى العقل استعدادا أسلمه القلب للعقل، فإن وجد فى النفس استعدادا أسلمه العقل للنفس فينطق بذلك الوارد، ويعبر عنه بما هو حاضر لديه من علوم ومعارف، وإلا فيقف عند من لا استعداد عنده، فاعرف قدر ذلك، واعمل بما هنالك تكن ربانيا).

فالوارد يهبط على الروح أول ما يهبط، ثم يمر فى مراحله تلك فيقدر له الظهور عند من لديه الاستعداد، وينطق به صاحبه بما يحمل من معارف وعلوم، وإلا قضى عليه قبل ظهوره ووئد قبل مولده عند من حجبته الحجب وحرم بذلك الاستعداد.

فالواردات إذا تنزلات علوية ولكنها أشبه ما تكون بالحكم، وهى ترد بنصها لا تبديل لحرف فيها ولا تغيير، وتستقى من مصادر التشريع ولا تحيد أبدا عنها، لأن أصحابها محفوظون تظللهم دائما شريعة الله ولا تفارقهم أينما ارتحلوا وحيثما حلوا.

وأكثر ما تأتى الواردات مناما فيستيقظ صاحبها وقد جرى على لسانه الوارد قسرا لا اختيارا، ويتكرر بنصه لا تقديم للفظ فيه ولا تأخير، ولا تبديل لحرف فيه ولا تغيير.

والوارد شعاع هداية، ورسول من الحق للعمل بما يحمله ويتضمنه كما نص عليه وارد شيخنا ﷺ فى ختامه إذ يقول: (فاعرف قدر ذلك واعمل بما هنالك تكن ربانيا).

وكما تأتى الواردات مناما فقد تأتى يقظة كما قد تأتى حين يغشى المريد أو العارف نعاس خفيف.

ومن ثم تتنوع هذه الواردات كما وكيفا حسب مراحل السلوك وما تحتاجه من التربية، فهى أكثر ما تكون للمريد أول سلوكه هداية وإرشادا، وإنذارا وتبشيرا، ورجاء وتخويفا، وترغيبا وترهيبا، تأخذ بناصيته فى مدارك السلوك وتمر به فى مراحل الجهاد الأكبر جهاد النفس لتتحقق له التربية الصحيحة.

فإذا ما تم له استشراف على منازل القرب بدت له ثمار المعرفة طيبة الجنى؛ فيرد عليه من المعارف والأسرار ما لا عهد له به من قبل، وتتلون به وارداته، ولكنه أبدا لا تفارقه هواتف الحق تأخذ بيده إلى آداب الحضرة، فكلما ازداد العارف قربا ازداد أدبا، وما من وصول إلا وبعده وصول وليس لله نهاية، وما من كمال إلا وعند الله أكمل منه وكمالات الله لا تتناهى.

وبالنظر فى هذه الواردات- كما سترى- تجدها كالمائدة الشهية... ألوانا شتى؛ فمن واردات تتضمن أوامر ونواه تأخذ المريد بالحزم وعزائم الأمور حتى تنصهر منه

كثافات البشرية، فيتخلى عن ذميم الخصال ويتحلى بكريم الخلال، إلى أخرى للتبشير تثير الرجاء، وتبعث على الترغيب ترويحا للمريد وتنشيطا له في عباداته وطاعاته، إلى ثالثة ترده إلى التحذير مما ينبغي التحذير منه حتى لا يسرف في الرجاء؛ ليظل بين كفتي الرجاء والخوف بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر شأن المؤمن الكامل، إلى رابعة تتراءى له فيها بروق التجلي، فينكشف له من المعارف والأسرار ما يجثو أمامه العقل والتفكير، لأنه أسمى من أن يتطاول إليه العقل وأرفع من أن يتطرق إليه التفكير، وخامسة تبين مقامات السالكين ودرجات الواصلين، وتتناول موازنات شتى بين جوهريات لا بد منها لسالك طريق القوم، وسادسة تتناول سمو فضل الشيخ على المريد، ومسيس حاجة المريد إليه، وسابعة تكشف عن بعض ما للأوراد من فوائد للمريد في دنياه وفي أخراه، وهكذا ترى الواردات مجموعات تندرج كل مجموعة منها تحت قسم من الأقسام الآتية:

(أ) واردات الأمر والإرشاد.

(ب) واردات النهي والتحذير.

(ج) واردات الرجاء والتبشير.

(د) واردات المعارف والأسرار.

(هـ) واردات المراتب والمقامات والدرجات والموازنات.

(و) واردات الفوائد.

(ز) واردات فضل الشيخ.

وهذا وقد يطغى على المريد من الأحوال والمخالفات ما ينفعل معه الشيخ فيصدر من الوصايا والنصائح ما نراه قريب الشبه بالواردات من حيث التناول بالفصحى وورودها بنص قلما يتم فيه تغيير وإن كان ثمة مجال للاختيار عندما يصدر الشيخ وصاياه ومن ثم فيمكن أن يلحق بواردات شيخنا ﷺ نصائحه ووصاياه.

(أ) واردات الأمر والإرشاد:

ونستهلها بوارد يستحث المريد على حفز الهمة، واستنفاد الوسع فى الطاعة ومخالفة النفس:

- (من شأن المريد لزوم الجد فى الطاعات، وارتكاب خطر أهوال المجاهدات، وذبح النفوس بسكين المخالفات، وحبسها فى سجن الرياضة حتى يفتح الله عليه بالسراح فى رياض المعرفة).

وارد يشحذ العزائم لمقاومة الشهوات، ومطالب البشرية.

وهذا الوارد يزن به المريد نفسه ليعرف أين هى من الحيوانية والإنسانية، والغفلة مع الله والأوبة إليه:

- (من غلبته شهوته فهو حيوان، ومن غلب شهوته فهو إنسان، ومن غلبت ناسوتيته روحانيته فهو من الغافلين، ومن غلبت روحانيته ناسوتيته فهو من الأوابين، الأول معاملات يعامل نفسه... والثانى عبادات سائر فى مقام العبودية).

وارد فى الذكر، ووجوب مواصلته فى كل وقت حتى يغيب الذاكر عن الخلق ليحضر مع الحق:

- (من شأن المريد أن يذكر فى كل وقت حتى يصل إلى الغيبة والحضور، الغيبة عما دون الحق حتى يغيب عن نفسه، ويغيب عن غيبته عن نفسه، إلى أن ينظر من نفسه إلى نفسه فى حال غيبته عن نفسه، والحضور مع الحق، فإن الغيبة عن النفس حضور مع الحق).
- وارد آخر (لو أردت الإخلاص لربى ما جعلت نفسى حجابا لربى).

ووارد يحث على الإخلاص للسالك والترقى إلى أكمل الكمال فى مراتبه:

• (أكمل الكمال أن تعبد الله لله بالإخلاص، وتفنى عن الإخلاص بالإخلاص لله بالله).

ويلقى شيخنا الضوء على هذا الوارد فيقول (فالأول لمن له تطلع للمقامات فى البداية والثانى لمن بدأ طريقه عبودية لربه وهو النجم الذى لا يدرك).

• وارد آخر (قال عليه الصلاة والسلام مناما (الذكر بلا إله إلا الله لأهل البداية أنفع، وبلفظ الله لأهل النهاية أنفع، وذكر أهل الحضرة الحمد لله وأستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله) فزاد ﷺ هذه الآية إلهاما من الله لتكون حرزا على هذه النعمة وتلك الآية هى: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف:٣٩] وأوصانا أن من قالها عند دخول داره أو بستانه سلم من الآفات.

• وهذا وارد آخر (الإخلاص هو الشكر بالعمل والعمل بالشكر، وله ظاهر وباطن، فظاهره العمل وباطنه الشكر، والحافظ له ولنموه باطنه ،أخلص لى عملك ولا تسألنى وأنا أعطيك أفضل ما أعطى السائلين، وأما الشكر فهو تصريف كل جارحة لما خلقت له ثم ينسى ذلك، وإن لم ينس فما شكر، ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧].فالإخلاص يقتضى العطاء، والشكر يقتضى المزيد، فالإخلاص هو الأب الصالح، والشكر هو الابن الفالح، والفاعل لهما هو المقرب النافع، فاعرف قدر ما وصل إليك، واعمل به تكن من الناجحين).

ووارد يرشد السالك إلى أنه ﷺ السبيل للوصول إلى الحضرات العلا، وبدونه يستحيل على المريد دخولها:

• (أدم قرع بابنا يدخلك علينا بوابنا، وثق أنك لا تدخل علينا إلا بواسطة بوابنا، واعلم أن بوابنا حبيبنا، وهو لكل خلقنا).

وارد جمع الطريق كله مختصرا كما علق بذلك من نؤرخ له:

• (لذْ بجانبنا واطرح أثقالك برحابنا، واجعل مطالبك مطالبنا نجعلك إماما لنا).

(تعليق) أى من أئمتنا فى الأرض الدالين علينا، ويقصد بذلك المشايخ المسلكين.

والوارد الآتى يحدد موقف المريد من العلوم ظاهرة وباطنة:

- (من لم يستعد بالعلوم الظاهرة تكن العلوم الحقيقية بالنسبة له ظلمات فى القلب، ومن لم يستعد للعلوم الباطنة تكن الظاهرة بالنسبة له ظلمات فى القلب أيضا، إن المريد يحتاج فى البداية أن يكون عارفا علميا، فتكون نهايته عارفا حقيقيا).

وعلى هذا النهج تتابع واردات الأمر والإرشاد.

- (سلم سلاماك باطنى وظاهرى تسلم وتغنم يا غابرى[1] وصن سرك عن كل غايرى).
- (الخير بالخير والبادى أخير، والشر بالشر والبادى أظلم).
- (اللهم أحينى مسكينا، وأمتنى مسكينا، واحشرنى فى زمرة المساكين).
- (إن الثواب خلق قبل أعمالنا، فله الشكر على ذلك)[2].
- (شأن المحبين الخوف والتواضع).
- (لا تصل إلى الله إلا بالخضوع والتواضع).
- رأى من يقول له: (اكتب هذا الكتاب الجامع لميزان الأعمال، فقال له نعم فقال: ليس لعبد أن يشغل قلبه بالاختيار بفعل شيء أو تركه فى المستقبل، وإنما عليه أن يعطى ما أبرزناه على يديه حقه، فإن كان طاعة حمدنا عليها واستغفرنا من تقصيره فيها، وإن كان معصية استغفرنا من ارتكابه لمخالفة أمرنا،

---

(١) الغابر: الساكن الباقي المستمر الماكث على حالته الأولى فيجب على المريد أن يجدد حاله مع ورادات وتجليات الحق عليه وهذا شأن المريد أولا فيسلم أمره لمولاه يتولاه ويقلبه كيف شاء وحيث شاء تربية له وتخليصا من بشريته.

(٢) إرشاد إلى أن تعبد الله على الشكر لمنه عليك بالأجر أزلا قبل أن تعمل.

وإن كان غفلة أو سهوا فعل ما هو اللائق بمقامه، وقد قربنا لك طريق الأدب معنا فى كل ما نجريه عليك).

- (المداومة على الذكر وترك الغيبة وسوء الظن بعباد الله: الطريق مبنى على ذلك، فمن واظب على ذلك رزقه الله من حيث لا يحتسب حسا ومعنى).
- (من أراد أن يكتب قارئا للقرآن حقا فلتكن القراءة بإحساس ومشاهدة فكأن الله تعالى يتلو على لسان القارئ، وكأن القارئ يستمع إلى الله سبحانه وتعالى، ومن هنا تنشأ حالات الوجد العظمى وتنجلى وتنكشف له أسرار وعلوم ومشاهدات يكل عن وصفها اللسان ويقصر عن التعبير عنها البيان).
- (إن الله يحب طهارة القلب من الأغيار (أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا) سورة الأحقاف.
- كان ﷺ كثيرا ما يناجى ربه (كن لى كما كنت لأحبابك) فنودى: (كن لى حتى نمحق طلبى بطلبك).
- (كيف تعبر بحر الحضرة وتجلس على بساطها، وأنت لم تعمل بالعلوم الشرعية، فإن الذى دعاك للحقيقة هو الذى نهاك بالشريعة، فمحال أن تخالفه فى أوامره ويدعوك لحضرته، فاسمع يا من اغتر بالوهم والخيال من النفس، وظن أنه فى الحقيقة[1]).
- (الشريعة هى بذر، والطريقة نبات ذلك البذر، والحقيقة ثمر ذلك النبات، والمعرفة جنى تلك الثمار وأكلها، فمن أخذ الطريقة عن غير بذرها فهو كمن وجد شجرة شيطانية، وغرست على جبل فلما وصل إلى نهايتها لم يجد لها

---

(١) هذا الوارد بيان لما بين الشريعة والحقيقة من صلة، وأن إحداهما لا يكون بدون الآخر، ولا غناء بإحداهما عن الآخر، ورد على من فرق بينهما، والوارد يبين ذلك، وأنه لا نجح بالشريعة دون الحقيقة، فمن عمل وترك الإخلاص فلا عمل، ومن نظر إلى الحقيقة في حد ذاتها ترك العمل، وخير ما قيل في هذا المقام (من تشرع ولم يتحقق فقد تفسق، ومن تحقق ولم يتشرع فقد تزندق)، ويشرح هذا الوارد وارد آخر، يأتي بعد أوله الشريعة ما ورد به التكاليف.

ثمرا، وإن وجد لها ثمرا لم يجد له حلاوة، فاسمع وأطع، وتفقه واعمل بما تعلم تغنم وتسلم، ولا تمار ولا تناظر تهلك وتفسق).

- (إذا أردت الدخول فى الطريق فادخل مصاحبا لك الأدب مع السيد الأكبر قولا وفعلا، ظاهرا وباطنا، ومع السيد الأصغر قولا وفعلا ظاهرا وباطنا حاضرا وغائبا، ومع إخوانك بالنصيحة لهم والعفو عن زلاتهم، ومع جميع الناس عالمهم وجاهلهم صالحهم وطالحهم برهم وفاجرهم، فإذا وصلت، وقيل لك ما تشتهى؟ فتأدب وقل: أشتهى ألا أشتهى، فإن قيل لك ما تريد، فقل: أريد ما تريد، فعند ذلك تعطى ما تشتهى وما تريد، فالطريق أوله أدب، وأوسطه أدب، وآخره أدب، فافهم واعمل ولا تهمل تكن من الجافين).
- (إذا أردت أن تختبر الحليم فامتحنه بتسليط الجهال عليه فإذا حلم من غير إكراه فى باطنه فذلك الحليم، وإذا حلم بإكراه فى باطنه فليس بحليم إنما هو تحلم).
- (كل من كان تحبيكه[1] أكثر كان له النور أكثر).
- (لا يجوز أن تستعين به عليه، بل استعن به عليك تجد الخير لك لديه).
- (الأخذ بعزائم الأمور وعظائمها فى المأكل والمشرب والملبس والمنكح والتعبد وحفظ الجوارح يوجب جميع الكرامات من رؤية المصطفى ﷺ عيانا، والطير فى الهواء والعبور على الماء، وجعل الأرض قدما واحدا والاستقامة، ويعطى حرف (كن) والتصرف فى الكون، وغير ذلك، فافهم واعمل).
- (من اجتمع فيه خصال أربع الكبر والنفاق والغرور والبخل فلا بد من العلاج فإن دواء الكبر التواضع، والنفاق دواؤه الإخلاص، والغرور دواؤه العجز والانكسار، والبخل دواؤه التسخى فلا يصلح أبدا إلا بهذا العلاج، ويحتاج إلى جهاد كبير وعناية ربانية وأظنه لا يمكنه العلاج لأن طريقه وعر قفر، نعوذ بالله من غضب الله).

---

(١) إتقانه للعمل وإجادته للشرع ويشهد لذلك قوله تعالى (والسماء ذات الحبك)(سورة الذاريات).

• (اتباع وصية لقمان لابنه من أول قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان:١٣-١٧] توصل إلى مقامات الرجال).

• (الزهد والورع يقتضيان التحرى فى المأكل وخلافه).

• عن النبى ﷺ مناما (من أراد التطفل فى علم التصوف فعليه بقراءة كلام القوم، فإن المتطفل على هذا العلم هو الولى وأما العالم به فهو النجم الذى لا يدرك).

وقال له ﷺ :وما أحسن وردك إذا كان ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [سورة الكوثر]. ليلا ويكون دعاؤك (اللهم فرج كربنا، اللهم أقل عثراتنا، اللهم اغفر زلاتنا وتصلى على وتقول: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨١،١٨٢].

• وقال له أيضا (إهداء ثواب الصلاة إلى الرسول يوجب لصاحبها شفاعة لمن أحب).

• ومما قاله الرسول ﷺ له مناما (الصلاة التامة هى اللهم صل على سيدنا محمد التى هى فى التشهد... إلى حميد مجيد) ثم تقول السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته).

ويعلق شيخنا ﷺ على هذا الورد فيقول:

(أجل الصلاة الإبراهيمية هى الصلاة التامة لأنها من جميع المقامات فكما أن إبراهيم ﷺ له مقامات كثيرة كالخلة والتسليم وكونه أمة... إلخ، فيصلى عليه من جميع ذلك، فكذلك محمد ﷺ مع عدم الاتحاد فى الحكم والكيفية، بل المعنى كما صليت عليه فى جميع المقامات صلاة تليق به، فكذلك صل على محمد صلاة تليق بك فى جميع المقامات وكذلك آل كل وصحب كل).

- (اعلم أن الذى بلغ بالرجال مقام الكمال هو صدق الحديث، وأداء الأمانة وترك مالايعنى).
- (الكرامة: الإيمان ومتابعة السنة)
- (لا يكمل المريد حتى يحمل كله عن شيخه، فإن من رمى أثقاله على شيخه فهو سيئ الأدب، مع أنه إذا تعود ذلك ألفت نفسه ذلك، فينقص استعداده، فإذا جاءته صدمة هدت جداره وشيخه ليس بمقيم له).

هذا يقال للمريد الكسلان على نحو (أعنى على نفسك بكثرة السجود) أما من كان متأدبا نشيطا عاملا بما وجب شرعا وطريقة فله من شيخه أكبر المدد.

- (من عبد الله لنفسه فإنما يعبد نفسه، ومن عبد الله للأمر وحباً فيه فقد عبده حقا).
- (انتبه: أظهر الله الأكوان كلها بقوله (كن) إهانة لها وتصغيرا، ليعرف الخلق إهانتها فلا يركنون إليها، ويرجعون إلى مظهرها ومنشئها، فاشتغل الخلق بزينتها فتركهم معها، واختار من خواصه خصوصا أعتقهم من رق الكون فأحياهم به، فلم يجعل للعلل عليهم سبيلا، ولا للآثار فيهم طريقا).

- (من علامات الأولياء ثلاثة أشياء: يصون سره فيما بينه وبين الله، ويحفظ جوارحه فيما بينه وبين الناس، ويدارى الخلق على قدر عقولهم).
- (اعلم أن المحنة لخواص أوليائه، والفتنة لعوام الناس).
- (فى المحن ثلاثة؛ تطهير، وتكفير، وتذكير، فالتطهير من الكبائر، والتكفير من الصغائر، والتذكير لأهل الصفاء).

- (من كان له بالتعظيم بين القوم صورة لم يكن له بالتخصيص سورة[1]، وذلك لأن محب الله مشهور، ومحبوب الله مستور).
- (العبادات كالحلواء المعجونة بالسم، فكما لا ترضى النفس منها بالقليل فتسلم كذلك لا تصبر على الكثير منها فتغنم).
- (من طلب الحكمة لذاتها وكله الله إليها، ومن طلبها لى وكلته لى).

(ب) واردات النهى والتحذير:

وهى نوعان:

(١) نوع يكون فيه النهى والتحذير ضمنيا مثل وارد:

- (لا نصل إلى الله إلا بالخضوع والتواضع)

فهو يحذر ضمنيا من الكبر وعدم الخضوع، فمحال أن يصل إلى الله من فى قلبه مثقال ذرة من كبر.

أو يكون النهى فيه صريحا لكنه فى شطر الوارد لا كله، ولا يخفى ذلك على فطنة القارئ، وستلمس هذا وذاك فى كثير مما سبق ويأتى من واردات.

(٢) نوع آخر تجد كلا من النهى والتحذير مقصودا إليه، وتحس بأن الوارد نص فيه...

ومن هذه الواردات

وارد يحذر من العبادة دون استحضار، أو التحدث عن المقامات لمن لم يذقها أو يتقلدها وإلا كان شاهد زور:

---

(١) لم يكن له مقام في التخصيص ولا قوة ولا جولة بين الرجال.

• (القلب للمشاهدة، واللسان للعبارة عن المشاهدة، فمن عبر عن غير مشاهدة فهو شاهد زور).

وارد يحمل معنى الوارد الأول ويؤكده

• (عليك بالعمل، وإياك وشقشقة اللسان بالكلام فى الطريق دون التخلق بأخلاق أهلها).

وارد يحذر أن تظن بأحد سوءا إلا أن يكشف لك عنه

• (لا تتوقع مواضع التهم: أى لا تظن بأحد سوءا حتى يكشف لك عنه).

وارد يحذر من أكل الشبهات

• (احذر من أكل الشبهات).

.. يتلوه تحذير أشد من أكل الحرام فمحال لآكله أن يتذوق شيئا من المعارف:

• (ما دام لسانك يذوق الحرام فلا تطمع أن تذوق شيئا من الحكم والمعارف).

وارد يتحرج بك فى تناول الطعمة ويحذرك أن تسترقك اللقمة لصاحبها:

• (لا تأكل قط طعام أحد إلا إذا كنت وليه فى التربية، أو من أهل آية ﴿ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ [النور: ٦١].فإن كل لقمة نزلت فى جوفك نقصت من عبوديتك بقدرها، واسترقتك لصاحب تلك اللقمة)

وارد يحذر من مغبة الجزع عند البلاء

• (إياكم والجزع فى مواطن الامتحان؛ يمتحنكم الحق تعالى بأشد من ذلك).

وينهى الوارد الآتى عن الركون إلى كل معترض على الطريق ولائم:

- (لا تركن إلى قول عزول)

وتختم هذه الواردات بوارد يحمل أبلغ ترهيب وأشد تحذير، فينذر بأوخم العواقب وأخطر النتائج لمن يستخفون بالأولياء، ويتعرضون للنيل منهم بأى صورة من الصور:

- (اعلم أن الرجل إذا وقع فى حق الولى انسلخ منه الإيمان كما تنسلخ الشاة عن ولدها، أو سلط عليه الأمراض كلما برئ من مرض أتاه مرض آخر وهو لا يشعر أن ذلك لأجله، فافهم).

(ج) واردات الرجاء والتبشير

وهى أيضا نوعان:

(١) نوع ليست البشارة نصا فيه، وإنما تستشفها من الوارد فتجده يثير فيك الهمة للعمل بما يتضمنه حتى تظفر بما يبشر به كالوارد الذى مر بك فى الإرشاد:

- (لذ بجانبنا، واطرح أثقالك برحابنا، واجعل مطالبك مطالبنا، نجعلك إماما لنا).

فهو يبشر فى ختامه بالإمامة لمن لاذ بالجناب، وطرح أثقاله بالرحاب.

(٢) ونوع ثان ترى البشارة جلية ونصا فيه.

ومن هذا النوع الواردان الآتيان:

الأول يزف بشرى صدق الوعد من الله، والتجاوز عن وعيده لأحبابه المخلصين:

• (الله الصادق الوعد الأمين، ويتجاوز عن الوعيد لأحبابه المخلصين).

الثاني يحمل أسمى بشرى عن النبى ﷺ بأنه لن يدعه حتى يورده الكوثر، ويشرب منه:

• (قال له ﷺ مناما: لا أدعك حتى ترد على الحوض أى الكوثر وتشرب منه لأنك تقرأ سورة الكوثر وتصلى على، ثم قال له: ولا تدع أن تقول: أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه، وأسأله التوبة والمغفرة، وأنه هو التواب الرحيم، مهما رأيت عملك أو وقع خلل فى كلامك).

(د) واردات المعارف والأسرار

ونبدؤها بوارد من أسمى الواردات يثير فيك العجب والإعجاب جميعا، إذ تراه يكشف عن سر من أسرار الله فى الإنسان، ما كان للعقل دركه ولا للفهم طرقه، لولا منة الله على أحبابه، وأنه يختصهم من الأسرار بما لا يختص بهم خلقه:

• (اعلم أن ابن آدم طلسم لا يدريه إلا من اجتباه الله، وأطلعه على سره الغامض فيه، فمن السر أنه مرقوم على كفه الأيمن رقم ١٨ وعلى كفه الأيسر رقم ٨١ ومجموع الرقمين ٩٩ أعنى أسماء الله الحسنى المتجلى بها عليه على حسب استعداده من الأزل ،أما خليفة الله فى كل عصر (الغوث) فهو متجل بها عليه على مرأى منه، وهذا سر قوله تعالى لإبليس عليه اللعنة ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾[1] [ص:٧٥]. وهذه الأسماء جامعة لليدين، أعنى الجمال والجلال، والقبض والبسط، والأنس والهيبة، والعز والذل، والفقر والغنى، والكمال. فمن أسعده الله وتحقق بهذه الأسماء، واستخرج ذلك منه كان العبد الكامل، ونطق بالحكمة، وخرق صدف نفسه إلى جوهر روحانيته ودرها ولؤلؤها ويواقيتها، وكان خليفة الله فى أرضه، ومن غفل عن ذلك فهو فى مشيئة الله

---

(١) يعني كان السجود لآدم شكلا، ولكنه في الحقيقة كان لله لا لآدم عليه السلام، إذ لم يكن السجود للبشرية الآدمية بل لما حوته من خصوصية.

تعالى، وعاش كحيوان يرتع فى الفلاة. وإذا أفردت الرقم الذى فى الكف الأيمن نطق باسمه (الحى) وإذا أفردت الرقم الذى فى كفه الأيسر نطق باسمه (الأحد المحيى). فمن عبد الله باسمه (الحى) وداوم عليه، واستغرق فيه ليلا ونهارا شاهد حياة كل شيء، وكوشف بسر الملك والملكوت، ومن عبد باسمه (الأحد المحيى) وأكثر منه، ولا حد لأكثره شاهد حياة كل شيء ومحييه، ومن ذكر بهم جميعا صعدت روحه إلى الملأ الأعلى، وتقف تحت العرش، ويكتب عند الله من الكاملين الصديقين، وكان أعجوبة زمانه عرف من عرف وأنكر من أنكر).

وارد له من قوة الأسر ما يقفك مستغرق التفكير أمام صولته، لدقته فى التناول، وعمق ما يكشف عنه من أسرار، والوارد يساق بصيغة سؤال:

- س: ما ملاك الجسم؟

ج: ملاكه العقل، والعقل عقلان، عقل للنفس لتدبير أمور الدنيا، وعقل للروح لتدبير أمور الآخرة.فإذا طغى عقل النفس على عقل الروح اندمجا معا وصارا عقلا واحدا، وكانا محلا لهاجس النفس ووساوس الشيطان.وإذا طغى عقل الروح على عقل النفس اندمجا معا وصارا عقلا واحدا وكان محلا للتنزلات الإلهية والمعارف الربانية، وسعد صاحبها سعادة لا شقاء بعدها.

س: وما ملاك العقل؟

ج: ملاكه الدين: والدين هو التوحيد المطلق الكامل[1]، والوحدة فى الكثرة، والكثرة فى الوحدة، واعتبار الأكوان كلها رسلا إليك تؤدى ما لديها من الأمانة من خير وشر، ولذا وجب شكرك لها.

وأما شكرك للمكون لجميع ما وصل إليك من الرسل، لأنها منه برزت، وجميع ما وصل إليك منه من القدرة ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤].

---

(١) وذلك لا يكون إلا بشهود الوحدة.

س: وما ملاك الدين؟

ج: ملاكه النور المحمدى، والنور المحمدى هو أول التعينات الربانية والتجليات الذاتية، وأول ظهور المظاهر الذاتية فى وجود العمائية.

س: وما ملاك النور المحمدى؟

ج: ملاكه الله جل جلاله، وهنا تنطمس العقول والأبصار، والقلوب والبصائر ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الحج: ٧٤].

وارد فى خصائص بعض الأقطاب الأربعة، وما حباهم به ربهم من رقى وكرامة:

- الأقطاب الأربعة هم:

السيد البدوى- سيدى إبراهيم الدسوقى- سيدى الرفاعى- سيدى الكيلانى، أما السيد البدوى فهو حى فى قبره يجلس[١] ويرقد، وأما سيدى إبراهيم الدسوقى فمقامه أنه من الأفراد[٢]) ثم استيقظ.

هذا وتتوالى بعد ذلك واردات المعارف:

- (قلوبهم أعجب[٣] من ذكر النائم ربه).

---

(١) يقابل جميع زواره: هذا حاله.

(٢) ترك المقامات وزهد فيها حتى الغوثية تولاها وتركها زهدا فيها.

(٣) المراد أن ذكر قلوبهم وهم أيقاظ أعجب من ذكر النائم ربه؛ لأن النائم سكنت جوارحه فلعل الذكر إما لسيطرة روحه عليه في نومه أو لتأثره بذكره الذي كان في يقظته وهو في كل فان عن نفسه فلا اختيار له في ذلك، أما هؤلاء فهم في يقظتهم وتمكنهم من حسهم فقلوبهم دائمة الذكر طبيعة وجبلة، إذ

- (شيخ الصوفية أبو بكر، ثم عمر) لأن التصوف انسلاخ عن البشرية وتبدل صفات نفسانية بأخرى ربانية فكان هذا الأمر فيهما أتم من غيرهما من الصحابة ولذا كانا وزيرى المصطفى ﷺ (عليكما باللذين هما من بعدى أبى بكر وعمر) [1].
- (أغلب الأولياء يسكنون الأردن).
- (سر الروح أنها ساكنة فى داخل الداخل من القلب، وشعاعها متصل بجميع الأعضاء، ووجهتها إلى عالم الملكوت).
- (لا يطوف حول كعبتى إلا قدمى).
- (المقامات العلية للأوامر خمسة؛ القلم، ثم اللوح، ثم العرش، ثم الكرسى، ثم سدرة المنتهى).
- (سبعة أصول لا بد منها للعارف، القصد إلى الله تعالى بالسير، والاعتصام بالله فى الأمور، والجلوس مع الله بالأمر، والنصيحة لعباد الله فى السر والجهر، وكتم أسرار الله تعالى فى الطى والنشر، وثبوت الحال مع العلم بالصبر، وذكر لا إله إلا الله الملك الحق المبين، فإذا قطع العارف هذه الأحوال، ورقى عن رؤية الأفعال فتح الله عليه فى القصد إلى الله بالسر باب النفس، وعلامته أن يستروح القلب إلى أنوار التجلى بنفس السرور وسراج الأنس فى مشكاة الكشف، وهذا النفس لا يكون إلا فى حضرة الشهود بعد غيبية الأرواح فى مشكاة الكشف، وهذا النفس لا يكون إلا فى حضرة الشهود بعد غيبة الأرواح

ليس فيها غير الله ولا قصد ولا وجهة لهم سواه (الله يتوفى الأنفس حين موتها) فإذا توفاها أخذها وتولاها، فما كان من النائم كان بالله، ومن هنا قيل: (من تحلم ولم ير حلما كلف أن يعقد بين شعيرتين)، لأنه يكذب على الله فالنائم ليس بنفسه فإن ذكر ربه، أو جرى على لسانه أي ذكر أو رأي أو فعل... فلا يتهم في ذلك كله، وإنه ليس منه بل هو من مولاه، فكذلك ساداتنا في يقظتهم مولاهم متوليهم في كل أحوالهم، وقلوبهم بين إصبعيه مع كمال يقظتهم، واستكمال شعورهم وإحساسهم، فهم به ومحركهم ظاهرا ومالئ قلوبهم باطنا هو سبحانه.

(٢) رواه الترمذى و الطبراني في الكبير و الأوسط عن حذيفة ﷺ

فى معارج الأحوال، واستغراق الأسرار فى مدارج روح القدس بجسم مادة الجهات واتحاد العلم وذهاب الاسم، وهذا أول ملابس العارفين، وأول استرواح أرواحهم هذا الذى لا يطفئ نور شهوده نور وجوده، ولا يحجب نور وجوده حقيقة شهوده، وحقيقة القصد إلى الله تعالى بالسر ظهور الحقيقة بادية فى حجاب العلم، ثم يفتح الله تعالى له فى الاعتصام به باب العناية، وعلامته أن يفتح الله تعالى له من بصيرته عيونا ثلاثة، عين يعرف بها المعرفة، وعين يدرك بها أنوار الحقائق، وعين يدرك بها أنوار المعرفة، كما أن العيون ثلاثة، عين البصر، وعين البصيرة، وعين الروح، فعين البصر تدرك المحسوسات، وعين البصيرة تدرك المعنويات، وعين الروح تدرك الملكوتيات، ثم يفتح الله له فى الجلوس مع الله باب الاستغراق فى عين التفريد، وله خمسة أركان، فناء القرب فى عين المشاهدة، واضمحلال العلم فى بحر الجمع، واستهلاك الفناء فى الأزل، واستغراق الوجود فى طى العدم، وانعدام البقاء فى برق الأبد، ففناء القرب فى عين المشاهدة للمرسلين، ومصافاة الأسرار للمقربين، واضمحلال العلم فى بحر الجمع للصديقين رؤية، وللأبرار مشاهدة، لأن الرؤية للذات، والمشاهدة لأنوار الصفات، ومن انقطعت آماله إلا من الله فهو العبد حقيقة).

- (حظوظ كرامات الأولياء على اختلافها تكون من أربعة أسماء، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، وكل فريق له منها اسم، فمن فنى عنها بعد ملابستها فهو الكامل التام، فأصحاب اسمه الظاهر يلاحظون عجائب قدرته، وأصحاب اسمه الباطن يلاحظون ما يجرى فى السرائر، وأصحاب اسمه الأول شغلهم بما سبق، وأصحاب اسمه الآخر متربصون بما يستقبلهم، فكل يكاشف على قدر طاقته إلا من تولى الله تعالى تدبيره).

- (اعلم أن خواص الله تعالى (خواص الخواص) شهدوا العالم على وجهين ثابتين، أحدهما أن الحق مرآة الخلق، فالخلق تظهر نفوسهم ببصر الحق فى مرآة الحق، فهو الناظر نفسه منهم. والثانى أن الخلق مرآة للحق، فهو يظهر لهم بصور

استعداداتهم، ويبصر نفسه فيهم بصورهم. والمكاشف بهذين الوجهين الكامل الجامع بين شهود الحق فى الظهور والبطون، وقد يكشف الله لبعضهم وجها من هذين الوجهين، فينطق كل مكاشف بحسب ما كشف له، والكل حق صدق، وليس هذا الشهود لأحد من الحكماء، ولا من المتكلمين، فإنهم يظنون أن الحق تعالى مباين للعالم، لا ارتباط له مع العالم بوجه من الوجوه).

- (الصفات المنسوبة للعبد وهمية، والمنسوبة لله حقيقية).
- (اعلم أنه لم يكتب النبى ﷺ لأميته لأنه لو كتب، وعقد الخنصر يقع ظل قلمه وأصبعه على اسم الله تعالى، فلما كان كذلك قال الله تعالى: لا جرم يا حبيبى لما لم ترد أن يكون قلمك فوق اسمى،ولم ترد أن يكون ظل القلم على اسمى أمرت الناس ألا يرفعوا أصواتهم فوق صوتك تشريفا لك وتعظيما، ولا أدع بسبب ذلك ظلك يقع على الأرض، صيانة له أن يوطأ الظل) وذلك لأنه نور محض وليس للنور ظل وفيه إشارة إلى أنه أفنى الوجود الكونى الظاهر، وهو نور يتجسد فى صورة البشر، وكذلك الملك إذا تجسد بصورة البشر لا يكون له ظل، وبذلك علم بعض العارفين تجسد الأرواح القدسية، وإذا تجسدت الأرواح الخبيثة وقعت كثافة ظلها و ظلمتها على الأرض أكثر من سائر الظلال الكونية.
- (أشد العذاب سلب الروح، وأكمل النعيم سلب النفس، وألذ العلوم معرفة الحق، وأفضل الأعمال الأدب، وبداية الإسلام التسليم، وبداية الإيمان الرضا.ثم الإيمان يتلون بحسب الجسد، والجسد بحسب المضغة، والمضغة بحسب إصلاح الطعمة).

(هـ) واردات المراتب والمقامات والدرجات والموازنات:

وارد يتضمن مع بيان درجات الواصلين مرتبة شيخنا ﷺ بينهم:

- (الواصلون درجات، فمنهم عباد يتولى الله أمرهم، ومنهم من يتولى أمرهم المصطفى ﷺ، ومنهم من يسلك على يد شيخ، ومنهم من لا شيخ له وهو يكثر من الصلاة على الرسول وتكون هى شيخه.وخير الأمور أوساطها وهى

الروح المحمدى الذى يتولى العبد، وهو الذى يتولاك الآن من البداية إلى هذا الوقت).

وارد يتناول أنواع المقامات:

- (المقامات ثلاثة: عين قريرة، وعين لا تكون قريرة، وعين ليست قريرة ولا غير قريرة ولا تعرف نفسها ولا الأكوان ولا تشتغل بالكون عنه

فالأول: مقام العامة متلذذين بما منحو من المقامات.

والثاني: مقام الخاصة غير متلذذين بما منحو، إنما هم متشوقون لمقام خاصة الخاصة، ولات حين مناص.

والثالث: مقام خاصة الخاصة، غارقون فى بحار الحضرة، نسوا أنفسهم به ولم تشغلهم عجائبه عنه، واقفون عند الأمر والنهى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢].

وارد آخر يوازن بين أنواع الطرق الموصلة إلى الله:

- (الطريق الموصل إلى الله بالكسب هو أفضل الطرق، وله ثلاثة مسالك، الأول: ذكر، والثانى: فكر، والثالث: فكر وذكر.

فالأول زندقة[١]، والثانى معطل[١] عن أعلى الدرجات، والثالث فيه جميع الدرجات).

---

(١) لأنه استعمل الذكر وحده دون الفكر أي العلم والمعرفة فأورثه ذلك جذبة إلى الحق جعلته ينظر إلى أن الله كل شيء وأسند الأفعال كلها إلى الله ما وافق الشرع منها وما خالفه، فجرى على لسانه دون فكر ما يزندقه به عن الناس، كأن يقول مثلا كله منه للطاعات والمعاصي؛ فنسب الأعمال كلها لله لا

وعلى هذا النهج تساق بقية هذا النوع من الواردات:

• (الأولياء على دربين، صالحين، وصديقين:فالصالحون هم طريق العامة، وهم أبدال الأنبياء، والصديقون هم طريق الخاصة، أبدال الرسل، وكل منهم له مادة مخصوصة من مورثه، فمنهم من انفرد بالمادة[٢] من رسول الله ﷺ وهم قليل، وفى التحقيق كثير).

• (هويتُ(١) يا هذا فهويتُ(٢) ثم هويت(٣)، ثم تركت الهوى(٤)، ثم هويت(٥) فكان الهوى هواه).

(١) هويت المسير فى طريق الله. (٢) فهويت: أى ابتعدت عن الهوى الأول. (٣) ثم هويت: أى بالله فكان سمعى وبصرى ولسانى. (٤) ثم تركت الهوى لوجود الإرادة الحادثة مع إرادة الله القديمة الأزلية. (٥) ثم هويت: أى أحببت هواه فكان هواه هواى "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به"[٣] (إن لله عبادا إذا شاءوا شاء ومشيئتهم من مشيئته).

• (العلماء ثلاثة، جاهل فى زى عالم، وعالم فى زى جاهل، وعالم فى زى عالم،

فالأول هو العالم بالمنقول ولم يعمل فهو جاهل، ومثله كمثل الحمار يحمل أسفارا،

فرق بين حسن وقبيح، وسبب زندقته نطقه عن الله بما لم يصرح به الشرع (إن الله لا يأمر بالفحشاء) وإن كان محقا في الباطن.

(١) أي معطل عن الرقي إلى الدرجات العلا، لأنه ترك الذكر حال تفكره وشغله الفكر في المكونات عن ذكر المكون فعطله ذلك عن الرقي، والكمال هو الجمع بين الذكر والفكر.

(٢) لعله يريد بالمادة الأصل أو المدد الذي هو الإمداد.

[٣] رواه الحكيم الترمذى والخطيب البغدادى وابن أبي عاصم عن ابن عمر رضى الله عنهما .

والثاني هو العالم بالعلم اللدني فهو عند الناس جاهل من حيث لم يتعلم بالمنقول، وهو عند العارفين من العلماء حقا،

وأما الثالث فهو العالم بالمنقول وعمل فبقى عالما عند الناس وغيرهم وهو أكمل).

• (الضعيف فى مقام الإحسان من إذا وصل إلى مسامعه شىء من المعترضين من صنوف الأذى وغيره، فتعلق بأذنه ووصل إلى قلبه فيكون بذلك صابرا.

وأما القوى إذا وصل إلى مسامعه شيء من ذلك فلم يعلق بأذنه بل يدخل من إحدى أذنيه ويخرج من الأخرى كأنه لم يكن شيئا، وكان بذلك راضيا).

وارد آخر:

سر يوم ألست بربكم:

• (سر يوم ألست بربكم فى أن القائل بلى عنكم سواكم والمجيب عنكم غيركم فرحلتم أنتم وبقى من لا يزال كما لم يزل أبد الآبدين ودهر الداهرين).

• (بداية المريد نهاية العالم، ونهاية المريد بداية العالم، أى بداية المريد العمل فإذا انتهى تأتى إليه العلوم والمعارف، ونهاية المريد بداية العالم أعنى: بداية العالم العلم فإذا انتهى بدأ فى العمل).

• (الشريعة ما ورد به التكليف، والحقيقة ما حصل به التعريف، فالشريعة مؤيدة للحقيقة، والحقيقة مقيدة بالشريعة، والشريعة وجود الأفعال لله، والقيام بشروط العلم بواسطة الرسل، والحقيقة شهود الأحوال بالله تعالى والاستسلام لغلبة الحكم).

• (ذكر الله باللسان يورث الدرجات، وذكره بالقلب يورث القربات).

• (من تولته رعاية الحق حكم من سلك على يد شيخ، ومن تولته رعاية العلم حكم من يسلك بنفسه من غير شيخ).

- (السالكون ثلاث: جلالى وهو إلى الشريعة أميل، وجمالى وهو إلى الحقيقة أميل، وكمالى وهو الجامع لهما على حد سواء).

(و) واردات الفوائد:

ونسوقها كما هى على النسق الآتى فكل وارد يحمل ميزته وينص على فائدته:

- (سورة (هل أتى) لإدرار الرزق، فرحمانيته قيوميته).
- (يا عزيز، يا حكيم، نلتمس بركتك، إن الله على كل شىء قدير) من داوم عليها يوميا ٣١٣ أتاه الله الحكمة، وأعزه دنيا وأخرى.
- (من قرأ الإخلاص وقريش بعد الأكل فثوابه لا يقدر قدره إلا الله تعالى، ومن قرأهما قبل الأكل بورك فى الأكل).
- (رأى شيخنا من يقول: (محمد بشر لا كالبشر، بل ياقوت بين الحجر) فقالها سبعا فجاءه الرسول ﷺ وقال له: (غفر الله لك ولمن قالها) ويعقب شيخنا فيقول: (وما زلت أرددها).

(ز) واردات فضل الشيخ:

ومفتاحها هذا الوارد الذى بحسبك من دلالته على جلال قدر الشيخ وعظم فضله أنه جعل حب المريد لشيخه أولاً، ثم حب الشيخ له ثانيا هو الورد الحقيقى الذى يثمر للمريد الخير كله، ودون هذا الحب لا سلوك ولا وصول مهما استكثر من أوراد وردد من أذكار.

- (الورد الحقيقى الذى يتلقنه المريد من الشيخ هو المحبة من المريد لشيخه محبة صادقة ومن الشيخ أيضاً).

ويؤكد ذلك الفضل للشيخ وارد ثان تراه وإن دق لفظا فقد حمل من سمو المعنى والقدر ما يدلك على أن الشيخ هو روح العبادات للمريد، وأن السر كل السر فى إذنه له بالورد لا فى الورد نفسه:

- (السر فى الأشياخ لا فى الأذكار).

ويبين الوارد الآتى ما لاستحضار صورة الشيخ عند تلاوة الورد من أثر فى فلاح المريد:

- (راقب صورة شيخك[1] وأنت تقرأ وردك، واستمد منه، واعلم أن الرسول محيط بكما، والله محيط بالكل، فهذا أساس الجمعية التى بها يتم الفلاح).

وهذا وارد يحذر من الركون إلى العلم أو العمل فى الوقت الذى يرغب فى اتخاذ حب من آثرهم الله بحبه سندا له، وفى الذروة الأشياخ المحقون، ويستحث الهمم على المسارعة فى هواهم فذلك بحق سبيل الفلاح دنيا وأخرى:

- (لا تركن إلى علم أو عمل، واركن إلى حب من يحبهم الله ورسوله، وسارع فى هواهم تفلح دنيا وأخرى والسلام).

ويشتد بك الوارد الآتى فى التحذير من عاقبة عدم التسليم المطلق للشيخ، وينتهى بأرهب إنذار لمن تحدثه نفسه بالإعراض عن مودة أهل الله، فليس وراء ذلك إلا الطرد والعياذ بالله.

- (ربما منع المريد من المزيد من أجل قوله لشيخه (لِمَ) فإنه ذنب عند أهل الطريق لا يشعر به كل أحد، وإذا رأيت نفسك معرضة عن مودة أهل الله تعالى فاعلم أنك مطرود عن باب الله).

---

(١) ذلك لأن كمال الاستحضار على هذه الصورة يجعل لهذه الحضرة حرمة فلا يدخل عليه أثناء الذكر شيطان بوسوسة أو يأتيه هاجس أو خاطر مذموم أو تسرح به النفس فى ميادين الدنيا وأيضا تضفي على المريد من الخشوع ما يجعله مستشعرا عظمة المذكور فيفاض عليه من الأسرار ولا يحرم وارد الذكر إذ لا بد لكل ذكر من وارد من حضرة المذكور وهذا من أكبر فوائد تلك الجمعية، وكم أكد المشايخ على هذه الجمعية إذ هي أساس النجاح والفلاح وسبب تقدم المريد وبها يدرك المريد ما لتلك الحضرات من علوم ومذاقات ويعرف عن ربه الكثير من النعوت والكمالات فيكون عارفا به حقا عالما به صدقا.

ويختم هذه الواردات وارد ينبه إلى أن فضل أهل الخصوصية من الأشياخ ومن فى مرتبتهم لا يدرك حق الإدراك إلا بعد مماتهم، وفى ذلك إيقاظ للوعى اغتناما لحياتهم ومسارعة فى الانتفاع بهم حذرا من الندم بعد انتقالهم حيث لا ينفع الندم:

- (أهل الخصوصية مزهود فيهم أيام حياتهم، متأسف عليهم بعد مماتهم، وهناك يعرف الناس قدرهم حين لم يجدوا عند غيرهم ما كانوا يجدونه عندهم، ولات حين مندم).

نصائحه ووصاياه

شيخنا ﷺ بفضل الله وبما ناله على يد مؤدبه الأعظم- صلوات الله وسلامه عليه- قد تسنم أرقى المقامات عند ربه، وبذلك تحققت له الوراثة المحمدية فأضحى صورة من الكمال البشرى، ونموذجا لكمل العارفين:

حركاته قدوة، وسكناته أسوة، وإشارته نصح، ونظرته تربية، ونطقه هداية وتهذيب وتقويم، ومن ثم فحياته كلها بين أولاده كانت إرشادا وتعليما.

وقد مر بك- أيها القارئ الكريم- فى تربيته لمريديه وفى غير موطن من هذا الكتاب كثير من نصائحه وإرشاداته، وما نضيف هنا جديدا من ذلك إلى ما سبق، ولكنا نسوق من وصاياه ذلك النوع الذى كان ثمرة انفعاله لمخالفة مريد أو لظاهرة بدت فى بعض أولاده على غير ما يريد، فنطق بها وهو مأخوذ أو شبه مأخوذ، فكانت بسلامة عباراتها وسامى حكمتها وإصابتها من صاحبها موطن الداء أقرب إلى الواردات منها إلى نصحه العادى وإرشاده وهو غير مأخوذ، واستحقت أن تفرد بالذكر فى هذا الموطن ملحقة بالواردات كما مر بيانه.

وكثيرا ما كان يعمم النصح لمريديه فى مواجهتهم وإن كان المقصود به فردا أو بعض أفراد، تأسيا بما كان يعمله مؤدبه ومربيه ﷺ فى مثل هذا الموقف فيقول (ما بال أقوام... إلخ) ولا يذكر الأسماء فذلك أستر لهم، وأبلغ فى العظة، وأنجح فى العلاج.

(أ) ومن ذلك ما نصح به مريده مرة وكان ذلك يوم الجمعة ١٤ من ذى الحجة سنة ١٣٨١ هـ فقال:

(من عمل بهذه النصائح أبشره بدخول الجنة، حفظ الجوارح جميعها إلا فيما يرضى الله، ترك الغيبة أو نهش أعراض الناس، عدم الاعتماد على حب الشيخ من غير عمل، أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك).

(ب) ومن أمثلة هذا النوع: الوصية الآتية والبالغ أهميتها سجلها بخطه ننقلها هنا بنصها ولدينا الأصل: هذه وصية يجب العمل بها دائما وتكون هى نصب عينى الموصى إليه وهى:

(اعلم يا ولدى أن أولياء الله ليس لهم حاجة عند أحد من الخلق حتى يتعرفوا إليه لجمعية قلوبهم غالبا على الحق جل وعلا، فهم يستحيون منه أن يلتفتوا إلى أحد من عبيده إلا بأمره لمنفعتهم أو لضررهم، فإن من الله تعالى على أحد بميل قلب الولى إليه، أو يتعرف إليه بنوع ما من أنواع المعرفة فتلك نعمة عظيمة من الله تعالى لا يقدر على القيام بشكرها، فإن الأولياء لا يتعرفون إلى أحد إلا لثلاثة أمور؛ إما أن يكون له معهم نسبة، أو يكون مأذونا له فى ذلك، أو يتعرف بهم مكرا بهم والعياذ بالله وذلك بإذن الله تعالى ليظهر كل ما فى بواطنهم من الإنكار عليه، والاستخفاف به والاستهزاء فيهلكوا ولا يشعرون، وتقام الحجة عليهم بمعرفة الولي، فله مقصد مع ربه لا يطلع عليه الخلق، فمن وجد من نفسه المحبة للولى الذى عرفه وصاحبه والإخلاص التام قلبا وقالبا والعمل على رضاه دائما ويعمل بإشارته فذلك هو السعيد حقا إن شاء الله، وإن وجد فى نفسه يوما من الأيام اعتراضا عليه، وجب عليه فورا معاداة نفسه ومجاهدتها حتى يخرج من هذا الخاطر السوء بسرعة قبل اتساع الخرق عليه والسلام.

ومن الأدب معه ألا يراجعه فى كلام، وأن يسمع كلامه، ويقوم لقيامه، ويمتثل أمره، ولا يمشى أمامه، ولا يرفع صوته على صوته، وأن يحرص على تحصيل رضاه، وخفض الجناح له، ولا يمن عليه بالبر له، ولا ينظر إليه شذرا بظاهره ولا باطنه، ولا يقطب فى وجهه، ولا يسبقه إلى أطايب الطعام إذا أكل معه، بل يؤثره على نفسه؛ لأنه

إذا رضى على عَقِّهِ له وسامحه فالله غيور لا يرضى هذا قليل من كثير، وأرجو العمل على هذا القليل، والله الموفق للصواب).

(ج) هذا وأحيانا أخرى كان يخص بالوصية فردا بعينه إذا اقتضت الحكمة ذلك كما فى العهد الطويل الذى أخذه على مريد من مريديه؛ وأملاه علينا فى رجب سنة ١٣٧٨ هـ، وهذا نصه:

(عاهدت الله وعاهدتك على أن أأتمر بأوامرك وأنتهى بنواهيك، ولا أعصى لك أمرا فى أمور الدنيا، وفى أمور الآخرة حتى نلقى الله.

وأول أوامرى إليك من الآن أن تبتعد عما حرم الله عليك من النساء ثيبات وأبكارا، والبعد عن كل ما يقربك إليهن، وأن تغض عينيك عنهن، وأن تأمر أهلك بالصلاة.

ألا تكذب فى أقوالك ولا أفعالك ـ إلا ما استثنى من الشرع، كالصلح بين اثنين ـ ولو كان فى الصدق حتفك.

أن تتحرى أكل الحلال دائما، وأن يكون هذا الأكل دون الشبع، بمعنى أن تقوم ونفسك تتوق الأكل.

أن تصوم الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر عربى.

أن تتصدق على الفقير بقدر طاقتك، مهما ثقل ذلك على نفسك، وعلى رغم نفسك، غنيا طلب منك أو فقيرا.

أن تجتهد فى أن تقوم من الليل وقت السحر وتصلى كل ليلة خمسين ركعة، فإن نمت ليلة من الليالى مرغما من الله فلا بد أن تقضيه فى وقت الضحى يكتب لك من الليل.

أن تداوم على صلاة الضحى كل يوم ست ركعات أو ثمانية.
أن تصلى الغفلة بعد المغرب كل ليلة ست ركعات.

أن يكون لك ورد فى اليوم والليلة خمسة آلاف (لا إله إلا الله) متوضئا مستقبلا القبلة باستحضار قلب مع الله مع إخلاء القلب من الشواغل فى جميع عبادتك وصلاتك.

أن تقصد بجميع عبادتك هذه وجه الله، ولا تقصد درجة أو أحدا، ولا تلتفت إلى سر من أحوال الطريق مطلقا، بل عبادة مخلصة خالصة من عبد لرب.

أن يكون دأبك فى جميع عباداتك الشكر لله والحمد لله؛ حتى يقيمك فيما أنت فيه ويزيدك مما عنده.

ولا بد من تلاوة الأساس مع السفينة صباحا ومساء.

كل ما تراه فى خلوتك وفى نومك وفى يقظتك، لا بد أن يكون مكتوما وسراً محبوسا فى صدرك لا يطلع عليه غير شيخك، وإلا سلب منك ما أعطى.

أن تقرأ الصلوات كل أسبوع مرة على الأقل؛ وأن تطهر مكانك الذى تتلو فيه الاسم بالطيب أو بالبخور ولا يدخل عليك داخل.

أن تجتهد بكل ما فى وسعك فى كل لحظة فى إزالة ما على قلبك من البغضاء والحقد والحسد والغل والكبرياء والعظمة وحب الرياسة وعدم الغيبة وجميع ما على القلب من الرذائل لجميع المسلمين، محبا أو مبغضا.

أن تصل رحمك على قدر وسعك وطاقتك بالمال أو بالزيارة أو بالمعروف إن أمكن، وأن تصل ود أبيك بقدر ما يمكن.

أن تسارع بجسمك وعقلك وروحك فى خدمة شيخك، وقضاء حوائجه بقدر الممكن.

إذا وجدت فراغا فى وقتك واتساعا فى صدرك وانشراحا فى قلبك، ونسيما فى روحانيتك، فلا تقضه إلا فى صلاتك على رسولك ﷺ، فإنه ختام وصلك الأكبر إلى ربك الأعظم، وقد اختصرت لكم الطريق وما فيه من الخير.

ولا بد لمن سار على هذا المنهج ألا يترك عبثا، بل لا بد من الاختبار من الله سبحانه وتعالى، فليقف العبد أمام مولاه ويطلب منه المعونة والصبر على ما ابتلى، والرضا بما قدر له، فإذا مر من هذه العقبة بسلام وقع فى الحقيقة المحضة فليكتم ولا يقف عندها، بل يطلب محققها، وليصبر على إيذاء إخوانه ظاهرا وباطنا، ويحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، وليكن له كلمة يقولها كل يوم عند الافتتاح بالأوراد فى الصباح (اللهم إنى تصدقت بعرضى على من تكلم فيه فى هذا اليوم) وفى المساء كذلك.

أن تبتعد عن المشى فى الأسواق بقدر ما يمكن، وأن تتلو المسبعات صباحا ومساء كل يوم إن أمكن قبل طلوع الشمس وقبل الغروب.

(والله على ما أقول وكيل وشهيد).

معارفه وعلومه

تمهيد

من المعارف والعلوم ما هو كسبى ومصدره البحث والاطلاع والعلم، ومنها ما هو وهبي، وهو ما يهبط على قلب الولى من المعارف والعلوم الباطنية بلا واسطة أو سبب مألوف.

ولا ينفتح باب ذلك العلم أمام عبد وفى قلبه أدنى تطلع إلى العالم بأسره ملكه وملكوته؛ لأن البشر ما داموا محجوبين بخلالهم البشرية وأوصافهم الخلقية، وحجبهم الظلمانية أو النورانية لا يكونون مستعدين لأن يكلمهم الله.

فإذا رفعوا هذا وتجردوا وجاهدوا حتى تخلصوا، خرجوا إلى عالم الغيوب، فكساهم الله حلل قربه، وكحل عيونهم بنوره، وألبس أسماعهم من وصفه، وكشف لهم سر الغيرية وحجاب الربوبية، وخاطبهم كفاحا وعيانا، فإذا ارتقوا فوق ذلك وصاروا روحا متجسدة صعدوا إلى الملكوت، ورأوا الحق بنور الجبروت، وسمعوا خطابه دون واسطة وبلا حجب وكلمهم وحيا وإلهاما فى النوم واليقظة.

وليس ثمة فارق بين الوحى والإلهام فى واقع الأمر لأنهما على التحقيق أمر واحد، غير أنه إذا كان للأنبياء سمى وحيا، وإذا كان للأولياء سمى إلهاما.

ألم يكن من الوحى: الإلقاء فى الروع! مصداق قوله عليه الصلاة والسلام "إن روح القدس نفث فى روعى"... الحديث، رواه الطبرانى وأبو نعيم عن ابن مسعود.

كما عبر الله عن الإلهام بالوحي، وذلك فى قوله سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص:٧].

وفى قوله جل شأنه ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ...﴾ [النحل:٦٨]. الآية.

إن ما يلقى فى الروع هو ذلك النور الذى يفاض به من الله على قلوب الأولياء والعارفين.

وهو ما أراده الإمام على كرم الله وجهه فى مقالة له نسوقها بمعناها (لم يبق من الوحى إلا ما يعطاه العبد فهما فى كتاب الله)، وما زال القرآن ينزل للآن لا باعتبار ألفاظه المقروءة، ولكن باعتبار ما يتجدد من فهم للعارفين فيه.

ولذا يقولون دائما: (إن القرآن ما زال بكرا لم يعرف مراد الحق منه حتى الآن) وحقا ما يقولون فالقرآن كلام الله، وكلامه صفته النفسية الأزلية، وصفته كذاته لا أول لها ولا آخر، فإذا فهم مراد الحق من كلامه وتعين، أدركنا هذه الصفة وأحطنا بها وذلك محال.

وهكذا ترى أن علم الله لا ينفذ[1]، ومراده من كلامه لا يتحدد، وتجدد الفهم فيه ثابت ومقرر، ويختار الله من خلص عباده وصفوة أوليائه من يختصهم بالكثير من مراده، والدقيق من مراميه، والعجيب من أسرار الكون وحقائق التوحيد، ومراتب الأولياء، وأصول النشآت وتكوين المكونات ويكشف لهم عن المغيبات كالجنة والنار والملائكة والعرش والكرسى، وغير ذلك مما يحبوهم الله به من فضل، ويؤثرهم به من أسرار، ومما يبوحون باليسير منه، فتسمع أو تقرأ لهم حديثا بكرا عجبا لا عهد لك به من قبل مما يثلج الصدر ويهدأ به البال ويستريح له الخاطر وتطمئن إليه القلوب.

---

(١) يشار إلى تجدد الفهم للعارف في الآية الواحدة فاليوم يقول فيها مالم يسمع من قبل، وبعد أيام إذا عرضت تلك الآية: تسمع إشارات وتلويحات وعبارات ما سمعتها بالأمس، كل ذلك دلالة واضحة على تجدد معرفتهم به وفهمهم عنه، ورقيهم في معارج الكمالات التي لا تنتهي وهكذا تسمع كل يوم عجيبا وترى غريبا في الآية وكأنك ما قرأتها أو سمعت بها، أو عرفت عن مكنون أسرارها، (والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم).

من هذا البحر الخضم، ومن ذلك المحيط الزاخر بالدرر الربانية، والحقائق الغيبية كانت معارف شيخنا ﷺ وعلومه، ومنها نعرض ما وعيناه منه فى أخريات حياته من هذه المعارف وتلك العلوم.

وجدير بنا أن نتحسس الفرق الدقيق بينها وبين الواردات السابقة الذكر مع ما بينهما من وثيق الصلة وشديد الارتباط.

أجل: الكل تنزلات وفيوضات يفيضها الله على قلوب أوليائه، والكل علوم باطنية لا بحرف ولا بصوت، بل بذوق وكشف إلهي وإلقاء وإلهام رباني، غير أنها فى الواردات كما سلف تتقيد بنطق العارف وما تحرك به لسانه قسرا لا اختيارا، فترد الواردات بنصها لا تبديل لحرف فيها ولا تغيير، وإذا أعيدت بعض الواردات لتأكيد أمر لصاحبها، أعيدت غالبا بذاتها دون زيادة فيها أو نقصان.

أما فى المعارف والعلوم فيحس العارف– عندما يأتى الفيض أو يستشيره سائل– بانطباعه فى القلب ربانية وإشراقة لدنية، ما كان للناس أن ينتفعوا بنورها لو لم يعكس العارف عليهم ذلك النور بما يلهمه الله به من تعبير يترجم عما تحتويه دون التقيد بنص معين، أو كلمات بذاتها.

والعارف فيما ينطق به من معارف لا عهد له به من قبل، شأنه فى هذا شأن السامع إلى حد أن كلامه لو لم يدون بسرعة لما تذكره بعد ذلك، ومن ثم فقد يسأل فى نفس المسألة مرة ثانية فيفيض الله عليه بجديد غير ما سبق، والكل حق والكل صدق.

وكم رأينا وسمعنا لشيخنا ﷺ فى هذا المجال من تكرار الفيض وتجدده فى المسألة الواحدة ما أثار الإعجاب وأدهش العقول وهز الأفئدة.

وإنك لتحس– وأنت تستمع إلى حديثه– بكلام قريب العهد بالله، ومن ثم ينفذ إلى القلوب فتهتز له اهتزازا، ثم تطمئن إليه بعد ذلك اطمئنانا والعجيب أن هذه المعارف

والعلوم أرزاق تتسع وتضيق حسب حال السامعين واستعداداتهم من حيث شفافية الأفئدة وسلامة العقيدة وتفتح القلوب وحسن استقبالها لما تسمع من أسرار وفيوض.

والحق أن الولى يكون مثله كمثل السحابة مسوقة إلى أرض ميتة تطلب الحياة، وإلى بلد محتاج إلى المياه، وعلى قدر حال هؤلاء وأولئك يكون الفيض والعطاء، وقد يساق المطر إلى أرض جدباء، وينزل على صخرة صماء فلا تثمر؛ وكذلك الولى قد يجمعه الله بمن هم له منكرون وللحق جاهلون، فيمطرهم بتلك العلوم نكالا لهم وحجة عليهم ليزدادوا مرضا على مرضهم، وعلة على عللهم كما يسقى الحنظل والصبار فيزداد مرارة، وكل من عند الله وبإلهام من الله، ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٠].

وكما يفتح الله على وليه فى حضرة أناس، فينفحهم من العلوم الغيبية بما يثير العجب، وينفذ إلى القلوب فينحدر إليها انحدارا يقر له فيها القرار، ويكون فى انهماره كالسيل المدرار، نجده فى حضرة آخرين لا يجود إلا بما يشبه قطرات الطل أو رذاذ الماء ضنا بسر الله أن يودع غير أهله، وبمعارفه أن تتنزل عند من لا يقدرها.

ولو تأملت لعلمت أن فيض الله لدى العارف كامن فيه وهو فى هذا أمين على ما استودعه الله من كنوز أسراره، لا يعطى منها إلا بقدر استحقاق كل واستعداده وأهليته لمعارف الله وعلومه، ولله فى خلقه شئون ومصداق ذلك وارد كريم لشيخنا ﷺ هذا نصه:

قال له ﷺ مناما: (لا تودعن كلامى إلا عند من كان منا، وأحب أن يسلك طريقتنا، ولا تلقه إلا لمحب محق، يدخل تحت طَيِّنا وينقاد لنا، فإن ذكر الكلام لغير أهله عورة).

وحقيق بنا بعد هذا التقديم لمعارف شيخنا وعلومه أن نبين ما تتضمنه هذه المعارف وتلك العلوم وما حصلنا عليه منها ينقسم إلى قسمين:

(١) قسم يتناول بعض آيات من القرآن الكريم بالتعليق عليها أو التفسير، وسنعنون له (بقسم التفسير).

(٢) قسم ثان يتناول نواح متعددة، من تعليق على حديث شريف، أو شرح لبعض مقالات الرجال أو إفصاح لإشاراتهم وفك لمطلسماتهم أو لبيان المراد والمقصود من رموزهم وما يعقلها إلا العالمون؛ إذ لا يعرف الإنسان المقصود من الإشارة أو فهم الرمز إلا إذا كان فى مستوى القائل فكما أن لكل طائفة أو جماعة اصطلاحات وعبارات لا يلم بها غيرهم لأنه لم ينزل منازلهم أولم يطف بساحتهم ولا يفهمها إلا من أوتى الحكمة وعلم الحضرات، يؤتى الحكمة من يشاء فتفسير وإيضاح مثل هذا لا يكون من كل الناس بل من الأولياء الذائقين المتمكنين.

قسم التفسير

ونبدأ بما أفاض الله به على الشيخ ﷺ من تفسير لآيات من القرآن الكريم:

بسم الله الرحمن الرحيم

• افتتح الله السور بالبسملة، لأن السور بيوت ومنازل، فباب كل بيت البسملة، ومعنى ذلك أن من دخل بها فهو آمن، لأنه طمأنه بالرحمة التى فى البسملة التى هى الباب.

• ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ **[البقرة:٣٠]**.

• موقف الملائكة من خلق آدم عدم(١)منهم، والأمر بالسجود للخليفة تشريف للخليفة، وسيدنا محمد ﷺ زعيم فرقة الجنة، وإبليس زعيم فرقة النار وهو من الجن وكان قد علا بالعبادة إلى رتبة الملائكة، فلما أمرت الملائكة بالسجود لآدم وهو معهم شمله الأمر، فغلبت عليه نفسه باعتبار أصله فلم يسجد، أما الملائكة فلأنهم أرواح محضة سجدوا.

• ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ **[البقرة:٢٠١]**.

• المراد بالحسنة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

• ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ **[آل عمران:١٠٣]**.

اشكروا نعمة الله الكبرى وهى الرسول ﷺ، ووارثه فى كل عصر، وشكره التأدب فى حضرته، والعمل بما يحبه، ولا شك أن الرسول خير نعمة مصداق قوله عليه الصلاة والسلام "إنما أنا رحمة مهداة" عن أبى هريرة.

---

(١) عدم علم بحقيقته (إذ هو على صورة الرحمن) وليس اعتراضا.

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[المائدة:٥٤].

• هو يحبهم وفى الحقيقة ما أحب إلا نفسه، لأنه لا يحبهم إلا لفعلهم وهو منهم، نعم... الأفعال كلها منه، والفعل فى حال صدوره من الله لا يكون إلا خيرا، ولكن وعاء العبد النازلة عليه تلك الأفعال هو الذى يشكلها، فلذا نسب لله فى الصدور والظهور إن كان خيرا، ولله فى الصدور وللعبد فى الظهور إن كان شرا، لأن العبد هو الذى شكله.

• ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[المائدة:١١٨].

الحكمة تقتضى عدم المغفرة لهم، فكيف يخالف الحكمة؟ المراد الستر فى الموقف من الفضيحة.

• ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[الأنعام:٥٩].

"إلا هو" يعنى من كان هو، (اعبدنى ولا تسألنى وأنا أعطيك أفضل ما أعطى السائلين).

المستغاث به فى الحقيقة هو الله، والغوث منه خلقا وإيجادا، والمتوسل به أيضا نسبا وكسبا، والتوسل طلب الدعاء من المتوسل منه، وهو ﷺ حى يعلم سؤال من سأل.

• ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾

[الأنعام:٧٦،٧٥].

الملك ما يشاهد بالعين، والملكوت ما يشاهد بالروح والقلب، (فهذا ربى) قالها إبراهيم لملكوت الله فى النجم، فلما أفل غطى الله عليه الملكوت فرأى النجم فى

عالم الملك، فإبراهيم رأى الكوكب قبل، أما فى هذه الحالة فقد رأى ملكوته أى حقيقته وسره ومكوكبه أى تجلى الله فيه.

- ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[الأنعام:١٠٣].

الآية دليل على أن العارفين يدركونه ببصائرهم، لأنه نفى للإدراك بالبصر لا بالبصيرة.

- ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٌۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٌ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾[الأعراف:٤٦].

الأعراف مكان معروف بين الجنة والنار، والتعبير (بعلى) فى قوله: ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ يشير إلى سمو المنزلة وعلو الدرجة لمن يكونون عليه ولذلك وصفهم بالرجال فى قوله ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٌ﴾ مدحا لهم، فلم ترد كلمة (الرجال) فى القرآن إلا على سبيل المدح ومن ذلك قوله تعالى ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ [التوبة:١٠٨]،، ﴿رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٣٧]

الحقيقة أن هناك من يخلقه الله بيد، وهناك من يخلقه بيدين وإن كان الكل مخلوقا باليدين لأنه ابن آدم، غير أن أحد اليدين لم يظهر فيه أثرها واضحا.

والمراد باليد هنا إما الجلال وإما الجمال: فمن كان إلى أحدهما أميل، فهو مخلوق بتلك اليد.

(وهناك من جمع بينهما على سواء فلا يغلب جماله جلاله ولا العكس).

وفى كل زمن خليفة كآدم مخلوق باليدين جسما وروحا، وكما سجدت الملائكة لآدم تكليفا، فهى تسجد لهذا الخليفة تشريفا، وما كانت معارضة الملائكة فى السجود لآدم إلا عدم علم منهم بمكانته.

وأهل الأعراف الكمل كالميزان، وهم فى مقام الحيرة لا يستقرون على حال أو لا يخرجون من حيرة إلا إلى أخرى لزيادة علمهم بالله، وهؤلاء الرجال يعرفون كل من دخل عليهم بسيماه، ويخاطبون أهل الجنة وأهل النار على سواء.

هذا هو المخلوق باليدين، وهؤلاء هم أهل الأعراف، أما من جاء من يد الجلال أو غلب عليه الجلال إذا وصل إلى حد الإفراط يكون مآله اليأس والقنوط وتكون نتيجته والعياذ بالله الخروج لأن مقام الجلال خوف محض.

أما من جاء من يد الجمال أو غلب عليه الجمال تكون نتيجته إذا وصل إلى حد التفريط عدم العمل بالأوامر، وتحصل له الزندقة والعياذ بالله، لأنه مقام رجاء محض ويحصل له الانبساط الدائم.

أما من خلق باليدين غلب عليه الخلق باليدين فلا خوف عليه والله أعلم.

- ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾[الأعراف:٨٩].

الآية تتحدث عن سيدنا شعيب عليه السلام وهو معصوم، فكيف يرجع إلى ملة الكفر، وذلك ينافى العصمة؟

والجواب أن هذا من باب ملاحظة العلم المطلق، فليس هناك فيه قيد ولا عصمة ولا غيرها، لأن الشرع مقيد، وعلمه المطلق لا اطلاع لأحد عليه.

ومنه دعاء النبى ﷺ يوم بدر، ومنه قول أبى بكر رضي الله عنه (لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدمى فى الجنة).

ومنه قوله ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤].

أما قول النبى ﷺ عند دخوله المقابر "وإنا إن شاء الله بكم لاحقون" أخرجه مسلم والنسائى عن عائشة، فمن باب الأدب والتبرك، وإسناد الأمور كلها لله تعالى.

• ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾[التوبة:٣٤، ٣٥].

العارف إذا منع المعارف عن أهلها حجب بها عن مولاه، وهذا هو الإحماء المراد بقوله ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا﴾ من (الحمية بمعنى الامتناع) فمن منع معارفه عن إنفاقها فى سبيل الله حجب عن الحق.

• ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[هود:٦].

الدابة: الروح، والأرض: الجسم، ولها رزق سواء أكان رزقا سيئا أم حسنا، والملائكة أرضهم محمد ﷺ، وسماؤهم هو.

• ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[هود:١٥، ١٦].

(نوف إليهم... إلخ) دليل على زيادة أرزاق الظلمة، وكل من كان يريد بعمله الدنيا.

وقوله أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار... إلخ) قضاء عليهم وقصم لهم، وبيان لضياعهم فيما هو أهم (فى الآخرة).

• ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾[هود:٣٨].

لما كان نوح يصنع السفينة فى البرية، ويقول لهم: سأعمل بيتا يسير على الماء فكانوا يسخرون منه، وكذلك المصلح يكون ظاهر حاله يدعو للاعتراض والعجب ولكنه على حق والعبرة بالنتيجة.

• ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[هود:٤١].

(باسم الله) من العبد بمنزلة (كن) من الله تعالى ومعناه أنك إذا قلتها موقنا بها كون الله لك حاجتك، وأعطاك طلبتك متممة دون تأخير.

• ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[هود:٨٠].

يقول سيدنا لوط عليه السلام ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً﴾ يعنى الجلال والغضب عليهم شديد، والرحمة التى عليه خاصة فهى أقل فيقول: لو أن الرحمة التى معى تغلب الغضب الذى عليكم.

﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ معناه أو يتجلى علىَّ مولاى بالرحمة العامة فتغلب كل غضب (سبقت رحمتى غضبى) أى غلبته.

ولذا لما تجلى الله بالرحمة العامة على الملائكة طمسوا أعينهم (أعين قوم لوط).

أما لوط فكان فى كل حاله يأوى إلى مولاه، ولم يبرح الحضرة الإلهية ولا يليق بنبى إلا كذلك، ولذا قال ﷺ "رحم الله أخى لوطا كان يأوى إلى ركن شديد"[١].

---

[١] رواه البخارى و مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه

فيشير إلى أنه كان دائما آويا إلى مولاه، وإنما كان يطلب غلبة الجمال للجلال أو الرحمة الكلية العامة للغضب والله أعلم.

- ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ...﴾[الرعد:٣٣] إلخ الآية.

﴿قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ فيه إثبات لعمل العبد مع قيوميته سبحانه وتعالى، التى هى أبرز صفة فى سيطرته تعالى على العبد، وذلك للحجة على العبد، فهى من باب الشريعة (فرق) كتب بقلم الأزل على لوح الأبد.

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥]

طلب سيدنا إبراهيم من الله أن يجنبه هو وبنيه عبادة الأصنام فكيف ذلك وهو المعصوم؟

المراد بالأصنام هنا الأغيار والعلائق وكل ما يشغل عنه سبحانه، إذ إن ما يشغل العبد عنه بأسره يكون الإنسان عبدا له "تعس عبد الدرهم..."[1] إلخ الحديث.

- ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل:٧٧]

﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أو للتحقيق؛ فأمر الساعة لناس كلمح البصر، ولآخرين أقرب كالأنبياء والمرسلين.

---

[1] رواه البخارى و غيره عن أبى هريرة ﷺ

• ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٦].

الذى عند نفسه فان، والذى عند الله فى مقام العندية لا ينفد علمه، ولا يفنى عرفانه.

موت النفس خروج خصالها الشريرة، أو تبدل صفاتها الذميمة بصفات حميدة، ولكن النفس لا تموت أى لا تنعدم أو تفنى ولا تخرج إلا بخروج الروح.

• ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء:١٦].

هناك أمر شريعي، وهو ما جاء على لسان الرسل، وهناك (أمر الأمر) وهو أمر الإرادة، والأخير لا بد من وقوعه وتحققه والأول قد يقع وقد لا يقع.

ومثل الأول الأمر بطاعة الله للمطيع.

ومثل الثانى ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ فهو أمر الأمر، أما قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف:٢٨] فهو أمر شريعى ظاهرى وآدم ﷺ رأى أمر الأمر وهو أمر الإرادة، ففعل (أكل من الشجرة) وكان الأمر الظاهرى مخالفا لذلك فتركه لأنه رأى أنه غير واقع، ولذا نال بعد ذلك الخلافة.

• ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨].

الصلاة صلة لظهور الشمس وهو محمد ﷺ "كان الله فى عماء" فالذى يسبق الشمس الليل وهو العماء فيصلى الإنسان فى النهار، إمامه سيدنا محمد حتى يصل إلى الليل وهو مقام الحيرة، وهو أرفع وأعلى المقامات، والفجر هو الشهود الكامل، وهو مشوب (ظلمة بنور) وفيه أى الليل صلاة النافلة التى تكون للإنسان مكملة

لفرائضه ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]. ومثله قوله: (المهاجر من مكة ليل أول إلى مدينة وهو الآن على ما عليه كان الليل الثانى) فالرسول عليه الصلاة والسلام هاجر من العماء الأول المطلق ثم رجع إلى ربه العماء الثانى الذى لا يرى فيه غيره سبحانه.

كانت الصلاة ثنائية وثلاثية ورباعية تشبيها بالملائكة ﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: ١]. لأن الآدمى هو الإنسان الكامل فجمع له عبادات الملائكة (الصبح والمغرب والعشاء) ومجموعها ٩ وترية وهى فى الظلام الحالك لا يعرف فيه أحد. فالوتر الله لا يعرفه غيره– العصر والظهر شفعية ظهور خالق ومخلوق، رب ومربوب، فالأول جمع والثانى فرق.

- ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾[الكهف: ١٨].

﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا...﴾ إلخ وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة لأنه حارس لهم، فلولا الهيبة لنالت منهم الضاريات وأخذهم أعوان الملك، والهيئة التى كانوا عليها طول الشعر والأظفار وغير ذلك ولم يسبق لسيدنا محمد ﷺ مثل ذلك المنظر ظاهرا، وكانت أعينهم مفتحة كالمستيقظ الذى يريد أن يتكلم، أو يقال أن ما هم فيه تجل إلهى هيبى أما أنت ببشريتك بدليل التاء (لوليت) فيحدث لك التولى لأن منظرهم لم تألفه.

- ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾[مريم: ٦٢].

﴿بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ الجنة فى الدنيا، والمراد الحث على الأوراد لأنها تسبب الأرزاق المعنوية والحسية، وفى جنة الآخرة التى سقفها عرش الرحمن، وهم ليعلمون مقدار اليوم بعلامات.

• ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه ١٨].

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ معرفتى بك أعتمد عليها، وأهش بها على غنمى أى أولادى فى التربية.

﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ من باب لى وقت مع ربى لا تسعنى فيه أرض ولا سماء. والإنسان المقول فيه إنا هديناه النجدين فجعلناه سميعا بصيرا، يقال له ألقها أى تخل عنها لأن الإنسان الكامل يتجلى عليه ربه بجميع الصفات فيلقيها للأعداء (أى لا يعتد بأى شيء حتى المعرفة).

• ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[طه ١١٥].

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ...﴾ إلخ لا يراد هنا أنه ليس من أهل العزم، ولكن المعنى لم نجد له عزما على المعصية عند قدومه عليها وأنه أشهده الأشجار وأشهده الجنة، ثم أشهده صاحب الجنة أى أراه لنفسه سبحانه فنسى كل شيء سواه.

• ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾[طه ١٢١].

كيف يعصى آدم وهو معصوم؟

الحق أن هناك أمرا إراديا لا يعصى أبدا، وأمرا شرعيا وهو قد يعصى وقد لا يعصى، وعصمته تقتضى عدم عصيانه، إذ إنه اطلع على ما فى علمه ورأى عدم وقوع ذلك الأمر، ورأى أمر الإرادة، فعصى الأمر الظاهرى، وغوى أمر الإرادة، فهو طائع حقا، إذ إنه يعلم أن ما فعله هو الواقع حتما، والفرق بيننا وبين أمثال الأنبياء والمطلعين على علمه وعلى ما فى اللوح أنهم قبل الإقدام على العمل يرون ما فى علم الله، ويشاهدونه ويأتون ما أراده الله سواء وافق الأمر الظاهرى أم خالفه، ومثلنا لا اطلاع له، فلا يدرى ما فى الإرادة وإنما يعلم أن هذا كان فى

العلم بعد وقوع المقدور، فالعقاب والحساب على القدوم وعلى مخالفة الأمر وهو لا يدرى ما أراد الله، أما هم فيرون ما فى علمه ويأتون الأمر الإرادى استجابة لما فى العلم لا لشهوة ولا لهوى ونحوه.

• ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

المراد من التسبيح: التسبيح الحقيقى وهو تنزيهه جل شأنه عما لا يليق به لا التسبيح باللسان، ولم ينزهه سبحانه كما ينبغى التنزيه الكامل غير سيدنا محمد ﷺ والله سبحانه حين يقول: ﴿فَسَبِّحۡ﴾ إنما يذكره بأنك بتنزيهك الحق يا محمد ستذكر أنه ليس فى الوجود غيره وأن ما تراه من مظاهر الكون هى إمدادات الله تعالى؛ إذ إنه الفاعل فى الحقيقة، فما قاله الكفار فى شأنك مما ضقت به وأمرك الله بسببه أن تصبر هو من تجلى الله فيهم، وحين تنزه الله التنزيه الحق فتذكر ذلك وترضى عما تراه وتسمعه مما تضيق به بشريتك، ومن هنا تدرك وثيق الصلة بين أول الآية ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ وبين آخرها ﴿فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾.

فالمراد اصبر يا محمد على ما يقوله الكفار فى شأنك ونزه الله التنزيه الحق وسترى حينئذ أن الفاعل فيهم هو الله، وما دام ذلك تجلى الله فيهم فسيكون ذلك سبيلا إلى رضاك، لأن كل ما يأتى من الله يرضيك.

وتقول الكفار فيك يا محمد بما يؤذيك إنما هو من تجلى غضب الله عليهم ليعذبهم به، ويثيب الرسول ﷺ عليه.

وليس المراد بالتسبيح فى آناء الليل وأطراف النهار اقتصار التسبيح على تلك الأوقات وإنما المراد دوام التنزيه والله أعلم.

• ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[الأنبياء:٧٩].

سليمان كانت معه الحقيقة، وكان داود يعلم ذلك، إلا أن الله أطلعه على أنه لو حكم بالحقيقة التى مع سليمان يفوت حق صاحب الزرع وهو الرعب لأن له حقين، أكل الزرع والرعب، فسره أولا بالحكم بأخذ الغنم كلها مسلكا له، فضاع حق الرعب، ثم حكم له بعد أنها عارية حتى نتاج زرعه وهو الحق الذى له.

ومما يدل على أن داود كان يعلم الحقيقة التى مع سليمان أنه زكاه وقال حكمت يا بنى بالحق. وانظر قوله تعالى ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وكذلك الشأن فى قصة الأختين والغلام.

• ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنبياء:٨٧].

﴿ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ أى خرج من قومه من غير إذن ﴿لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ لن نقتر ونضيق الرحمة عليه فنجعلها محدودة قليلة.

وهنا غلّب الرجاء، والميزان استواء الرجاء والخوف، ومن هنا كانت مؤاخذته.

• ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[النور:٣٥].

المشكاة هى القطب الغوث فى كل عصر، والمصباح نور الألوهية، والزجاجة حضرة النبى ﷺ والشجرة المباركة حضرة الأحدية التى لا يدرك وصفها ولا يعرف

كنهها، نور على نور هو سنا الفيضان يهدى الله لنوره من يشاء من عباده فيراه فى الأكوان عيانا دون كيف ولا أين ولا زمان ولا اتحاد ولا حلول.

وقد سئل مرة ثانية فى هذه الآية فقال

كل ما تراه فى الكون وفى نفسك من نور وعلم و... إلخ فهو من نور الله (مثل نوره... إلخ.

(المشكاة) الجسم، و(المصباح) القلب، و(الزجاجة) الفؤاد، وهو أعلى القلب وكذا ورد ذكر الفؤاد فى حق النبى كثيرا (ما كذب الفؤاد ما رأى) فهو كالكوكب وينير القلب والقلب ينفق على الجسم وينير المشكاة، (الشجرة) محمد ﷺ و(مباركة زيتونة) من اليمن والبركة فيها، يقال هذا الشىء فيه زيت يعنى يرجى منه (ولو لم تمسسه نار) الجلال فهو (نور) لأنه من نور الله (على نور) وهو إمداد الرب له يهدى الله لنوره محمد من يشاء... إلخ.

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾[الفرقان:٤٥].

الظل: الخلق فهم ظل أى أثر للقدرة، وهى ظل الذات فالخلق ظل الظل.

- ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦].

إنك أى ببشريتك لا تهدى من أحببت، وذلك لا يتعارض مع قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ...﴾ [الشورى:٥٢]. إلخ الآية لأن المعنى إنك بنا تهدى إلى صراط مستقيم.

• ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[الروم:٢٣].

قال ﴿مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ ولم يقل بالنهار والليل دليل على أننا فى غفلة تامة ليلا ونهارا لأن النوم غفلة، ومع غفلتنا التامة عنه وعن شهوده ومعرفته نرجوه ونطلب منه، وذلك من آياته الدالة على قدرته لأن الناس نيام أى (فى غفلة).

• ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان:٣٤].

سأل الشيخ سائل فى هذه الآية فقال كيف يتفق أن النفس لا تدرى ما تكسب غدا مع ما يختص الله به أولياءه من أسرار مغيبات المستقبل؟ فكان جوابه فى إيجاز بليغ، لقد قال سبحانه: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ﴾ ولم يقل (روح) وإيضاح ذلك كما سمعناه منه، ونرويه بالمعنى لا باللفظ:

إن النفس بما غطى عليها من ران الطباع، وما غشاها من كثافة ذميم الخصال لا يمكن أبدا أن تدرك شيئا من أسرار الله، وهذه هى النفس المرادة فى الآية.

فإذا ما ارتقت من نفس أمارة بالسوء إلى نفس لوامة، ومن لوامة إلى ملهمة، ومن ملهمة إلى مطمئنة، ومن مطمئنة إلى راضية، ومن راضية إلى مرضية دخلت فى حيز النفس الكاملة، وحينئذ تكون قد تخلصت من ران الطباع وكثافة ذميم الخصال وتحكم سجن الجسد فيها فيكون لها الشفافية والإطلاق فتتحكم هى فى الجسد، ولا يتحكم الجسد فيها، ويكون صاحبها روحانيا، وهذه المرتبة هى التى تسمى فيها النفس روحا والروح سر من أسرار الله، ولأنها سر لله فهى دراكة عالمة بما كان وما يكون، فإذا ما وصل صاحبها إلى هذه المرتبة انكشف الغطاء ورأى أمامه غرائب الماضى وخفايا الحاضر وعجائب المستقبل.

وكل روح فى أصلها كذلك، فإذا ما حلت فى الجسد سيطر عليها بكثافته، وغطى ما تحويه من أسرار، فمن جاهد وأخرجها من هذه الكثافة عاد بها إلى أصلها، واستحقت أن تنادى ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى * وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر:٢٧-٣٠]. وأولياء الله الذين اختصهم بأسراره منهم من وصل إلى هذه المرتبة، ومنهم من تجاوزها، وبذلك تنجلى الشبهة فى السؤال ولا تعارض الآية ما يختص الله به أحبابه من أسرار، فهم علماء الله بحق الذين عناهم بقوله ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٧]. فإن شهد هؤلاء المغيبات، وأخبروا بها فلم يكونوا بأنفسهم إنما هم به {كنت سمعه الذى يسمع به...} وإذا كان حارثة[1] يرى الغيب البعيد ويقره الرسولﷺ، فلا يبعد أن يرى ويخبر هؤلاء بما هو فى الملأ الأعلى أو سيكون إلى آخر المغيبات فلا بدع ولا عجب فهم بعينهم الذين تناولتهم الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

- ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢].

الأمانة: المعرفة الحقة، وهى للغوث فما فوق، وهى الخلافة الحقيقية، والإنسان الحق كان قبل حملها ظلوما جهولا.

- ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر:٣٢].

عند الله حكمان: سابق ولاحق، فكل عبد له عند الله سابقة، فمهما عمل فى الدنيا فهو الذى سطر له عند مولاه، واللاحق إن خالف السابق فلا بد من الرجوع إلى الأصل مصداق قول النبى ﷺ "إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه

---

(١) انظرتقدمت قصة حارثة فيما سبق.

وبينها مقدار ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى لا يكون بينه وبينها مقدار ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها"[1] ولذا كان الصوفية دائما على وجل، لأنهم ينظرون إلى السابقة، ولا يعلمون ما كان فيها.

وحسبك شاهدا على ذلك الواقعة (بلعام بن باعوراء) المشهورة فقد بلغ من درجات الولاية ما افتتن به أهل عصره، ولكن سبق عليه الكتاب، فسلب[2] فى النهاية وحكم عليه بسوء الخاتمة والعياذ بالله جزاء وفاقا لما عمل وتحقيقا للسابقة، وكان لا بد من ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨]. وقال: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣].

- ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[يس:٨٢،٨٣].

كيف يكون شيئا ويقول له (كن)، فإن كان موجودا فلا داعى لوجوده، وإن لم يكن موجودا، فلمن يقول (كن) ومن يخاطب؟

يخاطب هذا الشيء المعلوم لله الموجود فى علمه الحاضر لديه المعدوم فى ذاته، الذى لم يأت أوان خلقه، إذ إن العلم تعلق بالمعلومات كلها وإلا ما كان علما، لأن العلم لا بد له من معلوم يتعلق به، إلا أن هذا المعلوم لله المعدوم فى ذاته بحاجة إلى تكوين وبروز، فيخاطب هذا المعلوم بالتكوين، والخروج إلى حيز الوجود.

---

[1] رواه البخارى و مسلم عن عبد الله بن مسعود ﷺ

(٢) توضيحا للأمر: الاصطفاء، أزلي، وعباد الله المصطفون منهم (الظالم لنفسه) بقهرها ومنعها عن شهواتها ومتعها، فهو المجاهد نفسه وهواه، ومنهم (المقتصد) من اعتدل واستوى أمره، فأعطى للنفس حظها وللروح حقها، ومنهم (السابق بالفضل) المجتبى، أي تولاه الله فهواه هواه، ولذا أعقب ذلك بقوله (ذلك الفضل الكبير).

• ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[الصافات:١٠٢].

قال إسماعيل ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ ولم يقل (افعل ما رأيت)، فلم يكن ما رآه أمرا، ولو كان ما رآه أمرا، لقال إنى أمرت، وكيف يذبحه وهو لم يؤمر بذبحه؟

الواقع أن ذلك شدة مسارعة من الخليل ﷺ لتنفيذ ما رأى، ورؤيا الأنبياء والصالحين على قسمين: ١- كشف، ٢- رؤيا تحتاج إلى تأويل. فالأول لا بد من حصوله كما هو، والثانى يؤول.

ورؤيا الخليل ﷺ من الثانى، إلا أنه لم يوقن أنها منه (من الثانى) فسارع إلى تحقيقها، ولذا خاطبه الله بقوله ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ ولم يقل (صدقتنا).

أما الرسول ﷺ فكان عنده علامة يعرف بها رؤيا الكشف من الرؤيا التى تؤول.

مثال ذلك: لما رأى أنه شرب لبنا وأعطى الفضلة لسيدنا على ﷺ قال له ما أولته؟ قال العلم[1]، ومثله رؤيا يوسف ﷺ ﴿رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا﴾ ايوسف:٤]. فقد احتاجت إلى تأويل، فالكواكب إخوته.

• ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ اص:٢٩].

قوله ﴿مُبَٰرَكٞ﴾ ليس صفة للكتاب، بل تهنئة لمن أنزل عليه الكتاب وهو الرسول ﷺ يا مبارك، بدليل قوله ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾ ولم يقل (لتتدبروا) وفيه دليل على أنه عالم بالكتاب قبل نزوله إليه.

---

[1] رواه الدارمى و ابن أبى شيبة عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.وانه ﷺ أعطى الفضل لسيدنا عمر ﷺ.

• ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ [ص:٣٢]

﴿حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ المراد: الخير المودع فى الخيل لقوله ﷺ "الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة" رواه البخارى ومسلم عن أبى كبشة، ولها مكانة سامية حتى ذكرت وحدها فى عدة الحرب ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ...﴾ [الأنفال:٦٠]. الآية وليس المراد كما يقول المفسرون اشتغاله بالخيل عن صلاة العصر حتى غابت الشمس، فردها عليه جبريل ليصلى العصر، فهذا افتراء عليه، فهو لم يشتغل بشيء من ملكه عن الله قط، وإنما حبه للخيل لأنه نظر فيها جمال الله فهى تذكره بربه عيانا، فلما غابت الخيل قال ردوها على ولم يطق غياب جمال الله فى الخيل عنه فردت إليه، ومن شدة شغفه بجمال الله صار يقطع الخيل، كشغف النسوة اللائى رأين يوسف عليه السلام فقطعن أيديهن من شدة شغفهن به وهن لا يشعرن.

• ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [ص:٣٥].

لم يرد سيدنا سليمان عليه السلام بقوله ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ احتكار الملك له فلا يكون لأحد بعده، إنما يريد أن يكون ذلك معجزة عصره، أى أن كل نبى له أن يطلب المعجزة فكان هذا الملك معجزة سيدنا سليمان، وكان مع هذا زاهدا فى الملك لقوله: (لتسبيحة فى صحيفة مسلم خير مما أوتى سليمان وآل سليمان) والدليل على أن سيدنا سليمان لم يرد أن يكون الملك له فقط أن هذه المقامات كانت بعده لسيدنا محمد ﷺ كتخييل الشيطان له وهو يصلى، فلما سلم من الصلاة قال لأصحابه: (لولا أنى أريد ترك الشيطان إكراما لأخى سليمان لربطته على هذه السارية حتى تروه) [1].

---

[1] متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

فهو قد بلغ هذا المقام وهو من ملكه (سليمان) وزهد فيه، وكذلك طلبت منه الجبال أن تكون له ذهبا فأبى، لأنها عند الله لا تساوى جناح بعوضة، وهو عند الله أى فى العندية المحضة، فملكها وتركها باختياره. وعلى هذا فيكون سيدنا محمد ﷺ أعطى الملك الذى أعطى لسليمان وأكثر وزهد فيه.

- ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الزمر:٦٧].

﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ من اليمن والبركة، ولذا قيل (السماوات لم يعص الله فيها).

- ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠].

سئل ﷺ (كيف تعبد الله بلا علاقة مع أنه تعالى قال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؟

فقال ﷺ: (ادع الله ائتمارا لا للطلب، ولكن إظهارا للعبودية والتذلل، ومثل ذلك قول سيدى أبى الحسن الشاذلى ﷺ مخاطبا الشيطان: (أعوذ بالله منك ومن أنت حتى أستعيذ منك؟ ولولا ما أمرنى ربى ما استعذت بالله منك).

- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى:٥٢].

وكيف يقول ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ مع أنه كان نبيا وآدم منجدل فى طينته،[1] والنبوة تقتضى الإيمان؟.

---

[1] رواه الأوزعى عن العرباض بن سارية ﷺ وأبو نعيم عن عمر ﷺ

والجواب: أن هذا كان قبل الأكوان كلها، وهو فى عالم الروح من المهيمين الذين لا يدرون من هم، فمن منة الله عليه أن نقله من هذه الحال إلى الحال التى بها يشاهد ويدرك المشاهد.

ففى الأول كان فى استغراق تام دون أن يدرى أى شيء، وفى الآخر أصبح يدرك ويشاهد، ويتلذذ بالرؤية.

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف:٨٤]

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ .....﴾ إلخ الآية [الأنعام٣].

هناك ظرف زمان، وظرف مكان، وظرف لا ظرف، فالآيتان من الأخير، لأن الله مطلق لا يحويه مكان، وكذلك كل ما كان من هذا القبيل ككلام الله تعالى وقدرته وعلمه، فكلها صفات للحق تعالى، وهل الصفة تنفك عن الموصوف، فإذا نطقنا بكلام الله، أو قلنا الله معنا بعلمه، أو هو فعل كذا بقدرته، فهل انفكت الصفة عن الذات حاشا لله ذلك، وكذا قوله ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]. فالأين لنا لا له، وهو منزه عن ذلك، وكذلك (وتحركت بى شفتاه) من حديث (أنا مع عبدى إن هو ذكرنى وتحركت بى شفتاه)[1] فهل تتحرك شفة العبد بذات الحق؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وما يقال فى كل ذلك وأمثاله إنها تنزلات للحق وتجليات صورية، كما ورد "ينزل ربنا فى الثلث الأخير من الليل... إلخ الحديث" رواه الستة عن أبى هريرة فكل هذه التغيرات بالنسبة للأجسام والله ليس بجسم، فهو منزه عن الأين والبين والزمان والمكان والجهة، أو أن هذا من الحق باعتبارنا نحن لا باعتباره هو، فهو من حيث هو منزه عن ذلك سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

---

[1] رواه البخارى عن أبى هريرة ﷺ

• ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾ [محمد: ٣١].

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ﴾ كيف يقول ذلك مع أنه يعلم؟ الحق أن الابتلاء فى نفس هذه الكلمة (نعلم) وهى شديدة جدا لدى المقربين، فإذا قلت لمن هو منك فى غاية القرب والمكانة، وأنت متمكن منه وتعلم مقامه تمام العلم سأختبرك بأمر أنت تعلم أنه متمكن منه ومقيم له تمام (فقولك هذا أكبر ابتلاء واختبار أيصبر على هذا القول ويتحمله أم يرده ويثور؟ ويقول ما لا يرضى، فبلاء المقربين أن يقول لهم هذه القولة مع علمهم بأنه عالم بهم، وأنهم متمكنون من ذلك، فيا ترى: أيرضون بها ويتحملونها أم لا؟

• ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[الذاريات: ٤٩].

ومن كل شيء خلقنا زوجين، فالملائكة أنثاهم النور والذكر الروح، وكل عارف له أرض وسماء، وذكر وأنثى؛ فالأنثى والأرض جسم سيدنا محمد ﷺ، والذكر والسماء روح سيدنا محمد ﷺ وقلنا إن أرضنا الجسم، لأجل السبب الذى جئنا منه ولكن الملائكة لكونهم خلقوا بلا سبب وهو (كن) فكان هو نوره ﷺ أرضهم، وهو (أى روحه ﷺ) سماؤهم.

• ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

الإنسان إما طائع وإما عاص:

فالطائع يعبد الله ويطيعه فى الائتمار بأوامره، والآية معه واضحة المعنى.

أما العاصى: فإنه يعبد الله ويطيعه فى الإرادة، فالله أراد له العصيان، وهو يطيع الله فى إرادته، ومن هنا كانت عبادة العاصى، والخلاصة أن الطائع يعبد الله فى أمره وإرادته، أما العاصى فيعبده فى الإرادة فقط.

• ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦].

جنة فى الدنيا وهى جنة المحبين العارفين،وهى معنوية لما يستشعرونه من لذة ومتعة فى عباداتهم وأنسهم بربهم، ومن هنا يدرك معنى قولهم (نحن فى لذة لو علمها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف).

وهذا هو المعنى المراد من جنة الدنيا وهو الأنسب والأليق، وقد يراد بها الجنة الحقيقية الحسية، فالله يطعم أحبابه فى الدنيا من الجنة هذه، وذكر شيخنا ﷺ قصة الولى الذى استضافه ملك فقدم إليه فاخر الطعام، فعزف الولى عن هذه الألوان، فسأله الملك عن سبب امتناعه فقال: (مثلى لا يأكل من هذا الطعام) ثم أمسك بنوع منه وعصره فكانت عصارته دما، وأمسك اللحم وعصره فكانت عصارته قيحا وصديدا.

فتعجب الملك، ثم نظر إليه العارف قائلا: (أترضى أن آكل من هذا الطعام؟ كله من حرام، ومثلى لا يأكل الحرام) فسأله الملك ماذا تأكل؟ فأجاب: (طعامى سيأتينى)، وإذا بالباب يطرق ثم يفتح، فيدخل خادم يحمل طعاما على رأسه ويقدمه للولى قائلا: (سيدى الأكبر أمرنى أن أقدمه لسيدى الأصغر)، ثم وضعه الولى أمامه وأخذ يمسك ببعضه ويعصره فتنزل العصارة لبنا خالصا، ويمسك ببعض ثان ويعصره، فيجده عسلا خالصا، وببعض ثالث فيجده خمرا لا غول فيها ولا هم عنها ينزفون، وببعض رابع فيجده ماء غير آسن، وهى من أنهار الجنة الأربعة.

ولعل الولى عمل هذا لحكمة وهى حمل الملك على البعد عن الحرام عن طريق هذا التصوير البشع.

فجنة الدنيا إما المتعة واللذة المعنوية التى تفوق كل لذة، وإما جنة المأكولات والملذات.

وكثير من الأولياء كان يخرج إلى الناس ويشم منهم رائحة الشواء وغيره من ألوان الأطعمة، ولم يعهد أنها عنده أو طبخها فى بيته إذ لم يكن لديه المال لجلب ذلك، ولذا كان الرسول ﷺ يقول:"إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقين"[1].

والمراد طعاما حسيا حقيقيا يشبع منه أما الجنة الثانية فهى جنة الآخرة، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يجمعنا فيها.

- ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج:١٢].

قرئت هذه الآية أمام (أبى يزيد البسطامى) ﷺ فقال:(إن بطشى أشد).

وسئل رضوان الله عليه فى ذلك فقال: (وحقا ما يقوله أبو يزيد، لأن بطش الله ممزوج بالرحمة أما بطش أبى يزيد فخال من الرحمة).

- ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ﴾ [الضحى:٧].

مع قوله "كنت نبيا وآدم بين الماء والطين"[2] وكان نبيا للأرواح وعلم علوما لا تحصى، فلما جاءت البشرية كانت لا تعرف شيئا فكان يجب مرافقة البشرية للروحانية، فالبشرية ضالة عما فى الروحانية، فكان محبا شغوفا للمعرفة ولذا كان يختلى ويفكر كيف يهتدى إلى مراده ومحبوبه؟ ويؤيد ذلك قوله تعالى فى حق سيدنا يعقوب ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف:٩٥] أى حبك، فكان محبا فهداه لمحبوبه.

وموسى عليه السلام قال: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء:٢٠] أى الضالين لطريقتكم.

---

[1] رواه البخارى و مسلم عن أبي هريرة ﷺ.
[2] قال العلقمى فى شرح الجامع الصغير حديث صحيح وقال السيوطى الحديث (كنت نبيا وآدم بين الروح و الجسد) رواه ابن سعد وابن أبى شيبه والطبراني والحاكم عن ابن عباس رضى الله عنهما.

• ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١].

حب المال، حب الخلق عن الخالق، المعرفة عن صاحب المعرفة، الصفات عن الذات، والأخيرة رحمة، لأنه لولا ذلك لأحرقوا، إذ حجابه النور... إلخ ما انتهى إليه أحد من خلقه، إلا أحرقته سبحات وجهه. فكل واحد له لهو على قدره.

• ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾.[التكاثر: ٨].

السؤال يشير إلى رحمة الله لأن فيه تعداد النعم التى أنعم الله بها على العبد فى الدنيا ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨].

• **الإسلام والإيمان والإحسان**

يوضح الثلاثة الحديث القدسى (من تقرب إلى شبرا،تقربت إليه ذراعا) [1]، فهذا مقام الإسلام. {ومن تقرب إلى ذراعا، تقربت اليه باعا} وهذا مقام الإيمان. {ومن جاءنى يمشى جئته هرولة} وهذا بداية الإحسان، ويظل العبد يترقى مع الله فى هذا المقام حتى يصل إلى مرتبة يرى فيها عناصره الأربعة: الماء– الهواء– التراب– النار.

ومعنى ذلك أنه ينظر إلى الماء فيرى حقيقة تكونه منه ومن ثم يرى فى الماء نفسه لا كما ترى خيالك فيه، ولكن رؤيا حقيقية عينية.

فهو إذا نظر إلى الماء رأى نفسه ماءً

وإذا نظر إلى الهواء رأى نفسه هواءً

وإذا نظر إلى التراب رأى نفسه تراباً

وإذا نظر إلى النار رأى نفسه ناراً

---

[1] رواه البخارى و مسلم عن أبي هريرة ﷺ.

وتوضيح أن من يترقى فى مقام الإحسان يصل فى مراتب رقيه إلى مرتبة فيها عناصره الأربعة مفرقة لا مجتمعة وتلك مرتبة الإماتة، أو بعبارة أخرى الفناء فى الذات، وتلك مرتبة تقابل مرحلة تقطيع سيدنا إبراهيم للطير أجزاء ووضع كل جزء على جبل.

فأعضاء الطير الموزعة على الجبال هى أجزاؤه مفرقة، والعناصر التى تكون منها الإنسان (الماء– الهواء– التراب– النار) أجزاؤه أو عناصره مفرقة.

والسائر فى مقام الإحسان يرى تلك العناصر مفرقة كلما نظر إلى أحدها رأى نفسه أنه هو ذلك العنصر، بمعنى أنه يرى حقيقة تكونه من كل عنصر على حدة، فلو نظر إلى الماء رأى نفسه ماء، ولو نظر إلى الهواء رأى نفسه هواء، ولو نظر إلى التراب رأى نفسه ترابا، وكذلك لو نظر إلى النار رأى نفسه نارا.

تلك مرتبة الفناء أو الإماتة، لأن تفريق العناصر بلا اتحاد موت وفناء، كما أن تقسيم الطير وتفريق أجزائه موت بلا حياة، فإذا ما ترقى السائر فى مقام الإحسان فى النهاية انتقل من الفناء إلى البقاء، ومن الإماتة إلى الإحياء، وحينذاك يرى العناصر الأربعة تتجمع وتتحد، ويسعى بعضها إلى بعض، وتكون صورة حقيقية لنفسه يراها رؤيا حقيقية عينية.

وتجمع العناصر لتكون صورا نفسية حياة كما حيى الطير بعد أن التأمت أجزاؤه عندما دعاها سيدنا إبراهيم فى قوله: ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وتلك هى الحياة الحقيقية، لا الحياة الأولى البشرية، فالأولى كان بنفسه، والثانية صار بالله.

- وفى مقام آخر تحدث عن الإحسان فقال:

الإحسان بدايته الشهود، أى شهود الصفات التى من ورائها الذات، وأن الفاعل فى الحقيقة هو الله.

والصفات حقيقتها بالنسبة للذات لا هى عينها ولا هى غيرها، وهذا هو المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام "اعبد الله كأنك تراه" أما شطر الحديث الثانى "فإن لم تكن تراه" فمعناه "فإن لم تكن" أى فنيت فإنك "تراه"، فبداية الإحسان شهود، كما سبق،ونهايته الرؤية.

- **"المتحابون على منابر من نور"**

سئل رضوان الله عليه فى الحديث الشريف "المتحابون على منابر من نور يغبطهم الأنبياء والشهداء..." إلخ الحديث رواه الطبرانى عن أبى أمامة.كيف ذلك مع ما هو معلوم من درجة النبى والشهيد؟

فأجاب: أما الشهداء: فالمتحابون شهداء وزيادة، إذ أن الشهيد قتل نفسه مرة فى سبيل الله، وهؤلاء قتلوها عدة مرات، ولذا قال الرسول ﷺ "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قيل وما هو يا رسول الله قال جهاد النفس" وفى رواية أخرى قال "جهاد القلب" رواه البيهقى عن جابر.

أما الأنبياء فيقال إن المتحابين على المنابر تلك ولا مسئولية عليهم والأنبياء عليهم مسئولية أمتهم. والمزية لا تقتضى الأفضلية.

حديث الرؤيا الصادقة.

قال رسول الله ﷺ "الرؤيا الصادقة جزء من ست وأربعين جزءا من النبوة" رواه أحمد والشيخان عن أنس.

إنما كانت الرؤيا الصادقة جزءا من ست وأربعين لأن مدة الرسالة ٢٣ سنة، والمنام نصف اليقظة فـ ٢٣ × ٢ = ٤٦ والله أعلم.

- **من الكمالات المحمدية موقفه ﷺ فى بدر.**

عندما رفع النبى ﷺ صوته وهو يدعو ربه فى غزوة بدر، وسقط رداؤه وظهر بياض إبطه وهو يقول "اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض" رواه البخارى عن ابن عباس، مسح أبو بكر خليفته على ظهره، وقال هون على نفسك، ورد رداءه ثم قال له: (إن الله منجز لك ما وعد) فهل كان أبو بكر يذكّر الرسول بوعد الله أم كان أصبر منه؟

الحقيقة أن أبا بكر كان واقفا عند علم الله المقيد، إذ إنه وعد حبيبه، ولا بد منجز له وعده، ولكن الرسول ﷺ كان يقول ذلك خوفا من علم الله المطلق أن يكون فيه غير ما وعد، ومن ذلك قول سيدنا شعيب ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف:٨٩].

هذا قول.

أو أن هذا وما سبق من مقام الدلال أو الإدلال، أو أن الله سمعه وبصره ولسانه وقد أنطقه بذلك.

- **حديث شيبتنى هود**

إنما قال ﷺ "شيبتنى هود وأخواتها" رواه الترمذى عن عمران بن حصين لقوله تعالى فيها ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود:١١٢]. فالذى شيبه قوله (أُمِرْتَ)، لأن الأمر خلاف الإرادة– والأمر قد يعصى، ولكن الإرادة لا تعصى أبدا، فلو قال (كما أردت) لما شيبه ذلك، ولم يكن ذلك له بل لأمته لأنه قائم بالأمر وزيادة لأنه مراد الإرادات.

- **الناس نيام**

سئل رضوان الله عليه عن موضع العارفين من قوله ﷺ "الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا" رواه أحمد عن ابن عباس، فأجاب:

الناس جميعا عارفين وغير عارفين يشتركون فى الولادة الأولى التى يولدونها من أمهاتهم، ثم ينقسمون بعد ذلك إلى قسمين.

أما العوام فيظلون فى غفلتهم حتى يلقوا ربهم، ويموتوا فيفيقوا من هذه الغفلة، ومعنى الحديث واضح معهم.

أما الخواص والعارفون فهم خلال حياتهم يمرون بمرحلة ينسلخون فيها من ماديتهم عندما يصلون إلى مرتبة الفناء، وذلك هو الموت المراد بقوله ﷺ (موتوا قبل أن تموتوا) [١] والذى يعود بعده الإنسان إلى البقاء والمعبر عنه بالولادة الثانية عند سيدنا عيسى عليه السلام بقوله: (لن يلج ملكوت السموات والأرض من لم يولد مرتين) وعلى ذلك فمعنى الحديث بالنسبة للعارفين أنهم نيام حتى ينسلخوا عن ماديتهم؛ فإذا انسلخوا عنها فقد ماتوا، ويعبر عنه عند العارفين بموت النفس، وإذا ماتت إرادة النفس قوى جانب الروح وانتبهت رغبات الخير، وهذا بالنسبة لهم هو الانتباه بعد الموت المعنى فى قوله عليه الصلاة والسلام "فإذا ماتوا انتبهوا" أى فإذا ماتت نفوسهم انتبهت أرواحهم.

- **"لا كرب على أبيك بعد اليوم"** رواه البخارى عن أنس.

مقالته هذه ﷺ لابنته الزهراء رضى الله عنها لم تكن لما يلاحقه من شدة النزع كما يفهم من ظاهر قوله، لأن كرب الرسول ﷺ كان بالبشرية، وهو يتلذذ

---

[١] كشف الخفاء (٢٦٦٩)

بروحانيته، وإنما كان كربه فى الحقيقة على أمته، وبعد الوفاة وانتقاله إلى الرفيق الأعلى اطمأن عليها.

- "**إن للموت لسكرات**" رواه أحمد والبخارى عن عائشة.

هذا قول للنبى ﷺ عند خروج الروح، وهنا تجليان، ظاهر وباطن.

فظاهره يتألم حسب البشرية، وباطنه فى غاية التلذذ والنعيم لأنه قادم على ربه.

****

* **(اللهم صل على لوح رحمانيتك) :**

من جمع بين الحقيقة والشريعة (بقلم رحيميتك) بقلم شريعتك (ومداد مدد رحموتيتك) أى حقيقتك.

* **(اللهم صل على عرش استواء وحدانيتك) :**

الوحدانية صفة من صفات الله تعالى، والعرش الذى انفرد وحده سبحانه بالاستواء عليه فى قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]. مادة من المواد كنهها نور كثيف، روحها محمد ﷺ، فهو العرش الحقيقى فى الواقع، والله سبحانه وتعالى محيط بذاته بهذا العرش، وهذا معنى قوله (من حيث إحاطة أحدية ألوهيتك) فالأحدية هى الذات، والواحدية هى الصفات، والوحدانية صفة من الصفات.

ويوضح هذا أن نور محمد ﷺ كان من أثر تجلى الذات على الصفات، فلما تجلى الله بذاته على صفاته خلق نور محمد ﷺ، ومن هذا النور خلقت الأكوان التى منها العرش، وإذن فروح العرش هو محمد الذى من نوره خلق ذلك العرش. وكان محمد روح العرش؛ لأنه رحمة والله استوى على العرش برحمانيته.

(اللهم صل على إنسان عين الكل) :

هو محمد ﷺ باعتباره حقيقة الموجودات وأصل وجودها. (فى حضرة وحدانيتك وجمع جمع أحديتك) الجمع بالنسبة للعابدين والأولياء هو الحقيقة، والفرق بالنسبة للعابدين والأولياء هو الشريعة، وجمع الجمع المعرفة التى نهايتها انكشاف تجلى الصفات، وبروق تجلى الذات، وهى رشح النبوة.

أما الجمع بالنسبة للرسول عليه الصلاة والسلام فهو انكشاف تجلى الصفات، وجمع الجمع بالنسبة له ﷺ انكشاف تجلى الذات وهى المعرفة الحقة، وفرق بين تجلى

الصفات عند الولى وتجلى الصفات عند النبى، فنهاية الولى بداية النبى، أو نهاية الولاية بداية النبوة، وهذا هو معنى (جمع جمع أحديتك) أى صل على من تدرج فى مراتب الكمال حتى منَّ الله عليه بانكشاف تجلى الذات، وتلك هى معرفة الله الحقة، وفرق بين بروق تجلى الذات للولى وانكشاف تجلى الذات للنبى.

* **(اللهم صل على موضع نورك):**

أى موضع تجلياتك جميعها، ومنه توزع على جميع الخلق أى أن كل التنزلات من الله للخلائق يتلقاها ﷺ ثم توزع على أصحابها، وهذا يفسر قوله **"أنا قاسم والله معطى"** رواه الطبرانى عن معاوية.

* **(ومظهر منظرك):**

المنظر مكان النظر أى موضع تجلياتك، أو المنظر مصدر ميمى بمعنى نظرك، والمظهر مكان الظهور، والمعنى أن محمدا عليه الصلاة والسلام موضع للتجليات الإلهية، ثم تظهر عليه لتوزع على الكائنات.

* **(اللهم صل على إمام حضرة الجبروت):**

الجبروت عالم من عوالم الله سيأتى الحديث عنه فيما بعد، وسيدنا محمد ﷺ إمام هذا العالم بل هو إمام حضرة الجبروت، يعنى يوصل من ترقى من العباد إلى هذه الحضرة.

الفرق بين العبودية والعبودة أن العبودية قد يلازمها بعض العلائق المادية كطلب الثواب والأجور، أما العبودة فهى الحرية من كل شىء أى لا تعلق بالعبد لغير الله فلا يعبد لجنة أو مقام.

* **ليس الوصول إلى الله وصولا إلى الذات**

زعم بعض الناس الحلول، وبعضهم يقولون بالاتحاد، وآخرون بالوصول والكل باطل إذا قصد بالوصول الوصول إلى الذات؛ إذ لا وصول إلى الذات أصلا، كما أن الوصول لا يقصد به قطع المسافات وإنما انكشاف الحجب.

* **الملك والملكوت والجبروت واللاهوت.**

الملك : عالم الشهادة الذى نشاهده.

و**الملكوت** : عالم الغيب وهو كل ما غاب عنا كالملائكة والجنة والنار وما إلى ذلك.

و**الجبروت**: عالم ألطف شفافية من الملائكة، ومنهم خزنة النار، تتجلى الهيبة فيهم، وهؤلاء وظيفتهم العبادة لله فقط، ولا صلة لعبادتهم بالعالم الأرضى على حين نجد الملائكة الذين هم فى علم الملكوت فيهم تجلى الرحمة، فجانب من عبادتهم لعالم الدنيا، يؤيد ذلك قوله ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧]. فعالم الجبروت من تجلى الهيبة وعالم الملكوت من تجلى الرحمة.

و**اللاهوت**: صنف من الملائكة مهيمون، وهؤلاء من القهر، فهم لا يدرون من هم ولا أين هم، فقد يصل الواصلون إلى مقام ما بعده مقام، ومع ذلك فالترقى لا يتناهى. والمقام هنا هو الحيرة وفى نفس هذا المقام يكون الترقى، وفى نطاقه تكون الترقيات.

* **فناء الأفعال والصفات والذات.**

فناء الأفعال: فناؤك عن رؤية أفعال العباد بفعل الله فيهم.

فناء الصفات: أن يفنى العبد عن نفسه أمام صفة من صفات مولاه حينما يتجلى عليه بها، ومن ذلك كلام الله لموسى، فكيف يسمع موسى الحادث كلام مولاه القديم؟ والحق أن موسى فنى عن موسى وتجلى عليه بصفة الكلام والسمع فكان المتكلم والسامع هو الله.

فناء الذات: وهو مقام خطير لا يمكن الكلام عنه بعبارة ويفسره خروج النبى ﷺ ليلة الإسراء والمعراج.

فقد كان ﷺ يرق جسمه الشريف ويلطف بما يتناسب والروحانية العلوية، فكان يرق تدريجيا من سماء إلى سماء حتى يصير فى شفافية ملائكة كل سماء حتى وصل مع جبريل إلى سدرة المنتهى، فكان فى غاية الشفافية والروحانية وهنا توقف جبريل، وطلب منه سيد البشر أن يواصل سيره فقال: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] تقدم أنت يا محمد فهذا مقامك، وهنا زج بسيدنا محمد فى الأنوار فوصل إلى حيث لا أين ولا بين ولا زمان ولا مكان، فقد انتفى الزمان والمكان.

وهنا لا مجال للقول ولا للعقل، وكل ما يمكن أن يقال: أنه رجع إلى أصله الأول حيث كان أثرا لتجلى الذات على الصفات، ويرمز العارفون لذلك بقولهم: (ردت العارية إلى صاحبها) وهنا رأى مولاه بعين بصيرته ويمكن تفسير قوله ﷺ "رأيت ربى بعينى رأسى" رواه أحمد عن ابن عباس أنه قد انعكس نور بصيرته على بصره فرأت عيناه بنور بصيرته من ليس كمثله شىء.

وعلى ضوء هذا يفسر قولهم (اللهم صل على نور الأنوار الذى هو عينك لا غيرك).

* **من أدلة عروج النبى بجسده**

١- عروج النبى ﷺ كان بالجسد، وأقوى الأدلة على ذلك، رفع سيدنا عيسى بجسده إلى السموات وبقاؤه حيا دون أكل ولا شرب حتى ينزل قبيل الساعة. فكيف يستبعد عروجه ﷺ فى ليلة واحدة.

٢- عروج النبى بروحه دون جسده لا يظهر ميزة النبى عليه الصلاة والسلام فكثير من العارفين تعرج أرواحهم، ومن ذلك ما يرونه فى المنام.

* **المجذوب والسالك**

الإنسان فى سيره إلى الله إما أن تكون بدايته جذبة من جذبات الحق وإما أن تكون سلوكا، وفى المجذوب والسالك يقول الشيخ ﷺ، المجذوب من جذبه الله إليه ولذلك كان سيره من أول خطوة فى الطريق بالله لا بنفسه، وهذا جاء من باب القدرة (كن فيكون).

ويوضح ذلك من فجأته العناية فتغيرت حاله فجأة وانقاد إلى طريق مولاه، وهذا هو المجتبى مباشرة.

أما السالك فأنواع

أ- نوع قدر الله له الوصول، وهذا يقال له مجتبى من وراء حجاب؛ لأنه أتى من باب الحكمة.

ب- نوع ظل سائرا ولم يصل وفجأته المنية، وذلك يكمل الله سبحانه له الوصول فى قبره.

ج- نوع لم يقدر الله له الوصول، وذلك هو النوع المستدرج والعياذ بالله.

والسالك المقدر له الوصول أفضل من المجتبى مباشرة، لأن المجتبى يسير بالله والمجاهد يجاهد نفسه وهواه، وهذا هو مقام الجهاد الأكبر، والمجذوب فاته هذا المقام والدليل على ذلك قوله سبحانه ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠]. وهنا مرتبة أعلى من المرتبتين مرتبة المجذوب المجاهد، وهى مرتبة المجاهد الذى سلك بنفسه ثم أدركته العناية فجذب واجتبى قبل الوصول فقد أحرز المنزلتين.

البصيرة

البصيرة ناظر القلب، والبصر: ناظر القالب. وهى أى البصيرة أقسام: بصيرة فاسدة: للكفار، إذ إنها أنكرت نور الحق.

وبصيرة مسدودة لمرض أصابها فهى محاطة بالنور ولكنها لا تقوى على مشاهدته ولا تشهد قربه منها ولا بعده عنها وهى لعامة المسلمين.

فالمسلم نطق بالشهادتين وأقر بالوحدانية لكنه لا يرى تحقيق هذه الوحدانية لما ران على قلبه بما سد ناظر بصيرته.

وهناك قسمان آخران للبصيرة وهما:

١- عين البصيرة.

٢- حق البصيرة.

وهما داخلان فى نطاق مقام الإحسان.

(أ) فعين البصيرة نور الإحسان لأهل المشاهدة.

(ب) وحق البصيرة نور الإحسان لأهل المكالمة.

وكل ما بعد ذلك ترق في مقام الإحسان، وقد أشار إلى ذلك (ابن عجيبة)، وانفرد (محيى الدين بن عربى) برأى خاص به وهو أن هناك مقاما فوق مقام الإحسان وهو ما بعد الصديقية الكبرى وقبل مرتبة النبوة وهو (مقام الإيقان) الذى فيه الخضر ﷺ، وقد ذاقه ابن عربى.

والحق أنها ترقيات فى مقام الإحسان، وليس بعد مقام الإحسان إلا مقام النبوة، ويشهد لذلك حديث "الإسلام والإيمان والإحسان".

الله أكبر فى الصلاة

لها معنيان

١- التنبيه من الغفلة لأن الله أكبر من كل شيء، فلا ينبغى أن تنشغل أذهاننا فى الصلاة بشيء من شئون الدنيا، وإلا فلا معنى لقولنا (الله أكبر) إذا لم يكن أكبر مما يشغلنا عنه، ومن أجل ذلك تتكرر التكبيرة فى كل ركعة نحو ست مرات وينطق بها المصلى فى كل ركن فهى تتخلل أعمال الصلاة وكأنها ناقوس يدق بين الحين والحين ينبه الإنسان من غفلته ويوقظه من انشغاله.

٢- وهناك معنى ثان لا يخاطب به إلا الخاصة وهو مقام المتوسطين منه، ويتلخص فى أن كل ركن إذا أداه الإنسان بخشوع وتدبر كامل ينال به مع الله درجة فختامه بلفظ (الله أكبر) يعنى أنه سبحانه وتعالى أكبر من أن يقتصر عطاؤه على هذه الدرجة.

فإذا أنت أديت ركن الوقوف مع الفاتحة والسورة بالتدبر المطلوب حينذاك تنطق (الله أكبر) وتركع ومعناه أن عطاء الله أكبر مما نلت، ثم تؤدى ركن الركوع بخشوع فتنال درجة أرقى، ثم تعتدل لتكبر من جديد ويكون معنى ذلك أن الله أكبر من أن يقتصر عطاؤه على ذلك المقام أو تلك الدرجة، فكلما أديت ركنا نلت درجة وأسلمك هذا الركن إلى ركن ثان وهكذا تصعد من درجة راقية إلى درجة أرقى حتى تتم الصلاة وكمالات الله لا تتناهى، وذلك هو العروج إلى أسمى المقامات الذى قصده الرسول

عليه الصلاة والسلام بقوله "الصلاة معراج أمتى" وهذا مقام المتوسطين، يسمع المصلى منهم القرآن من الله، فهو آلة والله الناطق.

والخلاصة أن معنى (الله أكبر) فى هذا المقام أن تجلياته فى صلاتك وهى مما يورده عليك أكبر من صلاتك التى توردها، أى ما يورده عليك من تجلياته أكبر مما تورده من عملك.

أما مقام المنتهين: الصديقين المقربين فهو عند تكبيرة الإحرام والتى يدخل بها الصلاة يحس بكل ما يأتى.

عند ألف لفظ الجلالة يحس بأنه تدبر كل ما فى الصلاة من حركات وتدبير وتسبيح وقراءة .. إلخ، وإذن فقد تدبر الصلاة عند نطقه لألف لفظ الجلالة وتكون بقية الصلاة بعد ذلك من أولها إلى آخرها شهودا لذى الجلالة والعظمة، يترقون فى مقام الشهود عند كل تكبيرة حتى يفنى الحس ويكون القارئ والسامع هو، وبالطبع كل ركن ينال فيه مقاما من مقامات الشهود، ويسلمه ذلك الركن إلى ركن آخر ينال فيه مقاما أسمى، وهكذا حتى يخرج العبد من الصلاة ومعه من العلوم والمعارف البكر ما لم يدون فى كتاب.

أما الاستغفار بعد الصلاة فكاستغفار الرسول بطريق الميراث من حديث "إنه ليغان على قلبى" ـ لتراكم المقامات والأنوار ـ واستغفاره لترقيه من الأدنى إلى الأعلى، ومعنى ذلك أن ما كان فيه من مقام أدنى غير لائق فيستغفر الله لذلك، وهكذا كل استغفار للرسول ﷺ من هذا القبيل.

*** كيف يعذب العصاة والكفار وهم مخلوقون من النور المحمدى؟**

وجه هذا السؤال لفضيلة الشيخ رضوان الله عليه فأجاب بما يلى:

إن تعذيب المسلم العاصى ليتطهر ثم يرد إلى الجنة، إذ لا يصلح بعصيانه للنعيم، فهو بحالته تلك لا يستشعر النعيم، بل ربما أحس العذاب لأنه غير مؤهل للجنة، فدخوله

النار ليتطهر ويزول عنه ما يعوق تنعمه، فالنار رحمة له، وهنا نقول (إن محمدا ﷺ رحمة للمسلمين وللكفار دنيا وأخرى):

أما المسلمون: فرحمته فى الدنيا بهدايتهم للدين المحمدى، وفى الآخرة بالشفاعة لمن يدخلون الجنة، وبتطهير العصاة منهم بتعذيبهم فترات تقصر وتطول حسب تفاوتهم فى العصيان ليتطهروا ويكونوا أهلا للجنة والتنعم بنعيمها.

أما الكفار: ففى الدنيا بعدم مؤاخذتهم بكفرهم وتمتعهم بما فيها مما لذ وطاب إمهالا لهم.

وأما فى الموقف فلهوله وشدته عن النار نفسها يتمنى الناس انصرافهم من الموقف ولو إلى النار، والكافر مع غيره يلجئون إلى النبى ﷺ ليشفع لهم عند ربهم لينصرفوا من الموقف ولو إلى النار.

فتحقيق هذه الرغبة بشفاعة النبى لهم هى الرحمة فى الآخرة.

ثم قال الشيخ بعد ذلك وإذا صح أن النار المؤقتة رحمة للمؤمن العاصى فالرحمة فى النار الدائمة للكافر وتوضيح ذلك:

كان الله ولا شيء معه، فلما أراد إبراز النور المحمدى من علمه سبحانه تجلى بذاته على صفاته فكان من أثر هذا التجلى نور سيدنا محمد ﷺ، ثم وجه الله جل شأنه إلى النور المحمدى هذا السؤال: من أنت؟ فقال: أنا عبد الوهاب، فقال سبحانه: عبد الوهاب تتضمن شيئين: (عبد)، (وهاب) فمن العبد؟ ومن الوهاب؟ فقال ﷺ: (أنا العبد الخاضع لعظمتك وهيبتك وجلالك وجمالك والوهاب أنت سبحانك الخالق الرازق الرحمن القهار) وظل هذا النور يعبد الله بأسمائه حتى وصل إلى (الرحمن) وهو من أسماء الجمال فعرق منه الجبين والعرق معنوى- فخلق الله من عرقه ﷺ الأنبياء، ثم خلق من عرق الأنبياء الأولياء، وبعد ذلك خلق المؤمنين وكل أولئك من النور، لأنه من الجمال، فالجمال نور.

فلما وصل فى عبادته إلى (الجبار) وهو من أسماء الجلال عرق منه الجبين، فخلق الله من نار التجلى الكفار فالجلال نار.

فمن خلقهم الله من نور تجلى الجمال فإلى الجنة والنعيم، ومن خلقهم من نار تجلى الجلال فإلى الجحيم.

فكما خلق الله الجنة من نور الجمال كان أهلها ممن خلقوا من نوره أى (نور الجمال) كذلك خلق الله النار من تجلى جلاله وغضبه، فكان أهلها من جنس ما خلقت منه النار.

فالنور بالنور أليق والنار بالنار أوفق، ثم سئل عن المسلم العاصى المختوم له بالخير، والكافر الذى كانت بدايته الخير وختم له بالسوء والعياذ بالله فقال:

هذان قد خلقا من تجلى الجلال الممزوج بالجمال فالأول تجلى نور الجمال فيه أكثر من نار الجلال، وهذا يمسه من عذاب النار ما يتطهر به وما يتناسب مع ما فيه من تجلى نار الجلال.

والثانى تجلى نار الجلال فيه أكثر من نور الجمال، وليس فيه من (نور الجمال) إلا بقدر ما تمتع به فى جنة الدنيا فى البداية ثم مصيره إلى النار الخالدة فهى به أولى؛ إذ تجلى الغضب عليه يفوق تجلى الرحمة، ولعل هذين قد خلقا من أثر تعبد النور المحمدى باسم جمع بين الجلال والجمال كاسم (عزيز).

ثم استدرك الشيخ قائلا: إن تجلى الجلال نوعان:

(أ) تجلى الجلال الغضبى: وهو الذى خلق منه الكفار جناً كانوا أو إنساً.

(ب)تجلى الجلال الهيبى:وهو الذى خلق منه الجان المؤمنون وكثيرا ما تمازج نار الجلال الهيبى نور الجمال فى خلقه بعض الأولياء، وتكون مهمة نار الجلال حينئذ

إحراق الصفات الذميمة حتى إذ ما أتت على كل الرذائل سيطر على الولى نور الجمال وأصبح طاهرا مطهرا، فنار الجلال هنا سبيل للترقى، وليست وسيلة للتعذيب.

ثم زاد المسألة وضوحا فقال:

كل من خلق من نار الجلال لم يخلق من نار الجلال وحدها وإنما مع نار الجلال النور (نور سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام) فالنار مع التهابها تضيء وذلك هو النور.

ومع هذا كله فتجلى الجلال فروع:

١- جلال هيبى: ومنه خلق بعض الأولياء الذين يغلب عليهم الجلال وقد سبق ذكرهم كما خلق منه الجن المؤمنون.
٢- جلال قهرى:ومنه خلق الكفار، ونار هذا التجلى نورها يظهر من الخير الذى يكون على يد الكافر كالصدقات وفعل الخيرات والمبرات فيكافأ عليه فى الدنيا بالتنعم أو التمتع أو الإمهال، وتأجيل مؤاخذته على كفره، وهنا تتضح رحمة سيدنا محمد بالكافر فى الدنيا، إذ فيه بعض تجلى الجمال.

فإذا ما استنفد هذا النور بقيت النار أى تجلى الجلال فحينئذ مصيره إلى النار فهو (نور على نار) أما المؤمن فهو (نور على نور)، لأنه من نور سيدنا محمد ﷺ خلق فهو نور، والمؤمن يشع نوره على غيره بنفعه له وهدايته وبره، وذلك يضاف إلى نوره الأول الذى منه خلق فهو (نور على نور).

وهكذا ينتفع المؤمن بنوره، وينفع غيره بذلك النور، فهو يضيء لنفسه ولغيره، أما الكافر فلأنه من نار الجلال يضيء لغيره بما ينفعه من تصدق وغير ذلك، ويحترق هو كالشمعة، فالشمعة تحترق للغير.

٣- جلال جبروتى: ومن ناره خلق مردة الجن والشياطين وهؤلاء لا ينفعون ولا ينتفعون فهم شر، ولا يعود على الغير منهم إلا الشر،

وذلك لأن نار التجلى الجبروتى التى خلقوا منها ليس لها نور، لأنها النار التى يصحبها الدخان ولا خير فيها.

* **سبب خوف الرسول عليه الصلاة والسلام من الكفار**

(إذا كان قد بدا خوف الرسول ﷺ من الكفار فى مواقف كاختبائه فى غار ثور يوم الهجرة) فلم يكن ذلك خوفا منهم حقيقة؛ لأنه لا يخاف غير الله وإنما لأنه كان يرى فيهم تسلط جلال الله عليهم، فخاف الرب المتجلى عليهم.

* **تحدث الولى باللسان الربانى أو المحمدى**

تحدث الولى بشىء من اختصاص الله أو الرسول

إذا سُمع أن وليا تحدث عن شىء من اختصاص الله، فيكون هذا الولى متكلما بلسان ربانى، ولو تحدث عن شىء من اختصاص الرسول ﷺ فيكون متحدثا بلسان محمدى، وهكذا.

من ذلك قول سيدى إبراهيم الدسوقى (أدخل الجنة من أشاء، وأخرج من النار من أشاء).

وقال بعضهم لما رأى مريده يبكى (خوفا) من النار فلحقه حال وقال: ما لك ياولدى والله لولا الأدب فى حضرة النبى ﷺ لأطفأتها بقدمى.

* **مقالة أبى يزيد البسطامى (سبحانى سبحانى):**

وسئل الشيخ عن قول أبى يزيد البسطامى (سبحانى سبحانى) فقال ﷺ: إن لأسيادنا الصوفية العارفين عبارات ظاهرها كفر وباطنها عين المعرفة الصحيحة وقد قالوا:

(حرام على من ليس مثلنا أن يقرأ كتبنا) وذلك لعدم إدراكهم معانى العبارات وبواطنها، فقول أبى يزيد:

(سبحانى سبحانى) ليس المراد أنه ينزه نفسه والتنزيه الحق لله.

ولكن أبا يزيد كان فى جلسة مع ربه ينزهه سبحانه فسمع النداء من ربه بلا كيف ولا انحصار، أفيَّ عيب حتى تنزهنى؟

فأحجم على الفور وأخذ فقال (سبحانى سبحانى) يعنى أنا المعيب وحاشاك أن يكون فيك عيب.

ما فى الجبة إلا الله:

ثم استطرد الشيخ قائلا: ومن هذا القبيل مقالة الحلاج (ما فى الجبة إلا الله) فالجبة داخلها جسم الحلاج وفى جسمه قلبه، وقلب المؤمن هو الذى قال فيه رب العزة فى حديثه القدسى (لا تسعنى أرضى ولا سمائى ولكن يسعنى قلب عبدى المؤمن) [1] وليس المراد أن قلب المؤمن يسع الله بالحلول، فذلك ما لا يراد وإنما المراد أن القلب محل تجليات الله و هو الذى يسعها وهذا هو الذى عناه الحلاج، وليس حلول كما فهم البعض خطأ، واستطرد ﷺ فى قصة قتل الحلاج فقال: إن الحلاج استحق ذلك (يعنى القتل) لخطئه فى حق الرسول ﷺ إذ قال: (إن همة الرسول أقل من رسالته) وعلل لذلك أن الله عندما أنزل عليه ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى:٥] قال : لا أرضى وواحد من أمتى فى النار، فلم خصص أمته ولم يعمم سائر الأمم؟

وظل الحلاج سائرا فى طريق الله يقطع مراحله حتى أشرف على مقام الفناء فى الذات وفى هذا المقام تزل الأقدام إن لم يدركه المصطفى عليه الصلاة والسلام فعند ذلك نادى وقال: (أغثنى يا رسول الله) فجاءه المصطفى عليه الصلاة والسلام وقال له: (أنت الذى قلت فيَّ إن همتى أقصر من رسالتى) فقال: نعم قد كان يا رسول الله،

---

[1] أخرج الإمام أحمد فى الزهد(إن الله فتح السماوات لحزقيل حتى نظر إلى العرش فقال حزقيل :سبحانك ماأعظمك يارب، فقال الله: إن السماوات والأرض ضعفن عن أن يسعننى ووسعنى قلب المؤمن الواد ع اللين) عن وهب بن منبه.



فقال له الرسول ﷺ(وفيما اعتراضك على وقد رويت حديثا عن ربى: {وما زال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينه، وإن استعاذنى لأعيذنه}.

ثم قال له: ألا ينطبق على مثل هذا الحديث؟ فأكون ممن يكون الله سمعهم وبصرهم فقال: أنت رئيسهم يا رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام: الله هو الذى أنطقنى وكان سمعى وبصرى ولسانى فأنزل على الآية وأنطقنى بذلك، فماذا على؟

فقال الحلاج: (وما كفارة ذنبى يا رسول الله) فقال عليه الصلاة والسلام: (اختر أحد أمرين):

١- إما أن تسلب منك الولاية
٢- وإما أن تقتل بسيف شريعتى

فاختار الثانية فتركه الرسول ﷺ عند دخوله فى الفناء حتى فنى عن نفسه فقال (أنا الله).

والمعنى أنه كان ينطق معبرا عن نفسه بفعل شىء ما فيقول (أنا) ثم ينسى نفسه ذاكرا ربه فيقول (الله).

ثم بلغت شكاية الناس من الحلاج فى مقالته هذه خاله الجنيد ﷺ فحكم عليه أن يقتل بسيف الشريعة، ولما ذهب الحراس لإحضاره وجدوه يملأ فراغ الحجرة، فأتاه خاله وقال له: تأدب واخرج لأمر الله فتصاغر حتى صار كالعصفور، ثم خرج وقتل وسال دمه، وكتب (الحلاج ولى الله).

* **شرح الأبيات التى مطلعها (توضأ بماء الغيب)**

لسيدى محيى الدين بن عربى

توضأ بماء الغيب إن كنت ذا *** سر وإلا تيمم بالصعيد وبالصخر

واجعل إماما كنت أنت أمامه *** وصل صلاة العصر فى أول الفجر

فهذه صلاة العارفين بربهم *** إن كنت منهم فانضح البر بالتمر

الوضوء وسيلة شرعية للصلاة، والصلاة مقصد، وكذلك الوضوء هنا وهو العلوم الغيبية أى الحقيقة وسيلة إلى الصلاة الحقيقية وهى الوصول إلى الله؛ لأن الحقيقة بعدها المعرفة وهى الصلة يعنى لتكون وسيلتك فى الوصول إلى الله العلوم الربانية لا العلوم النقلية.

(وإلا تيمم بالصعيد وبالصخر) أى قف عند حدك وتعامل بالشريعة وعبادة الجوارح صعيد البرهان وصخر المنقول.

(واجعل إماما كنت أنت أمامه) الإمام هنا هو الله فقد كنت أنت أمامه فى عالم الذر حين خاطب الله الأرواح قائلا: (ألست بربكم؟)

والمراد (اجعله إماما) أى قدوة لك عملا بقول الرسول ﷺ: "تخلقوا بأخلاق الله" أو المراد اجعله أمامك اعبده كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وهذا هو مقام الإحسان.

(وصل صلاة العصر فى أول الفجر) يعنى عندما تلوح عليك بشائر الأنوار ويهزك كامن الشوق إليه، فاعرف أن عصرك قد حان، فاغتنم الفرصة وبادر وبكر، وشمر لتصل.

وهذا هو معنى (صل صلاة العصر فى أول الفجر) أى بكر فليس أبكر من الفجر.

(فهذه صلاة العارفين بربهم) أى الشهود لأنهم فى صلة بالله فى أى حال سواء كانوا نائمين أو يقظين، لأنهم فى الحضرة دائما.

تلك صلاة العارفين، أما صلاة غيرهم فهى الفرائض الخمسة.

(انضح البر بالتمر) امزج الحقيقة بالشريعة، فالبر هنا الشريعة والتمر الحقيقة.

* **المراد من أن ابن عربى ختمت به الولاية الكبرى**

وسئل الشيخ ﷺ عن المراد من أن سيدى محيى الدين بن عربى ختمت به الولاية الكبرى

فأجاب: إن المراد سلوكه كل مراتب الولاية الكبرى حتى أتى على آخرها، وتسنم أعلاها، وبذلك ختم الولاية أى أتم مراتبها وأكمل كل مراحلها ولعل ذلك كان فى عصره، وذلك لا يقصر الولاية عليه وحده دون غيره فى كل العصور، فكثير بعد محيى الدين نالوا الولاية الكبرى، ورحمة الله أوسع من أن تقصر الولاية على فرد و تمنعها عن الباقين.

* **إكرام الله لأوليائه فى أضرحتهم**

حدثنا رضوان الله عليه أن من وارداته (أن الله وكل بقبر كل ولى ملكا يقضى للناس حوائجهم، ألا وإن قبر الحسين ﷺ حوله سبعون ألف ملك يقضون للناس حوائجهم، ثم يغدون إذا انتهى اليوم ليحل محلهم فى اليوم الثانى غيرهم).

ثم قال رضوان الله عليه: (بل إن من الأولياء من يتولون بأنفسهم قضاء الحوائج فليس للروح حدود بل لها الإطلاق) ثم قال رضوان الله عليه أيضا: (إن الشيخ المحق يتولى وهو فى قبره من خلفه من بعده فإذ حار خليفته فى الإجابة عن سؤال أو أعوزته المعارف رأى روح شيخه قد تشكلت فى صورة طبق الأصل لشيخه وتلبس روحانية

الشيخ خليفته ويتحدث الشيخ وينطق على لسان خليفته بكل ما يريد، وكثيرا ما يكون الناطق فيهم هو الله سبحانه).

هذا وقد سمعنا منه رضوان الله عليه (أن كل ولى إذا زاره أى إنسان وهو فى قبره قضى الله حاجته، فإذا زاره ثانيا فى نفس اليوم فليس له شيء، أى أن الولى يقضى لكل زائر حاجة واحدة فى اليوم إلا سيدنا الحسين ﷺ فلو زرته فى اليوم مرات ومرات فلك فى كل مرة حاجة).

قد رئى لشيخنا القاضى ﷺ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى (أن الله يقضى لكل زائر له فى اليوم أربع حاجات وكل مرة تزوره لك حاجة إلى أربع حاجات فى اليوم الواحد).

فهذه ميزة له رضوان الله عليه.

* **(فــروق)**

من لا أول له ولا آخر (الله جل شأنه)، ومن له أول وليس له آخر (الروح) و(ملائكة العذاب والنعيم)، ومن له أول وآخر (الإنس والجن والحيوان والطير).

الألف: الذات، اللام: المخلوقات فى عالم التجريد يوم ألست بربكم، ولام ألف (لا): المخلوقات مع الإمدادات، فلولا الألف لما كانت اللام، والياء: الآخر، هو الأول والآخر.

* **الأرواح قبل خلق الأجسام وبعدها**

الأرواح قبل أن تدخل فى الأجسام كانت مجردة فى الصور، وهى فى الصور أيضا بعد الموت إلا أنها متصلة بالجسم وبما لها من نعيم أو عذاب لتوصل النعيم أو العذاب للجسم ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَام يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

فالصُور أسفله الجحيم وفيه أرواح الكفار وأعلاه الملكوت وفيه أرواح الصالحين، والصور باتساع الملك والملكوت.

* **لا إله إلا الله حصنى**

(لا إله إلا الله) حصن فيه الأمان من الطرد فى الدنيا والعذاب فى الآخرة.

"لا إله إلا الله حصنى فمن دخله أمن عذابى" رواه ابن عساكر عن على.

كل إنسان مركب من عقل ونفس وروح وفكر، وقلب وفؤاد وما عدا ذلك فهو للأرض.

* محمد ﷺ تجلى عليه مولاه بجميع الصفات، الرحمة له ولغيره والغضب والقهر لغيره.
* (أحون: نوحا) (أدم. حم =محمد) (ها= آه: اسم من أسماء الله) (آمين= استجب يا الله من القريب منك وهو محمد) (ن= يا حبيبى يا أحمد)، ناداه الله بهذا النداء تسلية له بعد أن افترى عليه قومه وقالوا له: يا مجنون، فالمقام مقام الدلال.
* الرسول ﷺ ليس له شمال فشماله يمين لأنه يرى من خلفه كما يرى من أمامه وكذلك الله - الحجر الأسود يمين الله فى الأرض- موسى كان غائبا فى الشهود فى قصته مع الخضر فكان غائبا بشهوده عن الأكوان، أما الخضر فكان مع الأكوان لا المكوِّن.
* إبليس من الجن وعلا بالعبادة إلى رتبة الملائكة فلما أمرت الملائكة بالسجود لآدم وهو معهم فشمله الأمر، فغلبت عليه نفسه باعتبار أصله فلم يسجد أما الملائكة فلأنهم أرواح محضة سجدوا.
* رؤية الله والنبى على أضرب، إما محصورة يراها الرائى فى مكان فذلك فى صورة الرائى أى الشخص فى مرآة الرب أو النبى ﷺ ومعناه أنه صلح للحضرة، أما رؤية الله والنبى بلا كيف فهى الحقيقة لله ولمحمد ﷺ.

* "صفات الله لا هى عينه ولا هى غيره": الصفة عين الموصوف أو غيره: الحق أنها لا عين ولا غير، مثال ذلك عندما تكون جالسا فى حجرة بها كوة دخلت منها أشعة الشمس فى الحجرة، وأنت جالس فيها هل تستطيع أن تقول: إنها هى الشمس أو تقول إنها هى غيرها فلا هى عينها ولا هى غيرها ولله المثل الأعلى.

* **المفردون والغوث**

المفردون أعلى من الغوث لأنهم خارجون عن حكمه والغوث مكانه ظهر الكعبة روحه أو جسمه.

* **سر يوم ألست بربكم**

سر يوم ألست بربكم فى أن القائل: (بلى) عنكم سواكم والمجيب عنكم غيركم، فرحلتم أنتم وبقى من لا يزال كما لم يزل أبد الآبدين ودهر الداهرين.

* **الديوان الباطنى**

الديوان الباطنى كان من الملائكة والجن، وأول من دخله من الإنس سيدنا الحسن ﷺ ثم عُمر بالآدميين، كلما ترقى من يصلح لدخوله دخله، وخلى عنه أحد الملائكة، والاجتماع دائما على ظهر الكعبة لأنها سرة الأرض ومهبط كل التنزلات.

* **توحيدات: نقلا عن شيخنا ﷺ**

١- الله أكبر عن أن يدرك كنهه أو ذاته أحد من المدركين.

٢- نالت على يدها ما لم تنله يدى *** حفظا على معصم أوهت به جلدى

نالت روحى على يد الذات ما لم ينله عملى.

٣- ما فى القلب من القرآن قبل أن ينطقه اللسان أثر تجليات صفة الكلام، فإذا نطق به اللسان كان مترجما لتجلى صفة الكلام.

٤ – كلام الله لموسى مستمر قبل وجوده، وأثناء وجوده وبعده لأن كلام الله لا ينقطع أزلا ولا أبدا، لأنه قديم ولا نهاية له.

*** من أفضل الصلوات على رسول الله**

أثير حديث عن أفضل الصلاة على رسول الله ﷺ فرأى مولانا القاضى ﷺ فيما يرى النائم من يملى عليه هذه الصيغة (اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد عبدك، عدد خلقك، ورضاء نفسك، وزنة عرشك، ومداد كلماتك) ثم قال الشيخ ﷺ حسبما عرف فى رؤياه: إنها أفضل من أى صيغة لأن عبدك أفضل من النبوة والرسالة، ولذا لم يقل بعد عبدك نبيك ورسولك.

وقد سأله بعض خلص مريديه أهى أفضل من:

(اللهم صل على سيدنا محمد النور الذاتى، والسر السارى سره فى جميع الأسماء والصفات).

وكان يعرفون حبه ﷺ للصيغة الأخيرة، وأنها بمائة ألف صلاة، فقال ﷺ إن العبودية فى قولنا فى الصيغة الأولى (محمد عبدك) أفضل من أى صيغة أخرى، ولكل ولى صيغة فى الصلاة على رسول الله ﷺ يمن بها عليه من الحضرة المحمدية، وغالبا تكون خاصة به، تناسب مقامه أو علمه به ﷺ، أو هى مفتاحه لتلك الحضرة – والله أعلم.

*** من أسرار الحروف الأبجدية**

"الألف" إشارة إلى الأحدية.

"الباء" رمز لمحمد ﷺ.

بقية الحروف إشارة للتنزلات على سيدنا محمد ﷺ ومنه للخلق.

"الياء" آخر الحروف الأبجدية إشارة إلى هو، وهى الذات.

والياء بحساب الجمل= ١٠ والألف بحساب الجمل=١ فيكون المجموع=١١ وهو=١١.

ومعنى ذلك أن الحروف تبدأ بالأحدية (الألف) إشارة إلى الذات وتختم (بالياء) التى تشير إلى (هو) والمراد الذات أيضا، أى أن الحروف الأبجدية تبدأ بالذات وتنتهى بالذات.

* آية جمعت حروف الهجاء

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

* مما يستحب للدعوات المستجابات

يستحب للدعوات المستجابات أن تكون بين الفجر وطلوع الشمس، لأن الله تعالى يقسم فيه الأرزاق، وينزل فيه البركات ويستجيب الدعوات، فلابد من ترك الغفلة فى تلك الساعة الشريفة، ولم يزل الصوفية المتأدبون يجتمعون على الذكر من بعد صلاة الصبح إلى وقت صلاة الإشراق، فللذكر فى هذا الوقت أثر عظيم فى النفوس وهو أولى من القراءة كما دل عليه قوله ﷺ: (ثم قعد يذكر الله).

ويكره اللغو من الكلام بعد انشقاق الفجر إلى طلوع الشمس، أو إلى ارتفاعها، وهو كمال العزيمة.

* **(اعلم أن النقباء ثلاثمائة، والنجباء سبعون، والأبدال أربعون، والأخيار سبعة، والعمد أربعة، والوزراء اثنان، والغوث واحد).**

فمسكن النقباء غالبا فى المغرب، والنجباء بمصر، والأبدال بالشام، والأخيار سياحون فى الأرض، والعمد فى زوايا الأرض، والغوث مسكنه مكة، فإذا عرض حاجة من أمر العامة، ابتهل فيها النقباء، ثم النجباء، ثم الأبدال، ثم الأخيار، ثم العمد، ثم الغوث فلا يتم الغوث مسألته، حتى تجاب دعوته.

* **(ثلاثة تعينك على قيام الليل: عدم ملء البطن من طعام حلال، والابتعاد عن اللغو فى الحديث، وعقد النية عند النوم).**

انتهت واردات شيخنا وعلومه ومعارفه ووصاياه.

تذييل

معـذرة عـن عـدم تقـديمى للكتـاب أولا، أو افتتـاحى لحضـرة صـاحب تلـك الخصائص.

وكان من اليمن أن الفاتح لحضرة شيخى ﷺ والمقدم لمدخلها فضيلة مولانا الإمام الأكبر (الدكتور عبد الحليم محمود) و(الدكتور حسن عباس زكى).

فما تقدما به أغنى عن افتتاحى، وما ألمعا به عن مقام شيخنا كفى عن تمهيدى.

وإنه لشرف لى رفيع، وقصد منهما بديع فى تقدمهما إياى حالين على كرم صاحب تلك الساحة ووافدين على حضرة صاحب هذه المكرمات، كى أنعم معهما ببره، ونحظى جميعا برفده، فأرجع إلى أبناء الطريق بما من به على شيخى – رضوان الله تعالى عليه– فأخبرهم بما رأيت منه قدر استطاعتى لمعرفة شخصه، وأترجم لهم عما وعيت لهم حسب استعدادى لخصائص وصفه.

وصراحة أقول: إنه ما كان لشخصى فى جمع ذلك وتدوينه من يد، ولا لعقلى فى إعداده وترتيبه من فضل فبما نفث فىَّ ﷺ أفصحت وأعلنت، وبما أمدنى أظهرت وأخرجت، فله عظيم الفضل على ما منح، وكبير اليد بما أعطى، وما أنا إلا ربيب نعمته، وعبد ولايته، "أنت ومالك لأبيك"[1] "العبد وما ملكت يداه لسيده".

فإذا أصاب ذلك الكتاب من القلوب مكانا أو حل فى العقول منزلة، أو أحدث فى النفوس إعجابا، فبنور الشيخ ﷺ نفذ إلى القلوب، وبمدده وصل إلى العقول، وبهمته ملك النفوس.

وإن وجدت –أيها القارئ– ضعفا فى التعبير أو أدركت قصورا فى التفكير، أو لمست عيبا فى التصوير، أو ظهر لك اختلال فى البيان، أو بدا نقص فى العرفان، أو

---

[1] رواه الإمام أحمد و البيهقى و ابن ماجه و الطبرانى

رأيت تفسيرا بغير ما كان، فمرجع ذلك إلى، إذ رداءة طبعى منعت حسن انطباعى، وكدورة نفسى حجبت سعة اطلاعى فعجزت عن الوصول وقصرت فى بلوغ المأمول، وإن قلة بضاعتى، وضعف حيلتى أقعدانى عن أمنيتى، وحالا دون رغبتى.

وهذا شأن ابن آدم وعجزه، وطبيعة الإنسان وضعفه، "كل ابن آدم خطاء"[1] ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨].، وحسبى حسن نيتى، وكافينى سلامة قصدى، "إنما الأعمال بالنيات" "ونية المرء خير من عمله".

والله أسأل متوسلا بجاهه إليه قبول العمل، وبلوغ القصد إنه بكل فضل جدير وبالإجابة قدير إنه نعم المولى، ونعم النصير.

---

[1] من حديث أنس بن مالك ﷺ رواه البيهقى فى شعب الإيمان والإمام أحمد فى مسنده

شكر وتقدير

أحمد الله ربى صاحب الحمد كله، وأشكره على ما جاد به من منه بتوفيقه لى، وتيسيره فى إخراج ما وسعنى جمعه، وإبراز ما استطعت وعيه، وترجمة ما أمكننى فهمه، عن خصائص تلك الشخصية الفذة فى عالم العلم، والجوهرة النادرة فى محيطات العرفان، والقائد الرشيد فى ميدان العمل الشرعى، وساحة التصوف الحقيقى، مولاى وسيدى وشيخى (فضيلة الشيخ عبد الفتاح القاضى) ولعلى أكون قد ألمحت ببعض خصائصه، وأدركت بعض مميزاته وشمائله، أما عن حقيقته ومكانته، وأسراره وعلومه، فلا يحيط بها إنسان و لا يستطيع أن يعبر عنها بأى بيان، فلا يعرفه إلا مولاه وسيده الذى رباه ﷺ" لا يعرفنى غير خالقى"، راجيا بذلك وجه الله وحده، ورضا صاحب النعمة على شيخى ﷺ آملا أن أكون قد قمت بعشر معشار ما له من يد على، و راغبا فى نفع إخوانى وكل محب لطريق القوم بنشر ذلك التراث، وإماطة اللثام عن تلكم الآثار، لعل فيها الهدى والاستبصار ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

وليعلم القارئ أن ما سطر فى هذا الكتاب لم يكن تدبيج يراع، أو نسيج أفكار أو تصوير خيال، أو نتاجا لمجهود عقل بشرى، أو محصولا لمجموع ما استوعبه الإنسان من علوم وأفكار، إنما كل ما أثبته عن شيخى ﷺ ما هو إلا بعض ما أحاط به علمى، ووعاه قلبى، من بيان لنوع عبادة رأيتها منه فى حياته، أو أدب صوفى سنى تأدب به فى خلواته وجلواته، أو خلق كريم ومعاملة حسنة تحلى بهما فى كل أوقاته، أو مقال إلهامى أفاض به، أو توجيه شرعى دأب على تمكينه فى نفوس أبنائه وجلاسه، أو دعوة إلى عمل قلبى ومراقبة العبد ربه فى كل حالاته، أو إرشاد إلى أدب فى معاش أو دين، عرفت ذلك كله بطول ملازمتى له، وما ذكرته عن شخصه فى مختلف أطوار حياته كان منه مشافهة لى، ومن الثقاة الذين عاشروه.

وهـذا جهـد المقـل، ونهايـة عمـل العبـد الضـعيف الموصـوف بـالعجز والنقصـان، فالكمـال المطلـق لله وحـده، وذروة مـا يصـل إليـه الكمـال البشـرى العصـمة لأصـحاب الوحى المشرعين والحفظ لذوى الإلهام المؤيدين.

نسأل الله بمنه التأييد والتسديد (رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبى) فبحمد الله ما زالت نفسى راضية، وصدرى منشرح، لكل من دلنى على نقص وتقصير، أو تقديم وتأخير، أو تغيير وتبديل، فيما نشر من ذلك الكتاب، فعسى أن يمن الجواد الكريم بإخراجه ثانيا فأتلافى الخطأ وأنحو الصواب، إنه بفضله المنعم الوهاب، ويشرفنى من يأتى عارضا ما بدا له.

وجزى الله خيرا كل من أسهم فى إبرازه أو شارك فى جمعه وإخراجه أو ساعد على نشره وتعميمه، وأخص بالشكر الكبير والثناء الأعظم مولانا فضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر غزالى وقته وسلفى عصره فضيلة الدكتور (عبد الحليم محمود) فله فضل الإرشاد والإعداد وعظيم السبق المشهود.

ولا أنسى خبير الاقتصاد العالمى الصوفى، موضع ثقة جميع العالم العربى الدكتور (حسن عباس زكى) فله فى هذا كبير الولاية وعظيم الرعاية وموفور البذل، هذا فضلا عن رأيه الصائب بيننا، وتوجيهه الرشيد لنا الدالين على صادق إلهامه، وما له عند الله من عناية ومكانة.

وأيضا العالم العارف بالله حجة زمانه فى السنة المحمدية فضيلة مولانا الشيخ (الحافظ التيجانى) فله سنى العمل فى تخريج أحاديث سيد البشر، وأيضا الأستاذ (محمود طعيمة) رجل الأدب والحياء صاحب الهمة النافذة والانفعالات الصادقة فله محمود السعى ومشكور الجهد.

وكذا جميع إخوانى الذين أمدونى بما لديهم من أقوال وآداب ومأثورات، أو إرشادات اختصهم بها شيخهم، فلهم جميعا جميل الفعل، وعظيم الفضل وأخص منهم أخى الكبير كريم السجية، صاحب السريرة النقية الأستاذ الشيخ (جودة قاسم) فقد

لازمنى فى هذا الكتاب من أول خط فيه وفى كل مراحله فله من شيخه الرضا ومن المولى الجزاء.

ولا يفوتنى أن أنوه معترفا بالجميل لأهل بيت شيخى الكريم مقرا لهم بالفضل، راجيا منهم الرضا فقد زودونى بآداب ومقولات لوالدهم، وما كان يتحلى به من كريم الشمائل، وأفضل العادات فى فريد الأوقات لا سيما فى الخلوات.

وأخص أخى الأستاذ النبيل صاحب الوجه السمح والخلق الكريم السيد (سليمان القاضى) فقد شارك بقلمه الرفيع وتنظيمه البديع وبيانه البليغ.

شكر الله للجميع خالص عملهم وكريم قصدهم، وجزاهم الله عنى خيرا، وعن كل مسلم تزود بهذا الكتاب أو انتفع، أو اهتدى بأدبه وارتشد، والساعى فى الخير كفاعله، والله ولى التوفيق، وهو حسبى ونعم الوكيل فنعم المولى ونعم النصير.

(تم بحمد الله و حسن توفيقه)

الفهرس

مراتب النفس

مقدمة آداب المريد

مجالس الشيخ

معاملاته مع سائر الناس

الاحتفال بالمولد النبوي الشريف

سجود الغفلة

القسم الرابع
شمائله و صفاته :

مكانة الشيخ فى طريق الله

القسم الخامس

ابتلاءاته

اخريات حياته

القسم السادس

كراماته وآثاره

القسم السابع

معارفه وارداته

قسم التفسير